THE BOOK WAS DRENCHED

TIGHT BINDING BOOK

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190505

UNIVERSAL
LIBRARY

كتاب

علم الأدب

مقالات

لمشاهير العرب

على الجزء الثاني

علم الأدب

جمع الاب لويس شيخو اليسوعي

حق الطبع محفوظ للمطبعة

في مطبعة الاباء المرسلين اليسوعيين
ببيروت سنة ١٨٨٩

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No. ٨٩٢٥٧٤٨ ع ش ل Accession No ١٨١٢١

Author شيخو، لويس اليسوعي

Title علم الادب: حقائق لمشاهير الكتاب

This book should be returned on or before the date last marked below.

كتاب

علم الأدب

مقالات

لمشاهير العرب

على الجزء الثاني

من

علم الأدب

جمع الاب لويس شيخو اليسوعي

حق الطبع محفوظ للمطبعة

طبع في مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين

بيروت سنة ١٨٨٩

مقالات

لبعض مشاهير كتاب العرب

في الخطابة والشعر

القسم الأول

في علم الخطابة

الفصل الاول

في تعريف الخطابة واقسامها ومنافعها

البحث الاول

في تحديد الخطابة وما تشتمل عليه بوجه الاجمال

(عن كليات ابي البقاء ومقدمة ابن خلدون ورسائل ابن سينا)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْخَطَابَةُ فِي اللُّغَةِ كَالْخِطَابِ وَهِيَ اَلْكَلِمَةُ اَوِ اللَّفْظُ اَلْمُتَوَاضَعُ عَلَيْهِ اَلْمَقْصُودُ بِهِ اِفْهَامُ مَنْ هُوَ مُتَهَيِّئٌ لِفَهْمِهِ وَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى اَلْكَلَامِ اَلنَّفْسِيِّ اَلْمُوَجَّهِ نَحْوَ اَلْغَيْرِ لِلْاِفْهَامِ . وَعِنْدَ اَلْحُكَمَاءِ اَلْخَطَابَةُ هِيَ اَلْقِيَاسُ اَلْمُفِيدُ تَرْغِيبَ اَلْجُمْهُورِ وَحَمْلَهُمْ عَلَى اَلْمُرَادِ مِنْهُمْ وَمَا يَجِبُ اَنْ

يُستعمَل في ذلك من المقالات. ولما ظهر ارسطو في يونان وهذّب مباحث المنطق ورتّب مسائله وفصوله وجعله اوّل العلوم الحكميّة وفاتحتها جعل الخطابة احد اقسامه الثمانية. وهذه الاقسام تشتمل على ثمانية كتب اربعةٌ منها في صورة القياس وهي كتب المقولات والعبارة والقياس والبرهان واربعةٌ في مادّته وهي كتب الجدل والسفسطة والخطابة والشعر. وذلك انّ المطالب التصديقيّة على انحاء فمنها ما يكون المطلوب فيه اليقين بطبعه وهو تشتمل عليه الكتب الاربعة الاولى. ومنها ما يكون المطلوب فيه الظنّ وهذا تشتمل عليه الكتب الاربعة الاخرى. وفيها تدخل الخطابة. وتُرجمت كلّها في الملّة الاسلاميّة وكتبها وتداولها فلاسفة الاسلام بالشرح والتلخيص كما فعله الفارابي وابن سينا ثمّ ابن رشد من فلاسفة الاندلس. ولابن سينا كتاب الشفاء استوعب فيه علوم الفلسفة كلّها. ثمّ جاء المتاخرون فغيّروا اصطلاح المنطق وحصروا مطالبه في كتب خمسة البرهان والجدل والخطابة والشعر والسفسطة وربّما يلمّ بعضهم بالتيسير منها الماما واغفلوها كان لم تكن هي الملهم المعتمد في الفنّ. واما الذي يشتمل عليه كتاب الخطابة فهو تعريف القابيس الخطابيّة البلاغيّة النافعة في مخاطبات الجمهور على سبيل المشاورات والمحاصمات في المشاجرات او المدح او الذمّ او الحيل النافعة في الاستعطاف والاستمالة والاغراء وتصغير الامر وتعظيمه ووجوه المعاذير والمعاتبات ووجوه ترتيب الكلام في كلّ قصّة وخطبة

البحث الثاني

في تعريف الخطابة وموضوعها

(من تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع صفحة ٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قَالَ) اَلْخَطَابَةُ هِيَ قُوَّةٌ تَتَكَلَّفُ اَلْاِقْنَاعَ اَلْمُمْكِنَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ اَلْاَشْيَاءِ اَلْمُفْرَدَةِ . وَنَعْنِي (بِاَلْقُوَّةِ) اَلصِّنَاعَةَ اَلَّتِي تَفْعَلُ فِي اَلْمُتَقَابِلَيْنِ . وَلَيْسَ تَتْبَعُ غَايَتُهَا فِعْلَهَا ضَرُورَةً . وَنَعْنِي (بِتَتَكَلَّفُ) اَيْ تَبْذُلُ مَجْهُودَهَا فِي اَسْتِقْصَاءِ فِعْلِ اَلْاِقْنَاعِ اَلْمُمْكِنِ فِي ذٰلِكَ اَلشَّيْءِ اَلَّذِي فِيهِ اَلْقَوْلُ وَذٰلِكَ يَكُونُ بِغَايَةِ مَا يُمْكِنُ فِيهِ . وَنَعْنِي بِقَوْلِهِ : (فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ اَلْاَشْيَاءِ اَلْمُفْرَدَةِ) اَيْ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ اَلْاَشْيَاءِ اَلْمُفْرَدَةِ اَلْمَوْجُودَةِ فِي مَقُولَةٍ مِنَ اَلْمَقُولَاتِ اَلْعَشْرِ (١) . وَهٰذَا هُوَ اَلْفَصْلُ اَلَّذِي تَنْفَصِلُ بِهِ هٰذِهِ اَلصِّنَاعَةُ عَنْ سَائِرِ اَلصَّنَائِعِ اَلَّتِي يُظَنُّ اَنَّهَا قَدْ تُقْنِعُ فِي اَلْاُمُورِ اَلَّتِي تَنْظُرُ فِيهَا . وَذٰلِكَ اَنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ اِنَّمَا هِيَ مُعَلِّمَةٌ اَيْ مُبَرْهِنَةٌ وَمُقْنِعَةٌ فِي اَلْجِنْسِ اَلَّذِي تَنْظُرُ فِيهِ لَا فِي جَمِيعِ اَلْاَجْنَاسِ . مِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّ اَلطِّبَّ اِنَّمَا يُعَلِّمُ عَلَى طَرِيقِ

---

(١) المقولة لغةً المفعول من القول والتاء للمبالغة بمعنى الملفوظ وهي في اصطلاح الحكماء ما جاء عنهُ القول وأبرز فيهِ الحكم من الاجناس العالية المجردة من المحسوسات التي ليس فوقها جنس . والمقولات عشر : الجوهر والكم والكيف والاضافة والفعل والانفعال (ويقال لهما يفعل وينفعل) والزمان والمكان (ويقال لهما متى واين) والهيئة والوضع (ويقال لهما ان يكون لهُ والموضوع)

ٱلْبُرْهَانِ وَيُقْنِعُ فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلْمَرَضِ وَفِي أَنْوَاعِهِمَا . وَكَذٰلِكَ ٱلْهَنْدَسَةُ إِنَّمَا تُعْلَمُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْبُرْهَانِ وَعَلَى طَرِيقِ ٱلْإِقْنَاعِ فِي ٱلْأَعْظَامِ وَٱلْأَشْكَالِ ٱلَّتِي تُوجَدُ فِي ٱلْأَجْسَامِ . وَأَمَّا ٱلْخَطَابَةُ فَهِيَ تَتَكَلَّفُ ٱلْإِقْنَاعَ فِي جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ فِي أَيِّ مَقُولَةٍ كَانَتْ وَأَيِّ جِنْسٍ كَانَ وَلِذٰلِكَ لَيْسَ تُنْسَبُ إِلَى جِنْسٍ خَاصٍّ

البحث الثالث

في المناسبة الموجودة بين الجدل والخطابة

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(قَالَ) إِنَّ صِنَاعَةَ ٱلْخَطَابَةِ تُنَاسِبُ صِنَاعَةَ ٱلْجَدَلِ . وَذٰلِكَ أَنَّ كِلَيْهِمَا يَؤُمَّانِ غَايَةً وَاحِدَةً وَهِيَ مُخَاطَبَةُ ٱلْغَيْرِ إِذْ كَانَتْ هَاتَانِ ٱلصِّنَاعَتَانِ لَيْسَ يَسْتَعْمِلُهُمَا ٱلْإِنْسَانُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ كَٱلْحَالِ فِي صِنَاعَةِ ٱلْبُرْهَانِ بَلْ إِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُمَا مَعَ ٱلْغَيْرِ وَتَشْتَرِكَانِ بِنَحْوٍ مِنَ ٱلْأَنْحَاءِ فِي مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ إِذْ كَانَ كِلَاهُمَا يَتَعَاطَى ٱلنَّظَرَ فِي جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ وَيُوجَدُ ٱسْتِعْمَالُهُمَا مُشْتَرَكًا لِلْجَمِيعِ أَعْنِي كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ يَسْتَعْمِلُ بِٱلطَّبْعِ ٱلْأَقَاوِيلَ ٱلْجَدَلِيَّةَ وَٱلْأَقَاوِيلَ ٱلْخُطَبِيَّةَ . وَإِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِأَنَّهُ لَيْسَتْ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا عِلْمًا مِنَ ٱلْعُلُومِ مُفْرَدًا بِذَاتِهِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْعُلُومَ لَهَا مَوْضُوعَاتٌ خَاصَّةٌ وَيَسْتَعْمِلُهَا أَصْنَافٌ مِنَ ٱلنَّاسِ خَاصَّةٌ . وَلٰكِنْ مِنْ جِهَةِ أَنَّ هٰذَيْنِ (أَيِ ٱلْخَطَابَةَ وَٱلْجَدَلَ) يَنْظُرَانِ فِي جَمِيعِ ٱلْمَوْجُودَاتِ وَجَمِيعُ ٱلْعُلُومِ تَنْظُرُ فِي جَمِيعِ ٱلْمَوْجُودَاتِ فَقَدْ

تُوجَدُ جَمِيعُ ٱلْعُلُومِ مُشَارِكَةً لَهُمَا بِنَحْوٍ مَا . وَإِذَا كَانَتْ هَاتَانِ ٱلصِّنَاعَتَانِ مُشْتَرَكَتَيْنِ فَقَدْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ٱلنَّظَرُ فِيهِمَا لِصِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ صِنَاعَةُ ٱلْمَنْطِقِ

البحث الرابع

في ان الخطابة تتحرَّى للتصديق اكثر منها للتأثير

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد بتصرُّف)

(راجع صفحة ٦ من الجزء الثاني من علم الادب)

وَرَأَى مَنْ رَأَى أَنَّ ٱسْتِعْمَالَ جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي لَهَا تَأْثِيرٌ فِي ٱلتَّصْدِيقِ فِي تَثْبِيتِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُرَادُ تَثْبِيتُهَا بِطَرِيقِ ٱلْخَطَابَةِ هُوَ ٱلصَّوَابُ . وَخَلِيقٌ إِنِ ٱسْتَعْمَلَ أَحَدٌ هٰذَا أَنْ يَكُونَ بِٱسْتِعْمَالِهِ بَصِيرًا فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لَبِيبًا أَدِيبًا . وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ لَيْسَ لَهَا كَبِيرُ جَدْوَى فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنَّ ٱلَّذِي يَرُومُ أَنْ يُثْبِتَ شَيْئًا بَيْنَ يَدَيِ ٱلْحُكَّامِ فَهُوَ إِمَّا أَنْ يُثْبِتَ أَنَّ ٱلشَّيْءَ مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ فَقَطْ أَعْنِي أَنَّهُ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ. وَذٰلِكَ إِذَا حَدَّدَ صَاحِبُ ٱلشَّرِيعَةِ أَنَّ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلشَّكْوَى عَظِيمٌ أَوْ يَسِيرٌ وَأَنَّهُ عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ . وَإِمَّا أَنْ يُثْبِتَ ٱلْأَمْرَيْنِ وَذٰلِكَ إِذَا لَمْ تُحَدِّدِ ٱلشَّرِيعَةُ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْكَلَامُ . فَأَمَّا ٱسْتِعْمَالُ ٱلِٱنْفِعَالَاتِ فِي تَثْبِيتِ أَنَّ ٱلْأَمْرَ جَوْرٌ أَوْ عَدْلٌ فَغَيْرُ مُمْكِنٍ . وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلِٱنْفِعَالَ بِٱلرَّحْمَةِ أَوِ ٱلْبُغْضَةِ إِنَّمَا يَكُونُ لِشَيْءٍ جُزْئِيٍّ وَٱلْعَدْلُ

وَٱلْجَوْرُ أُمُورٌ كُلِّيَّةٌ. وَأَمَّا ٱسْتِعْمَالُهَا فِي أَنَّ ٱلْأَمْرَ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ فَلَهُ فِي ذٰلِكَ تَأْثِيرٌ لٰكِنَّهُ لَيْسَ يُوجِبُ أَنَّ ٱلْأَمْرَ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ بِٱلذَّاتِ بَلْ إِنَّمَا يُمِيلُ ٱلْحُكَّامَ إِلَى أَنْ يَقُولُوا إِنَّهُ صَدَقَ فِيمَا ٱدَّعَى أَوْ لَمْ يَصْدُقْ وَمِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْدُثَ لِلْحَاكِمِ أَوِ ٱلْمُنَاظِرِ بِذٰلِكَ تَصْدِيقٌ زَائِدٌ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْكَلَامُ

(قَالَ) وَقَدْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ ٱلسُّنَنُ هِيَ ٱلَّتِي تُحَدِّدُ أَنَّ ٱلْأَمْرَ جَوْرٌ أَوْ عَدْلٌ وَتُفَوِّضُ أَنَّ ٱلْأَمْرَ وُجِدَ مِنْ هٰذَا ٱلشَّخْصِ أَوْ لَمْ يُوجَدْ إِلَى ٱلْحُكَّامِ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَتُفَوِّضُ إِلَيْهِمِ ٱلْأُمُورَ ٱلْيَسِيرَةَ وَذٰلِكَ لِشَيْئَيْنِ: (ٱلْأَوَّلُ) أَنَّهُ قَلَّ مَا يُوجَدُ حَاكِمٌ يَقْدِرُ أَنْ يُمَيِّزَ ٱلْأُمُورَ عَلَى كُنْهِهَا فَيَضَعَ أَنَّ هٰذَا ٱلْأَمْرَ جَوْرٌ وَهٰذَا عَدْلٌ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ مِنَ ٱلزَّمَانِ وَأَكْثَرُ ٱلْحُكَّامِ ٱلْمَوْجُودِينَ فِي ٱلْمُدُنِ لَيْسَ لَهُمْ هٰذِهِ ٱلْقُدْرَةُ. (وَٱلثَّانِي) فَلِأَنَّ ٱلْوُقُوفَ عَلَى أَنَّ ٱلشَّيْءَ عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ يَحْتَاجُ فِيهِ وَاضِعُ ٱلسُّنَنِ إِلَى زَمَانٍ طَوِيلٍ وَذٰلِكَ لَا يُمْكِنُ فِي ٱلزَّمَانِ ٱلْيَسِيرِ ٱلَّذِي يَقَعُ فِيهِ ٱلتَّنَاظُرُ فِي ٱلشَّيْءِ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْحُكَّامِ فَلِمَكَانِ هٰذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ يَصْعُبُ أَنْ يُفَوَّضَ إِلَى ٱلْحُكَّامِ أَنَّ هٰذَا ٱلْأَمْرَ عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ نَافِعٌ أَوْ ضَارٌّ بَلْ إِنَّمَا يُفَوَّضُ إِلَيْهِمْ أَنَّ ٱلْأَمْرَ وَقَعَ مِنْ هٰذَا ٱلشَّخْصِ أَوْ لَمْ يَقَعْ وَذٰلِكَ لِبَيَانِهِ وَلِأَنَّهُ أَمْرٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَضَعَهُ صَاحِبُ ٱلسُّنَّةِ

البحث الخامس

في فوائد علم الخطابة

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد بتصرف)

(راجع صفحة ٧ من الجزء الثاني من علم الادب).

(قال) وللخطابة منفعتان احداهما ان يحث الخطيب المدنيين على الاعمال الفاضلة. وذلك انهم بالطبع يميلون الى ضد الفضائل العادلة فاذا لم يضبطوا بالاقاويل الخطبية غلبت عليهم اضداد الافعال العادلة. وذلك شيء مذموم يستحق فاعله التأنيب والتوبيخ اعني الذي يميل الى ضد الافعال العادلة او المدبر الذي لا يضبط المدنيين بالاقاويل الخطبية على الفضائل العادلة التي هي فضائل بين الانسان وبين غيره اعني بينه وبين المشارك له في اي شيء كانت الشركة لا بينه وبين نفسه. (والمنفعة الثانية) انه ليس كل صنف من اصناف الناس ينبغي ان يستعمل معهم البرهان في الاشياء النظرية التي يراد منهم اعتقادها. وذلك اما لان الانسان قد نشأ على مشهورات تخالف الحق فاذا سلك به نحو الاشياء التي نشأ عليها سهل اقناعه. واما لان فطرته ليست معدة لقبول البرهان اصلا. واما لانه لا يمكن بيانه له في ذلك الزمان اليسير الذي يراد منه وقوع التصديق فيه. فلهذا قد نضطر الى ان نحصل التصديق بالمقدمات المشتركة بيننا وبين المخاطب اعني

بِالْمَحْمُودَاتِ. وَهٰذِهِ الْمَنْفَعَةُ تُشَارِكُ هٰذِهِ الصِّنَاعَةُ فِيهَا صِنَاعَةَ الْجَدَلِ كَمَا ذَكَرْنَا ذٰلِكَ فِي كِتَابِ الْجَدَلِ. وَهٰذِهِ الصِّنَاعَةُ يُمْكِنُهَا الْإِقْنَاعُ فِي الْمُتَضَادَّيْنِ جَمِيعًا كَمَا يُمْكِنُ ذٰلِكَ فِي الْقِيَاسِ الْجَدَلِيِّ. وَذٰلِكَ أَنَّا قَدْ نُقْنِعُ فِي الْجَانِي أَنَّهُ أَسَاءَ وَأَنَّهُ لَمْ يُسِئْ وَلَسْتُ أَعْنِي أَنَّا نَفْعَلُ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ بَلْ نَفْعَلُ هٰذَا فِي وَقْتٍ وَهٰذَا فِي وَقْتٍ بِحَسَبِ الْأَنْفَعِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ كَثِيرًا مَا يَكُونُ الشَّيْءُ نَافِعًا فِي وَقْتٍ وَضِدُّهُ نَافِعًا فِي وَقْتٍ آخَرَ. وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي تُثَبِّتُ الشَّيْءَ وَضِدَّهُ عِنْدَنَا عَتِيدَةً وَسِعْنَا مُتَكَلِّمًا قَدْ أَقْنَعَ فِي الضِّدِّ الَّذِي لَيْسَ بِعَدْلٍ أَمْكَنَنَا بِهٰذِهِ الْقُوَّةِ أَنْ نَنْقُضَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ. فَهَاتَانِ الْمَنْفَعَتَانِ مَوْجُودَتَانِ فِي الْقُدْرَةِ الَّتِي فِي هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ عَلَى الْإِقْنَاعِ فِي شَيْءٍ مِنَ الصَّنَائِعِ الْقِيَاسِيَّةِ إِلَّا فِي هَاتَيْنِ الصِّنَاعَتَيْنِ هُمَا مُهَيَّأَتَانِ بِالطَّبْعِ وَعَلَى السَّوَاءِ لِلْإِقْنَاعِ فِي كِلَا الْمُتَقَابِلَيْنِ. أَعْنِي أَنَّهُ لَيْسَ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا تُوجَدُ أَشَدَّ اسْتِعْدَادًا لِلْإِقْنَاعِ فِي أَحَدِ الْمُتَقَابِلَيْنِ مِنْهَا فِي الْآخَرِ بَلِ الْإِسْتِعْدَادُ الْمَوْجُودُ فِيهَا عَلَى الْإِقْنَاعِ فِي الْمُتَقَابِلَيْنِ هُوَ عَلَى السَّوَاءِ. فَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الْمَوْضُوعَةُ لِهَاتَيْنِ الصِّنَاعَتَيْنِ أَعْنِي الْأَشْيَاءَ الَّتِي فِيهَا تُقْنِعُ فَلَيْسَ اسْتِعْدَادُهَا لِقَبُولِ الْإِقْنَاعِ عَلَى السَّوَاءِ لٰكِنْ إِذَا كَانَتِ الْأُمُورُ الَّتِي تُقْنِعُ فِيهَا صَادِقَةً كَانَتِ الْأَقَاوِيلُ الْخُطْبِيَّةُ وَالْجَدَلِيَّةُ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِيهَا أَفْضَلَ وَأَبْلَغَ... فَقَدِ اسْتَبَانَ مِنْ هٰذَا أَنَّ هٰذِهِ الصِّنَاعَةَ لَيْسَ تَنْظُرُ فِي أَحَدِ الْمُتَقَابِلَيْنِ وَلٰكِنَّهَا تَنْظُرُ فِيهِمَا عَلَى السَّوَاءِ كَالْحَالِ فِي الْجَدَلِ وَأَنَّهَا نَافِعَةٌ لِهٰذَا جِدًّا. وَلَيْسَ عَمَلُ

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ ٱنْ تُقْنِعَ وَلَا بُدَّ ، اَعْنِي اَنَّهُ لَيْسَ يَتْبَعُ فِعْلَهَا ٱلْاِقْنَاعُ ضَرُورَةً كَمَا يَتْبَعُ فِعْلَ ٱلنَّجَّارِ وُجُودُ ٱلْكُرْسِيِّ ضَرُورَةً اِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ عَائِقٌ مِنْ خَارِجٍ بَلْ عَمَلُهَا هُوَ اَنْ تُعَرِّفَ جَمِيعَ ٱلْمُقْنِعَاتِ فِي ٱلشَّيْءِ وَتَأْتِيَ بِهَا فِي ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ وَاِنْ لَمْ يَقَعِ اِقْنَاعٌ . وَٱلْحَالُ فِيهَا فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى كَٱلْحَالِ فِي صِنَاعَاتٍ كَثِيرَةٍ مِثْلِ صِنَاعَةِ ٱلطِّبِّ فَاِنَّهُ لَيْسَ فِعْلُهَا ٱلْاِبْرَاءَ وَلَا بُدَّ . بَلْ اِنَّمَا فِعْلُهَا اَنْ تَبْلُغَ مِنْ ذٰلِكَ غَايَةَ ٱلشَّيْءِ ٱلْمُمْكِنِ فِعْلُهُ فِي ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ بِٱلْاِبْرَاءِ . وَلِذٰلِكَ قَدْ يُشَارِكُ فِي اَفْعَالِ هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ مَنْ لَيْسَ مِنْ اَهْلِهَا مِثْلَ اَنْ يُبْرِئَ مَنْ لَيْسَ بِطَبِيبٍ وَيُقْنِعَ مَنْ لَيْسَ بِخَطِيبٍ لٰكِنَّ ٱلْفِعْلَ ٱلْحَقِيقِيَّ اِنَّمَا هُوَ لِصَاحِبِ ٱلصِّنَاعَةِ . وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْغَايَةَ تَتْبَعُ فِعْلَ هٰذَا عَلَى ٱلْاَكْثَرِ وَذٰلِكَ عَلَى ٱلْاَقَلِّ . وَكَمَا اَنَّ فِي ٱلْجَدَلِ مَا هُوَ قِيَاسٌ وَمَا يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ قِيَاسٌ وَلَيْسَ بِقِيَاسٍ وَهُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلسُّوفِسْطَائِيُّ كَذٰلِكَ فِي ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْمُقْنِعَةِ ٱلْمُسْتَعْمَلَةِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مَا هُوَ مُقْنِعٌ وَمَا يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ مُقْنِعٌ مِنْ غَيْرِ اَنْ يَكُونَ كَذٰلِكَ . لٰكِنْ لَمَّا كَانَ ٱلسُّوفِسْطَائِيُّ لَيْسَ اِنَّمَا يَكُونُ سُوفِسْطَائِيًّا مِنْ قِبَلِ ٱلْقُوَّةِ وَٱلْمَلَكَةِ ٱلَّتِي بِهَا يَفْعَلُ ٱلْاَقَاوِيلَ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّةَ بَلْ اِنَّمَا هُوَ سُوفِسْطَائِيٌّ مِنْ قِبَلِ مَا يَقْصِدُهُ بِتِلْكَ ٱلْاَقَاوِيلِ مِنَ ٱلْكَرَامَةِ وَٱلْخَيْرَاتِ ٱلْخَارِجَةِ وَذٰلِكَ لِاِيهَامِهِ اَنَّهُ حَكِيمٌ وَكَانَ ٱلْجَدَلِيُّ اِنَّمَا هُوَ جَدَلِيٌّ بِٱلْمَلَكَةِ ٱلْحَاصِلَةِ لَهُ عَنِ ٱلصِّنَاعَةِ فَبِٱلْوَاجِبِ لَمْ تَكُنِ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّةُ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ اَعْنِي ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا اَنَّهَا مَقَايِيسُ جَدَلِيَّةٌ مِنْ غَيْرِ اَنْ تَكُونَ جَدَلِيَّةً

اِذَا اُسْتُعْمِلَتْ نَحْوَ هٰذِهِ ٱلْغَايَةِ . وَاَمَّا اِذَا اُسْتُعْمِلَتْ عَلَى طَرِيقِ ٱلْاِمْتِحَانِ فَهِيَ جُزْءٌ مِنْهَا . وَاَمَّا ٱلْخَطِيبُ فَلَمَّا كَانَ خَطِيبًا مِنْ اَجْلِ ٱلْاُمُورِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ مِثْلَ ٱلْكَرَامَةِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ سَائِرِ ٱلْخَيْرَاتِ اَوْ مِنْ قِبَلِ مَلَكَةِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ كَانَتِ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا اَنَّهَا مُقْنِعَةٌ وَلَيْسَتْ بِمُقْنِعَةٍ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ . لِاَنَّ ٱلْمَقْصُودَ بِهٰذِهِ ٱلْاَقَاوِيلِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ قَدْ يَكُونُ بِعَيْنِهِ مَقْصُودَ ٱلسُّوفِسْطَائِيِّ . وَاِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلْمَقْصُودَ بِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنَ ٱلَّذِي يُرَادُ اِقْنَاعُهُ اِنَّمَا هُوَ ٱلْفِعْلُ اَوِ ٱلْاِنْفِعَالُ فَاِذَا حَصَلَ ذٰلِكَ مِنْهُ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ اَنْ يَكُونَ حُصُولُهُ عَنْ اَقَاوِيلَ هِيَ مُقْنِعَةٌ فِي ٱلْحَقِيقَةِ اَوْ عَنْ اَقَاوِيلَ يُظَنُّ بِهَا اَنَّهَا مُقْنِعَةٌ وَلَيْسَتْ بِمُقْنِعَةٍ . فَاِنْ كَانَ هٰذَا ٱلْفِعْلُ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْمُخَاطَبِ اَوِ ٱلْاِنْفِعَالُ خَيْرًا مَا لَهُ لَا لِلْخَطِيبِ كَانَتِ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا اَنَّهَا مُقْنِعَةٌ وَلَيْسَتْ بِمُقْنِعَةٍ دَاخِلَةً فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ بِٱلْجِهَةِ ٱلَّتِي دَخَلَتْ فِي صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا اَنَّهَا جَدَلِيَّةٌ اِذْ لَمْ يُقْصَدْ بِهَا مَقْصَدُ ٱلسَّفْسَطَةِ. وَاِنْ كَانَ مَقْصَدُ ٱلْخَطِيبِ خَيْرًا يَنَالُهُ مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي يَقْصِدُهَا ٱلسُّوفِسْطَائِيُّونَ كَانَ ٱلْقَوْلُ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ مُقْنِعٌ وَلَيْسَ بِمُقْنِعٍ مِنْ جِهَةِ مَا هُوَ سُوفِسْطَائِيٌّ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اِذْ قَدْ يُشَارِكُ ٱلْخَطِيبُ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّ فِي غَايَتِهِ . فَلِذٰلِكَ قَدْ تَدْخُلُ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّةُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَلَا تَدْخُلُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ

البحث السادس

في ان الخطابة صناعة اصلها في طبع الانسان

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع صفحة ٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ يُوجَدُ مُسْتَعِيلًا لِنَحْوٍ مَا مِنْ اَنْحَاءِ ٱلْبَلَاغَةِ وَمُنْتَهِيًا مِنْهَا اِلَى مِقْدَارٍ مَا وَذٰلِكَ فِي صِنْفَيِ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱللَّذَيْنِ احَدُهُمَا ٱلْمُنَاظَرَةُ وَٱلثَّانِي ٱلتَّعْلِيمُ وَٱلْاِرْشَادُ . وَاَكْثَرُ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَوْضُوعَاتِ ٱلْخَاصَّةِ بِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَهِيَ مِثْلُ ٱلشِّكَايَةِ وَٱلْاِعْتِذَارِ وَسَائِرِ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلَّتِي فِي ٱلْاُمُورِ ٱلْجُزْئِيَّةِ . وَيُوجَدُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَبْلُغُونَ مَقْصُودَهُمْ بِهٰذَا ٱلْفِعْلِ . فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ بِٱلِاتِّفَاقِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْعَلُهُ بِٱلِاعْتِيَادِ وَبِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ . وَمَعْلُومٌ اَنَّ ٱلَّذِي يَفْعَلُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ بِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ اَفْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يَفْعَلُهَا بِٱلِاتِّفَاقِ . وَاِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَٱلَّذِي يَفْعَلُهَا بِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ وَعِلْمٍ بِٱلسَّبَبِ ٱلَّذِي بِهِ يَفْعَلُ فِعْلَهُ يَكُونُ اَتَمَّ وَاَفْضَلَ . وَهٰذَا اَمْرٌ يَعْرِفُهُ ٱلْجُمْهُورُ فَضْلًا عَنِ ٱلْخَوَاصِّ . وَلِذٰلِكَ كَانَ وَاجِبًا اَنْ تُثْبَتَ اَجْزَاءُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي كِتَابٍ وَلَا يُقْتَصَرَ عَلَى مَا يُوجَدُ مِنْ ذٰلِكَ بِٱلطَّبْعِ فَقَطْ وَلَا بِٱلِاعْتِيَادِ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْقِيَاسِيَّةِ

الفصل الثاني

في بلاغة الخطيب

البحث الاول

في تعريف البلاغة الجديرة بالخطيب

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

قَالَ مَعْمَرٌ اَبُو اَلْاَشْعَثِ قُلْتُ لِبَهْلَةَ اَلْهِنْدِيِّ اَيَّامَ اَجْتَلَبَ يَحْيَى اَبْنُ خَالِدٍ اَطِبَّاءَ اَلْهِنْدِ : مَا اَلْبَلَاغَةُ عِنْدَ اَهْلِ اَلْهِنْدِ. قَالَ بَهْلَةُ : عِنْدَنَا فِي ذٰلِكَ صَحِيفَةٌ مَكْتُوبَةٌ وَلٰكِنِّي لَا اُحْسِنُ تَرْجَمَتَهَا وَلَمْ اُعَالِجْ هٰذِهِ اَلصِّنَاعَةَ فَاَثِقَ مِنْ نَفْسِي بِاَلْقِيَامِ بِخَصَائِصِهَا وَلَطِيفِ مَعَانِيهَا. (قَالَ اَبُو اَلْاَشْعَثِ) فَتَلَقَّيْتُ تِلْكَ اَلصَّحِيفَةَ اَلْمُتَرْجَمَةَ فَاِذَا فِيهَا : اَوَّلُ اَلْبَلَاغَةِ اَجْتِمَاعُ آلَةِ اَلْبَلَاغَةِ وَذٰلِكَ اَنْ يَكُونَ اَلْخَطِيبُ رَابِطَ اَلْجَاْشِ سَاكِنَ اَلْجَوَارِحِ مُتَخَيِّرًا لِلَّفْظِ لَا يُكَلِّمُ سَيِّدَ اَلْاُمَّةِ بِكَلَامِ اَلْاُمَّةِ وَاَلْمُلُوكَ بِكَلَامِ اَلسُّوقَةِ وَيَكُونُ فِي كَلَامِهِ اَلتَّصَرُّفُ فِي كُلِّ طَبَقَةٍ وَلَا يُدَقِّقُ اَلْمَعَانِيَ كُلَّ اَلتَّدْقِيقِ وَلَا يُنَقِّحُ اَلْاَلْفَاظَ كُلَّ اَلتَّنْقِيحِ وَيُصَفِّيهَا كُلَّ اَلتَّصْفِيَةِ وَيُهَذِّبُهَا كُلَّ اَلتَّهْذِيبِ وَلَا يَفْعَلُ ذٰلِكَ حَتّٰى يُصَادِفَ حَكِيمًا وَفَيْلَسُوفًا عَظِيمًا. وَمَنْ تَعَوَّدَ حَذْفَ فُضُولِ اَلْكَلَامِ وَاِسْقَاطَ مُشْتَرَكَاتِ اَلْاَلْفَاظِ وَنَظَرَ فِي صِنَاعَةِ اَلْمَنْطِقِ عَلٰى جِهَةِ

ٱلصِّنَاعَةِ وَٱلْمُبَالَغَةِ فِيهَا لَا عَلَى جِهَةِ ٱلْأَعْرَاضِ (١) وَٱلتَّصَفُّحِ وَلَا عَلَى وَجْهِ ٱلِاسْتِظْرَافِ وَٱلتَّظَرُّفِ (٢) لَهَا . (قَالَ) وَٱعْلَمْ أَنَّ حَقَّ ٱلْمَعْنَى أَنْ يَكُونَ ٱلِٱسْمُ لَهُ طَبْقًا وَتِلْكَ ٱلْحَالُ وَفْقًا وَلَا يَكُونَ ٱلِٱسْمُ فَاضِلًا وَلَا مُقَصِّرًا وَلَا مُشْتَرَكًا وَلَا مُضَمَّنًا وَيَكُونَ تَصَفُّحُهُ لِمَصَادِرِ كَلَامِهِ بِقَدْرِ تَصَفُّحِهِ لِمَوَارِدِهِ وَيَكُونَ لَفْظُهُ مُؤْنِقًا وَمَعْنَاهُ أَنِيرًا وَاضِحًا وَمَدَارُ ٱلْأَمْرِ عَلَى إِفْهَامِ كُلِّ قَوْمٍ بِقَدْرِ طَاقَتِهِمْ وَٱلْحَمْلِ عَلَيْهِمْ عَلَى قَدْرِ (٣) مَنَازِلِهِمْ وَأَنْ تُوَاتِيَهُ آلَتُهُ وَيَتَصَرَّفَ مَعَهُ أَدَاتُهُ وَيَكُونَ فِي ٱلتُّهَمَةِ لِنَفْسِهِ مُعْتَدِلًا وَفِي حُسْنِ ٱلظَّنِّ أَوْدَعَهَا تَهَاوُنَ ٱلْآمِنِينَ وَإِنْ تَجَاوَزَ مِقْدَارَ ٱلْحَقِّ فِي ٱلتُّهَمَةِ ظَلَمَهَا وَأَوْدَعَهَا ذُلَّ ٱلْمَظْلُومِينَ وَلِكُلِّ ذٰلِكَ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلشُّغْلِ وَلِكُلِّ شُغْلٍ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلْوَهْنِ وَلِكُلِّ وَهْنٍ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلْجَهْلِ

فَقَوْلُهُ : (أَوَّلُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱجْتِمَاعُ آلَةِ ٱلْبَلَاغَةِ) أَيْ أَوَّلُ آلَاتِ ٱلْبَلَاغَةِ جُودَةُ ٱلْقَرِيحَةِ وَطَلَاقَةُ ٱللِّسَانِ وَذٰلِكَ مِنْ فِعْلِ ٱللهِ تَعَالَى لَا يَقْدِرُ ٱلْعَبْدُ عَلَى ٱكْتِسَابِهِ لِنَفْسِهِ وَٱجْتِلَابِهِ لَهَا . وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ إِذَا خَلَا بِنَفْسِهِ وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ أَتَى بِٱلْبَيَانِ ٱلْعَجِيبِ وَٱلْكَلَامِ ٱلْبَدِيعِ ٱلْمُصِيبِ وَٱسْتَخْرَجَ ٱلْمَعْنَى ٱلرَّائِقَ وَجَاءَ بِٱللَّفْظِ ٱلرَّائِعِ . وَإِذَا حَاوَرَ وَنَاظَرَ قَصَّرَ وَتَأَخَّرَ فَحَقُّ هٰذَا أَنْ لَا يَتَعَرَّضَ لِأَرْتِجَالِ ٱلْخُطَبِ وَلَا يُجَارِيَ أَصْحَابَ ٱلْبَدَايِهِ فِي مَيْدَانِ ٱلْقَرِيضِ وَيَكْتَفِيَ بِنَتَائِجِ فِكْرِهِ وَٱلنَّاسُ فِي

(١) ويروى على جهة الاعتراض (٢) وفي نسخة الاستطراف والتطرُّف
(٣) ويروى في اقدار

صِنَاعَةِ ٱلْكَلَامِ عَلَى طَبَقَاتٍ مِنْهُمْ مَنْ إِذَا حَاوَرَ وَنَاظَرَ أَبْلَغَ وَأَجَادَ وَإِذَا كَتَبَ وَأَمْلَى أَخَلَّ وَتَكَلَّفَ . وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا أَمْلَى بَرَّزَ وَإِذَا حَاوَرَ وَكَتَبَ قَصَّرَ . وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا كَتَبَ أَحْسَنَ وَإِذَا حَاوَرَ وَأَمْلَى أَسَاءَ . وَمِنْهُمْ مَنْ يُحْسِنُ فِي جَمِيعِ هٰذِهِ ٱلْحَالَاتِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُسِيءُ فِيهَا كُلِّهَا فَأَحْسَنُ حَالَاتِ ٱلْمُسِيءِ ٱلْإِمْسَاكُ وَأَحْسَنُ حَالَاتِ ٱلْمُحْسِنِ ٱلتَّوَسُّطُ فَإِنَّ ٱلْإِكْثَارَ يُورِثُ ٱلْإِمْلَالَ وَقَلَّ مَا يَنْجُو صَاحِبُهُ مِنَ ٱلزَّلَلِ وَٱلْعَيْبِ وَٱلْخَطَلِ . وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِلْمُحْسِنِ فِي أَحَدِ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ ٱلْمُسِيءِ فِي غَيْرِهِ أَنْ يَتَجَاوَزَ مَا هُوَ مُحْسِنٌ فِيهِ إِلَى مَا هُوَ مُسِيءٌ فِيهِ فَإِنِ ٱضْطُرَّ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ إِلَى تَجَاوُزِهِ فَخَيْرُ سُبُلِهِ فِيهِ قَصْدُ ٱلِٱخْتِصَارِ وَتَجَنُّبُ ٱلْإِكْثَارِ وَٱلْإِهْذَارِ لِيَقِلَّ ٱلسَّقَطُ فِي كَلَامِهِ وَلَا يَكْثُرَ ٱلْعَيْبُ فِي مَنْطِقِهِ . وَقِيلَ لِٱبْنِ ٱلْمُقَفَّعِ لِمَ لَا تُطِيلُ ٱلْقَصَائِدَ . قَالَ : لَوْ أَطَلْتُهَا عُرِفَ صَاحِبُهَا . يُرِيدُ أَنَّ ٱلْمُحْدَثَ يَتَشَبَّهُ بِٱلْقَدِيمِ فِي ٱلْقَلِيلِ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَإِذَا طَالَ ٱخْتَلَّ فَعُرِفَ أَنَّهُ كَلَامُ مَوْلُودٍ عَلَى أَنَّ ٱلسَّابِقَ فِي مَيَادِينِ ٱلْبَلَاغَةِ إِذَا كَثُرَ سَقَطَ فَكَيْفَ ٱلْمُقَصِّرُ عَنْ غَايَتِهَا وَٱلْمُتَخَلِّفُ عَنْ أَمَدِهَا . وَمِنْ تَمَامِ آلَاتِ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلتَّوَسُّعُ فِي مَعْرِفَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَوُجُوهِ ٱلِٱسْتِعْمَالِ لَهَا وَٱلْعِلْمِ بِفَاخِرِ ٱلْأَلْفَاظِ وَسَاقِطِهَا وَمُتَخَيَّرِهَا وَرَدِيئِهَا وَمَعْرِفَةِ ٱلْمَقَامَاتِ وَمَا يَصْلُحُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ

وَقَوْلُهُ : (وَهُوَ أَنْ يَكُونَ ٱلْخَطِيبُ رَابِطَ ٱلْجَأْشِ سَاكِنَ ٱلنَّفْسِ) هٰذَا لِأَنَّ ٱلْحَيْرَةَ وَٱلدَّهَشَ يُورِثَانِ ٱلْحُبْسَةَ وَٱلْحَصَرَ وَهُمَا سَبَبَا ٱلِٱرْتَاجِ

وَٱلْإِفْحَامِ . وَبَلَغَكَ مَا أَصَابَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ أَوَّلَ مَا صَعِدَ ٱلْمِنْبَرَ فَٱرْتَجَّ عَلَيْهِ فَقَالَ : إِنَّ ٱلَّذَيْنِ قَبْلِي كَانَا يُعَدَّانِ لِهٰذَا ٱلْمَقَامِ مَقَالًا وَأَنْتُمْ إِلَى إِمَامٍ عَادِلٍ أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَى إِمَامٍ قَائِلٍ وَسَتَأْتِيكُمُ ٱلْخُطْبَةُ عَلَى وَجْهِهَا . وَصَعِدَ بَعْضُ ٱلْعَرَبِ مِنْبَرًا بِخُرَاسَانَ فَٱرْتَجَّ عَلَيْهِ فَقَالَ حِينَ نَزَلَ :

فَإِنْ لَمْ أَكُنْ فِيكُمْ خَطِيبًا فَإِنَّنِي بِسَيْفِي إِذَا جَدَّ ٱلْوَغَى لَخَطِيبُ

وَمِنْ حُسْنِ ٱلِٱعْتِذَارِ عِنْدَ ٱلِٱرْتَاجِ مَا أَخْبَرَنَا أَبُو أَحْمَدَ عَنْ دَاوُدَ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ : فَلَمَّا قَالَ (أَمَّا بَعْدُ) ٱمْتَنَعَ عَلَيْهِ ٱلْكَلَامُ ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ يَجِدُ ٱلْمُعْسِرُ وَيُعْسِرُ ٱلْمُوسِرُ وَيُفَلُّ ٱلْحَدِيدُ وَيَقْطَعُ ٱلْكَلِيلُ . وَإِنَّمَا ٱلْكَلَامُ بَعْدَ ٱلْإِفْحَامِ كَٱلِٱشْرَاقِ بَعْدَ ٱلظَّلَامِ وَقَدْ يَغْرُبُ ٱلْبَيَانُ وَيَعْتَقِمُ ٱلصَّوَابُ وَإِنَّمَا ٱللِّسَانُ مُضْغَةٌ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ يَفْتُرُ بِفُتُورِهِ (١) إِذَا نَكَلَ وَيَثُوبُ بِٱنْبِسَاطِهِ إِذَا ٱرْتَجَلَ . أَلَا وَإِنَّا لَا نَنْطِقُ بَطَرًا وَلَا نَسْكُتُ حَصَرًا بَلْ نَسْكُتُ مُعْتَبِرِينَ وَنَنْطِقُ مُرْشِدِينَ . وَنَحْنُ بَعْدَ ذٰلِكَ أُمَرَاءُ ٱلْقَوْلِ فِينَا وَشَجَتْ أَعْرَاقُهُ وَعَلَيْنَا عُطِفَتْ أَغْصَانُهُ وَلَنَا تَهَدَّلَتْ ثَمَرَتُهُ فَنَتَخَيَّرُ مِنْهُ مَا أَحْلَوْلَى وَعَذُبَ وَنَطْرَحُ مِنْهُ مَا أَمْلَوْلَحَ وَخَبُثَ . وَمِنْ بَعْدِ مُقَامِنَا هٰذَا مُقَامٌ وَمِنْ بَعْدِ أَيَّامِنَا أَيَّامٌ . وَعَلَامَةُ سُكُونِ نَفْسِ ٱلْخَطِيبِ وَرَبَاطَةِ جَأْشِهِ هُدُوُّهُ فِي كَلَامِهِ وَتَهَلُّهُ فِي مَنْطِقِهِ . قَالَ ثُمَامَةُ : كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى جَأْشُهُ هُدُوُّهُ فِي كَلَامِهِ وَتَهَلُّهُ فِي مَنْطِقِهِ . وَقَالَ ثُمَامَةُ : كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى أَنْطَقُ ٱلنَّاسِ قَدْ جَمَعَ ٱلْهُدُوَّ

(١) ويروى : يعثر بعثوره

وَٱلتَّمهُّلَ وَٱلْجَزَالَةَ وَٱلْحَلَاوَةَ وَلَوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ نَاطِقٌ يَسْتَغْنِي عَنِ ٱلْإِشَارَةِ لَكَانَهُ

وَقَوْلُهُ : (مُتَخَيِّرَ ٱلْأَلْفَاظِ) فَلِأَنَّ مَدَارَ ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى تَخَيُّرِ ٱللَّفْظِ وَتَخَيُّرُهُ أَصْعَبُ مِنْ جَمْعِهِ وَتَأْلِيفِهِ. وَقَوْلُهُ : (وَيَكُونَ فِي قَوْلِهِ فَضْلُ ٱلتَّصَرُّفِ فِي كُلِّ طَبَقَةٍ) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ صَانِعُ ٱلْكَلَامِ قَادِرًا عَلَى جَمِيعِ ضُرُوبِهِ مُتَمَكِّنًا مِنْ جَمِيعِ فُنُونِهِ لَا يَعْتَاصُ عَلَيْهِ قِسْمٌ مِنْ أَقْسَامِهِ فَإِنْ كَانَ شَاعِرًا تَصَرَّفَ فِي وُجُوهِ ٱلشِّعْرِ مَدِيحِهِ وَهِجَائِهِ وَمَرَاثِيهِ وَصِفَاتِهِ وَمُفَاخِرِهِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ أَصْنَافِهِ. وَلِٱخْتِلَافِ قُوَى ٱلنَّاسِ فِي ٱلشِّعْرِ وَفُنُونِهِ مَا قِيلَ : كَانَ أَمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ أَشْعَرَ ٱلنَّاسِ إِذَا رَكِبَ وَٱلنَّابِغَةُ إِذَا رَهِبَ وَزُهَيْرٌ إِذَا رَغِبَ وَٱلْأَعْشَى إِذَا طَرِبَ. وَكَذٰلِكَ ٱلْكَاتِبُ رُبَّمَا تَقَدَّمَ فِي ضَرْبٍ مِنَ ٱلْكِتَابَةِ وَتَأَخَّرَ فِي غَيْرِهِ وَسَهُلَ عَلَيْهِ نَوْعٌ مِنْهَا وَعَسُرَ نَوْعٌ آخَرُ وَأَخْبَرَ أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ قَالَ : أَمَرَنِي ٱلْمَأْمُونُ أَنْ أَكْتُبَ إِلَى ٱلنَّوَاحِي فِي ٱلِٱسْتِكْثَارِ مِنَ ٱلْقَنَادِيلِ فِي ٱلْمَسَاجِدِ. فَبِتُّ لَا أَدْرِي كَيْفَ أَحْتَذِي فَأَتَانِي آتٍ فِي مَنَامِي فَقَالَ : قُلْ فَإِنَّ فِي ذٰلِكَ عِمَارَةَ ٱلْمَسَاجِدِ وَأُنْسًا لِلسَّابِلَةِ وَإِضَاءَةً لِلْمُتَهَجِّدِينَ وَنَفْيًا لِلْكَاوِنِ ٱلرِّيبِ وَتَنْزِيهًا لِبُيُوتِ ٱللّٰهِ جَلَّ وَعَزَّ مِنْ وَحْشَةِ ٱلظُّلَمِ. فَٱنْتَبَهْتُ وَقَدِ ٱنْفَتَحَ لِي مَا أُرِيدُ فَٱبْتَدَأْتُ بِهٰذَا وَأَتْمَمْتُ عَلَيْهِ. وَٱلْمُقَدَّمُ فِي صَنْعَةِ ٱلْكَلَامِ هُوَ ٱلْمُسْتَوْلِي عَلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ ٱلْمُتَمَكِّنِ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِهِ وَبِهٰذَا قَضَّاوا جَرِيرًا عَلَى ٱلْفَرَزْدَقِ وَقَالُوا : كَانَ لَهُ فِي ٱلشِّعْرِ ضُرُوبٌ لَا يَعْرِفُهَا ٱلْفَرَزْدَقُ. وَسُئِلَ

بَعْضُهُمْ عَنْ اَبِي نُوَاسٍ وَمُسْلِمٍ فَذَكَرَ اَنَّ اَبَا نُوَاسٍ اَشْعَرُ لِتَصَرُّفِهِ فِي وُجُوهِ الشِّعْرِ وَكَثْرَةِ مَذَاهِبِهِ فِيهِ. (قَالَ) وَمُسْلِمٌ جَارٍ عَلَى وَتِيرَةٍ لَا يَتَغَيَّرُ عَنْهَا. وَاَبْلَغُ مِنْ هٰذِهِ الْمَنْزِلَةِ اَنْ يَتَفَنَّنَ صَانِعُ الْكَلَامِ فِي قَوْلِهِ اَيْ يَأْتِي مَرَّةً بِالْجَزْلِ وَاُخْرَى بِالسَّهْلِ فَيَلِينُ اِذَا شَاءَ وَيَشْتَدُّ اِذَا اَرَادَ. وَمِنْ هٰذَا الْوَجْهِ فَضَّلُوا جَرِيرًا عَلَى الْفَرَزْدَقِ وَاَبَا نُوَاسٍ عَلَى مُسْلِمٍ . . .

وَقَوْلُهُ: (وَلَا يُكَلِّمَ سَيِّدَ الْاُمَّةِ بِكَلَامِ الْاُمَّةِ وَلَا الْمَلُوكَ بِكَلَامِ السُّوقَةِ) لِاَنَّ ذٰلِكَ جَهْلٌ بِالْمَقَامَاتِ وَمَا يَصْلُحُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِنَ الْكَلَامِ. وَقَدْ اَحْسَنَ الَّذِي قَالَ: لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ. وَرُبَّمَا غَلَبَ سُوءُ الرَّأْيِ وَقِلَّةُ الْعَقْلِ عَلَى بَعْضِ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ فَيُخَاطِبُونَ السُّوقِيَّ وَالْمَلُوكَ الْاَعْجَمِيَّ بِاَلْفَاظِ اَهْلِ نَجْدٍ وَمَعَانِي اَهْلِ السَّرَاةِ. كَاَبِي عَلْقَمَةَ اِذْ قَالَ لِحَجَّامِهِ: اَشْدُدْ لِقَصَبِ الْمَلَازِمِ وَاَرْهِفْ ذُبَاتِ الْمَشَارِطِ وَاَمِرَّ الْمِسْحَ وَاَسْحِلِ الرَّشْحَ وَخَفِّفِ الْوَطْءَ وَعَجِّلِ النَّزْعَ وَلَا تُكْرِهَنَّ آبِيًا وَلَا تَمْنَعَنَّ آتِيًا. فَقَالَ لَهُ الْحَجَّامُ: لَيْسَ لِي عِلْمٌ بِالْحُرُوبِ. وَاَخْبَرَ اَبُو الْمَغَازِلِ الضَّبِّيُّ عَنْ اَبِيهِ قَالَ: كَانَ لَنَا جَارٌ بِالْكُوفَةِ لَا يَتَكَلَّمُ اِلَّا بِالْغَرِيبِ فَخَرَجَ اِلَى ضَيْعَةٍ لَهُ عَلَى حِجْرٍ مَعَهَا مُهْرٌ. فَاَفْلَتَتْ فَذَهَبَتْ وَمَعَهَا مُهْرُهَا فَخَرَجَ يَسْاَلُ عَنْهَا فَمَرَّ بِخَيَّاطٍ فَقَالَ: يَا ذَا الْتِصَاحِ وَذَاتِ السُّمِّ الطَّاعِنِ بِهَا فِي غَيْرٍ وَعًى لِغَيْرِ عِدًى هَلْ رَاَيْتَ الْخَيْفَانَةَ الْقَبَّاءَ يَتْبَعُهَا الْحَالِسُ الْمُسَرْهَفُ (١) كَانَّ

(١) ويروى: الحالس المرهف

غُرَّتَهُ ٱلْقَمَرُ ٱلْأَزْهَرُ يُنِيرُ فِي حُضْرِهِ كَٱلْخَبِّ ٱلْأَجْرَدِ (١) . فَقَالَ ٱلْخَيَّاطُ أَطْلُبُهَا فِي بَرِّ لَخْلَخٍ (٢) . فَقَالَ : وَيْلَكَ وَمَا تَقُولُ فَتَجَكَ ٱللهُ فَمَا أَعْلَمُ رَطَانَتَكَ . فَقَالَ : لَعَنَ ٱللهُ أَبْغَضَنَا لَفْظًا وَأَخْطَأَنَا مَنْطِقًا

وَقَوْلُهُ : (وَلَا يُدَقِّقَ ٱلْمَعَانِيَ كُلَّ ٱلتَّدْقِيقِ) قَالَ أَبُو هِلَالٍ : لِأَنَّ ٱلْغَايَةَ فِي تَدْقِيقِ ٱلْمَعْنَى سَبِيلٌ إِلَى تَعْمِيَتِهِ وَتَعْمِيَةُ ٱلْمَعْنَى لُكْنَةٌ إِلَّا إِذَا أُرِيدَ بِهِ ٱلْأَلْغَازُ وَكَانَ فِي تَعْمِيَتِهِ فَائِدَةٌ مِثْلُ أَبْيَاتِ (٣) ٱلْمَعَانِي وَمَا يَجْرِي مَعَهَا مِنَ ٱلْفُنُونِ ٱلَّتِي ٱسْتَعْمَلُوهَا وَكَنَوْا بِهَا عَنِ ٱلْمُرَادِ لِبَعْضِ ٱلْغَرَضِ . فَأَمَّا مَنْ أَرَادَ ٱلْإِبَانَةَ فِي مَدِيحٍ أَوْ صِفَةِ شَيْءٍ فَأَتَى بِإِغْلَاقٍ دَلَّ عَلَى عَجْزِهِ فِي ٱلْإِبَانَةِ وَقُصُورِهِ عَنِ ٱلْإِفْصَاحِ

وَقَوْلُهُ : (وَلَا يُنَقِّحَ ٱلْأَلْفَاظَ كُلَّ ٱلتَّنْقِيحِ) فَتَنْقِيحُ ٱللَّفْظِ أَنْ يُبْنَى مِنْهُ بِنَاءٌ لَا يَكْثُرُ فِي ٱلِٱسْتِعْمَالِ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضِ ٱلْوُزَرَاءِ : أَحْسَنَ ٱللهُ إِبَانَتَكَ . فَقَالَ لَهُ ٱلْوَزِيرُ : عَجَّلَ ٱللهُ إِمَاتَتَكَ . وَيَدْخُلُ فِي تَنْقِيحِ ٱللَّفْظِ ٱسْتِعْمَالُ وَحْشِيِّهِ وَتَرْكُ سَلِسِهِ . وَقَدْ أَخَذَ ٱلرُّوَاةُ عَلَى زُهَيْرٍ قَوْلَهُ :

تَعَفَّى نَقِيٌّ لَمْ يُكَثِّرْ غَنِيمَةً بِنَهْكَةِ ذِي ٱلْقُرْبَى وَلَا بِحَقَلَّدِ

فَٱسْتَبْشَعُوا (ٱلْحَقَلَّدَ) وَهُوَ ٱلسَّيِّئُ ٱلْخُلُقِ وَقَالُوا : لَيْسَ فِي لَفْظِ زُهَيْرٍ أَنْكَرُ مِنْهُ . قَالَ أَبُو عُثْمَانَ : رَأَيْتُهُمْ يَزِيدُونَ فِي كُتُبِهِمْ هٰذَا ٱلْكَلَامَ فَإِنْ كَانُوا إِنَّمَا رَوَوْهُ وَدَوَّنُوهُ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى فَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ فَقَدْ

---

(١) وفي رواية : ينير في خضره كالخب الاخرز (٢) ويروى : في تمر بلخ
(٣) وفي رواية : ابيات المعاني

بَاعَدَهُ اللهُ مِنْ صِفَةِ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلْفَصَاحَةِ. وَإِنْ كَانُوا فَعَلُوا ذٰلِكَ لِأَنَّهُ غَرِيبٌ فَأَبْيَاتٌ مِنْ شِعْرِ ٱلْعَجَّاجِ وَٱلطِّرِمَّاحِ وَأَشْعَارِ هُذَيْلٍ يَأْتِي لَهُمْ مَعَ ٱلرَّصْفِ ٱلْحَسَنِ عَلَى أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ. وَلَوْ خَاطَبْتُ ٱلْأَصْمَعِيَّ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْكَلَامِ لَظَنَنْتَ أَنَّهُ سَيَجْهَلُ بَعْضَهُ وَهٰذَا خَارِجٌ عَنْ عَادَةِ ٱلْبُلَغَاءِ

وَقَوْلُهُ: (وَيُصَفِّيهَا كُلَّ ٱلتَّصْفِيَةِ وَيُهَذِّبُهَا كُلَّ ٱلتَّهْذِيبِ) فَتَصْفِيَتُهُ تَعْرِيَتُهُ مِنَ ٱلْوَحْشِيِّ وَنَفْيُ ٱلشَّوَاغِلِ عَنْهُ وَتَهْذِيبُهُ وَتَبْرِئَتُهُ مِنَ ٱلرَّدِيِّ ٱلْمَرْذُولِ وَٱلسُّوقِيِّ ٱلْمَرْدُودِ فَمِنْ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُهَذَّبِ قَوْلُ بَعْضِ ٱلْكُتَّابِ: مِثْلُكَ أَوْجَبَ حَقًّا لَا يَجِبُ عَلَيْهِ وَسَمَحَ بِحَقٍّ يَجِبُ لَهُ وَقَبِلَ وَاضِحَ ٱلْعُذْرِ وَٱسْتَكْثَرَ قَلِيلَ ٱلشُّكْرِ لَا زَالَتْ أَيَادِيكَ فَوْقَ شُكْرِ أَوْلِيَائِكَ وَنِعْمَةُ ٱللهِ عَلَيْكَ فَوْقَ آمَالِهِمْ فِيكَ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ آخَرَ: مَا ٱنْتَهَى إِلَى غَايَةٍ مِنْ شُكْرِكَ إِلَّا وَجَدْتُ وَرَاءَهَا حَادِثًا مِنْ بِرِّكَ فَلَا زَالَتْ أَيَادِيكَ مَمْدُودَةً بَيْنَ أَمَلِ لَكَ تَبْلُغُهُ وَعَمَلٍ فِيكَ تُحَقِّقُهُ حَتَّى تَتَسَلَّى مِنَ ٱلْأَعْمَارِ أَطْوَلُهَا وَتَنَالَ مِنَ ٱلدَّرَجَاتِ أَفْضَلَهَا. وَقَوْلُ أَحْمَدَ بْنِ يُوسُفَ: يَوْمُنَا يَوْمٌ لَيِّنُ ٱلْحَوَاشِي وَطِيءُ ٱلنَّوَاحِي وَهٰذِهِ سَمَاءٌ قَدْ تَهَلَّلَتْ بَوْدْقِهَا وَضَحِكَتْ لِعَابِسِ غَيْمِهَا وَلَامِعِ بَرْقِهَا وَأَنْتَ قُطْبُ ٱلسُّرُورِ وَنِظَامُ ٱلْأُمُورِ فَلَا تَغِبْ عَنَّا فَنَعِلَّ (١) وَلَا تُفْرِدْنَا (٢) فَنَسْتَوْحِشَ فَإِنَّ ٱلْحَبِيبَ بِحَبِيبِهِ كَثِيرٌ وَبِمُسَاعَدَتِهِ جَدِيرٌ

وَقَوْلُهُ: (وَلَا تَفْعَلَ ذٰلِكَ حَتَّى تُصَادِفَ حَكِيمًا وَفَيْلَسُوفًا عَظِيمًا وَمَنْ

(١) وفي رواية: فنقل (٢) ويروى: ولا تفرّد عنّا

تَعَوَّدَ حَذْفَ فُضُولِ ٱلْكَلَامِ وَمُشْتَرَكَاتِ ٱلْأَلْفَاظِ وَمَنْ نَظَرَ فِي ٱلْمَنْطِقِ عَلَى جِهَةِ ٱلصِّنَاعَةِ فِيهَا لَا عَلَى جِهَةِ ٱلْإِسْتِطْرَافِ وَٱلتَّطَرُّفِ لَهَا) فَنَقُولُ يَنْبَغِي اَنْ يَتَكَلَّمَ بِفَاخِرِ ٱلْكَلَامِ وَنَادِرِهِ وَرَصِينِهِ وَمُحْكَمِهِ عِنْدَ مَنْ يَفْهَمُهُ عَنْهُ وَيَقْبَلُهُ مِنْهُ مِمَّنْ عَرَفَ ٱلْمَعَانِيَ وَٱلْأَلْفَاظَ عِلْمًا شَافِيًا لِنَظَرِهِ فِي ٱللُّغَةِ وَٱلْإِعْرَابِ وَٱلْمَعَانِي عَلَى جِهَةِ ٱلصِّنَاعَةِ لَا كَمَنِ ٱسْتَطْرَفَ شَيْئًا مِنْهَا فَنَظَرَ فِيهِ نَظَرًا غَيْرَ كَامِلٍ اَوْ اَخَذَ مِنْ اَطْرَافِهِ وَتَنَاوَلَ مِنْ اَطْرَافِهِ فَتَحَلَّى بِٱسْمِهِ وَخَلَا مِنْ وَسْمِهِ. فَإِذَا سَمِعَ لَمْ يَفْقَهْ وَإِذَا سُئِلَ لَمْ يَنْقَهْ وَإِذَا تَكَلَّمَ عِنْدَ مَنْ هٰذِهِ صِفَتُهُ ذَهَبَتْ فَائِدَةُ كَلَامِهِ وَضَاعَتْ مَنْفَعَةُ مَنْطِقِهِ. لِاَنَّ ٱلْعَامِيَّ إِذَا كَلَّمْتَهُ بِكَلَامِ ٱلْعِلِّيَّةِ سَخِرَ مِنْكَ وَزَرَى عَلَيْكَ. كَمَا رُوِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ اَنَّهُ قَالَ لِبَعْضِ ٱلْعَامَّةِ: بِمَ كُنْتُمْ تَنْتَقِدُونَ ٱلْبَارِحَةَ (يَعْنِي عَلَى ٱلنَّبِيذِ). فَقَالَ: بِٱلْحَمَالِينَ. وَلَوْ قَالَ لَهُ: (اَيْشْ كَانَ نَقْلُكُمْ) لَسَلِمَ مِنْ سُخْرِيَتِهِ. فَيَنْبَغِي اَنْ يُخَاطِبَ كُلَّ فَرِيقٍ بِمَا يَعْرِفُونَ وَيَتَجَنَّبَ مَا يَجْهَلُونَ

وَاَمَا قَوْلُهُ: (مَنْ تَعَوَّدَ حَذْفَ فُضُولِ ٱلْكَلَامِ الخ) هُوَ اَنْ يُسْقِطَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا يَكُونُ ٱلْكَلَامُ مَعَ إِسْقَاطِهِ تَامًّا غَيْرَ مَنْقُوصٍ وَلَا يَكُونُ فِي زِيَادَتِهِ فَائِدَةٌ). وَذٰلِكَ مِثْلُ مَا رُوِيَ عَنْ مُعَاوِيَةَ اَنَّهُ قَالَ لِصُحَارَ ٱلْعَبْدِيِّ: مَا ٱلْبَلَاغَةُ فَقَالَ: اَنْ تَقُولَ فَلَا تُخْطِئَ وَتُسْرِعَ فَلَا تُبْطِئَ. ثُمَّ قَالَ: اَقِلْنِي هَوَانَ (لَا تُخْطِئَ وَلَا تُبْطِئَ). فَاَلْقَى ٱللَّفْظَتَيْنِ لِاَنَّ فِي ٱلَّذِي اَبْقَى غِنًى عَنْهُمَا وَعِوَضًا مِنْهُمَا.

فَاَمَّا اِذَا كَانَ فِي زِيَادَةِ ٱلْاَلْفَاظِ فَائِدَةٌ فَذٰلِكَ مَحْمُودٌ وَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلتَّذْيِيلِ . وَقَوْلُهُ : (وَمُشْتَرَكَاتِ ٱلْاَلْفَاظِ) فَهُوَ اَنْ يُرِيدَ ٱلْاِبَانَةَ عَنْ مَعْنًى فَيَأْتِيَ بِٱلْاَلْفَاظِ لَا تَدُلُّ عَلَيْهِ خَاصَّةً بَلْ يَشْتَرِكُ مَعَهُ مَعَانٍ اُخَرُ فَلَا يَعْرِفُ ٱلسَّامِعُ اَيَّهَا اَرَادَ . وَرُبَّمَا ٱسْتَبْهَمَ ٱلْكَلَامَ فِي نَوْعٍ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ حَتّٰى لَا يُوقَفَ عَلَى مَعْنَاهُ اِلَّا بِٱلتَّوَهُّمِ . فَمِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْاَوَّلِ قَوْلُ جَرِيرٍ :

لَوْ كُنْتُ اَعْلَمُ اَنَّ آخِرَ عَهْدِكُمْ ... يَوْمَ ٱلرَّحِيلِ فَعَلْتُ مَا لَمْ اَفْعَلِ

فَوَجْهُ ٱلْاِشْتِرَاكِ فِي هٰذَا اَنَّ ٱلسَّامِعَ لَا يَدْرِي اِلَى اَيِّ شَيْءٍ اَشَارَ مِنْ اَفْعَالِهِ فِي قَوْلِهِ (فَعَلْتُ مَا لَمْ اَفْعَلِ) اَرَادَ اَنْ يَبْكِيَ اِذَا رَحَلُوا اَوْ يَهِيمَ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ ٱلْغَمِّ ٱلَّذِي لَحِقَهُ اَوْ يَتْبَعَهُمْ فِي ٱلْمُضِيِّ عَلَى عَزْمَةِ ٱلرَّحِيلِ اَوْ يَأْخُذَ مِنْهُمْ شَيْئًا يَتَذَكَّرُهُمْ بِهِ اَوْ يَدْفَعَ اِلَيْهِمْ شَيْئًا يَذْكُرُونَهُ بِهِ اَوْ غَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا يَجُوزُ اَنْ يَفْعَلَهُ ٱلْخَلِيلُ عِنْدَ فِرَاقِ اَحِبَّتِهِ . فَلَمْ يُبِنْ عَنْ غَرَضِهِ وَاَحْوَجَ اِلَى اَنْ يَسْاَلَهُ عَمَّا اَرَادَ فِعْلَهُ عِنْدَ رَحِيلِهِمْ . وَلَيْسَ هٰذَا كَقَوْلِهِمْ : (لَوْ رَاَيْتَ عَلِيًّا بَيْنَ ٱلصَّفَّيْنِ) . لِاَنَّ دَلِيلَ ٱلْبَسَالَةِ وَٱلنِّكَايَةِ فِي هٰذَا ٱلْكَلَامِ بَيِّنٌ وَاَمَارَةُ ٱلنُّقْصَانِ فِي بَيْتِ جَرِيرٍ وَاضِحَةٌ فَمَنْ يَسْمَعُهُ وَاِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ اَهْلِ ٱلْبَلَاغَةِ يَسْتَبْرِدُهُ وَيَسْتَغْثُّهُ وَيَسْتَرْجِعُ ٱلْاٰخَرَ وَيَسْتَجِيدُهُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ مَالِكٍ ٱلْاَزْدِيِّ

فَاِنَّكَ لَوْ لَاقَيْتَ سَعْدَ بْنَ مَالِكٍ ... لَلَاقَيْتَ مِنْهُ بَعْضَ مَا كَانَ يَفْعَلُ

فَلَمْ يُبِنْ عَمَّا اَرَادَ بِقَوْلِهِ : (لَلَاقَيْتَ) اَ خَيْرًا اَرَادَ اَمْ شَرًّا اِلَّا

اَنْ تَسمعَ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ فَيَتَبَيَّنَ مَعْنَاهُ وَاَمَّا فِي نَفْسِ اَلْبَيْتِ فَلَا يَتَبَيَّنُ مَغْزَاهُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

وَقُمْنَا فَقُلْنَا بَعْدَ اَنْ اُودِعَ اَلثَّرَى بِهِ مَا يُقَالُ فِي اَلسَّحَابَةِ تُقْلِعُ

فَقَوْلُ اَلنَّاسِ فِي اَلسَّحَابِ اِذَا اَقْلَعَ عَلَى وُجُوهٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْدَحُهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَذُمُّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُحِبُّ اِقْلَاعَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكْرَهُ اِقْشَاعَهُ عَلَى حَسَبِ مَا كَانَتْ حَالَاتُهَا عِنْدَهُمْ وَمَوَاقِعُهَا مِنْهُمْ فَلَمْ يُبَيِّنْ بِقَوْلِهِ مَعْنًى يَعْتَمِدُهُ اَلسَّامِعُ . عَلَى اَنَّ اَلْمُحْتَجَّ لَهُ لَوْ قَالَ : اِنَّ اَكْثَرَ اَلْعَادَةِ فِي اَلسَّحَابِ اَنْ يُحْمَدَ اَثَرُهُ وَيُثْنَى عَلَيْهِ بَعْدَهُ لَمَا كَانَ مُبْعِدًا . وَلَمْ اُرِدْ عَيْبَ اَبِي تَمَّامٍ بِمَا قُلْتُ وَاَنَّمَا اَرَدْتُ اَلْاِخْبَارَ عَنْ وُجُوهِ اَلْاِشْتِرَاكِ وَذِكْرِ مَا يَتَشَعَّبُ مِنْهُ وَمَا يَقْرُبُ مِنْ بَابِهِ وَيَنْظُرُ اِلَيْهِ مِنْ قَرِيبٍ اَوْ بَعِيدٍ . وَمِنَ اَللَّفْظِ اَلْمُشْتَرَكِ قَوْلُ اَبِي نُوَاس :

وَخَبْرٌ مَا يَخْبَرْنَ مِنْ آخِرٍ مِنْهُ وَالطَّايِنِ اَمْهَارُ (١)

اَلْاَمْهَارُ هَا هُنَا جَمْعُ مَهْرٍ مِن قَوْلِهِمْ : مَهَرَ يَمْهَرُ مَهْرًا . وَاَلْمَصَادِرُ لَا تَجْتَمِعُ وَلَا يَشُكُّ سَامِعُ هٰذَا اَلْكَلَامِ اَنَّهُ يُرِيدُ جَمْعَ مُهْرٍ فَيُشْكِلُ اَلْمَعْنَى عَلَيْهِ . وَخَطَبَ بَعْضُ اَلْمُتَكَلِّمِينَ فَقَالَ فِي صِفَةِ اَللّٰهِ تَعَالَى : لَا يُقَاسُ بِاَلْقِيَاسِ وَلَا يُدْرَكُ بِاَلْاَلْمَاسِ . اَرَادَ جَمْعَ لَمْسٍ فَاَصَابَ اَلسَّجْعَ وَاَخْطَاَ اَلْمَعْنَى . وَاَمَّا مَا بِنِيَّتِهِمْ فَلَا يُعْرَفُ مَعْنَاهُ اِلَّا بِاَلتَّوَهُّمِ . وَمِنَ اَلْكَلَامِ اَلْخَالِي مِنَ اَلْاِشْتِمَالِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ لِاَخٍ لَهُ اَرَادَ فِرَاقَهُ :

---

(١) كذا في الاصل وفي ديوان ابي نوّاس :

وخبر ما يخبر من بعده منهُ والطابن امهار

لَمَّا تَصَفَّحْتُ اَخْلَاقَكَ فَوَجَدْتُهَا مُبَايِنَةً لِمُشَاكَلَتِي زَائِغَةً عَنْ قَصْدِ طَرِيقَتِي صَرَتُ عَلَيْهَا رِيَاضَةً لِنَفْسِي عَلَى اَلصَّبْرِ لِمَسَاوِئِ اَخْلَاقِ اَلْمُعَاشِرِينَ وَلِمَا بِي بِكَامِنِ اَلْعُدْوَانِ فِي جَمِيعِ اَلْعَالَمِينَ. وَاَلَّذِي رَجَوْتُ مِنْ مَرَّةِ خِصَالِكَ بِمَا اُقَابِلُهَا بِهِ مِنَ اَلتَّجَاوُزِ وَاَنْحَبُ عَنْ سُوءِ آثَارِهَا اذْيَالَ اَلتَّغَاضِي. وَاَنْتَ مَعَ ذٰلِكَ لَا تُقَوِّمُ اَعْوِجَاجَ مَذَاهِبِكَ وَلَا يَعْطِفُ بِكَ اَلرَّأْيُ عَلَى رُشْدِكَ . فَلَمَّا فَنِيَتْ حِيلَتِي فِيكَ وَاَنْقَطَعَتْ اَسْبَابُ اَمَلِي مِنْكَ وَرَاَيْتُ اَلدَّاءَ لَا يَزِيدُ عَلَى اَلتَّعَهُّدِ بِالدَّوَاءِ اِلَّا فَسَادًا وَاَلْخَرْقَ عَلَى اَلتَّرْقِيعِ اِلَّا اِتِّسَاعًا قَدَّمْتُ اَلْيَأْسَ مِنْكَ عَلَى اَلرَّجَاءِ فِيكَ فَاحْتَسَبْتُ اَيَّامِي اَلسَّالِفَةَ فِي اَسْتِصْلَاحِي لَكَ

وَقَوْلُهُ : (وَحَقُّ اَلْمَعْنَى اَنْ يَكُونَ لَهُ اَلْاِسْمُ طِبْقًا) اَيْ يَكُونَ اَلْاِسْمُ طِبْقًا لِلَفْظِ بِقَدْرِ اَلْمَعْنَى غَيْرَ زَائِدٍ عَلَيْهِ وَلَا نَاقِصٍ عَنْهُ فَكَانَ كَالطَّبَقِ عَلَى اَلْاِنَاءِ لَا يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْءٌ

وَقَوْلُهُ :(وَلَا يَكُونَ اَلْاِسْمُ فَاضِلًا وَلَا مُقَصِّرًا) فَهٰذَا دَاخِلٌ فِي اَلْاَوَّلِ مِنْ قَوْلِهِ : وَحَقُّ اَلْمَعْنَى اَنْ يَكُونَ لَهُ اَلْاِسْمُ طِبْقًا . وَمِثَالُ اَلْفَاضِلِ مِنَ اَللَّفْظِ عَنِ اَلْمَعْنَى قَوْلُ عُرْوَةَ بْنِ اُذَيْنَةَ :

وَاَسْقِ اَلْعَدُوَّ بِكَأْسِهِ وَاَعْلَمْ لَهُ ... بِاَلْغَيْبِ اَنْ قَدْ كَانَ قَبْلُ سَقَاكَهَا

وَاَجْزِ اَلْكَرَامَةَ مَنْ تَرَى اَنْ لَوْ لَهُ ... يَوْمًا بَدَلْتَ كَرَامَةً لَجَزَاكَهَا

وَمَعْنَى هٰذَا اَلْكَلَامِ مَحْصُورٌ تَحْتَ ثَلَاثِ كَلِمَاتٍ : اِجْزِ كُلًّا بِفِعْلِهِ . وَكَانَ اَلسُّكُوتُ لِعُرْوَةَ خَيْرًا مِنْهُ . وَمِنَ اَلْكَلَامِ اَلْفَاضِلِ عَنْ مَعْنَاهُ قَوْلُ اَبِي اَلْعِيَالِ اَلْهُذَلِيِّ .

ذَكَرْتُ أَخِي فَعَاوَدَنِي صُدَاعُ الرَّأْسِ وَالْوَصَبُ

فَذِكْرُ الرَّأْسِ مَعَ الصُّدَاعِ فَضْلٌ

وَالْمُقَصِّرُ مِنَ الْكَلَامِ مَا لَا يُنْبِئُكَ بِمَعْنَاهُ عِنْدَ سَمَاعِكَ إِيَّاهُ وَيُخْوِجُكَ إِلَى شَرْحِ كَبَيْتِ الْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ :

وَالْعَيْشُ خَيْرٌ فِي ظِلَالِ النُّوكِ مَنْ رَامَ كَدَّا

وَقَوْلُهُ : (وَلَا مُضَمَّنًا) التَّضْمِينُ أَنْ يَكُونَ الْفَصْلُ الْأَوَّلُ مُفْتَقِرًا إِلَى الْفَصْلِ الثَّانِي وَالْبَيْتُ الْأَوَّلُ مُحْتَاجًا إِلَى الْآخِرِ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ :

كَأَنَّ الْقَلْبَ لَبْلَةَ قِيلَ يُغْدَى بِلَيْلَى الْعَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاحُ

نَطَاةٌ غَرَّهَا شَرَكٌ فَبَاتَتْ تُجَاذِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ

فَلَمْ يَتِمَّ الْمَعْنَى إِلَّا فِي الْبَيْتِ الثَّانِي وَهُوَ قَبِيحٌ . وَمِثَالُهُ مِنْ نَثْرِ الْكُتَّابِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : وَجَعَلَ سَيِّدَنَا آخِذًا مِنْ كُلِّ مَا دُعِيَ وَيُدْعَى بِهِ فِي الْأَعْيَادِ بِأَجْزَلِ الْأَقْسَامِ وَأَوْفَرِ الْأَعْدَادِ

وَقَدْ تُسَمَّى اسْتِعَارَتُكَ الْأَنْصَافَ وَالْأَبْيَاتَ مِنْ شِعْرِ غَيْرِكَ وَإِدْخَالُكَ إِيَّاهُ فِي أَثْنَاءِ قَصِيدَتِكَ تَضْمِينًا . وَبَاقِي كَلَامِهِ يَتَضَمَّنُ صِفَةَ الْمُتَكَلِّمِ لَا صِفَةَ الْكَلَامِ إِلَّا قَوْلَهُ : (وَيَكُونَ تَصَفُّحُهُ لِمَوَارِدِهِ بِقَدْرِ تَصَفُّحِهِ لِمَصَادِرِهِ) وَسَنَأْتِي عَلَى الْكَلَامِ فِي هٰذَا وَنَسْتَقْصِيهِ فِي فَصْلِ الْمَقَاطِعِ وَالْمَبَادِئِ

البحث الثاني

في وسائل الاقناع التي يتخذها الخطيب البليغ

(من تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الخطابة لابن رشد)

اَمَّا ٱلْاَشْيَاء ٱلَّتِي تَفْعَلُ ٱلتَّصْدِيقَاتِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فَمِنْهَا مَا هِيَ صِنَاعِيَّةٌ وَتِلْكَ هِيَ ٱلَّتِي وُجُودُهَا لِاخْتِيَارِنَا وَرَوِيَّتِنَا وَنَحْنُ ٱلْفَاعِلُونَ لَهَا. وَمِنْهَا مَا هِيَ غَيْرُ صِنَاعِيَّةٍ وَهِيَ ٱلَّتِي لَيْسَ وُجُودُهَا لِاخْتِيَارِنَا وَرَوِيَّتِنَا مِثْلُ ٱلشُّهُودِ وَٱلتَّعْذِيبِ وَٱلْعُقُودِ وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ. وَٱلْاَشْيَاء ٱلصِّنَاعِيَّةُ ٱلَّتِي نَحْنُ ٱلْفَاعِلُونَ لَهَا مِنْهَا اَشْيَاء قَدْ تَقَدَّمَ غَيْرُنَا فَصَنَعَهَا مِثْلَ ٱلِاحْتِجَاجِ بِٱلْاَمْثَالِ ٱلسَّائِرَةِ ٱلَّتِي قَدْ وُضِعَتْ وَٱشْتَهَرَتْ وَمِنْهَا مَا نَخْتَرِعُهَا نَحْنُ عِنْدَ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلِاقْنَاعُ وَنَسْتَنْبِطُهَا. فَاَمَّا ٱلتَّصْدِيقَاتُ ٱلَّتِي نَفْعَلُهَا نَحْنُ وَنَخْتَرِعُهَا فَهِيَ ثَلَاثَةُ اَنْوَاعٍ: (اَحَدُهَا) اِثْبَاتُ ٱلْمُتَكَلِّمِ فَضِيلَةَ نَفْسِهِ ٱلَّتِي يَكُونُ بِهَا اَهْلًا اَنْ يُصَدَّقَ وَاَنْ يَكُونَ عِنْدَ ٱلتَّكَلُّمِ بِهَيْئَةٍ فِي وَجْهِهِ وَاَعْضَائِهِ شَأْنُهَا اَنْ تُوقِعَ ٱلتَّصْدِيقَ بِٱلشَّيْءِ ٱلْمُتَكَلَّمِ فِيهِ مِثْلَ ٱلتُّؤَدَةِ وَٱلْوَقَارِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ. وَٱلْفَضِيلَةُ ٱلَّتِي شَأْنُهَا هٰذَا هِيَ ٱلَّتِي يَعْنِي اَرِسْطُو بِٱلْكَيْفِيَّةِ. وَٱلْهَيْئَةُ ٱلَّتِي شَأْنُهَا هٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يَعْنِي بِٱلسَّمْتِ. وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى اَنَّ لِلْفَضِيلَةِ تَأْثِيرًا فِي ٱلتَّصْدِيقِ اَنَّ ٱلصَّالِحِينَ ٱلْفَاضِلِينَ يُصَدَّقُونَ سَرِيعًا

دُونَ قَوْلٍ يَتَكَلَّفُونَهُ فِي الشَّيْءِ. وَإِنَّمَا يَكُونُ ذٰلِكَ فِي الْأُمُورِ الظَّاهِرَةِ لِلْحِسِّ الَّتِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ أَحَسُّوهَا مِثْلُ قَوْلِهِمْ: إِنَّهُ شَرِبَ أَوْ قَتَلَ. فَأَمَّا إِخْبَارُهُمْ عَنِ الْأُمُورِ الْخَفِيَّةِ عِنْدَ الْحِسِّ وَهِيَ الَّتِي يُظَنُّ أَنَّهُ خَفِيَ عَنْهُمْ مَا أَحَسُّوا مِنْ ذٰلِكَ أَوْ وَهَمُوا فِيهِ إِذَا كَانَ ذٰلِكَ الشَّيْءُ مُمْكِنًا أَنْ يَهِمَ فِيهِ الْحِسُّ فَلَيْسَ يُصَدَّقُونَ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَدَّعُونَهَا فِي أَمْثَالِ هٰذِهِ الْأَشْيَاءِ دُونَ أَنْ يَسْتَعْمِلُوا فِي تَثْبِيتِ ذٰلِكَ الشَّيْءِ الْقَوْلَ. وَعَلَيْهِ قَدْ أَخْطَأَ الَّذِينَ ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِي الْخَطَابَةِ فَذَهَبُوا إِلَى أَنَّ الْفَضِيلَةَ وَالْأَنَاةَ إِنَّمَا هِيَ نَافِعَةٌ فِي بَابِ الِانْفِعَالِ فَقَطْ. وَأَمَّا (الصِّنْفُ الثَّانِي مِنَ التَّصْدِيقَاتِ) فَهُوَ الصِّنْفُ الَّذِي يَكُونُ بِأَنْ يَكْسِبَ السَّامِعُ بِالْقَوْلِ انْفِعَالًا مَا يُوجِبُ لَهُ التَّصْدِيقَ بِالشَّيْءِ الَّذِي فِيهِ الْقَوْلُ. فَإِنَّهُ لَيْسَ تَصْدِيقُنَا بِالشَّيْءِ وَاقْرَارُنَا بِهِ وَنَحْنُ فِي حَالِ الْفَرَحِ أَوِ الْحُزْنِ تَصْدِيقًا وَاحِدًا. وَكَذٰلِكَ إِذَا كُنَّا فِي حَالِ السُّخْطِ عَلَى الشَّيْءِ أَوْ حَالِ الرِّضَا عَنْهُ. وَهٰذِهِ هِيَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي تَكَلَّمَ فِيهَا أُولٰئِكَ الَّذِينَ ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِي هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ. وَأَمَّا (الصِّنْفُ الثَّالِثُ مِنْ هٰذِهِ التَّصْدِيقَاتِ) فَهُوَ تَثْبِيتُ الشَّيْءِ بِالْكَلَامِ الْمُقْنِعِ أَوْ مَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مُقْنِعٌ وَذٰلِكَ فِي الْأُمُورِ الْجُزْئِيَّةِ الَّتِي تُقْنِعُ فِيهَا هٰذِهِ الصِّنَاعَةُ. وَإِذَا كَانَتِ التَّصْدِيقَاتُ إِنَّمَا تَكُونُ فِي هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ بِهٰذِهِ الْوُجُوهِ فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ الَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يُقْنِعَ الِاقْنَاعَ الْمُمْكِنَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِنَّمَا هُوَ الَّذِي يَكُونُ عَالِمًا بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: (أَوَّلُهَا) مَعْرِفَةُ الْأَقَاوِيلِ الْمُقْنِعَةِ. (وَثَانِيهَا)

مَعْرِفَةُ ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلْفَضَائِلِ . (وَثَالِثُهَا) مَعْرِفَةُ ٱلِٱنْفِعَالَاتِ (١) وَذٰلِكَ بِأَنْ يَعْرِفَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلِٱنْفِعَالَاتِ مَا هُوَ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَكُونُ وَمَتَى يَكُونُ وَكَيْفَ يَكُونُ . وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ كَأَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْكَلَامِ وَٱلصِّنَاعَةِ ٱلْخُلُقِيَّةِ أَعْنِي ٱلْمَدَنِيَّةَ . وَإِنَّمَا لَمْ يُوجَدْ لِمَنْ تَقَدَّمَ قَوْلٌ مُسْتَوْفٍ فِي أَجْزَائِهَا إِمَّا مِنْ قِبَلِ جَهْلِهِمْ وَإِمَّا مِنْ قِبَلِ أَنَّهُمْ ضَنُّوا عَلَى غَيْرِهِمْ وَبَخِلُوا عَلَيْهِمْ بِمَا وَقَفُوا عَلَيْهِ مِنْ ذٰلِكَ لِمَكَانِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ . فَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ هِيَ جُزْءٌ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْمَنْطِقِ وَهِيَ شَبِيهَةٌ بِٱلْجَدَلِ فِي أَنَّهَا تَنْظُرُ فِي كِلَا ٱلْمُتَقَابِلَيْنِ وَفِي أَنَّهُمَا لَيْسَا يَنْظُرَانِ فِي شَيْءٍ مَحْدُودٍ نَظَرًا يَبْلُغَانِ بِهِ ٱلْيَقِينَ لٰكِنْ إِنَّمَا يَبْلُغَانِ مِنَ ٱلنَّظَرِ مَا دُونَ ٱلْيَقِينِ

---

(١) هذا التقسيم قد اخذهُ عن ارسطاطاليس كل من تكلموا في الخطابة . وناهيك به من تقسيم يفي بالمقصود ويشمل كل اجزاء الخطابة والفرنج يدعون هذه الاقسام الثلاثة (Preuves, mœurs oratoires, passions)

الفصل الثالث

في الاقاويل المقنعة

البحث الاوّل

في ان الخطيب لا بد لهُ للاقناع من معرفة ٱلقياس وعلم المنطق

(من تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الخطابة لابن رشد)

مِنْ اَجْلِ اَنَّهُ مَعْلُومٌ اَنَّ ٱلْاَشْيَاءَ ٱلْمَنْسُوبَةَ اِلَى هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا ٱلتَّصْدِيقُ وَٱلِاعْتِرَافُ مِنَ ٱلْمُخَاطِبِ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلدَّعْوَى وَذٰلِكَ لَا يَكُونُ اِلَّا بِتَثْبِيتِ ٱلشَّيْءِ عِنْدَ ٱلْمُعْتَرِفِ بِهِ. وَذٰلِكَ اَنَّا اِنَّمَا نَعْتَرِفُ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي رَاَيْنَا اَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ عِنْدَنَا وَٱلشَّيْءُ ٱلَّذِي تَثْبُتُ بِهِ ٱلْاَشْيَاءُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْخَطَابَةِ هُوَ ٱلضَّمِيرُ (١) لِاَنَّ هٰذَا هُوَ اَصْلُ ٱلتَّصْدِيقِ وَعُمُودُهُ فِي ٱلْاُمُورِ ٱلَّتِي تُوقِعُ هٰذَا ٱلنَّحْوَ مِنَ ٱلتَّصْدِيقِ اَعْنِي ٱلتَّصْدِيقَ ٱلْبَلَاغِيَّ. وَٱلضَّمِيرُ هُوَ نَوْعٌ مِنَ ٱلْقِيَاسِ وَمَعْرِفَةُ ٱلْقِيَاسِ جُزْءٌ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْمَنْطِقِ فَقَدْ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ صَاحِبُ ٱلْمَنْطِقِ هُوَ ٱلَّذِي يَنْظُرُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اِمَّا فِي كُلِّهَا وَاِمَّا فِي اَجْزَاءٍ مِنْهَا. وَبَيِّنٌ اَنَّ ٱلَّذِي يَعْرِفُ ٱلْقِيَاسَ مِنْ كَمْ شَيْءٍ يَلْتَئِمُ وَيَكُونُ وَمَتَى يَكُونُ فَهُوَ اَقْدَرُ عَلَى عَمَلِ ٱلضَّمِيرِ مِمَّنْ يَعْرِفُ ٱلضَّمِيرَ فَقَطْ دُونَ اَنْ

(١) يريد بالضمير القياس الاضماري (Enthymème) وهو القياس الذي قدّرت احدى مقدّمتيه اما الكبرى واما الصغرى

تعرف القياس الذي هو جنسه . والذي يزيد على هذا فيعلم لماذا تعمل الضمائر والفصول التي بين الضمير وبين سائر المقاييس التي تستعمل في الصنائع الاخر فهو اقدر من ذينك . والمعرفة بهذا كله انما هو لصناعة المنطق . فان للقوة الواحدة بعينها اعني للصناعة الواحدة بعينها ان تعرف الشيء الذي هو حق والذي هو شبيه بالحق والتصديقات الخطبية وان لم تكن حقا فهي شبيهة بالحق وايضا فان الناس متهيئون بطبيعتهم كل التهيئة نحو الوقوف على الحق نفسه . وهم اكثر ذلك يؤمونه ويفعلون عنه . والمحمودات وهي التي تكون منها الضمائر شبيهة بالحق من قبل انها نافعة عند الجمهور مناسب الحق . والشبيه بالحق قد يدخل في علم الحق الذي هو علم المنطق . واذا كان الامر هكذا فقد استبان ان قصور هؤلاء فيما تكلموا فيه من امر الخطابة انما كان من اجل انه لم يكن عندهم علم بالمنطق وان سائر من تكلم في الخطابة ومن يستعمل الاقاويل الخطبية فقط من غير ان يتقدموا فيعرفوا هذه الاشياء التي هي عمود البلاغة انهم انما يتكلمون في اشياء تجري من البلاغة مجرى التزيين والتنميق الذي يكون في ظاهر الشيء وصفحته لا في الاشياء التي تتزل منها منزلة ما به قوام الشيء ووجوده وان كان قد يظن بما فعلوا من ذلك انهم قد بلغوا الغاية من الاقاويل الاقناعية وجروا في ذلك على طريق الصواب والعدل

المبحث الثاني

في الطريق اي الدليل وتقسيمه (*)

(من كتاب المواقف لعبد الرحمان الايجي)

(راجع صفحة ١١ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلطَّرِيقُ هُوَ اَلْمُوَصِّلُ اِلَى اَلْمَقْصُودِ وَحَدُّهُ هُوَ مَا يُمْكِنُ اَلتَّوَصُّلُ بِصَحِيحِ اَلنَّظَرِ فِيهِ اِلَى مَطْلُوبٍ. وَلَمَّا كَانَ اَلْإِدْرَاكُ اِمَّا تَصَوُّرًا اَوْ تَصْدِيقًا فَكَذَا اَلْمَطْلُوبُ. فَاِنْ كَانَ تَصَوُّرًا سُمِّيَ طَرِيقُهُ مُعَرِّفًا وَاِنْ كَانَ تَصْدِيقًا سُمِّيَ دَلِيلًا وَهُوَ يَشْمَلُ اَلظَّنِّيَّ وَاَلْقَطْعِيَّ وَقَدْ يُخَصُّ بِاَلْقَطْعِيِّ. وَيُسَمَّى اَلظَّنِّيُّ اِمَارَةً وَقَدْ يُخَصُّ بِمَا يَكُونُ مِنَ اَلْمَعْلُولِ عَلَى اَلْعِلَّةِ وَيُسَمَّى عَكْسُهُ تَعْلِيلًا

شرح هذه المقالة للسيد الجرجاني

(*) قال : (الطريق) اي ما يقع فيهِ النظر (وهو الموصل الى المقصود) بتوسط النظر. (وحدُّهُ) اي تحديده وتقسيمه الى اقسامه الاولية (هو) اي الطريق (ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيهِ الى مطلوب) اعتبر الامكان لان الطريق لا يخرج عن كونه طريقًا بعدم التوصل بل يكفيه امكانهُ. وقيَّد النظر بالصحيح لان الفاسد لا يستلزم المطلوب فلا يمكن ان يتوصل بهِ اليهِ اذ ليس في نفسه وسيلة لهُ. واراد بالنظر فيهِ ما يعمُّ النظر في نفسهِ والنظر في احواله ليتناول المفرد الذي من شانه انه اذا نظر في احواله اوصل الى المطلوب كالعالم مثلًا فانه يسمى عندهم دليلًا. ويتناول ايضًا التصورات المتعددة غير مأخوذة مع الترتيب وحينئذٍ يلزم تناولهُ للمقدمات اذ لم تؤخذ مع ترتيبها. واطلق المطلوب

البحث الثالث

في المواضع

(عن تلخيص كتاب ارسطو في الخطابة لابن رشد)

(راجع صفحة ٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قَالَ) كُلُّ مَا كَانَ ٱلْقَوْلُ أَكْثَرَ عُمُومًا كَانَ أَكْثَرَ مُؤَاتَاةً وَتَأَتِّيهَا لِأَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ . وَكُلَّمَا كَانَ أَقَلَّ عُمُومًا كَانَ أَحْرَى أَنْ يَكُونَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةٍ مَخْصُوصَةٍ . وَلِذٰلِكَ كَانَتِ ٱلْمَوَاضِعُ مِنَ ٱلْقِيَاسَاتِ ٱلْخُطَبِيَّةِ وَٱلْقِيَاسَاتِ ٱلْجَدَلِيَّةِ . وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمَوَاضِعَ تُوجَدُ تَعُمُّ ٱلْأُمُورَ ٱلْمَنْطِقِيَّةَ وَٱلطَّبِيعِيَّةَ وَٱلسِّيَاسِيَّةَ أَعْنِي ٱلْإِرَادِيَّةَ . وَذٰلِكَ مِثْلُ مَوَاضِعِ ٱلْأَقَلِّ وَٱلْأَكْثَرِ (*) فَإِنَّهَا لَيْسَ

(*) يريد بمواضع الاقل والاكثر المقابلة في غير الاضداد (راجع الجزء الثاني من علم الادب صفحة ٢٩

ليتناول المطلوب التصوري والتصديقي . (ولما كان الادراك اما تصوراً او تصديقاً فكذا المطلوب) الادراكي الذي يطلب بالنظر . (فان كان) المطلوب (تصوراً سمي طريقهُ) الذي يمكن ان يتوصل بالنظر فيه اليهِ (معرفاً) . (وان كان) المطلوب (تصديقاً سمي) طريقهُ (دليلاً وهو) اي الدليل بالمعنى المذكور (يشمل الظني) الموصل الى الظن كالغيم الرطب الموصل الى ظن المطر . (والقطعي) الموصل الى الجزم والقطع كالعالم الموصل الى العلم بوجود الصانع . (وقد يخص) الدليل (بالقطعي) . (ويسمى الظني امارة وقد يخص) الدليل ايضاً مع التخصيص الاول (بما يكون) الاستدلال فيهِ (من المعلول) كالحمى (على العلة) كتعفن الاخلاط ويسمى هذا برهاناً انّياً (ويسمى عكسه) وهو ما يستدل فيهِ من العلة على المعلول (تعليلاً) وبرهاناً لِمّياً

تُعْمَلُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ فِي صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا بَلْ فِي جَمِيعِهَا إِذْ كَانَتْ لَا تُسْتَعْمَلُ نَفْسُهَا وَإِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ قُوَّتُهَا. وَأَمَّا ٱلْأَنْوَاعُ فَهِيَ ٱلْمُقَدَّمَاتُ ٱلْخَاصَّةُ بِصِنَاعَةٍ صِنَاعَةٍ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْجُزْئِيَّةِ مِثْلُ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي تُعْمَلُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ فَإِنَّهَا لَا تُعْمَلُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْخُلُقِيَّةِ وَلَا ٱلَّتِي فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْخُلُقِيَّةِ تُعْمَلُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ. وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ هٰكَذَا فَإِذَنِ ٱلْمَوَانِعُ لَا يُؤَلَّفُ مِنْهَا قِيَاسٌ فِي صِنَاعَةٍ مَخْصُوصَةٍ إِذْ مَا يُتَصَوَّرُ مِنْهَا هُوَ عَامٌّ لِأَكْثَرَ مِنْ صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ. وَأَمَّا ٱلْأَنْوَاعُ فَهِيَ ٱلَّتِي تُؤَلَّفُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ ٱلَّتِي تَلْتَئِمُ مِنْهَا ٱلصِّنَاعَةُ ٱلَّتِي تِلْكَ ٱلْأَنْوَاعُ مَخْصُوصَةٌ بِهَا. لٰكِنَّ ٱلْأَنْوَاعَ ٱلَّتِي نَحْنُ عَازِمُونَ فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ عَلَى ذِكْرِهَا لَيْسَتْ هِيَ مُقَدَّمَاتٍ يَقِينِيَّةً لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لَكَانَتِ ٱلْمَقَايِيسُ ٱلْخُطَبِيَّةُ مَقَايِيسَ يَقِينِيَّةً وَلَمْ تَكُنْ مَقَايِيسَ جَدَلِيَّةً فَضْلًا عَنْ خُطَبِيَّةٍ. وَٱلضَّمَائِرُ ٱلْمَعْمُولَةُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَكْثَرُ ذٰلِكَ إِنَّمَا تُؤَلَّفُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَنْوَاعِ مَا كَانَ مِنْهَا خَاصًّا بِجِنْسٍ جِنْسٍ مِنْ أَجْنَاسِ ٱلْخَطَابَةِ ٱلثَّلَاثَةِ وَمَا كَانَ مِنْهَا عَامًّا لِلْأَجْنَاسِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّتِي تُحَدَّدُ بَعْدُ

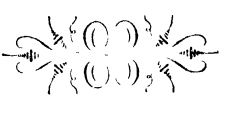

البحث الرابع

في التعريف والحد والرسم

(من كتاب الشفاء لابن سينا والمواقف للايجي وغيرهما)

(راجع صفحة ١٤ من علم الخطابة)

اَلتَّعْرِيفُ عِنْدَ اَهْلِ اَلْعَرَبِيَّةِ هُوَ جَعْلُ اَلذَّاتِ مُشَارًا بِهَا اِلَى خَارِجٍ اِشَارَةً وَضْعِيَّةً وَيُقَابِلُهَا اَلتَّنْكِيرُ. وَعِنْدَ اَلْمَنْطِقِيِّينَ هُوَ اَلطَّرِيقُ اَلْمُوصِلُ اِلَى اَلْمَطْلُوبِ اَلتَّصَوُّرِيِّ وَيُسَمَّى مُعَرِّفًا وَقَوْلًا شَارِحًا اَيْضًا وَيُسَمَّى حَدًّا اَيْضًا عِنْدَ اَلْاُصُولِيِّينَ. وَذٰلِكَ اَلْمَطْلُوبُ اَلتَّصَوُّرِيُّ يُسَمَّى مُعَرَّفًا وَمَحْدُودًا. وَبِالْجُمْلَةِ فَاَلْمُعَرِّفُ مَا يُكْتَسَبُ بِهِ اَلتَّصَوُّرُ فَخَرَجَ مَا يَحْصُلُ بِطَرِيقِ اَلْحَدْسِ وَمَا يَحْصُلُ مِنَ اَلْمَلْزُومَاتِ اَلْبَيِّنَةِ مِنَ اَلْعِلْمِ بِاَللَّوَازِمِ فَاِنَّ اَلْاِكْتِسَابَ اِنَّمَا هُوَ بِاَلنَّظَرِ. وَقَالَ اَلْمَنْطِقِيُّونَ: لَا بُدَّ فِي اَلْمُعَرِّفِ مِنْ مُمَيِّزٍ فَاِنْ كَانَ اَلْمُمَيِّزُ ذَاتِيًا سُمِّيَ اَلْمُعَرِّفُ حَدًّا وَاِنْ كَانَ عَرَضِيًا سُمِّيَ اَلْمُعَرِّفُ رَسْمًا. وَقَالَ اَلْمُتَقَدِّمُونَ: اِنَّ اَلرَّسْمَ مِنْهُ تَامٌّ يُمَيِّزُ اَلْمَرْسُومَ مِنْ كُلِّ مَا يُغَايِرُهُ وَهُوَ يَتَرَكَّبُ مِنَ اَلْجِنْسِ اَلْقَرِيبِ وَاَلْخَاصَّةِ كَتَعْرِيفِ اَلْاِنْسَانِ بِاَلْحَيَوَانِ اَلضَّاحِكِ. وَمِنْهُ نَاقِصٌ يُمَيِّزُهُ عَنْ بَعْضِ مَا يُغَايِرُهُ وَيَكُونُ بِاَلْخَاصَّةِ وَحْدَهَا اَوْ بِهَا وَبِاَلْجِنْسِ اَلْبَعِيدِ كَتَعْرِيفِ اَلْاِنْسَانِ بِاَلضَّاحِكِ اَوْ بِاَلْجِسْمِ اَلضَّاحِكِ اَوْ بِعَرَضِيَّاتٍ تَخْتَصُّ جُمْلَتُهَا بِحَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ كَقَوْلِنَا فِي

تَعْرِيفِ ٱلْإِنْسَانِ : إِنَّهُ مَاشٍ عَلَى قَدَمَيْهِ عَرِيضُ ٱلْأَظْفَارِ بَادِي ٱلْبَشَرَةِ مُسْتَقِيمُ ٱلْقَامَةِ ضَحَّاكٌ بِٱلطَّبْعِ . وَصَرَّحُوا بِأَنَّ ٱلْمُسَاوَاةَ شَرْطٌ لِجَوْدَةِ ٱلرَّسْمِ وَجَوَّزُوا ٱلرَّسْمَ بِٱلْأَعَمِّ وَٱلْأَخَصِّ وَٱلْيَدَ ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱلْمُعَرِّفَ لَا بُدَّ أَنْ يُفِيدَ ٱلتَّمْيِيزَ عَنْ بَعْضِ ٱلْأَغْيَارِ كَمَا يَقْتَضِيهِ تَعْرِيفُهُمْ لِلْمُعَرَّفِ بِمَا يَسْتَلْزِمُ مَعْرِفَتَهُ . فَإِنَّ ٱلْمَعْرِفَةَ تَقْتَضِي ٱلتَّمْيِيزَ فِي ٱلْجُمْلَةِ . وَأَمَّا ٱلتَّمْيِيزُ عَنْ جَمِيعِهَا فَلَيْسَ بِشَرْطٍ لِأَنَّ ٱلتَّصَوُّرَاتِ ٱلْمُكْتَسَبَةَ كَمَا قَدْ تَكُونُ بِوَجْهٍ خَاصٍّ بِٱلشَّيْءِ إِمَّا ذَاتِيٌّ أَوْ عَرَضِيٌّ كَذٰلِكَ تَكُونُ بِوَجْهٍ عَامٍّ ذَاتِيٍّ أَوْ عَرَضِيٍّ . فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ كَاسِبُ كُلٍّ مِنْهُمَا مُعَرِّفًا فَٱلْمُسَاوَاةُ شَرْطٌ لِلْمُعَرِّفِ ٱلتَّامِّ دُونَ غَيْرِهِ حَدًّا كَانَ أَوْ رَسْمًا

قَالَ ٱلْإِيجِيُّ : (*) ٱلْمَعْرُوفُ تَجِبُ مَعْرِفَتُهُ قَبْلَ ٱلْمَعْرِفِ فَيَكُونُ غَيْرَهُ أَوْ أَجْلَى مِنْهُ فَلَا يُعَرَّفُ بِمَا لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِهِ بِمَرْتَبَةٍ أَوْ أَكْثَرَ .

شرح مقالة الايجي للجرجاني

يقول : (المعرّف تجب معرفتهُ قبل) معرفة (المعرَّف) لان معرفتهُ طريقٌ الى معرفتهِ وسببٌ لها فلا بد ان تتقدمها . (فيكون غيرهُ) اذ لو كان عينه لزم كون الشيء معلومًا قبل ان يكون معلومًا (او) يكون ايضًا (اجلى منه) اذ لو ساواه في الجلاء او كان اخفى منهُ لم يكن معلومًا قبله . (فلا يعرّف) هذا تفريع على كونه اجلى اي لا يعرَّف الشيء (بما لا يُعرَف الا بهِ) فانه لا يكون اجلى منه سواء توقف معرفته على معرفته (بمرتبة) واحدة ويسمى دورًا صريحًا كقولك : الشمس كوكب نهاري والنهار زمان كون الشمس طالعة . (او اكثر) ويسمى دورًا مضمرًا كقولك : الحركة خروج الشيء من القوة الى الفعل بالتدريج والتدريج وقوع الشيء في زمان والزمانُ مقدار الحركة . (ولا بد) اشارةٌ الى شرط آخر للمعرِّف اي لا بد من (ان يساويه في العموم والخصوص ليحصل) بهِ (التمييز) . (اذ لولاه)

وَلَا بُدَّ اَنْ يُسَاوِيَهُ فِي الْعُمُومِ وَالْخُصُوصِ لِيَحْصُلَ التَّمَيُّزُ اِذْ لَوْلَاهُ لَدَخَلَ فِيهِ غَيْرُ الْمُعَرَّفِ فَلَمْ يَكُنْ مَانِعًا وَمُطَّرِدًا . اَوْ خَرَجَ عَنْهُ بَعْضُ اَفْرَادِهِ فَلَمْ يَكُنْ جَامِعًا وَمُنْعَكِسًا وَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ مُمَيِّزٍ فَاِنْ كَانَ ذَاتِيًا سُمِّيَ حَدًّا وَاِلَّا سُمِّيَ رَسْمًا . وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ فَاِنْ ذُكِرَ فِيهِ تَمَامُ الذَّاتِيِّ الْمُشْتَرَكِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ الْمُسَمَّى بِالْجِنْسِ الْقَرِيبِ فَتَامٌّ وَاِلَّا فَنَاقِصٌ . وَالْمُرَكَّبُ يُحَدُّ دُونَ الْبَسِيطِ فَاِنْ تَرَكَّبَ عَنْهُمَا غَيْرُهُمَا حُدَّ بِهِمَا وَاِلَّا فَلَا . وَكُلُّ كَسْبِيٍّ لَهُ خَاصَّةٌ بَيِّنَةٌ يُرْسَمُ وَاِلَّا فَلَا.

اي لو لا كونهُ مساويًا (للدخل فيه غير المعرّف) على تقدير كونه اعمَّ مطلقًا او من وجه (فلم يكن مانعًا) من دخول غير المعرف فيهِ (و) لا (مطردًا) وهو ان يكون بحيث كلما صدق على شيء صدق عليهِ المعرَّف ايضًا.(او خرج عنهُ بعض افراده) على تقدير كونه اخص امَّا مطلقًا او من وجه (فلم يكن جامعًا) لجميع افراد المعرَّف (و) لا (منعكسًا) وهو ان يكون بحيث يصدق على كل ما صدق عليه المعرّف. واعلم ان اشتراط المساواة في الصدق ما ذهب اليهِ المتأخرون اذ حينئذٍ يحصل التمييز التام بحيث يمتاز جميع افراد المعرف عن جميع ما عداها ولا يلتبس شيء منها بغيرها . . . (ولا بد فيهِ) اي في المعرِّف (من مميز مساوٍ للمعرَّف (فان كان) المميز (ذاتيًا سمي) المعرِّف (حدًّا) (والا سمي رسمًا.وعلى التقديرين فان ذكر فيهِ تمام الذاتي المشترك بينهُ وبين غيره المسمى بالجنس القريب فتامٌّ) إمَّا حد تامٌّ مركب من الجنس والفصل القريبين واما رسم تام مركب من الخاصة والجنس القريب . (والا فناقص) امَّا حد ناقص سواء كان بالفصل وحده او مع الجنس البعيد او العرض العام عند من يجوّز اخذه في الحد.واما رسم ناقص بالخاصة وحدها او مع الجنس البعيد او العرض العام عند من يجوز اخذهُ في الرسم.(والمركب)اذا لم يكن بديهيَّ التصور (يحد) باجزائه حدًّا تامًا وناقصًا (دون البسيط) فانه لا يمكن تحديده اذ لا جزء لهُ (فان تركب عنهما) عن المركب والبسيط (غيرهما) ولا يكون ذلك الغير بديهي التصور (حدَّ بهما والا فلا) يحد بهما اذ لم يقعا جزء الشيء (وكل) متصور (كسبي) مركب او بسيط (لهُ خاصة) شاملة لازمة (بينة) بحيث يكون تصورهما

فَإِنْ كَانَ مُرَكَّبًا أَمْكَنَ رَسْمُهُ ٱلتَّامُّ وَإِلَّا فَٱلنَّاقِصُ. وَهٰهُنَا نَوْعَانِ آخَرَانِ مِنَ ٱلتَّعْرِيفِ ٱلْأَوَّلُ بِٱلْمِثَالِ وَهُوَ بِٱلْحَقِيقَةِ تَعْرِيفٌ بِٱلْمُشَابَهَةِ. فَإِنْ كَانَتْ مُفِيدَةً لِلتَّمْيِيزِ فَهِيَ خَاصَّةٌ فَيَكُونُ رَسْمًا نَاقِصًا وَإِلَّا لَمْ تَصْلُحْ لِلتَّعْرِيفِ. وَٱلثَّانِي ٱلتَّعْرِيفُ ٱللَّفْظِيُّ وَهُوَ أَنْ لَا يَكُونَ ٱللَّفْظُ

مستلزمًا لتصوره (يرسم. والا) اي وان لم تكن لهُ خاصة كذلك (فلا) يرسم. (فان كان) ذلك الكسبي الذي له تلك الخاصة (مركبًا امكن رسمه التام) بتركيب جنسه القريب مع خاصته (والا فالناقص. وههنا نوعان آخران من التعريف الاول) التعريفَ (بالمثال) سواء كان جزئيًا للمعرَّف كقولك الاسم كزيد والفعل كضرب او لا يكون جزئيًا له كقولك: العلم كالنور والجهل كالظلمة. (وهو بالحقيقة تعريف بالمشابهة) التي بين ذلك المعرَّف وبين المثال. (فان كانت) تلك المشابهة (مفيدة للتمييز فهي خاصة) لذلك المعرَّف (فيكون) التعريف بها (رسمًا ناقصًا) داخلًا في الاقسام الاربعة المذكورة للمعرَّف (والَّا) اي وان لم تكن تلك المشابهة مفيدة للتمييز (لم تصلح للتعريف) بها فليس التعريف بالمثال قسيمًا على حدة. ولما كان استيناس العقول القاصرة بالامثلة اكثر شاع في مخاطبات المتعلمين التعريفات بها. (والثاني التعريف اللفظي. وهو ان لا يكون اللفظ واضح الدلالة) على معنى (فيفسَّر بلفظ اوضح دلالة) على ذلك المعنى كقولك: الغضنفر الاسد. وليس هذا تعريفًا حقيقيًا يراد بهِ افادة تصور غير حاصل. انما المراد تعيين ما وضع له لفظ الغضنفر من بين سائر المعاني ليلتفت اليهِ ويعلم انهُ موضوع بازائهِ. فآلهُ الى التصديق وهو طريقة اهل اللغة وخارج عن المعرَّف الحقيقي واقسامهِ الاربعة التي ذُكرت. وحقهُ ان يكون بالفاظ مفردة مرادفة. فان لم يوجد ذُكر مركبٌ يقصد بهِ تعيين المعنى لا تفصيلهُ. واعلم ان التعريف الحقيقي الذي يقصد بهِ تحصيل ما ليس بحاصل من التصورات ينقسم الى قسمين: احدهما ما يقصد بهِ تصور مفهومات غير معلومة الوجود في الخارج ويسمى تعريفًا بحسب الاسم. فاذا عُلم مثلًا مفهوم الجنس اجمالًا واريد تصورهُ بوجه اكمل فان فصل نفس مفهومهِ باجزائه كان ذلك حدًّا له اسميًا. وان ذُكر في تعريفه عوارضه كان ذلك له رسمًا اسميًا. والثاني ما يقصد بهِ تصور حقائق موجودة ويسمى تعريفًا بحسب الحقيقة اما حدًّا او رسمًا ...

وَاضِحَ ٱلدَّلَالَةِ فَيُفَسَّرَ بِلَفْظٍ اَوْضَحَ دَلَالَةً . ثُمَّ اِنَّهُ يُقَدَّمُ فِي ٱلتَّعْرِيفِ ٱلْاَعَمُّ وَيُحْتَرَزُ عَنِ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْغَرِيبَةِ ٱلْوَحْشِيَّةِ وَعَنِ ٱلْمُشْتَرَكِ وَٱلْمَجَازِ بِلَا قَرِينَةٍ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَعَنْ كُلِّ لَفْظٍ غَيْرِ ظَاهِرِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ

المبحث الخامس

في الكلي والجزئي

(من كتاب الشفاء لابن سينا وتعريفات السيد الجرجاني وشرح الشمسيّة

(راجع صفحة ١٦ من الجزء الثاني من علم الادب)

ٱلْكُلِّيُّ عِنْدَ ٱلْمَنْطِقِيِّينَ هُوَ ٱلْمَفْهُومُ ٱلَّذِي لَا يَمْنَعُ تَصَوُّرُهُ مِنْ وُقُوعِ شَرِكَةٍ كَثِيرِينَ فِيهِ بِحَيْثُ يُمْكِنُ تَقْسِيمُهُ اِلَى اَجْزَاءٍ . وَٱلْمُعْتَبَرُ فِي ٱلْكُلِّيِّ اِمْكَانُ فَرْضِ صِدْقِهِ عَلَى كَثِيرِينَ سَوَاءٌ كَانَ صَادِقًا اَوْ لَمْ يَكُنْ وَسَوَاءٌ فَرَضَ ٱلْعَقْلُ بِصِدْقِهِ اَوْ لَمْ يَفْرِضْ قَطُّ . وَيُقَابِلُهُ

(ثم انهُ يقدم في التعريف الاعم) لكونه اظهر عند العقل فتقديمهُ اولى ولان الاخص قيد لهُ مخصّص اياه فكان تقديمه عليه انسب وما يقال من انه واجب في الحد التام محصل لجزئه الصوري حتى اذا أُخّر الجنس فيه كان حدًّا ناقصًا فليس بشيء اذ ليس للحد التام جزء خارج عن اجزاء الماهية المحصرة في الجنس والفصل . (ويحترز) فيه (عن الالفاظ الغريبة الوحشية) التي لا يفهم السامع معناها فيحتاج الى تفسيرها فتطول المسافة ولذلك مما يختلف بالقياس الى السامعين فان اصطلاحات كل قوم مشهورة عند اربابها غريبة عند غيرهم . (وعن المشترك والمجاز بلا قرينة) ظاهرة فيتردد السامع حينئذٍ في المشترك بين المصور وغيره ويتبادر ذهنه في المجاز الى غيره . (وبالجملة فعن كل لفظ غير ظاهر الدلالة على المقصود) وذلك لانه يصدر الاظهار والتوضيح فلا بد من ظهور الدلالة

ٱلْجُزْئِيُّ وَهُوَ ٱلْمَفْهُومُ مِمَّا يَتَرَكَّبُ مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ شَيْءٌ سَوَاءٌ كَانَ مَوْجُودًا فِي ٱلْخَارِجِ اَوْ فِي ٱلْعَقْلِ. وَلِلْكُلِّيِّ تَقْسِيمَاتٌ فَهُوَ اِمَّا حَقِيقِيٌّ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَّ تَحْدِيدُهُ. وَاِمَّا اِضَافِيٌّ وَهُوَ مَا ٱنْدَرَجَ تَحْتَهُ شَيْءٌ آخَرُ فِي نَفْسِ ٱلْاَمْرِ وَهُوَ اَخَصُّ مِنَ ٱلْكُلِّيِّ ٱلْحَقِيقِيِّ. وَٱلْكُلِّيُّ اَيْضًا اِمَّا جِنْسٌ اَوْ نَوْعٌ اَوْ فَصْلٌ اَوْ خَاصَّةٌ اَوْ عَرَضٌ عَامٌّ. وَيُقْسَمُ اَيْضًا اِلَى كُلِّيٍّ طَبِيعِيٍّ اَوْ عَقْلِيٍّ عَلَى حَسَبِ مَا يَكُونُ مَوْجُودًا فِي ٱلْخَارِجِ اَوْ يَفْتَرِضُهُ ٱلْعَقْلُ وَٱعْلَمْ اَنَّ كُلَّ مَفْهُومٍ آخَرَ سَوَاءٌ كَانَا كُلِّيَّيْنِ اَوْ جُزْئِيَّيْنِ اَحَدُهُمَا كُلِّيًا وَٱلْآخَرُ جُزْئِيًا فَٱلنِّسْبَةُ بَيْنَهُمَا مُنْحَصِرَةٌ فِي اَرْبَعٍ: ٱلْمُسَاوَاةُ. وَٱلْعُمُومُ مُطْلَقًا. وَٱلْعُمُومُ مِنْ وَجْهٍ. وَٱلْمُبَايَنَةُ ٱلْكُلِّيَّةُ. وَذٰلِكَ اَنَّهُ اِنْ لَمْ يَتَصَادَقَا عَلَى شَيْءٍ اَصْلًا فَهُمَا مُتَبَايِنَانِ تَبَايُنًا كُلِّيًا. وَاِنْ تَصَادَقَا فَاِنْ تَلَازَمَا فِي ٱلصِّدْقِ فَهُمَا مُتَسَاوِيَانِ وَاِلَّا فَاِنِ ٱسْتَلْزَمَ صِدْقُ اَحَدِهِمَا صِدْقَ ٱلْآخَرِ فَبَيْنَهُمَا عُمُومٌ وَخُصُوصٌ مِنْ وَجْهٍ وَكُلٌّ مِنْهُمَا: (اَعَمُّ) مِنَ ٱلْآخَرِ مِنْ وَجْهٍ وَهُوَ كَوْنُهُ شَامِلًا لِلْآخَرِ وَلِغَيْرِهِ. (وَاَخَصُّ) مِنْهُ مِنْ وَجْهٍ وَهُوَ كَوْنُهُ مَشْمُولًا لِلْآخَرِ فَٱلْمُسَاوَاةُ بَيْنَهُمَا اَنْ يَصْدُقَ كُلٌّ مِنْهُمَا بِٱلْفِعْلِ عَلَى كُلِّ مَا صَدَقَ عَلَيْهِ ٱلْآخَرُ سَوَاءٌ وَجَبَ ذٰلِكَ ٱلصِّدْقُ اَوْ لَا

وَٱعْلَمْ اَنَّ فِي ٱلْكِتَابَةِ وَٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ مَوْقِعًا لِلْكُلِّيِّ وَٱلْجُزْئِيِّ. وَعِنْدَ ٱلْبَدِيعِيِّينَ نَوْعٌ يَعْرِفُونَهُ بِحَصْرِ ٱلْجُزْئِيِّ وَاِلْحَاقِهِ بِٱلْكُلِّيِّ. فَحَصْرُ ٱلْجُزْئِيِّ هُوَ اَنْ يَأْتِيَ ٱلْمُتَكَلِّمُ اِلَى نَوْعٍ مِنْ

ٱلْأَنْوَاعِ فَيَجْعَلُهُ جِنْسًا تَعْظِيمًا لَهُ وَتَفْخِيمًا لِأَمْرِهِ بَعْدَ أَنْ يَحْصُرَ جَمِيعَ أَقْسَامِهِ. وَٱلْمُرَادُ عِنْدَهُمْ بِٱلنَّوْعِ أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ صَادِقًا عَلَى مُتَعَدِّدٍ ذِهْنًا كَمَا هُوَ ٱلنَّوْعُ ٱلْمَعْهُودُ عِنْدَ عُلَمَاءِ ٱلْمَنْطِقِ أَوْ لَا يَصْدُقُ إِلَّا عَلَى فَرْدٍ وَاحِدٍ كَٱلْجُزْئِيِّ ٱلْمَعْرُوفِ عِنْدَهُمْ. وَٱلْمُرَادُ بِٱلْكُلِّيِّ ٱلْجِنْسُ وَهُوَ مَا صَدَقَ عَلَى مُتَعَدِّدٍ ٱخْتَلَفَتْ حَقِيقَةُ أَفْرَادِهِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ عِنْدَهُمْ كَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي:

هِيَ ٱلْغَرَضُ ٱلْأَقْصَى وَرُؤْيَتُكَ ٱلْمُنَى
وَمَنْزِلُكَ ٱلدُّنْيَا وَأَنْتَ ٱلْخَلَائِقُ

فَقَدْ قَصَدَ تَعْظِيمَ مَمْدُوحِهِ فَجَعَلَ مَنْزِلَهُ ٱلَّذِي هُوَ جُزْئِيٌّ كُلِّيًا وَهُوَ ٱلدُّنْيَا وَجَعَلَ ذَاتَهُ ٱلَّتِي هِيَ جُزْئِيَّةٌ كُلِّيَّةً وَهِيَ ٱلْخَلَائِقُ. وَأَمَّا حَصْرُ أَقْسَامِ ٱلْجُزْئِيِّ فَلِأَنَّ ٱلْعَالَمَ عِبَارَةٌ عَنْ حَيَوَانٍ وَنَبَاتٍ وَجَمَادٍ. وَٱلْمُنْزِلُ شَامِلٌ لَهَا

البحث السادس

في الجنس والنوع

(عن السيف الآمدي وشرح الشمسيَّة والنجاة لابن سينا)

(راجع صفحة ١٧ من علم الخطابة)

ٱلْجِنْسُ فِي ٱللُّغَةِ ٱلضَّرْبُ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ أَعَمُّ مِنَ ٱلنَّوْعِ. يُقَالُ: ٱلْإِنْسَانُ نَوْعٌ وَٱلْحَيَوَانُ جِنْسٌ. وَيُرَادُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ ٱلْعَرَبِيَّةِ ٱلْمَاهِيَّةُ. وَكُلُّ مَا دَلَّ عَلَى شَيْءٍ وَعَلَى كُلِّ مَا أَشْبَهَهُ وَبِٱلنَّظَرِ إِلَى

هٰذَا قِيلَ ٱسْمُ ٱلْجِنْسِ ٱسْمٌ مَوْضُوعٌ لِلْمَاهِيَّةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ . وَٱلْجِنْسُ عِبَارَةٌ عَنْ كُلِّيٍّ مَقُولٍ عَلَى كَثِيرِينَ مُخْتَلِفِينَ بِٱلْأَغْرَاضِ دُونَ ٱلْحَقَائِقِ . وَقِيلَ أَيْضًا : ٱلْجِنْسُ هُوَ ٱلْمَقُولُ عَلَى أَفْرَادٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ حَيْثُ ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلْأَحْكَامِ . وَٱلنَّوْعُ كُلِّيٌّ مَقُولٌ عَلَى أَفْرَادٍ مُتَّفِقَةٍ مِنْ حَيْثُ ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلْأَحْكَامِ مُخْتَلِفِينَ بِٱلْعَدَدِ فَقَطْ كَٱلْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ مَقُولٌ عَلَى زَيْدٍ وَعَمْرٍو وَبَكْرٍ فِي جَوَابِ مَا هُوَ . وَرُبَّمَا أُطْلِقَ ٱلْجِنْسُ عَلَى ٱلْأَعَمِّ سَوَاءٌ كَانَ جِنْسًا عِنْدَ ٱلْفَلَاسِفَةِ أَوْ نَوْعًا . كَٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدِ مَثَلًا فَهُمَا نَوْعَانِ يَنْدَرِجَانِ فِي حُكْمٍ وَاحِدٍ وَيَشْتَرِكَانِ فِي ٱلْإِنْسَانِيَّةِ . ثُمَّ إِنَّ ٱلْجِنْسَ يُقْسَمُ إِلَى قَرِيبٍ وَبَعِيدٍ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ ٱلْجَوَابُ عَنِ ٱلْمَاهِيَّةِ وَعَنْ جَمِيعِ مُشَارِكَاتِهَا فِي ذٰلِكَ ٱلْجِنْسِ وَاحِدًا فَهُوَ قَرِيبٌ . وَيَكُونُ ٱلْجَوَابُ ذٰلِكَ ٱلْجِنْسَ فَقَطْ كَٱلْحَيَوَانِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْإِنْسَانِ وَعَنْ جَمِيعِ مَا يُشَارِكُهُ فِي ٱلْحَيَوَانِيَّةِ كَٱلْفَرَسِ وَٱلْغَنَمِ وَٱلْبَقَرِ وَنَحْوِهَا . وَإِنْ كَانَ ٱلْجَوَابُ عَنْهَا وَعَنْ جَمِيعِ مُشَارِكَاتِهَا فِي ذٰلِكَ ٱلْجِنْسِ مُتَعَدِّدًا فَهُوَ بَعِيدٌ وَيَكُونُ ٱلْجَوَابُ هُوَ غَيْرُهُ كَٱلْجِسْمِ ٱلنَّامِي بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ جَوَابٌ عَنِ ٱلْإِنْسَانِ وَعَنْ بَعْضِ مُشَارِكَاتِهَا فِيهِ كَٱلنَّبَاتَاتِ . . وَٱلْأَجْنَاسُ تَتَرَتَّبُ مُتَصَاعِدَةً وَٱلْأَنْوَاعُ مُتَنَازِلَةً إِلَى أَنْ تَبْلُغَ إِلَى جِنْسٍ لَيْسَ فَوْقَهُ جِنْسٌ آخَرُ وَهُوَ ٱلْجِنْسُ ٱلْعَالِي وَإِلَى نَوْعٍ لَيْسَ تَحْتَهُ نَوْعٌ آخَرُ وَهُوَ ٱلْجِنْسُ ٱلْمُفْرَدُ

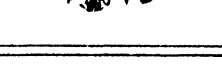

البحث السابع

في تعريف العلة والمعلول

(من كتاب المواقف لعبد الرحمان الايجي)

راجع صفحة ٢٠ من علم الخطابة

اِعْلَمْ اَنَّ اَلْعِلِّيَّةَ وَاَلْمَعْلُولِيَّةَ مِنَ اَلْعَوَارِضِ اَلشَّامِلَةِ لِلْمَوْجُودَاتِ عَلَى سَبِيلِ اَلتَّقَابُلِ كَالْاِمْكَانِ وَاَلْوُجُوبِ. وَتَصَوُّرُ اِحْتِيَاجِ اَلشَّيْءِ اِلَى غَيْرِهِ ضَرُورِيٌّ. فَاَلْمُحْتَاجُ اِلَيْهِ يُسَمَّى عِلَّةً وَاَلْمُحْتَاجُ مَعْلُولًا. وَاَلْعِلَّةُ اِمَّا جُزْءُ اَلشَّيْءِ اَوْ خَارِجٌ عَنْهُ. (وَاَلْاَوَّلُ) اِنْ كَانَ بِهِ اَلشَّيْءُ بِالْفِعْلِ كَالْهَيْئَةِ لِلسَّرِيرِ فَهُوَ اَلصُّورَةُ. وَاِنْ كَانَ بِالْقُوَّةِ كَالْخَشَبِ لَهُ فَهُوَ اَلْمَادَّةُ. وَلَهَا اَسْمَاءٌ بِاعْتِبَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ: فَمَادَّةٌ اِذْ تَتَوَارَدُ عَلَيْهَا اَلصُّوَرُ اَلْمُخْتَلِفَةُ. وَقَابِلٌ مِنْ جِهَةِ اِسْتِعْدَادِهَا لِلصُّوَرِ. وَعُنْصُرٌ اِذْ مِنْهَا يُبْتَدَأُ اَلتَّرْكِيبُ. وَاِسْطُقُسٌ اِذْ اِلَيْهَا يَنْتَهِي اَلتَّحْلِيلُ. وَهَاتَانِ عِلَّتَانِ لِلْمَاهِيَّةِ كَمَا اَنَّهُمَا عِلَّتَانِ لِلْوُجُودِ فَيُخَصَّانِ بِاسْمِ عِلَّةِ اَلْمَاهِيَّةِ. (وَاَلثَّانِي) اِمَّا مَا بِهِ اَلشَّيْءُ كَالنَّجَّارِ لِلسَّرِيرِ وَهُوَ اَلْفَاعِلُ. وَاِمَّا لِاَجْلِهِ اَلشَّيْءُ كَالْجُلُوسِ عَلَيْهِ لَهُ وَهُوَ اَلْغَايَةُ. وَهَاتَانِ تُخَصَّانِ بِاسْمِ عِلَّةِ اَلْوُجُودِ. وَاَلْاُولَيَانِ لَا تُوجَدَانِ اِلَّا لِلْمُرَكَّبِ. وَاَلْغَايَةُ لَا تَكُونُ اِلَّا لِفَاعِلٍ بِالْاِخْتِيَارِ. وَقَدْ تُسَمَّى فَائِدَةُ فِعْلِ اَلْمُوجِبِ غَايَةً اَيْضًا تَشْبِيهًا. وَاَلْغَايَةُ مَعْلُولَةٌ فِي اَلْخَارِجِ وَاِنْ كَانَتْ عِلَّةً فِي اَلذِّهْنِ فَلَهَا عَلَاقَةٌ

ٱلْعِلِّيَّةِ وَٱلْمَعْلُولِيَّةِ . وَيُسَمَّى جَمِيعُ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ ٱلشَّيْءُ عِلَّةً تَامَّةً وَهِيَ قَدْ تَكُونُ عِلَّةً فَاعِلِيَّةً أَوْ مَعَ ٱلْغَايَةِ كَمَا فِي ٱلْبَسِيطِ . وَقَدْ تَكُونُ مُجْتَمِعَةً مِنَ ٱلْأَرْبَعِ كَمَا فِي ٱلْمُرَكَّبِ . . . وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْعِلَّةِ وَٱلشَّرْطِ أَنَّ ٱلْعِلَّةَ مُطَّرِدَةٌ فَحَيْثُمَا وُجِدَتْ وُجِدَ ٱلْحُكْمُ وَتَأْثِيرُهَا بِٱلذَّاتِ . أَمَّا ٱلشَّرْطُ فَيَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ تَأْثِيرُ ٱلْمُؤَثِّرِ لَا ذَاتُهُ كَيُبُوسَةِ ٱلْحَطَبِ لِلْاِحْرَاقِ إِذِ ٱلنَّارُ لَا تُؤَثِّرُ فِي ٱلْحَطَبِ بِٱلْاِحْرَاقِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَكُونَ يَابِسًا

الفصل الرابع

في آداب الخطابة

البحث الاوّل

في آداب كلام الخطيب

(من كتاب الدنيا والدين للماوردي)

(راجع صفحة ٣٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَعْلَمْ أَنَّ لِلْكَلَامِ آدَابًا إِنْ أَغْفَلَهَا ٱلْمُتَكَلِّمُ أَذْهَبَ رَوْنَقَ كَلَامِهِ وَطَمَسَ بَهْجَةَ بَيَانِهِ وَلَهَا ٱلنَّاسَ عَنْ مَحَاسِنِ فَضْلِهِ بِمَسَاوِئِ أَدَبِهِ فَعَدَلُوا عَنْ مَنَاقِبِهِ بِذِكْرِ مَثَالِبِهِ . (فَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا يَتَجَاوَزَ فِي مَدْحٍ وَلَا يُسْرِفَ فِي ذَمٍّ وَإِنْ كَانَتِ ٱلْمَزَاهَةُ عَنِ ٱلذَّمِّ كَرَمًا . وَٱلتَّجَاوُزُ فِي ٱلْمَدْحِ مَلَقًا يَصْدُرُ عَنْ مَهَانَةٍ وَٱلسَّرَفُ فِي ٱلذَّمِّ ٱنْتِقَامًا

يَصْدُرُ عَنْ شَرٍّ. وَكِلَاهُمَا شَيْنٌ وَإِنْ سَلِمَ مِنَ ٱلْكَذِبِ. عَلَى أَنَّ ٱلسَّلَامَةَ مِنَ ٱلْكَذِبِ فِي ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ مُتَعَذِّرَةٌ لَاسِيَّمَا إِذَا مَدَحَ تَقَرُّبًا وَذَمَّ تَحَنُّفًا. وَحُكِيَ عَنِ ٱلْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ أَنَّهُ قَالَ سَهِرْتُ لَيْلَتِي أُفَكِّرُ فِي كَلِمَةٍ أَرْضِي بِهَا سُلْطَانِي وَلَا أُسْخِطُ بِهَا رَبِّي فَمَا وَجَدْتُهَا. وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّ ٱلرَّجُلَ لَيَدْخُلُ عَلَى ٱلسُّلْطَانِ وَمَعَهُ دِينُهُ فَيَخْرُجُ وَمَا مَعَهُ دِينُهُ. قِيلَ: وَكَيْفَ ذٰلِكَ. قَالَ: يُرْضِيهِ بِمَا يُسْخِطُ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ. وَسَمِعَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ رَجُلًا يَصِفُ رَجُلًا وَيُبَالِغُ فِي مَدْحِهِ فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

إِذَا مَا وَصَفْتَ ٱمْرَءًا لِٱمْرِئٍ ... فَلَا تَغْلُ فِي وَصْفِهِ وَٱقْصِدِ
فَإِنَّكَ إِنْ تَغْلُ تَغْلُ ٱلظُّنُو ... نَ فِيهِ إِلَى ٱلْأَمَدِ ٱلْأَبْعَدِ
فَيُضَالُ مِنْ حَيْثُ عَظَّمْتَهُ ... لِفَضْلِ ٱلْمَغِيبِ عَلَى ٱلْمَشْهَدِ

(وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا تَبْعَثَهُ ٱلرَّغْبَةُ وَٱلرَّهْبَةُ عَلَى ٱلِٱسْتِرْسَالِ فِي وَعْدٍ أَوْ وَعِيدٍ يَعْجَزُ عَنْهُمَا وَلَا يَقْدِرُ عَلَى ٱلْوَفَاءِ بِهِمَا. فَإِنَّ مَنْ أَطْلَقَ بِهِمَا لِسَانَهُ وَأَرْسَلَ فِيهِمَا عِنَانَهُ وَلَمْ يَسْتَثْقِلْ مِنَ ٱلْقَوْلِ مَا يَسْتَثْقِلُهُ مِنَ ٱلْعَمَلِ صَارَ وَعْدُهُ نَكْثًا وَوَعِيدُهُ عَجْزًا. (وَمِنْ آدَابِهِ) إِنْ قَالَ قَوْلًا حَقَّقَهُ بِفِعْلِهِ وَإِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ صَدَّقَهُ بِعَمَلِهِ فَإِنَّ إِرْسَالَ ٱلْقَوْلِ ٱخْتِيَارٌ وَٱلْعَمَلَ بِهِ ٱضْطِرَارٌ وَلَئِنْ يَفْعَلْ مَا لَمْ يَقُلْ أَجْمَلُ مِنْ أَنْ يَقُولَ مَا لَمْ يَفْعَلْ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: أَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى ٱلْكَلَامِ أَيْ يَكْتَفِي بِٱلْفِعْلِ مِنَ ٱلْقَوْلِ. وَقَالَ مَحْمُودٌ ٱلْوَرَّاقُ:

اَلْقَوْلُ مَا صَدَّقَهُ اَلْفِعْلُ وَالْفِعْلُ مَا وَكَّدَهُ اَلْعَقْلُ
لَا يَثْبُتُ اَلْقَوْلُ اِذَا لَمْ يَكُنْ يُقِلُّهُ مِنْ تَحْتِهِ اَلْاَصْلُ

(وَمِنْ آدَابِهِ) اَنْ يُرَاعِيَ مَخَارِجَ كَلَامِهِ بِحَسَبِ مَقَاصِدِهِ وَاَغْرَاضِهِ فَاِنْ كَانَ تَرْغِيبًا قَرَنَهُ بِاللِّينِ وَاللُّطْفِ. وَاِنْ كَانَ تَرْهِيبًا خَلَطَهُ بِالْخُشُونَةِ وَالْعُنْفِ. فَاِنَّ لِينَ اللَّفْظِ فِي التَّرْهِيبِ وَخُشُونَتَهُ فِي التَّرْغِيبِ خُرُوجٌ عَنْ مَوْضِعِهِمَا وَتَعْطِيلٌ لِلْمَقْصُودِ بِهِمَا فَيَصِيرُ الْكَلَامُ لَغْوًا وَالْغَرَضُ الْمَقْصُودُ لَهْوًا. وَقَدْ قَالَ اَبُو الْاَسْوَدِ الدِّيلِيُّ لِاِبْنِهِ: يَا بُنَيَّ اِنْ كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَلَا تَتَكَلَّمْ بِكَلَامٍ مَنْ هُوَ فَوْقَكَ فَيَمْقُتُوكَ. وَلَا بِكَلَامِ مَنْ هُوَ دُونَكَ فَيَزْدَرُوكَ. (وَمِنْ آدَابِهِ) اَنْ لَا يَرْفَعَ بِكَلَامِهِ صَوْتًا مُسْتَنْكَرًا وَلَا يَنْزَعِجَ لَهُ اِنْزِعَاجًا مُسْتَهْجَنًا وَلْيَكُفَّ عَنْ حَرَكَةٍ تَكُونُ طَيْشًا وَعَنْ حَرَكَةٍ تَكُونُ عِيًّا. فَاِنَّ نَقْصَ الطَّيْشِ اَكْثَرُ مِنْ فَضْلِ الْبَلَاغَةِ. وَقَدْ حُكِيَ اَنَّ الْحَجَّاجَ قَالَ لِاَعْرَابِيٍّ: اَخَطِيبٌ اَنْتَ. قَالَ: نَعَمْ لَوْلَا اَنَّكَ تُكْثِرُ الرَّدَّ وَتُشِيرُ بِالْيَدِ وَتَقُولُ اَمَّا بَعْدُ. (وَمِنْ آدَابِهِ) اَنْ يَتَجَافَى هُجْرَ الْقَوْلِ وَمُسْتَقْبَحَ الْكَلَامِ وَلْيَعْدِلْ اِلَى الْكِنَايَةِ عَمَّا يُسْتَقْبَحُ صَرِيحُهُ وَيُسْتَهْجَنُ فَصِيحُهُ لِيَبْلُغَ الْغَرَضَ وَلِسَانُهُ نَزِهٌ وَاَدَبُهُ مَصُونٌ كَمَا اَنَّهُ يَصُونُ لِسَانَهُ عَنْ ذٰلِكَ فَهٰكَذَا يَصُونُ عَنْهُ سَمْعَهُ فَلَا يَسْمَعُ خَنًا وَلَا يُصْغِي اِلَى فُحْشٍ فَاِنَّ سَمَاعَ الْفُحْشِ دَاعٍ اِلَى اِظْهَارِهِ وَذَرِيعَةٌ اِلَى اِنْكَارِهِ وَاِذَا وُجِدَ عَنِ الْفُحْشِ مُعْرِضًا كَفَّ قَائِلُهُ وَكَانَ اِعْرَاضُهُ اَحَدَ النَّكِيرَيْنِ كَمَا اَنَّ سَمَاعَهُ اَحَدُ الْبَاعِثَيْنِ. وَاَنْشَدَنِي اَبُو الْحَسَنِ

ٱبْنُ ٱلْحَارِثِ ٱلْهَاشِمِيُّ :

تَحَرَّ مِنَ ٱلطُّرْقِ ٱوْسَاطَهَا وَعُدْ عَنِ ٱلْمَوْضِعِ ٱلْمُشْتَبِهْ
وَسَمْعَكَ صُنْ عَنْ قَبِيحِ ٱلْكَلَامِ كَصَوْنِ ٱللِّسَانِ عَنِ ٱلنُّطْقِ بِهِ
فَإِنَّكَ عِنْدَ ٱسْتِمَاعِ ٱلْقَبِيحِ شَرِيكٌ لِقَائِلِهِ فَٱنْتَبِهْ
وَمِمَّا يَجْرِي مَجْرَى فُحْشِ ٱلْقَوْلِ وَهُجْرِهِ فِي وُجُوبِ ٱجْتِنَابِهِ وَلُزُومِ تَنَكُّبِهِ مَا كَانَ شَنِيعَ ٱلْبَدِيهَةِ مُسْتَنْكَرَ ٱلظَّاهِرِ وَإِنْ كَانَ عُقْبَ ٱلتَّأَمُّلِ سَلِيمًا وَبَعْدَ ٱلْكَشْفِ وَٱلرَّوِيَّةِ مُسْتَقِيمًا كَٱلَّذِي رَوَاهُ ٱلْأَزْدِيُّ عَنِ ٱلصُّولِيِّ لِبَعْضِ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ :

إِنَّنِي شَيْخٌ كَبِيرٌ كَافِرٌ بِٱللهِ سِيرِي
أَنْتِ رَبِّي وَإِلٰهِي رَازِقُ ٱلطِّفْلِ ٱلصَّغِيرِ

يُرِيدُ بِقَوْلِهِ (كَافِرٌ) أَيْ لَابِسٌ لِأَنَّ ٱلْكُفْرَ ٱلتَّغْطِيَةُ. وَلِذٰلِكَ سُمِّيَ ٱلْكَافِرُ بِٱللهِ كَافِرًا لِأَنَّهُ قَدْ غَطَّى نِعْمَةَ ٱللهِ بِمَعْصِيَتِهِ. وَقَوْلُهُ : (بِٱللهِ سِيرِي) يُقْسِمُ عَلَيْهَا أَنْ تَسِيرَ. وَقَوْلُهُ : (أَنْتِ رَبِّي) يَعْنِي رَبِّي وَلَدِكِ مِنَ ٱلتَّرْبِيَةِ. وَإِلٰهِي رَازِقُ ٱلطِّفْلِ ٱلصَّغِيرِ كَمَا أَنَّهُ رَازِقُ ٱلْوَلَدِ ٱلْكَبِيرِ . فَٱنْظُرْ إِلَى هٰذَا ٱلتَّكَلُّفِ ٱلشَّنِيعِ وَٱلتَّعَمُّقِ ٱلْبَشِيعِ مَا ٱعْتَاضَ مِنْ حَيْثُ ٱلْبَدِيهَةِ إِذَا سَلِمَ بَعْدَ ٱلْفِكْرِ وَٱلرَّوِيَّةِ إِلَّا لُؤْمًا إِنْ حَسُنَ فِيهِ ٱلظَّنُّ أَوْ ذَمًا إِنْ قَوِيَ فِيهِ ٱلِٱرْتِيَابُ. وَقَلَّمَا يَكُونُ ذٰلِكَ إِلَّا مِنْ خَلِيعٍ بَطِرٍ أَوْ مُرْتَابٍ أَشِرٍ

البحث الثاني

في خصال الخطيب

(عن الماوردي والغزالي ببعض تصرف)

(راجع صفحة ٣٩ من علم الخطابة)

اِنَّ اَلْخَطِيبَ اَلْحَرِيَّ بِالْاِرْشَادِ مَنْ قَدِ اسْتَكْمَلَتْ فِيهِ خَمْسُ خِصَالٍ : (اِحْدَاهُنَّ) عَقْلٌ كَامِلٌ مَعَ تَجْرِبَةٍ سَالِفَةٍ فَاِنَّ بِكَثْرَةِ اَلتَّجَارِبِ تَصِحُّ اَلرَّوِيَّةُ . وَقَدْ جَاءَ فِي اَلْحَدِيثِ : اِسْتَرْشِدُوا اَلْعَاقِلَ تُرْشَدُوا وَلَا تَعْصُوهُ فَتَنْدَمُوا . وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ اَلْحَسَنِ لِاِبْنِهِ مُحَمَّدٍ : اُحْذَرُوا مَشُورَةَ اَلْجَاهِلِ وَاِنْ كَانَ نَاصِحًا كَمَا تُحْذَرُ عَدَاوَةُ اَلْعَاقِلِ اِذَا كَانَ عَدُوًّا فَاِنَّهُ يُوشِكُ اَنْ يُورِّطَكَ بِمَشُورَتِهِ فَيَسْبِقُ اِلَيْكَ مَكْرُ اَلْعَاقِلِ وَتَوْرِيطُ اَلْجَاهِلِ . وَقِيلَ لِرَجُلٍ مِنْ عَبْسٍ : مَا اَكْثَرَ صَوَابَكُمْ . قَالَ : نَحْنُ اَلْفُ رَجُلٍ وَفِينَا حَازِمٌ وَنَحْنُ نُطِيعُهُ فَكَاَنَّا اَلْفُ حَازِمٍ . وَكَانَ يُقَالُ اِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ رَجُلَيْنِ شَابٍّ مُعْجَبٍ بِنَفْسِهِ قَلِيلِ اَلتَّجَارِبِ فِي غَيْرِهِ اَوْ كَبِيرٍ قَدْ اَخَذَ اَلدَّهْرُ مِنْ عَقْلِهِ كَمَا اَخَذَ مِنْ جِسْمِهِ . وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ اَلْحِكَمِ : كُلُّ شَيْءٍ لَا يَحْتَاجُ اِلَى اَلْعَقْلِ وَاَلْعَقْلُ يَحْتَاجُ اِلَى اَلتَّجَارِبِ . وَلِذٰلِكَ قِيلَ : اَلْاَيَّامُ تَهْتِكُ لَكَ عَنِ اَلْاَسْتَارِ اَلْكَامِنَةِ . وَقَالَ بَعْضُ اَلْحُكَمَاءِ : اَلتَّجَارِبُ لَيْسَ لَهَا غَايَةٌ وَاَلْعَاقِلُ مِنْهَا فِي زِيَادَةٍ . وَقَالَ بَعْضُ اَلْحُكَمَاءِ : مَنِ اسْتَعَانَ بِذَوِي اَلْعُقُولِ فَازَ بِدَرْكِ اَلْمَأْمُولِ . وَقَالَ اَبُو اَلْاَسْوَدِ اَلدِّيلِيُّ :

وَمَا كُلُّ ذِي نُصْحٍ بِمُؤْتِيكَ نُصْحَهُ وَلَا كُلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بِلَبِيبِ
وَلَكِنْ إِذَا مَا اسْتَجْمَعَا عِنْدَ صَاحِبٍ فَحُقَّ لَهُ مِنْ طَاعَةٍ بِنَصِيبِ

(وَالْخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ) أَنْ يَكُونَ الْخَطِيبُ ذَا دِينٍ وَتُقًى فَإِنَّ ذَلِكَ عِمَادُ كُلِّ صَلَاحٍ وَبَابُ كُلِّ نَجَاحٍ وَمَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الدِّينُ فَهُوَ مَأْمُونُ السَّرِيرَةِ مُوَفَّقُ الْعَزِيمَةِ. (وَالْخَصْلَةُ الثَّالِثَةُ) أَنْ يَكُونَ نَاصِحًا وَدُودًا فَإِنَّ النُّصْحَ وَالْمَوَدَّةَ يُصْدِقَانِ الْفِكْرَةَ وَيُمْحِضَانِ الرَّأْيَ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: لَا تُشَاوِرْ إِلَّا الْحَازِمَ غَيْرَ الْحَسُودِ وَاللَّبِيبَ غَيْرَ الْحَقُودِ وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى الْأَفْنِ وَعَزْمَهُنَّ إِلَى الْوَهْنِ. وَقَالَ بَعْضُ الْأُدَبَاءِ مَشُورَةُ الْمُشْفِقِ الْحَازِمِ ظَفَرٌ وَمَشُورَةُ غَيْرِ الْحَازِمِ خَطَرٌ وَقَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ:

اَصْفِ ضَمِيرًا لِمَنْ تُعَاشِرُهُ وَاسْكُنْ إِلَى نَاصِحٍ تُشَاوِرُهُ
وَارْضَ مِنَ الْمَرْءِ فِي مَوَدَّتِهِ بِمَا يُؤَدِّي إِلَيْكَ ظَاهِرُهُ
مَنْ يَكْشِفِ النَّاسَ لَمْ يَجِدْ أَحَدًا تَنْصَحُ مِنْهُمْ لَهُ سَرَائِرُهُ
اَوْشَكَ اَنْ لَا يَدُومَ وَصْلُ اَخٍ فِي كُلِّ زَلَّاتِهِ تُنَافِرُهُ

(وَالْخَصْلَةُ الرَّابِعَةُ) أَنْ يَكُونَ سَلِيمَ الْفِكْرِ مِنْ هَمٍّ قَاطِعٍ وَغَمٍّ شَاغِلٍ. فَإِنَّ مَنْ عَارَضَتْ فِكْرَهُ شَوَائِبُ الْهُمُومِ لَا يَسْلَمُ لَهُ رَأْيٌ وَلَا يَسْتَقِيمُ لَهُ خَاطِرٌ. وَكَانَ كِسْرَى إِذَا دَهَمَهُ أَمْرٌ بَعَثَ إِلَى مَرَازِبَتِهِ فَاسْتَشَارَهُمْ فَإِنْ قَصَّرُوا بِالرَّأْيِ ضَرَبَ قَهْرَمَانَتَهُ وَقَالَ: اَبْطَأْتُمْ بِأَرْزَاقِهِمْ فَاَخْطَأُوا فِي آرَائِهِمْ. وَقَالَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْقُدُّوسِ:

وَلَا مُشِيرَ كَذِي نُصْحٍ وَمَقْدُرَةٍ فِي مُشْكِلِ الْاَمْرِ فَاخْتَرْ ذَاكَ مُنْتَصِحًا

(وَالْخَصْلَةُ الْخَامِسَةُ) اَنْ لَا يَكُونَ لَهُ فِي الْاَمْرِ الْمُسْتَشَارِ غَرَضٌ يُتَابِعُهُ وَلَا هَوًى يُسَاعِدُهُ فَاِنَّ الْاَغْرَاضَ جَاذِبَةٌ وَالْهَوَى صَادٌّ وَالرَّأْيَ اِذَا عَارَضَهُ الْهَوَى وَجَاذَبَتْهُ الْاَغْرَاضُ فَسَدَ. وَقَدْ قَالَ الْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ بْنُ عُتْبَةَ بْنُ اَبِي لَهَبٍ :

وَقَدْ يُحْكِمُ الْاَيَّامُ مَنْ كَانَ جَاهِلًا

وَيُرْدِي الْهَوَى ذَا الرَّأْيِ وَهُوَ لَبِيبُ

وَيُحْمَدُ فِي الْاَمْرِ الْفَتَى وَهُوَ مُخْطِئٌ

وَيُعْذَلُ فِي الْاِحْسَانِ وَهُوَ مُصِيبُ

فَاِذَا اسْتَكْمَلَتْ هٰذِهِ الْخِصَالُ الْخَمْسُ فِي رَجُلٍ كَانَ اَهْلًا لِلْاِرْشَادِ وَالْمَشُورَةِ وَمَعْدِنًا لِلرَّأْيِ فَلَا تَعْدِلْ عَنِ اسْتِشَارَتِهِ اعْتِمَادًا عَلَى مَا تَتَوَهَّمُهُ مِنْ فَضْلِ رَأْيِكَ وَثِقَةً بِمَا تَسْتَشْعِرُهُ مِنْ صِحَّةِ رَوِيَّتِكَ. فَاِنَّ رَأْيَ غَيْرِ ذِي الْحَاجَةِ اَسْلَمُ وَهُوَ مِنَ الصَّوَابِ اَقْرَبُ لِخُلُوصِ الْفِكْرِ وَخُلُوِّ الْخَاطِرِ مَعَ عَدَمِ الْهَوَى وَارْتِفَاعِ الشَّهْوَةِ وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: اِنَّ رَأْسَ الْعَقْلِ بَعْدَ الْاِيمَانِ بِاللّٰهِ التَّوَدُّدُ اِلَى النَّاسِ وَمَا اسْتَغْنَى مُسْتَبِدٌّ بِرَأْيِهِ وَمَا هَلَكَ اَحَدٌ عَنْ مَشُورَةٍ فَاِذَا اَرَادَ اللّٰهُ بِعَبْدٍ هَلَكَةً كَانَ اَوَّلَ مَا يُهْلِكُهُ رَأْيُهُ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ اَبِي طَالِبٍ: اَلْاِسْتِشَارَةُ عَيْنُ الْهِدَايَةِ وَقَدْ خَاطَرَ مَنِ اسْتَغْنَى بِرَأْيِهِ. وَقَالَ لُقْمَانُ الْحَكِيمُ لِاَبْنِهِ شَاوِرْ. مَنْ جَرَّبَ الْاُمُورَ فَاِنَّهُ يُعْطِيكَ مِنْ رَأْيِهِ مَا قَامَ عَلَيْهِ بِالْغَلَاءِ وَاَنْتَ تَأْخُذُهُ مَجَّانًا. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : نِصْفُ رَأْيِكَ مَعَ اَخِيكَ فَشَاوِرْهُ لِيَكْمُلَ الرَّأْيُ

المبحث الثالث

في طباع الناس على اختلاف اطوار الحياة

(من كتاب مشهد الاحوال لفتح الله مراش)

(راجع صفحة ٤٣ من علم الخطابة)

(حَالُ ٱلطُّفُولِيَّةِ) هٰذَا هُوَ ٱلدَّوْرُ ٱلْأَوَّلُ لِحَيَاةِ ٱلْإِنْسَانِ. وَٱلْغَلْوَةُ ٱلْأُولَى فِي طَرِيقِ ٱلزَّمَانِ. حَيْثُمَا يُقَالُ لِلدَّاخِلِ طِفْلٌ مَوْلُودٌ. وَلِلْخَارِجِ شَيْخٌ مَفْقُودٌ. وَلَمَّا كَانَ ٱلْإِنْسَانُ فِي هٰذَا ٱلْمَدْخَلِ عَدِيمَ ٱلْبَصِيرَةِ. خَالِيَ ٱلسَّرِيرَةِ. عَارِيًا مِنْ كُلِّ ٱلْكَمَالَاتِ ٱلْآدَبِيَّةِ. غَيْرَ حَاصِلٍ عَلَى تَمَامِ ٱلْوَظَائِفِ ٱلْعَقْلِيَّةِ. فَلَا يَرَى إِلَّا مَا يَقُومُ قُرْبَهُ. وَلَا يَشْعُرُ إِلَّا بِمَا يَسْتَعْطِفُ قَلْبَهُ. فَيَلْعَبُ بِٱلتُّرَابِ وَيَذْرِيهِ. وَيَعْبَثُ بِٱلتِّبْنِ وَيُزْرِيهِ. وَيَسْخَرُ بِٱلْمَقْبُولَاتِ وَٱلْمَرْدُودَاتِ. وَيَضْحَكُ عَلَى كُلِّ ٱلْمَوْجُودَاتِ. فَلَا يَهْتَمُّ إِلَّا بِطَلَبِ ٱلْغِذَاءِ. وَلَا يَخْفِلُ إِلَّا بِمَا يُورِثُ ٱلْأَذَى. وَإِذْ لَا يَبْرَحُ طَائِشًا بِخِفَّةِ بُنْيَتِهِ. وَضَائِعًا فِي تِيهِ نِيَّتِهِ. فَلَا يَسْمَعُ دَوِيَّ ضَوْضَاءِ ٱلْعَوَالِمِ. وَلَا رَوِيَّ قَوَارِفِ ٱلْعَظَائِمِ. بَيْنَمَا يَكُونُ بَاكِيًا تَحْتَ تَأْثِيرَاتِهَا وَفَوَاعِلِهَا. وَمُتَحَرِّكًا وَسَاكِنًا تَحْتَ جَوَازِمِهَا وَعَوَامِلِهَا. وَمُسْرِعًا فِي طَرِيقِ حَيَاتِهِ إِلَى ٱلدُّخُولِ فِي أَبْوَابِهَا. وَٱلْغَوْصِ فِي عُبَابِهَا. فَلَيْتَ عَيْنَهُ تَرَى مَا يَسْتَقْبِلُهُ مِنَ ٱلْأَوْصَابِ. وَمَا يَسْتَنْظِرُهُ مِنَ ٱلْأَتْعَابِ. فَمَا ٱلَّذِي إِلَّا رَمْزُ ٱلرَّدَى فِي طَلَبِ ٱلْقُوتِ. وَمَا ٱلْمَهْدُ إِلَّا إِشَارَةُ ٱلتَّابُوتِ

(حالُ ٱلفُتُوَّةِ) هٰذا هُوَ ٱلدَّوْرُ ٱلثانِي لِلحَياةِ ٱلإنسانِيَّةِ. وَٱلمَساحَةُ ٱلأُولَى لِٱنتِشارِ ٱلقُوَى ٱلعَقلِيَّةِ اَوِ ٱلتَّلُّ ٱلأَوَّلُ فِي طَرِيقِ ٱلأَجَلِ. وَمَسلَكِ ٱلعَمَلِ. فَيَصعَدُ ٱلإنسانُ عَلَيهِ وَيَنظُرُ ٱلعالَمَ بِعَينَيهِ. فَيَراهُ مَشهَدًا بَدِيعَ ٱلجَمالِ. وَمَلعَبًا تَلعَبُ بِهِ ٱلآمالُ. وَتَرقُصُ فِيهِ ٱلمَلَذّاتُ وَٱلأَمانِي. وَتَحُومُ حَولَهُ ٱلبَشائِرُ وَٱلتَّهانِي. فَتَشمَلُهُ شُمُولُ هٰذا ٱلظُّهُورِ. وَتَلعَبُ بِرَأسِهِ حُمَيَّةُ هٰذِهِ ٱلأُمُورِ. فَيَبِيتُ سَكرانَ بِٱلأَفراحِ. وَمَأخُوذًا بِرَنِينِ تِلكَ ٱلأَقداحِ. فَيَنسَى مَدَى ٱلأَوقاتِ. وَلا يَعلَمُ مَا ٱلآفاتُ. اِذ يَظَلُّ مُلتَفًّا بِكِساءِ ٱلآمالِ. وَمُختَفِيًا بِأَوهامِ ٱلأَعمالِ. فَلا يَنظُرُ اِلّا اِلَى ذاتِهِ. وَلا يَخفِلُ اِلّا بِصِفاتِهِ. هائِمًا فِي مَلاهِي دُنياهُ. وَمُتَهافِتًا عَلَى حَداثَةِ قُواهُ. وَهٰكَذا يَهبِطُ فِي وادِي هٰذا ٱلعالَمِ ٱلمُلِمِّ. وَيَخبِطُ فِي ذٰلِكَ ٱلبَحرِ ٱلخِضَمِّ. وَلا يَزالُ بَينَ هُبُوبِ وَٱنكِبابٍ. اِلَى اَنْ يَنشَلَهُ ٱلصَّوابُ. وَيُدرِكَهُ ٱلشَّبابُ

(حالُ ٱلشُّبُوبِيَّةِ) اَمّا ٱلشُّبُوبِيَّةُ فَهِيَ ٱلدَّوْرُ ٱلثّالِثُ لِلأَجَلِ. وَمَحَلُّ ٱلكَدِّ وَٱلعَمَلِ. وَمَوقِعُ ٱليَأسِ وَٱلأَمَلِ. حَيثُمَا يُوجَدُ ٱلإنسانُ ضائِعًا فِي مَفازَةِ ٱلعُمرِ. حائِرًا فِي تَنُوفَةِ ٱلنَّهيِ وَٱلأَمرِ. فَيَرَى نَفسَهُ قائِمًا فِي وَسَطِ هٰذِهِ ٱلدُّنيا. مُنطَلِقًا بِكافَّةِ ٱلأَشياءِ. مُلتَطِمًا بِأَمواجِ ٱلعالَمِ وَأَهوائِهِ. مَصرُوعًا وَمَأخُوذًا بِضَجاجِهِ وَضَوضائِهِ. وَهٰكَذا تَنهَضُ فِي قَلبِهِ ثَورَةُ ٱلحَواسِّ. وَتَشُبُّ فِي دِماغِهِ نارُ ٱلوَسواسِ. وَتَصفِرُ فِي سَرِيرَتِهِ رِيحُ ٱلأَهجاسِ. فَيَندَفِعُ اِلَى مُنازَلَةِ ٱلأَقدارِ وَٱلأَيّامِ. وَمُقاتَلَةِ ٱلحَقائِقِ وَٱلأَوهامِ. فَتارَةً تَهُبُّ بِهِ ٱلآمالُ اِلَى اَوجِ ٱلأَفراحِ وَٱلمَسَرّاتِ.

وَطَوْرًا تَكُبُّ بِهِ ٱلْخَيْبَاتُ فِي حَضِيضِ ٱلْأَتْرَاحِ وَٱلْحَسَرَاتِ. يَرَى ٱلْعَالَمَ قَرِيبَ ٱلْمَنَالِ. فَيَنْدَفِعُ وَرَاءَهُ عَلَى مُتُونِ ٱلْأَهْوَالِ. حَتَّى إِذَا مَا ظَفِرَ بِٱلْبَعْضِ طَمِعَ بِٱلْكُلِّ. وَإِذَا فَازَ بِٱلشَّجَرِ رَغِبَ فِي ٱلظِّلِّ. فَلَا يَكُونُ إِلَّا مُضْغَةً فِي أَفْوَاهِ ٱلطَّامِعِ. وَكُرَةً تَتَلَقَّفُهَا ٱلْقَوَامِعُ. وَذٰلِكَ إِنَّمَا يُوجَدُ مُهَيَّأً لِحَوَادِثِ ٱلْحِدْثَانِ. وَمُسْتَقَرًّا لِمَصَائِبِ ٱلزَّمَانِ. وَلَا تَزَالُ زَهْرَةُ هٰذَا ٱلشَّبَابِ ٱلزَّاهِي بَيْنَ ذُبُولٍ وَٱفْتِرَارٍ. وَلَا يَبْرَحُ بَدْرُ هٰذَا ٱلْعَصْرِ ٱلْبَاهِي بَيْنَ خُسُوفٍ وَٱسْفِرَارٍ. إِلَى أَنْ تَسْتُرَ ٱلشَّيْخُوخَةُ تَاجَ تِلْكَ ٱلزَّهْرَةِ. وَيَضَعَ ٱلْهَرَمُ وَجْهَ هَانِيكَ ٱلْقَمَرَةِ. حَيْثُمَا يَسْقُطُ ٱلشَّبَابُ مِنْ فَرْشِهِ. وَيَرْتَفِعُ ٱلْمَشِيبُ عَلَى عَرْشِهِ

(حَالُ ٱلشَّيْخُوخَةِ) فَلَا يَزَالُ ٱلْإِنْسَانُ سَائِرًا فِي طَرِيقِ عُمُرِهِ سَيْرَ ٱلْمُسَافِرِ فِي ٱلْقِفَارِ. إِلَى أَنْ يَبْلُغَ رَابِعَ ٱلْأَدْوَارِ. وَهُوَ دَوْرُ ٱلدَّثَارِ. هٰذَا إِذَا أَمْكَنَهُ ٱلْخَلَاصُ مِنْ لُصُوصِ ٱلْحَوَادِثِ. وَٱلْمَنَاصُ مِنْ أُسْدِ ٱلْكَوَارِثِ. وَنُهْبَةِ ٱلْأَعْرَاضِ. وَقَتَلَةِ ٱلْأَمْرَاضِ. فَيَلْبَثُ هُنَاكَ مَنْهُوكًا مِنْ تَعَبِ ٱلْمَسِيرِ. وَمَضَضِ ٱلتَّأْثِيرِ. إِذْ يَعُودُ مُنْحَنِيًا تَحْتَ أَحْمَالِ ٱلْحَيَاةِ وَأَثْقَالِهَا. وَمَرْمُوضًا مِنْ عَدَمَاتِ ٱلدُّنْيَا وَأَهْوَالِهَا. فَتَضْمُرُ ضَوْضَاءُ حَوَاسِّهِ وَهَوَاجِسِهِ. وَيَخْرَسُ رَنِينُ أَنْفَاسِهِ وَوَسَاوِسِهِ. فَيَكِفُّ بَصَرُهُ. وَتَجُفُّ فِكَرُهُ. وَيَقِلُّ ذَوْقُهُ. وَيَكْثُرُ شَوْقُهُ. وَيَبْخَلُ حَتَّى بِٱلْأَنْفَاسِ. وَيَزِيدُ حِرْصُهُ عَلَى ٱلنَّفْسِ. وَيَجُودُ بِٱلْقَبْسِ. فَإِذَا ٱلْتَفَتَ إِلَى وَرَائِهِ وَرَأَى ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِي قَطَعَهَا. وَٱلطَّرِيقَ ٱلَّتِي تَتَبَعَهَا. ظَهَرَتْ لَهُ ٱلْأَشْيَاءُ أَشْبَاحَ أَحْلَامٍ. وَمَلَاعِبَ أَوْهَامٍ. وَكُلُّهَا تَجْرِي نَظِيرَهُ إِلَى ٱلزَّوَالِ.

كَالطَّيْفِ وَٱلْخَيَالِ. فَيَضْحَكُ عَلَى ٱلْجَمِيعِ. ضَحِكَ ٱلطِّفْلِ ٱلرَّضِيعِ. أَمَّا إِذَا ٱلْتَفَتَ إِلَى ٱلْأَمَامِ. وَطَمِعَ بِبَقِيَّةِ ٱلْأَيَّامِ. حَنَّ إِلَى ٱلْوُجُودِ. وَهَامَ بِحُبِّ ٱلْخُلُودِ. وَلَا يَزَالُ ٱلْمَاضِي يَدْفَعُهُ. وَٱلْحَاضِرُ يَرُدُّعُهُ. وَٱلْمُسْتَقْبِلُ يُطْمِعُهُ. حَتَّى تَخْتَطِفَ يَمَامَةَ نَفْسِهِ بُزَاةُ ٱلْمَنِيَّةِ. وَتَسْلُبَهُ كُلَّ بُغْيَةٍ وَأُمْنِيَةٍ. فَيَهْبِطَ هُبُوطَ ٱلْبُنْيَانِ. وَيَغُورَ فِي قَبْرِ ٱلنِّسْيَانِ. حَيْثُمَا تَسْتَرْجِعُ ٱلْكُلِّيَّاتُ جُزْئِيَّاتِهَا. وَتَسْتَرِدُّ ٱلْمَجْمُوعَاتُ مُفْرَدَاتِهَا

البحث الرابع

في سياسة الخطيب مع الجمهور ومواخاة طباعهم

(عن رسائل خط للفارابي بتصرف)

(راجع صفحة ٤٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

إِنَّ ٱلْخَطِيبَ إِذَا مَا أَرَادَ بُلُوغَ غَايَتِهِ وَحُسْنَ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ فِي أُمُورِهِ فَلْيَتَوَخَّ طِبَاعَهُمْ وَتَأْتُونَ أَخْلَاقِهِمْ وَتَبَايُنَ أَحْوَالِهِمْ. قَالَ أَفْلَاطُونُ: لِكُلِّ أَمْرٍ حَقِيقَةٌ. وَلِكُلِّ زَمَانٍ طَرِيقَةٌ. وَلِكُلِّ إِنْسَانٍ خَلِيقَةٌ. فَعَامِلِ ٱلنَّاسَ عَلَى خَلَائِقِهِمْ وَٱلْتَمِسْ مِنَ ٱلْأُمُورِ حَقَائِقَهَا وَٱجْرِ مَعَ ٱلزَّمَانِ عَلَى طَرَائِقِهِ (اه). وَهٰذِهِ قَوَانِينُ تَنْفَعُ ٱلْخَطِيبَ فِي مُتَصَرَّفَاتِهِ مَعَ كُلِّ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ طَبَقَتِهِ وَمَنْ دُونَهُ وَمَنْ فَوْقَهُ عَلَى سَبِيلِ ٱلْإِيجَازِ وَٱلِٱخْتِصَارِ. عَلَى أَنَّهُ لَا يَمْنَعُ قَوْلُنَا هٰذَا مِنْ ذِكْرِ مَا يَخْتَصُّ بِٱسْتِعْمَالِهِ طَائِفَةٌ دُونَ طَائِفَةٍ وَوَاحِدٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فِي وَقْتٍ

دُونَ وَقْتٍ ومَعَ قَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ. اِذِ ٱلْوَاحِدُ مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يُمْكِنُهُ اَنْ يَسْتَعْمِلَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَعَ كُلِّ اَحَدٍ كُلَّ ضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ ٱلسِّيَاسَاتِ. وَنُقَدِّمُ لِذٰلِكَ مُقَدِّمَاتٍ مِنْهَا اَنْ نَقُولَ اِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ مَتَى مَا رَجَعَ اِلَى نَفْسِهِ وَتَأَمَّلَ اَحْوَالَهَا وَاَحْوَالَ غَيْرِهِ مِنْ فِئَاتِ ٱلنَّاسِ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي رُتْبَةٍ يَشْرَكُهُ فِيهَا طَائِفَةٌ مِنْهُمْ. وَوَجَدَ فَوْقَ رُتْبَتِهِ طَائِفَةً هُمْ اَعْلَى مَنْزِلَةً مِنْهُ بِجِهَةٍ اَوْ جِهَاتٍ. وَوَجَدَ دُونَهَا طَائِفَةً هُمْ اَوْضَعُ مِنْهُ بِجِهَةٍ اَوْ جِهَاتٍ. لِاَنَّ ٱلْمَلِكَ ٱلْاَعْظَمَ مَثَلًا وَاِنْ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي مَحَلٍّ لَا يَرَى لِاَحَدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ فِي زَمَانِهِ مَنْزِلَةً اَعْلَى مِنْ مَنْزِلَتِهِ فَاِنَّهُ مَتَى تَأَمَّلَ حَالَهُ نِعَمًا وَجَدَ مِنْهُمْ مَنْ يَفْضُلُهُ بِنَوْعٍ مِنَ ٱلْفَضِيلَةِ ٱلْفَضْلِيَّةِ اِذْ لَيْسَ فِي اَجْزَاءِ ٱلْعَالَمِ مَا هُوَ كَامِلٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلْجِهَاتِ. وَكَذٰلِكَ ٱلْوَضِيعُ ٱلْخَامِلُ ٱلذِّكْرِ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ اَشْيَاءَ لَمْ يَفُزْ بِهَا مَنْ هُوَ فَوْقَهُ. فَقَدْ صَحَّ مَا وَصَفْنَا. وَيَنْتَفِعُ ٱلْخَطِيبُ بِٱسْتِعْمَالِ ٱلسِّيَاسَاتِ مَعَ هٰؤُلَاءِ ٱلطَّبَقَاتِ ٱلثَّلَاثِ... وَنَقُولُ اَيْضًا اِنَّ اَنْفَعَ ٱلطُّرُقِ ٱلَّتِي يَسْلُكُهَا ٱلْخَطِيبُ فِي ذٰلِكَ تَأَمُّلُ اَحْوَالِ ٱلنَّاسِ وَاَعْمَالِهِمْ وَمُتَصَرَّفَاتِهِمْ مَا شَهِدَهَا وَمَا غَابَ عَنْهَا مِمَّا سَمِعَهُ وَتَنَاهَى اِلَيْهِ مِنْهَا وَاَنْ يُمْعِنَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا وَيُمَيِّزَ مَحَاسِنَهَا وَمَسَاوِئَهَا وَبَيْنَ ٱلنَّافِعِ وَٱلضَّارِّ لَهُمْ مِنْهَا. ثُمَّ لِيَجْتَهِدْ فِي ٱلتَّمَسُّكِ بِمَحَاسِنِهَا وَحَضِّ ٱلنَّاسِ عَلَى طَلَبِهَا لِيَنَالُوا مِنْ مَنَافِعِهَا مِثْلَ مَا نَالَهُ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ وَيَجْتَهِدْ فِي ٱلتَّنْكِيبِ عَنْ مَسَاوِئِهَا لِيَأْمَنَ مِنْ مَضَارِّهَا وَيَسْلَمَ مِنْ غَوَائِلِهَا مِثْلَ مَا سَلِمُوا. وَنَقُولُ اَيْضًا اِنَّ لِكُلِّ شَخْصٍ مِنْ اَشْخَاصِ

ٱلنَّاس قُوَّتَيْنِ اِحْدَاهُمَا نَاطِقَةٌ وَٱلْأُخْرَى بَهِيمِيَّةٌ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا نِزَاعٌ غَالِبٌ. فَنِزَاعُ ٱلْقُوَّةِ ٱلْبَهِيمِيَّةِ نَحْوَ ٱللَّذَاتِ ٱلْعَاجِلَةِ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ مِثْلَ أَنْوَاعِ ٱلْغِذَاءِ وَنِزَاعُ ٱلْقُوَّةِ ٱلنُّطْقِيَّةِ نَحْوَ ٱلْأُمُورِ ٱلْمَحْمُودَةِ ٱلْعَوَاقِبِ.. فَعَلَى كُلِّ مَنْ يُرْشِدُ ٱلْجُمْهُورَ وَيَحُضُّهُمْ عَلَى نَيْلِ ٱلْفَضَائِلِ أَنْ لَا يَتَغَافَلَ عَنْ تَحْرِيضِهِمْ عَلَى مَا هُوَ أَصْلَحُ لَهُمْ وَأَنْ لَا يُهْمِلَهُمْ فَإِنَّهُ مَتَى مَا أَهْمَلَهُمْ تَحَرَّكُوا نَحْوَ ٱلطَّرَفِ ٱلْآخَرِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْبَهِيمِيُّ. وَإِذَا تَحَرَّكُوا نَحْوَهُ تَشَبَّثُوا بِبَعْضِ مِنْهُ حَتَّى إِذَا أَرَادَ رَدَّهُمْ عَمَّا تَحَرَّكُوا نَحْوَهُ لَحِقَهُ مِنَ ٱلنَّصَبِ أَضْعَافُ مَا كَانَ يَلْحَقُهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ أَهْمَلَهُمْ. وَنَقُولُ أَيْضًا إِنَّ ٱلْخَطِيبَ لَا يَنْبُو فِي جَمِيعِ مُقْتَرَحَاتِهِ مِنْ أَنْ يَلْقَى ٱلْجُمْهُورَ مَائِلًا إِلَى أَمْرٍ مَحْمُودٍ أَوْ أَمْرٍ مَذْمُومٍ. وَلَهُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَمْرَيْنِ فَائِدَةٌ وَمَوْضِعُ رِيَاضَةٍ لِلتَّصَرُّفِ وَهُوَ أَنْ يُحَاوِلَ دَفْعَ ٱلسَّامِعِينَ إِلَى ذٰلِكَ ٱلْأَمْرِ ٱلْمَحْمُودِ ٱلَّذِي يَلْقَاهُ إِنْ وَجَدَ ٱلسَّبِيلَ إِلَى ٱلدَّفْعِ إِلَيْهِ وَيَنْبِيهُهُمْ عَلَى فَضِيلَتِهِ وَيُوجِبُ عَلَيْهِمُ ٱلتَّمَسُّكَ بِهَا مَتَى وَجَدَ ٱلْفُرْصَةَ لِذٰلِكَ. وَإِذَا يَلْقَاهُ ٱلْأَمْرُ ٱلْمَذْمُومُ فَلْيَجْتَهِدْ فِي ٱلتَّحْذِيرِ مِنْهُ وَٱلتَّجْنِيبِ مِنْهُ. وَإِنْ لَمْ يَجِدْ إِلَى ذٰلِكَ سَبِيلًا فَلْيُنَبِّهْهُمْ عَلَى ٱلِٱعْتِبَارِ بِمَنْ نَالَهُمْ مَضَارُّ مِثْلِهَا. فَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ لِلْخَطِيبِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ جُلَّهَا وَدِقِّهَا خَيْرَهَا وَشَرَّهَا مَوْضِعَ ٱلرِّيَاضَةِ لِنَفْسِهِ وَإِرْشَادِ ٱلْجُمْهُورِ. وَإِذَا تَيَقَّنَ ذٰلِكَ فَيَنْبَغِي أَنْ يُقْدِمَ عَلَى سِيَاسَةِ ٱلْأَحْوَالِ بِقَلْبٍ قَوِيٍّ وَنِيَّةٍ صَادِقَةٍ وَصَدْرٍ وَاسِعٍ وَثِقَةٍ أَنَّ مَا يَأْتِيهِ مِنْ ذٰلِكَ وَإِنْ قَلَّ يُجْدِي عَلَيْهِ نَفْعًا يَجِلُّ. وَنَبْدَأُ بِتَعَهُّدِ ٱلْخَطِيبِ لِلرُّؤَسَاءِ إِنَّهُ

يَجِبُ عَلَيْهِ اَنْ يَكُونَ مُلَازِمًا لِمَا هُوَ فِي صَدَدِهِ مُوَاظِبًا عَلَى مَا فُوِّضَ اِلَيْهِ وَلَا يَخْشَى اَلْمَلَالَ وَخُصُوصًا مِنَ اَلْمُلُوكِ. وَاَنْ يَكُونَ مُجْتَهِدًا فِي طَلَبِ وُجُوهِ حِسَانٍ لِكُلِّ مَا يَطْلُبُهُ مِنْهُمْ اِذْ لَا شَيْءَ مِنَ اَلْاُمُورِ فِي اَلْعَالَمِ اِلَّا وَلَهُ وَجْهَانِ اَحَدُهُمَا جَمِيلٌ وَاَلْآخَرُ قَبِيحٌ فَلْيَطْلُبْ لِكُلِّ اَمْرٍ مِنْ اُمُورِهِ وَجْهًا جَمِيلًا يَصْرِفُهُ اِلَيْهِ وَيَتَكَلَّفُ لِذِكْرِهِ بِحَضْرَتِهِ فَاِنَّ اَلْخَطِيبَ اَلْمُفَوَّضَ اِلَيْهِ تَدْبِيرُ ذٰلِكَ اَلرَّئِيسِ كَالسَّيْلِ اَلْمُنْحَدِرِ مِنَ اَلرَّبْوَةِ اِنْ اَرَادَ اَلْمَرْءُ اَنْ يُوَاجِهَهُ اَهْلَكَ نَفْسَهُ وَاَتَى عَلَيْهِ اَلسَّيْلُ فَاَغْرَقَهُ. وَاِنْ سَعَى مَعَهُ وَعَلَى جَانِبَيْهِ وَتَلَطَّفَ لِيَصْرِفَهُ اِلَى اَلنَّاحِيَةِ بِاَنْ يَطْرَحَ فِي بَعْضِ جَوَانِبِهِ مِقْدَارًا مِنَ اَلسُّدَدِ وَيَطْرُقَ لَهُ مِنَ اَلْجَانِبِ اَلْآخَرِ لَا يَنْشَبُ اَنْ يَصْرِفَهُ اِلَى حَيْثُ شَاءَ. فَيَنْبَغِي لَهُ كَذٰلِكَ اَنْ يَسْتَعْمِلَ مَعَ اَلرَّئِيسِ فِي صَرْفِ وَجْهِهِ عَمَّا يُرِيدُ صَرْفَهُ عَنْ اَمْرٍ يُرِيدُ اَنْ يُجْرِيَ مَعَهُ فِيمَا هُوَ جَارٍ نَحْوَهُ وَلَا يُوَاجِهَهُ وَاِنْ كَانَ فِي غَايَةِ اَلْاِنْبِسَاطِ مَعَهُ وَلَا يُقِرَّ بِمَا يُلْقِي مِنْهُ اِلَى اَلنَّاسِ مِمَّا يُسْتَقْبَحُ فَسِيَانِ بَيْنَ اَلْخَبَرِ وَاَلْاِقْرَارِ.. وَيَنْبَغِي اَنْ يَتَلَطَّفَ كُلَّ اَلتَّلَطُّفِ فِي مِثْلِ اَلْمَنَافِعِ مِنْ جِهَةِ اَلرُّؤَسَاءِ بِاَنْ لَا يُلِحَّ فِي اَلسُّؤَالِ وَلَا يُدِيمَهُ وَلَا يُظْهِرَ اَلطَّمَعَ وَاَلشَّرَهَ مِنْ نَفْسِهِ وَيَجْتَهِدَ فِي اَنْ يَطْلُبَ مِنَ اَلرُّؤَسَاءِ اَسْبَابَ اَلْمَنَافِعِ لَا اَلْمَنَافِعَ اَنْفُسَهَا.. وَلْيَجْتَهِدْ فِي اَنْ يُظْهِرَ فِي كُلِّ مَا يَقُولُ وَيَفْعَلُ اَنَّهُ اِنَّمَا يَفْعَلُهُ زِينَةً وَجَمَالًا لِلرَّئِيسِ لَا لِنَفْسِهِ وَاَنَّهُ يُرِيدُ وَجْهَ اَلصَّلَاحِ فِي خِلَافِ مَا يَأْبِيهِ وَيَذْكُرُ لَهُ فِي اَلْوَقْتِ بَعْدَ اَلْوَقْتِ عَلَى سَبِيلِ اَلْحِكَايَاتِ عَنْ غَيْرِهِ وَاَلْحِيَلِ اَللَّطِيفَةِ

بَعْضَ مَا يَعْرِضُ مِمَّا هُوَ فِيهِ. فَإِنَّهُ مَتَى مَا اسْتَعْمَلَ هٰذِهِ الطَّرِيقَ لَا يَنْشَبُ أَنْ يَعُودَ الْحَالُ بُرَادِهِ.. وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ لِلرُّؤَسَاءِ هِمَمًا يَنْفَرِدُونَ بِهَا عَمَّنْ سِوَاهُمْ مِنَ النَّاسِ وَهِيَ أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ فِي جَمِيعِ مَنْ دُونَهُمُ الِاسْتِخْدَامَ وَالِاسْتِعْبَادَ وَفِي أَنْفُسِهِمِ الْإِصَابَةَ فِي جَمِيعِ مَا يَأْتُونَ وَإِنَّمَا يَحْدُثُ هٰذَا بِهِمَّتِهِمْ لِكَثْرَةِ مَدْحِ النَّاسِ لَهُمْ وَإِطْرَائِهِمْ أَعْمَالَهُمْ وَتَصْوِيبِهِمْ آرَاءَهُمْ

فَهٰذِهِ قَوَانِينُ يَنْتَفِعُ بِاسْتِعْمَالِهَا الْخَطِيبُ فِي مَعَاشِرِ الرُّؤَسَاءِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا الْمَرْءُ مَعَ الْأَكْفَاءِ فَسَنَذْكُرُ مِنْهَا جُمَلًا وَنَقُولُ إِنَّ الْأَكْفَاءَ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونُوا أَصْدِقَاءَ أَوْ أَعْدَاءَ أَوْ لَيْسُوا بِأَصْدِقَاءَ وَلَا أَعْدَاءَ. وَالْأَصْدِقَاءُ صِنْفَانِ أَحَدُهُمَا الْأَصْفِيَاءُ الْمُخْلِصُونَ فِي الصَّدَاقَةِ فَيَنْبَغِي لِلْمُتَكَلِّمِ أَنْ يُدِيمَ مُلَاطَفَتَهُمْ وَتَعَهُّدَ أَسْبَابِهِمْ وَإِهْدَاءَ مَا يَسْتَحْسِنُهُ وَمَا يَتَيَسَّرُ لَهُ إِلَيْهِمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ. وَيَجِيءُ الْحَالُ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ بِذٰلِكَ بِغَيْرِ أَنْ يُظْهِرَ مِنْهُ مَلَالًا أَوْ تَقْصِيرًا وَيَجْتَهِدَ فِي الْإِكْثَارِ مِنْهُمْ غَايَةَ الْجُهْدِ فَإِنَّ الصَّدِيقَ زَيْنُ الْمَرْءِ وَعَضُدُهُ وَعَوْنُهُ وَنَاصِرُهُ وَمُذِيعُ فَضَائِلِهِ وَكَاتِمُ هَفَوَاتِهِ وَمُخْفِي زَلَّاتِهِ وَمَهْمَا كَانَ هٰؤُلَاءِ أَكْثَرَ كَانَتْ أَحْوَالُ الْخَطِيبِ فِيمَا بَيْنَهُمْ أَحْسَنَ وَأَقْوَمَ. وَالصِّنْفُ الْآخَرُ أَيِ الْأَصْدِقَاءُ فِي الظَّاهِرِ عَنْ لَا صِدْقَ فِيمَا يُظْهِرُونَهُ بَلْ يَتَشَبَّهُ وَيَتَصَنَّعُ فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يُعَامِلَهُمْ بِمُدَارَاةٍ وَيُحْسِنَ إِلَيْهِمْ وَلَا يُطْلِعَهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَسْرَارِهِ وَخُصُوصًا مِنْ عُيُوبِهِ. وَلْيَجْتَهِدْ فِي اسْتِمَالَتِهِمْ وَالصَّبْرِ مَعَهُمْ وَمُعَامَلَتِهِمْ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ

دُونَ اَخذِهِمْ بِالْبَاطِنِ وَلَا يَأْخُذُهُمْ بِالتَّقْصِيرِ فَاِنَّهُ مَهْمَا عُمِلَ ذٰلِكَ يُرْجَى صَلَاحُهُمْ وَرُجُوعُهُمْ اِلَى مُرَادِهِ وَلَعَلَّهُمْ يَصِيرُونَ فِي رُتْبَةِ الْاَصْفِيَاءِ لَهُ . اَمَّا الْاَكْفَاءُ الْاَعْدَاءُ فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ اَنْ يَتَجَلَّدَ لَهُمْ وَيَكْشِفَ دَسَائِسَهُمْ وَدَغَلَ نِيَّاتِهِمْ . وَاَمَّا سَائِرُ النَّاسِ الَّذِينَ لَيْسُوا بِصَدِيقٍ وَلَا عَدُوٍّ فَهُمْ طَبَقَاتٌ سَنَذْكُرُ جُلَّهَا فَمِنْهُمُ الْتُّحَكَاءُ الَّذِينَ يَتَبَرَّعُونَ بِالنَّصِيحَةِ فَالْوَاجِبُ اَنْ لَا يَذْكُرَ كُلَّ مَا يُنْهَى اِلَيْهِ وَيَعْزِمَ عَلَى قَلْبِهِ اَوَّلًا بِاَنْ لَا يَغْتَرَّ بِكُلِّ قَوْلٍ يَسْمَعُهُ بَلْ يَتَاَمَّلَ اَقَاوِيلَهُمْ وَيَتَعَرَّفَ اَغْرَاضَهُمْ غَايَةَ التَّعَرُّفِ لِيَقِفَ مَعَ مَعْرِفَةِ اَغْرَاضِهِمْ عَلَى حَقِيقَةِ اَقَاوِيلِهِمْ فَاِذَا لَاحَ لَهُ وَجْهُ الصَّوَابِ حَقِيقَةً بَادَرَ اِلَى اِنْفَاذِ الْاَمْرِ . وَمِنْهُمُ الْصُّلَحَاءُ وَهُمْ اُنَاسٌ يَتَبَرَّعُونَ لِاِصْلَاحِ مَا بَيْنَ النَّاسِ فَيَجِبُ عَلَى الْخَطِيبِ اَنْ يَمْدَحَهُمْ اَبَدًا عَلَى مَا يَفْعَلُونَهُ وَاَنْ يَتَشَبَّهَ بِهِمْ فِي جَمِيعِ اَحْوَالِهِ فَاِنَّ مَذَاهِبَهُمْ مَرْضِيَّةٌ عِنْدَ كُلِّ النَّاسِ وَمَهْمَا مَالَ الْخَطِيبُ اِلَيْهِمْ عُرِفَ بِالْخَيْرِ وَحُسْنِ النِّيَّةِ . وَمِنْهُمُ السُّفَهَاءُ فَيَجِبُ عَلَى الْخَطِيبِ اَنْ لَا يُؤَاتِيَهُمْ وَلَا يُقَابِلَهُمْ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ السَّفَاهَةِ بَلْ يَتَلَقَّاهُمْ اَبَدًا بِحِلْمٍ رَزِينٍ وَسُكُونٍ بَلِيغٍ لِيَيْاَسُوا مِنْ مَنَالَاتِهِمْ بِمَا هُمْ فِيهِ وَلَا يُؤْذُوهُ بَعْدَ ذٰلِكَ مَتَى يَلْقَوْهُ بِالْمُشَاتَمَةِ فَيَجِبُ اَنْ يَتَلَقَّاهُمْ بِقِلَّةِ الْاَكْتِرَاثِ . وَمِنْهُمْ اَهْلُ الْكِبْرِ وَالْمُنَاقَشَةِ فَيَجِبُ اَنْ يُقَابِلَهُمْ بِمِثْلِهِ لِاَنَّهُ اِنْ تَوَاضَعَ لَهُمْ اَحَسُّوا مِنْهُ بِضُعْفٍ وَتَوَهَّمُوا اَنَّ فِعْلَهُمْ ذٰلِكَ صَوَابٌ وَاَنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنَ التَّوَاضُعِ لَهُمْ . وَمَتَى تَكَبَّرَ الْمَرْءُ عَلَيْهِمْ

وَكَاثِرْهُمْ فِي ٱلْأَحْوَالِ وَتَأَذَّوْا بِهِ عَلِمُوا أَنَّ ٱلذَّنْبَ فِي ذٰلِكَ لَهُمْ وَرَجَعُوا إِلَى ٱلتَّوَاضُعِ

وَأَمَّا ٱلَّذِي يَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَسْتَعْمِلَهُ مَعَ مَنْ دُونَهُ مِنَ ٱلنَّاسِ فَإِنَّا نَصِفُ مِنْهُ مَا تَيَسَّرَ وَنَقُولُ : فَمِنْهُمُ ٱلضُّعَفَاءُ فَيَجِبُ أَنْ يَتَعَهَّدَهُمْ بِٱلْمُوَاسَاةِ وَرِقَّةِ ٱلْكَلَامِ بِغَايَةِ مَا أَمْكَنَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُخِلَّ بِأَحْوَالِ نَفْسِهِ. وَمِنْهُمُ ٱلْمُتَعَلِّمُونَ فَإِنْ كَانُوا أُولِي طَبَائِعَ رَدِيئَةٍ يَقْصِدُونَ ٱلْعُلُومَ لِيَسْتَعْمِلُوهَا فِي ٱلشُّرُورِ فَعَلَى ٱلْخَطِيبِ أَنْ يَحْمِلَهُمْ عَلَى تَهْذِيبِ ٱلْأَخْلَاقِ وَلَا يُعَلِّمَهُمْ شَيْئًا يَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَسْتَعْمِلُونَهُ فِيمَا لَا يَجِبُ وَيَجْتَهِدُ فِي كَشْفِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ رَدَاءَةِ ٱلطَّبْعِ لِيُحَذِّرَهُمْ مِنْهُ. وَمِنْهُمْ أَبْنَاءُ ٱلْبُلَدَاءِ ٱلَّذِينَ لَا يُرْجَى ذَكَاؤُهُمْ وَبَرَاعَتُهُمْ فَيَنْبَغِي أَنْ يَحُثَّهُمْ عَلَى مَا هُوَ أَعْوَدُ عَلَيْهِمْ . وَمِنْهُمُ ٱلْمُتَعَلِّمُونَ ذَوُو ٱلْأَخْلَاقِ ٱلطَّاهِرَةِ وَٱلطَّبَائِعِ ٱلْجَيِّدَةِ فَيَجِبُ أَنْ لَا يَدَّخِرَهُمْ شَيْئًا مِمَّا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْعُلُومِ.. فَهٰذِهِ أُصُولٌ وَقَوَانِينُ مَتَى مَا ٱسْتَعْمَلَهَا ٱلْخَطِيبُ فِي كَلَامِهِ وَقَاسَ عَلَيْهَا فِي مُتَصَرَّفَاتِ أُمُورِهِ وَأَسْبَابِهِ ٱسْتَقَامَتْ بِهِ أَحْوَالُهُ وَنَجَعَ فِي ٱلْقَوْمِ كَلَامُهُ

الفصل الخامس

في الاخلاق والاهواء

البحث الاول

في تعريف الاخلاق

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الثاني من علم الادب)

اِنَّ اَلْخُلُقَ هُوَ حَالٌ بِهِ يَفْعَلُ اَلْاِنْسَانُ اَفْعَالَهُ بِلَا رَوِيَّةٍ وَلَا اِخْتِيَارٍ. وَاَلْخُلُقُ قَدْ يَكُونُ فِي بَعْضِ اَلنَّاسِ غَرِيزَةً وَطَبْعًا وَفِي بَعْضِ اَلنَّاسِ لَا يَكُونُ اِلَّا بِاَلرِّيَاضَةِ وَاَلِاجْتِهَادِ. وَقَدْ يُوجَدُ فِي كَثِيرٍ مِنَ اَلنَّاسِ بِغَيْرِ رِيَاضَةٍ وَلَا تَعَلُّمٍ كَاَلشَّجَاعَةِ وَاَلْحِلْمِ وَاَلْعِفَّةِ وَاَلْعَدْلِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ اَلْاَخْلَاقِ اَلْمَحْمُودَةِ وَكَثِيرٌ مِنَ اَلنَّاسِ مَنْ يُوجَدُ فِيهِمْ ذٰلِكَ. فَمِنْهُمْ مَنْ يَصِيرُ اِلَيْهِ بِاَلرِّيَاضَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْقَى عَلَى عَادَتِهِ وَيَجْرِي عَلَى مَسِيرَتِهِ. فَاَمَّا اَلْاَخْلَاقُ اَلْمَذْمُومَةُ فَاِنَّهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ اَلنَّاسِ كَاَلْبُخْلِ وَاَلْجُبْنِ وَاَلتَّشَرُّرِ فَاِنَّ هٰذِهِ اَلْعَادَاتِ غَالِبَةٌ عَلَى اَكْثَرِ اَلنَّاسِ مَالِكَةٌ لَهُمْ مُتَسَلِّطَةٌ عَلَيْهِمْ بَلْ قِيلَ لَا يُوجَدُ فِي اَلنَّاسِ مَنْ يَخْلُو مِنْ خُلُقٍ مَكْرُوهٍ وَيَسْلَمُ مِنْ جَمِيعِ اَلْعُيُوبِ وَلٰكِنَّهُمْ يَتَفَاضَلُونَ

فِي ذٰلِكَ كَمَا يَتَفَاضَلُونَ فِي ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ. وَقَدْ يَخْتَلِفُ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ بِٱلتَّفَاضُلِ إِلَّا أَنَّ ٱلْمَحْبُوبِينَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْجَمِيلَةِ قَلِيلُونَ جِدًّا وَٱلْمُبْغَضِينَ لَهَا كَثِيرُونَ. فَأَمَّا ٱلْمَحْبُولُونَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلسَّيِّئَةِ فَأَكْثَرُ ٱلنَّاسِ لِأَنَّ ٱلْغَالِبَ عَلَى طَبِيعَةِ ٱلْإِنْسَانِ ٱلشَّرُّ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِذَا ٱسْتُرْسِلَ مَعَ طَبْعِهِ وَلَمْ يَسْتَعْمِلِ ٱلْفِكْرَ وَلَا ٱلتَّمْيِيزَ وَلَا ٱلْحَيَاءَ وَلَا ٱلتَّحَفُّظَ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ كَانَ ٱلْغَالِبُ عَلَيْهِ أَخْلَاقَ ٱلْبَهَائِمِ وَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَتَمَيَّزُ عَنِ ٱلْبَهَائِمِ بِٱلْفِكْرِ وَٱلتَّمْيِيزِ فَقَطْ فَإِذَا لَمْ يَسْتَعْمِلْهُمَا كَانَ مُشَارِكًا لَهَا فِي عَادَاتِهَا وَٱلشَّهَوَاتُ مُسْتَوْلِيَةٌ عَلَيْهِ وَٱلْحَيَاءُ غَائِبٌ عَنْهُ وَٱلْغَضَبُ مُسْتَقِرٌّ بِهِ وَٱلسَّكِينَةُ غَيْرُ حَاضِرَةٍ عِنْدَهُ وَٱلْحِرْصُ وَٱلِٱحْتِشَادُ دَيْدَنُهُ وَٱلشَّرَهُ لَا يُفَارِقُهُ. وَإِذَا كَانَ ٱلنَّاسُ مَطْبُوعِينَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلرَّدِيئَةِ مُنْقَادِينَ لِلشَّهَوَاتِ ٱلدَّنِيئَةِ وَقَعَ ٱلِٱفْتِقَارُ إِلَى ٱلشَّرَائِعِ وَٱلسُّنَنِ وَٱلسِّيَاسَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَعَظُمَ ٱلِٱنْتِفَاعُ بِٱلْمُلُوكِ ٱلْحِسَانِ ٱلسِّيَرَةِ لِيَرْدَعُوا ٱلظَّالِمَ عَنْ ظُلْمِهِ وَيَمْنَعُوا ٱلْغَاصِبَ عَنْ غَصْبِهِ وَيُعَاقِبُوا ٱلْفَاجِرَ عَلَى فُجُورِهِ وَيَقْمَعُوا ٱلْجَائِرَ حَتَّى يَعُودَ إِلَى ٱلِٱعْتِدَالِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ. أَمَّا ٱلْأَخْلَاقُ ٱلْمَكْرُوهَةُ فِي طِبَاعِ ٱلنَّاسِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَظَاهَرُ بِهَا وَيَنْقَادُ إِلَيْهَا وَهُمْ أَشْرَارُ ٱلنَّاسِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَنَبَّهُ بِجُودَةِ ٱلْفِكْرِ وَقُوَّةِ ٱلتَّمْيِيزِ عَلَى قُبْحِهَا فَيَأْنَفُ مِنْهَا وَيَتَصَنَّعُ لِٱجْتِنَابِهَا (١) وَذٰلِكَ يَكُونُ عَنْ طَبْعٍ كَرِيمٍ وَنَفْسٍ شَرِيفَةٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَتَنَبَّهُ لِذٰلِكَ إِلَّا أَنَّهُ

(١) ويروى: ويتضع لاجتنابها

اِذَا نُبِّهَ عَلَيْهِ اَحَسَّ بِقُبْحِهِ فَرُبَّمَا حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى تَرْكِهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ اِذَا تَنَبَّهَ اِلَى مَا فِيهِ مِنَ ٱلنَّقَائِصِ اَوْ نُبِّهَ عَلَيْهَا وَرَامَ ٱلْعُدُولَ عَنْهَا تَعَذَّرَ عَلَيْهِ ذٰلِكَ وَلَمْ يُطَاوِعْهُ طَبْعُهُ وَلَوْ كَانَ مُؤْثِرًا لِلْعُدُولِ عَنْهَا مُجْتَهِدًا فِي ذٰلِكَ. وَهٰذِهِ ٱلطَّائِفَةُ تَحْتَاجُ اَنْ تُرْشَدَ اِلَى طَرِيقِ ٱلتَّدَرُّبِ وَٱلتَّعَلُّمِ بِٱلْعَادَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ حَتَّى تَصِيرَ اِلَيْهَا عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ. وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ اِذَا تَنَبَّهَ عَلَى ٱلْاَخْلَاقِ ٱلرَّدِيئَةِ اَوْ نُبِّهَ عَلَيْهَا فَلَا يَحِنُّ اِلَى تَجَنُّبِهَا وَلَا تَسْمَحُ نَفْسُهُ بِمُفَارَقَتِهَا بَلْ يُؤْثِرُ ٱلْاِضْرَارَ عَلَيْهَا مَعَ عِلْمِهِ بِرَدَاءَتِهَا وَقُبْحِهَا وَهٰذِهِ ٱلطَّائِفَةُ لَيْسَ اِلَى تَهْذِيبِهَا طَرِيقٌ اِلَّا بِٱلْقَهْرِ وَٱلْعُقُوبَةِ اِنْ لَمْ يَرْدَعْهَا ٱلتَّخْوِيفُ وَٱلتَّرْهِيبُ. فَاَمَّا ٱلْاَخْلَاقُ ٱلْمَحْمُودَةُ فَاِنَّهَا وَاِنْ كَانَتْ فِي بَعْضِ ٱلنَّاسِ غَرِيزِيَّةً فَلَيْسَتْ فِي جَمِيعِهِمْ فَعَلَى ٱلْبَاقِينَ اَنْ يَصِيرُوا اِلَيْهَا بِٱلتَّدَرُّبِ وَٱلرِّيَاضَةِ وَيَرْتَقُوا اِلَيْهَا بِٱلْاِعْتِيَادِ وَٱلتَّاَلُّفِ وَقَدْ يُوجَدُ فِي بَعْضِ ٱلنَّاسِ مَنْ لَا يَقْبَلُ طَبْعُهُ ٱلْعَادَاتِ ٱلْحَسَنَةَ وَلَا ٱلْاَخْلَاقَ ٱلْجَمِيلَةَ وَذٰلِكَ يَكُونُ لِرَدَاءَةِ جَوْهَرِهِ وَخُبْثِ عُنْصُرِهِ. وَهٰذِهِ ٱلطَّائِفَةُ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْاَشْرَارِ ٱلَّذِينَ لَا يُرْجَى صَلَاحُهُمْ. وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقْبَلُ كَثِيرًا مِنَ ٱلْاَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَيَأْنَفُ طَبْعُهُ عَنْ بَعْضِهَا فَلَا يُعَدُّ هٰذَا شِرِّيرًا بَلْ تَكُونُ رُتْبَتُهُ فِي ٱلْخَيْرِ وَٱلتَّهْذِيبِ بِحَسَبِ مَحَاسِنِهِ

البحث الثاني

في الاخلاق الحسنة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

(راجع صفحة ٤٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَمَّا الْاَخْلَاقُ الَّتِي تُعَدُّ فَضَائِلَ فَاِنَّ مِنْهَا (اَلْعِفَّةَ) وَهِيَ ضَبْطُ النَّفْسِ عَنِ الشَّهَوَاتِ وَقَسْرُهَا عَلَى الْاِكْتِفَاءِ بِمَا يُقِيمُ اَوَدَ الْجَسَدِ وَيَحْفَظُ صِحَّتَهُ فَقَطْ وَاجْتِنَابُ السَّرَفِ وَالتَّقْصِيرِ فِي جَمِيعِ اللَّذَّاتِ وَقَصْدُ الْاِعْتِدَالِ. وَاَنْ يَكُونَ مَا يُقْتَصَرُ عَلَيْهِ مِنَ الشَّهَوَاتِ عَلَى الْوَجْهِ الْمُسْتَحَبِّ الْمُتَّفَقِ عَلَى الْاِرْتِضَاءِ بِهِ وَفِي اَوْقَاتِ الْحَاجَةِ الَّتِي لَا غِنَاءَ عَنْهَا وَعَلَى الْقَدْرِ الَّذِي لَا يَحْتَاجُ اِلَى اَكْثَرَ مِنْهُ. وَهٰذِهِ الْحَالَةُ هِيَ غَايَةُ الْعِفَّةِ

(وَمِنْهَا اَيْضًا الْقَنَاعَةُ) وَهِيَ الْاِقْتِصَارُ عَلَى مَا سَمَحَ بِهِ الْعَيْشُ وَالرِّضَى بِمَا تَسَهَّلَ مِنَ الْمَعَاشِ وَتَرْكُ الْحِرْصِ عَلَى اكْتِسَابِ الْاَمْوَالِ وَطَلَبِ الْمَرَاتِبِ الْعَالِيَةِ مَعَ الرَّغْبَةِ فِي جَمِيعِ ذٰلِكَ وَاِيثَارِهِ وَالْمَيْلِ اِلَيْهِ وَقَهْرِ النَّفْسِ عَلَى ذٰلِكَ وَالْقَنَعِ بِالْيَسِيرِ مِنْهُ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ اَوَاسِطِ النَّاسِ وَاَصَاغِرِهِمْ فَاَمَّا الْمُلُوكُ وَالْعُظَمَاءُ فَلَيْسَ ذٰلِكَ مُسْتَحْسَنًا مِنْهُمْ وَلَا نُعَدُّ الْقَنَاعَةَ مِنْ فَضَائِلِهِمْ

(وَمِنْهَا التَّصَوُّنُ) وَهُوَ التَّحَفُّظُ مِنَ التَّبَذُّلِ. فَمِنَ التَّصَوُّنِ التَّحَفُّظُ

مِنَ ٱلْهَزْلِ ٱلْقَبِيحِ وَمُخَالَطَةِ ٱهْلِهِ وَحُضُورِ مَجَالِسِهِ وَضَبْطُ ٱللِّسَانِ عَنِ ٱلْفُحْشِ وَذِكْرِ ٱلْخَنَا وَٱلْمَزْحِ وَٱلسَّخِيفِ وَخَاصَّةً فِي ٱلْمَحَافِلِ وَمَجَالِسِ ٱلْمُحْتَشِمِينَ اِذْ لَا اٰبِهَةَ لِمَنْ يُسْرِفُ فِي ٱلْمَزْحِ وَيُفْحِشُ فِيهِ. وَمِنَ ٱلتَّصَوُّنِ ٱلِٱنْقِبَاضُ عَنْ اَدْنِيَاءِ ٱلنَّاسِ وَاَصَاغِرِهِمْ وَمَصَادَقَتِهِمْ وَمُجَالَسَتِهِمْ وَٱلتَّحَرُّزُ مِنَ ٱلْعِشْرَةِ ٱلزَّرِيَّةِ وَٱكْتِسَابِ ٱلْاَمْوَالِ مِنَ ٱلْوُجُوهِ ٱلْخَسِيسَةِ وَٱلتَّرَفُّعُ عَنْ طَلَبِ ٱلْحَاجَاتِ مِنْ لِئَامِ ٱلنَّاسِ وَسَفِلَتِهِمْ وَٱلتَّوَاضُعِ لِمَنْ لَا قَدْرَ لَهُ وَٱلْاِقْلَالُ مِنَ ٱلْبُرُوزِ اَعْنِي ٱلطَّوَافَ مِنْ غَيْرِ اضْطِرَارٍ وَٱلتَّبَذُّلَ بِٱلْجُلُوسِ فِي ٱلْاَسْوَاقِ وَقَوَارِعِ ٱلطُّرُقِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ حَيْثُ اِنَّ ٱلْاِكْثَارَ مِنْ ذٰلِكَ لَا يَخْلُو مِنَ ٱلْعُيُوبِ فَاِنَّ اَعْظَمَ ٱلنَّاسِ قَدْرًا كَمَا قِيلَ مَنْ ظَهَرَ اَسْمُهُ وَخَفِيَ جِسْمُهُ

(وَمِنْهَا ٱلْحِلْمُ) وَهُوَ تَرْكُ ٱلِٱنْتِقَامِ عِنْدَ شِدَّةِ ٱلْغَضَبِ مَعَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَى ذٰلِكَ وَهٰذَا ٱلْحَالُ مَحْمُودٌ مَا لَمْ يُؤَدِّ اِلَى ثَلْمِ جَاهٍ اَوْ فَسَادِ سِيَاسَةٍ وَهُوَ بِٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ اَحْسَنُ لِاَنَّهُمْ اَقْدَرُ عَلَى ٱلِٱنْتِقَامِ مِنْ مُغْضِبِيهِمْ. وَلَا يُعَدُّ فَضِيلَةً حِلْمُ ٱلصَّغِيرِ عَلَى ٱلْكَبِيرِ وَاِنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى مُقَابَلَتِهِ فِي ٱلْحَالِ فَاِنَّهُ وَاِنْ اَمْسَكَ عَنْهُ فَاِنَّمَا يُعَدُّ ذٰلِكَ مِنْهُ خَوْفًا لَا حِلْمًا

(وَمِنْهَا ٱلْوَقَارُ) وَهُوَ ٱلِٱمْسَاكُ عَنْ فُضُولِ ٱلْكَلَامِ وَٱلْعَجَبِ وَكَثْرَةِ ٱلْاِشَارَةِ وَٱلْحَرَكَةِ فِيمَا يُسْتَغْنَى عَنِ ٱلتَّحَرُّكِ فِيهِ وَقِلَّةُ ٱلْغَضَبِ وَٱلْاِصْغَاءِ عِنْدَ ٱلِٱسْتِفْهَامِ وَٱلتَّوَقُّفُ عِنْدَ ٱلْجَوَابِ وَٱلتَّحَفُّظُ عِنْدَ ٱلسُّرْعَةِ وَٱلْمُبَادَرَةِ فِي جَمِيعِ ٱلْاُمُورِ. وَمِنْ قَبِيلِ ٱلْوَقَارِ اَيْضًا ٱلْحَيَاءُ وَهُوَ غَضُّ ٱلطَّرْفِ وَٱلِٱنْقِبَاضُ مِنَ ٱلْكَلَامِ حِشْمَةً لِلْمُسْتَحْيَيْنَ مِنْهُ وَهٰذِهِ

ٱلْعَادَةُ مَحْمُودَةٌ مَا لَمْ تَكُنْ صَادِرَةً عَنْ عِيٍّ اَوْ عَجْزٍ

(وَمِنْهَا ٱلْوُدُّ) وَهُوَ ٱلْمَحَبَّةُ ٱلْمُعْتَدِلَةُ مِنْ غَيْرِ اِتِّبَاعِ ٱلشَّهْوَةِ وَٱلْوُدُّ مُسْتَحْسَنٌ مِنَ ٱلْاِنْسَانِ اِذَا كَانَ لِاَهْلِ ٱلْفَضْلِ وَٱلنُّبْلِ وَذَوِي ٱلْوَقَارِ وَٱلْاَبَّهَةِ وَٱلْمُتَمَيِّزِينَ مِنَ ٱلنَّاسِ. فَاَمَّا ٱلتَّوَدُّدُ اِلَى اَرَاذِلِ ٱلنَّاسِ وَاَصَاغِرِهِمْ وَاَهْلِ ٱلْخَلَاعَةِ وَمَا شَابَهَهُمْ فَمَكْرُوهٌ جِدًّا. وَحُسْنُ ٱلْوُدِّ مَا نَسَجْتَهُ عَلَى مِنْوَالٍ مُنَاسِبٍ لِلْفَضَائِلِ وَهُوَ اَوْثَقُ ٱلْوُدِّ وَاَثْبَتُهُ فَاَمَّا مَا كَانَ اَبْتِدَاؤُهُ اِجْتِمَاعًا عَلَى هَزْلٍ اَوْ طَلَبِ لَذَّةٍ وَمَا شَابَهَ ذٰلِكَ فَلَيْسَ بِمَحْمُودٍ وَلَا بَاقٍ وَلَا ثَابِتٍ وَرُبَّمَا اَفْضَى اِلَى ٱلشَّرِّ

(وَمِنْهَا ٱلرَّحْمَةُ) وَهِيَ خُلُقٌ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْوُدِّ وَٱلْجَزَعِ. وَٱلرَّحْمَةُ لَا يَكُونُ اِلَّا لِمَنْ يَظْهَرُ مِنْهُ لِرَاحِمِهِ خِلَّةٌ مَكْرُوهَةٌ اِمَّا نَقِيصَةٌ فِي نَفْسِهِ وَاِمَّا مِحْنَةٌ عَارِضَةٌ لَهُ. فَٱلرَّحْمَةُ هِيَ مَحَبَّةٌ لِلْمَرْحُومِ مَعَ جَزَعٍ مِنَ ٱلْحَالَةِ ٱلَّتِي رُحِمَ لِاَجْلِهَا. وَهٰذِهِ ٱلْحَالَةُ مُسْتَحْسَنَةٌ مَا لَمْ تَخْرُجْ بِصَاحِبِهَا عَنِ ٱلْعَدْلِ وَلَمْ تَنْتَهِ بِهِ اِلَى ٱلْجَوْرِ وَاِلَى فَسَادِ ٱلسِّيَاسَةِ. وَلَيْسَتْ بِمَحْمُودَةٍ رَحْمَةُ ٱلْقَاتِلِ عِنْدَ ٱلْقَوَدِ وَٱلْجَانِي عِنْدَ ٱلْقِصَاصِ

(وَمِنْهَا ٱلْوَفَاءُ) وَهُوَ ٱلصَّبْرُ عَلَى مَا يَبْذُلُهُ ٱلْاِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ وَيَرْهَنُ بِهِ لِسَانُهُ وَعَدَمُ ٱلْخُرُوجِ مِمَّا يَضْمَنُهُ وَلَوْ كَانَ مُفْرِطًا وَلَا يُعَدُّ وَفِيًّا مَنْ لَمْ يَلْحَقْهُ بِوَفَائِهِ اَذِيَّةٌ وَلَوْ قَلِيلَةٌ وَكُلَّمَا اَضَرَّ بِهِ ٱلدُّخُولُ تَحْتَ مَا حُكِمَ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ كَانَ اَبْلَغَ فِي ٱلْوَفَاءِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ يَنْتَفِعُ بِهِ جَمِيعُ ٱلنَّاسِ فَاِنَّ مَنْ عُرِفَ بِٱلْوَفَاءِ كَانَ مَقْبُولَ ٱلْقَوْلِ عِنْدَ ٱلنَّاسِ فِي جَمِيعِ مَا يَعِدُ بِهِ وَمَنْ كَانَ مَقْبُولًا كَانَ عَظِيمَ

ٱلْجَاهِ اِلَّا اَنَّ ٱنْتِفَاعَ ٱلْمُلُوكِ بِهٰذَا ٱلْخُلُقِ اَنْفَعُ وَحَاجَتُهُمْ اِلَيْهِ اَشَدُّ لِاَنَّهُ مَتَى عُرِفَ مِنْهُمْ قِلَّةُ ٱلْوَفَاءِ لَمْ يُوثَقْ بِمَوَاعِيدِهِمْ وَلَمْ تَتِمَّ اَغْرَاضُهُمْ وَلَمْ تَسْكُنْ اِلَيْهِمْ جُنْدُهُمْ وَاَعْوَانُهُمْ

(وَمِنْهَا اَدَاءُ ٱلْاَمَانَةِ) وَهُوَ ٱلتَّعَفُّفُ عَمَّا يَتَصَرَّفُ ٱلْاِنْسَانُ فِيهِ مِنْ مَالِ غَيْرِهِ وَمَا يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْاَعْرَاضِ وَٱلْحَرَمِ مَعَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَرَدِّ مَا يُسْتَوْدَعُ اِلَى مُودِعِهِ

(وَمِنْهَا كِتْمَانُ ٱلسِّرِّ) وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْوَقَارِ وَاَدَاءِ ٱلْاَمَانَةِ. فَاِنَّ اِظْهَارَ ٱلسِّرِّ مِنْ فُضُولِ ٱلْكَلَامِ. وَلَيْسَ بِوَقُورٍ مَنْ تَكَلَّمَ بِٱلْفُضُولِ وَٱلْفُضُولِيُّ نَاقِصُ ٱلشَّرَفِ. فَكَمَا اَنَّ مَنِ ٱسْتُودِعَ مَالًا فَاَخْرَجَهُ اِلَى غَيْرِ مُودِعِهِ قَدْ حَقَرَ ٱلْاَمَانَةَ كَذٰلِكَ مَنِ ٱسْتُودِعَ سِرًّا فَاَخْرَجَهُ اِلَى غَيْرِ صَاحِبِهِ فَقَدْ حَقَرَ ٱلْاَمَانَةَ اَيْضًا. وَكِتْمَانُ ٱلسِّرِّ مَحْمُودٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَخَاصَّةً مَنْ يَصْحَبُ ٱلسُّلْطَانَ وَاَوْلِيَاءَ ٱلْاُمُورِ فَاِنَّ اِخْرَاجَهُ اَسْرَارَهُمْ قَبِيحٌ فِي نَفْسِهِ يُؤَدِّي اِلَى ضَرَرٍ عَظِيمٍ وَبَلَاءٍ جَسِيمٍ

(وَمِنْهَا ٱلتَّوَاضُعُ) وَهُوَ تَرْكُ ٱلتَّرَؤُّسِ وَاِظْهَارُ ٱلْخُمُولِ وَكَرَاهِيَةُ ٱلتَّعْظِيمِ وَٱلزِّيَادَةِ فِي ٱلْاِكْرَامِ وَاَنْ يَتَجَنَّبَ ٱلْاِنْسَانُ ٱلْمُبَاهَاةَ بِمَا فِيهِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْمُفَاخَرَةَ بِٱلْمَالِ وَٱلْجَاهِ وَاَنْ يَتَحَرَّزَ مِنَ ٱلْاِعْجَابِ وَٱلْكِبْرِ. وَلَا يُحْمَدُ ٱلتَّوَاضُعُ اِلَّا مِنْ اَكَابِرِ ٱلنَّاسِ وَرُؤَسَائِهِمْ وَاَهْلِ ٱلْفَضْلِ وَٱلْعِلْمِ وَاَمَّا مَا سِوَى هٰؤُلَاءِ فَلَا يَكُونُونَ مُتَوَاضِعِينَ بِٱلتَّوَاضُعِ لِاَنَّ ٱلضَّعَةَ هِيَ مَحَلُّهُمْ وَمَرْتَبَتُهُمْ وَلَوْ كَانُوا غَيْرَ مُتَّضِعِينَ

(وَمِنْهَا ٱلْبِشْرُ) وَهُوَ اِظْهَارُ ٱلسُّرُورِ لِمَنْ يَلْقَاهُ ٱلْاِنْسَانُ مِنْ اِخْوَانِهِ وَاَوِدَّائِهِ وَاَصْحَابِهِ وَاَوْلِيَائِهِ وَمَعَارِفِهِ وَٱلتَّبَسُّمُ عِنْدَ ٱللِّقَاءِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ اَحْسَنُ لِاَنَّ ٱلْبِشْرَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْوُلَاةِ تَتَاَلَّفُ بِهِ قُلُوبُ ٱلرَّعِيَّةِ وَٱلْاَعْوَانِ وَٱلْحَاشِيَةِ وَيَزْدَادُ بِهِ تَحَبُّبًا اِلَيْهِمْ وَلَا يُعَدُّ سَعِيدًا مِنَ ٱلْمُلُوكِ اَوِ ٱلْوُلَاةِ مَنْ كَانَ مُبْغَضًا لِرَعِيَّتِهِ لِاَنَّ ذٰلِكَ رُبَّمَا اَدَّى اِلَى فَسَادِ اَمْرِهِ وَزَوَالِ حُكْمِهِ وَمُلْكِهِ

(وَمِنْهَا صِدْقُ ٱللَّهْجَةِ) وَهُوَ ٱلْاِخْبَارُ عَنِ ٱلشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مَا لَمْ يُؤَدِّ اِلَى ضَرَرٍ مُفْرِطٍ فَاِنَّهُ لَيْسَ بِمُسْتَحْسَنٍ عِنْدَ ٱلْاِنْسَانِ اِنْ سُئِلَ عَنْ فَاحِشَةٍ كَانَ ٱرْتَكَبَهَا فَاِنَّهُ لَا يَفِي حُسْنُ صِدْقِهِ بِمَا يَلْحَقُهُ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعَارِ وَٱلْمَنْقَصَةِ ٱلْبَاقِيَةِ ٱللَّازِمَةِ. وَكَذٰلِكَ لَيْسَ يَحْسُنُ صِدْقُهُ اِذَا سُئِلَ عَنْ مُسْتَجِيرٍ ٱسْتَجَارَهُ فَاَخْفَاهُ وَلَا اِنْ سُئِلَ عَنْ جِنَايَةٍ مَتَى صَدَقَ عَنْهَا عُوقِبَ عَلَيْهَا عُقُوبَةً مُؤْلِمَةً. وَٱلصِّدْقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ اَحْسَنُ فَلَا يَسُمُّهُمُ ٱلْكَذِبُ مَا لَمْ يُعْدِ ٱلصِّدْقُ عَلَيْهِمْ بِضَرَرٍ

(وَمِنْهَا سَلَامَةُ ٱلنِّيَّةِ) وَهُوَ اِعْتِقَادُ ٱلْخَيْرِ لِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَتَنَكُّبُ ٱلْخُبْثِ وَٱلْغِيلَةِ وَٱلْمَكْرِ وَٱلْخَدِيعَةِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ اِلَّا اَنَّهُ لَيْسَ يَصْلُحُ لِلْمُلُوكِ ٱلتَّخَلُّقُ بِهِ دَائِمًا وَقَدْ لَا يَتِمُّ ٱلْحُكْمُ اِلَّا بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْمَكْرِ وَٱلْحِيَلِ وَٱلْاِغْتِيَالِ مَعَ ٱلْاَعْدَاءِ وَلٰكِنْ لَا يَحْسُنُ بِهِمُ ٱسْتِعْمَالُهُ مَعَ اَخِصَّائِهِمْ وَاَصْفِيَائِهِمْ وَاَهْلِ طَاعَتِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلسَّخَاءُ) وَهُوَ بَذْلُ ٱلْمَالِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلَا ٱسْتِحْقَاقٍ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مَا لَمْ يَنْتَهِ الَى ٱلسَّرَفِ وَٱلتَّبْذِيرِ فَإِنَّ مَنْ بَذَلَ جَمِيعَ مَا يَمْلِكُهُ لِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ لَا يُسَمَّى سَخِيًّا بَلْ يُسَمَّى مُبَذِّرًا وَمُضَيِّعًا. وَٱلسَّخَاءُ فِي سَائِرِ ٱلنَّاسِ فَضِيلَةٌ مُسْتَحْسَنَةٌ وَأَمَّا فِي ٱلْمُلُوكِ وَٱلْأَوْلِيَاءِ فَأَمْرٌ وَاجِبٌ لِأَنَّ ٱلْبُخْلَ يُؤَدِّي إِلَى ٱلضَّرَرِ ٱلْعَظِيمِ فِي ٱلْأَحْكَامِ. وَٱلسَّخَاءُ وَٱلْبَذْلُ تَرْتَبِطُ بِهِمَا قُلُوبُ ٱلرَّعِيَّةِ وَٱلْجُنْدِ وَٱلْأَعْوَانِ فَيَعْظُمُ ٱلِٱنْتِفَاعُ بِهِ

(وَمِنْهَا ٱلشَّجَاعَةُ) وَهِيَ ٱلْإِقْدَامُ عَلَى ٱلْمَكَارِهِ وَٱلْمَهَالِكِ عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ إِلَى ذٰلِكَ وَثَبَاتُ ٱلْجَأْشِ اىِ ٱلْقَلْبِ عِنْدَ ٱلْمَخَاوِفِ وَٱلِٱسْتِهَانَةُ بِٱلْمَوْتِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ بِٱلْمُلُوكِ وَأَعْوَانِهِمْ أَلْيَقُ وَأَحْسَنُ بَلْ لَيْسَ يُسْتَحَقُّ لِلْمُلْكِ مَنْ عَدِمَ هٰذِهِ ٱلْخَلَّةَ. وَأَكْثَرُ ٱلنَّاسِ أَخْطَارًا وَأَخْرَجُهُمْ إِلَى ٱقْتِحَامِ ٱلْغَمَرَاتِ هُمُ ٱلْمُلُوكُ وَٱلْحُكَّامُ فَٱلشَّجَاعَةُ إِذَا مِنْ أَخْلَاقِهِمِ ٱلْخَاصَّةِ بِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلْمُنَافَسَةُ) وَهِيَ مُنَازَعَةُ ٱلنَّفْسِ إِلَى ٱلتَّشَبُّهِ بِٱلْغَيْرِ فِيمَا يَرَاهُ وَيَرْغَبُ فِيهِ لِنَفْسِهِ وَٱلِٱجْتِهَادُ فِي ٱلتَّرَقِّي إِلَى دَرَجَةٍ أَعْلَى مِنْ دَرَجَتِهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ إِذَا كَانَتِ ٱلْمُنَافَسَةُ فِي ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْمَرَاتِبِ ٱلْعَالِيَةِ أَوْ فِيمَا يُكْسِبُ مَجْدًا وَسُؤْدَدًا فَأَمَّا فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنِ ٱتِّبَاعِ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلْمُبَاهَاةِ بِٱللَّذَّاتِ وَٱلزِّينَةِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ فَمَكْرُوهٌ جِدًّا

(وَمِنْهَا ٱلصَّبْرُ عِنْدَ ٱلشَّدَائِدِ) وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْوَقَارِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَهُوَ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مَا لَمْ يَكُنِ ٱلْجَزَعُ نَافِعًا وَٱلْحُزْنُ وَٱلْقَلَقُ

مُجْدِيًا وَٱلِٱجْتِهَادُ دَافِعَةَ ضَرَرِ تِلْكَ ٱلشَّدَائِدِ فَمَا ٱحْسَنَ ٱلصَّبْرَ إِذَا عَدِمَتْ ٱلْحِيلَةَ وَمَا ٱقْبَحَ ٱلْجَزَعَ إِذَ لَمْ يَكُنْ مُفِيدًا

(وَمِنْهَا عِظَمُ ٱلْهِمَّةِ) وَهُوَ ٱسْتِصْغَارُ مَا دُونَ ٱلنِّهَايَةِ مِنْ مَعَالِي ٱلْأُمُورِ وَطَلَبُ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلسَّامِيَةِ وَٱسْتِحْقَارُ مَا يَجُودُ بِهِ ٱلْإِنْسَانُ عِنْدَ ٱلْعَطِيَّةِ وَٱلِٱسْتِخْفَافُ بِأَوَاسِطِ ٱلْأُمُورِ وَطَلَبُ ٱلْغَايَاتِ وَٱلتَّهَاوُنُ بِمَا يَمْلِكُهُ وَبَذْلُهُ لِمَنْ يَسْأَلُهُ مِنْ غَيْرِ ٱمْتِنَانٍ وَلَا ٱعْتِدَادٍ بِهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مِنْ خُصُوصِيَّاتِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْحُكَّامِ وَقَدْ يَحْسُنُ بِٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلْعُظَمَاءِ وَمَنْ تَسْمُو نَفْسُهُ إِلَى مَرَاتِبِهِمْ . وَمِنْ عِظَمِ ٱلْهِمَّةِ ٱلْأَنَفَةُ وَٱلْحَمِيَّةُ وَٱلْغَيْرَةُ . فَٱلْأَنَفَةُ هِيَ بُعْدُ ٱلنَّفْسِ عَنِ ٱلْأُمُورِ ٱلدَّنِيَّةِ وَٱلْحَمِيَّةُ وَٱلْغَيْرَةُ مَعًا وَٱلْغَضَبُ عِنْدَ ٱلْإِحْسَاسِ بِٱلنَّقْصِ . وَتَلْحَقُ ٱلْإِنْسَانَ ٱلْغَيْرَةُ عَلَى ٱلْحَرَمِ لِأَنَّ فِي ٱلتَّعَرُّضِ لَهُنَّ عَارًا وَمَنْقَصَةً فَإِنَّ ٱلْمُتَعَرِّضَ لِلْحَرَمِ مُهْتَضِمٌ لِصَاحِبِهَا وَمُتَصَرِّفٌ فِي غَيْرِ حَقٍّ لَهُ وَٱلِٱهْتِضَامُ نَقِيصَةٌ وَمِنْ أَعْظَمِ ٱلْهِمَّةِ ٱلْأَنَفَةُ مِنْهُ . وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ

(وَمِنْهَا ٱلْعَدْلُ) وَهُوَ ٱلتَّقَسُّطُ ٱللَّازِمُ لِلِٱسْتِوَاءِ وَٱسْتِعْمَالُ ٱلْأُمُورِ فِي مَوَاضِعِهَا وَأَوْقَاتِهَا وَوُجُوهِهَا وَمَقَادِيرِهَا مِنْ غَيْرِ سَرَفٍ وَلَا تَقْصِيرٍ وَلَا تَقْدِيمٍ وَلَا تَأْخِيرٍ

البحث الثالث

في الاخلاق الرديئة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

فَأَمَّا ٱلْأَخْلَاقُ ٱلرَّدِيئَةُ ٱلَّتِي تُعَدُّ نَقَائِصَ وَمَعَائِبَ فَإِنَّ مِنْهَا ٱلْفُجُورَ وَهُوَ ٱلِٱنْهِمَاكُ فِي ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلِٱسْتِكْثَارُ مِنْهَا وَإِيثَارُ ٱللَّذَّاتِ وَٱلْإِدْمَانُ عَلَيْهَا وَٱرْتِكَابُ ٱلْفَوَاحِشِ وَٱلْمُجَاهَرَةُ بِهَا وَبِٱلْجُمْلَةِ ٱلسَّرَفُ فِي جَمِيعِ ٱلشَّهَوَاتِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ جِدًّا يَهْدِمُ ٱلْحَيَاءَ وَيَذْهَبُ بِمَاءِ ٱلْوَجْهِ وَيَخْرِقُ جِلْبَابَ ٱلْحِشْمَةِ

(وَمِنْهَا ٱلشَّرَهُ) وَهُوَ ٱلْحِرْصُ عَلَى ٱكْتِسَابِ ٱلْأَمْوَالِ وَجَمْعِهَا وَطَلَبِهَا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَلَوْ قَبُحَ طَرِيقُ ٱكْتِسَابِهَا وَٱلْمُوَاظَبَةُ عَلَيْهَا وَٱلِٱسْتِكْثَارُ مِنَ ٱلْقِنْيَةِ وَٱدِّخَارُ ٱلْأَعْرَاضِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ إِلَّا مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْحُكَّامِ فَإِنَّ كَثْرَةَ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلذَّخَائِرِ وَٱلْأَعْرَاضِ تُعِينُهُمْ وَتَزِيدُهُمْ هَيْبَةً فِي نُفُوسِ رَعِيَّتِهِمْ وَأَعْوَانِهِمْ وَأَعْدَائِهِمْ وَأَضْدَادِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلتَّبَذُّلُ) وَهُوَ ٱطِّرَاحُ ٱلْحِشْمَةِ وَتَرْكُ ٱلتَّحَفُّظِ وَٱلِٱكْثَارُ مِنَ ٱلْهَزْلِ وَٱللَّهْوِ وَمُخَالَطَةُ ٱلسُّفَهَاءِ وَحُضُورُ مَجَالِسِ ٱلسَّخْفِ وَٱلْهَزْلِ وَٱلْفُحْشِ وَٱلتَّفَوُّهُ بِأَلْفَاظِ ٱلْأَعْرَاضِ وَٱلْمَزْحِ وَٱلْجُلُوسُ فِي ٱلْأَسْوَاقِ وَعَلَى قَوَارِعِ ٱلطُّرُقِ وَٱلتَّكَسُّبُ بِٱلْمَعَايِشِ ٱلزَّرِيَّةِ وَٱلتَّوَاضُعُ

لِلسُّفَلَاءِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ قَبِيحٌ بِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ

(وَمِنْهَا ٱلسَّفَهُ) وَهُوَ ضِدُّ ٱلْحِلْمِ وَهُوَ سِرْعَةُ ٱلْغَضَبِ وَٱلطَّيْشِ مِنْ يَسِيرِ ٱلْأُمُورِ وَٱلْمُبَادَرَةُ فِي ٱلْبَطْشِ وَٱلْإِيقَاعُ بِٱلْمُؤْذِي وَٱلسَّرَفُ فِي ٱلْعُقُوبَةِ وَٱنْهِمَارُ ٱلْجَزَعِ مِنْ أَدْنَى ضَرَرٍ وَٱلسَّبُّ ٱلْفَاحِشُ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ إِلَّا أَنَّهُ بِٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ أَقْبَحُ مِنْهُ بِغَيْرِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلْخَرَقُ) وَهُوَ كَثْرَةُ ٱلْكَلَامِ وَٱلتَّحَرُّكُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ وَشِدَّةُ ٱلضَّحِكِ وَٱلْمُبَادَرَةُ إِلَى ٱلْأُمُورِ مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ وَسُرْعَةُ ٱلْجَوَابِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ وَهُوَ بِأَهْلِ ٱلْعِلْمِ وَذَوِي ٱلنَّبَاهَةِ أَقْبَحُ. وَمِنْ قَبِيلِهِ قِلَّةُ ٱلِٱحْتِشَامِ لِمَنْ يَجِبُ ٱحْتِشَامُهُ وَٱلْمُجَاهَرَةُ بِٱلْأَجْوِبَةِ ٱلْغَلِيظَةِ ٱلْفَظَّةِ ٱلْمُسْتَشْنَعَةِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ وَخَاصَّةً بِذَوِي ٱلْوَقَارِ

(وَمِنْهَا ٱلْهَوَى) وَهُوَ إِفْرَاطُ ٱلْحُبِّ وَٱلسَّرَفُ فِيهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ يَحْمِلُ صَاحِبَهُ عَلَى ٱلْفُجُورِ وَٱرْتِكَابِ ٱلْفَوَاحِشِ وَكَثْرَةِ ٱلتَّبَذُّلِ وَقِلَّةِ ٱلْحَيَاءِ وَهُوَ يَشِينُ ٱلْإِنْسَانَ كَثِيرًا

(وَمِنْهَا ٱلْقَسَاوَةُ) وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْبُغْضِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَهُوَ ٱلتَّهَاوُنُ بِمَا يَلْحَقُ ٱلْغَيْرَ مِنَ ٱلْأَلَمِ وَٱلْأَذَى. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ إِلَّا مِنَ ٱلْجُنْدِ وَأَصْحَابِ ٱلسِّلَاحِ وَٱلْمُتَوَلِّينَ ٱلْحُرُوبَ فَإِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مَكْرُوهٍ مِنْهُمْ إِذَا كَانَ فِي مَوْضِعِهِ

(وَمِنْهَا ٱلْغَدْرُ) وَهُوَ ٱلرُّجُوعُ عَمَّا يَبْذُلُهُ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ وَيَضْمَنُ ٱلْوَفَاءَ بِهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ إِنْ كَانَ لِصَاحِبِهِ فِيهِ مَصْلَحَةٌ

وَمَنْفَعَةٌ. وَهُوَ بِالْمُلُوكِ وَالْحُكَّامِ اَقْبَحُ وَاَضَرُّ فَاِنَّ مَنْ عُرِفَ مِنْهُمْ بِالْغَدْرِ لَمْ يَرْكَنْ اِلَيْهِ اَحَدٌ وَلَمْ يَثِقْ بِهِ اِنْسَانٌ فَاِذَا كَانَ كَذٰلِكَ فَسَدَ نِظَامُ مُلْكِهِ

(وَمِنْهَا الْخِيَانَةُ) وَهِيَ الْاِسْتِبْدَالُ بِمَا يُؤْتَمَنُ الْاِنْسَانُ عَلَيْهِ مِنَ الْاَمْوَالِ وَالْاَعْرَاضِ وَالْحَرَمِ وَنَحْوِ ذٰلِكَ مَا يُسْتَرْدَعُ وَيُجْحَدُ مُودِعُهُ. وَمِنَ الْخِيَانَةِ اَيْضًا طَيُّ الْاَخْبَارِ اِذَا نُدِبَ الْاِنْسَانُ لِتَاْدِيَتِهَا وَتَحْرِيفُ الرَّسَائِلِ اِذَا حَمَلَهَا وَصَرْفُهَا عَنْ وَجْهِهَا. وَهٰذَا الْخُلُقُ اَعْنِي الْخِيَانَةَ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَيَشْتَمُّ الْجَاهَ وَيَقْطَعُ وُجُوهَ الْمَعَاشِ

(وَمِنْهَا اِفْشَاءُ السِّرِّ) وَهٰذَا الْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ الْخُرْقِ وَالْخِيَانَةِ فَاِنَّهُ لَيْسَ بِوَثُورٍ مَنْ لَمْ يَضْبِطْ لِسَانَهُ وَلَمْ يَتَّسِعْ صَدْرُهُ لِحِفْظِ مَا يُسْتَسَرُّ بِهِ وَالسِّرُّ اَحَدُ الْوَدَائِعِ وَاِفْشَاؤُهُ نَقِيصَةٌ عَلَى صَاحِبِهِ فَالْمُفْشِي بِالسِّرِّ خَائِنٌ وَهٰذَا الْخُلُقُ قَبِيحٌ جِدًّا وَخَاصَّةً بِمَنْ يَصْحَبُ الْمُلُوكَ وَاَوْلِيَاءَ الْاُمُورِ وَيَتَدَاخَلُ مَعَهُمْ. وَمِنْ قَبِيلِ اِفْشَاءِ السِّرِّ اَيْضًا الْغِيبَةُ وَالنَّمِيمَةُ وَهِيَ اَنْ يُبَلِّغَ اِنْسَانٌ اِنْسَانًا عَنْ آخَرَ قَوْلًا مَكْرُوهًا وَهٰذَا الْخُلُقُ قَبِيحٌ جِدًّا وَلَوْ لَمْ يُسْتَسَرَّ اَيْضًا بِمَا يَسْمَعُهُ اَوْ يَبْلُغُهُ فَنَقْلُهُ اِلَى مَنْ يَكْرَهُ قَبِيحٌ لِاَنَّ فِي ذٰلِكَ اِيقَاعَ وَحْشَةٍ بَيْنَ الْمُبَلِّغِ وَالْمُبَلَّغِ عَنْهُ وَذٰلِكَ غَايَةُ الشَّرِّ

(وَمِنْهَا الْكِبْرُ) وَهُوَ اِسْتِعْظَامُ الْاِنْسَانِ نَفْسَهُ وَاسْتِحْسَانُ مَا فِيهِ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالْاِسْتِهَانَةُ بِالنَّاسِ وَاسْتِصْغَارُهُمْ وَالتَّرَفُّعُ عَلَى مَا يَجِبُ التَّوَاضُعُ لَهُ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ جِدًّا وَمُضِرٌّ بِصَاحِبِهِ لِاَنَّ

مَنْ اَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ لَمْ يَسْتَزِدْ مِنِ اكْتِسَابِ الْاَدَبِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَزِدْ بَقِيَ عَلَى نَقْصِهِ اِذْ اِنَّ الْاِنْسَانَ لَا يَخْلُو مِنَ النَّقْصِ قَبْلَ مَا يَنْتَهِي اِلَى غَايَةِ الْكَمَالِ. وَاَيْضًا فَاِنَّ هٰذَا الْفِعْلَ يُبْغِضُهُ عِنْدَ النَّاسِ وَمَنْ تَبْغُضُهُ النَّاسُ سَاءَتْ اَحْوَالُهُ

(وَمِنْهَا الْعُبُوسُ) وَهُوَ التَّقَطُّبُ عِنْدَ اللِّقَاءِ وَقِلَّةُ التَّبَسُّمِ وَاِظْهَارُ الْكَرَاهِيَةِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ الْكِبْرِ وَغِلَظِ الطَّبْعِ فَاِنَّ قِلَّةَ الْبَشَاشَةِ هِيَ اسْتِهَانَةٌ بِالنَّاسِ وَالْاِسْتِهَانَةُ بِالنَّاسِ تَكُونُ مِنَ الْاِعْجَابِ وَالْكِبْرِ وَقِلَّةُ التَّبَسُّمِ اَيْضًا خَاصَّةً عِنْدَ لِقَاءِ الْاِخْوَانِ تَكُونُ مِنْ غِلَظِ الطَّبْعِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ وَخَاصَّةً بِالرُّؤَسَاءِ وَالْاَفَاضِلِ

(وَمِنْهَا الْكَذِبُ) وَهُوَ الْاِخْبَارُ عَنِ الشَّيْءِ بِخِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ وَهُوَ بِالْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ اَكْثَرُ قُبْحًا لِاَنَّ الْيَسِيرَ مِنَ النَّقْصِ يَشِينُهُمْ

(وَمِنْهَا الْخُبْثُ) وَهُوَ اِضْمَارُ الشَّرِّ لِلْغَيْرِ وَاِظْهَارُ الْخَيْرِ لَهُ رِيَاءً وَاسْتِعْمَالُ الْحِيلَةِ وَالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ فِي الْمُعَامَلَاتِ وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ جِدًّا. (وَمِنْ قَبِيلِ الْخُبْثِ الْحِقْدُ) وَهُوَ اِضْمَارُ الشَّرِّ لِلْجَانِي اِذَا لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ الْاِنْتِقَامِ مِنْهُ فَيُخْفِي اِلَى وَقْتِ الْفُرْصَةِ وَهٰذَا الْخُلُقُ مِنْ اَخْلَاقِ الْاَشْرَارِ وَهُوَ مَذْمُومٌ جِدًّا

(وَمِنْهَا الْبُخْلُ) وَهُوَ مَنْعُ الْمُسْتَعْطِي مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى اِعْطَائِهِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَخَاصَّةً الْمُلُوكُ وَالْعُظَمَاءُ وَذٰلِكَ لِاَنَّ الْبُخْلَ يُبْغِضُ مِنْهُمْ اَكْثَرُ مِمَّا يُبْغِضُ مِنْ غَيْرِهِمْ وَيَقْدَحُ

فِي حُكْمِهِمْ وَيُبْغِضُهُمْ إِلَى رَعِيَّتِهِمْ

(وَمِنْهَا الْجُبْنُ) وَهُوَ تَوَهُّمُ الْمَخَاوِفِ وَتَمْكِينُهَا فِي الْعَقْلِ بِدُونِ طَائِلٍ وَعَدَمُ الْإِقْدَامِ عَلَى الْأُمُورِ عِنْدَ اللُّزُومِ وَالرُّعْبُ مِنْ مُوَاجَهَةِ ذَوِي الْأَمْرِ عِنْدَ الْاقْتِضَاءِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ إِلَّا أَنَّهُ بِالْجُنُودِ وَأَصْحَابِ الْحُرُوبِ مُضِرٌّ جِدًا

(وَمِنْهَا الْحَسَدُ) وَهُوَ التَّأَلُّمُ مِمَّا يَرَاهُ الْإِنْسَانُ لِغَيْرِهِ مِنَ الْخَيْرِ وَيَجِدُهُ فِيهِ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالِاجْتِهَادُ فِي إِعْدَامِ الْغَيْرِ مَا هُوَ لَهُ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ وَقَبِيحٌ بِكُلِّ أَحَدٍ

(وَمِنْهَا الْجَزَعُ عِنْدَ الشِّدَّةِ) وَهٰذَا الْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ الْخُرْقِ وَالْجُبْنِ. وَهُوَ مُسْتَقْبَحٌ جِدًا إِذَا لَمْ يَكُنْ مُجَدِّيًا نَفْعًا وَأَمَّا إِظْهَارُهُ لِلْحِيلَةِ عِنْدَ الْوُقُوعِ فِي الشِّدَّةِ أَوْ لِاسْتِغَاثَةِ مُغِيثٍ أَوِ اجْتِلَابِ مُعِينٍ لِلْمُسَاعَدَةِ فَغَيْرُ مَكْرُوهٍ وَلَا يُعَدُّ نَقِيصَةً

(وَمِنْهَا صِغَرُ الْهِمَّةِ) وَهُوَ ضَعْفُ النَّفْسِ عَنْ طَلَبِ الْمَرَاتِبِ الْعَالِيَةِ وَقُصُورُ الْآمَالِ عَنْ بُلُوغِ الْغَايَاتِ وَاسْتِكْثَارُ الْيَسِيرِ مِنَ الْفَضَائِلِ وَاسْتِعْظَامُ الْقَلِيلِ مِنَ الْعَطَايَا وَالِاعْتِدَادُ بِذٰلِكَ وَالرِّضَى بِأَوَاسِطِ الْأُمُورِ وَأَصَاغِرِهَا. وَهٰذَا الْخُلُقُ قَبِيحٌ بِكُلِّ أَحَدٍ وَهُوَ بِالْمُلُوكِ وَالْعُظَمَاءِ أَقْبَحُ بَلْ لَيْسَ بِمُسْتَحِقٍّ لِلِاعْتِبَارِ مَنْ صَغُرَتْ هِمَّتُهُ

(وَمِنْهَا الْجَوْرُ) وَهُوَ الْخُرُوجُ عَنِ الْعَدْلِ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ كَأَخْذِ الْأَمْوَالِ مِنْ غَيْرِ وُجُوهِهَا الْحَلَالِ وَالْمُطَالَبَةِ بِمَا لَا يَجِبُ مِنَ الْحُقُوقِ وَفِعْلِ الْأَشْيَاءِ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا وَلَا أَوْقَاتِهَا وَلَا عَلَى الْقَدْرِ

ٱلَّذي يَجِبُ لَهَا وَعَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلَّذِي يُسْتَحَبُّ فِيهَا وَمِنْ قَبِيلِ ذٰلِكَ ٱلسَّرَفُ وَٱلتَّبْذِيرُ أَيضًا

البحث الرابع

في بعض الاخلاق التي تكون في بعض الناس فضيلة وفي بعضهم رذيلة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

(مِنْهَا حُبُّ ٱلْكَرَامَةِ) وَهُوَ اَنْ يُسَرَّ ٱلْإِنْسَانُ بِٱلتَّعْظِيمِ وَٱلتَّبْجِيلِ وَٱلْمُقَابَلَةِ بِٱلْمَدْحِ وَٱلثَّنَاءِ ٱلْجَمِيلِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ فِي ٱلْأَحْدَاثِ وَٱلصِّبْيَانِ لِاَنَّ مَحَبَّةَ ٱلْكَرَامَةِ تَحُثُّهُمْ عَلَى ٱلرَّغْبَةِ فِي ٱكْتِسَابِ ٱلْفَضَائِلِ. وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْحَدَثَ وَٱلصَّبِيَّ اِذَا مُدِحَا عَلَى فَضِيلَةٍ وُجِدَتْ فِيهِمَا كَانَ ذٰلِكَ دَاعِيًا لَهُمَا اِلَى ٱلِازْدِيَادِ فِي ٱلْفَضَائِلِ. وَاَمَّا ٱلْاَفَاضِلُ مِنَ ٱلنَّاسِ فَاِنَّ ذٰلِكَ يُعَدُّ مِنْهُمْ نَقِيصَةً. لِاَنَّ ٱلْاِنْسَانَ اِنَّمَا يُمْدَحُ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ اِذَا كَانَتْ مُسْتَغْرَبَةً مِنْهُ اَمَّا اِذَا كَانَ مِنْ اَهْلِ ٱلْفَضْلِ فَلَا يَنْبَغِي اَنْ يُسَرَّ اَوْ يَسْتَغْرِبَ مَا يَظْهَرُ مِنْهُ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ. وَكَذٰلِكَ ٱلْاِكْرَامُ وَٱلتَّبْجِيلُ اِذَا كَانَ زَائِدًا عَلَى ٱسْتِحْقَاقِهِ فَاِنَّهُ يَجْرِي مَجْرَى ٱلْمَلَقِ وَٱلسُّرُورُ بِٱلْمَلَقِ غَيْرُ مَحْمُودٍ لِاَنَّهُ مِنْ جِنْسِ ٱلْخَدِيعَةِ

(وَمِنْهَا حُبُّ ٱلزِّينَةِ) وَهُوَ ٱلتَّصَنُّعُ بِلُبْسِ ٱلثِّيَابِ ٱلْفَاخِرَةِ وَرُكُوبِ ٱلْخَيْلِ وَكَثْرَةِ ٱلْخَدَمِ وَٱلْحَشَمِ وَهٰذَا مُسْتَحْسَنٌ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ وَٱلْاَحْدَاثِ وَٱلظُّرَفَاءِ وَٱلنِّسَاءِ. فَاَمَّا ٱلرُّهْبَانُ وَٱلزُّهَّادُ

وَالشُّيُوخُ وَاَهْلُ الْعِلْمِ وَخَاصَّةً الْخُطَبَاءُ وَالْوَاعِظُونَ وَرُؤَسَاءُ الدِّينِ فَاِنَّ التَّصَنُّعَ بِالزِّينَةِ مُسْتَنْكَرٌ مِنْهُمْ وَالْمُسْتَحْسَنُ بِهِمْ هُوَ لُبْسُ الْخَشِنِ وَكَرَاهِيَةُ التَّنَعُّمِ وَلُزُومُ بُيُوتِ الصَّلَاةِ

(وَمِنْهَا الْمُجَازَاةُ عَلَى الْمَدْحِ) وَهُوَ مُجَازَاةُ مَنْ يَمْدَحُ الْاِنْسَانَ وَيَشْكُرُهُ فِي الْمَجَالِسِ وَالْمَحَافِلِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنَ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ لِاَنَّهُ يَدْعُو الْمَادِحَ اِلَى الْاِزْدِيَادِ فِي مَدْحِهِ فَيَكْتَسِبُ الْمَمْدُوحُ ذِكْرًا جَمِيلًا يَبْقَى اِلَى الدَّهْرِ. وَمِنْ فَضَائِلِ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ بَقَاءُ ذِكْرِهِمِ الْجَمِيلِ. وَاَمَّا مَحَبَّتُهُمْ سَمَاعَ الْمَدْحِ مِنَ الْمَادِحِ مُوَاجَهَةً فَذٰلِكَ غَيْرُ مُسْتَحَبٍّ مِنْهُمْ لِاَنَّهُ مِنْ جِنْسِ الْمَلَقِ وَحُبُّ الْمَلَقِ مَكْرُوهٌ لِكَوْنِهِ مِنْ قَبِيلِ الْخَدِيعَةِ كَمَا تَقَدَّمَ. وَاَمَّا اِيثَارُهُمُ ائْتِشَارَ ذِكْرِهِمْ وَمَدْحِهِمْ وَتَنَاوُلَ النَّاسِ لَهُ وَبَقَاؤُهُ بَعْدَهُمْ فَاِنَّهُ مَحْمُودٌ. وَمُجَازَاةُ الْمَادِحِ مُسْتَحْسَنَةٌ مِنَ الْمُلُوكِ وَمَنْعُهُمْ مُسْتَنْكَرٌ وَعَارٌ عَلَيْهِمْ لِاَنَّ ذٰلِكَ يَدْعُو اِلَى ذَمِّهِمْ وَذَمُّهُمْ يَبْقَى اَيْضًا اِلَى الدَّهْرِ فَيُنْشِئُ لَهُمْ ذِكْرًا قَبِيحًا وَذٰلِكَ مَكْرُوهٌ مِنَ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ. اَمَّا اَصَاغِرُ النَّاسِ فَمَحَبَّتُهُمْ جَزَاءَ الْمَادِحِ لَهُمْ غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ لِاَنَّ الْمَادِحَ اِذَا مَدَحَ الدَّنِيءَ مِنَ النَّاسِ فَاِنَّمَا يَخْدَعُهُ فَاِذَا اَجَازَهُ اَعْتَقَدَ اَنَّهُ اَخَذَ مِنْهُ تِلْكَ الْجَائِزَةَ بِالْحِيلَةِ. وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ اِذَا مُدِحُوا بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ يُبَادِرُونَ اِلَى مُجَازَاةِ الْمَادِحِ فَيَكُونُونَ قَدْ وَضَعُوا الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ فَلَوْ صَرَفُوا ذٰلِكَ الشَّيْءَ اِلَى الضُّعَفَاءِ وَاَهْلِ الْمَسْكَنَةِ كَانَ ذٰلِكَ اَجْمَلَ بِهِمْ وَاَلْيَقَ

(وَمِنْهَا الزُّهْدُ) وَهُوَ قِلَّةُ الرَّغْبَةِ فِي الْاَمْوَالِ وَالْاِدِّخَارِ وَغَيْرِهَا

وَ ايثَارُ ٱلْقَنَاعَةِ بِمَا يُقِيمُ ٱلرَّمَقَ وَٱلِاسْتِخْفَافُ بِالدُّنْيَا وَمَحَاسِنِهَا وَلَذَّاتِهَا وَقِلَّةُ ٱلِاكْتِرَاثِ بِٱلْمَرَاتِبِ ٱلْعَالِيَةِ وَاسْتِصْغَارُ ٱلْمُلُوكِ وَمَمَالِكِهِمْ وَارْبَابِ ٱلْاَمْوَالِ وَاَمْوَالِهِمْ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَرُؤَسَاءِ ٱلدِّينِ وَٱلْخُطَبَاءِ وَٱلْوَاعِظِينَ وَمَنْ يُرَغِّبُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَعَادِ وَٱلْبَقَاءِ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ. فَاَمَّا ٱلْمُلُوكُ وَٱلْعُظَمَاءُ فَاِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ مِنْهُمْ وَلَا لَائِقٌ بِهِمْ لِاَنَّ ٱلْمَلِكَ اِذَا اَظْهَرَ ٱلزُّهْدَ صَارَ نَاقِصًا اِذْ اِنَّ مُلْكَهُ لَا يَتِمُّ اِلَّا بِٱحْتِشَادِ ٱلْاَمْوَالِ وَٱلْاَعْرَاضِ وَٱدِّخَارِهَا لِيُدَبِّرَ بِهَا مُلْكَهُ وَيَصُونَ بِوَاسِطَتِهَا حَوْزَتَهُ وَيَفْتَقِدَ بِهَا رَعِيَّتَهُ وَهٰذَا مُضَادٌّ لِلزُّهْدِ فَاِنَّهُ اِذَا تَرَكَ ٱلِادِّخَارَ اَبْطَلَ مُلْكَهُ وَصَارَ مَعْدُودًا فِي جُمْلَةِ ٱلْمُلُوكِ ٱلْحَائِدِينَ عَنْ طَرِيقِ ٱلسِّيَاسَةِ

فَهٰذِهِ ٱلْاَقْسَامُ ٱلَّتِي ذَكَرْنَاهَا هِيَ اَخْلَاقُ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ اَمَّا ٱلْمَمْدُوحَةُ مِنْهَا ٱلْمَعْدُودَةُ فَضَائِلَ فَقَلَّمَا تَجْتَمِعُ كُلُّهَا فِي اِنْسَانٍ وَاحِدٍ وَاَمَّا ٱلْمَذْمُومَةُ مِنْهَا ٱلْمَعْدُودَةُ نَقَائِصَ وَمَعَائِبَ فَقَلَّمَا يُوجَدُ اِنْسَانٌ يَخْلُو مِنْ جَمِيعِهَا حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ خُلُقٌ مَكْرُوهٌ وَخَاصَّةً مَنْ يُرَوِّضُ نَفْسَهُ وَيُؤَدِّبُهَا. فَاِنَّ مَنْ لَا يَتَعَمَّلُ لِضَبْطِ نَفْسِهِ وَتَفَقُّدِ عُيُوبِهِ لَمْ يَخْلُ مِنْ عُيُوبٍ كَثِيرَةٍ وَاِنْ لَمْ يُحِسَّ بِهَا وَلَمْ يَفْطَنْ اِلَيْهَا. وَاِذَا كَانَ ٱلْحَالُ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ كَانَ اَوْلَى ٱلْاُمُورِ بِٱلْاِنْسَانِ اَنْ يَتَفَقَّدَ اَخْلَاقَهُ وَيَتَاَمَّلَ عُيُوبَهُ وَيَجْتَهِدَ فِي اِصْلَاحِهَا وَنَفْيِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَيَتَّبِعَ ٱلْاَخْلَاقَ ٱلْمَحْمُودَةَ وَيَحْمِلَ نَفْسَهُ عَلَى اعْتِيَادِهَا وَٱلتَّخَلُّقِ بِهَا لِاَنَّ ٱلنَّاسَ اِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ بِفَضَائِلِهِمْ

لا كما يعتقد الجهال والعامة انهم يتفاضلون باحوالهم واموالهم وكثرة ذخائرهم. وافتخار اكثر الناس بالاموال والذخائر والآلات وتعظيمهم الاغنياء وذوي الجاه ليس في محله. وذلك لان كثرة المال انما تتفاضل بها احوال الناس واما نفوسهم فلا تكون افضل من نفوس غيرهم بكثرة المال. وذلك لان الفاجر السفيه الجاهل الشرير وان حوى اموالا عظيمة فلا تكون بافضل من العفيف الحكيم الخير العالم ولو كان فقيرا بل انما يكون بكثرة اموالهِ اغنى منهُ اذا كان ذاك معسرا فقيرا واما التفضيل فلا يكون الا بكثرة الفضائل فقط. ولكن ان اجتمع بالانسان مع الاخلاق الجميلة والعادات المستحسنة الغنى والثروة ايضا فلعمري انهُ يكون احسن حالا من الفاضل المعسر لان ذلك من جملة سعادات الانسان وخاصة اذا كان فاضلا عادلا عفيفا يصرف مالهُ في وجههِ وينفقهُ في حقهِ ويتفقد بهِ من يجب عليهِ ولا يتهامل في مكرمة تزيد في محاسنهِ

اما الناقص الجاهل السيء العادات فان الغنى ربما زادهُ نقصا وعيوبا واضاف الى معايبهِ عيوبا اخرى. ولا يعدُّ بخيلا من لا مال لهُ وان كان البخل من طبعهِ لان فقرهُ يخفي ذلك منهُ ومتى لم يظهر منهُ هذا الامر فلا يعاب عليهِ لان الانسان انما يعاب بما يظهر منهُ واما من كان ذا مال ويسار ولم يجد بهِ ظهر بخلهُ فيصير المال جالبا عليهِ عارا. وايضا فان اكثر الفجور

وَٱلْمَحْظُورَاتِ وَٱلشَّهَوَاتِ ٱلرَّدِيئَةِ لَا تُنَالُ غَالِبًا اِلَّا بِٱلْاَمْوَالِ فَٱلْفَقِيرُ ٱلْمُعْسِرُ وَاِنْ كَانَ فَجُورًا فَلَا يَكَادُ يَظْهَرُ ذٰلِكَ مِنْهُ اَمَّا اِذَا كَانَ ذَا مَالٍ تَمَكَّنَ مِنْ شَهَوَاتِهِ فَتَظْهَرُ حِينَئِذٍ عُيُوبُهُ . وَبِنَاءً عَلَيْهِ يَكُونُ ٱلْغَنِيُّ مُكْسِبًا لِصَاحِبِهِ اَحْيَانًا عُيُوبًا وَنَقَائِصَ وَٱلْفَقْرُ فَضَائِلَ وَمَحَاسِنَ . فَيَنْتَجُ مِنْ ذٰلِكَ اِذًا اَنَّ ٱلنَّاسَ لَا تَتَفَاضَلُ حَقِيقَةً بِٱلْاَمْوَالِ وَٱلذَّخَائِرِ بَلْ اِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ بِٱلْآدَابِ وَٱلْمَحَاسِنِ ٱلذَّاتِيَّةِ . فَٱلْخَلِيقُ بِٱلْاِنْسَانِ اَنْ يَسُوسَ نَفْسَهُ بِٱلْآدَابِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ وَيَسْلُكَ بِهَا ٱلطَّرِيقَ ٱلْمَحْمُودَةَ فَاِنَّهُ بِذٰلِكَ يَكُونُ مَحْبُوبًا عِنْدَ ٱلنَّاسِ مَقْبُولًا لَدَيْهِمْ مُعَظَّمًا فِي نُفُوسِهِمْ مُفَضَّلًا عَنْ غَيْرِهِ مُوَقَّرًا عِنْدَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلْمُلُوكِ مَقْبُولَ ٱلْقَوْلِ عَظِيمَ ٱلْجَاهِ

فَهٰذِهِ حَالَةُ ٱلْعَظَمَةِ ٱلْحَقِيقَةِ ٱلْمُكْتَسَبَةِ بِٱلْاَمْوَالِ لِاَنَّ ٱلْمَالَ قَدْ تَلْحَقُهُ ٱلْمَصَائِبُ فَاِذَا فَارَقَ صَاحِبَهُ سَقَطَتْ مَنْزِلَتُهُ مِنْ نُفُوسِ ٱلنَّاسِ وَسَاوَى ٱلْعَامَّةَ وَٱلسُّوقَةَ وَذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلْمُعَظَّمَ لَهُ كَانَ مَالُهُ لَا نَفْسُهُ فَمَتَى زَالَ ذٰلِكَ ٱلْمَالُ لَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ يُعَظَّمُ مِنْ اَجْلِهِ . وَلَيْسَ كَذٰلِكَ ٱلْعَالِمُ ٱلنَّفِيسُ ٱلْفَاضِلُ ٱلْمُهَذَّبُ ٱلْاَخْلَاقِ لِاَنَّ عَظَمَتَهُ بِفَضَائِلِهِ وَهِيَ غَيْرُ مُفَارِقَةٍ لَهُ فَهُوَ مُعْتَبَرٌ دَائِمًا وَمُعَظَّمٌ مِنْ اَجْلِ ذَاتِهِ لَا لِشَيْءٍ خَارِجٍ عَنْهُ

البحث الخامس

في الارتياض بمكارم الاخلاق (*)

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريّا بن عدي)

وبما انّ الرّاغب في سياسة نفسه المؤثر تهذيب اخلاقه اذا نبّه على خلق مذموم وجد فيه واحبّ اجتنابه ربّما صعب عليه الابتقال عنه من اوّل وهلة وربّما لم ينل التخلص منه ولم يطاوعه طبعه او ربّما استحسن ايضًا خلقًا محمودًا لا يجده لنفسه وآثر التخلق به لم تسمح له عادته ولم يصل الى مرادهِ. لذلك وجب ان ترسم للرّاغبين في السّياسة المحمودة طرقًا يتدبّرون بها ويتدرّجون فيها حتّى ينتهوا الى مرادهم من اعتياد الاخلاق الجميلة والانطباع عليها وتجنّب الاخلاق القبيحة والتفرّغ منها ولهذا نذكر طريق الارتياض بالاخلاق المحمودة والتعمّل لاعتيادها لكي يمكن للرّاغب ان يتخلّق بها فنقول:

انهُ لامرٌ مقرّرٌ انّ سبب اختلاف الاخلاق في النّاس هو اختلاف قوى النّفس الثّلاث فيهم وهي الشّهوانيّة والغضبيّة والنّاطقة وانّ اصلاح الاخلاق هو تذليل الشّهوانيّة منها والغضبيّة وتمييز

(*) اعلم ان ما يقولهُ هنا لزكريّا بن عدي في سياسة الانسان نفسهُ يصلح للخطيب لسياسة غيرهِ. لانهُ موكول بتحسين طباع الجمهور منوّض اليهِ حملهم على الخير وصرفهم عن مضارّ الاهواء المنحرفة

عَادَاتِ ٱلنَّفْسِ ٱلنَّاطِقَةِ وَٱسْتِعْمَالُ ٱلْمَحْمُودِ مِنْ اَفْعَالِهَا. فَطَرِيقُ ٱلتَّدَرُّجِ لِٱسْتِعْمَالِ ٱلْعَادَاتِ ٱلْجَمِيلَةِ وَٱلْعُدُولُ عَنِ ٱلْعَادَاتِ ٱلْقَبِيحَةِ هُوَ ٱلتَّدَرُّجُ فِي تَذْلِيلِ هَاتَيْنِ ٱلْقُوَّتَيْنِ

اَمَّا ٱلنَّفْسُ ٱلشَّهْوَانِيَّةُ فَٱلطَّرِيقُ اِلَى قَمْعِهَا اَنْ يَتَذَكَّرَ ٱلْاِنْسَانُ فِي اَوْقَاتِ شَهَوَاتِهِ وَعِنْدَ شِدَّةِ ٱلْعَزْمِ اِلَى لَذَاتِهِ اَنَّهُ يُرِيدُ تَذْلِيلَ نَفْسِهِ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ فَيَعْدِلُ عَمَّا تَاقَتْ نَفْسُهُ اِلَيْهِ مِنَ ٱلشَّهْوَةِ ٱلرَّدِيئَةِ اِلَى مَا هُوَ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جِنْسِ تِلْكَ ٱلشَّهْوَةِ وَمُتَّفَقٌ عَلَى ٱرْتِضَائِهِ وَيَقْتَصِرُ عَلَيْهِ. فَاِنْ لَمْ تَنْكَسِرْ شَهَوَاتُهُ يُعَلِّلُهَا وَيَعِدُهَا فَاِنْ سَكَنَتِ ٱسْتَمَرَّ وَاِلَّا عَادَ اِلَى ٱلْفِعْلِ مِنَ ٱلْوَجْهِ ٱلْمُسْتَحْسَنِ. فَاِنَّهُ اِذَا فَعَلَ ذٰلِكَ وَكَرَّرَهُ كَفَتِ ٱلنَّفْسُ وَاِذَا ٱسْتَمَرَّ عَلَى هٰذَا ٱلْحَالِ اَلِفَتْ هٰذِهِ ٱلْعَادَةَ وَتَانَسَتْ بِهَا وَٱسْتَوْحَشَتْ مِمَّا سِوَاهَا. وَيَنْبَغِي لِمَنْ اَرَادَ قَمْعَ نَفْسِهِ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ اَنْ يُكْثِرَ مِنْ مُجَالَسَةِ ٱلزُّهَّادِ وَٱلرُّهْبَانِ وَٱلنُّسَّاكِ وَاَهْلِ ٱلْوَرَعِ وَٱلْوَاعِظِينَ وَيُلَازِمَ مَجَالِسَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَاَهْلِ ٱلْعِلْمِ فَاِنَّ هٰؤُلَاءِ وَخَاصَّةً رُؤَسَاءَ ٱلدِّينِ يُعَظِّمُونَ مَنْ كَانَ مَعْرُوفًا بِٱلْعِفَّةِ وَيَسْتَزْرُونَ مَنْ كَانَ فَاجِرًا مُنْهَمِكًا. فَمُجَالَسَتُهُ وَمُلَازَمَتُهُ لِهٰذِهِ ٱلْمَجَالِسِ تَضْطَرُّهُ اِلَى ٱلتَّصَوُّنِ وَٱلتَّعَفُّفِ وَٱلتَّجَمُّلِ لِذَوْقِهِمْ اِئْلَّا يَسْتَزْرُوهُ وَيَغْضَبُوا مِنْهُ وَيَلْحَقَ بِرُتْبَةِ مَنْ يُعَظَّمُ فِي ٱلْمَحَافِلِ وَٱلْمَجَالِسِ. وَيَنْبَغِي لَهُ اَيْضًا اَنْ يُدِيمَ ٱلنَّظَرَ فِي كُتُبِ ٱلْاَخْلَاقِ وَٱلسِّيَاسَةِ وَاَخْبَارِ ٱلزُّهَّادِ وَٱلرُّهْبَانِ وَٱلنُّسَّاكِ وَاَهْلِ ٱلْوَرَعِ وَيَتَجَنَّبَ مَجَالِسَ ٱلْخُلَعَاءِ وَٱلسُّفَهَاءِ وَٱلْمُنْهَمِكِينَ وَمَنْ يُكْثِرُ ٱلْهَزْلَ وَٱللَّعِبَ وَحِينَئِذٍ يَلْحَقُ بِرُتْبَتِهِ وَيُعَظَّمُ فِي ٱلْمَحَافِلِ. وَاَكْثَرُ مَا

يَجِبُ لَهُ اَنْ يَتَجَنَّبَ ٱلسُّكْرَ فَاِنَّهُ مِمَّا يُثِيرُ نَفْسَهُ ٱلشَّهْوَانِيَّةَ وَيُقَوِّيهَا وَيَحْمِلُهَا عَلَى ٱلتَّهَتُّكِ وَٱرْتِكَابِ ٱلْفَوَاحِشِ وَٱلْمُجَاهَرَةِ بِهَا . . وَيَنْبَغِي لِمَنْ اَرَادَ قَمْعَ نَفْسِهِ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ اَنْ يُقِلَّ مِنِ ٱسْتِمَاعِ ٱلْغِنَاءِ وَخَاصَّةً مِنَ ٱلنِّسَاءِ ٱلْمُتَصَنِّعَاتِ وَٱلشُّبَّانِ ٱلظُّرَفَاءِ فَاِنَّ لِلسَّمَاعِ قُوَّةً عَظِيمَةً فِي اِثَارَةِ ٱلشَّهْوَةِ . . . اَمَّا ٱلطَّعَامُ فَيَنْبَغِي اَنْ تَعْلَمَ اَنَّ غَايَتَهُ هُوَ ٱلشِّبَعُ لِدَفْعِ اَلَمِ ٱلْجُوعِ . وَفَاخِرُ ٱلطَّعَامِ وَدَنِيُّهُ جَمِيعُهُمَا مُشْبِعَانِ فَلَيْسَ لِلْمُبَالَغَةِ فِي تَجْوِيدِ ٱلطَّعَامِ ٱلْكَثِيرِ حَظٌّ وَلَا فَائِدَةٌ . وَٱلْاَوْلَى هُوَ ٱلتَّوَسُّطُ فِي اَنْوَاعِ ٱلْمَاْكَلِ وَاَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلَّذِي نَشَاَ عَلَيْهِ ٱلْاِنْسَانُ وَاعْتَادَهُ وَاَلِفَهُ . . . وَطَرِيقُ ٱلتَّدَرُّجِ اِلَى ٱلْاِقْتِصَارِ فِي ٱلطَّعَامِ هُوَ اَنْ يُبَادِرَ ذُو ٱلشَّهْوَةِ اِلَى اَيِّ شَيْءٍ وَجَدَهُ مِنَ ٱلْمَاْكَلِ فَاِنْ كَانَ ٱلْمُشْتَهَى ٱلَّذِي تَاقَتْ نَفْسُهُ اِلَيْهِ حُلْوًا فَلَا اَيَّ حَلَاوَةٍ وَجَدَهَا وَاِنْ كَانَ غَيْرَ ذٰلِكَ فَلَا مَا يَشْتَهِيهِ مِنَ ٱلطَّعَامِ فَاِنَّهُ اِذَا تَنَاوَلَ ٱلْاِنْسَانُ مِنْ ذٰلِكَ تَكْرَارًا وَشَبِعَ مِنْهُ سَكَنَتْ شَهْوَتُهُ وَكَفَّتْ نَفْسُهُ بَعْدَ ذٰلِكَ

وَيَنْبَغِي لِمَنْ اَحَبَّ ٱلْعِفَّةَ اَنْ يَكُونَ اَبَدًا مُتَيَقِّظًا ذَاكِرًا لِمَا يَلْحَقُ ٱلْفَاجِرَ وَٱلنَّهِمَ وَٱلشَّرِهَ وَٱلْمُتَهَتِّكَ مِنَ ٱلْقَبَاحَةِ وَٱلْعَارِ فِي ٱلدُّنْيَا جَاعِلًا ذٰلِكَ دَيْدَنَهُ وَشِعَارَهُ وَمُدَاوِمًا عَلَى ذِكْرِهِ . فَاِنَّ نَفْسَهُ حِينَئِذٍ تُبْغِضُ ٱلشَّهَوَاتِ ٱلرَّدِيَّةَ وَتَشْتَاقُ اِلَى ٱلتَّعَفُّفِ وَٱلْقَنَاعَةِ وَتَطْرَبُ عِنْدَ ٱلْعُدُولِ عَنِ ٱلْفَوَاحِشِ مَعَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَيْهَا وَتَرْتَاحُ لِمَا يُنْشَرُ عَنْهَا وَمَا يَبْلُغُهَا عَنِ ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلثَّنَاءِ ٱلْجَمِيلِ عَلَى صَاحِبِهَا . فَهٰذَا هُوَ طَرِيقُ رِيَاضَةِ ٱلنَّفْسِ

اِلَى قَهْرِ ٱلْقُوَّةِ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ وَتَذْلِيلِهَا وَقَمْعِهَا اَعْنِي طَرِيقَ ٱلِارْتِيَاضِ بِٱلْعَادَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ ٱلْمُرْضِيَةِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِٱلشَّهَوَاتِ وَٱللَّذَّاتِ ٱلدَّنِيئَةِ

فَاَمَّا ٱلنَّفْسُ ٱلْغَضَبِيَّةُ فَاِنَّ طَرِيقَ قَمْعِهَا وَتَذْلِيلِهَا هُوَ اَنْ يَصْرِفَ ٱلْاِنْسَانُ هِمَّتَهُ اِلَى تَفَقُّدِ ٱلسُّفَهَاءِ ٱلَّذِينَ يُسْرِعُ اِلَيْهِمِ ٱلْغَضَبُ فِي اَوْقَاتِ طَيْشِهِمْ وَحِدَّتِهِمْ وَيُلَاحِظَ تَسَفُّهَهُمْ عَلَى اَخِصَّائِهِمْ وَعُقُوبَتَهُمْ لِخَدَمِهِمْ وَعَبِيدِهِمْ فَاِنَّهُ يُشَاهِدُ اِذْ ذَاكَ مَنْظَرًا شَنِيعًا يَأْنَفُ مِنْهُ ٱلْخَاصُّ وَٱلْعَامُّ وَاَنْ يَتَذَكَّرَ فِي اَوْقَاتِ غَضَبِهِ وَعِنْدَ جِنَايَاتِ خَدَمِهِ وَعَبِيدِهِ وَوُثُوبِ اِخْوَانِهِ وَاَوِدَّائِهِ فِي جَمِيعِ مُحَاوَرَاتِهِ وَمُعَامَلَاتِهِ مَا شَاهَدَهُ مِنْ اُولَئِكَ . فَاِنَّهُ اِذَا تَفَكَّرَ فِيمَا كَانَ ٱسْتَخَفَّهُ مِنْهُمْ فَتَنْكَسِرُ بِذَلِكَ سَوْرَةُ غَضَبِهِ وَيُخْجِمُ عَمَّا هَمَّ بِٱلْاِقْدَامِ عَلَيْهِ مِنَ ٱلسَّبِّ وَٱلْوُثُوبِ فَاِنْ لَمْ يَكُفَّ بِٱلْكُلِّيَّةِ قَصَّرَ وَلَمْ يَتَّبِعْ اِلَى غَايَةِ ٱلْفُحْشِ

وَيَنْبَغِي لِمَنْ اَرَادَ اَنْ يَقْهَرَ نَفْسَهُ ٱلْغَضَبِيَّةَ اَنْ يَتَذَكَّرَ فِي اَوْقَاتِ غَضَبِهِ عَلَى مَنْ يُؤْذِيهِ اَوْ يَتَجَنَّى عَلَيْهِ اَنَّهُ لَوْ كَانَ هُوَ ٱلْجَانِيَ مَا ٱلَّذِي كَانَ يَسْتَحِقُّ اَنْ يُقَابَلَ بِهِ عَلَى جِنَايَتِهِ فَاِنَّهُ بِهَذَا ٱلْفِعْلِ يَعْتَقِدُ اَنَّ دَرَكَ تِلْكَ ٱلْجِنَايَةِ وَذَلِكَ ٱلْاَذَى يَسِيرٌ . جِدًّا فَاِذَا ٱعْتَقَدَ ذَلِكَ كَانَتْ مُقَابَلَتُهُ لِلْجَانِي ٱلْمُؤْذِي بِحَسَبِ اَعْتِقَادِهِ خَفِيفَةً وَحِينَئِذٍ لَا يُسْرِفُ فِي ٱلْاِنْتِقَامِ وَلَا يُفْحِشُ فِي ٱلْغَضَبِ فَمَتَى فَعَلَ ذَلِكَ دَائِمًا وَجَعَلَهُ دَيْدَنًا وَتَفَقَّدَ مَعَايِبَ ٱلسُّفَهَاءِ وَمَنْ يُسْرِعُ اِلَيْهِ ٱلْغَضَبُ لَمْ يُبْعِدْ اَنْ تَنْكَسِرَ نَفْسُهُ ٱلْغَضَبِيَّةُ وَتَنْقَادَ اِلَيْهِ وَاِذَا ٱسْتَمَرَّ عَلَى هٰذَا

ٱلْعَمَلِ مُدَّةً صَارَ لَهُ خُلُقًا وَعَادَةً

وَيَنْبَغِي لِمَنْ رَغِبَ فِي تَذْلِيلِ قُوَّتِهِ ٱلْغَضَبِيَّةِ ٱنْ يَتَجَنَّبَ حَمْلَ ٱلسِّلَاحِ فِي مَجَالِسِ ٱلشَّرَابِ وَحُضُورِ مَوَاضِعِ ٱلْفِتَنِ وَمَقَامَاتِ ٱلْحُرُوبِ وَفِي مُجَالَسَةِ ٱلْأَشْرَارِ وَيَتَجَنَّبَ مُعَاشَرَتَهُمْ وَمُخَالَطَةَ ٱلشُّرَطِ فَانَّ هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعَ تُكْسِبُ قَسَاوَةَ ٱلْقَلْبِ وَتُغْلِظُهُ وَتُعْدِمُهُ ٱلرَّأْفَةَ فَتَشْتَدُّ لِذٰلِكَ ٱلْقُوَّةُ ٱلْغَضَبِيَّةُ فَاذَا ٱرَادَ تَذْلِيلَهَا وَتَسْكِينَهَا يَجِبُ ٱنْ يَجْعَلَ مُجَالَسَتَهُ لِأَهْلِ ٱلْوَقَارِ وَٱلشُّيُوخِ وَٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلْأَفَاضِلِ وَمَنْ يَقِلُّ غَضَبُهُ وَيَكْثُرُ حِلْمُهُ وَوَقَارُهُ

وَيَنْبَغِي لَهُ ٱنْ يَتَجَنَّبَ ٱلْمُسْكِرَ مِنَ ٱلشَّرَابِ فَانَّهُ يُهَيِّجُ ٱلْقُوَّةَ ٱلْغَضَبِيَّةَ اكْثَرَ مِمَّا يُهَيِّجُ ٱلْقُوَّةَ ٱلشَّهْوَانِيَّةَ . . .

وَيَنْبَغِي لِمَنْ ٱرَادَ تَذْلِيلَ قُوَّتَيِهِ ٱلْغَضَبِيَّةِ وَٱلشَّهْوَانِيَّةِ مَعًا ٱنْ يَسْتَعْمِلَ فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ ٱلْفِكْرَ وَلَا يُقْدِمُ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا بَعْدَ ٱنْ يُرَوِّيَ فِيهِ وَيَجْعَلَ ٱلْفِكْرَةَ وَٱتِّبَاعَ ٱلرَّأْيِ دَيْدَنَهُ وَعَادَتَهُ فَانَّ ٱلرَّأْيَ وَجُودَةَ ٱلْفِكْرِ يُقْمِعَانِ لَهُ ٱلسَّفَهَ وَسُرْعَةَ ٱلْغَضَبِ وَٱلِٱنْهِمَاكَ فِي ٱلشَّهَوَاتِ وَٱتِّبَاعِ ٱللَّذَّاتِ . فَاذَا ٱسْتَفْحَلَ ذٰلِكَ ٱلْحَجَمَ عَنْهُ وَعَدَلَ إِلَى مَا يَقْتَضِيهِ ٱلرَّأْيُ وَٱلْفِكْرُ وَانْ لَمْ يَرْتَدِعْ بِٱلْكُلِّيَّةِ لَا بُدَّ ٱنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ ذٰلِكَ فَيَقْتَصِرَ عَمَّا يُرِيدُ ٱلسَّرْعَ إِلَيْهِ

وَمِلَاكُ ٱلْأَمْرِ فِي تَهْذِيبِ ٱلْأَخْلَاقِ وَضَبْطِ ٱلْقُوَّةِ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ وَٱلْقُوَّةِ ٱلْغَضَبِيَّةِ هِيَ ٱلْقُوَّةُ ٱلنَّاطِقَةُ فَانَّ بِهٰذِهِ ٱلْقُوَّةِ تَكُونُ جَمِيعُ ٱلسِّيَاسَاتِ فَاذَا كَانَتْ قَوِيَّةً مُتَمَكِّنَةً مِنْ صَاحِبِهَا ٱمْكَنَهُ ٱنْ

يَسُوسَ بِهَا قُوَّتَيْهِ ٱلْبَاقِيَتَيْنِ وَيَكُفَّ نَفْسَهُ عَنْ جَمِيعِ ٱلْقَبَائِحِ وَيَتَّبِعَ أَبَدًا مَحَاسِنَ ٱلْأَخْلَاقِ وَإِذَا لَمْ تَكُنْ قُوَّيَّةً فِي صَاحِبِهَا كَانَتْ مَغْمُورَةً خَافِيَةً

فَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَمِدَهُ فِي سِيَاسَةِ أَخْلَاقِهِ هُوَ أَنْ يُرَوِّضَ هٰذِهِ ٱلْقُوَّةَ. وَتَرْوِيضُهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيَّةِ فَإِنَّهُ إِذَا نَظَرَ فِي هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ وَدَقَّقَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا وَدَرَسَ كُتُبَ ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلسِّيَاسَةِ وَدَاوَمَ عَلَيْهَا تَيَقَّظَتْ نَفْسُهُ وَتَنَبَّهَتْ مِنْ شَهَوَاتِهَا وَٱنْتَعَشَتْ مِنْ خُمُولِهَا وَٱحْتَسَّتْ بِفَضَائِلِهَا وَٱنِفَتْ مِنْ رَذَائِلِهَا لِأَنَّ هٰذِهِ ٱلْقُوَّةَ إِنَّمَا تَضْعُفُ وَتَتْحَفُ إِذَا عَدِمَتِ ٱلْفَضَائِلَ وَٱلْمَنَاقِبَ وَٱسْتَوْلَتْ عَلَيْهَا ٱلرَّذَائِلُ. أَمَّا إِذَا ٱقْتَنَتِ ٱلْفَضَائِلَ وَٱكْتَسَبَتِ ٱلْآدَابَ تَيَقَّظَتْ مِنْ غَشْيَتِهَا وَثَارَتْ مِنْ سُكْرِهَا وَقَوِيَتْ بَعْدَ ضَعْفِهَا. وَفَضَائِلُ هٰذِهِ ٱلْقُوَّةِ هِيَ ٱلْعُلُومُ ٱلْعَقْلِيَّةُ وَخَاصَّةً مَا دَقَّ مِنْهَا فَإِذَا ٱرْتَاضَ ٱلْإِنْسَانُ بِهَا شَرُفَتْ نَفْسُهُ وَعَظُمَتْ هِمَّتُهُ وَقَوِيَ فِكْرُهُ وَتَمَكَّنَ مِنْ نَفْسِهِ وَمَلَكَ أَخْلَاقَهُ وَقَدَرَ عَلَى إِصْلَاحِهَا وَٱنْقَادَ لَهُ طَبْعُهُ وَسَهُلَ عَلَيْهِ تَهْذِيبُهُ وَأَذْعَنَتْ لَهُ ٱلْقُوَّةُ ٱلْغَضَبِيَّةُ وَٱلشَّهْوَانِيَّةُ وَهَانَ عَلَيْهِ قَمْعُهُمَا وَتَهْذِيبُهُمَا

وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَبْتَدِئَ بِهِ مَنْ يُحِبُّ سِيَاسَةَ أَخْلَاقِهِ هُوَ ٱلنَّظَرُ فِي كُتُبِ ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلسِّيَاسَاتِ ثُمَّ ٱلِٱرْتِيَاضُ بِعُلُومِ ٱلْحَقَائِقِ فَإِنَّ أَشْرَفَ مَا يَكُونُ لِلنَّفْسِ إِدْرَاكُهَا حَقَائِقَ ٱلْأُمُورِ وَٱطِّلَاعُهَا عَلَى هَيْئَاتِ ٱلْمَوْجُودَاتِ فَمَتَى شَرُفَتْ نَفْسُ ٱلْإِنْسَانِ وَعَلَتْ هِمَّتُهُ رَقِيَ إِلَى مَرَاتِبِ ٱلْفَضْلِ

وَمِمَّا يُصْلِحُ ٱلنَّفْسَ ٱلنَّاطِقَةَ وَيُقَوِّيهَا أَيْضًا مُجَالَسَةُ أَهْلِ ٱلْعِلْمِ وَمُخَالَطَتُهُمْ وَٱلِاقْتِدَاءُ بِأَخْلَاقِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَخَاصَّةً أَصْحَابُ عُلُومِ ٱلْحَقَائِقِ وَٱلْمُتَيَقِّظُونَ مِنْهُمُ ٱلْمُسْتَعْمِلُونَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ مَا تَقْتَضِيهِ عُلُومُهُمْ وَتُوجِبُهُ عُقُولُهُمْ

أَمَّا تَمْيِيزُ عَادَاتِ ٱلنَّفْسِ ٱلنَّاطِقَةِ وَٱسْتِعْمَالُ مَا حَسُنَ فِيهَا وَٱطِّرَاحُ مَا قَبُحَ فَإِنَّمَا يُمْكِنُ وَيَتَسَهَّلُ إِذَا رَاضَ ٱلْإِنْسَانُ نَفْسَهُ ٱلنَّاطِقَةَ. فَإِنَّهَا إِذَا ٱرْتَاضَتْ بِٱلْعُلُومِ ٱلْحَقِيقِيَّةِ وَتَيَقَّظَتْ وَتَشَرَّفَتْ ٱنِفَتْ مِنَ ٱلْعَادَاتِ ٱلْمُسْتَقْبَحَةِ وَتَتَرَّهَتْ عَنِ ٱلتَّدْنِيسِ بِهَا فَيَهُونُ حِينَئِذٍ عَلَى ٱلْإِنْسَانِ تَجَنُّبُ مَا يُسْتَكْرَهُ مِنَ ٱلْعَادَاتِ وَيَغْلِبُ عَلَيْهِ ٱسْتِحْسَانُ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْحَمِيدَةِ ٱلْجَمِيلَةِ وَٱلتَّخَلُّقُ بِهَا

فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ جَمِيعِ مَا ذَكَرْنَاهُ أَنَّ طَرِيقَ ٱلِارْتِيَاضِ بِٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَٱلتَّصَنُّعَ لِٱعْتِيَادِهَا وَٱتِّبَاعَ ٱلْمَحْمُودِ ٱلْمَرْضِيِّ مِنْهَا وَتَرْكَ ٱلْمَذْمُومِ ٱلْمُسْتَقْبَحِ وَتَذْلِيلَ قُوَّةِ ٱلشَّهْوَةِ ٱلْغَضَبِيَّةِ وَضَبْطَهَا وَقَهْرَهَا هُوَ إِصْلَاحُ ٱلْقُوَّةِ ٱلنَّاطِقَةِ وَتَقْوِيَتُهَا وَتَحْلِيَتُهَا بِٱلْفَضَائِلِ وَٱلْآدَابِ وَٱلْمَحَاسِنِ فَإِنَّ ذٰلِكَ هُوَ آلَةُ ٱلسِّيَاسَةِ وَمَرْكَبُ ٱلرِّيَاضَةِ

وَمَنْ يَتَمَكَّنُ مِنِ ٱكْتِسَابِ ٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَٱلْإِمْعَانِ فِيهَا وَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ ذٰلِكَ فَلْيَبْذُلْ جَهْدَهُ فِي تَذْقِيقِ ٱلْفِكْرَةِ وَمُجَاهَدَةِ ٱلنَّفْسِ وَيُصَوِّرِ ٱلْفَرْقَ مَا بَيْنَ عَادَتِهِ ٱلْقَبِيحَةِ وَٱلْجَمِيلَةِ وَيَنْظُرْ أَيُّهُمَا أَجْدَى عَلَيْهِ وَأَنْفَعُ وَأَيُّهُمَا أَجْدَرُ عَاقِبَةً وَأَبْقَى عَلَى ٱلْأَيَّامِ فَإِنَّهُ إِذَا صَدَقَ مَا تَأَكَّدَتْهُ نَفْسُهُ وَجَدَ أَنَّ شَهَوَاتِهِ وَلَذَّاتِهِ إِنَّمَا هِيَ مُدَّةُ

وَقْتِ ٱسْتِعْمَالِهَا فَقَطْ أَمَّا بَعْدَ مُفَارَقَتِهَا فَلَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ عَلَيْهِ وَلَا نَافِعَةٍ لَهُ وَيَجِدُ عَارَهَا وَشَيْنَهَا بَاقِيًا إِلَى ٱلدَّهْرِ مُتَدَاوَلًا فِيمَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ يُعَابُ بِهِ وَيُزْرَى عَلَيْهِ. وَكَذٰلِكَ فِي شِدَّةِ ٱلْغَضَبِ وَٱلْإِسْرَاعِ إِلَى ٱلِٱنْتِقَامِ وَٱلسَّبِّ وَٱلْفُحْشِ فَمَتَى ٱنْحَلَّتْ غَمْرَتُهُ وَسَكَنَتْ ثَوْرَتُهُ تَأَمَّلَ أَمْرَهُ فَرَأَى أَنَّ مَا فَعَلَهُ كَانَ قَبِيحًا وَلَمْ يَجِدْهُ مُجْدِيًا وَلَا مُفِيدًا وَقَدْ صَارَ مَا فَعَلَهُ وَقْتَ ٱلْغَضَبِ نَقِيصَةً يُوسَمُ بِهَا وَمَعْيَرَةً يُسَبُّ عَلَيْهَا. وَرُبَّمَا ٱرْتَكَبَ حَالَ ٱلْغَضَبِ جِنَايَاتٍ كَثِيرَةً يُعَاقَبُ عَلَيْهَا وَيُؤَدَّبُ مِنْ أَجْلِهَا. كَذٰلِكَ ٱلْعَادَاتُ ٱلْمَكْرُوهَةُ فِي ٱلنَّفْسِ ٱلنَّاطِقَةِ هِيَ أَيْضًا غَيْرُ نَافِعَةٍ وَلَا مُجْدِيَةٍ لِلْإِنْسَانِ نَفْعًا كَٱلْحَسَدِ مَثَلًا وَٱلْحِقْدِ وَٱلْخُبْثِ وَأَمْثَالِ هٰذِهِ إِذْ لَا يَتَنَفَّعُ بِهَا صَاحِبُهَا وَإِنِ ٱنْتَفَعَ كَانَ شَرَّ مَنْفَعَةٍ وَمَعَ ذٰلِكَ فَهِيَ مُضِرَّةٌ لَهُ لِأَنَّ مَنْ تَشَرَّرَ قَصَدَهُ ٱلنَّاسُ بِٱلشَّرِّ وَٱسْتَعَدُّوا لِأَذِيَّتِهِ وَتَعَمَّدُوا لِلْإِضْرَارِ بِهِ وَتَوَقَّوْهُ وَٱحْتَرَزُوا مِنْهُ وَكَرِهُوا نَفْعَهُ وَقَصَرُوا عَلَيْهِ وُجُوهَ ٱلْخَيْرِ.. فَإِذَا حَاسَبَ ٱلْإِنْسَانُ نَفْسَهُ وَأَجَادَ فِكْرَتَهُ وَتَمْيِيزَهُ عَلِمَ أَنَّ ٱلضَّرَرَ فِي مَسَارِئِ ٱلْأَخْلَاقِ أَكْثَرُ مِنَ ٱلنَّفْعِ بِهَا وَأَنَّ ٱلَّذِي يَعُدُّهُ فِيهَا نَفْعًا فَلَيْسَ هُوَ بِنَفْعٍ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ وَإِذَا كَانَ نَفْعًا فَهُوَ يَسِيرٌ جِدًّا وَغَيْرُ بَاقٍ وَلَا مُسْتَمِرٌّ وَأَنَّ هٰذَا ٱلْيَسِيرَ ٱلَّذِي يَعُدُّهُ نَفْعًا لَا يَفِي بِٱلضَّرَرِ ٱلْكَثِيرِ وَٱلْعَارِ ٱلدَّائِمِ ٱلْمُتَّصِلِ...

وَيَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ سِيَاسَةَ أَخْلَاقِهِ أَنْ يَجْعَلَ غَرَضَهُ مِنْ كُلِّ فَضِيلَةٍ غَايَتَهَا وَنِهَايَتَهَا وَلَا يَقْنَعَ مِنْهَا بِمَا دُونَ ٱلْغَايَةِ وَلَا يَرْضَى إِلَّا

بِأَعْلَى دَرَجَةٍ فَإِنَّهُ إِذَا جَعَلَ ذٰلِكَ غَرَضَهُ كَانَ حَرِيًّا أَنْ يَتَوَسَّطَ فِي ٱلْفَضَائِلِ وَيَبْلُغَ فِيهَا رُتْبَةً مَرْضِيَّةً إِنْ فَاتَتْهُ ٱلدَّرَجَةُ ٱلْعُلْيَا وَأَمَّا إِنْ قَنِعَ بِٱلتَّوَسُّطِ يَا مَنْ أَنْ يُقَصِّرَ عَنْ بُلُوغِهِ فَيَبْقَى فِي أَدْنَى ٱلْمَرَاتِبِ وَيَفُوتُهُ ٱلْمَطْلُوبُ وَلَا يَطْمَعُ أَبَدًا فِي ٱلتَّمَامِ

فَهٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرْنَاهُ هُوَ طَرِيقُ ٱلِٱرْتِيَاضِ بِمَكَارِمِ ٱلْأَخْلَاقِ وَمَنْهَجُ ٱلتَّدَرُّجِ فِي مَحْمُودِهَا وَكَيْفِيَّةِ تَهْذِيبِهَا فَإِذَا أَخَذَ ٱلْإِنْسَانُ بِتَدْرِيبِ نَفْسِهِ بِهِ وَأَكْثَرَ مِنْ مُرَاعَاتِهِ وَتَعَهُّدِهِ صَارَتْ لَهُ ٱلْفَضَائِلُ دَيْدَنًا وَٱلْمَحَاسِنُ خُلُقًا وَطَبْعًا

هٰذَا وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْنَا أَنْ نَذْكُرَ أَوْصَافَ ٱلْإِنْسَانِ ٱلتَّامِّ ٱلْجَامِعِ لِمَحَاسِنِ ٱلْأَخْلَاقِ ... فَنَقُولُ إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ ٱلتَّامَّ هُوَ ٱلَّذِي لَمْ تَفُتْهُ فَضِيلَةٌ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ وَلَمْ تَشِنْهُ رَذِيلَةٌ مِنَ ٱلرَّذَائِلِ وَهٰذَا ٱلْحَدُّ قَلَّمَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ إِنْسَانٌ وَإِذَا ٱنْتَهَى إِلَيْهِ ٱفْتِرَاضًا كَانَ أَشْبَهَ مِنْهُ بِٱلنَّاسِ . وَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ مَضْرُوبٌ بِأَنْوَاعِ ٱلنَّقْصِ مُسْتَوْلٍ عَلَى طَبْعِهِ ضُرُوبُ ٱلشَّرِّ وَبِنَاءً عَلَى ذٰلِكَ فَقَلَّمَا يَخْلُصُ مِنْ جَمِيعِهَا حَتَّى تَسْلَمَ نَفْسُهُ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ وَمَنْقَصَةٍ وَتُحِيطَ بِهِ كُلُّ فَضِيلَةٍ وَمَنْقَبَةٍ حَسَنَةٍ فَٱلتَّمَامُ وَإِنْ كَانَ عَزِيزًا بَعِيدَ ٱلتَّنَاوُلِ إِلَّا أَنَّهُ مُمْكِنٌ وَهُوَ غَايَةُ مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ ٱلْإِنْسَانُ فَإِذَا صَدَقَتْ عَزِيمَتُهُ وَأَعْطَى ٱلِٱجْتِهَادَ حَقَّهُ كَانَ مُمْكِنًا لَهُ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى ٱلْغَايَةِ ٱلْمَقْصُودَةِ ٱلْمُتَهَيِّءِ هُوَ لَهَا تِلْكَ ٱلَّتِي تَسْمُو نَفْسُهُ إِلَيْهَا

أَمَّا تَفْصِيلُ ذٰلِكَ هُوَ أَنْ يَكُونَ مُتَفَقِّدًا لِجَمِيعِ أَخْلَاقِهِ مُتَيَقِّظًا

لِسَائِرِ مَعَايِبِهِ مُتَحَرِّزًا مِنْ دُخُولِ نَقْصٍ عَلَيْهِ مُسْتَعْمِلًا لِكُلِّ فَضِيلَةٍ مُجْتَهِدًا فِي بُلُوغِ ٱلْغَايَةِ عَاشِقًا لِصُورَةِ ٱلْكَمَالِ مُسْتَلِذًّا بِمَحَاسِنِ ٱلْأَخْلَاقِ مُتَيَقِّظًا لِمَذْمُومِ ٱلْعَادَاتِ مُعْتَنِيًا بِتَهْذِيبِ نَفْسِهِ غَيْرَ مُسْتَكْثِرٍ لِمَا يَقْتَنِيهِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ مُسْتَعْظِمًا لِلْيَسِيرِ مِنَ ٱلرَّذَائِلِ مُسْتَصْغِرًا لِلرُّتْبَةِ ٱلْعُلْيَا مُسْتَحْقِرًا لِلْغَايَةِ ٱلْقُصْوَى يَرَى ٱلتَّمَامَ دُونَ مَحَلِّهِ وَٱلْكَمَالَ اَقَلَّ اَوْصَافِهِ . .

فَمَا اَوْلَى مَنْ نَظَرَ فِي هٰذِهِ ٱلْاَقْوَالِ وَتَصَفَّحَهَا وَفَهِمَ مَضْمُونَهَا وَتَدَبَّرَهَا وَاَخَذَ نَفْسَهُ بِٱسْتِعْمَالِ مَا تَبَيَّنَ فِي فُصُولِهِ وَسَاقَ اَخْلَاقَهُ عَلَى ٱلتَّطَرُّقِ اِلَى مَا فُتِنَ فِي اَبْوَابِهِ وَاَجْتَهَدَ كُلَّ ٱلْاِجْتِهَادِ فِي تَكْمِيلِ نَفْسِهِ وَٱسْتَفْرَغَ غَايَةَ ٱلْوُسْعِ فِي طَلَبِ ٱلتَّمَامِ . وَمَا اَقْبَحَ ٱلنَّقْصَ بِٱلْقَدْرِ عَلَى ٱلتَّمَامِ وَٱلْعَجْزَ عَنِ ٱلْمُقْتَدِرِ

الفصل السادس

في تنسيق الخطابة وبيان القضية والقياس

البحث الاوّل

في مبادئ الخطابة والافتتاحات

من كتاب الصناعتين لابي هلال العسكري بتصرُّف

(راجع صفحة ٧٧ من علم الخطابة)

قَالَ بَعْضُ ٱلْكُتَّابِ : ٱمَعَاشِرَ ٱلْكُتَّابِ ٱحْسِنُوا ٱلْاِبْتِدَاءَاتِ فَانَّهُنَّ دَلَائِلُ ٱلْبَيَانِ . وَذٰلِكَ انْ يَجْعَلَ ٱلْخَطِيبُ فَاتِحَةَ كَلَامِهِ وَاَوَّلَهُ دَلِيلًا عَلَى ٱلْمَقْصُودِ ٱلَّذِي دَعَاهُ لِاِلْقَائِهِ فَيَنْظُرَ اِلَى ٱلْغَرَضِ ٱلْمَطْلُوبِ فَيَجْعَلَ ٱلتَّحْمِيدَ اَوِ ٱلدُّعَاءَ اَوِ ٱلتَّضْمِينَ مُشْعِرًا بِذٰلِكَ فَاِنَّهُ مِنْ اَعْلَى مَرَاتِبِ ٱلْبَلَاغَةِ وَاِنَّمَا خُصَّتِ ٱلْاِبْتِدَاءَاتُ بِٱلْاِخْتِيَارِ لِاَنَّهَا اَوَّلُ مَا يَطْرُقُ ٱلسَّمْعَ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَاِذَا كَانَ ٱلْاِبْتِدَاءُ مُؤْنِقًا بَدِيعًا رَشِيقًا لَائِقًا بِٱلْمَعْنَى ٱلْوَارِدِ بَعْدَهُ تَوَفَّرَتِ ٱلدَّوَاعِي لِٱسْتِمَاعِ مَا يَجِيءُ بَعْدَهُ فَيَقْرَعُ اَسْمَاعَهُمْ شَيْءٌ بَدِيعٌ لَيْسَ لَهُمْ بِمِثْلِهِ عَهْدٌ فَيَرْغَبُونَ انْ يَسْتَمِعُوا مَا بَعْدَهُ لِفَهْمِهِ . وَلِذَا جَعَلَ ٱلْكُتَّابُ وَٱلْوَاعِظُونَ اَكْثَرَ ٱلْاِبْتِدَاءَاتِ بِٱلْحَمْدِ لِلّٰهِ لِاَنَّ ٱلنَّفْسَ تَتَشَوَّقُ لِلثَّنَاءِ عَلَى ٱللّٰهِ فَهُوَ دَاعِيَةٌ

اِلَى ٱلْاِسْتِمَاعِ. وَقَدْ قِيلَ: كُلُّ كَلَامٍ لَا يُبْتَدَأُ فِيهِ بِٱلْحَمْدَلَةِ فَهُوَ اَبْتَرُ. وَحَقِيقَةُ هٰذَا ٱلْبَابِ اَنْ يُجْعَلَ مَطْلَعُ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْخُطَبِ اَوِ ٱلرَّسَائِلِ اَوِ ٱلشِّعْرِ دَالًّا عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ اِنْ فَتْحًا فَفَتْحًا وَاِنْ كَانَ هَنَاءً فَهَنَاءً اَوْ كَانَ عَزَاءً فَعَزَاءً وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْحُكْمُ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَعَانِي. وَفَائِدَتُهُ اَنْ يُعْرَفَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا ٱلْمُرَادُ بِهِ وَيَسْتَفْتِحَ ٱلْمُتَكَلِّمُ اَبْوَابَ ٱلْاَسْمَاعِ وَيَسْتَحْضِرَ ٱلْاَذْهَانَ لِلْاِسْتِمَاعِ. وَهٰذَا ٱلشَّعْبُ عَظِيمُ ٱلنَّفْعِ لِمَنْ حَقَّقَهُ وَلَا يُفْتَحُ بَابُهُ اِلَّا لِمَنْ طَرَقَهُ وَقَدْ يُسَمَّى اَيْضًا هٰذَا ٱلنَّوْعُ بِبَرَاعَةِ ٱلْاِسْتِهْلَالِ وَسَيَأْتِي عَنْهُ ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي مِنْ هٰذَا ٱلْمَجْمُوعِ عِنْدَ ٱلْكَلَامِ عَنِ ٱلشِّعْرِ

البحث الثاني

في القضية والقياس

(من كتاب شرح مطالع السعود وكليات ابي البقاء والشفاء لابن سينا باختصار)

(راجع صفحة ٩٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْقَضِيَّةُ قَوْلٌ يَصِحُّ اَنْ يُقَالَ لِقَائِلِهِ اِنَّهُ صَادِقٌ فِيهِ اَوْ كَاذِبٌ وَهِيَ مَجْمُوعُ ٱلْمَعْلُومَاتِ ٱلْاَرْبَعَةِ وَهِيَ ٱلْمَحْكُومُ عَلَيْهِ وَٱلْمَحْكُومُ بِهِ وَٱلنِّسْبَةُ ٱلْحُكْمِيَّةُ وَٱلْحُكْمُ وَاِدْرَاكُ هٰذِهِ ٱلْاَرْبَعَةِ تَصْدِيقٌ. وَٱلْقَضِيَّةُ اِمَّا حَمْلِيَّةٌ وَاِمَّا شَرْطِيَّةٌ. قَالُوا: اِنْ كَانَ ٱلْمَحْكُومُ عَلَيْهِ وَٱلْمَحْكُومُ بِهِ قَضِيَّتَيْنِ عِنْدَ ٱلتَّحْلِيلِ اَيْ عِنْدَ حَذْفِ مَا يَدُلُّ عَلَى ٱلْعَلَاقَةِ بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلنِّسْبَةِ

ٱلْحِكْمِيَّةِ سُمِّيَتْ شَرْطِيَّةً وَإِلَّا سُمِّيَتْ حَمْلِيَّةً . فَإِنَّ قَوْلَنَا مَثَلًا : (زَيْدٌ نَائِمٌ) . قَضِيَّةٌ حَمْلِيَّةٌ . لِأَنَّ طَرَفَيْهَا مُفْرَدَانِ عِنْدَ ٱلتَّحْلِيلِ وَيُسَمَّى ٱلطَّرَفُ ٱلْأَوَّلُ مِنَ ٱلْقَضِيَّةِ ٱلْحَمْلِيَّةِ وَهُوَ ٱلْمُخْبَرُ عَنْهُ مَوْضُوعًا وَٱلثَّانِي مَحْمُولًا . وَقَوْلَنَا : (إِنْ كَانَتِ ٱلشَّمْسُ طَالِعَةً فَٱلنَّهَارُ مَوْجُودٌ) قَضِيَّةٌ شَرْطِيَّةٌ . لِأَنَّهُ إِذَا حَذَفْنَا (إِنْ وَٱلْفَاءَ) ٱلْمُوجِبَتَيْنِ لِلرَّبْطِ بَقِيَ : (ٱلشَّمْسُ طَالِعَةٌ) (وَٱلنَّهَارُ مَوْجُودٌ) وَهُمَا قَضِيَّتَانِ . وَٱلْقَضِيَّةُ ٱلْحَمْلِيَّةُ إِمَّا شَخْصِيَّةٌ وَهِيَ ٱلَّتِي يَكُونُ ٱلْمَحْكُومُ عَلَيْهِ فِيهَا جُزْئِيًّا مُعَيَّنًا كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ كَاتِبٌ . وَإِمَّا كُلِّيَّةٌ وَهِيَ ٱلَّتِي يَكُونُ ٱلْمَحْكُومُ عَلَيْهِ فِيهَا كُلِّيًّا يَشْمَلُ جَمِيعَ أَفْرَادِ ٱلْمَوْضُوعِ . وَتَكُونُ كِلَاهُمَا إِمَّا مُوجِبَةً وَإِمَّا سَالِبَةً . وَإِنَّمَا يُحْكَمُ فِي ٱلْقَضِيَّةِ ٱلشَّرْطِيَّةِ عَلَى ٱلتَّعْلِيقِ وَهُوَ وُجُودُ إِحْدَى قَضِيَّتِهَا مُعَلَّقٌ عَلَى وُجُودِ ٱلْأُخْرَى أَوْ عَلَى نَفْيِهَا وَهِيَ قِسْمَانِ مُتَّصِلَةٌ وَهِيَ ٱلَّتِي يُحْكَمُ فِيهَا بِلُزُومِ قَضِيَّةٍ أُخْرَى أَوْ لَا لُزُومِهَا وَهِيَ ٱلَّتِي تُوجِبُ ٱلتَّلَازُمَ بَيْنَ جُزْئَيْهَا نَحْوُ . لَوْ كَانَ فِي ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ آلِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا . وَمُنْفَصِلَةٌ وَهِيَ ٱلَّتِي يُحْكَمُ فِيهَا بِٱمْتِنَاعِ ٱجْتِمَاعِ قَضِيَّتَيْنِ فَأَكْثَرَ فِي ٱلصِّدْقِ وَهِيَ ٱلَّتِي جُزْءَاهَا مُتَعَانِدَانِ نَحْوُ : ٱلْعَالَمُ إِمَّا قَدِيمٌ أَوْ حَادِثٌ . وَيُسَمَّى ٱلطَّرَفُ ٱلْأَوَّلُ مِنَ ٱلْقَضِيَّةِ ٱلشَّرْطِيَّةِ مُقَدَّمًا وَٱلثَّانِي تَالِيًا . وَلَا بُدَّ مِنْ رَابِطٍ بَيْنَ ٱلْمَوْضُوعِ وَٱلْمَحْمُولِ

وَلِلْقَضِيَّةِ أَقْسَامٌ غَيْرُ هٰذِهِ مِنْهَا (ٱلْقَضِيَّةُ ٱلْبَسِيطَةُ) وَهِيَ ٱلَّتِي حَقِيقَتُهَا أَوْ مَعْنَاهَا إِمَّا إِيجَابٌ فَقَطْ نَحْوُ : كُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ بِٱلضَّرُورَةِ .

وَاِمَّا سَلْبٌ فَقَطْ نَحْوُ : لَا شَيْءٌ مِنَ ٱلْاِنْسَانِ بِحَجَرٍ بِٱلضَّرُورَةِ . وَمِنْهَا (ٱلْقَضِيَّةُ ٱلْمُرَكَّبَةُ) وَهِيَ ٱلَّتِي حَقِيقَتُهَا مُلْتَئِمَةٌ مِنْ اِيجَابٍ وَسَلْبٍ مَعًا نَحْوُ : كُلُّ اِنْسَانٍ ضَاحِكٌ لَا دَائِمًا . وَمِنْهَا (ٱلْقَضِيَّةُ ٱلنَّظَرِيَّةُ) وَهِيَ ٱلَّتِي يُسْأَلُ عَنْهَا وَيُطْلَبُ بِٱلدَّلِيلِ اِثْبَاتُهَا فِي ٱلْعِلْمِ . فَهِيَ مِنْ حَيْثُ اَنَّهَا يُسْأَلُ عَنْهَا تُسَمَّى مَسْأَلَةً . وَمِنْ حَيْثُ يُطْلَبُ حُصُولُهَا مَطْلَبًا . وَمِنْ حَيْثُ تُسْتَخْرَجُ مِنَ ٱلْبَرَاهِينِ نَتِيجَةً . وَمِنْ حَيْثُ يُبْتَنَى عَلَيْهَا ٱلشَّيْءُ اُصُولًا . وَمِنْ حَيْثُ اَنَّهَا مُنْطَبِقَةٌ عَلَى جُزْئِيَّاتٍ مَوْضُوعَةٍ تَتَعَرَّفُ اَحْكَامَهَا مِنْهَا قَاعِدَةً . وَمِنْ حَيْثُ يَتَأَلَّفُ مِنْهَا ٱلْحُجَّةُ مُقَدَّمَةً وَقَضِيَّةً . وَمِنْ حَيْثُ تَحْتَمِلُ ٱلصِّدْقَ وَٱلْكَذِبَ خَبَرًا

البحث الثالث

في القياس واقسامهِ وانواعهِ

(من كتاب النجاة لابن سينا والكليّات لابي البقا)

(راجع صفحة ٩٧ من علم الخطابة)

وَاَمَّا ٱلْقِيَاسُ فَهُوَ قَوْلٌ مُؤَلَّفٌ مِنْ قَضَايَا اِذَا وُضِعَتْ لَزِمَ عَنْهَا بِذَاتِهَا لَا بِٱلْعَرَضِ قَوْلٌ آخَرُ ٱضْطِرَارًا كَقَوْلِنَا : ٱلْعَالَمُ مُتَغَيِّرٌ وَكُلُّ مُتَغَيِّرٍ حَادِثٌ فَاِنَّهُ مُؤَلَّفٌ مِنْ قَضِيَّتَيْنِ وَلَزِمَ عَنْهُمَا اَنَّ ٱلْعَالَمَ حَادِثٌ وَهُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلْعَقْلِيُّ وَٱلْمَنْطِقِيُّ . وَٱلْقَوْلُ ٱلْآخَرُ يُسَمَّى مَطْلُوبًا قَبْلَ اِقَامَةِ ٱلدَّلِيلِ عَلَيْهِ . وَنَتِيجَةً بَعْدَ تَرْكِيبِ ٱلْقِيَاسِ لَهُ وَاِقَامَةِ ٱلدَّلِيلِ

عَلَيْهِ وَيُسَمَّى بِالرَّدْفِ اَيْضًا. وَمَوْضُوعُ النَّتِيجَةِ هُوَ الْحَدُّ الْاَصْغَرُ وَالْمَحْكُومُ فِيهَا هُوَ الْحَدُّ الْاَكْبَرُ. وَمَا كُرِّرَ فِي الْقَضِيَّتَيْنِ الْاُولَيَيْنِ يُسَمَّى حَدًّا اَوْسَط. وَيَدْعُونَ الْقَضِيَّةَ الْمُشْتَمِلَةَ عَلَى الْحَدِّ الْاَكْبَرِ مُقَدَّمَةً كُبْرَى وَالْمُشْتَمِلَةَ عَلَى الْحَدِّ الْاَصْغَرِ مُقَدَّمَةً صُغْرَى. وَمَجْمُوعُ الْمُقَدَّمَةِ الصُّغْرَى بِالْكُبْرَى فِي الْقِيَاسِ يُعْرَفُ بِالضَّرْبِ. وَنِسْبَةُ الْحَدِّ الْاَوْسَطِ اِلَى الْاَصْغَرِ وَالْاَكْبَرِ هُوَ الشَّكْلُ. وَاَشْكَالُ الْقِيَاسِ اَرْبَعَةٌ لِاَنَّ الْاَوْسَطَ اِنْ كَانَ مَحْمُولًا فِي الصُّغْرَى مَوْضُوعًا فِي الْكُبْرَى فَهُوَ (الشَّكْلُ الْاَوَّلُ) كَقَوْلِكَ: كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ. وَشَرْطُ اِنْتَاجِ هٰذَا الشَّكْلِ اِيجَابُ الصُّغْرَى وَكُلِّيَّةُ الْكُبْرَى وَهُوَ يَخْتَصُّ بِاَنَّهُ يُنْتِجُ الْمُوجَبَةَ الْكُلِّيَّةَ. وَبَاقِي الْاَشْكَالِ لَا يُنْتِجُ الْمُوجَبَةَ الْكُلِّيَّةَ بَلْ اِمَّا مُوجَبَةٌ جُزْئِيَّةٌ اَوْ سَالِبَةٌ. وَاِنْ كَانَ الْحَدُّ الْاَوْسَطُ مَحْمُولًا فِي الصُّغْرَى وَالْكُبْرَى فَهُوَ (الشَّكْلُ الثَّانِي) كَقَوْلِكَ: كُلُّ اِنْسَانٍ حَيَوَانٌ وَلَا شَيْءَ مِنَ الْجَمَادِ بِحَيَوَانٍ فَلَا شَيْءَ مِنَ الْجَمَادِ بِاِنْسَانٍ. وَكَقَوْلِ الْبَعْضِ: كُلُّ غَائِبٍ مَجْهُولُ الصِّفَةِ وَكُلُّ مَا يَصِحُّ بَيْعُهُ لَيْسَ بِمَجْهُولِ الصِّفَةِ فَالنَّتِيجَةُ كُلُّ غَائِبٍ لَا يَصِحُّ بَيْعُهُ. وَشَرْطُ اِنْتَاجِهِ اخْتِلَافُ مُقَدَّمَتَيْهِ فِي الْاِيجَابِ وَالسَّلْبِ وَكُلِّيَّةُ كُبْرَاهُ وَمِنْ خَوَاصِّهِ اَنَّهُ لَا يُنْتِجُ اِلَّا سَالِبَةً. وَاِنْ كَانَ الْاَوْسَطُ مَوْضُوعًا فِي الصُّغْرَى وَالْكُبْرَى فَهُوَ (الشَّكْلُ الثَّالِثُ) نَحْوَ كُلُّ اِنْسَانٍ حَيَوَانٌ وَكُلُّ اِنْسَانٍ نَاطِقٌ فَبَعْضُ الْحَيَوَانِ نَاطِقٌ. وَشَرْطُ اِنْتَاجِهِ اَنْ تَكُونَ صُغْرَاهُ مُوجَبَةً

وَاَنْ تَكُونَ اِحْدَى مُقَدَّمَتَيْهِ كُلِّيَّةً وَمِنْ خَوَاصِّهِ اَنَّ نَتِيجَتَهُ لَا تَكُونُ اِلَّا جُزْئِيَّةً. وَاِنْ كَانَ الْحَدُّ الْاَوْسَطُ عَكْسَ الْاَوَّلِ بِاَنْ يَكُونَ مَوْضُوعًا فِي الصُّغْرَى مَحْمُولًا فِي الْكُبْرَى فَهُوَ (الشَّكْلُ الرَّابِعُ) كَقَوْلِكَ: كُلُّ اِنْسَانٍ حَيَوَانٌ وَكُلُّ نَاطِقٍ اِنْسَانٌ فَبَعْضُ الْحَيَوَانِ نَاطِقٌ

وَالْقِيَاسُ يَنْقَسِمُ اِلَى كَامِلٍ وَغَيْرِ كَامِلٍ فَالْقِيَاسُ الْكَامِلُ هُوَ الْقِيَاسُ الَّذِي يَكُونُ لُزُومُ مَا يَلْزَمُ عَنْهُ بَيِّنًا عِنْدَ وَضْعِهِ فَلَا يَحْتَاجُ اَنْ نُبَيِّنَ اَنَّ ذٰلِكَ لَازِمٌ عَنْهُ. وَالْغَيْرُ الْكَامِلُ هُوَ الَّذِي يَلْزَمُ عَنْهُ شَيْءٌ وَلٰكِنْ لَا يَكُونُ بَيِّنًا فِي اَوَّلِ الْاَمْرِ اَنَّ ذٰلِكَ يَلْزَمُ عَنْهُ. بَلْ اِذَا اُرِيدَ اَنْ نُبَيِّنَ ذٰلِكَ بُيِّنَ بِشَيْءٍ آخَرَ لٰكِنَّهُ غَيْرُ خَارِجٍ مِنْ جُمْلَةِ مَا قِيلَ بَلْ اِمَّا نَقِيضُ مَا قِيلَ اَوْ عَكْسُهُ تَغْيِيرُ شَيْءٍ مِنْهُ وَاَفْتِرَاضُهُ. وَالْقِيَاسُ اِمَّا اَنْ يَكُونَ مَا يَلْزَمُهُ لَيْسَ هُوَ وَلَا نَقِيضُهُ مَقُولًا فِيهِ بِالْفِعْلِ بِوَجْهٍ بَلْ بِالْقُوَّةِ وَيُسَمَّى قِيَاسًا اَقْتِرَانِيًّا كَقَوْلِكَ: كُلُّ جِسْمٍ مُؤَلَّفٌ وَكُلُّ مُؤَلَّفٍ مُحْدَثٌ سُمِّيَ بِهِ لِاقْتِرَانِ الْحُدُودِ فِيهِ. وَاِمَّا اَنْ يَكُونَ مَا يَلْزَمُهُ هُوَ اَوْ نَقِيضُهُ مَقُولًا فِيهِ بِالْفِعْلِ وَيُسَمَّى قِيَاسًا اسْتِثْنَائِيًّا كَقَوْلِكَ: اِنْ كَانَتِ النَّفْسُ لَهَا فِعْلٌ بِذَاتِهَا فَهِيَ قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا لٰكِنْ لَهَا فِعْلٌ بِذَاتِهَا فَهِيَ قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا

البحث الثالث

في ملحقات القياس

(من كتاب شرح المطالع وشرح الشمسيّة والكليات لابي البقا)

(راجع صفحة ١١١ من علم الخطابة)

وَلِاَقْسَامِ ٱلْقِيَاسِ مُلْحَقَاتٌ اُخَرُ يُقْسَمُ اِلَيْهَا. (اَوَّلُهَا) ٱلْقِيَاسُ ٱلْمُرَكَّبُ وَهُوَ قِيَاسٌ رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ يُنْتِجُ مُقَدَّمَتَانِ مِنْهَا نَتِيجَةً وَهِيَ مَعَ ٱلْمُقَدَّمَةِ ٱلْاُخْرَى نَتِيجَةٌ اُخْرَى وَلَا تَزَالُ نَتَائِجُ بَعْضِهَا مُقَدَّمَاتٍ لِبَعْضٍ اِلَى اَنْ يَحْصُلَ ٱلْمَطْلُوبُ. فَاِنْ صُرِّحَ بِنَتَائِجِ تِلْكَ ٱلْاَقْيِسَةِ سُمِّيَ مَوْصُولَ ٱلنَّتَائِجِ لِوَصْلِ تِلْكَ ٱلنَّتَائِجِ بِٱلْمُقَدَّمَاتِ كَقَوْلِكَ: كُلُّ كَاتِبٍ اِنْسَانٌ وَكُلُّ اِنْسَانٍ حَيَوَانٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ حَيَوَانٌ. وَكُلُّ حَيَوَانٍ ذُو حِسٍّ فَكُلُّ كَاتِبٍ ذُو حِسٍّ. وَكُلُّ ذُو حِسٍّ جِسْمٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ جِسْمٌ. وَاِنْ لَمْ يُصَرَّحْ بِنَتَائِجِ تِلْكَ ٱلْاَقْيِسَةِ سُمِّيَ مَفْصُولَ ٱلنَّتَائِجِ وَمَطْوِيَّهَا كَقَوْلِكَ: كُلُّ كَاتِبٍ اِنْسَانٌ. وَكُلُّ اِنْسَانٍ حَيَوَانٌ. وَكُلُّ حَيَوَانٍ ذُو حِسٍّ. وَكُلُّ ذِي حِسٍّ نَامٍ. وَكُلُّ نَامٍ جِسْمٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ جِسْمٌ. (وَٱلثَّانِي) قِيَاسُ ٱلْخُلْفِ. وَهُوَ قِيَاسٌ ٱسْتِثْنَائِيٌّ يُقْصَدُ فِيهِ اِثْبَاتُ ٱلْمَطْلُوبِ بِاِبْطَالِ نَقِيضِهِ كَمَا اِذَا قِيلَ كُلُّ نَبَاتٍ نَامٍ وَلَا شَيْءَ مِنَ ٱلْجَمَادِ بِنَامٍ فَلَا شَيْءَ مِنَ ٱلنَّبَاتِ بِجَمَادٍ. فَيُقَالُ لَوْ لَمْ يَكُنِ ٱلْمَطْلُوبُ حَقًّا اَيْ لَا شَيْءَ مِنَ ٱلنَّبَاتِ بِجَمَادٍ لَصَدَقَ نَقِيضُهُ اَيْ بَعْضُ ٱلنَّبَاتِ جَمَادٌ. لٰكِنْ لَوْ كَانَ هٰذَا

ٱلنَّقيضُ حَقًّا لَمَّا صَدَقَ كَوْنُ كُلِّ نَبَاتٍ نَامِيًا . وَقَدْ سُمِّيَ هٰذَا ٱلْقِيَاسُ خُلْفًا لِأَنَّ ٱلْمُتَمَسَّكَ بِهِ يُثْبِتُ مَطْلُوبَهُ مِنْ خَلْفِهِ اَيْ مِنْ وَرَائِهِ . (وَٱلثَّالِثُ) قِيَاسُ ٱلِٱسْتِقْرَاءِ وَهُوَ قَوْلٌ مُؤَلَّفٌ مِنْ قَضَايَا تَشْتَمِلُ عَلَى ٱلْحُكْمِ عَلَى ٱلْجُزْئِيَّاتِ لِإِثْبَاتِ ٱلْحُكْمِ ٱلْكُلِّيِّ . وَيُحَدُّ اَيْضًا ٱلْحُكْمُ عَلَى كُلِّيٍّ لِوُجُودِهِ فِي اَكْثَرِ جُزْئِيَّاتِهِ وَقِيلَ اَيْضًا : هُوَ تَصَفُّحُ ٱلْجُزْئِيَّاتِ لِإِثْبَاتِ حُكْمٍ كُلِّيٍّ ثُمَّ ٱلِٱسْتِقْرَاءُ قِسْمَانِ (تَامٌّ) وَيُسَمَّى قِيَاسًا مُقَسَّمًا وَهُوَ اَنْ يُسْتَدَلَّ بِجَمِيعِ ٱلْجُزْئِيَّاتِ وَيُحْكَمَ عَلَى ٱلْكُلِّ وَهُوَ قَلِيلُ ٱلِٱسْتِعْمَالِ كَمَا يُقَالُ : كُلُّ جِسْمٍ اِمَّا حَيَوَانٌ اَوْ نَبَاتٌ اَوْ جَمَادٌ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُتَحَيِّزٌ فَيُنْتَجُ اَنَّ كُلَّ جِسْمٍ مُتَحَيِّزٌ وَهُوَ يُفِيدُ ٱلْيَقِينَ . (وَنَاقِصٌ) وَهُوَ اَنْ يُسْتَدَلَّ بِاَكْثَرِ ٱلْجُزْئِيَّاتِ فَقَطْ وَيُحْكَمَ عَلَى ٱلْكُلِّ وَهُوَ قَسِيمُ ٱلْقِيَاسِ وَلِذَا عَدُّوهُ مِنْ لَوَاحِقِ ٱلْقِيَاسِ وَتَوَابِعِهِ وَهُوَ يُفِيدُ ٱلظَّنَّ كَقَوْلِنَا : كُلُّ حَيَوَانٍ يَتَحَرَّكُ فَكُّهُ ٱلْاَسْفَلُ عِنْدَ ٱلْمَضْغِ لِاَنَّ ٱلْاِنْسَانَ وَٱلْفَرَسَ وَٱلْحِمَارَ وَٱلْبَقَرَ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا تَتَبَّعْنَاهُ كَذٰلِكَ . فَاِنَّهُ يُفِيدُ ٱلظَّنَّ بِجَوَازِ ٱلتَّخَلُّفِ كَمَا فِي ٱلتِّمْسَاحِ . (وَٱلرَّابِعُ) قِيَاسُ ٱلتَّمْثِيلِ وَهُوَ اِثْبَاتُ حُكْمٍ فِي جُزْئِيٍّ لِثُبُوتِهِ فِي جُزْئِيٍّ آخَرَ لِمَعْنًى مُشْتَرَكٍ بَيْنَهُمَا مُؤَثِّرٍ فِي ذٰلِكَ ٱلْحُكْمِ كَقَوْلِكَ : ٱلْعَالَمُ مُؤَلَّفٌ فَهُوَ مُحْدَثٌ كَٱلْمَدِينَةِ لِاَنَّ كِلَيْهِمَا مُرَكَّبٌ مِنْ اَجْزَاءٍ وَهُوَ يُقْسَمُ اِلَى تَمْثِيلٍ قَطْعِيٍّ يُفِيدُ ٱلْيَقِينَ وَاِلَى غَيْرِ قَطْعِيٍّ يُفِيدُ ٱلظَّنَّ

اَمَّا اَنْوَاعُ ٱلْقِيَاسِ فَخَمْسَةٌ . (اَحَدُهَا) ٱلْقِيَاسُ ٱلْبُرْهَانِيُّ وَهُوَ

مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ يَقِينِيَّةٍ كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ إِنْسَانٌ فَهُوَ قَابِلُ ٱلْعِلْمِ . (وَٱلثَّانِي) ٱلْجَدَلِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مَشْهُورَةٍ يُسَلِّمُ بِهَا ٱلْخَصْمُ وَلَا يَقْوَى عَلَى إِنْكَارِهَا لِشُهْرَتِهَا بَيْنَ ٱلْجُمْهُورِ نَحْوُ : ٱلْعَالَمُ مُتَغَيِّرٌ فَهُوَ مُحْدَثٌ . (وَٱلثَّالِثُ) ٱلْخَطَابِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مَقْبُولَةٍ يُرَادُ بِهَا تَرْغِيبُ ٱلسَّامِعِ أَوْ تَرْهِيبُهُ نَحْوُ : ٱلصَّلَاةُ بِرٌّ فَهِيَ مَنْجَاةٌ لِلْإِنْسَانِ . وَإِهْمَالُهَا مَعْصِيَةٌ فَهُوَ مُهْلِكٌ . (وَٱلرَّابِعُ) ٱلشِّعْرِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مُخَيِّلَةٍ تُؤَثِّرُ فِي ٱلنَّفْسِ بَسْطًا أَوْ قَبْضًا صَادِقَةً كَانَتْ أَوْ كَاذِبَةً نَحْوُ : ٱلْخَمْرُ قُرْمِزِيَّةٌ سَاطِعَةٌ فَهِيَ تُبْهِجُ ٱلنَّظَرَ أَوْ هِيَ مُرَّةٌ مُهَوِّعَةٌ فَهِيَ تُزْعِجُ ٱلنَّفْسَ . (وَٱلْخَامِسُ) ٱلْمُغَالَطِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ كَاذِبَةٍ شَبِيهَةٍ بِٱلصَّادِقَةِ كَقَوْلِكَ عَنْ بُرْجِ ٱلْأَسَدِ : هٰذَا أَسَدٌ فَهُوَ يَزْأَرُ . وَٱلْعُمْدَةُ فِي ٱلْخَطَابَةِ عَلَى ٱلْبُرْهَانِ ٱلْخَطَابِيِّ أَيْ ذِي ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمَقْبُولَةِ

البحث الرابع

في القياسات المستعملة في الخطابة واخصها القياس الاضماري والتمثيل

(من تلخيص خطابة ارسطو لابن رشد)

(راجع الصفحة ١٠٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

نَقُولُ إِنَّ ٱلْأَقَاوِيلَ ٱلَّتِي يَكُونُ بِهَا ٱلْإِثْبَاتُ وَٱلْإِبْطَالُ كَمَا إِنَّهَا فِي صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ صِنْفَانِ أَحَدُهُمَا ٱلِٱسْتِقْرَاءُ وَمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ

اَسْتِقْرَاءٌ وَالصِّنْفُ الثَّانِي اَلْقِيَاسُ وَمَا يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ قِيَاسٌ كَذٰلِكَ اَلْاَقَاوِيلُ اَلْمُثْبِتَةُ فِي اَلصِّنَاعَةِ وَاَلْمُطْلَقُ صِنْفَانِ اَحَدُهُمَا شَبِيهٌ بِالْاِسْتِقْرَاءِ وَهُوَ اَلْمِثَالُ وَالْاٰخَرُ شَبِيهٌ بِالْقِيَاسِ وَهُوَ اَلضَّمِيرُ. وَالضَّمِيرُ اَلَّذِي يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ ضَمِيرٌ وَلَيْسَ بِضَمِيرٍ يُشْبِهُ اَلَّذِي يُظَنُّ بِهِ هُنَالِكَ اَنَّهُ قِيَاسٌ وَلَيْسَ بِقِيَاسٍ. وَكَذٰلِكَ اَلْمِثَالُ اَلَّذِي يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ مِثَالٌ وَلَيْسَ بِمِثَالٍ يُشْبِهُ اَلْاِسْتِقْرَاءَ اَلَّذِي يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ اَسْتِقْرَاءٌ وَلَيْسَ بِاَسْتِقْرَاءٍ. فَالضَّمِيرُ هُوَ اَلْقِيَاسُ اَلْخُطْبِيُّ وَاَلْمِثَالُ هُوَ اَلْاِسْتِقْرَاءُ اَلْخُطْبِيُّ. وَاَلْخُطَبَاءُ اِذَا تُؤُمِّلَ اَمْرُهُمْ ظَهَرَ اَنَّهُمْ يَفْعَلُونَ جَمِيعَ اَلتَّصْدِيقَاتِ اَلَّتِي تَكُونُ بِاَلْقَوْلِ بِهٰذَيْنِ اَلصِّنْفَيْنِ اَعْنِي اِمَّا بِاَلْمِثَالِ وَاِمَّا بِالضَّمِيرِ. وَذٰلِكَ اَنَّهُمْ يَؤُمُّونَ بِفِعْلِهِمْ هٰذَا اَنْ يَتَشَبَّهُوا بِالْاِسْتِقْرَاءِ وَاَلْقِيَاسِ. وَاَلَّذِي يَفْعَلُونَ مِنْ ذٰلِكَ اِنَّمَا يَفْعَلُونَهُ بِمَا هُوَ مِثَالٌ فِي اَلْحَقِيقَةِ اَوْ بِمَا يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ كَذٰلِكَ وَتَبَيَّنَ فِي كِتَابِ اَلْقِيَاسِ اَنَّ كُلَّ تَصْدِيقٍ فَاِنَّهُ يَكُونُ بِاَلْقِيَاسِ وَاَنَّ اَلْاِسْتِقْرَاءَ وَاَلْمِثَالَ اِنَّمَا يُفِيدَانِ اَلتَّصْدِيقَ بِمَا فِيهِمَا مِنْ قُوَّةِ اَلْقِيَاسِ. فَاَمَّا مَا هُوَ اَلْقِيَاسُ وَمَا اَلْفَصْلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اَلْبُرْهَانِ فَقَدْ قِيلَ فِي كِتَابِ اَلْجَدَلِ وَقَدْ تَبَيَّنَ هُنَالِكَ اَيْضًا اَلْفَرْقُ بَيْنَ اَلْقِيَاسِ وَاَلْاِسْتِقْرَاءِ. وَاَلْاِسْتِقْرَاءُ وَاَلْمِثَالُ يَشْتَرِكَانِ فِي اَنَّ كِلَيْهِمَا يُثْبِتَانِ اَنَّ هٰذَا اَلشَّيْءَ مَوْجُودٌ كَذَا اَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ كَذَا مِنْ اَجْلِ وُجُودِ ذٰلِكَ اَلشَّيْءِ اَوْ لَا وُجُودِهِ فِي شَبِيهِهِ. وَالضَّمِيرُ وَاَلْقِيَاسُ يَشْتَرِكَانِ فِي اَنَّ كِلَيْهِمَا قَوْلٌ يُوضَعُ فِيهِ شَيْءٌ فَيَلْزَمُ عَنْهُ شَيْءٌ آخَرُ. وَاِذَا كَانَ اَلْاَمْرُ هٰكَذَا فَهُوَ بَيِّنٌ اَنَّ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ

هٰذَيْنِ ٱلْجِنْسَيْنِ مِنَ ٱلْقَوْلِ نَوْعًا خُطَبِيًّا وَنَوْعًا جَدَلِيًّا وَنَوْعًا بُرْهَانِيًّا وَنَوْعًا سُوفِسْطَائِيًّا. فَإِنَّهُ كَمَا يُوجَدُ ٱلْاِسْتِقْرَاءُ وَٱلْقِيَاسُ فِي هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ كَذٰلِكَ يُوجَدُ فِي ٱلْخَطَابَةِ ٱلْمِثَالُ وَٱلضَّمِيرُ وَإِنَّمَا يُخْتَلَفُ فِي هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ بِجِهَةِ ٱلْاِسْتِعْمَالِ ٱلَّذِي فِي صِنَاعَةِ ٱلْبُرْهَانِ وَصِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ. وَٱلْقِيَاسُ فِي ٱلْجَدَلِ أَوْثَقُ مِنَ ٱلْاِسْتِقْرَاءِ وَٱلْمِثَالُ فِي ٱلْخَطَابَةِ أَقْنَعُ مِنَ ٱلضَّمِيرِ لِأَنَّ ٱلضَّمِيرَ يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ ٱلْعِنَادُ أَكْثَرَ مِنْ تَطَرُّقِهِ إِلَى ٱلْمِثَالِ وَسَبَبُ هٰذَا سَنُخْبِرُ بِهِ فِيمَا بَعْدُ وَكَذٰلِكَ كَيْفَ نَسْتَعْمِلُ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ. فَأَمَّا ٱلْآنَ فَيَنْبَغِي أَنْ نُحَدِّدَ هٰذَيْنِ ٱلطَّرِيقَيْنِ مِنَ ٱلْاِقْنَاعِ أَعْنِي ٱلضَّمِيرَ وَٱلْمِثَالَ فَنَقُولُ:

إِنَّ ٱلْقَوْلَ ٱلْمُقْنِعَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُقْنِعًا لِوَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ أَوْ لِجَمَاعَةٍ مِنَ ٱلنَّاسِ أَوْ لِأَكْثَرِ ٱلنَّاسِ. وَأَيْضًا مِنْهُ مَا يَكُونُ إِقْنَاعُهُ فِي أَمْرٍ كُلِّيٍّ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ فِي أَمْرٍ جُزْئِيٍّ. وَكِلَا هٰذَيْنِ مِنْهُ مَا يَكُونُ إِقْنَاعُهُ بَيِّنًا بِنَفْسِهِ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ إِقْنَاعُهُ بِغَيْرِهِ. وَٱلَّذِي يَكُونُ إِقْنَاعُهُ بِغَيْرِهِ فِي ٱلْجُزْئِيَّاتِ ضَرْبَانِ (أَحَدُهُمَا) أَنْ يَقُولَ ٱلْقَائِلُ: إِنَّ كَذَا إِنَّمَا هُوَ كَذَا لِمَوْضِعِ كَذَا. مِثْلُ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ: إِنَّ شَرَابَ ٱلسَّكَنْجَبِينِ يَنْفَعُ فُلَانًا لِأَنَّهُ مَحْمُومٌ. وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلضَّمِيرَ. (وَٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي) أَنْ يَقُولَ: إِنَّ كَذَا إِنَّمَا كَانَ كَذَا لِأَنَّهُ مِثْلُ كَذَا. مِثْلُ أَنْ يَقُولَ. إِنَّ فُلَانًا يَنْتَفِعُ بِشَرَابِ ٱلسَّكَنْجَبِينِ لِأَنَّ فُلَانًا ٱنْتَفَعَ بِهِ. وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلْمِثَالَ. وَٱلْمُقْنِعَاتُ ٱلَّتِي هِيَ مُقْنِعَةٌ عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ فَلَيْسَ تَسْتَعْمِلُهَا

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ لِأَنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مُتَنَاهٍ وَغَيْرُ مَعْلُومٍ عِنْدَ ٱلْمُسْتَعْمِلِ لَهَا وَلِذٰلِكَ لَيْسَتْ تَسْتَعْمِلُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ مِنَ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ أَعْنِي ٱلْمَقْبُولَةَ مَا كَانَ مَقْبُولًا عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ . وَتِلْكَ هِيَ ٱلْآرَاءُ ٱلْحَادِثَةُ لِلنَّاسِ عِنْدَ ٱلشَّوْقِ وَٱلْهَوَى بَلْ إِنَّمَا تَسْتَعْمِلُ ٱلْمَحْمُودَ عِنْدَ ٱلْأَكْثَرِ أَوِ ٱلْجَمِيعِ عَلَى مِثْلِ مَا تَسْتَعْمِلُهُ صِنَاعَةُ ٱلْجَدَلِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ هٰكَذَا فَٱلَّذِي يَفْتَرِقُ بِهِ ٱلْقِيَاسُ ٱلْمُسْتَعْمَلُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ وَفِي صِنَاعَةِ ٱلْبُرْهَانِ مِنَ ٱلضَّمِيرِ ٱلْمُسْتَعْمَلِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنَّ ٱلْقِيَاسَ يُرَتِّبُ ٱلتَّرْتِيبَ ٱلَّذِي يَكُونُ بِهِ ٱلْقَوْلُ مُنْتِجًا بِٱلضَّرُورَةِ . وَأَمَّا ٱلضَّمِيرُ فَإِنَّهُ تَتَرَتَّبُ مُقَدِّمَاتُهُ ٱلتَّرْتِيبَ ٱلَّذِي هُوَ مُعْتَادٌ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ أَنْ يُقْبَلَ . وَذٰلِكَ هُوَ بِخِلَافِ ٱلتَّرْتِيبِ ٱلصِّنَاعِيِّ فَإِنَّ ٱلنَّاسَ يَسْتَرِيبُونَ بِٱلْقَوْلِ ٱللَّازِمِ عَنِ ٱلْقَوْلِ ٱلصِّنَاعِيِّ وَيَرَوْنَ أَنَّ ذٰلِكَ إِنَّمَا لَزِمَ مِنْ جِهَةِ ٱلصِّنَاعَةِ لَا مِنْ جِهَةِ ٱلْأَمْرِ فِي نَفْسِهِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلتَّرْتِيبَ ٱلصِّنَاعِيَّ يَقْتَضِي أَنْ يُصَرَّحَ فِيهِ بِجَمِيعِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ فِي بَيَانِ ذٰلِكَ ٱلْمَطْلُوبِ وَٱلْجُمْهُورُ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَفْهَمُوا لُزُومَ ٱلنَّتِيجَةِ ٱلَّتِي تَلْزَمُ عَنْ مُقَدِّمَاتٍ كَثِيرَةٍ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُمْ لَا يُبَاعِدُونَ بَيْنَ ٱلنَّتِيجَةِ وَٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي تَلْزَمُ عَنْهُ ٱلنَّتِيجَةُ أَعْنِي أَنَّهُمْ لَا يُصَرِّحُونَ فِي ٱلْمَقَايِيسِ بِٱلْمُقَدِّمَتَيْنِ جَمِيعًا مَعَ ٱلنَّتِيجَةِ بَلْ إِنَّمَا يَأْتُونَ بِمُقَدِّمَةٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ يُرْدِفُونَهَا بِٱلنَّتِيجَةِ . مِثْلَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : هٰذَا يَدُورُ بِٱللَّيْلِ فَهُوَ لَصٌّ . وَلَا يَقُولُونَ : كُلُّ مَنْ يَدُورُ بِٱللَّيْلِ فَهُوَ لَصٌّ وَهِيَ ٱلْمُقَدِّمَةُ ٱلْكُبْرَى . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلضَّمَائِرَ لَمَّا

كانت تصنع في الاكثر في الامور الممكنة وذلك بين في الامور المشاورية فانه ليس يشير احد على احد بامر ضروري الوجود ولا ممتنع الوجود وكانت المقدمة الكبرى في امثال هذه المواد كاذبة بالجزء لم يصرحوا بها في القاييس التي يستعملونها في هذه الصناعة لئلا يفطن لكذبها . وايضا فلما كانت القاييس الجيدة الصنعة في هذه الصناعة انما هي احد صنفين اما القاييس التي تؤلف من المقدمات البينة اقناعها بنفسه واما من مقدمات تتبين مقدماتها بمقدمات اخر تخلط بها والا لم يتبين حمدها . فقد يلحق ضرورة في هذا الصنف الثاني ان يعسر تاليف المقدمات وترتيبها الترتيب الصناعي لمكان كثرة المقدمات وطول الزمان الذي يصرح فيه بجميعها وترتب ترتيبا صناعيا وذلك الشيء لا يساعد عليه الحكام بل يحملون المتكلم بين اليديهم ان يكون كلامه بسيطا غير متكلف فيه صنعة على الجمهور في ذلك فانه متى كان الكلام ليس على هذه الصفة كان غير مقنع . وذلك في الامرين اللذين يكون فيهما الاقناع اعني في ان الشيء موجود او غير موجود وفي انه اذا وجد محمود او غير محمود . وكذلك اذا استعمل التصديق بطريق اخذ الاشباه واستقصي وجعل على طريق الاستقراء عرض العسر الذي وصفناه من الطول والكثرة . واذا كان هذا هكذا فاذن القياس الخطبي وهو الضمير والامثال انما يكونان في الاشياء التي يكون فيها القياس والاستقراء باطلاق وتلك

ٱلْاَشْيَاء مَأْخُوذَةٌ بِحَالٍ غَيْرِ ٱلْحَالِ ٱلَّتِي اُخِذَتْ بِهَا فِي ٱلْقِيَاسِ وَٱلِاسْتِقْرَاء. فَاِذَا اُسْتُعْمِلَتْ تِلْكَ ٱلْاَشْيَاء بِٱلْحَالِ ٱلَّتِي بُيِّنَ فِي كِتَابِ ٱلْقِيَاسِ عَادَ ٱلْمِثَالُ اُسْتِقْرَاءً وَٱلضَّمِيرُ قِيَاسًا. وَاِذَا اُخِذَتْ بِهٰذِهِ ٱلْحَالِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا عَادَ ٱلِاسْتِقْرَاء مِثَالًا وَٱلْقِيَاسُ ضَمِيرًا. وَتِلْكَ ٱلْحَالُ هِيَ اَخْذُ ٱلْقِيَاسِ وَٱلِاعْتِبَارُ بِمُقَدَّمَاتٍ قَلِيلَةٍ وَجِيزَةٍ فَاِنَّ ٱلِاقْنَاعَ اِنَّمَا يَكُونُ اَكْثَرَ ذٰلِكَ بِٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي هِيَ فِي غَايَةِ ٱلظُّهُورِ وَحَذْفِ مَا خَفِيَ مِنْهَا وَايْضًا فَاِنَّ ٱلْمَحْمُودَ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اَنْ يُحْذَفَ ٱللَّازِمُ عَنْهُ وَيُؤْتَى بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يَلْزَمُ اِذَا اُخْبِرَ بِٱللَّازِمِ وَٱلْمَلْزُومِ فَكَاَنَّهُ قَدْ ذَكَرَ ٱلشَّيْءَ مَرَّتَيْنِ فَيَكُونُ هَذَرًا فِي بَادِي ٱلرَّأْيِ. وَعَلَى هٰذَا فَلَا يُصَرَّحُ بِٱلْحَدِّ ٱلْاَوْسَطِ فِي ٱلْقِيَاسِ اِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً وَلَا فِي ٱلِاعْتِبَارِ اِلَّا بِشَبِيهِ وَاحِدٍ فَيَكُونُ ٱلْقِيَاسُ ضَرُورَةً ضَمِيرًا اَيْ مَحْذُوفًا اِحْدَى مُقَدَّمَتِهِ وَبِهٰذَا سُمِّيَ ضَمِيرًا اِذْ كَانَتْ اِحْدَاهُمَا مُضْمَرَةً وَيَكُونُ ٱلِاسْتِقْرَاءُ ضَرُورَةً تَمْثِيلًا

البحث الخامس

في مقدمات القياسات الخطبية

(من الكتاب نفسهُ)

(قَالَ) وَمُقَدَّمَاتُ ٱلْقِيَاسَاتِ ٱلْخُطْبِيَّةِ قَدْ تَكُونُ ضَرُورِيَّةً وَذٰلِكَ فِي ٱلْاَقَلِّ وَتَكُونُ مُمْكِنَةً وَذٰلِكَ فِي ٱلْاَكْثَرِ لِاَنَّ اَكْثَرَ ٱلْفَحْصِ ٱلْجُمْهُورِيِّ اِنَّمَا هُوَ فِيمَا يُمْكِنُ اَنْ يَكُونَ بِحَالٍ وَيُمْكِنُ اَلَّا يَكُونَ

بِتِلْكَ ٱلْحَالِ . وَذٰلِكَ بَيِّنٌ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُشَارُ بِهَا وَذٰلِكَ أَنَّهَا كُلَّهَا أُمُورٌ مَفْعُولَةٌ لِلْإِنْسَانِ لَا ضَرُورِيَّةُ ٱلْوُجُودِ وَلَا مُمْتَنِعَةُ ٱلْوُجُودِ . وَٱلنَّتَائِجُ ٱلضَّرُورِيَّةُ فَإِنَّهَا تَكُونُ بِٱلذَّاتِ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ ضَرُورِيَّةٍ وَٱلْمُمْكِنَةُ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ مُمْكِنَةٍ . وَٱلضَّمَائِرُ مِنْهَا مَا يَكُونُ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ مَحْمُودَةٍ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ مِنَ ٱلدَّلَائِلِ . وَأَعْنِي بِٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ دَلَائِلَ . مِثْلَ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُشْكَرَ ٱلْمُنْعِمُ وَأَنْ يُسَاءَ إِلَى ٱلْمُسِيءِ . وَأَعْنِي بِٱلدَّلَائِلِ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى وُجُودِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ . وَهٰذَانِ ٱلصِّنْفَانِ مِنَ ٱلْمُقَدَّمَاتِ يُوجَدَانِ فِي ٱلْمَوَادِّ ٱلضَّرُورِيَّةِ وَٱلْمُمْكِنَةِ أَعْنِي ٱلْمَحْمُودَاتِ وَٱلدَّلَائِلَ . وَلَيْسَ يُوجَدَانِ فِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ فَقَطْ بَلْ وَفِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلتَّسَاوِي . وَهِيَ ٱلَّتِي نِسْبَتُهَا إِلَى ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ نِسْبَةُ ٱلَّتِي عَلَى ٱلْأَكْثَرِ إِلَى ٱلضَّرُورِيِّ وَهِيَ نِسْبَةُ ٱلْكُلِّ مِنَ ٱلْبَعْضِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلصِّدْقَ فِي ٱلضَّرُورِيَّةِ أَعَمُّ مِنَ ٱلصِّدْقِ فِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ إِذْ كَانَتِ ٱلضَّرُورِيَّةُ تُوجَدُ لِكُلِّ ٱلْمَوْضُوعِ وَٱلْمُمْكِنَةُ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ لَا تُوجَدُ لِكُلِّهِ . وَكَذٰلِكَ نِسْبَةُ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلتَّسَاوِي إِلَى ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ هِيَ هٰذِهِ ٱلنِّسْبَةُ أَعْنِي أَنَّ ٱلْمُمْكِنَةَ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ تَصْدُقُ مِنْ مَوْضُوعَاتِهَا عَلَى أَكْثَرَ مِمَّا تَصْدُقُ ٱلْمُمْكِنَةُ عَلَى ٱلتَّسَاوِي . وَٱلدَّلَائِلُ ٱلْمَأْخُوذَةُ حَدًّا أَوْسَطَ مِنْهَا مَا هُوَ أَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفِ ٱلْأَصْغَرِ وَأَخَصُّ مِنَ ٱلْأَكْبَرِ وَمِنْهَا مَا هُوَ أَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ . وَمِنْهَا مَا هُوَ أَخَصُّ مِنْهُمَا . أَمَّا ٱلَّذِي هُوَ أَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفِ

ٱلْأَصْغَرِ وَٱخَصُّ مِنَ ٱلْأَكْبَرِ فَإِنَّهُ يَأْتَلِفُ ضَرُورَةً فِي ٱلشَّكْلِ ٱلْأَوَّلِ. وَإِذَا كَانَ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ فَهُوَ ٱلَّذِي يَعْرِفُهُ ٱلْقُدَمَاءُ بِٱلْأَشْبَهِ. وَمِثَالُهُ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلضَّرُورِيَّةِ: هٰذِهِ أُنْثَى ٱلْحَيَوَانِ لَهَا لَبَنٌ فَهِيَ قَدْ وَلَدَتْ. وَفِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ. فُلَانٌ يُعِدُّ ٱلسِّلَاحَ وَيَجْمَعُ ٱلرِّجَالَ وَلَيْسَ قُرْبَهُ عَدُوٌّ فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَعْصِيَ ٱلْمَلِكَ. وَمِثَالُ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلسَّاوِي: فُلَانٌ قَدْ تَعِبَ وَٱلْمَتْعُوبُ مَحْمُومٌ فَفُلَانٌ مَحْمُومٌ. وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يُعْرَفُ بِٱلْمُشَبِّهِ. وَأَمَّا مَا هُوَ أَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ فَإِنَّهُ يَأْتَلِفُ فِي ٱلشَّكْلِ ٱلثَّانِي إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ مُنْتِجٍ إِلَّا فِي بَادِي ٱلرَّأْيِ. مِثَالُ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: سُقْرَاطُ يَتَنَفَّسُ مُتَوَاتِرًا وَٱلْمَحْمُومُ يَتَنَفَّسُ مُتَوَاتِرًا فَسُقْرَاطُ مَحْمُومٌ. فَهَاتَانِ ٱلْمُقَدِّمَتَانِ صَادِقَتَانِ وَٱلنَّتِيجَةُ قَدْ تَكُونُ كَاذِبَةً إِذْ قَدْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ تَنَفُّسُ سُقْرَاطَ مُتَوَاتِرًا لِمَوْضِعِ إِحْضَارِهِ. وَلَمَّا كَانَ ذٰلِكَ خَافِيًا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ ٱلنَّاسِ إِذَا رَأَوْا فِي أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلصَّادِقَةِ أَنَّهَا تُنْتِجُ كَذِبًا ظَنُّوا لِذٰلِكَ أَنَّهُ قَدْ أُنْطُوِيَ فِيهَا كَذِبٌ فَيُرُومُونَ أَنْ يُعَانِدُوا ٱلْمُقَدِّمَاتِ فَيَعْسُرُ ذٰلِكَ عَلَيْهِمْ لِمَكَانِ صِدْقِهَا فَيَتَحَيَّرُونَ لِذٰلِكَ. وَأَمَّا ٱلَّتِي هِيَ أَخَصُّ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ فَتُنْتِجُ فِي ٱلشَّكْلِ ٱلثَّالِثِ جُزْئِيًّا لَا كُلِّيًّا لٰكِنْ تُؤْخَذُ نَتِيجَتُهُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ كُلِّيَّةً. مِثَالُ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلضَّرُورِيَّةِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: ٱلْأَشْيَاءُ كُلُّهَا فِي كُرَةِ ٱلْعَالَمِ وَٱلْأَشْيَاءُ كُلُّهَا فِي ٱلزَّمَانِ فَٱلزَّمَانُ كُرَةُ ٱلْعَالَمِ. وَفِي ٱلْمُمْكِنَةِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: ٱلْحُكَمَاءُ عُدُولٌ لِأَنَّ سُقْرَاطَ حَكِيمٌ وَعَدْلٌ.

وَالدَّلَائِلُ الَّتِي تَكُونُ فِي الشَّكْلِ الثَّالِثِ وَالثَّانِي تُخَصُّ بِاسْمِ الْعَلَامَةِ وَمَا كَانَ مِنْهَا فِي الشَّكْلِ الْأَوَّلِ يُخَصُّ بِاسْمِ الدَّلِيلِ . وَالَّذِي فِي الشَّكْلِ الثَّانِي هُوَ اخَصُّ بِاسْمِ الْعَلَامَةِ مِنَ الثَّالِثِ كَمَا أَنَّهُ مَا كَانَ مِنْ ذٰلِكَ فِي الْمُمْكِنَةِ الْأَكْثَرِيَّةِ يُخَصُّ بِاسْمِ الْأَشْبَهِ وَإِنْ كَانَ فِي الْمُمْكِنَةِ عَلَى التَّسَاوِي خُصَّ بِاسْمِ الضَّمِيرِ الْمُشْتَبِهِ . فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا الْقَوْلِ مَا هِيَ الْمَحْمُودَاتُ وَالدَّلَائِلُ وَالْعَلَامَاتُ وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا . لٰكِنَّ الَّذِي تَبَيَّنَ مِنَ الْأَقَاوِيلِ الْقِيَاسِيَّةِ عَلَى الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هُوَ فِي كِتَابِ الْقِيَاسِ فَإِنَّهُ هُنَالِكَ تَبَيَّنَ مَا هُوَ الْقِيَاسُ وَكَمْ اجْنَاسُ الْأَقَاوِيلِ الْقِيَاسِيَّةِ وَتَبَيَّنَ فِي جِنْسِ جِنْسٍ مِنْهَا مَا هُوَ قِيَاسٌ وَمَا لَيْسَ بِقِيَاسٍ . وَأَمَّا (الْمِثَالُ) فَقَدْ بَيَّنَّا فِيمَا تَقَدَّمَ أَنَّهُ اسْتِقْرَاءٌ مَا لٰكِنْ يَبَايِنُ الْاِسْتِقْرَاءَ بِأَنَّهُ لَيْسَ يُصَارُ فِيهِ لَا مِنَ الْجُزْئِيِّ إِلَى بَيَانِ الْأَمْرِ الْكُلِّيِّ كَمَا يُصَارُ فِي بَعْضِ أَنْوَاعِ الْاِسْتِقْرَاءِ وَلَا مِنَ الْكُلِّيِّ إِلَى الْجُزْئِيِّ كَمَا قَدْ يُصَارُ فِي بَعْضِ أَنْوَاعِ الْاِسْتِقْرَاءِ . وَذٰلِكَ إِذَا بَيَّنَّا بِالْكُلِّيِّ الَّذِي أَثْبَتْنَاهُ بِالْاِسْتِقْرَاءِ جُزْئِيًّا آخَرَ غَيْرَ الْجُزْئِيَّاتِ الَّتِي أَثْبَتَهَا الْكُلِّيُّ بِاسْتِقْرَائِهَا وَيُوَافِقُهُ فِي أَنَّهُ يَصِيرُ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ لِاجْتِمَاعِهِمَا فِي أَمْرٍ كُلِّيٍّ . وَذٰلِكَ إِذَا جَمَعْنَا فِي الْاِسْتِقْرَاءِ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا أَعْنِي أَنْ نَصِيرَ فِيهِ مِنَ الْجُزْئِيِّ إِلَى الْكُلِّيِّ ثُمَّ مِنَ الْكُلِّيِّ إِلَى جُزْئِيٍّ آخَرَ فَإِنَّا فِي هٰذَا الْفِعْلِ قَدْ صِرْنَا مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ يَتَوَسَّطُ الْكُلِّيُّ كَالْحَالِ فِي الْمِثَالِ فَإِنَّ الْمِثَالَ إِنَّمَا يَصِيرُ فِيهِ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ

لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي اَمْرٍ كُلِّيٍّ اِذَا كَانَ اَلْحُكْمُ اَلْمَنْقُولُ مِنْ اَحَدِهِمَا اِلَى اَلْآخَرِ مَوْجُودًا لِلْجُزْئِيِّ اَلْاَعْرَفِ مِنْ اَجْلِ ذٰلِكَ اَلْكُلِّيِّ اَوْ يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ يُوجَدُ لَهُ مِنْ جِهَتِهِ وَاِلَّا لَمْ تَصِحَّ اَلنَّقْلَةُ مِنْ جُزْئِيٍّ اِلَى جُزْئِيٍّ اَعْنِي اِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ كُلِّيٌ وَكَانَ وُجُودُ ذٰلِكَ اَلْحُكْمِ مِنْ اَجْلِهِ لِلْجُزْئِيِّ اَلْاَعْرَفِ. وَمِثَالُ مَا يَعْرِضُ مِنْ هٰذَا فِي اَلْاِسْتِقْرَاءِ اَعْنِي اِذَا كَانَتِ اَلنَّقْلَةُ مِنْ جُزْئِيٍّ اِلَى جُزْئِيٍّ بِتَوَسُّطِ اَلنَّقْلَةِ اِلَى اَلْكُلِّيِّ قَوْلُ مَنْ قَالَ: اَيُّهَا اَلْمَلِكُ اِنَّ فُلَانًا طَلَبَ اَنْ يَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ اَلْعَسَسِ وَقَدْ كَانَ مِنْ جُمْلَةِ عَدُوِّكَ فَلَا تُبِحْ لَهُ ذٰلِكَ فَاِنَّهُ يُرِيدُ اَنْ يَقْتُلَكَ بِاَلْمَلِكِ لِاَنَّ فُلَانًا طَلَبَ ذٰلِكَ مِنْ فُلَانِ اَلْمَلِكَ وَفُلَانًا مِنْ فُلَانِ اَلْمَلِكَ لِاَقْوَامٍ يُعَدِّدُهُمْ فَقَتَلُوا بِمَلُوكِهِمْ. فَاِنَّ قَائِلَ هٰذَا اَلْقَوْلِ قَدْ جَعَلَ اَلنَّقْلَةَ فِيهِ مِنْ جُزْئِيٍّ اِلَى جُزْئِيٍّ بِتَوَسُّطِ اَلْكُلِّيِّ اَلَّذِي هُوَ: اِنَّ كُلَّ مَنْ طَلَبَ اَنْ يَدْخُلَ فِي اَلْحَرَسِ مِمَّنْ كَانَ فِي جُمْلَةِ عَدُوِّ اَلْمَلِكِ فَهُوَ يُرِيدُ اَنْ يَقْتُلَكَ بِهِ. اِلَّا اِنَّ هٰذَا اَلْكُلِّيَّ اَلَّذِي اِرْتَسَمَ فِي اَلنَّفْسِ بِاَلْقُوَّةِ وَاِنْ لَمْ يُصَرَّحْ بِهِ يَسْتَعْمِلُ اَلنَّقْلَةَ مِنْ جُزْئِيٍّ اِلَى جُزْئِيٍّ اِذَا كَانَتِ اَلنَّقْلَةُ اِلَيْهِ فِي اَلذِّهْنِ مِنْ اَكْثَرِ اَلْجُزْئِيَّاتِ كَانَ اَسْتِقْرَاءً وَاِنْ كَانَ مِنْ وَاحِدٍ مِنْهَا اَوْ مِنَ اَلْاَقَلِّ كَانَ تَمْثِيلًا. (قَالَ) فَاَمَّا اَلْقَوْلُ فِي هٰذِهِ اَلْاَشْيَاءِ اَلَّتِي يُقَالُ لَهَا مِثَالَاتٌ فَقَدْ يُكْتَفَى هَا هُنَا بِهٰذَا اَلْقَدْرِ اَلْمُعْطَى مِنْهَا

وَاَمَّا اَلْقَوْلُ فِي فُصُولِ اَلضَّمَائِرِ مِنْ جِهَةِ اَلْاَشْيَاءِ اَلَّتِي مِنْهَا تُعْمَلُ فَاِنَّ اَلْقَوْلَ فِيهَا غَامِضٌ وَخَفِيٌّ وَهُوَ عَظِيمُ اَلْغَنَاءِ فِيمَا نَقْصِدُهُ

هَاهُنَا . وَسَبَبُ عُمُومِهِ اَنَّ اَلضَّمَائِرَ تَكُونُ فِي جَمِيعِ اَلْمَقُولَاتِ اَلْعَشْرِ كَمَا تَكُونُ اَلْقِيَاسَاتُ اَلْجَدَلِيَّةُ لَكِنَّ مِنَ اَلضَّمَائِرِ مَا يَكُونُ فِي اَلْمَوَادِّ اَلَّتِي فِي اَلصَّنَائِعِ مِثْلَ اَلضَّمَائِرِ اَلَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي اَلْأُمُورِ اَلْكُلِّيَّةِ وَاَلْجُزْئِيَّةِ فِي صِنَاعَةِ اَلطِّبِّ وَغَيْرِهَا مِنَ اَلصَّنَائِعِ . وَهٰذِهِ فَيَنْبَغِي اَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي هٰذِهِ اَلصَّنَائِعِ عَلَى نَحْوِ اِسْتِعْمَالِ اَلْبَرَاهِينِ فِي تِلْكَ اَلصِّنَاعَةِ لَا عَلَى مَا يَسْتَعْمِلُهَا اَلْخَطِيبُ فِي اَلْمَادَّةِ اَلَّتِي تَخُصُّ اَلْخَطَابَةَ مِثْلَ اَنْ يَأْتِيَ بِهَا جُزْءًا مِنْ خُطْبَةٍ . وَسَائِرُ اَلْأَشْيَاءِ اَلَّتِي تَكُونُ بِهَا اَلْأَقَاوِيلُ اَلْخُطْبِيَّةُ اَتَمَّ فِعْلًا وَاَنْفَذُ مِمَّا يُذْكَرُ بَعْدُ . وَمِنَ اَلضَّمَائِرِ مَا يَكُونُ فِي اَلْأُمُورِ اَلَّتِي تَخُصُّ هٰذِهِ اَلصِّنَاعَةَ بِحَسَبِ مَا تَبَيَّنَ مِنْ مَنْفَعَتِهَا وَهِيَ اَلْأُمُورُ اَلْإِرَادِيَّةُ وَهٰذِهِ هِيَ اَلَّتِي يَنْبَغِي اَنْ تُسْتَعْمَلَ عَلَى جِهَةِ مَا يَسْتَعْمِلُ اَلْخُطَبَاءُ اَلْأَقَاوِيلَ اَلْخُطْبِيَّةَ . وَمِنْ هٰذِهِ اَلْأَشْيَاءِ يَنْبَغِي اَنْ تُعَدَّدَ فِي هٰذِهِ اَلصِّنَاعَةِ اَلْأَشْيَاءُ اَلَّتِي هِيَ فُصُولُ اَلضَّمَائِرِ لَا مِنْ تِلْكَ اَلْمَوَادِّ اَلَّتِي تَحْتَوِي عَلَيْهَا صِنَاعَةٌ صِنَاعَةٌ

الفصل السابع

في التفنيد

البحث الاوّل

في المناظرة والجدال

(عن رسائل الفارابي وابن سينا ومقدمة ابن خلدون وآداب البحث للسمرقندي)

(راجع الصفحة ١١٦ من علم الخطابة)

اَلْمُنَاظَرَةُ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ كَيْفِيَّةُ اِثْبَاتِ الْمَطْلُوبِ وَنَقِيضِهِ اوْ نَفْيِ دَلِيلِهِ مَعَ الْخَصْمِ. وَالْآدَابُ الطُّرُقُ. وَمَوْضُوعُ هٰذَا الْعِلْمِ الْآدِلَّةُ مِن حَيْثُ اَنَّهَا يُثْبِتُ بِهَا الْمُدَّعِي عَلَى الْغَيْرِ. وَمَبَادِئُهُ اُمُورٌ بَيِّنَةٌ بِنَفْسِهَا. وَالْغَرَضُ مِنْهُ تَحْصِيلُ مَلَكَةِ طُرُقِ الْمُنَاظَرَةِ لِئَلَّا يَقَعَ الْخَبْطُ فِي الْبَحْثِ فَيَتَّضِحَ الصَّوَابُ. وَتُطْلَقُ الْمُنَاظَرَةُ اَيْضًا فِي اصْطِلَاحِ اَدَلِّ هٰذَا الْعِلْمِ عَلَى النَّظَرِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ فِي النِّسْبَةِ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ اِظْهَارًا لِلصَّوَابِ. وَقِيلَ اَيْضًا هِيَ تَوَجُّهُ الْخَصْمَيْنِ فِي النِّسْبَةِ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ اِظْهَارًا لِلصَّوَابِ اَيْ تَوَجُّهُ الْمُتَخَاصِمَيْنِ اللَّذَيْنِ مَطْلَبُ اَحَدِهِمَا غَيْرُ مَطْلَبِ الْآخَرِ اِذَا تَوَجَّهَا فِي النِّسْبَةِ وَاِنْ كَانَ ذَاكَ التَّوَجُّهُ فِي النَّفْسِ كَمَا كَانَ لِلْحُكَمَاءِ الْاِشْرَاقِيِّينَ وَكَانَ غَرَضُهُمْ مِنْ ذٰلِكَ اِظْهَارُ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ. وَالْمَسَائِلُ الْعِلْمِيَّةُ تَتَزَايَدُ يَوْمًا فَيَوْمًا بِتَلَاحُقِ الْاَفْكَارِ

وَٱلْاَنْظَارِ فَلِتَفَاوُتِ مَرَاتِبِ ٱلطَّبَائِعِ وَٱلْاَذْهَانِ لَا يَخْلُو عِلْمٌ مِنَ ٱلْعُلُومِ عَنْ تَصَادُمِ ٱلْآرَاءِ وَتَبَايُنِ ٱلْاَفْكَارِ وَإِدَارَةِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْجَرْحِ وَٱلتَّعْدِيلِ وَٱلرَّدِّ وَٱلْقَبُولِ إِلَّا اَنَّهُ بِشُرُوطٍ مُعْتَبَرَةٍ مَشْرُوطٌ وَبِرِعَايَةِ ٱلْاُصُولِ مَنُوطٌ وَإِلَّا لَكَانَ مُكَابَرَةً غَيْرَ مَسْمُوعَةٍ . فَلَا بُدَّ مِنْ قَانُونٍ يُعْرَفُ مَرَاتِبَ ٱلْبَحْثِ عَلَى وَجْهٍ يَتَمَيَّزُ بِهِ ٱلْمَقْبُولُ عَمَّا هُوَ مَرْدُودٌ وَتِلْكَ ٱلْقَوَانِينُ هِيَ عِلْمُ آدَابِ ٱلْبَحْثِ

اَمَّا ٱلْجِدَالُ فَهُوَ عِلْمٌ يَبْحَثُ عَنِ ٱلطُّرُقِ ٱلَّتِي يُقْتَدَرُ بِهَا عَلَى إِبْرَامِ وَنَقْضٍ وَهُوَ مِنْ فُرُوعِ عِلْمِ ٱلنَّظَرِ وَمَبْنَى لِعِلْمِ ٱلْخِلَافِ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْجَدَلِ ٱلَّذِي هُوَ اَحَدُ اَجْزَاءِ مَبَاحِثِ ٱلْمَنْطِقِ . وَمَبَادِئُهُ بَعْضُهَا مُبَيَّنَةٌ فِي عِلْمِ ٱلنَّظَرِ وَبَعْضُهَا خَطَابِيَّةٌ وَبَعْضُهَا اُمُورٌ عَادِيَّةٌ . وَلَهُ ٱسْتِمْدَادٌ مِنْ عِلْمِ ٱلْمُنَاظَرَةِ ٱلْمَشْهُورِ بِآدَابِ ٱلْبَحْثِ . وَمَوْضُوعُهُ تِلْكَ ٱلطُّرُقُ وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ تَحْصِيلُ مَلَكَةِ ٱلنَّقْضِ وَٱلْاِبْرَامِ وَفَائِدَتُهُ كَثِيرَةٌ فِي ٱلْاَحْكَامِ ٱلْعِلْمِيَّةِ وَٱلْعَمَلِيَّةِ مِنْ جِهَةِ ٱلْاِلْزَامِ عَلَى ٱلْمُخَالِفِينَ . وَلَا يَبْعُدُ اَنْ يُقَالَ اِنَّ عِلْمَ ٱلْجَدَلِ هُوَ عِلْمُ ٱلْمُنَاظَرَةِ لِاَنَّ ٱلْمَآلَ وِنْهُمَا وَاحِدٌ إِلَّا اَنَّ ٱلْجَدَلَ اَخَصُّ مِنْهُ . وَيُؤَيِّدُهُ كَلَامُ ٱبْنِ خَلْدُونَ فِي ٱلْمُقَدِّمَةِ حَيْثُ قَالَ : وَاَمَّا ٱلْجِدَالُ فَهُوَ مَعْرِفَةُ آدَابِ ٱلْمُنَاظَرَةِ ٱلَّتِي تَجْرِي بَيْنَ اَهْلِ ٱلْمَذَاهِبِ ٱلْفِقْهِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ فَاِنَّهُ لَمَّا كَانَ بَابُ ٱلْمُنَاظَرَةِ فِي ٱلرَّدِّ وَٱلْقَبُولِ مُتَّسِعًا وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْمُنَاظِرِينَ فِي ٱلْاِسْتِدْلَالِ وَٱلْجَوَابِ يُرْسِلُ عِنَانَهُ فِي ٱلْاِحْتِجَاجِ . وَمِنْهُ مَا يَكُونُ صَوَابًا وَمِنْهُ مَا يَكُونُ خَطَأً فَاحْتَاجَ ٱلْاَئِمَّةُ اِلَى اَنْ يَضَعُوا آدَابًا وَاَحْكَامًا يَقِفُ ٱلْمُتَنَاظِرَانِ

عِنْدَ حُدُودِهَا فِي ٱلرَّدِّ وَٱلْقَبُولِ وَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ ٱلْمُسْتَدِلِّ وَٱلْمُجِيبِ وَحَيْثُ يَسُوغُ لَهُ انْ يَكُونَ مُسْتَدِلاً وَكَيْفَ يَكُونُ مَخْصُوصًا مُنْقَطِعًا وَمَحَلُّ ٱعْتِرَاضِهِ اَوْ مُعَارَضَتِهِ وَاَيْنَ يَجِبُ عَلَيْهِ ٱلسُّكُوتُ وَلِخَصْمِهِ ٱلْكَلَامُ وَٱلِاسْتِدْلَالُ. وَلِذٰلِكَ قِيلَ فِيهِ اِنَّهُ مَعْرِفَةٌ بِٱلْقَوَاعِدِ مِنَ ٱلْحُدُودِ وَٱلْآدَابِ فِي ٱلِاسْتِدْلَالِ ٱلَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا اِلَى حِفْظِ رَأْيٍ وَهَدْمِهِ كَانَ ذٰلِكَ ٱلرَّأْيُ مِنَ ٱلْفِقْهِ اَوْ غَيْرِهِ. وَهِيَ طَرِيقَتَانِ طَرِيقَةُ ٱلْبَزْدَوِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٨٢ هـ (١٠٩٠م) وَهِيَ خَاصَّةٌ بِٱلْاَدِلَّةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ مِنَ ٱلنَّصِّ وَٱلْاِجْمَاعِ وَٱلِاسْتِدْلَالِ. وَطَرِيقَةُ رُكْنِ ٱلدِّينِ ٱلْعَمِيدِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٦١٥ هـ (١٢١٨م) وَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ دَلِيلٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ مِنْ اَيِّ عِلْمٍ كَانَ. وَاَكْثَرُهُ اَسْتِدْلَالٌ وَهُوَ مِنَ ٱلْمَبَاحِثِ ٱلْحَسَنَةِ وَٱلْمُغَالَطَاتُ فِيهِ فِي نَفْسِ ٱلْاَمْرِ كَثِيرَةٌ وَاِذَا اُعْتُبِرَ ٱلنَّظَرُ ٱلْمَنْطِقِيُّ كَانَ فِي ٱلْغَالِبِ اَشْبَهَ بِٱلْقِيَاسِ ٱلْمُغَالَطِيِّ وَٱلسُّوفِسْطَائِيِّ. اِلَّا اَنَّ صُوَرَ ٱلْاَدِلَّةِ وَٱلْاَقْيِسَةِ فِيهِ مَحْفُوظَةٌ مُرَاعَاةٌ تُتَحَرَّى فِيهَا طُرُقُ ٱلِاسْتِدْلَالِ كَمَا يَنْبَغِي وَهٰذَا ٱلْعَمِيدِيُّ هُوَ اَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِيهَا وَنُسِبَتِ ٱلطَّرِيقَةُ اِلَيْهِ وَوَضَعَ ٱلْكِتَابَ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْاِرْشَادِ مُخْتَصَرًا وَتَبِعَهُ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنَ ٱلْمُتَاَخِّرِينَ كَٱلسِّنْفِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧١٠ هـ (١٣١٠م) وَغَيْرُهُ جَاءُوا عَلَى اَثَرِهِ وَسَلَكُوا مَسْلَكَهُ وَكَثُرَتْ فِي ٱلطَّرِيقَةِ ٱلتَّاْلِيفُ وَهِيَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ مَهْجُورَةٌ لِنَقْصِ ٱلْعِلْمِ وَٱلتَّعْلِيمِ فِي ٱلْاَمْصَارِ ٱلْاِسْلَامِيَّةِ

البحث الثاني

في آداب المناظرة

(من كتاب ايها الولد للغزالي)

(راجع الصفحة ١٢٤ من علم الخطابة)

لَوْ وَقَعَ مَسْئَلَةٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ شَخْص اَوْ قَوْمٍ وَكَانَ اِرَادَتُكَ فِيهَا اَنْ تَظْهِرَ اَلْحَقَّ وَلَا تُضَيِّعَ جَازَ لَكَ اَلْبَحْثُ. لٰكِنْ لِتِلْكَ اَلْاِرَادَةِ عَلَامَتَانِ اِحْدَاهُمَا اَنْ لَا تَفْرَقَ بَيْنَ اَنْ يَنْكَشِفَ اَلْحَقُّ عَلَى لِسَانِكَ اَوْ عَلَى لِسَانِ غَيْرِكَ. وَثَانِيهِمَا اَنْ يَكُونَ اَلْبَحْثُ فِي اَلْخَلَاءِ اَحَبَّ اِلَيْكَ مِنْ اَنْ يَكُونَ فِي اَلْمَلَإِ وَاسْمَعْ اِنِّي اَذْكُرُ لَكَ هُنَا فَائِدَةً. اِعْلَمْ اَنَّ اَلسُّؤَالَ عَنِ اَلْمُشْكِلَاتِ عَرْضُ مَرَضِ اَلْقَلْبِ اِلَى اَلطَّبِيبِ وَاَلْجَوَابُ لَهُ سَعْيٌ لِاِصْلَاحِ مَرَضِهِ وَاعْلَمْ اَنَّ اَلْجَاهِلِينَ اَلْمَرْضَى قُلُوبُهُمْ وَاَلْعُلَمَاءَ اَلْاَطِبَّاءُ. وَاَلْعَالِمَ اَلنَّاقِصَ لَا يُحْسِنُ اَلْمُعَالَجَةَ وَاَلْعَالِمَ اَلْكَامِلَ لَا يُعَالِجُ كُلَّ مَرَض بَلْ يُعَالِجُ مَنْ يَرْجُو فِيهِ قَبُولَ اَلْمُعَالَجَةِ وَاَلصَّلَاحِ وَاِذَا كَانَتِ اَلْعِلَّةُ مُزْمِنَةً اَوْ عَقِيمًا لَا تَقْبَلُ اَلْعِلَاجَ فَحُذَاقَةُ اَلطَّبِيبِ فِيهِ اَنْ يَقُولَ: هٰذَا لَا يَقْبَلُ اَلْعِلَاجَ فَلَا يَشْتَغِلُ بِدَوَائِهِ وَمُعَالَجَتِهِ لِاَنَّ فِيهِ تَضْيِيعَ اَلْعُمْرِ

اِعْلَمْ اَنَّ مَرَضَ اَلْجَهْلِ عَلَى اَرْبَعَةِ اَنْوَاعٍ اَحَدُهُمْ يَقْبَلُ اَلْمُعَالَجَةَ وَاَلْبَاقِي لَا يَقْبَلُ اَلْعِلَاجَ. وَاَمَّا اَلْمَرَضُ اَلَّذِي يَقْبَلُ اَلْعِلَاجَ

فَهُوَ اَنْ يَكُونَ مُسْتَرْشِدًا عَالِمًا عَاقِلًا فَهِمًا لَا يَكُونُ مَغْلُوبَ ٱلْحَسَدِ وَٱلْغَضَبِ وَمُحِبَّ ٱلْجَاهِ وَٱلْمَالِ وَٱلشَّهْوَةِ وَيَكُونَ طَالِبَ ٱلطَّرِيقِ ٱلْمُسْتَقِيمِ وَلَمْ يَكُنْ سُؤَالُهُ وَاعْتِرَاضُهُ عَنْ حَسَدٍ وَتَعَنُّتٍ وَامْتِحَانٍ وَبَحْثٍ. وَهٰذَا يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ فَيَجُوزُ اَنْ تَشْتَغِلَ بِجَوَابِ سُؤَالِهِ بَلْ يَجِبُ عَلَيْكَ اِجَابَتُهُ . اَمَّا ٱلَّذِي لَا يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ اَحَدُهُمْ مَنْ كَانَ سُؤَالُهُ وَاعْتِرَاضُهُ عَنْ حَسَدِهِ وَبُغْضِهِ وَٱلْحَسُودُ لَا يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ لِاَنَّهُ مِنَ ٱلْعِلَّةِ ٱلْمُزْمِنَةِ فَكُلَّمَا تُجِيبُهُ بِاَحْسَنِ ٱلْجَوَابِ وَاَفْصَحِهِ وَاَوْضَحِهِ لَا يَزِيدُ لَهُ ذٰلِكَ اِلَّا غَيْظًا وَحَسَدًا فَالطَّرِيقُ اَنْ لَا تَشْتَغِلَ بِجَوَابِهِ:

كُلُّ ٱلْعَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى اِزَالَتُهَا اِلَّا عَدَاوَةَ مَنْ عَادَاكَ عَنْ حَسَدِ

فَيَنْبَغِي لَكَ اَنْ تُعْرِضَ عَنْهُ وَتَتْرُكَهُ مَعَ مَرَضِهِ قَالَ: فَاَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ اِلَّا ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرَدَّى وَٱلْحَسُودُ بِكُلِّ مَا يَقُولُ وَيَفْعَلُ يُوقِدُ ٱلنَّارَ فِي زَرْعِ عَمَلِهِ كَمَا جَاءَ فِي ٱلْحَدِيثِ: ٱلْحَسَدُ يَأْكُلُ ٱلْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ ٱلنَّارُ ٱلْحَطَبَ. وَٱلثَّانِي اَنْ يَكُونَ عِلَّةً مِنَ ٱلْحَمَاقَةِ وَهُوَ اَيْضًا كَٱلْحَسُودِ لَا يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ كَمَا قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: (١) اِنِّي مَا عَجَزْتُ عَنْ اِحْيَاءِ ٱلْمَوْتَى وَقَدْ عَجَزْتُ عَنْ مُعَالَجَةِ ٱلْاَحْمَقِ وَذٰلِكَ رَجُلٌ يَشْتَغِلُ لِطَلَبِ ٱلْعِلْمِ زَمَانًا قَلِيلًا وَيَتَعَلَّمُ شَيْئًا مِنَ ٱلْعِلْمِ ٱلْعَقْلِيِّ وَٱلشَّرْعِيِّ فَيَسْاَلُ وَيَعْتَرِضُ مِنْ حَمَاقَتِهِ لَا يَعْلَمُ وَلَا يَفْهَمُ عَلَى ٱلْعَالِمِ ٱلْكَبِيرِ

(١) لم يرو هذا الكلام للسيد المسيح لذكره السجود لا في الانجيل ولا في التقليد . ولا نعلم عمَّنْ رواهُ الغزالي

فِي ٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيِّ وَٱلشَّرْعِيِّ . وَهٰذَا ٱلْأَحْمَقُ لَا يَعْلَمُ وَيَظُنُّ أَنَّ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِ هُوَ أَيْضًا مُشْكِلٌ لِلْعَالِمِ ٱلْكَبِيرِ فَإِذَا لَمْ يَتَفَكَّرْ هٰذَا ٱلْقَدْرَ يَكُونُ سُؤَالُهُ وَٱعْتِرَاضُهُ مِنَ ٱلْحَمَاقَةِ فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يُشْتَغَلَ بِجَوَابِهِ . وَٱلثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَرْشِدًا وَيَحْمِلَ كُلَّ مَا لَا يَفْهَمُ مِنْ كَلَامِ ٱلْأَكَابِرِ عَلَى قُصُورِ فَهْمِهِ وَيَكُونَ سُؤَالُهُ لِلِٱسْتِفَادَةِ لٰكِنْ يَكُونُ بَلِيدًا لَا يُدْرِكُ ٱلْحَقَائِقَ فَلَا يَنْبَغِي ٱلِٱشْتِغَالُ بِجَوَابِهِ أَيْضًا . وَفِي ٱلْحَدِيثِ : نَحْنُ مَعَاشِرَ ٱلْحُكَمَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ

وَعَنْ بَعْضِ ٱلْعُلَمَاءِ : إِيَّاكَ أَنْ تَشْتَغِلَ بِهٰذَا ٱلْجَدَلِ ٱلَّذِي ظَهَرَ بَعْدَ ٱنْقِرَاضِ ٱلْأَكَابِرِ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ فَإِنَّهُ يُبْعِدُ عَنِ ٱلْفِقْهِ وَيُضِيعُ ٱلْعُمْرَ وَيُورِثُ ٱلْوَحْشَةَ وَٱلْعَدَاوَةَ وَهُوَ مِنْ أَشْرَاطِ ٱلسَّاعَةِ كَذَا وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ وَلِلّٰهِ دَرُّ ٱلْقَائِلِ :

أَرَى فُقَهَاءَ هٰذَا ٱلْعَصْرِ طُرًّا ... أَضَاعُوا ٱلْعِلْمَ وَٱشْتَغَلُوا بِلَمْ لِمْ

إِذَا نَاظَرْتَهُمْ لَمْ تَلْقَ مِنْهُمْ ... سِوَى حَرْفَيْنِ لَمْ لِمْ لَا نُسَلِّمْ

وَٱلْإِنْصَافُ أَنَّ ٱلْجَدَلَ لِإِظْهَارِ ٱلصَّوَابِ لَا بَأْسَ بِهِ وَرُبَّمَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي تَشْحِيذِ ٱلْأَذْهَانِ . وَٱلْمَمْنُوعُ ٱلْجَدَلُ ٱلَّذِي يُضِيعُ ٱلْأَوْقَاتَ وَلَا يَحْصُلُ مِنْهُ طَائِلٌ . قَالَ مُوَفَّقُ ٱلدِّينِ ٱلْبَغْدَادِيُّ : إِيَّاكَ ٱلْغِلْظَةَ فِي ٱلْخِطَابِ . وَٱلْجَفَاءَ فِي ٱلْمُنَاظَرَةِ فَإِنَّ ذٰلِكَ يَذْهَبُ بِبَهْجَةِ ٱلْكَلَامِ وَيُسْقِطُ فَائِدَتَهُ . وَيُعْدِمُ حَلَاوَتَهُ . وَيَجْلِبُ ٱلضَّغَائِنَ . وَيُحَقِّقُ ٱلْمَوَدَّاتِ . وَيُصَيِّرُ ٱلْقَائِلَ مُسْتَثْقَلًا . سُكُوتُهُ أَشْهَى إِلَى ٱلسَّامِعِ مِنْ كَلَامِهِ . وَيُثِيرُ ٱلنُّفُوسَ عَلَى مُعَانَدَتِهِ وَيَبْسُطُ ٱلْأَلْسُنَ بِمُخَاشَنَتِهِ وَإِذْهَابِ حُرْمَتِهِ

البحث الثالث

في الجوابات على الخصم

(من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه)

(راجع صفحة ١١٣ من علم الخطابة)

اِنَّ اَلْجَوَابَاتِ هِيَ اَصْعَبُ اَلْكَلَامِ كُلِّهِ مَرْكَبًا وَاَعَزُّهُ مَطْلَبًا وَاَغْمَضُهُ مَنْصَبًا وَاَضْيَقُهُ مَسْلَكًا لِاَنَّ صَاحِبَهُ يُعَجِّلُ مُنَاجَاةَ اَلْفِكْرَةِ وَاَسْتِعْمَالَ اَلْقَرِيحَةِ يُرَوِّمُ فِي بَدِيهَتِهِ نَقْضَ مَا اَبْرَمَ اَلْقَائِلُ فِي رَوِيَّتِهِ فَهُوَ كَمَنْ اُخِذَتْ عَلَيْهِ اَلْمَخَارِجُ وَسُدَّتْ لَهُ اَلْمَخَارِجُ قَدِ اعْتَرَضَ اَلْاَسِنَّةَ وَاَسْتَهْدَفَ لِلْمَرَامِي لَا يَدْرِي مَا يُقْرَعُ لَهُ فَيَتَأَهَّبَ لَهُ وَلَا مَا يَفْجَأُهُ مِنْ خَصْمِهِ فَيَقْرَعُهُ بِمِثْلِهِ . وَلَا سِيَّمَا اِذَا كَانَ اَلْقَائِلُ قَدْ اَخَذَ بِمَجَامِعِ اَلْكَلَامِ فَقَادَهُ بِزِمَامِهِ بَعْدَ اَنْ رَاَى فِيهِ وَاحْتَفَلَ وَجَمَعَ خَوَاطِرَهُ وَاَجْتَهَدَ وَتَرَكَ اَلرَّأْيَ يَغِبُّ حَتَّى يَخْتَمِرَ فَقَدْ كَرِهُوا اَلرَّأْيَ اَلْفَطِيرَ كَمَا كَرِهُوا اَلْجَوَابَ اَلدَّبَرِيَّ فَلَا يَزَالُ فِي نَسْجِ اَلْكَلَامِ وَاَسْتِئْنَافِهِ حَتَّى اِذَا اَظْمَاَنَّ شَارِدُهُ وَسَكَنَ نَافِرُهُ صَكَّ بِهِ خَصْمَهُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ثُمَّ قِيلَ لَهُ اَجِبْ وَلَا تُخْطِئْ وَاَسْرِعْ وَلَا تُبْطِئْ . فَتَرَاهُ بِجَوَابٍ مِنْ غَيْرِ اَنَاةٍ وَلَا اَسْتِعْدَادٍ يُطَبِّقُ اَلْمَفَاصِلَ وَيَنْفُذُ اَلْمَقَاتِلَ كَمَا يُرْمَى اَلْجَنْدَلُ بِالْجَنْدَلِ وَيُقْرَعُ اَلْحَدِيدُ بِالْحَدِيدِ فَيُحِلُّ بِهِ عُرَاهُ وَيَنْقُضُ بِهِ مَرَاِيرَهُ وَيَكُونُ جَوَابُهُ عَلَى اَكْثَرِ كَلَامِهِ كَسَحَابَةٍ لَبِدَتْ عَجَاجَتُهُ فَلَا شَيْءَ اَعْضَلُ مِنَ اَلْجَوَابِ اَلْحَاضِرِ وَلَا اَعَزُّ مِنَ اَلْخَصْمِ اَلْاَلَدِّ اَلَّذِي يَقْرَعُ

صَاحِبَهُ وَيَصْرَعُ مُنَازِعَهُ يَقُولُ كَمِثْلِ ٱلنَّارِ فِي ٱلْحَطَبِ ٱلْجَزْلِ

البحث الرابع

في المغالطة

(من كتاب كشف اصطلاحات العلوم للتهانوي وكتاب شرح المطالع)

(راجع صفحة ١١٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

ٱلْمُغَالَطَةُ هِيَ قِيَاسٌ فَاسِدٌ إِمَّا مِنْ جِهَةِ ٱلصُّورَةِ أَوْ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَادَّةِ أَوْ مِنْ جِهَتِهِمَا مَعًا وَٱلَّذِي بِهَا غَالِطٌ فِي نَفْسِهِ مُغَالِطٌ لِغَيْرِهِ. وَلَوْلَا ٱلْقُصُورُ وَهُوَ عَدَمُ ٱلتَّمْيِيزِ بَيْنَ مَا هُوَ هُوَ وَبَيْنَ مَا هُوَ غَيْرُهُ لَمَا تَمَّ لِلْمُغَالِطِ صِنَاعَةٌ فَهِيَ صِنَاعَةٌ كَاذِبَةٌ تَنْفَعُ بِٱلْعَرَضِ إِذِ ٱلْغَرَضُ مِنْ مَعْرِفَتِهَا ٱلِٱحْتِرَازُ عَنِ ٱلْخَطَإِ وَرُبَّمَا يُمْتَحَنُ بِهَا مَنْ يُرَادُ ٱمْتِحَانُهُ فِي ٱلْعِلْمِ لِيُعْلَمَ بِهِ بِعَدَمِ ذَهَابِ ٱلْغَلَطِ عَلَيْهِ كَمَالُهُ وَبِذَهَابِهِ عَلَيْهِ قُصُورُهُ وَبِهَذَا ٱلِٱعْتِبَارِ تُسَمَّى قِيَاسًا ٱمْتِحَانِيًا. وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ فِي تَبْكِيتِ مَنْ يُوهِمُ ٱلْعَوَامَّ أَنَّهُ عَالِمٌ لِيُظْهِرَ لَهُمْ عَجْزَهُ عَنِ ٱلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلصَّوَابِ وَٱلْخَطَإِ فَيَصْدُرُونَ عَنِ ٱلِٱقْتِدَاءِ بِهِ وَبِهَذَا ٱلِٱعْتِبَارِ تُسَمَّى قِيَاسًا عِنَادِيًا. قَالَ شَارِحُ إِشْرَاقِ ٱلْحِكْمَةِ: مَوَادُّ ٱلْمُغَالَطَةِ ٱلْمُشَبِّهَاتُ لَفْظًا أَوْ مَعْنًى وَلِهَذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَجْزَاءٌ ذَاتِيَّةٌ صِنَاعِيَّةٌ وَخَارِجِيَّةٌ. وَٱلْأَوَّلُ مَا يَتَعَلَّقُ بِٱلتَّبْكِيتِ ٱلْمُغَالَطِيِّ.

وَعَلَى هٰذَا فَنَقُولُ: إِنَّ أَسْبَابَ ٱلْغَلَطِ عَلَى كَثْرَتِهَا تَرْجِعُ إِلَى

اَمرٍ واحدٍ وهُوَ عَدَمُ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الشَّيءِ واَشْبَاهِهِ ثُمَّ انَّها تنقَسِمُ الى مَا يَتَعَلَّقُ بِالْاَلْفَاظِ وَالى مَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَعَانِي. (والْاَوَّلُ) يَنْقَسِمُ اِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِالْاَلْفَاظ لَا مِنْ حَيْثُ تَرَكُّبُهَا وَاِلى مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنْ حَيْثُ تَرَكُّبُهَا. (وَالْاَوَّلُ) لَا يَخْلُو اِمَّا اَنْ يَتَعَلَّقَ بِالْاَلْفَاظِ اَنْفُسِهَا وَهُوَ اَنْ تَكُونَ مُخْتَلِفَةَ الدَّلَالَةِ فَيَقَعُ الْاِشْبَاهُ بَيْنَ مَا هُوَ الْمُرَادُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ. وَيَدْخُلُ فِيهِ الْاِشْتِرَاكُ وَالتَّشَابُهُ وَالْمَجَازُ وَالْاِسْتِعَارَةُ وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا وَيُسَمَّى جَمِيعًا بِالْاِنْزِرَاكِ اللَّفْظِيِّ. وَاِمَّا اَنْ يَتَعَلَّقَ بِاَحْوَالِ الْاَلْفَاظِ وَهِيَ اِمَّا اَحْوَالٌ ذَاتِيَّةٌ دَاخِلَةٌ فِي صِيَغِ الْاَلْفَاظِ قَبْلَ تَحَصُّلِهَا كَالْاِشْتِبَاهِ فِي اللَّفْظِ الْمُخْتَارِ بِسَبَبِ التَّصْرِيفِ اِذَا كَانَ بِمَعْنَى الْفَاعِلِ اَوِ الْمَفْعُولِ. وَاِمَّا اَحْوَالٌ عَارِضَةٌ لَهَا بَعْدَ تَحَصُّلِهَا كَالْاِشْتِبَاهِ بِسَبَبِ الْاِعْجَامِ وَالْاِعْرَابِ. (وَالْمُتَعَلِّقَةُ بِالتَّرْكِيبِ) تَنْقَسِمُ اِلَى مَا يَتَعَلَّقُ الْاِشْبَاهُ فِيهِ بِنَفْسِ التَّرْكِيبِ كَمَا يُقَالُ: كُلُّ مَا يَتَصَوَّرُهُ الْعَاقِلُ فَهُوَ كَمَا يَتَصَوَّرُهُ. فَاِنَّ لَفْظَ (هُوَ) يَعُودُ تَارَةً اِلَى الْمَعْقُولِ وَتَارَةً اُخْرَى اِلَى الْعَاقِلِ وَاِلى مَا يَتَعَلَّقُ بِوُجُودِهِ وَعَدَمِهِ اَيْ بِوُجُودِ التَّرْكِيبِ وَعَدَمِهِ. وَهٰذَا الْآخِرُ يَنْقَسِمُ اِلى مَا لَا يَكُونُ التَّرْكِيبُ فِيهِ مَوْجُودًا فَيُظَنُّ مَعْدُومًا وَيُسَمَّى تَفْصِيلَ الْمُرَكَّبِ. وَاِلَى عَكْسِهِ وَيُسَمَّى تَرْكِيبَ الْمُفَصَّلِ وَاَمَّا (الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْمَعَانِي) فَلَا بُدَّ اَنْ تَتَعَلَّقَ بِالتَّأْلِيفِ بَيْنَ الْمَعَانِي اِذِ الْاَفْرَادُ لَا يُتَصَوَّرُ فِيهَا غَلَطٌ لَوْ لَمْ يَقَعْ فِي تَأْلِيفِهَا بِنَحْوٍ مَا وَلَا يَخْلُو مِنْ اَنْ تَتَعَلَّقَ بِتَأْلِيفٍ يَقَعُ بَيْنَ الْقَضَايَا اَوْ بِتَأْلِيفٍ يَقَعُ فِي قَضِيَّةٍ وَاحِدَةٍ. وَالْوَاقِعَةُ بَيْنَ الْقَضَايَا اِمَّا قِيَاسِيٌّ

اَوْ غَيْرُ قِيَاسِيٍّ . وَٱلْمُتَعَلِّقَةُ بِٱلتَّأْلِيفِ ٱلْقِيَاسِيِّ اِمَّا اَنْ تَقَعَ فِي ٱلْقِيَاسِ نَفْسِهِ لَا بِقِيَاسِهِ اِلَى نَتِيجَتِهِ اَوْ تَقَعَ فِيهِ بِقِيَاسِهِ اِلَى نَتِيجَتِهِ . وَٱلْوَاقِعَةُ فِي نَفْسِ ٱلْقِيَاسِ اِمَّا اَنْ تَتَعَلَّقَ بِمَادَّتِهِ اَوْ بِصُورَتِهِ . اَمَّا (ٱلْمَادِّيَّةُ) فَكَمَا تَكُونُ مَثَلًا بِحَيْثُ اِذَا رُتِّبَتِ ٱلْمَعَانِي فِيهَا عَلَى وَجْهٍ يَكُونُ صَادِقًا لَمْ تَكُنْ قِيَاسًا وَاِذَا رُتِّبَتْ عَلَى وَجْهٍ يَكُونُ قِيَاسًا لَمْ يَكُنْ صَادِقًا كَقَوْلِنَا : كُلُّ اِنْسَانٍ نَاطِقٌ مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ وَلَا شَيْءَ مِنَ ٱلنَّاطِقِ مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ بِحَيَوَانٍ اِذْ مَعَ اِثْبَاتِ قَيْدِ (مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ) فِيهِمَا تَكْذِبُ ٱلصُّغْرَى وَمَعَ حَذْفِهِ عَنْهُمَا تَكْذِبُ ٱلْكُبْرَى . وَاِنْ حُذِفَ مِنَ ٱلصُّغْرَى وَاُثْبِتَ فِي ٱلْكُبْرَى تَنْقَلِبُ صُورَةُ ٱلْقِيَاسِ لِعَدَمِ ٱشْتِرَاكِ ٱلْاَوْسَطِ . وَاَمَّا (ٱلصُّورِيَّةُ) فَكَمَا تَكُونُ مِنْهُ عَلَى ضَرْبٍ غَيْرِ مُنْتِجٍ تَكُونُ اَيْضًا عَلَى ضَرْبٍ مُنْتِجٍ وَهٰذَا يُسَمَّى سُوءَ ٱلتَّأْلِيفِ بِاِعْتِبَارِ ٱلْبُرْهَانِ وَسُوءَ ٱلتَّرْكِيبِ بِاِعْتِبَارِ غَيْرِهِ . وَاَمَّا (ٱلْوَاقِعَةُ فِي ٱلْقِيَاسِ بِٱلْقِيَاسِ اِلَى ٱلنَّتِيجَةِ) فَتَنْقَسِمُ اِلَى مَا لَا يَكُونُ ٱلنَّتِيجَةُ مُغَايِرَةً لِاَحَدِ اَجْزَاءِ ٱلْقِيَاسِ فَلَا يَحْصُلُ بِٱلْقِيَاسِ عِلْمٌ زَائِدٌ عَلَى مَا فِي ٱلْمُقَدِّمَاتِ وَتُسَمَّى مُصَادَرَةً عَلَى ٱلْمَطْلُوبِ وَاِلَى مَا تَكُونُ مُغَايِرَةً لَكِنَّهَا لَا تَكُونُ مَا هِيَ ٱلْمَطْلُوبُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْقِيَاسِ وَيُسَمَّى وَضْعَ مَا لَيْسَ بِعِلَّةٍ عِلَّةً كَقَوْلِنَا : ٱلْاِنْسَانُ وَحْدَهُ ضَحَّاكٌ كُلُّ ضَحَّاكٍ حَيَوَانٌ . وَاَمَّا (ٱلْوَاقِعَةُ فِي قَضَايَا لَيْسَتْ بِقِيَاسٍ) فَتُسَمَّى جَمْعَ ٱلْمَسَائِلِ فِي مَسْئَلَةٍ كَمَا يُقَالُ : زَيْدٌ وَحْدَهُ كَاتِبٌ فَاِنَّهُ قَضِيَّتَانِ لِاِفَادَتِهِ اَنَّهُ لَيْسَ غَيْرُهُ كَاتِبًا . وَاَمَّا (ٱلْمُتَعَلِّقَةُ

بِٱلْقَضِيَّةِ ٱلْوَاحِدَةِ) فَاِما اَنْ تَقَعَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِجُزْئَيِ ٱلْقَضِيَّةِ جَمِيعًا وَذٰلِكَ يَكُونُ بِوُقُوعِ اَحَدِهِمَا مَكَانَ ٱلْاٰخَرِ وَيُسَمَّى اِبْهَامَ ٱلْعَكْسِ. وَمِنْهُ ٱلْحُكْمُ عَلَى ٱلْجِنْسِ بِحُكْمِ نَوْعٍ مِنْهُ مُنْدَرِجٍ تَحْتَهُ نَحْوَ: هٰذَا لَوْنٌ وَٱللَّوْنُ سَوَادٌ فَهٰذَا سَوَادٌ. وَمِنْهُ ٱلْحُكْمُ عَلَى ٱلْمُطْلَقِ بِحُكْمِ ٱلْمُقَيَّدِ بِحَالٍ اَوْ وَقْتٍ نَحْوُ: هٰذِهِ رَقَبَةٌ وَٱلرَّقَبَةُ مُؤْمِنَةٌ. وَاَمَّا اَنْ تَقَعَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِجُزْءٍ وَاحِدٍ مِنْهَا. وَتَنْقَسِمُ اِلَى مَا يُورَدُ فِيهِ بَدَلُ ٱلْجُزْءِ غَيْرُهُ مِمَّا يُشْبِهُهُ كَعَوَارِضِهِ اَوْ مَعْرُوضَاتِهِ مِنْهُ وَيُسَمَّى اَخْذَ مَا بِٱلْعَرَضِ مَكَانَ مَا بِٱلذَّاتِ كَمَنْ رَاَى ٱلْاِنْسَانَ اَنَّهُ يَلْزَمُ لَهُ ٱلتَّوَهُّمُ وَٱلتَّكْلِيفُ فَظَنَّ اَنَّ كُلَّ مُتَوَهِّمٍ مُكَلَّفٌ. وَاِلَى مَا يُورَدُ فِيهِ ٱلْجُزْءُ نَفْسُهُ وَلٰكِنْ لَا عَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلَّذِي يَنْبَغِي كَمَا يُؤْخَذُ مَعَهُ مَا لَيْسَ فِيهِ نَحْوُ: زَيْدٌ ٱلْكَاتِبُ اِنْسَانٌ. اَوْ لَا يُؤْخَذُ مَعَهُ مَا هُوَ مِنَ ٱلشُّرُوطِ اَوِ ٱلْقُيُودِ كَمَنْ يَاْخُذُ غَيْرَ ٱلْمَوْجُودِ كَاتِبًا غَيْرَ مَوْجُودٍ مُطْلَقًا وَيُسَمَّى سُوءَ اِعْتِبَارِ ٱلْحَمْلِ. فَقَدْ حَصَلَ مِنَ ٱلْجَمِيعِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ نَوْعًا سِتَّةٌ مِنْهَا لَفْظِيَّةٌ يَتَعَلَّقُ ثَلَاثَةٌ مِنْهَا بِٱلْبَسَائِطِ هِيَ ٱلِاشْتِرَاكُ فِي جَوْهَرِ ٱللَّفْظِ وَفِي اَحْوَالِهِ ٱلذَّاتِيَّةِ وَفِي اَحْوَالِهِ ٱلْعَرَضِيَّةِ وَثَلَاثَةٌ مِنْهَا بِٱلتَّرْكِيبِ وَهِيَ ٱلَّتِي فِي نَفْسِ ٱلتَّرْكِيبِ وَتَفْصِيلِ ٱلْمُرَكَّبِ وَتَرْكِيبِ ٱلْمُفَصَّلِ. وَسَبْعَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ. اَرْبَعَةٌ مِنْهَا بِاِعْتِبَارِ ٱلْقَضَايَا ٱلْمُرَكَّبَةِ وَهِيَ سُوءُ ٱلتَّاْلِيفِ وَٱلْمُصَادَرَةُ عَلَى ٱلْمَطْلُوبِ وَوَضْعُ مَا لَيْسَ بِعِلَّةٍ عِلَّةً وَجَمْعُ ٱلْمَسَائِلِ فِي مَسْئَلَةٍ وَاحِدَةٍ. وَثَلَاثَةٌ بِاِعْتِبَارِ ٱلْقَضِيَّةِ ٱلْوَاحِدَةِ وَهِيَ اِبْهَامُ ٱلْعَكْسِ وَاَخْذُ مَا بِٱلْعَرَضِ مَكَانَ مَا بِٱلذَّاتِ وَسُوءُ اِعْتِبَارِ ٱلْحَمْلِ. فَهٰذِهِ هِيَ ٱلْاَجْزَاءُ

ٱلذَّاتِيَّةُ ٱلصِّنَاعِيَّةُ لِصِنَاعَةِ ٱلْمُغَالَطَةِ. وَأَمَّا ٱلْخَارِجِيَّاتُ فَمَا يَقْتَضِي ٱلْمُغَالَطَةَ بِٱلْعَرَضِ كَٱلتَّشْنِيعِ عَلَى ٱلْمُخَاطَبِ وَسَوْقِ كَلَامِهِ إِلَى ٱلْكَذِبِ بِزِيَادَةٍ اَوْ تَأْوِيلٍ وَإِيرَادِ مَا يُحَيِّرُهُ اَوْ يُجْبِنُهُ مِنْ إِغْلَاقِ ٱلْعِبَارَةِ اَوِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي اَنَّ ٱلْمَعْنَى دَقِيقٌ اَوْ مَا يَمْنَعُهُ مِنَ ٱلْفَهْمِ كَٱلْخَلْطِ بِٱلْحَشْوِ وَٱلْهَذَيَانِ ٱلتَّكْرَارِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا ٱشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ ٱلشِّفَاءِ وَغَيْرُهُ مِنَ ٱلْمُطَوَّلَاتِ

البحث الخامس

في مقاطيع الكلام

(من كتاب الصناعتين لابن هلال العسكري)

(راجع الصفحة ١٢٥ من علم الخطابة)

قَالَ ٱلْمَأْمُونُ لِبَعْضِهِمْ: مَنْ اَبْلَغُ ٱلنَّاسِ قَالَ مَنْ قَرَّبَ ٱلْاَمْرَ ٱلْبَعِيدَ وَٱلْتَمَسَ ٱلصَّعْبَ ٱلدَّرَكِ بِٱلْاَلْفَاظِ ٱلْيَسِيرَةِ. قَالَ: مَا عَدَلَ سَهْمُكَ عَنِ ٱلْغَرَضِ وَلٰكِنَّ ٱلْبَلِيغَ مَنْ كَانَ كَلَامُهُ فِي مِقْدَارِ حَاجَتِهِ لَا يُحِيلُ ٱلْفِكْرَةَ فِي ٱخْتِلَاسِ مَا صَعُبَ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ وَلَا يُكْرِهُ ٱلْمَعَانِيَ عَلَى إِثْرَالِهَا فِي غَيْرِ مَنْزِلِهَا وَلَا يَتَعَمَّدُ ٱلْغَرِيبَ ٱلْوَحْشِيَّ وَلَا ٱلسَّاقِطَ ٱلسُّوقِيَّ فَإِنَّ ٱلْبَلَاغَةَ إِذَا ٱعْتَزَلَتْهَا ٱلْمَعْرِفَةُ بِمَوَاضِعِ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ كَانَتْ كَٱللَّالِئِ بِهَا نِظَامٌ. وَقَالَ اَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلسَّفَّاحُ لِكَاتِبِهِ: قِفْ عِنْدَ مَقَاطِعِ ٱلْكَلَامِ وَحُدُودِهِ وَإِيَّاكَ اَنْ تُخَالِطَ ٱلْمَرْعِيَّ بِٱلْمُهْمَلِ. وَمِنْ حِلْيَةِ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلْمَعْرِفَةُ

بِمَرَاضِعِ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ. وَقَالَ ٱلْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا تَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ ٱلْوُقُوفَ عِنْدَ مَقَاطِعِ ٱلْكَلَامِ وَلَا عَرَفَ حُدُودَهُ إِلَّا عَمْرُو بْنُ ٱلْعَاصِ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ تَفَقَّدَ مَقَاطِعَ ٱلْكَلَامِ وَأَعْطَى حَقَّ ٱلْمَقَامِ وَغَاصَ فِي ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْمَعَانِي بِأَلْطَفِ مَخْرَجٍ حَتَّى كَانَ يَقِفُ عِنْدَ ٱلْمَقَاطِعِ وُقُوفًا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَبْتَغِيهِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَكَانَ كَثِيرًا مَا يُنْشِدُ :

إِذَا مَا بَدَا بَيْنَ ٱلْمَنَابِرِ قَائِلًا ... أَصَابَ بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ ٱلْمَفَاصِلَا

وَلَا أَعْرِفُ فَصْلًا فِي كَلَامٍ مَنْثُورٍ أَحْسَنَ مِمَّا أُخْبِرَ عَنْ شَبِيبِ ٱبْنِ شُبَّةَ فَإِنَّهُ إِذْ كَانَ يَوْمًا قَاعِدًا بِبَابِ ٱلْمَهْدِيِّ أَقْبَلَ عَبْدُ ٱلصَّمَدِ بْنُ ٱلْفَضْلِ ٱلرَّقَاشِيُّ فَلَمَّا رَآهُ شَبِيبٌ قَالَ : أَتَاكُمْ وَٱللّٰهِ كَلِيمُ ٱلنَّاسِ فَلَمَّا جَلَسَ قَالَ لَهُ شَبِيبٌ: تَكَلَّمْ يَا أَبَا ٱلْعَبَّاسِ. فَقَالَ : أَمَعَكَ يَا أَبَا مَعْمَرٍ وَأَنْتَ خَطِيبُنَا وَسَيِّدُنَا. قَالَ : نَعَمْ فَوَٱللّٰهِ مَا رَأَيْتُ قَلْبًا أَقْرَبَ مِنْ لِسَانٍ مِنْ قَلْبِكَ مِنْ لِسَانِكَ. فَقَالَ أَيَّ شَيْءٍ تُحِبُّ أَنْ أَتَكَلَّمَ. (قَالَ) وَإِذَا شَيْخٌ مَعَهُ عَصًا يَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا فَقَالَ شَبِيبٌ: صِفْ هٰذِهِ ٱلْعَصَا. فَحَمِدَ ٱللّٰهَ عَزَّ وَجَلَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ ذَكَرَ ٱلسَّمَاءَ فَقَالَ: رَفَعَهَا ٱللّٰهُ بِغَيْرِ عَمَدٍ وَجَعَلَ فِيهَا نُجُومَ رَجْمٍ وَنُجُومَ ٱهْتِدَاءٍ وَأَدَارَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَأَنْزَلَ مِنْهَا مَاءً مُبَارَكًا أَحْيَا بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلضَّرْعَ وَأَدَرَّ بِهِ ٱلْأَقْوَاتَ وَحَفِظَ بِهِ ٱلْأَرْوَاحَ وَأَنْبَتَ بِهِ أَنْوَاعًا مُخْتَلِفَةً يَصْرِفُهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ تَكُونُ حَبَّةَ ثَمَرٍ يَجْعَلُهَا عِرْقًا ثُمَّ يُقِيمُهَا عَلَى سَاقٍ. فَبَيْنَا تَرَاهَا خَضْرَاءَ تَرِفَةً إِذْ

صَارَتْ يَابِسَةً تَتَقَصَّفُ بِهَا ٱلْعِبَادُ وَيُعْمَرُ بِهَا ٱلْبِلَادُ وَجَعَلَ مِنْ نَسْلِهَا هٰذِهِ ٱلْعِصَاهِ (ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ٱلشَّيْخِ فَقَالَ) : فَكَانَ هٰذَا أَوْجَدَهُ ٱللهُ بَعْدَ عَدَمٍ وَأَنْشَأَهُ أَمْرَدَ وَشَابًّا وَبَعْدَهُ مُكْتَهِلًا ثُمَّ شَيْخًا حَتَّى صَارَ إِلَى هٰذِهِ ٱلْحَالِ مِنَ ٱلْكِبَرِ فَٱحْتَاجَ فِي آخِرِ حَالَاتِهِ إِلَى هٰذِهِ ٱلْعِصَا فَتَبَارَكَ ٱللهُ ٱلْمُدَبِّرُ لِلْعِبَادِ. قَالَ شَبِيبُ بْنُ شُبَّةَ : فَمَا سَمِعْتُ كَلَامًا عَلَى يَدَيْهِ أَحْسَنَ مِنْهُ. وَلَمَّا أَقَامَ أَبُو جَعْفَرٍ صَالِحًا خَطِيبًا بِحَضْرَةِ شَبِيبِ بْنِ شُبَّةَ وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ فَتَكَلَّمَ أَقْبَلَ شَبِيبٌ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَا رَأَيْتُ كَٱلْيَوْمِ أَبْيَنَ بَيَانًا وَلَا أَرْبَطَ جَنَانًا وَلَا أَفْصَحَ لِسَانًا وَلَا أَبْلَ رِيقَةً وَلَا أَغْمَضَ عُرُوقًا وَلَا أَحْسَنَ طَرِيقًا إِلَّا أَنَّ ٱلْجَوَادَ عَسِيرٌ لَمْ يُرَضْ فَحَمَلَتْهُ ٱلْقُوَّةُ عَلَى تَعَسُّفِ ٱلْآكَامِ وَخَبْطِهَا وَتَرْكِ ٱلطَّرِيقِ ٱلْأَحَبِّ وَأَيْمُ ٱللهِ إِنْ لَوْ عَرَفَ فِي خُطْبَتِهِ مَقَاطِعَ ٱلْكَلَامِ لَكَانَ أَفْصَحَ مَنْ نَطَقَ بِلِسَانٍ. وَقَالَ ٱلْمَأْمُونُ : مَا أُعْجَبُ بِكِتَابِ أَحَدٍ كَإِعْجَابِي بِكِتَابِ ٱلْقَسِمِ بْنِ عِيسَى فَإِنَّهُ فِي غُرَّةِ عُمُرِهِ وَيُصِيبُ مَفَاصِلَ ٱلْكَلَامِ وَلَا تَدْعُوهُ ٱلْمَقْدُرَةُ إِلَى ٱلْإِطْنَابِ وَلَا تَمِيلُ بِهِ ٱلْغَزَارَةُ إِلَى ٱلْإِسْهَابِ يُجْلِي عَنْ مُرَادِهِ فِي كُتُبِهِ وَيُصِيبُ ٱلْمَغْزَى فِي أَلْفَاظِهِ. وَكَانَ يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ يَقُولُ : إِيَّاكُمْ أَنْ تَجْعَلُوا ٱلْفَصْلَ وَصْلًا فَإِنَّهُ أَشَدُّ وَأَعْجَبُ وَأَعْيَبُ مِنَ ٱلْلَحْنِ. وَلْيَكُنِ ٱلتَّفَقُّدُ لِمَقَاطِعِ ٱلْكَلَامِ مِنْكُمْ عَلَى بَالٍ. وَكَانَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ إِذَا كَانَتْ مُلُوكُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ تَسْتَكْتِبُهُ قَالَ لِكَاتِبِهِ : أَفْصِلُوا بَيْنَ مُنْقَضَى فَصْلٍ وَصِلُوا إِذَا كَانَ ٱلْكَلَامُ مَعْجُوتًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ. وَكَانَ

اَلْحَارِثُ بْنُ اَبِي شَمِرَ اَلْغَسَّانِيْ يَقُولُ لِكَاتِبِهِ اَلْمُرَقِّشِ : اِذَا تَرَعَ بِكَ اَلْكَلَامُ اِلَى اَبْتِدَاءِ مَعْنًى غَيْرِ مَا اَنْتَ فِيهِ فَصِلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا تَبْتَغِيهِ مِنَ اَلْاَلْفَاظِ فَاِنَّكَ اِنْ مَذَقْتَ اَلْفَاظَكَ بِغَيْرِ مَا يَحْسُنُ اَنْ تُمْذَقَ بِهِ نَفَرَتِ اَلْقُلُوبُ عَنْ وَعْيِهَا وَمَلَّتْهُ اَلْاَسْمَاعُ وَاسْتَثْقَلَتْهُ اَلرُّوَاةُ. وَكَانَ بَزْرْجُمْهَرَ يَقُولُ : اِذَا مَدَحْتَ رَجُلًا وَهَجَوْتَ آخَرَ فَاجْعَلْ بَيْنَ اَلْقَوْلَيْنِ فَصْلًا حَتَّى تَعْرِفَ اَلْمَدْحَ مِنَ اَلْهِجَاءِ كَمَا تَفْعَلُ فِي كُتُبِكَ اِذَا اسْتَأْنَفْتَ اَلْقَوْلَ وَاَكْمَلْتَ مَا سَلَفَ مِنَ اَللَّفْظِ. وَقَالَ اَلْحَسَنُ بْنُ سَهْلٍ لِكَاتِبِهِ اَلْحَرَانِيِّ : مَا مَنْزِلَةُ اَلْكَاتِبِ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ. قَالَ : اَنْ يَكُونَ مَطْبُوعًا مُحْتَنِكًا بِاَلتَّجْرِبَةِ سَالِمًا بِخِلَالِ اَلْكِتَابِ وَاَلسُّنَّةِ وَحَرَامِهَا بِاَلدُّهُورِ فِي تَدَاوُلِهَا وَتَصَرُّفِهَا وَبِاَلْمُلُوكِ فِي سِيَرِهَا وَاَيَامِهَا مَعَ بَرَاعَةِ اَللَّفْظِ وَحُسْنِ اَلنَّسَقِ وَتَاْلِيفِ اَلْاَوْصَالِ بِمُشَاكَلَةِ اَلْاِسْتِعَارَةِ وَبِشَرْحِ اَلْمَعْنَى حَتَّى يُنْصِبَ صُوَرَهَا. وَبِمَقَاطِعِ اَلْكَلَامِ وَمَعْرِفَةِ اَلْفَصْلِ مِنَ اَلْوَصْلِ وَاِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَهُوَ كَاتِبٌ مُجِيدٌ. وَقَالَ اَلْمَأْمُونُ : مَا اَتَحَفَّظُ مِنْ رَجُلٍ شَيْئًا كَتَحَفُّظِي عَنِ اَلْفَصْلِ وَاَلْوَصْلِ فِي كِتَابِهِ وَاَلتَّخَلُّصِ مِنَ اَلْمَحْلُولِ اِلَى اَلْمَعْقُودِ وَاِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ جَمَالًا وَحِلْيَةَ اَلْكِتَابِ وَجَمَالَهُ اِيقَاعُ اَلْفَصْلِ وَقْعَهُ وَتَحْذُ اَلْفِكَرِ وَاِجَالَتُهَا فِي لُطْفِ اَلتَّخَلُّصِ مِنَ اَلْمَعْقُودِ اِلَى اَلْمَحْلُولِ. (قُلْنَا) : وَمَعْنَى اَلْمَعْقُودِ وَاَلْمَحْلُولِ هَا هُنَا هُوَ اَنَّكَ اِذَا اَبْتَدَاْتَ مُخَاطَبَةً ثُمَّ لَمْ تَنْتَهِ اِلَى مَوْضِعِ اَلتَّخَلُّصِ فَمَا عَقَدْتَ عَلَيْهِ كَلَامَكَ سُمِّيَ اَلْكَلَامَ مَعْقُودًا. وَاِذَا شَرَحْتَ اَلسُّتُورَ وَاَبَنْتَ عَنِ اَلْغَرَضِ اَلْمَنْزُوعِ اِلَيْهِ

سُمِّيَ ٱلْكَلَامُ مَحْاوَلًا مِثَالُ ذٰلِكَ مَا كَتَبَ بَعْضُهُمْ ٱنْظُرْ سَدَّدَ ٱللّٰهُ رَأْيَكَ اَنْ لَا تَدْعُوَكَ مَقْدَرَتُكَ عَلَى ٱلْكَلَامِ اِلَى اِطَالَةِ ٱلْمَعْقُودِ فَاِنَّ ذٰلِكَ مِنْسَاءُ مَا اَكْنَنْتَهُ فِي صَدْرِكَ وَاَوْرَدتَّ تَضْمِيمُهُ فِي كِتَابِكَ. وَاعْلَمْ اَنَّ اِطَالَةَ ٱلْمَعْقُودِ تُورِثُ نِسْيَانَ مَا عَقَدتَّ عَلَيْهِ كَلَامَكَ وَارْتِهَنْتَ بِهِ فِكْرَتَكَ. وَكَانَ شَبِيبُ بْنُ شُبَّةَ يَقُولُ لَمْ اَرَ مُتَكَلِّمًا قَطُّ اَذْكَرَ لِمَا عَقَدَ عَلَيْهِ كَلَامَهُ وَلَا اَحْفَظَ لِمَا سَلَفَ مِنْ نُطْقِهِ مِنْ خَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ يُشَيِّعُ ٱلْمَعْقُودَ بِٱلْمَعَانِي يَصْعُبُ ٱلْخُرُوجُ مِنْهَا اِلَى غَيْرِهَا ثُمَّ يَأْتِي بِٱلْمَحْاوُلِ وَاضِحًا بَيِّنًا وَمَشْرُوحًا مُنَوَّرًا وَكَانَ ٱلسَّامِعُ لَا يَعْرِفُ مَغْزَاهُ وَمَقْصَدَهُ فِي اَوَّلِ كَلَامِهِ حَتَّى يَصِيرَ اِلَى آخِرِهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَبِئْسَ عَمَلُ مِنَ ٱلْقَائِلِ اَنْ يَكْتُمَ مَغْزَاهُ عَنِ ٱلسَّامِعِ لِكَلَامِهِ فِي اَوَّلِ اِبْتِدَائِهِ حَتَّى يَنْتَهِيَ اِلَى آخِرِهِ بَلِ ٱلْاَحْسَنُ اَنْ يَكُونَ فِي صَدْرِ كَلَامِهِ دَلِيلٌ عَلَى حَاجَتِهِ وَمُبَيِّنٌ لِمَغْزَاهُ وَمَقْصَدِهِ كَمَا اَنَّ اَخْيَرَ اَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِ مَا اِذَا سَمِعْتَ صَدْرَهُ عَرَفْتَ قَافِيَتَهُ. وَكَانَ شَبِيبُ بْنُ شُبَّةَ يَقُولُ: ٱلنَّاسُ مُوكَلُونَ بِتَعْظِيمِ جُودَةِ ٱلْاِبْتِدَاءِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ وَاَنَا مُوَكَّلٌ بِتَعْظِيمِ جُودَةِ ٱلْمَقْطَعِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ وَخَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا وُقِفَ عِنْدَ مَقَاطِعِهِ وَبُيِّنَ مَوْقِعُ فُصُولِهِ

الفصل الثامن

في التعبير

البحث الاوّل

في خواصّ تعبير الخطيب

(من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه)

(راجع الصفحة ١٣٢ من علم الخطابة)

مَرَّ بِشْرُ بْنُ ٱلْمُعْتَمِرِ بِإِبْرَاهِيمَ بْنِ جَبَلَةَ بْنِ مَخْرَمَةَ ٱلسَّكُونِيِّ ٱلْخَطِيبِ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِتْيَانَهُمُ ٱلْخَطَابَةَ فَوَقَفَ بِشْرٌ يَسْتَمِعُ فَظَنَّ إِبْرَاهِيمُ أَنَّهُ إِنَّمَا وَقَفَ لِيَسْتَفِيدَ أَوْ يَكُونَ رَجُلًا مِنَ ٱلنُّظَّارَةِ فَقَالَ بِشْرٌ: ٱضْرِبُوا عَمَّا قَالَ صَفْحًا وَٱطْوُوا عَنْهُ كَشْحًا. ثُمَّ دَفَعَ إِلَيْهِمْ صَحِيفَةً مِنْ تَنْمِيقِهِ وَتَحْبِيرِهِ فِيهَا: خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةَ نَشَاطِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ وَإِجَابَتِهَا إِيَّاكَ فَإِنَّ نَفْسَكَ تِلْكَ ٱلسَّاعَةَ أَكْرَمُ جَوْهَرًا وَأَشْرَفُ حَسَبًا وَأَحْسَنُ فِي ٱلْإِسْتِمَاعِ وَأَحْلَى فِي ٱلصُّدُورِ وَأَسْلَمُ مِنْ فَاحِشِ ٱلْخَطَإِ وَأَجْلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ مِنْ لَفْظٍ شَرِيفٍ وَمَعْنًى بَدِيعٍ. وَٱعْلَمْ أَنَّ ذٰلِكَ أَجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمَكَ ٱلْأَطْوَلُ بِٱلْكَدِّ وَٱلْمُطَاوَلَةِ وَٱلْمُجَاهَدَةِ بِٱلتَّكْلِيفِ وَٱلْمُعَاوَدَةِ. وَمَهْمَا أَخْطَأَكَ

لَمْ يُخْطِئْكَ اَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا قَصْدًا وَخَفِيفًا عَلَى اللِّسَانِ سَهْلًا وَكَمَا خَرَجَ مِنْ يَنْبُوعِهِ وَنَجِمَ مِنْ مَعْدِنِهِ. وَاِيَّاكَ وَالتَّوَعُّرَ فَاِنَّ التَّوَعُّرَ يُسْلِمُكَ اِلَى التَّعْقِيدِ وَالتَّعْقِيدُ هُوَ الَّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيَكَ وَيَشِينُ اَلْفَاظَكَ وَمَنْ اَذَاعَ مَعْنًى كَرِيمًا فَلْيَلْتَمِسْ لَهُ لَفْظًا كَرِيمًا فَاِنَّ حَقَّ اَلْمَعْنَى اَلشَّرِيفِ اَللَّفْظُ اَلشَّرِيفُ وَمِنْ حَقِّهَا اَنْ تَصُونَهَا عَمَّا يُفْسِدُهَا وَيُهَجِّنُهَا وَعَمَّا تَعُودُ مِنْ اَجْلِهِ اِلَى اَنْ تَكُونَ اَسْوَاَ حَالًا مِنْكَ قَبْلَ اَنْ تَلْتَمِسَ اِظْهَارَهَا وَتَرْهَنَ نَفْسَكَ بِلَابَسَتِهَا وَقَضَاءِ حَقِّهَا. فَكُنْ فِي ثَلَاثَةِ مَنَازِلَ فَاَوَّلُ ذٰلِكَ اَنْ يَكُونَ لَفْظُكَ رَشِيقًا عَذْبًا اَوْ فَخْمًا سَهْلًا وَيَكُونَ مَعْنَاكَ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا وَقَرِيبًا مَعْرُوفًا اِمَّا عِنْدَ اَلْخَاصَّةِ اِنْ كُنْتَ لِلْخَاصَّةِ قَصَدْتَ وَاِمَّا عِنْدَ اَلْعَامَّةِ اِنْ كُنْتَ لِلْعَامَّةِ اَرَدْتَ. وَاَلْمَعْنَى لَيْسَ يَتَّضِعُ اَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي اَلْعَامَّةِ. وَاِنَّمَا مَدَارُ اَلْاَمْرِ عَلَى اَلشَّرَفِ مَعَ اَلصَّوَابِ وَاِحْرَازِ اَلْمَنْفَعَةِ مَعَ مُوَافَقَةِ اَلْحَالِ وَمَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ مِنَ اَلْمَقَالِ. وَكَذٰلِكَ اَللَّفْظُ اَلْعَامِّيُّ وَاَلْخَاصِّيُّ فَاِنْ اَمْكَنَكَ اَنْ تَبْلُغَ مِنْ بَيَانِ لِسَانِكَ وَبَلَاغَةِ لَفْظِكَ وَلُطْفِ مَدَاخِلِكَ وَقَدْرِكَ فِي نَفْسِكَ عَلَى اَنْ تُفْهِمَ اَلْعَامَّةَ مَعَانِيَ اَلْخَاصَّةِ وَتَكْسُوَهَا اَلْاَلْفَاظَ اَلْمُتَوَسِّطَةَ اَلَّتِي لَا تَلْطُفُ عَنِ اَلدَّهْمَاءِ وَلَا تَجْفُو عَنِ اَلْاَكْفَاءِ وَاَنْتَ اَلْبَلِيغُ اَلتَّامُّ. فَقَالَ لَهُ اِبْرَاهِيمُ بْنُ جَبَلَةَ جُعِلْتُ فِدَاكَ اَنَا اَحْوَجُ اِلَى تَعَلُّمِي هٰذَا اَلْكَلَامَ مِنْ هٰؤُلَاءِ اَلْغِلْمَةِ

البحث الثاني

في بلاغة كلام العرب وكلام العجم

(من رسالة)

(راجع الصفحة ٢٠٧ من علم الادب)

كُنتُ ذَكَرتُ لَكَ اَسعَدَكَ اللهُ اِكثَارَ النَّاسِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا فِي وَصفِ اَلبَلَاغَةِ وَتَعرِيفِهِم اَلقَولَ فِي اَقسَامِهَا وَاَنوَاعِهَا وَاَنَّهَا اَلفَاظٌ يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ اَلمَعَانِي فَمِنهَا مَا يَكُونُ فِي اَلنَّظمِ وَمِنهَا مَا يَكُونُ فِي اَلنَّثرِ وَيَكُونُ فِي اَلمُكَاتَبَةِ وَالرَّسَائِلِ وَالخُطَبِ وَالتَّشبِيهَاتِ وَالاَوصَافِ وَفِي اَلسُّؤَالِ وَاَلجَوَابِ وَغَيرِ ذَلِكَ. فَاَمَّا بَلَاغَةُ اَلشِّعرِ فَعُذُوبَةُ اَلاَلفَاظِ وَتَقرِيبُ اَلمَعَانِي وَاِتِّسَاقُ اَلنَّظمِ وَرَشَاقَةُ اَلمَعرِضِ كَقَولِ اَلنَّابِغَةِ:

فَاِنَّكَ كَاَللَّيلِ اَلَّذِي هُوَ مُدرِكِي وَاِن خِلتُ اَنَّ اَلمُنتَاَى عَنكَ وَاسِعُ

وَقَولِ اَمرِئِ اَلقَيسِ فِي وَصفِ فَرَسِهِ وَالتَّشبِيهِ (بِقَيدِ اَلاَوَابِدِ). وَقَولِ اَلاَعشَى: (فَهُمُ سَاكِنُونَ وَاَلمَنِيَّةُ تَنطِقُ). وَمِنهَا مَا يَكُونُ بِاِصَابَةِ اَلمَعنَى وَقَرعِ اَلحُجَّةِ وَاَلاَصلُ عِندَهُم فِيهَا اَنَّهَا اَلفَاظٌ يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ اَلمَعَانِي فَاَحسَنُهَا مَا يَزِيدُ فِي كَشفِ اَلمَعنَى مَعَ اَختِصَارِهِ بِاَقَلِّ مَا يُمكِنُ مِنَ اَلعِبَارَةِ بِاَعذَبِ اَلاَلفَاظِ وَاَحقَهَا عَلَى اَلاَسمَاعِ وَاَقرَبِهَا اِلَى اَلقُلُوبِ ثُمَّ ذَكَرتُ لَكَ اَنَّ اَلبَلَاغَةَ لَيسَت مَقصُورَةً عَلَى اُمَّةٍ دُونَ اُمَّةٍ وَلَا عَلَى مَلِكٍ دُونَ سُوقَةٍ وَلَا عَلَى لِسَانٍ دُونَ

لِسَانٍ بَلْ هِيَ مَقْسُومَةٌ عَلَى اَكْثَرِ اَلْاَلْسُنَةِ فَهُم فِيهَا مُشْتَرِكُونَ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي كَلَامِ اَلْيُونَانِيَّةِ وَكَلَامِ اَلْعَجَمِ وَكَلَامِ اَلْهِنْدِ وَغَيْرِهِمْ وَلٰكِنَّهَا فِي اَلْعَرَبِ اَكْثَرُ لِكَثْرَةِ تَصَرُّفِهَا فِي اَلنَّثْرِ وَالنَّظْمِ وَاَلْخُطَبِ وَاَلْكُتُبِ وَالسَّجْعِ وَاَلْمُزْدَوَجِ وَالرَّجَزِ. وَهُمْ اَيْضًا مُتَفَاوِتُونَ فِيهَا فَقَدْ يَكُونُ اَلْعَبْدُ بَلِيغًا وَلَا يَكُونُ سَيِّدُهُ وَتَكُونُ اَلْاَمَةُ بَلِيغَةً وَلَا تَكُونُ رَبَّتُهَا. فَالْبَلَاغَةُ قَدْ تَكُونُ فِي اَعْرَابِ اَلْبَادِيَةِ دُونَ مُلُوكِهَا وَقَدْ يُحْسِنُهَا اَلصَّبِيُّ وَالْمَرْاَةُ... قَالَ اَلشَّيْخُ اَبُو اَحْمَدَ: وَمِنْ عَجِيبِ مَا فِيهِ وَبُعْدِ تَنَافِيهِ اَنْ يَأْتِيَ بَدَوِيٌّ اُمِّيٌّ جِلْفٌ جَافٍ فَيَبْتَدِعَ بِفِكْرِهِ وَقَرِيحَتِهِ اَلْمَعْنَى اَلْبَدِيعَ وَالتَّشْبِيهَ اَلْمُصِيبَ وَالسُّؤَالَ اَللَّطِيفَ وَالْمَدْحَ اَلشَّرِيفَ وَالْغَزَلَ اَلرَّقِيقَ وَالْهِجَاءَ اَلْمُوجِعَ وَالذَّمَّ اَلْمُلْفِقَ بِنَظْمٍ عَجِيبٍ وَقَوَافٍ مُنْتَظِمَةٍ وَاَوْزَانٍ تَامَّةٍ وَاَقْسَامٍ مُعَدَّلَةٍ وَاَلْفَاظٍ فَصِيحَةٍ عَذْبَةٍ يَشْتَهِي سَامِعُهَا اَنْ يَحْفَظَهَا ثُمَّ يَشْتَهِي اَنْ يُحَادِثَ اَهْلَ اَلْمُرُوَّةِ بِهَا مُتَمَثِّلًا اَوْ شَاكِرًا اَوْ عَاتِبًا اَوْ مُهَنِّئًا اَوْ مُعَزِّيًا فَلَا يَزْدَادُ عَلَى اَلدَّهْرِ اِلَّا نَضَارَةً وَجِدَّةً وَيَكُونُ مَنْ خَلَا مِنْهَا نَاقِصَ اَلْاَدَبِ وَالْمَعْرِفَةِ كَقَوْلِ اِمْرِئِ اَلْقَيْسِ:

كَاَنَّ قُلُوبَ اَلطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا اَلْعُنَّابُ وَالْحَشَفُ اَلْبَالِي

وَكَقَوْلِ اَلنَّابِغَةِ: فَاِنَّكَ كَاللَّيْلِ اَلَّذِي هُوَ مُدْرِكِي. وَكَقَوْلِ اَلْخُطَيْئَةِ: لَا يَذْهَبُ اَلْعُرْفُ بَيْنَ اَللّٰهِ وَالنَّاسِ. ثُمَّ يَجْتَهِدُ اَلْعَارِفُ اَلْمُصِيبُ وَالْعَالِمُ اَلْاَدِيبُ وَالرَّيِّضُ اَلْحَاذِقُ اَنْ يُدْرِكَ شَاْوَهُ فَلَا يُشَقُّ غُبَارُهُ. قَالَ: سُئِلَ بَعْضُ اَلْعُلَمَاءِ عَنْ حَدِّ اَلْبَلَاغَةِ فَقَالَ:

ٱلتَّقَرُّبُ مِنْ مَعْنَى ٱلْبُغْيَةِ وَٱلتَّبَاعُدُ مِنْ حَشْوِ ٱلْكَلَامِ وَٱلدَّلَالَةُ بِقَلِيلٍ عَلَى كَثِيرٍ . قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَأَكْثَرُ مَا عَلَيْهِ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْبَلَاغَةِ أَنَّهَا ٱلْإِخْتِصَارُ وَتَقْرِيبُ ٱلْمَعَانِي بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْقِصَارِ وَٱلْإِقْتِصَارُ عَلَى ٱلْإِشَارَةِ إِلَى مَعَانِيهَا وَٱلدَّلَالَةِ بِٱلْقَلِيلِ عَلَى ٱلْكَثِيرِ . وَقَدْ سُئِلَ بَعْضُهُمْ عَنْ ذٰلِكَ فَقَالَ : لَمْحَةٌ دَالَّةٌ . وَإِلَى هٰذَا ذَهَبَ أَكْثَرُهُمْ فِي ٱلْحَذْفِ وَٱلْإِخْتِصَارِ وَكَذٰلِكَ جَعَلَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ إِحْضَارَ فَرَسِهِ وَسُرْعَةَ لَحَاقِهِ بِٱلصَّيْدِ وَأَنَّ ٱلْأَوَابِدَ لَا تَطْمَعُ فِي ٱلتَّخَلُّصِ مِنْهُ فَجَمَعَ هٰذَا فِي قَوْلِهِ : (قَيْدُ ٱلْأَوَابِدِ) . وَكَذٰلِكَ قَوْلُ زُهَيْرٍ : (إِنَّ ٱلْجَوَادَ عَلَى عِلَّاتِهِ هَرِمُ) . فَفِي قَوْلِهِ (عَلَى عِلَّاتِهِ) مَا يَنُوبُ عَنْ كُلِّ مَا نِعٍ كَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْأَعْشَى : فَهُمْ سَكَنُونَ وَٱلْمَنِيَّةُ تَنْطِقُ وَهٰذَا يَكْثُرُ وَفِي مَا أَوْرَدْنَاهُ بَلَاغٌ . . . . وَلِهٰذَا وَقَّعَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى إِلَى كُتَّابِهِ لِيَكُنْ كَلَامُكُمْ فِي كُتُبِكُمْ وَمِثْلَ ٱلتَّوْقِيعِ يَحُضُّ بِذٰلِكَ عَلَى غَايَةِ ٱلْحَذْفِ وَٱلْإِخْتِصَارِ . وَمِنْ هٰذَا أَنَّ ٱلْمَأْمُونَ أَمَرَ عَمْرَو بْنَ مَسْعَدَةَ أَنْ كَاتِبَ أَنْ يَكْتُبَ لِرَجُلٍ لَهُ بِهِ عِنَايَةٌ إِلَى بَعْضِ ٱلْعُمَّالِ بِقَضَاءِ حَقِّهِ وَأَنْ يَخْتَصِرَ كِتَابَهُ مَا أَمْكَنَهُ حَتَّى تَكُونَ كِتَابَتُهُ فِي سَطْرٍ وَاحِدٍ بِلَا زِيَادَةٍ فَكَتَبَ عَمْرٌو : كِتَابِي إِلَيْكَ كِتَابُ وَاثِقٍ بِمَنْ كَتَبَ إِلَيْهِ مَعْنِيٌّ بِمَنْ كَتَبَ لَهُ وَلَنْ يُضَيِّعَ بَيْنَ ٱلثِّقَةِ وَٱلْعِنَايَةِ حَامِلُهُ . وَمِنْ هٰذَا مَا كَتَبَ ٱلْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ إِلَى ٱلْحَجَّاجِ وَقَدْ تَلَكَّأَ عَنْ بَيْعَتِهِ : أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَرَاكَ تُقَدِّمُ رِجْلًا وَتُؤَخِّرُ أُخْرَى فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَٱعْتَمِدْ عَلَى أَيِّهِمَا شِئْتَ وَٱلسَّلَامُ . وَسَأَذْكُرُ فِي هٰذَا

ٱلْمَوْضِعِ صَدْرًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْمُخْتَارَةِ مِنْ غَيْرِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ. ثُمَّ ٱذْكُرْ بَعْدَهُ صَدْرًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْعَرَبِيَّةِ مِمَّا يَصْلُحُ لِلْمُذَاكَرَةِ وَيَبْعَثُ عَلَى ٱلنَّشَاطِ فَإِذَا قَرَأَهَا قَارِئٌ دَلَّتْ عَلَى ٱنْفِسَهَا فِي ٱلْإِيجَازِ وَٱلْحَذْفِ وَٱلْجَمْعِ لِلْمَعَانِي ٱلْكَثِيرَةِ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْقَلِيلَةِ. فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ سُقْرَاطَ: دَلَّ ٱلْجِسْمُ عَلَى صَانِعِهِ. فَجَمَعَ بِثَلَاثِ لَفَظَاتٍ خِفَافٍ مَعَانِيَ كَثِيرَةً جَلِيلَةَ ٱلْقَدْرِ لِأَنَّ ٱلْجِسْمَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَصْنَعْ نَفْسَهُ وَأَنَّ لَهُ صَانِعًا حَكِيمًا كَمَا يَدُلُّ ٱلْبِنَاءُ عَلَى ٱلْبَانِي وَٱلْكِتَابُ عَلَى ٱلْكَاتِبِ. فَٱنْظُرْ كَمْ بَيْنَ هٰذَا وَبَيْنَ مَا يُحْكَى عَنْ بَعْضِ مُلُوكِهِمْ أَنَّهُ سُئِلَ مَا ٱلَّذِي يَدُلُّ عَلَى مَعْرِفَةِ ٱللهِ وَيُثْبِتُ ٱلْعِلْمَ بِٱلْغَيْبِ فَقَالَ: إِنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ عِلْمًا فَهُوَ يَعْرِفُهُ وَيَحُوطُهُ فَمَنْ كَانَ مُعْتَبِرًا بِٱلْجَلِيلِ مِنْ ذٰلِكَ فَلْيَنْظُرْ إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَيَعْلَمَ أَنَّ لَهَا بَارِئًا يُجْرِي فَلَكَهَا وَيُدَبِّرُ أَمْرَهَا. وَمَنِ ٱعْتَبَرَ بِٱلصَّغِيرِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى حَبَّةِ ٱلْخَرْدَلِ فَيَعْلَمَ أَنَّ لَهَا مُدَبِّرًا يُنْشِئُهَا وَيُرَكِّبُهَا وَيُقَدِّرُ لَهَا أَقْوَاتًا مِنَ ٱلْأَرْضِ وَٱلْمَاءِ وَيُوَقِّتُ لَهَا زَمَانًا لِهَشِيمِهَا. وَأَمْرُ ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلْآيَاتِ وَمَا يَحْدُثُ فِي أَنْفُسِ ٱلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ يَعْلَمُونَ ثُمَّ ٱجْتِمَاعُ ٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْجُهَّالِ وَٱلْمُهْتَدِينَ وَٱلضُّلَّالِ عَلَى ذِكْرِ ٱللهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمِهِ وَٱجْتِمَاعُ مَنْ شَكَّ فِي ٱللهِ وَكَذَّبَ بِهِ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يُحْدِثُوا أَنْفُسَهُمْ فَكُلُّ ذٰلِكَ يَهْدِيكَ إِلَى ٱللهِ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَنْشَأَ ٱلْخَلْقَ وَدَبَّرَ هٰذِهِ ٱلْأُمُورَ. (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَهٰذَا ٱلْكَلَامُ عَلَى طُولِهِ قَدِ ٱنْتَظَمَ أَكْثَرَ مَعَانِيهِ فِي قَوْلِ سُقْرَاطَ: دَلَّ ٱلْجِسْمُ عَلَى صَانِعِهِ. (وَقَالَ ٱلْإِسْكَنْدَرُ) وَعَظَكَ

فِكْرُكَ وَارْشَدَكَ عَقْلُكَ حِينَ حَيَّرَكَ سَمْعُكَ وَغَشَّكَ مُخْبِرُكَ وَانَّ الْانْسَانَ بِاخْتِلَافِ الْمَسْمُوعِ يَتَحَيَّرُ وَيَضِلُّ بِغِشِّ الْمُخْبِرِينَ وَيَسُومُهُمْ فِي مَا يُخْبِرُونَ بِهِ فَيُمَيِّزُ لَهُ عَقْلُهُ الصَّوَابَ مِنَ الْخَطَإِ وَيُرْشِدُهُ اِلَى الْحَقَائِقِ وَيُخْرِجُهُ مِنَ الْحَيْرَةِ. وَقَالَ مُطَلِّبُ الْعُرَانِيُّ لِلْاِسْكَنْدَرِ: اَخْلَاقُكَ تَجْعَلُ الْعَدُوَّ صَدِيقًا وَاحْكَامُكَ تَجْعَلُ الصَّدِيقَ عَدُوًّا وَيَشْهَدُ لَكَ عَدَمُ مِثْلِكَ فِي مَا يَكُونُ. (قَالَ الشَّيْخُ) فَانْظُرِ الْآنَ كَمْ مَعْنًى حَسَنٍ تَحْتَ هٰذِهِ الْاَلْفَاظِ الْقَلِيلَةِ يَعْنِي اَنَّ حُسْنَ خُلُقِهِ يَرُدُّ عَدُوَّهُ اِلَى صَدَاقَتِهِ وَاَنَّ عَدْلَ حُكْمِهِ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ عَدُوٍّ وَصَدِيقٍ وَاَنَّ عَدَمَ مِثْلِهِ فِي مَاضِي الدُّهُورِ قَدْ شَهِدَ بِاَنَّ مِثْلَهُ لَا يَكُونُ فِي مُسْتَقْبَلِ الْعُصُورِ. وَهٰذَا كَلَامٌ مَنْقُولٌ اِلَى الْعَرَبِيَّةِ وَلَعَلَّهُ بِاُغَتِهِ كَانَ اَفْصَحَ وَاَحْسَنَ. وَلَمَّا شَاوَرَ اَبُو مُسْلِمٍ بَعْضَ الْفُرْسِ فِي اَمْرِهِ قَالَ لَهُ: قُلْ مَا يُقْبَلُ وَخُذْ مَا يَسْهُلُ وَاعْمَلْ مَا يَجْمُلُ. فَجَمَعَ لَهُ بِهٰذِهِ الْكَلِمَاتِ الثَّلَاثِ اَكْثَرَ مَعَانِي السِّيَاسَةِ. وَفِي مَا يُرْوَى اَنَّ بَعْضَهُمْ رَاَى شَابًّا لَا اَدَبَ لَهُ وَعَلَيْهِ خَاتَمُ ذَهَبٍ فَقَالَ: حِمَارٌ عَلَيْهِ لِجَامُ ذَهَبٍ. وَنَظَرَ اِلَى شَابٍّ اَحْمَقَ قَاعِدًا عَلَى حَجَرٍ. فَقَالَ: هٰذَا حَجَرٌ قَاعِدٌ عَلَى حَجَرٍ. وَقَالَ اَرِسْطَاطَالِيسُ: اَلْحَاجَةُ اِلَى الْعَقْلِ اَقْبَحُ مِنَ الْحَاجَةِ اِلَى الْمَالِ. وَقَالَ: غَيْرُ مُحِبِّ الشَّرَفِ هُوَ الَّذِي يَتْعَبُ نَفْسَهُ بِالنَّظَرِ فِي الْعِلْمِ. وَقَالَ سُقْرَاطُ: اَللَّذَّةُ خِنَاقٌ مِنْ عَسَلٍ. وَرَاَى سُقْرَاطُ طَبِيبًا جَاهِلًا فَقَالَ: هٰذَا مُسْتَحِثٌّ. يَعْنِي يُعَجِّلُ بِمَنْ يُعَالِجُ اِلَى الْمَوْتِ. وَقِيلَ لِبَعْضِ تَلَامِذَتِهِ: قَدْ مَاتَ اُسْتَاذُكَ. فَقَالَ: اَلْوَيْحُ لِي

لَقَدْ ضَاعَ مِسَنُّ عَقْلِي

(قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَهٰذَا ٱكْثَرُ مِنْ اَنْ يُحْصَى فِي كَلَامِ ٱلْعَجَم وَلَاسِيَّما فِي عُلَمَائِهِمْ وَوُزَرَائِهِمْ ٱلَّذِينَ ٱخْرَجُوا كَلَامَهُمْ مُخْرَجَ ٱلتَّوْقِيعِ. فَمِنْ ذٰلِكَ مَا يُحْكَى اَنَّ اَنُوشِرْوَانَ وَقَعَ فِي وِلَايَةِ ٱلْخَرَاجِ: ٱلْخَرَاجُ عَمُودُ ٱلْمُلْكِ وَمَا ٱسْتُنْزِرَ بِمِثْلِ ٱلْجَوْرِ وَلَا ٱسْتُغْزِرَ بِمِثْلِ ٱلْعَدْلِ. وَوَقَّعَ اَيْضًا فِي رُقْعَةِ رَجُلٍ وَكِيلٍ لَهُ اَمَرَهُ بِبِنَاءِ قَصْرٍ مُخَاطِرًا: اَنْتَ مَاشٍ وَٱلْاَيَّامُ رَاكِضَةٌ وَٱلْعَمَلُ بَاعٌ وَٱلْعِنَايَةُ فِتْرٌ. (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَاَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِ كَثُرَتْ اَمْثَالَ ٱلْعَرَبِ وَزَادَتْ عَلَى اَمْثَالِ سَائِرِ ٱلْاُمَمِ وَاِنْ كَانَ فِي غَيْرِ ٱلْعَرَبِ ٱلشِّعْرُ اَيْضًا عَلَى قَدِيمِ ٱلْوَقْتِ فَلِلْفُرْسِ اَشْعَارٌ لَا تُضْبَطُ كَثْرَةً وَلِلْيُونَانِيِّينَ اَشْعَارٌ دُونَ ٱلْفُرْسِ. وَكَانَ اَفْلَاطُونُ بَعْضَ مَنْ يَقُولُ ٱلشِّعْرَ وَيَقُولُ فِي ذَمِّهِ: اِنَّ ٱلشَّاعِرَ مُصَوِّرٌ لِلسَّمْعِ وَٱلْمُزَوِّقُ مُصَوِّرٌ لِلْبَصَرِ. فَاَمَّا ٱلْفُرْسُ فَفِي مَنْثُورِ اَخْبَارِهِمْ وَذِكْرِ حُرُوبِهِمْ اَشْعَارٌ كَانَتْ تُدَوَّنُ وَتُخَلَّدُ فِي ٱلْخَزَائِنِ ٱلَّتِي كَانَتْ بُيُوتَ ٱلْحِكْمَةِ ثُمَّ دَرَسَ اَكْثَرُهَا مَعَ دَرْسِ كَلَامِهِمْ وَبَقِيَ مِنْ اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ ٱلسَّوَائِرِ مِنَ ٱلْاَمْثَالِ تَجْرِي عَلَى اَفْوَاهِ اَهْلِ زَمَانِهِمْ. وَحَكَى اَبُو حَاتِمٍ عَنْ اَبِي عُبَيْدَةَ اَنَّهُ اَوْصَلَ اِلَى اَحْمَدَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ سَهْلٍ ٱلْبَاهِلِيِّ اَرْبَعَةَ عَشَرَ اَلْفَ مَثَلٍ عَرَبِيٍّ بَعْضُهَا فِي ٱلْجُلُودِ وَبَعْضُهَا فِي ٱلْقُطْنِيِّ وَبَعْضُهَا فِي ٱلْقَرَاطِيسِ فَتَفَرَّدَتِ ٱلْعَرَبُ مِنْ بَيْنِ ٱلْاُمَمِ بِكَثْرَةِ ٱلْاَمْثَالِ... وَمِنْ تَوْقِيعَاتِ ٱلْعَجَمِ تَوْقِيعُ اَرْدَشِيرَ بْنِ بَابَكَ وَكَانَ اَهْلُ زَمَانِهِ تَحَطُّوا فَرَفَعُوا اِلَيْهِ قِصَّةً يَشْكُونَ ذٰلِكَ فَوَقَّعَ

الى صاحب بيت المال : اذا قحط المطر جادت سحائب الملك . ففرق فيهم ما قاتهم ومانهم . وشكي مثل ذلك الى قباذ بن كسرى فوقع ليكن بنا البر للرعية والاحسان اليهم فاني واياهم في نفع ذلك مستوون . ومدح رجل من الخاصة كسرى بن قباذ بمدح اطنب فيه واسهب وذهب كل مذهب وكان المدح في رقعة . فوقع فيها كسرى اني للمدح مستصغر لعلمي باشياء قد مدحت وكانت بان تذم محقوقة . ووقع انوشروان في رقعة مشتصح : ثمرات النصائح شكر الجوارح وخرج التوقيع الى وزير له امر له بجائزة واثنى عليه وقال : قد جمعنا الى شكر اللسان شكر اليد وهو البذل . ووقع كسرى في رقعة رجل سأله فيها النقلة عن صناعته الى صناعة غيرها وكانت صناعته خسيسة فاختار صناعة رفيعة فوقع في رقعته : انا حامل للرعية على لزوم مناقبهم وصنائعهم ولنفسي على ما يحمل على اللزوم لها

ومن حد البلاغة جمع المعاني الكثيرة في الالفاظ اليسيرة فقد سئل خلف الاحمر فقيل له : ما لنا نرى في الكلام القليل عدة معان . فقال : ان كلام العرب اوعية والمعاني امتعة فربما جعلت ضروب من الامتعة في وعاء واحد . . . وحكي عن جعفر ابن يحيى وكان قريع دهره بلاغة في المكاتبة وجودة لسان في المخاطبة انه قال : اذا كان الايجاز كافيا كان التطويل عيا وان كان التطويل واجبا كان التقصير عجزا . وحكى المفضل قال : قلت

لِأَعْرَابِي: مَا ٱلْبَلَاغَةُ. فَقَالَ: ٱلْإِيجَازُ مِنْ غَيْرِ عَجْزٍ وَٱلْإِطْنَابُ فِي غَيْرِ خَطَلٍ. وَوَصَفَ ٱلْجَاحِظُ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ فَقَالَ: كَانَ لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَسْتَدْعِي مَعْنًى مِنْ بُعْدٍ. قَالُوا: وَٱلْبَلِيغُ ٱلْكَامِلُ هُوَ ٱلَّذِي تَكُونُ ٱلْأَلْفَاظُ عِنْدَهُ عَزِيزَةً وَٱلْمَعَانِي فِي نَفْسِهِ جَمَّةً كَثِيرَةً. وَقَالُوا: وَمَحْصُولُ ٱلْبَلَاغَةِ أَنَّ لَهَا ثَلَاثَ حَالَاتٍ: حَالًا يَحْتَاجُ إِلَى ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْمَعَانِي مِنْ أَجْلِهَا. وَحَالًا يَحْتَاجُ إِلَى ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْأَلْفَاظِ. وَحَالًا مُرَكَّبَةً مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي وَهِيَ ذَاتُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّ بِٱسْمِهَا. وَلِلْبَلَاغَةِ ثَلَاثَةُ مَذَاهِبَ تُقْصَدُ فِي ٱسْتِعْمَالِهَا. أَحَدُهَا ٱلْمُسَاوَاةُ وَهِيَ أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ كَٱلْقَالَبِ لِلْمَعْنَى لَا يَفْضُلُ عَنْهُ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ. وَٱلثَّانِي ٱلْإِشَارَةُ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ مُشَارًا بِهِ إِلَى ٱلْمَعْنَى بِٱللَّمْحَةِ ٱلدَّالَّةِ. وَٱلثَّالِثُ ٱلتَّبْدِيلُ وَهُوَ إِعَادَةُ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَرَادِفَةِ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْوَاحِدِ بِعَيْنِهِ حَتَّى يَظْهَرَ لِمَنْ لَمْ يَفْهَمْهُ وَيَتَوَكَّدَ عِنْدَ مَنْ فَهِمَهُ. وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَذَاهِبِ مَوْطِنٌ يَلِيقُ بِهِ وَوَقْتٌ لَا يَصْلُحُ فِيهِ غَيْرُهُ وَسَأَذْكُرُ هٰهُنَا صَدَدًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْقِصَارِ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّا يَتَضَمَّنُ ٱلْفِقَرَ ٱلْمُخْتَارَةَ وَٱلْمَعَانِيَ ٱلْمَجْمُوعَةَ بِٱللَّفْظِ فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ: قِيمَةُ كُلِّ ٱمْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ. وَكَقَوْلِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ سِتُّ كَلِمَاتٍ مَا سَبَقَهُ إِلَيْهَا أَحَدٌ نُوزِنُ كُلَّ كَلِمَةٍ مِنْهَا بِأَلْفِ كَلِمَةٍ وَرَوَاهَا عَنْهُ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَمِنَ ٱلْأُدَبَاءِ وَهِيَ: ٱلْأُولَى قَوْلُهُ: قِيمَةُ كُلِّ ٱمْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ. ٱلثَّانِيَةُ: ٱلنَّاسُ أَعْدَاءُ لِمَا جَهِلُوا. ٱلثَّالِثَةُ: لِسَانُكَ يَقْتَضِيكَ مَا عَوَّدْتَهُ.

اَلرَّابِعَةُ : رَحِمَ اللهُ اَمْرَءًا عَرَفَ قَدْرَهُ . اَلْخَامِسَةُ : لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ . اَلسَّادِسَةُ : اَلْمَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ . وَمِنْهَا قَوْلُهُمْ اَلشِّعْرُ مِيزَانُ اَلْقَوْمِ وَالْعَرُوضُ مِيزَانُ اَلشِّعْرِ . وَقَوْلُ عُمَرَ : هَاجِرُوا وَلَا تَفْجُرُوا وَاَلسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ . وَقَوْلُهُمْ : اَلسَّعِيدُ مَنْ كُفِيَ . وَقَوْلُهُمْ : اِيَّاكَ وَمَا تَعْتَذِرُ مِنْهُ . وَقَوْلُهُمْ : رُبَّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ . رُبَّ مَلُومٍ غَيْرُ مُلِيمٍ . رُبَّمَا قَتَلَ اَلْبَلِيغَ لِسَانُهُ . اَلْعُيُونُ عُنْوَانُ اَلْقُلُوبِ . اَلْقُلُوبُ اَبْصَرُ مِنَ اَلْعُيُونِ . مَنْ ضَاقَ قَلْبُهُ اَتَّسَعَ لِسَانُهُ . وَقَوْلُ اَلْاَعْرَابِيِّ وَقَدْ سَاَلَهُ بَعْضُهُمْ عَنْ حُضْرِ فَرَسِهِ فَقَالَ : يُحْضِرُ مَا وَجَدَ اَرْضًا . وَقَالَ آخَرُ : يَسْبِقُ اَلطَّرْفَ وَيَسْتَغْرِقُ اَلْوَصْفَ . عُوجُ اَللِّسَانِ طَوْعُ اَلْعَنَانِ كَاَنَّهُ مَوْجٌ يُمُورُ اَوْ سَيْلٌ فِي حُدُورٍ . وَقَوْلُهُمْ : اَلْفِكْرَةُ مُخُّ اَلْعَمَلِ . وَقِيلَ لِاَعْرَابِيٍّ اِنَّكَ لَتُحْسِنُ اَلْكُدْيَةَ . فَقَالَ : ذَاكَ عُنْوَانُ نِعْمَةِ اَللهِ عِنْدِي . وَقَوْلُهُمْ : حَسْبُكَ مِنْ شَرٍّ اَسْتِمَاعُهُ . دَلَّ اَلشَّرُّ عَلَى نَفْسِهِ . اَلْبَادِئُ اَظْلَمُ . حِفْظُ اَلْمَوْجُودِ اَيْسَرُ مِنْ طَلَبِ اَلْمَفْقُودِ . مَنْ عَزَّ بَزَّ . سَرَّكَ مِنْ دَمِكَ غُنْمٌ سَالِمٌ . سُئِلَ رَجُلٌ رَكِبَ اَلْبَحْرَ عَنْ اَعْجَبِ مَا رَاَى فَقَالَ : سَلَامَتِي . اَلْمَلَقُ شُكْرُ اَلضَّعِيفِ . اَلصَّدِيقُ يَصْدُقُ وَاَلْعَدُوُّ يَتَمَلَّقُ . اِقْضِ دُيُونَ اَلْاِحْسَانِ اِلَيْكَ بِاَللِّسَانِ قَبْلَ فُقْدِ اَلْاِمْكَانِ . مَنْ وَاكَلَكَ فِي اَلرُّخَاءِ خَذَلَكَ فِي اَلْبَلَاءِ . عَجَبًا لِلْغَيْرِ اَلْمَمْدُوحِ اَلْمَتْرُوكِ وَاَلشَّرِّ اَلْمَذْمُومِ اَلْمَفْعُولِ . مَنْ نَمَّ اِلَيْكَ نَمَّ عَلَيْكَ مَنْ اَسَاءَ اَسْتَوْحَشَ . سَاعَاتُ اَللَّذَّةِ هِيَ سَاعَاتُ اَلْغَفْلَةِ . (قَالَ اَلشَّيْخُ) هٰذَا مِثْلُ قَوْلِ سُقْرَاطَ اَللَّذَّةُ خِنَاقٌ مِنْ عَسَلٍ . عِنْدَ صَفْوِ

ٱلْعَيْشِ يَكْدُرُ. ٱلْمُرِيبُ مُخِيفٌ. ٱلْمَحْبُوبُ مَذْكُورٌ. مَنْ لَكَ بِأَخِيكَ كُلِّهِ. صَدِيقُ ٱلرَّجُلِ عَقْلُهُ وَعَدُوُّهُ جَهْلُهُ. (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَمِثْلُ هٰذَا قَوْلُ ٱرِسْطَاطَالِيسَ فِي مَا يُرَدُّ أَفْلَاطُونَ: إِنْ كَانَ أَفْلَاطُونُ لَنَا صَدِيقًا فَٱلْحَقُّ أَصْدَقُ لَنَا مِنْهُ

وَمِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْكِتَابِيَّةِ مَا كَتَبَ بَعْضُهُمْ: قَلْبِي نَحْيٌ ذِكْرِكَ. وَلِسَانِي خَادِمُ شُكْرِي وَكَتَبَ آخَرُ: فُلَانٌ أَذَلُّ مِنْ شَاهِدِ زُورٍ عِنْدَ مَنْ شَهِدَ لَهُ. وَقَالَ آخَرُ: ٱلِٱسْتِطَالَةُ لِسَانُ ٱلْجَهَالَةِ. وَكَتَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى عَامِلٍ: ٱعْلَمْ أَنَّ ٱلنَّظَرَ إِذَا خَلَفَ لَكَ خَلَفَ مِنْكَ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَقَدْ كَانَ جَرَى ذِكْرُ ٱلْبَلَاغَةِ وَأَنَّ بَعْضَ وُلْدِهِ بَلِيغٌ: إِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ يُطِيلَ لِسَانُهُ. وَقَالَ آخَرُ: فَضْلُ ٱلْفِعَالِ عَلَى ٱلْمَقَالِ مَكْرُمَةٌ وَفَضْلُ ٱلْمَقَالِ عَلَى ٱلْفِعَالِ خَدِيعَةٌ. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ: تَرْكُ ٱلشُّكْرِ كُفْرُ ٱلنِّعْمَةِ. وَقَالَ آخَرُ: ٱلشُّكْرُ نَسِيمُ ٱلنِّعْمَةِ. ٱلْهَيْبَةُ خَيْبَةٌ وَٱلْحَيَاءُ حِرْمَانٌ. ٱلْحِكْمَةُ ضَالَّةُ ٱلْمُؤْمِنِ. وَقَالَ إِسْحَاقُ يَوْمًا لِلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْحَسَنِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ. فَقَالَ: رَائِدُ ذَاكَ مَعِي. قَرَأْتُ فِي فَضْلٍ لِسَعِيدِ بْنِ حُمَيْدٍ: نَحْنُ فِي زَمَانٍ ٱلْمَعْرُوفُ فِيهِ زَلَلٌ وَٱلصَّوَابُ فِيهِ خَطَلٌ وَٱلِٱنْعَامُ مَثَلٌ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ: قَدْ رَخَّصَتِ ٱلضَّرُورَةُ فِي ٱلْإِلْحَاحِ. أَرْجُو أَنْ تُحْسِنَ ٱلنَّظَرَ كَمَا أَحْسَنْتَ ٱلِٱنْتِظَارَ. وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى: لِسَانُ ٱلْحَالِ أَفْصَحُ مِنْ لِسَانِ ٱلشَّكْوَى. وَكَتَبَ آخَرُ: ٱشْكُرْ لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ وَأَنْعِمْ عَلَى مَنْ شَكَرَكَ. وَكَتَبَ آخَرُ: إِذَا كُنْتَ لَا تُؤْتِي مِنْ ضَعْفِ سَبَبٍ فَكَيْفَ أَخَافُ مِنْكَ

خَيْبَةَ اَمَلٍ اَوْ عُدُولًا عَنِ اغْتِفَارِ زَلَلٍ اَوْ فُتُورًا عَنْ لَمِّ شَعَثٍ وَاِصْلَاحِ خَلَلٍ . كَتَبَ آخَرُ : اَنَا اَسْاَلُ الَّذِي رَحِمَ الْعِبَادَ بِكَ عَلَى حِينِ افْتِقَارِهِمْ اِلَيْكَ اَنْ يَرْحَمَهُمْ مِنْ بَعْدِكَ فَلَا يُعِيدَهُمْ اِلَى الْمَكَارِهِ الَّتِي اسْتَنْقَذَهُمْ مِنْهَا بِيَدِكَ . وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ وَهْبٍ لِلْمَأْمُونِ فِي رَجُلٍ مُذْنِبٍ : هَبْهُ لِي . فَقَالَ : كَيْفَ لَا اَهَبُهُ لِمَنْ بِهِ قَدِرْتُ عَلَيْهِ . وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ طَاهِرٍ : اَلْقَلَمُ يُحَرِّكُ وَشْيَ الْمَمْلَكَةِ . وَنَظَرَ اِلَى خَطِّ بَعْضِ كُتَّابِهِ فَلَمْ يَرْضَهُ فَقَالَ : نَحُّوا هٰذَا عَنْ مَرْتَبَةِ الدِّيوَانِ فَاِنَّهُ عَلِيلُ الْخَطِّ وَلَا تَأْمَنُ اَنْ يُعْدِيَ غَيْرَهُ . وَقَالَ اِبْرَاهِيمُ بْنُ الْعَبَّاسِ الصَّوْلِيُّ : اَلْخَطُّ لِسَانُ الْيَدِ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : مَطْلُ الْغَرِيمِ اَحْسَنُ مِنْ مَطْلِ الْكَرِيمِ . وَكَانَ يَحْيَى يَقُولُ : مِنْ حُقُوقِ النُّبْلِ اَنْ تَتَوَاضَعَ لِمَنْ هُوَ دُونَكَ وَتَتَصَدَّقَ عَلَى ضَعِيفِكَ وَتُنْصِفَ مَنْ هُوَ مِثْلُكَ وَتَتَنَبَّلَ عَلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكَ

الفصل التاسع

في اجناس الخطابة الثلاثة

البحث الاول

في تقسيم الخطب الى ثلاثة اجناس

(من كتاب تعريب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع الصفحة ١٣٤ من الجزء الثاني من علم الادب)

قَدْ تُوجَدُ اَجْنَاسُ اَلْاَشْيَاءِ اَلَّتِي تَنْظُرُ فِيهَا اَلْخَطَابَةُ مِنَ اَلْاُمُورِ اَلْاِرَادِيَّةِ ثَلَاثَةً كَمَا يُوجَدُ عَدَدُ اَصْنَافِ اَلسَّامِعِينَ لِلْقَوْلِ اَلْخُطْبِيِّ ثَلَاثَةً. وَذٰلِكَ اَنَّ اَلْكَلَامَ مُرَكَّبٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ قَائِلٍ وَهُوَ اَلْخَطِيبُ وَمِنْ مَقُولٍ فِيهِ وَهُوَ اَلَّذِي يُعْمَلُ فِيهِ اَلْقَوْلُ وَمِنَ اَلَّذِينَ يُوَجَّهُ اِلَيْهِمِ اَلْقَوْلُ وَهُمُ اَلسَّامِعُونَ. وَاَلْغَايَةُ بِالْقَوْلِ اِنَّمَا هِيَ مُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ هٰؤُلَاءِ اَلسَّامِعِينَ. وَاَلسَّامِعُونَ لَا مَحَالَةَ اِمَّا مُنَاظِرٌ وَاِمَّا حَاكِمٌ وَاِمَّا اَلْمَقْصُودُ اِقْنَاعُهُ. وَاَلْحَاكِمُ اِمَّا اَنْ يَكُونَ حَاكِمًا فِي اَلْاُمُورِ اَلْمُسْتَقْبَلَةِ وَهِيَ اَلنَّافِعَةُ وَاَلضَّارَّةُ. وَاِمَّا فِي اَلْاُمُورِ اَلَّتِي قَدْ كَانَتْ. وَاَلْاُمُورِ اَلَّتِي قَدْ كَانَتْ مِنْهَا مَا تُوجَدُ فِي اَلْاِنْسَانِ بِاخْتِيَارِهِ وَتِلْكَ هِيَ اَلْفَضَائِلُ وَاَلرَّذَائِلُ وَمِنْهَا مَا تُوجَدُ فِي اَلْاِنْسَانِ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ بَلْ مِنْ اِنْسَانٍ آخَرَ وَهُوَ اَلْجَوْرُ وَاَلْعَدْلُ. وَاَلْحَاكِمُ فِي اَلْاُمُورِ اَلْمُسْتَقْبَلَةِ هُوَ

ٱلرَّئِيسُ وَٱلْحَاكِمُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْكَائِنَةِ هُوَ ٱلَّذِي يَنْصِبُهُ ٱلرَّئِيسُ (مِثْلُ ٱلْقَاضِي فِي مُدُنِنَا هٰذِهِ وَهِيَ مُدُنُ ٱلْإِسْلَامِ) . وَأَمَّا ٱلْمُنَاظِرُ فَإِنَّمَا يُنَاظِرُ بِقُوَّةِ ٱلْمَلَكَةِ ٱلْخَطِيبَةِ فَإِنَّ أَجْنَاسَ ٱلْقَوْلِ ٱلْخَطِيبِيِّ ثَلَاثَةٌ مَشُورِيٌّ وَمُشَاجَرِيٌّ وَتَثْبِيتِيٌّ

فَأَمَّا ٱلضَّمِيرُ ٱلْمَشُورِيُّ فَمِنْهُ إِذْنٌ وَمِنْهُ مَنْعٌ وَذٰلِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ يُشِيرُ إِمَّا عَلَى وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ بِمَا يَخُصُّهُ أَوْ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ بِمَا يَعُمُّهُمْ فَإِنَّمَا يُشِيرُ أَبَدًا بِقَوْلٍ هُوَ إِذْنٌ أَوْ مَنْعٌ . وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُشَاجَرِيُّ فَهُوَ أَيْضًا صِنْفَانِ شِكَايَةٌ وَتَنَصُّلٌ مِنَ ٱلشِّكَايَةِ . وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلتَّثْبِيتِيُّ فَهُوَ أَيْضًا صِنْفَانِ إِمَّا مَدْحٌ وَإِمَّا ذَمٌّ وَٱلزَّمَانُ ٱلْخَاصُّ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُشَارُ بِهَا هُوَ ٱلزَّمَانُ ٱلْمُسْتَقْبَلُ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُشِيرُ إِنْسَانٌ عَلَى إِنْسَانٍ بِأَشْيَاءَ مَعْدُومَةٍ . وَٱلزَّمَانُ ٱلْخَاصُّ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُشَاجَرِيَّةِ هُوَ ٱلزَّمَانُ ٱلْمَاضِي لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُتَشَكَّى مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قَدْ وَقَعَتْ وَإِنْ تُشُكِّيَ مِنْ أُمُورٍ تُتَوَقَّعُ مِنَ ٱلْمُشْتَكَى بِهِ فَإِنَّمَا تِلْكَ شِكَايَةٌ عَلَى طَرِيقِ ٱلْإِشَارَةِ بِٱلنَّافِعِ فِي ذٰلِكَ . وَكَذٰلِكَ قَدْ يَعْرِضُ أَنْ تَكُونَ ٱلْمَشُورَةُ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قَدْ كَانَتْ لٰكِنْ مِنْ جِهَةِ مَا يُتَوَقَّعُ مِنْهَا فَمَتَى كَانَتِ ٱلشَّكْوَى فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ فَإِنَّمَا تَكُونُ أَبَدًا فِي ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي قَدْ وَقَعَ . وَأَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلتَّثْبِيتِيَّةُ فَإِنَّ أَوْلَى ٱلْأَزْمِنَةِ بِهَا هُوَ ٱلزَّمَانُ ٱلْحَاضِرُ أَعْنِي ٱلْقَرِيبَ مِنَ ٱلْآنِ فَإِنَّ ٱلنَّاسَ إِنَّمَا يُمْدَحُونَ وَيُذَمُّونَ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَوْجُودَةِ فِي حِينِ ٱلْمَدْحِ وَحِينِ ٱلذَّمِّ فِي ٱلْمَمْدُوحِ وَٱلْمَذْمُومِ وَرُبَّمَا

مُدِحَ بَعْضُهُمْ عَلَى طَرِيقِ ٱلْحِيلَةِ فِي ٱسْتِكْثَارِ فَضَائِلِ ٱلْمَمْدُوحِ وَمَذَامِّهِ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُتَوَقَّعُ حُدُوثُهَا مِنْهُ أَوْ يُرْجَى حُدُوثُهَا مِنْهُ فَيَخْلِطُونَ مَعَ ٱلْمَدْحِ ٱلْإِشَارَةَ عَلَى ٱلْمَمْدُوحِ بِفِعْلِ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءِ

البحث الثاني

في غايات الاجناس الخطبية الثلاثة وانواع مقدماتها

(من الكتاب نفسه)

وَأَمَّا ٱلْغَايَاتُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ فَهِيَ ثَلَاثُ غَايَاتٍ لِهٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْأَقَاوِيلِ أَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُشِيرُ فَغَايَتُهُ ٱلنَّافِعُ وَٱلضَّارُّ. فَإِنَّ ٱلَّذِي يُشِيرُ فَإِنَّمَا يَأْذَنُ فِي ٱلنَّافِعِ أَوْ فِي ٱلَّذِي هُوَ أَنْفَعُ وَيَمْنَعُ مِنَ ٱلضَّارِّ أَوْ مِنَ ٱلَّذِي هُوَ أَضَرُّ. وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُشَاجِرِيُّ فَغَايَتُهُ ٱلْعَدْلُ وَٱلْجَوْرُ. وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُثْبِتُ فَغَايَتُهُ ٱلْفَضِيلَةُ وَٱلرَّذِيلَةُ وَإِنِ ٱسْتُعْمِلَ وَاحِدٌ مِنْ هٰذِهِ غَايَةَ صَاحِبِهِ فَلَيْسَ عَلَى ٱلْقَصْدِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ مِنْ أَجْلِ ٱلْغَايَةِ ٱلْخَاصَّةِ بِهِ. مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمُشِيرَ قَدْ يُقْنِعُ أَنَّ هٰذَا عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ لِيُشِيرَ بِٱلْإِذْنِ فِيمَا يَكُونُ عَنِ ٱلْعَدْلِ مِنَ ٱلْمَنْفَعَةِ وَبِٱلْمَنْعِ عَنْ مَا يَكُونُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْجَوْرِ لِمَا فِي ٱلْجَوْرِ مِنَ ٱلْمَضَرَّةِ ٱلَّتِي تُتَوَقَّعُ. وَكَذٰلِكَ قَدْ تُسْتَعْمَلُ ٱلْفَضِيلَةُ وَٱلرَّذِيلَةُ أَعْنِي مِنْ جِهَةِ مَا يَلْحَقُهَا مِنَ ٱلنَّافِعِ وَٱلضَّارِّ. وَإِذَا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتُ ٱلثَّلَاثُ تَخُصُّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا وَاحِدًا مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ أَعْنِي مِنْ جِهَةِ مَا هِيَ غَايَاتٌ عَلَى ٱلْقَصْدِ ٱلْأَوَّلِ فَٱلْحُدُودُ ٱلْمُمَيِّزَةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ

ٱلثَّلَاثَةِ اِنَّمَا تَكُونُ ٱلْفُصُولُ ٱلْمُعْطَاةُ فِيهَا مِنْ قِبَلِ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ .
وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى اَنَّ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ هِيَ خَاصَّةٌ بِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنْ
هٰذِهِ ٱلْاَجْنَاسِ ٱلثَّلَاثَةِ مِنَ ٱلْاَقَاوِيلِ اَنَّهُ اِذَا اَقْنَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا
فِي غَايَةِ ٱلْجِنْسِ ٱلْآخَرِ رُبَّمَا لَمْ يَكُنْ لِلْمُنَاظِرِ فِي ذٰلِكَ مُعَاسَرَةٌ
وَمُشَاكَسَةٌ بَلْ كَثِيرًا مَا يُسَلِّمُ لَهُ ذٰلِكَ وَلٰكِنْ لَا يُسَلِّمُ لَهُ غَايَةَ
ذٰلِكَ ٱلْقَوْلِ ٱلَّتِي تَخُصُّهُ . مِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّ ٱلْمُدَّعِي اِذَا ٱدَّعَى اَنَّ فُلَانًا
اَخَذَ ٱلْمَالَ مِنْ فُلَانٍ وَذٰلِكَ لَا شَكَّ ضَرَرٌ بِهِ فَرُبَّمَا يُسَلِّمُ لَهُ ٱلْخَصْمُ
اَنَّ ذٰلِكَ كَانَ وَلٰكِنْ لَا يُسَلِّمُ لَهُ اَنَّ اَخْذَهُ ٱلْمَالَ مِنْهُ كَانَ عَلَى جِهَةِ
ٱلْجَوْرِ . وَكَذٰلِكَ ٱلْمُشِيرُ قَدْ يُسَلِّمُ اَنَّ ٱلْفِعْلَ ٱلْمُمْكِنَ جَوْرٌ وَلَا
يُسَلِّمُ اَنَّهُ ضَارٌّ وَلِمَكَانِ تَدَاخُلِ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ يَعْرِضُ لِلْمُشِيرِينَ
كَثِيرًا اَنْ يُشِيرُوا بِاَشْيَاءَ ضَارَّةٍ عَلَى جِهَةِ ٱلْمُغَالَطَةِ مِنْ قِبَلِ اَنَّهَا
عَدْلٌ اَوْ اَنَّهَا لَيْسَتْ بِجَوْرٍ وَلٰكِنْ لَا يُقِرُّونَ بِاَنَّهَا ضَارَّةٌ بَلْ رُبَّمَا
ٱحْتَالُوا فِي دَعْوَى وُجُودِ ٱلنَّفْعِ فِيهَا . مِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّهُمْ قَدْ يُشِيرُونَ
بِٱلصَّبْرِ عَلَى ٱلْمَوْتِ فِي ٱلْحَرْبِ وَالَّا يَفِرُّونَ لِكَوْنِ ٱلْفِرَارِ جَوْرًا فِي
ٱلشَّرِيعَةِ . وَكَذٰلِكَ مَتَى قَهَرَ قَوْمٌ قَوْمًا وَٱسْتَوْلَوْا عَلَيْهِمْ رُبَّمَا اَشَارَ
ٱلْمُشِيرُ عَلَيْهِمْ اَلَّا يَتَعَرَّضُوا لِذٰلِكَ ٱلْقَهْرِ لِاَنَّهُ لَمْ يَكُنْ جَوْرًا وَرُبَّمَا اَوْهَمَ
فِيهِ اَنَّهُ غَيْرُ ضَارٍّ لَهُمْ . وَكَذٰلِكَ ٱلْمَادِحُ قَدْ يُسَلِّمُ اَنَّ ٱلشَّيْءَ ضَارٌّ وَلٰكِنْ
يَدَّعِي اَنَّهُ فَضِيلَةٌ مِثْلُ مَنْ يُخَلِّصُ اِنْسَانًا مِنَ ٱلْمَوْتِ وَيَعْلَمُ اَنَّهُ
يَمُوتُ بِتَخْلِيصِهِ ذٰلِكَ ٱلْاِنْسَانَ . فَٱلْمَوْتُ يُسَلِّمُ ٱلْخَصْمُ اَنَّهُ ضَارٌّ
وَلٰكِنْ يَرَى اَنَّهُ فَضِيلَةٌ . وَكَذٰلِكَ رُبَّمَا مَدَحَ بِٱلرَّذِيلَةِ عَلَى جِهَةِ

ٱلْمُغَالَطَةِ مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا نَافِعَةٌ لٰكِنْ لَا يُقِرُّ أَنَّهَا رَذِيلَةٌ بَلْ يَدَّعِي فِيهَا أَنَّهَا فَضِيلَةٌ مَا لِمَكَانِ ٱلنَّفْعِ ٱلَّذِي فِيهَا فَإِذَنْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمُخَاطَبَاتِ قَدْ تَسْتَعْمِلُ غَايَةَ صَاحِبَتِهَا بِٱلْعَرَضِ وَلِذٰلِكَ لَا تُشَاكِسُ فِيهَا وَتُشَاكِسُ وَلَا بُدَّ فِي غَايَتِهَا. وَإِذَا ٱسْتَعْمَلَتِ ٱلْوَاحِدَةُ غَايَةَ صَاحِبَتِهَا فَعَلَى جِهَةِ ٱلْمُغَالَطَةِ. (قَالَ) وَلَمَّا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ قِيَاسِيَّةً فَمَعْلُومٌ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فِيهَا مُقَدِّمَاتٌ وَمُقَدِّمَاتُهَا هِيَ ٱلثَّلَاثُ ٱلَّتِي وَصَفْنَا: ٱلْمَحْمُودَاتُ وَٱلدَّلَائِلُ وَٱلْعَلَامَاتُ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْقِيَاسَ ٱلْمُطْلَقَ يَكُونُ مِنَ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلْمُطْلَقَةِ وَٱلْقِيَاسَ ٱلْخَاصَّ بِصِنَاعَةٍ صِنَاعَةٍ يَكُونُ مِنْ مُقَدِّمَاتٍ خَاصَّةٍ. وَلِذٰلِكَ كَانَ ٱلضَّمِيرُ قِيَاسًا يُؤْتَلَفُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا وَلِأَنَّ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي يُشِيرُ بِهِ يَحْتَاجُ أَنْ يُعْرَفَ مِنْ أَمْرِهِ أَوَّلًا أَنَّهُ مُمْكِنٌ لِأَنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلْغَيْرَ ٱلْمُمْكِنَةِ لَا يُسْتَطَاعُ أَنْ تُفْعَلَ لَا فِي ٱلْحَاضِرِ وَلَا فِي ٱلْمُسْتَقْبَلِ. وَكَذٰلِكَ يَحْتَاجُ فِي ٱلْجِنْسَيْنِ ٱلْبَاقِيَيْنِ مِنْ أَجْنَاسِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَعْنِي إِنْ نُمَيِّزَ أَوَّلًا أَنَّ ٱلْأَمْرَ قَدْ كَانَ وَوَقَعَ أَعْنِي ٱلْجِنْسَ ٱلتَّثْبِيتِيَّ وَٱلْجِنْسَ ٱلْمُشَاجِرِيَّ. فَإِذَنْ لَا بُدَّ لِصَاحِبِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنْ تَكُونَ عِنْدَهُ مُقَدِّمَاتٌ يُقْنِعُ بِهَا فِي أَنَّ ٱلْأَمْرَ مُمْكِنٌ أَوْ غَيْرُ مُمْكِنٍ وَفِي أَنَّهُ قَدْ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ سِوَى ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلَّتِي يُبَيِّنُ بِهَا تِلْكَ ٱلْغَايَاتِ ٱلثَّلَاثَ. ثُمَّ أَيْضًا لَمَّا كَانَ ٱلْخُطَبَاءُ لَيْسَ يَقْتَصِرُونَ عَلَى ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ وَٱلْإِذْنِ وَٱلْمَنْعِ وَٱلشِّكَايَةِ وَٱلِٱعْتِذَارِ بَلْ يَتَكَلَّفُونَ مَعَ هٰذَا أَنْ يُثْبِتُوا أَنَّ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ عَظِيمٌ أَوْ صَغِيرٌ

شَرِيفٌ اَوْ خَسِيسٌ وَلَائِقٌ اَوْ غَيْرُ لَائِقٍ وَذٰلِكَ اِمَّا عَلَى ٱلْاِطْلَاقِ وَاِمَّا بِٱلْمُقَايَسَةِ اَعْنِي اَنَّهُ اَعْظَمُ وَاَشْرَفُ اَوْ بِٱلضِّدِّ فَمَعْلُومٌ اَنَّهُ يَنْبَغِي اَنْ تَكُونَ عِنْدَ ٱلْخُطَبَاءِ مُقَدَّمَاتٌ يُثْبِتُونَ بِهَا اَنَّ ٱلْخَيْرَ اَوِ ٱلشَّرَّ عَظِيمٌ اَوْ صَغِيرٌ وَخَسِيسٌ اَوْ شَرِيفٌ وَلَائِقٌ بِٱلْمَنْسُوبِ اِلَيْهِ اَوْ غَيْرُ لَائِقٍ فَهٰذِهِ هِيَ جَمِيعُ اَنْوَاعِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي تَسْتَعْمِلُهَا هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ

البحث الثالث

في مقدمات الجنس المشوري

(من الكتاب نفسه)

وَاِذْ قَدْ تَبَيَّنَ ذٰلِكَ فَيَنْبَغِي اَنْ نَبْتَدِيءَ بِتَعْدِيدِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي تَخُصُّ غَرَضًا غَرَضًا مِنَ ٱلْاَغْرَاضِ ٱلثَّلَاثَةِ وَنَجْعَلَ ٱلْكَلَامَ اَوَّلًا فِي تَعْدِيدِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمَشُورِيَّةِ ثُمَّ ثَانِيًا فِي ٱلتَّثْبِيتِيَّةِ ثُمَّ ثَالِثًا فِي ٱلْمُشَاجَرِيَّةِ

فَاَوَّلُ مَا يَجِبُ اَنْ نَنْظُرَ فِيهِ مِنْ اَمْرِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُشَارُ بِهَا مَا هُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي يُشَارُ بِهِ فَاِنَّهُ لَيْسَ تَكُونُ ٱلْمَشُورَةُ فِي كُلِّ خَيْرٍ لٰكِنْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي تَسْتَطِيعُ اَنْ تَكُونَ اَوْ اَنْ لَا تَكُونَ فَاَمَّا ٱلْخَيْرَاتُ ٱلَّتِي كَوْنُهَا اَوْ لَا كَوْنُهَا مِنَ ٱلْاِضْطِرَارِ فَلَيْسَ تَكُونُ فِيهَا مَشُورَةٌ وَلَا اَيْضًا ٱلْمَشُورَةُ تَكُونُ فِي جَمِيعِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ. فَاِنَّ هَا هُنَا خَيْرَاتٍ مُمْكِنَةً وُجُودُهَا عَنِ ٱلطَّبِيعَةِ بَلْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ ٱلَّتِي اِلَيْنَا اَنْ تَكُونَ اَوْ اَنْ لَا تَكُونَ وَهِيَ ٱلْاَشْيَاءُ

ٱلَّتِي بَدْءُ كَوْنِهَا مِن قِبَلِ ٱلْاِخْتِيَارِ وَٱلْاِرَادَةِ . وَمِنْ هٰذِهِ فِيمَا كَانَ وُجُودُهُ اَوْ لَا وُجُودُهُ تَابِعًا لِرَوِيَّتِنَا وَاَفْعَالِنَا عَلَى ٱلْاَكْثَرِ وَاَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا يَعْرِضُ عَنِ ٱلرَّوِيَّةِ بِٱلْاِتِّفَاقِ وَاَقَلِّ ذٰلِكَ فَلَيْسَتْ هِيَ فِي ٱلْاَكْثَرِ مِمَّا يُشَارُ بِهَا اِلَّا حَيْثُ لَا يُمْكِنُ اَنْ يُوجَدَ ٱلْجِنْسُ ٱلْاٰخَرُ وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى اَنَّ ٱلْاِشَارَةَ اِنَّمَا تَكُونُ بِهٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ اَنَّ ٱلْاِنْسَانَ اِنَّمَا يَنْظُرُ اَوَّلًا هَلِ ٱلْاَمْرُ ٱلَّذِي يُرِيدُ اَنْ يَفْعَلَهُ مُمْكِنٌ ثُمَّ اِنْ كَانَ مُمْكِنًا بِاَيِّ شَيْءٍ يُمْكِنُ فَاِذَا تَبَيَّنَ لَهُ ذٰلِكَ شَرَعَ فِي ٱلسَّعْيِ فِيهِ وَاِنْ تَبَيَّنَ لَهُ اَنَّهُ غَيْرُ مُمْكِنٍ خَلَّى عَنْهُ . وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي بِهَا نُشِيرُ هِيَ ٱلَّتِي فِيهَا نَرْوِي. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ مَا هُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي نُشِيرُ بِهِ وَفِي اَيِّ ٱلْاَشْيَاءِ يَكُونُ وَٱلْاُمُورُ ٱلْاِرَادِيَّةُ ٱلَّتِي مَبْدَأُ وُجُودِهَا مِنَّا لَا ٱلْاُمُورُ ٱلْاِضْطِرَارِيَّةُ ٱلَّتِي لَيْسَ اِلَيْنَا وُجُودُهَا وَاِعْطَاءُ ٱلْفَرْقِ ٱلتَّامِّ بَيْنَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْاِرَادِيَّةِ وَغَيْرِ ٱلْاِرَادِيَّةِ وَتَصْحِيحُ عَدَدِ اَنْوَاعِهَا وَمَعْرِفَةُ مَاهِيَّةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَلَى اَقْصَى مَا فِي طِبَاعِهَا اَنْ تُعْلَمَ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اَنْ تَبْلُغَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْاِرَادِيَّةِ وَلٰكِنْ ذٰلِكَ مِنْ شَأْنِ صِنَاعَةِ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱلَّتِي لَهَا ٱلْفَضْلُ عَلَى هٰذِهِ فِي ٱلتَّصَوُّرِ وَٱلتَّصْدِيقِ وَٱلْمُقَدَّمَاتُ ٱلْمُسْتَعْمَلَةُ فِيهَا اَصْدَقُ وَاَصَحُّ مِنْ هٰذِهِ . وَذٰلِكَ اَنَّ هُنَا لَسَنَا نَتَكَلَّمُ مِنْ مَعْرِفَةِ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْاَحْوَالَ ٱلذَّاتِيَّةَ ٱلْمُنَاسِبَةَ لَهَا بَلِ ٱلْاُمُورَ ٱلْمَشْهُورَةَ . وَاِذَا كَانَ ٱلْاَمْرُ فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ كَمَا وَصَفْنَا فَقَدْ تَبَيَّنَ اَيْضًا مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ اَنَّ جَمِيعَ مَا قُلْنَاهُ فِي اَجْزَاءِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ هُوَ حَقٌّ اَعْنِي اَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ عِلْمِ

ٱلْمَنْطِقِ وَمِنْ عِلْمِ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْخُلُقِيَّةِ وَاَنَّ فِيهَا اَشْيَاءَ جَدَلِيَّةً اَوْ شَبِيهَةً بِالْاَشْيَاءِ ٱلْجَدَلِيَّةِ وَاَيْضًا سُوفِسْطَائِيَّةً اَوْ شَبِيهَةً بِالسُّوفِسْطَائِيَّةِ ٠ وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي فِي صَنَائِعَ كَثِيرَةٍ اِنَّمَا تَكُونُ اَجْزَاءً لِصِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مَتَى اُخِذَ جَمِيعُهَا بِٱلْجِهَةِ وَٱلْحَالِ ٱلَّتِي بِهَا تَكُونُ تِلْكَ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلْكَثِيرَةُ مُتَعَاوِنَةً وَنَافِعَةً فِي غَرَضِ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْوَاحِدَةِ وَطُرِحَ مِنْهَا ٱلْاَحْوَالُ ٱلَّتِي بِهَا تَخْتَلِفُ اَعْنِي ٱلْاَشْيَاءَ ٱلَّتِي لَيْسَتْ تَكُونُ بِهَا مُعِينَةً فِي غَرَضِ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْوَاحِدَةِ ٠ وَاِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَٱلْاَشْيَاءُ ٱلْخُلُقِيَّةُ اِنَّمَا صَارَتْ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ مُعِدَّةٌ نَحْوَ ٱلْكَلَامِ وَٱلْمُخَاطَبَةِ وَهِيَ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلسِّيَاسَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ اَحَدُ ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلَّتِي نَقْصِدُ مَعْرِفَتَهَا وَعِلْمَهَا ٠ وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلْجَدَلِيَّةُ وَٱلسُّوفِسْطَائِيَّةُ اِنَّمَا صَارَتْ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ حَيْثُ اَنَّهُ ٱلَّذِي تُسْتَعْمَلُ مِنْهَا هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ هُوَ سَابِقُ ٱلْمَعْرِفَةِ ٱلْاُولَى لِلْاِنْسَانِ لَا مَا هُوَ بَعِيدٌ عَنْ مَعْرِفَةِ ٱلْجُمْهُورِ مِثْلُ اَنَّهَا اِنَّمَا تَسْتَعْمِلُ مِنَ ٱلْقِيَاسِ ٱلْقِيَاسَ ٱلْمَعْرُوفَ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ وَهُوَ ٱلتَّمْثِيلُ وَٱلضَّمِيرُ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْاُمُورِ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّةِ اِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ مِنْهَا مَا جَرَتِ ٱلْعَادَةُ بِٱسْتِعْمَالِهِ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ مِثْلُ مَوَاضِعِ ٱلْاِطْلَاقِ وَٱلتَّقْيِيدِ وَغَيْرُ ذٰلِكَ مِمَّا يَسْتَعْمِلُهُ بِطَبَاعِهِمِ ٱلْجُمْهُورُ فَهِيَ اِنَّمَا تُخَالِفُ هٰذِهِ بِمِقْدَارِ ٱلنَّظَرِ وَقَدْ تُخَالِفُ اَيْضًا بِمِقْدَارِ ٱلنَّظَرِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ فِي ٱلْاُمُورِ ٱلْاِرَادِيَّةِ ٱلنَّظَرَ ٱلَّذِي لِلْعِلْمِ ٱلسِّيَاسِيِّ فِيهَا اَعْنِي اَنَّهَا اِنَّمَا تَنْظُرُ فِي ٱلْاُمُورِ ٱلْاِرَادِيَّةِ ٱلنَّظَرَ ٱلَّذِي هُوَ فِي سَابِقِ ٱلْمَعْرِفَةِ لِلْاِنْسَانِ وَتَدَعُ تَقَصِّيَ ٱلنَّظَرِ فِي ذٰلِكَ

لِلعِلمِ ٱلسِّيَاسِيِّ مِنهَا. وَٱلأُمورُ ٱلَّتِي يُشِيرُ بِهَا ٱلخَطِيبُ مِنهَا مَا يُشِيرُ بِهِ عَلَى أَهلِ مَدِينَةٍ بِأَسرِهِم وَمِنهَا مَا يُشِيرُ بِهِ عَلَى وَاحِدٍ مِن أَهلِ تِلكَ ٱلمَدِينَةِ أَو جَمَاعَةٍ

البحث الرابع

في خمسة امور يدور عليها البحث في النوع المشوري وفي القياسات المختلفة بها

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ): فَأَمَّا ٱلأَشيَاءُ ٱلَّتِي تَكُونُ فِيهَا ٱلمَشُورَةُ فِي ٱلأُمُورِ ٱلعِظَامِ مِن أُمُورِ ٱلمُدُنِ فَهِيَ قَرِيبَةٌ مِن أَن تَكُونَ خَمسَةً. أَحَدُهَا ٱلإِشَارَةُ بِٱلعُدَّةِ ٱلمُدَّخَرَةِ مِنَ ٱلأَموَالِ لِلمَدِينَةِ. وَٱلثَّانِي ٱلإِشَارَةُ بِٱلحَربِ أَوِ ٱلسِّلمِ. وَٱلثَّالِثُ ٱلإِشَارَةُ بِحِفظِ ٱلبَلَدِ مِمَّا يَرِدُ عَلَيهِ مِن خَارِجٍ. وَٱلرَّابِعُ ٱلإِشَارَةُ بِمَا يَدخُلُ فِي ٱلبَلَدِ وَيَخرُجُ عَنهُ. وَٱلخَامِسُ ٱلإِشَارَةُ بِٱلتِزَامِ ٱلسُّنَنِ. فَٱلَّذِي يُشِيرُ بِٱلعُدَّةِ يَحتَاجُ أَن يَعرِفَ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ أَحَدُهَا أَن يَعرِفَ غَلَّاتِ ٱلمَدِينَةِ مَا هِيَ أَعنِي هَل هِيَ نَبَاتٌ أَو حَيَوَانٌ أَو مَعدِنٌ أَو جَمِيعُ هٰذِهِ أَو ٱثنَانِ مِنهَا كَمَا إِن نَقَصَ مِنَ ٱلفَاضِلِ مِنهَا لِلعُدَّةِ شَيءٌ أَشَارَ بِٱلزِّيَادَةِ فِيهَا. وَٱلثَّانِي أَن يَعرِفَ مَعَ ذٰلِكَ نَفَقَاتِ أَهلِ ٱلمَدِينَةِ كُلِّهَا. وَٱلثَّالِثُ أَن يَعرِفَ أَصنَافَ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ فِي ٱلمَدِينَةِ فَإِن كَانَ فِيهَا إِنسَانٌ بَطَّالٌ

وَهُوَ ٱلَّذِي لَا فَضِيلَةَ عِنْدَهُ اَوْ عَاطِلٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا صِنَاعَةَ لَهُ اَشَارَ بِتَحْجِيتِهِ مِنَ ٱلْبَلَدِ. وَاِنْ كَانَ هُنَالِكَ عَظِيمُ ٱلنَّفَقَاتِ فِي غَيْرِ ٱلْجَمِيلِ اَوْ غَيْرِ ٱلضَّرُورِيِ اَشَارَ بِاَخْذِ ذٰلِكَ ٱلْفَضْلِ مِنَ ٱلْمَالِ مِنْهُ فَاِنَّهُ لَيْسَ يَكُونُ ٱلْغِنَاءُ بِٱلزِّيَادَةِ فِي ٱلْمَالِ بَلْ وَبِٱلنُّقْصَانِ مِنَ ٱلنَّفَقَةِ وَلِذٰلِكَ قِيلَ : قِلَّةُ ٱلْعِيَالِ اَحَدُ ٱلْيَسَارَيْنِ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلضَّرُورَةِ ٱلدَّاعِيَةِ اِلَى هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ وَمِقْدَارِ ٱلْحَاجَةِ اِلَيْهَا يَقِفُ ٱلْخَطِيبُ عَلَى مَا يَحْتَاجُ اَنْ يُشِيرَ بِهِ فِي وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ. وَلَيْسَ يَحْتَاجُ عِنْدَ ٱلْاِشَارَةِ بِٱلزِّيَادَةِ فِي ٱلنَّبَاتِ اَنْ يَكُونَ فَلَّاحًا وَلَا فِي ٱلْحَيَوَانِ اَنْ يَكُونَ رَاعِيًا لٰكِنْ يَكْفِيهِ فِي ذٰلِكَ مَعْرِفَتُهُ بِمِقْدَارِ ٱلْحَاجَةِ اِلَيْهَا لٰكِنْ يَحْتَاجُ مَعَ هٰذَا اَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِٱلسِّيَرِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ وَمَا عِنْدَ ٱلنَّاسِ فِيهَا. وَاَمَّا ٱلْمُشِيرُ بِٱلْحَرْبِ اَوِ ٱلسِّلْمِ فَاِنَّهُ يَحْتَاجُ اَنْ يَعْرِفَ قُوَّةَ مَنْ يُحَارِبُ وَقُوَّةَ بَمَنْ يُحَارِبُ وَمِقْدَارَ ٱلْاَمْرِ ٱلَّذِي يُنَالُ بِٱلْمُحَارَبَةِ هَلْ هُوَ يَسِيرٌ اَوْ عَظِيمٌ وَحَالُ ٱلْمَدِينَةِ فِي وَثَاقَتِهَا وَحَصَانَتِهَا وَضَعْفِ اَهْلِهَا وَقُوَّتِهِمْ. وَفِي صِغَرِ ٱلْمَدِينَةِ اَوْ فِي عِظَمِهَا اَعْنِي هَلْ مِقْدَارُهُمْ مِقْدَارُ مَنْ يَسْتَطِيعُ ٱلْمُحَارَبَةَ اَمْ لَيْسَ مِقْدَارُهُمْ ذٰلِكَ ٱلْمِقْدَارَ. وَهَلْ هُمْ بِصِفَةِ مَنْ تُمَكِّنُهُمُ ٱلْمُحَارَبَةُ اَمْ لَيْسَ هُمْ. وَاَنْ يَعْرِفَ مَعَ ذٰلِكَ شَيْئًا مِنَ ٱلْحُرُوبِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ لِيَصِفَ لَهُمْ كَيْفَ يُحَارِبُوا اِنْ اَشَارَ عَلَيْهِمْ بِٱلْحَرْبِ وَيُهَوِّنَ عَلَيْهِمْ اَمْرَ ٱلْحَرْبِ. اَوْ يُعَرِّفَهُمْ بِمَا فِي ٱلْحَرْبِ مِنْ مَكْرُوهٍ اِنْ اَشَارَ عَلَيْهِمْ بِتَرْكِ ٱلْحَرْبِ. وَقَدْ يَحْتَاجُ اَنْ يَعْرِفَ لَيْسَ

حَالَ اَهْلِ مَدِينَتِهِ فَقَطْ بَلْ وَحَالَ مَنْ فِي تُخُومِهِ وَثَغْرِهِ اَعْنِي كَيْفَ حَالُهُمْ فِي هٰذِهِ الْاَشْيَاءِ وَحَالُهُمْ مَعَ عَدُوِّهِمْ فِي الظَّفَرِ بِهِ اَوِ الْعَجْزِ عَنْهُ فَاِنَّهُ يَاْخُذُ مِنْ هَا هُنَا مُقَدِّمَاتٍ نَافِعَةً فِي الْاِشَارَةِ عَلَيْهِمْ بِالْحَرْبِ اَوِ السِّلْمِ. وَيَحْتَاجُ مَعَ هٰذَا اَنْ يَعْلَمَ الْحُرُوبَ الْجَمِيلَةَ مِنَ الْحُرُوبِ الْجَائِزَةِ وَاَنْ يَعْلَمَ حَالَ الْاَجْنَادِ هَلْ هُمْ مُتَشَابِهُونَ فِي الْقُوَّةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالرَّأْيِ وَاِجَادَةِ مَا فُوِّضَ اِلَى صِنْفٍ صِنْفٍ وَمِنْهُمْ مِنَ الْقِيَامِ بِجُزْءٍ جُزْءٍ مِنْ اَجْزَاءِ الْحَرْبِ. اَعْنِي اَنْ يَكُونُوا فِي ذٰلِكَ مُتَشَابِهِينَ فَاِنَّهُ رُبَّمَا كَثُرُوا وَتَنَاسَلُوا حَتَّى يَكُونَ فِيهِمْ مَنْ لَا يَصْلُحُ لِلْحَرْبِ اَوْ لِلْجُزْءِ مِنَ الْحَرْبِ الَّذِي فُوِّضَ اِلَيْهِ الْقِيَامُ بِهِ. وَقَدْ يَنْبَغِي مَعَ هٰذَا اَنْ يَكُونَ نَاظِرًا لَيْسَ فِيمَا اَفْضَتْ اِلَيْهِ مُحَارَبَتُهُمْ بَلْ وَفِيمَا اَفْضَتْ اِلَيْهِ حُرُوبُ سَائِرِ النَّاسِ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ الْمُشَابِهِينَ لَهُمْ فَاِنَّ الشَّبِيهَ يُحْكَمُ مِنْهُ عَلَى الشَّبِيهِ. اَعْنِي اَنَّهُ اِنْ كَانَ اَفْضَتِ الْحُرُوبُ الشَّبِيهَةُ بِحَرْبِهِمْ اِلَى مَكْرُوهٍ اَنْ يُشِيرَ بِالسِّلْمِ وَاِنْ كَانَتْ اَفْضَتْ اِلَى الظَّفَرِ اَنْ يُشِيرَ بِالْحَرْبِ. وَاَمَّا حِفْظُ الْبِلَادِ فَاِنَّهُ يَحْتَاجُ الْمُشِيرُ بِالْحِفْظِ اَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ تُحْفَظُ الْبِلَادُ وَمَا مِقْدَارُ الْحِفْظِ الْمُحْتَاجِ اِلَيْهِ فِي طَارِئٍ طَارِئٍ وَكَمْ اَنْوَاعُ الْحِفْظِ. وَيَعْرِفَ مَعَ هٰذَا الْمَوَاضِعَ الَّتِي يَكُونُ حِفْظُهَا بِالرِّجَالِ وَهِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْمَسَالِحَ. فَاِنْ كَانَ الْحِفْظُ لِتِلْكَ الْمَوَاضِعِ قَلِيلًا زَادَ فِيهِمْ وَاِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ لَا يَصْلُحُ لِلْحِفْظِ نَحَّاهُ مِمَّنْ لَيْسَ يَقْصِدُ قَصْدَ الْمُحَامَاةِ عَنِ الْمَدِينَةِ بَلْ يَقْصِدُ قَصْدَ نَفْسِهِ. وَيَنْبَغِي لَهُ اَنْ يَحْفَظَ اَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ الْمَوَاضِعَ الْخَفِيَّةَ

اَعْنِي اَلَّتِي اَلْمَنْفَعَةُ بِحِفْظِهَا اَكْثَرُ . فَمَنْ عَرَفَ هٰذَا فَقَدْ يُمْكِنُهُ اَنْ يُشِيرَ بِاَلْحِفْظِ وَاَنْ يَكُونَ خَبِيرًا بِاَلْبِلَادِ اَلَّتِي يُشِيرُ بِحِفْظِهَا . وَاَمَّا اَلْاِشَارَةُ بِاَلْقُوتِ وَسَائِرِ اَلْاَشْيَاءِ اَلضَّرُورِيَّةِ اَلَّتِي تَحْتَاجُهَا اَلْمَدِينَةُ فَاِنَّهُ يَحْتَاجُ اَلْمُشِيرُ فِيهِ اَنْ يَعْرِفَ مِقْدَارَهَا وَكَمْ يَكْفِي اَلْمَدِينَةَ مِنْهَا وَكَمِ اَلْحَاضِرُ اَلْمَوْجُودُ فِي اَلْمَدِينَةِ مِنْ ذٰلِكَ وَهَلْ اُدْخِلَ اَلْكَافِي مِنْ ذٰلِكَ فِي اَلْمَدِينَةِ وَاُحْرِزَ اَمْ لَمْ يُدْخَلْ . وَمَا اَلْاَشْيَاءُ اَلَّتِي يَنْبَغِي اَنْ تَخْرُجَ مِنَ اَلْمَدِينَةِ وَهُوَ اَلْفَاضِلُ عَنْ اَهْلِ اَلْمَدِينَةِ . وَمَا اَلْاَشْيَاءُ اَلَّتِي يَنْبَغِي اَنْ تَدْخُلَ وَهُوَ مَا قَصُرَ عَنِ اَلضَّرُورِيِّ لِتَكُونَ مَشُورَتُهُ وَمَا يُعْهَدُ بِهِ عَلَى حَسَبِ ذٰلِكَ فَاِنَّهُ قَدْ يَحْتَاجُ اَلْمَرْءُ اَنْ يَحْفَظَ اَهْلَ مَدِينَتِهِ لِاَمْرَيْنِ : اَحَدُهُمَا لِمَكَانِ ذَوِي اَلْفَضَائِلِ وَاَلثَّانِي لِمَكَانِ ذَوِي اَلْمَالِ اَلَّذِينَ مِنْ اَجْلِ ذَوِي اَلْفَضَائِلِ . وَاَلْحَافِظُ لِلْمُدُنِ يَحْتَاجُ بِاَلْجُمْلَةِ اِلَى اَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِجَمِيعِ هٰذِهِ اَلْاَنْوَاعِ اَلْخَمْسَةِ عِنْدَ حِفْظِهِ لَهَا

(قَالَ) وَاَمَّا اَلنَّظَرُ فِي وَضْعِ اَلسُّنَنِ وَاَلْاِشَارَةُ بِهَا فَلَيْسَ بِيَسِيرٍ فِي اَمْرِ اَلْمُدُنِ فَاِنَّ اَلْمُدُنَ اِنَّمَا تَسْلَمُ وَيَلْتَئِمُ وُجُودُهَا بِاَلسُّنَنِ وَلِذٰلِكَ قَدْ يَنْبَغِي لِوَاضِعِ اَلسُّنَنِ اَنْ يَعْرِفَ كَمْ اَصْنَافُ اَلسِّيَاسَاتِ وَاَيُّ سُنَّةٍ تَنْفَعُ فِي سِيَاسَةٍ سِيَاسَةٍ وَاَيُّ سُنَّةٍ لَا تَنْفَعُ وَاَيُّ نَاسٍ تَصْلُحُ بِهِمْ سُنَّةٌ سُنَّةٌ وَسِيَاسَةٌ سِيَاسَةٌ وَاَيُّ نَاسٍ لَا تَصْلُحُ بِهِمْ وَاَنْ يَكُونَ يَعْرِفُ اَلْاَشْيَاءَ اَلَّتِي يُخَافُ اَنْ يَدْخُلَ مِنْهَا اَلْفَسَادُ عَلَى اَلْمَدِينَةِ . وَذٰلِكَ اِمَّا مِنَ اَلْاَضْدَادِ مِنْ خَارِجٍ وَاِمَّا مِنْ اَهْلِ اَلْمَدِينَةِ فَاِنَّ سَائِرَ اَلْمُدُنِ مَا عَدَا اَلْمَدِينَةَ اَلْفَاضِلَةَ قَدْ تَفْسُدُ مِنْ قِبَلِ اَلسُّنَنِ

ٱلْمَوْضُوعَةِ فِيهَا وَذٰلِكَ اِذَا كَانَتِ ٱلسُّنَّةُ مُفْرِطَةَ ٱلضَّعْفِ وَٱللِّينِ اَوْ مُفْرِطَةَ ٱلشِّدَّةِ وَسَوَاءٌ كَانَتْ فِي رَأْيٍ اَوْ فِي خُلُقٍ اَوْ فِي فِعْلٍ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلسِّيَاسَةَ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْحُرِّيَّةَ قَدْ يَظْهَرُ مِنْ اَمْرِهَا اَنَّهَا تَنْتَقِلُ كَثِيرًا مِنْ قِبَلِ هٰذَا ٱلْمَعْنَى اِلَى رِئَاسَةِ ٱلْخَسَّةِ اَعْنِي رِئَاسَةَ ٱلشَّهَوَاتِ اَوْ رِئَاسَةَ ٱلْمَالِ وَٱلَّذِي قَالَهُ ظَاهِرٌ عِنْدَنَا مِنْ اَمْرِ ذَوِي ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلَّتِي وَصَلَتْنَا اَخْبَارُهُمْ

(قَالَ) وَلَيْسَ يَؤُولُ ٱلْاَمْرُ فِي هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَةِ اَعْنِي سِيَاسَةَ ٱلْحُرِّيَّةِ اِلَى سِيَاسَةِ ٱلْاَخِسَّاءِ مِنْ قِبَلِ ٱسْتِرْخَاءِ ٱلسُّنَنِ وَلِينِهَا وَاِنْ كَانَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْاَكْثَرَ بَلْ وَمِنْ قِبَلِ ٱلْاِفْرَاطِ فَاِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْاَشْيَاءِ اِذَا اُفْرِطَتْ بَطَلَ وُجُودُهَا كَمَا يَبْطُلُ وُجُودُهَا مِنْ قِبَلِ ٱلضَّعْفِ وَٱلتَّقْصِيرِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّ ٱلْقَطَسَ اِذَا اَفْرَطَ وَتَفَاقَمَ كَانَ قَرِيبًا مِنْ اَنْ يُظَنَّ اَنَّهُ لَيْسَ هُنَالِكَ اَنْفٌ وَاِذَا كَانَ غَيْرُ مُفْرِطٍ قَرُبَ مِنَ ٱلْاِعْتِدَالِ

(قَالَ) وَيَحْتَاجُ مَعَ ذٰلِكَ اَنْ يَعْرِفَ ٱلسُّنَنَ ٱلَّتِي وَضَعَهَا كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ فَاْنْتَفَعُوا بِهَا فِي سِيَاسَةِ سِيَاسَةٍ مِنَ ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلْمَشْهُورَةِ وَفِي اُمَّةٍ اُمَّةٍ لِيَسْتَعْمِلَ مِنْهَا ٱلنَّافِعَ ٱلَّذِي يَخُصُّهُ وَٱلْاُمَّةَ ٱلَّتِي تَخُصُّهُ. وَلِذٰلِكَ تَبَيَّنَ اَنَّ مَعْرِفَةَ وَاضِعِ ٱلسُّنَنِ بِاَمْزِجَةِ ٱلنَّاسِ وَاَخْلَاقِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ مِمَّا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي وَضْعِ ٱلسُّنَنِ فَاِنَّ مِنْ هَا هُنَا يُمْكِنُ اَنْ يَضَعَ ٱلسُّنَنَ ٱلنَّافِعَةَ لِجَمِيعِ ٱلْاُمَمِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ٱلطَّبَائِعِ. وَاَمَّا ٱلْفَسَادُ ٱلدَّاخِلُ عَلَى ٱلْمُدُنِ مِنْ خَارِجٍ اَعْنِي مِنَ ٱلْاَعْدَاءِ فَاَمْرٌ ظَاهِرٌ بِنَفْسِهِ

وَقَدْ كَتَبَ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْاَوْجُهِ ٱلَّتِي يُتَوَقَّعُ مِنْهَا غَلَبَةُ ٱلْاَعْدَاءِ وَٱلْاَوْجُهِ ٱلَّتِي يُتَحَرَّزُ بِهَا مِنْهُمْ. وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ يَأْخُذُ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي يُشِيرُ بِهَا عَلَى اَهْلِ مَدِينَتِهِ بِٱلتَّحَفُّظِ مِنَ ٱلْاَعْدَاءِ وَمَا قُلْنَا فِي وَضْعِ ٱلسُّنَنِ وَمَا يَحْتَاجُ اِلَيْهِ وَاضِعُهَا هُوَ مِنْ عِلْمِ ٱلسِّيَاسَةِ لَا مِنْ عِلْمِ ٱلْخَطَابَةِ. وَاِنَّمَا يُذْكَرُ مِنْهَا هَاهُنَا مَا يَكْفِي فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ

البحث الخامس

في السبب الذي من اجلهِ يشير الخطيب وهو سعادة السامع وفي ماهية السعادة وانواع الخيور التي من مجموعها تتولد السعادة

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) فَهٰذِهِ هِيَ ٱلْاُمُورُ ٱلْعُظْمَى ٱلَّتِي بِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُونَ عَلَى اَهْلِ ٱلْمُدُنِ وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْهَا يُشَارُ عَلَى وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ. وَنَحْنُ قَائِلُونَ ٱلْاٰنَ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْهَا يَكُونُ ٱلْاِذْنُ وَٱلْمَنْعُ لِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ وَمُبْتَدِئُونَ اَوَّلًا بِٱلْاِخْبَارِ عَنِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُونَ فَيَأْذَنُونَ فِيهَا اَوْ يَمْنَعُونَ مِنْ اَضْدَادِهَا. وَيُشْبِهُ اَنْ يَكُونَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱنْفِعَالٌ مَا وَتَشَوُّقٌ بِٱلطَّبْعِ لِلْخَيْرِ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلْكُلُّ لِنَفْسِهِ وَيُشِيرُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ اَنْ يَعْرِفَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ مَا هُوَ ذٰلِكَ ٱلْخَيْرُ فَيَخْتَارُونَهُ وَيُؤْثِرُونَهُ عَلَى غَيْرِهِ. اَوْ اِذَا سُئِلَ عَنْهُ اَجَابَ فِيهِ بِجَوَابٍ مُنْبِئٍ عَنْ

طَبِيعَتِهِ بَلْ اِنَّمَا عِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وُجُودُهُ فَقَطْ. وَاِذَا سُئِلَ وَاحِدٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ عَمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ اِسْمُهُ اَجَابَ فِيهِ بِجَوَابٍ غَيْرِ الْجَوَابِ الَّذِي يُجِيبُ فِيهِ الْآخَرُ. وَاِنَّمَا يُؤْثِرُهُ الْجَمِيعُ لِمَكَانِ هٰذَا اِلَّا نْفِعَالِ الْمَوْجُودِ لَهُ بِالطَّبْعِ عِنْدَ الْجَمِيعِ. وَهٰذَا الْخَيْرُ فِي الْجُمْلَةِ هُوَ صَلَاحُ الْحَالِ وَاَجْزَاءُ صَلَاحِ الْحَالِ. وَلِذٰلِكَ فَقَدْ يَنْبَغِي اَنْ نُفَصِّلَ اَوَّلًا مَا هُوَ صَلَاحُ الْحَالِ بِقَوْلٍ عَامٍّ ثُمَّ نُفَصِّلَ اَجْزَاءَهُ وَنُخْبِرَ عَنْ اَضْدَادِهَا وَعَنِ الْاَشْيَاءِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا الْاِذْنُ وَالْمَنْعُ وَهِيَ النَّافِعَةُ فِي صَلَاحِ الْحَالِ اَوِ الْاَنْفَعُ فِيهِ اَوِ الضَّارَّةُ فِيهِ اَوِ الْاَضَرُّ فِيهِ فَاِنَّ بِهٰذَا يَتِمُّ لَنَا الْقَوْلُ فِي الْاَشْيَاءِ الَّتِي مِنْهَا تَلْتَئِمُ الْاَقَاوِيلُ الْمَشْوُرِيَّةُ الْمُسْتَعْمَلَةُ مَعَ جَمِيعِ النَّاسِ

(قَالَ) وَالَّذِينَ تَكَلَّمُوا فِي هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ فَلَمْ يَتَكَلَّمُوا مِنْ هٰذِهِ الْاَشْيَاءِ اِلَّا فِيمَا يَجْرِي مَجْرَى الْاُمُورِ الْكُلِّيَّةِ مِثْلَ اَنَّهُمْ قَالُوا: يَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ اَنْ يُعَظِّمَ الشَّيْءَ الصَّغِيرَ اِذَا اَرَادَ تَفْخِيمَهُ وَيُصَغِّرَ الشَّيْءَ الْكَبِيرَ اِذَا اَرَادَ تَهْوِينَهُ. وَيَنْبَغِي لَهُ اَنْ لَا يَأْذَنَ فِي الْاَشْيَاءِ الَّتِي تُفْسِدُ صَلَاحَ الْحَالِ وَفِي الْاَشْيَاءِ الَّتِي تَعُوقُ عَنْ صَلَاحِ الْحَالِ اَوْ تَتَجَاوَزُ صَلَاحَ الْحَالِ اِلَى ضِدِّهِ. وَلَمْ يَقُولُوا مَا هِيَ الْاَشْيَاءُ الَّتِي بِهَا يُعَظَّمُ الشَّيْءُ اَوْ يُصَغَّرُ وَلَا مَا هِيَ الْاَشْيَاءُ الَّتِي تُوجِبُ اخْتِلَالَ صَلَاحِ الْحَالِ اَوْ تَعُوقُهُ اَوْ تَتَجَاوَزُهُ اِلَى ضِدِّهِ

(قَالَ) فَاَمَّا صَلَاحُ الْحَالِ فَهُوَ حُسْنُ الْفِعْلِ مَعَ فَضِيلَةٍ وَطُولٍ مِنَ الْعُمْرِ وَحَيَاةٍ لَذِيذَةٍ مَعَ السَّلَامَةِ وَالسَّعَةِ فِي الْمَالِ وَحُسْنِ الْحَالِ

عِنْدَ ٱلنَّاسِ مَعَ تَحْصِيلِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْحَافِظَةِ لِهٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ وَٱلْفَاعِلَةِ لَهَا . وَقَدْ يَشْهَدُ اَنَّ هٰذَا هُوَ رَسْمُ صَلَاحِ ٱلْحَالِ ٱلْمَشْهُورُ اَنَّ جَمِيعَ ٱلنَّاسِ يَرَوْنَ اَنَّ صَلَاحَ ٱلْحَالِ هُوَ هٰذَا اَوْ شَيْءٌ قَرِيبٌ مِنْ هٰذَا وَاِذَا كَانَ صَلَاحُ ٱلْحَالِ هُوَ هٰذَا فَاَجْزَاؤُهُ هِيَ كَرَمُ ٱلْحَسَبِ وَكَثْرَةُ ٱلْاِخْوَانِ وَٱلْاَوْلَادِ وَٱلْيَسَارُ وَحُسْنُ ٱلْفِعْلِ وَٱلشَّيْخُوخَةُ ٱلصَّالِحَةُ وَفَضَائِلُ ٱلْجَسَدِ مِثْلُ ٱلصِّحَّةِ وَٱلْجَمَالِ وَٱلْخِفَّةِ وَٱلْجَزَالَةِ وَٱلْبَطْشِ وَٱلْمَجْدِ وَٱلْجَلَالَةِ وَٱلسَّعَادَةِ وَٱلْفَضِيلَةِ وَاَجْزَاؤُهَا مِثْلُ ٱلْعَقْلِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْعَفَافِ وَٱلْعَدَالَةِ وَٱلْبِرِّ فَاِنَّهُ هٰكَذَا اَخْرَى اَنْ يَكُونَ ٱلْاِنْسَانُ مَوْفُورًا مَكْفِيًا اَعْنِي اِذَا كَانَتْ لَهُ ٱلْخَيْرَاتُ ٱلْمَوْجُودَةُ مِنْ خَارِجٍ . وَٱلْخَيْرَاتُ ٱلْمَوْجُودَةُ فِيهِ ٱلنَّفْسَانِيَّةُ وَٱلْجَسَدَانِيَّةُ وَٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ هِيَ ٱلْحَسَبُ وَٱلْاِخْوَانُ وَٱلْمَالُ وَٱلْكَرَامَةُ وَقَدْ يُظَنُّ اَنَّهُ يُعَدُّ مَعَ هٰذِهِ نُفُوذُ ٱلْاَمْرِ وَٱلنَّهْيِ وَٱلِاتِّفَاقَاتُ ٱلْجَمِيلَةُ وَهِيَ ٱلْمُسَمَّاةُ عِنْدَ ٱلنَّاسِ سَعَادَةً فَاِنَّ بِهٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ تَكُونُ حَيَاةُ ٱلْمَرْءِ فِي سِيرَتِهِ حَيَاةَ مَنْ لَا يَنْقُصُهُ شَيْءٌ مِنْ خَارِجٍ وَلَا يَشُوبُ خَيْرَهُ شَيْءٌ مُضَادٌّ . وَاِذَا كَانَ هٰذَا هٰكَذَا فَيَجِبُ اَنْ نَنْظُرَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ مَا هُوَ بِحَسَبِ ٱلنَّظَرِ ٱلْمَقْصُودِ هُنَا وَهُوَ ٱلنَّظَرُ ٱلْمَشْهُورُ . فَاَمَّا ٱلْحَسَبُ فَهُوَ اَنْ يَكُونَ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ هُوَ مِنْهُمْ هُمْ اَوَّلَ مَنْ نَزَلَ ٱلْمَدِينَةَ اَوْ يَكُونُوا قُدَمَاءَ ٱلنُّزُولِ فِيهَا وَيَكُونُوا مَعَ هٰذَا حُكَّامًا اَوْ رُؤَسَاءَ ذَوِي ذِكْرٍ جَمِيلٍ وَكَثْرَةِ عُدَدٍ وَاَنْ يَكُونُوا مَعَ هٰذَا اَحْرَارًا لَمْ يَجُزْ عَلَيْهِمْ سِبَاءٌ اَوْ يَكُونُوا مِمَّنْ نَالَ ٱلْاُمُورَ ٱلْجَمِيلَةَ ٱلْمَقْبُولَةَ عِنْدَ ٱلنَّاسِ وَاِنْ لَمْ

يَكُونُوا حُكَّامًا وَلَا رُؤَسَاء. فَأَمَّا ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْحَسَبِ هَلْ هُوَ مِنَ ٱلرِّجَالِ فَقَطْ اَوْ مِنَ ٱلنِّسَاء فَٱلظَّاهِرُ مِنْ ذٰلِكَ وَٱلْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ عِنْدَ ٱلْجَمِيعِ اَنَّهُ يَكُونُ اَتَمَّ اِذَا كَانَ مِنْ كِلَيْهِمَا. وَيَنْبَغِي اَنْ يَسْتَعْمِلَ ٱلْخَطِيبُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْمَشْهُورَ فِي اُمَّةِ اُمَّة. وَمِنْ شُرُوطِ ٱلْحَسَبِ اَنْ يَكُونَ ٱلرُّؤَسَاء وَٱلْاَحْرَارُ مِنْ اُولٰئِكَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ شُهِرُوا بِٱلْفَضِيلَةِ وَٱلْيَسَارِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَكْرُمَاتِ لَمْ يَنْقَطِعْ وُجُودُهُمْ فِي ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ هُوَ مِنْهُمْ اِلَى وُجُودِهِ هُوَ بَلْ يُوجَدُ فِي ذٰلِكَ ٱلْجِنْسِ اَبَدًا ٱشْيَاخُ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ يُخَلِّفُهُمْ غِلْمَانٌ فِي تِلْكَ ٱلْخِصَالِ. فَاِنَّهُ اِنِ ٱنْقَطَعَ ٱلشَّرَفُ فِي ذٰلِكَ ٱلْجِنْسِ ٱلَّذِي هُوَ مِنْهُمْ لَمْ يَكُنْ حَسِيبًا وَاِنْ لَمْ يَنْقَطِعْ مِنْهُمْ فَهُوَ حَسِيبٌ وَاِنِ ٱنْقَطَعَ فِيمَنْ وُلِدَ مِنْهُمْ. وَاَمَّا حُسْنُ ٱلْحَالِ بِٱلْاَوْلَادِ وَكَثْرَتِهِمْ فَهُوَ مِمَّا لَا خَفَاءَ بِهِ وَحُسْنُ ٱلْحَالِ بِٱلْاَوْلَادِ ٱلْمُشْتَرَكُ لِلْجَمِيعِ هُوَ كَثْرَةُ ٱلْفِتْيَانِ وَصَلَاحُهُمْ فِي فَضَائِلِ ٱلْجَسَدِ وَفَضَائِلِ ٱلنَّفْسِ. اَمَّا فِي فَضَائِلِ ٱلْجَسَدِ فَبِاَرْبَعٍ اِحْدَاهَا ٱلْجَزَالَةُ وَهِيَ اَنْ تَكُونَ خِلْقَتُهُمْ خِلْقَةً طَبِيعِيَّةً يَفُوقُونَ فِيهَا كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ. وَٱلثَّانِيَةُ ٱلْجَمَالُ. وَٱلثَّالِثَةُ ٱلشِّدَّةُ. وَٱلرَّابِعَةُ ٱلْبَطْشُ فَبِهٰذِهِ ٱلْاَرْبَعِ يَكُونُ ٱلْغِلْمَانُ صَالِحِينَ فِي فَضَائِلِ اَجْسَامِهِمْ. وَاَمَّا فِي فَضَائِلِ ٱلنُّفُوسِ فَيَكُونُونَ بِٱثْنَتَيْنِ بِٱلْعَفَافِ وَٱلشَّجَاعَةِ. وَاَمَّا مَا قَدْ يَكُونُ بِهِ صَلَاحُ حَالِ بَعْضِ ٱلنَّاسِ فَكَثْرَةُ ٱلْاَوْلَادِ مِنَ ٱلذُّكُورِ وَٱلْاِنَاثِ. وَصَلَاحُ ٱلْحَالِ بِٱلْاِنَاثِ اَيْضًا يَكُونُ بِفَضِيلَتَيْنِ فِي ٱلْجَسَدِ وَٱلنَّفْسِ. اَمَّا فِي ٱلْجَسَدِ فَٱثْنَتَانِ ٱلْعَبَالَةُ وَهُوَ عِظَمُ ٱلْاَعْضَاءِ ٱلْعِظَمَ ٱلطَّبِيعِيَّ

وَكَثْرَةُ ٱللَّحْمِ ٱلطَّبِيعِيِّ لَا ٱللَّوْنُ وَٱلْجَمَالُ. وَأَمَّا فِي ٱلنَّفْسِ فَثَلَاثٌ ٱلْعَفَافُ وَحُبُّ ٱلْأُلْفَةِ وَحُبُّ ٱلْكَدِّ فَإِنَّ بِهٰذِهِ ٱلْفَضَائِلِ يَكْمُلُ ٱلْمَنْزِلُ وَهٰذِهِ ٱلْفَضَائِلُ ٱلَّتِي قُلْنَا سَبِيلُهَا أَنْ تُوجَدَ فِي ٱلنِّسَاءِ كُلِّهِنَّ ٱللَّاتِي مِنْ نَسَبِ ذٰلِكَ ٱلرَّجُلِ عَلَى ٱلْعُمُومِ وَفِي ٱلرِّجَالِ كُلِّهِمْ عَلَى ٱلْعُمُومِ وَفِي أَوْلَادِهِ ٱلذُّكُورِ خَاصَّةً إِذْ كَانَ ٱلْوَلَدُ بِهِ أَلْصَقَ. وَقَدْ يَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَنْظُرَ هَلِ ٱلْفَضَائِلُ ٱلَّتِي هُوَ مِنْهَا هِيَ هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلُ عِنْدَهُمْ أَعْنِي فِي أَوْلَادِهِمْ أَمْ لَيْسَ هِيَ هٰذِهِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْأُمَمِ يُرَبُّونَ أَوْلَادَهُمُ ٱلذُّكُورَ وَٱلْإِنَاثَ بِٱلزِّينَةِ وَٱلسِّمَنِ وَهٰؤُلَاءِ يَقُولُ فِيهِمْ أَرِسْطُو إِنَّهُ قَدْ فَاتَهُمُ ٱلنِّصْفُ مِنْ صَلَاحِ ٱلْحَالِ بِٱلْأَبْنَاءِ. فَأَمَّا أَجْزَاءُ ٱلْيَسَارِ فَبِكَثْرَةِ ٱلدَّنَانِيرِ وَٱلْأَرَضِينَ وَٱلْعَقَارِ وَٱلْأَثَاثِ وَٱلْأَمْتِعَةِ وَٱلْمَوَاشِي وَجَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ فِي ٱلنَّوْعِ وَٱلْجِنْسِ. وَكُلُّ ذٰلِكَ إِذَا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ فِي حِفْظٍ وَمَعَ حُرِّيَّةٍ وَأَنْ يَكُونَ فِيهَا مُتَمَتِّعًا أَيْ مُلْتَذًّا لَا حَافِظًا لَهَا فَقَطْ أَوْ مُنْمِيًا

(قَالَ) وَمِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلنَّافِعَةِ فِي ٱلْيَسَارِ وَٱلْفَاعِلَةِ لَهُ ٱلْأَشْجَارُ ٱلْمُثْمِرَةُ وَٱلْغَلَّاتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَٱللَّذِيذُ مِنْ هٰذِهِ هُوَ مَا يُجْنَى بِغَيْرِ تَعَبٍ وَلَا نَفَقَةٍ وَحَدُّ ٱلْحِفْظِ وَٱلْإِحْرَازِ لِلْمَالِ هُوَ أَنْ يَكُونَ فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي لَا يُتَعَذَّرُ مِنْهُ عَلَيْهِ وَأَنْ يَكُونَ بِٱلْحَالِ ٱلَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَنْتَفِعَ بِهَا مِثْلَ أَنْ إِذَا كَانَتْ أَرْضًا أَلَّا تَكُونَ سَبْخَةً وَإِنْ كَانَ فَرَسًا أَلَّا يَكُونَ جُمُوحًا. وَحَدُّ ٱلْحُرِّيَّةِ فِي ٱلْمَالِ أَنْ يَكُونَ إِلَيْهِ ٱلتَّصَرُّفُ فِي ٱلْمَالِ بِٱلْإِعْطَاءِ وَٱلْبَيْعِ وَٱلشِّرَاءِ وَأَمَّا ٱلتَّنَعُّمُ بِٱلْمَالِ

فَهُوَ اسْتِعْمَالُهُ عَلَى طَرِيقِ التَّلَذُّذِ بِهِ . وَإِنَّمَا اشْتَرَطَ فِي الْغِنَى هٰذَا الشَّرْطَ لِأَنَّهُ انْ يَكُونَ الْغِنَى فِي اسْتِعْمَالِ الْمَالِ اخْرَى مِنْهُ انْ يَكُونَ فِي اقْتِنَائِهِ لِأَنَّ الِاقْتِنَاءَ هُو فَاعِلُ الْغِنَى وَأَمَّا الِاسْتِعْمَالُ فَهُوَ الْغِنَى بِعَيْنِهِ وَأَمَّا حُسْنُ الْفِعْلِ عَلَى الرَّأْيِ الصَّوَابِ فَهُوَ الَّذِي يَظُنُّهُ الْكُلُّ فَاضِلًا وَهُوَ الَّذِي يَقْتَنِي الشَّيْءَ الَّذِي يَتَشَوَّقُهُ الْاَكْثَرُ لَا مَحَالَةَ اَوِ الْاَخْيَارُ مِنَ النَّاسِ وَذَوُو الْكَيْسِ وَالْفِطْنَةِ

(قَالَ) وَأَمَّا الْكَرَامَةُ فَإِنَّهَا فِي زَمَانِنَا هٰذَا لِلْمُعْتَنِي بِحُسْنِ الْفِعْلِ وَإِكْرَامِ النَّاسِ الَّذِينَ لَهُمُ الْعِنَايَةُ الْحَسَنَةُ بِهِمْ هِيَ مُكَافَاةٌ عَلَى طَرِيقِ الْعَدْلِ وَالْحَقِّ إِذْ كَانَتْ هٰذِهِ الْاَفْعَالُ لَيْسَ تُكَافِئُهَا الدَّنَانِيرُ وَالدَّرَاهِمُ . وَلَيْسَ يُكْرَمُ الَّذِينَ لَهُمُ الْعِنَايَةُ الْحَسَنَةُ بِالنَّاسِ فَقَطْ بَلْ وَالَّذِينَ يَسْتَطِيعُونَ انْ تَكُونَ لَهُمُ الْعِنَايَةُ الْحَسَنَةُ اعْنِي الَّذِينَ لَهُمْ قُوَّةٌ عَلَى ذٰلِكَ وَانْ لَمْ يَفْعَلُوا ذٰلِكَ فِي حَالِ الْإِكْرَامِ وَالْعِنَايَةِ بِالنَّاسِ الَّتِي تَسْتَوْجِبُ الْكَرَامَةَ هِيَ الْعِنَايَةُ تُخَلِّصُهُمْ مِنَ الشُّرُورِ الَّتِي لَيْسَ التَّخْلِيصُ مِنْهَا بِهَيِّنٍ اَوْ اِفَادَتُهُمُ الْخَيْرَاتِ الَّتِي لَيْسَ اِفَادَتُهَا بِالسَّهْلِ . وَهٰذِهِ الْاَفْعَالُ الْجَمِيلَةُ هِيَ تَكُونُ عَنِ الْغِنَى اَوِ السُّلْطَانِ اَوْ مَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ مِمَّا يَكُونُ لِلْاِنْسَانِ بِهِ الْقُدْرَةُ عَلَى امْثَالِ هٰذِهِ الْاَفْعَالِ وَقَدْ يُكْرَمُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ عَلَى خَيْرَاتٍ يَسِيرَةٍ لٰكِنَّهَا تَكُونُ كَثِيرَةً بِالْاِضَافَةِ اِلَى ذٰلِكَ الزَّمَانِ وَاِلَى تِلْكَ الْحَالِ . فَكَانَ الْكَرَامَةُ عَلَى الْاَشْيَاءِ الْيَسِيرَةِ هِيَ بِالْعَرَضِ اَيْ مِنْ جِهَةِ مَا عَرَضَ لِتِلْكَ الْاَشْيَاءِ اَنْ تَكُونَ كَثِيرَةً بِالْاِضَافَةِ

اِلَى ذٰلِكَ ٱلْوَقْتِ اَوِ ٱلْحَالِ . وَاَمَّا ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَكُونُ بِهَا ٱلْكَرَامَةُ فَمِنْهَا مُشْتَرَكَةٌ لِجَمِيعِ ٱلْاُمَمِ وَمِنْهَا خَاصَّةٌ . فَٱلْخَاصَّةُ مِثْلُ ٱلذَّبَائِحِ وَٱلْقَرَابِينِ ٱلَّتِي كَانَتْ قَدْ جَرَتْ عَادَةُ ٱلْيُونَانِيِّينَ اَنْ يُكْرِمُوا بِهَا ٱلْاَمْوَاتَ . وَمِنْهَا عَامَّةٌ وَهِيَ ٱلْمَرَاتِبُ فِي ٱلْمَجَالِسِ وَٱلْمُسَارَعَةُ اِلَى اَقْوَالِهِ وَتَرْكُ مُخَالَفَتِهِ وَٱلْهَدَايَا ٱلَّتِي تُوجِبُ ٱلْمَحَبَّةَ وَٱلْقُرْبَ . فَاِنَّ ٱلْهَدِيَّةَ جَمَعَتْ اَمْرَيْنِ بَذْلَ ٱلْمَالِ وَٱلْكَرَامَةَ وَلِذٰلِكَ كَانَتْ مُسْتَحَبَّةً لِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَكُلُّ اِنْسَانٍ يَجِدُ فِيهَا مَا يَتَشَوَّقُهُ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلنَّاسَ ثَلَاثَةُ اَصْنَافٍ اِمَّا صِنْفٌ يُحِبُّ ٱلْكَرَامَةَ وَاِمَّا صِنْفٌ يُحِبُّ ٱلْمَالَ وَاِمَّا صِنْفٌ يَجْمَعُ ٱلْاَمْرَيْنِ . وَٱلْهَدِيَّةُ قَدْ جَمَعَتْ مُتَشَوِّقَ هٰذِهِ ٱلْاَصْنَافِ ٱلثَّلَاثَةِ

(قَالَ) وَاَمَّا فَضِيلَةُ ٱلْجَسَدِ فَٱلصِّحَّةُ وَذٰلِكَ اَنْ يَكُونُوا عَرِيزِينَ مِنَ ٱلْاَسْقَامِ ٱلْبَتَّةَ وَاَنْ يَسْتَعْمِلُوا اَبْدَانَهُمْ لِاَنَّ مَنْ لَا يَسْتَعْمِلُ صِحَّتَهُ فَلَيْسَ تَغْبِطُ نَفْسُهُ بِٱلصِّحَّةِ اَيْ لَيْسَ هُوَ حَسَنَ ٱلْحَالِ بِهَا وَهُوَ بَعِيدٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْاِنْسَانِيَّةِ اَوْ مِنْ اَكْثَرِهَا

(قَالَ) وَاَمَّا ٱلْحُسْنُ فَاِنَّهُ مُخْتَلِفٌ بِٱخْتِلَافِ اَصْنَافِ ٱلْاَسْنَانِ فَحُسْنُ ٱلْغِلْمَانِ وَجَمَالُهُمْ هُوَ اَنْ تَكُونَ اَبْدَانُهُمْ وَخَلْقُهُمْ بِهَيْئَةٍ يَعْسُرُ بِهَا قَبُولُهُمُ ٱلْآلَامَ وَٱلْاِنْفِعَالَ اَيْ لَا يَكُونُونَ غَيْرَ مُحْتَمِلِينَ لِلْاَذَى وَاَنْ يَكُونُوا بِحَيْثُ يُسْتَلَذُّ اَنْ يُنْظَرَ اِلَيْهِمْ عِنْدَ ٱلْجَرْيِ وَٱلْغَلَبَةِ

(قَالَ) وَلِذٰلِكَ مَا يَرَى ٱلنَّاسُ ٱلْغِلْمَانَ ٱلَّذِينَ هُمْ مُهَيَّأُونَ نَحْوَ ٱلْخَمْسِ

ٱلْمُزَاوَلَاتِ وَٱللَّعِبَاتِ حِسَانًا جِدًّا وَنَعْنِي بِٱلْخَمْسِ ٱلْمُزَاوَلَاتِ وَٱللَّعِبَاتِ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي كَانَ ٱلْيُونَانِيُّونَ يُرَوِّضُونَ بِهَا صِبْيَانَهُمْ وَهِيَ ٱلْعَدْوُ وَٱلرُّكُوبُ وَٱلْمُثَاقَفَةُ وَٱلصِّرَاعُ وَٱلْمُلَاكَرَةُ

(قَالَ) وَإِنَّمَا كَانَ ٱلنَّاسُ يَرَوْنَ فِيمَنْ كَانَ مُهَيَّأً نَحْوَ هٰذِهِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْخَمْسَةِ أَنَّهُ جَمِيلٌ لِأَنَّهُ مُهَيَّأٌ بِهَا نَحْوَ ٱلْخِفَّةِ وَٱلْغَلَبَةِ وَإِذَا شَبَّ أَمْثَالُ هٰؤُلَاءِ ٱلْغِلْمَانِ كَانُوا لَذِيذِي ٱلْمَنْظَرِ عِنْدَ ٱلْعَمَلِ فِي ٱلْحَرْبِ وَذٰلِكَ بِحَسَبِ ٱلْهَيْئَةِ ٱلَّتِي كَانُوا مُعَدِّينَ بِهَا نَحْوَ ٱلْحَرْبِ. وَأَمَّا ٱلشُّيُوخُ فَجَمَالُهُمْ هُوَ ٱسْتِلْذَاذُ أَفْعَالِهِمْ فِي ٱلْأَعْمَالِ ٱلَّتِي هِيَ جِدٌّ وَهِيَ ٱلَّتِي مِنْ أَجْلِهَا يُرَاضُ ٱلصِّبْيَانُ عَلَى هٰذِهِ ٱللَّعِبَاتِ ٱلْخَمْسِ وَهِيَ ٱلْحُرُوبُ وَأَنْ يَكُونُوا مَعَ ذٰلِكَ يُرَوْنَ غَيْرَ ذَوِي أَحْزَانٍ وَلَا غَمٍّ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْحُزْنَ وَٱلْغَمَّ إِذَا ظَهَرَ بِٱلشَّيْخِ ظُنَّ بِهِ أَنَّ ذٰلِكَ ٱلطَّارِئَ ٱلَّذِي طَرَأَ عَلَيْهِ مِمَّا يَضُرُّ فِي شَيْخُوخَتِهِ مِثْلَ ٱلْفَقْرِ وَٱلْهَوَانِ أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلْبَطْشُ فَإِنَّهُ قُوَّةٌ يُحَرِّكُ ٱلْمَرْءُ بِهَا غَيْرَهُ كَيْفَ شَاءَ. فَإِنَّهُ إِذَا جَذَبَ غَيْرَهُ أَوْ دَفَعَهُ أَوْ أَمَالَهُ أَوْ أَخْرَجَهُ أَوْ غَطَّهُ وَكَانَ هٰذَا ٱلْفِعْلُ مِنْهُ بِكُلِّ مَنْ يَتَصَدَّى لَهُ أَوْ بِأَكْثَرِهِمْ فَهُوَ ذُو بَطْشٍ

(قَالَ) وَأَمَّا فَضِيلَةُ ٱلضَّخَامَةِ فَهُوَ أَنْ يَفُوتَ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ وَيُجَاوِرَهُمْ فِي ٱلطُّولِ وَٱلْعَرْضِ وَٱلْعُمْقِ وَتَكُونَ مَعَ ضَخَامَتِهِ حَرَكَاتُهُ غَيْرَ مُتَكَلِّفَةٍ لِجُودَةِ هٰذِهِ ٱلْفَضِيلَةِ وَتَكُونَ ضَخَامَتُهُ لَيْسَ سَبَبُهَا سِمَنًا

وَلَا اَمْرًا مُكْتَسَبًا

(قَالَ) وَاَمَّا اَلْهَيْئَةُ اَلَّتِي تُسَمَّى اَلْجِهَادِيَّةَ فَاِنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنَ اَلضَّخَامَةِ وَاَلْجَلَدِ وَاَلْخِفَّةِ وَذٰلِكَ اَنَّهُ اِذَا اِقْتَرَنَتِ اَلْخِفَّةُ مَعَ اَلْقُوَّةِ اَمْكَنَ اَنْ يَبْلُغَ بِالسُّرْعَةِ اَمَدًا بَعِيدًا لِاَنَّهُ اِنْ كَانَ خَفِيفًا دُونَ جَلَدٍ لَمْ يَبْلُغْ بِالسُّرْعَةِ اَمَدًا بَعِيدًا. وَذٰلِكَ اَنَّ اَلَّذِي جَمَعَ اَلضَّخَامَةَ وَاَلْقُوَّةَ هُوَ مُصَارِعٌ وَاَلَّذِي جَمَعَ اَلضَّخَامَةَ وَاَلْقُوَّةَ وَاَلْخِفَّةَ هُوَ مُجَاهِدٌ. وَاَمَّا اَلَّذِي جَمَعَ اَلصِّرَاعَ وَاَلْخِفَّةَ مَعًا فَيُسَمَّى عِنْدَهُمْ بِاَسْمٍ مُشْتَقٍّ مِنَ اَلْحِذْقِ بِاسْتِعْمَالِ اَلْقُوَّةِ وَاَلْخِفَّةِ وَاَمَّا اَلَّذِي جَمَعَ هٰذِهِ اَلْخِصَالَ كُلَّهَا فَهُوَ اَلَّذِي يُسَمَّى عِنْدَهُمْ ذَا اَلْخَمْسِ اَللَّعِبِ

(قَالَ) وَاَمَّا اَلشَّيْخُوخَةُ اَلصَّالِحَةُ فَاِنَّهَا دَوَامُ اَلْكِبَرِ مَعَ اَلْبَرَاءَةِ مِنَ اَلْحُزْنِ لِاَنَّهُ اِنْ عَجِلَتْ وَفَاةُ اَلْاِنْسَانِ قَبْلَ اَنْ يَبْلُغَ مُنْتَهَى اَلشَّيْخُوخَةِ لَمْ يَكُنْ ذَا شَيْخُوخَةٍ صَالِحَةٍ وَاِنْ كَانَ بَرِيئًا مِنَ اَلْاَحْزَانِ وَلَا اَنْ اُمْهِلَ اِلَى مُنْتَهَى اَلشَّيْخُوخَةِ وَكَانَ فِي كَرْبٍ وَحُزْنٍ كَانَ ذَا شَيْخُوخَةٍ صَالِحَةٍ. وَاِنَّمَا يَكُونُ بَرِيئًا مِنَ اَلْاَحْزَانِ اِذَا كَانَ ذَا حَظٍّ مِنَ اَلْجَلَدِ وَفَضَائِلِ اَلْبَدَنِ اَعْنِي اَنْ يَكُونَ صَحِيحًا وَلَمْ تَعْتَرِهِ مَصَائِبُ تُكَدِّرُ شَيْخُوخَتَهُ. وَذٰلِكَ اَنَّهُ اِذَا كَانَ مِمْرَاضًا اَوْ كَانَ اَلْجَلَدُ غَيْرَ مُسَاعِدٍ لَهُ بِاَنْ يَكُونَ قَدِ اعْتَرَتْهُ مَصَائِبُ فَاِنَّهُ لَيْسَ بِصَالِحِ اَلشَّيْخُوخَةِ وَاِنْ كَانَ مُعَمَّرًا. وَكَذٰلِكَ اِنْ كَانَ مِمْرَاضًا وَقَدْ يُشَكُّ كَيْفَ يَكُونُ طُولُ اَلْعُمْرِ مَعَ اَلْاَمْرَاضِ لٰكِنْ يُشْبِهُ اَنْ تَكُونَ قُوَّةُ طُولِ اَلْعُمْرِ غَلَبَ قُوَّةَ اَلصِّحَّةِ فَاِنَّا نَرَى قَوْمًا كَثِيرِينَ تَطُولُ

اَعْمَارُهُمْ مَعَ اَنَّهُمْ مِسْقَامُونَ . وَتَصْحِيحُ هٰذَا هُوَ لِلْعِلْمِ الطَّبِيعِيِّ وَلَيْسَ فِي تَصْحِيحِهِ فِي هٰذَا الْعِلْمِ مَنْفَعَةٌ وَالْخَطِيبُ اِنَّمَا يَكْتَفِي مِنْ ذٰلِكَ بِالشَّيْءِ الظَّاهِرِ

(قَالَ) وَاَمَّا كَثْرَةُ الْخُلَّةِ وَصَلَاحُ حَالِ الْاِنْسَانِ بِالْاِخْوَانِ وَذٰلِكَ اَيْضًا غَيْرُ خَفِيٍّ اِذَا حُدَّ مَا هُوَ الْخَلِيلُ وَالصَّاحِبُ . وَهُوَ اَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَفْعَلُ الْخَيْرَ الَّذِي يَظُنُّ اَنَّهُ يَنْفَعُ بِهِ الْاٰخَرَ لَا الْخَيْرَ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِهِ فِي نَفْسِهِ فَقَطْ . وَاِذَا كَانَتِ الْخُلَّةُ وَالصُّحْبَةُ هِيَ هٰذِهِ فَبَيِّنٌ اَنَّ الْمَرْءَ يَكُونُ صَالِحَ الْحَالِ بِالْاِخْوَانِ الْكَثِيرَةِ

(قَالَ) وَاَمَّا صَلَاحُ الْجَدِّ فَهُوَ اَنْ يَكُونَ الْاِتِّفَاقُ لِاِنْسَانٍ مَا عِلَّةً لِوُجُودِ الْخَيْرِ لَهُ . وَذٰلِكَ اِمَّا مِنَ الْخَيْرَاتِ الْمَوْجُودَةِ فِي ذَاتِهِ وَاِمَّا مِنَ الْخَيْرَاتِ الْمَوْجُودَةِ لَهُ مِنْ خَارِجٍ . وَعِلَّةُ الْاِتِّفَاقِ قَدْ تَكُونُ الصِّنَاعَةَ وَقَدْ تَكُونُ الطَّبِيعَةَ وَهُوَ الْاَكْثَرُ . فَمِثَالُ مَا يَكُونُ عَنِ الْاِتِّفَاقِ الطَّبِيعِيِّ اَنْ يُولَدَ الْاِنْسَانُ ذَا قُوَّةٍ وَهَيْئَةٍ يَعْسُرُ بِهَا قَبُولُهُ الْاُمُورَ الْوَارِدَةَ عَلَيْهِ مِنْ خَارِجٍ . فَاَمَّا اَنْ يَكُونَ الْاِنْسَانُ صَحِيحًا فَقَدْ يَكُونُ سَبَبُهُ الْاِتِّفَاقَ الطَّبِيعِيَّ مِثْلَ اَنْ يُولَدَ صَحِيحًا . وَقَدْ يَكُونُ الْاِتِّفَاقَ الصِّنَاعِيَّ مِثْلَ اَنْ يُسْقَى سُمًّا فَيَبْرَاَ مِنْ مَرَضٍ كَانَ بِهِ . وَاَمَّا الْجَمَالُ وَالضَّخَامَةُ فَعِلَّتُهُمَا الْاِتِّفَاقُ الصِّنَاعِيُّ وَالطَّبِيعِيُّ وَجُمْلَةُ الْاَمْرِ اَنَّ الْخَيْرَاتِ الَّتِي سَبَبُهَا الْجَدُّ الَّذِي هُوَ حُسْنُ الْاِتِّفَاقِ هِيَ الْخَيْرَاتُ الَّتِي يَكُونُ الْمَرْءُ مَغْبُوطًا بِهَا مَحْسُودًا عَلَيْهَا . وَقَدْ يَكُونُ

ٱلْجَدُّ عِلَّةً لِخَيْرَاتٍ لَيْسَتْ هِيَ خَيْرَاتٍ بِٱلْحَقِيقَةِ وَإِنَّمَا تُرَى خَيْرَاتٍ بِٱلْاِضَافَةِ وَٱلْمُقَايَسَةِ إِلَى ٱلْغَيْرِ. كَمَا قَدْ يَكُونُ ٱلْقُبْحُ فِي حَقِّ إِنْسَانٍ خَيْرًا مَا إِذَا رُئِيَ غَيْرُهُ أَقْبَحَ مِنْهُ وَمِثْلَ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانَانِ وَقَفَا مِنَ ٱلْحَرْبِ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ فَأَصَابَ أَحَدَهُمَا ٱلسَّهْمُ وَلَمْ يُصِبِ ٱلثَّانِيَ فَإِنَّ ٱلَّذِي لَمْ يُصِبْهُ ٱلسَّهْمُ يَرَى أَنَّهُ قَدْ نَالَهُ بِٱلْاِضَافَةِ إِلَى صَاحِبِهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ. وَبِخَاصَّةٍ إِنْ كَانَ ذٰلِكَ ٱلَّذِي لَمْ يُصِبْهُ ٱلسَّهْمُ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَشْهَدَ ٱلْحُرُوبَ كَثِيرًا وَٱلْآخَرُ لَمْ يَشْهَدْ قَطُّ إِلَّا تِلْكَ ٱلْحَرْبَ وَكَذٰلِكَ إِذَا وَجَدَ ٱلْكَثِيرَ وَاحِدٌ مِمَّنْ طَلَبُهُ. قَدْ يَرَى أَنَّهُ خَيْرٌ بِٱلْاِضَافَةِ إِلَى مَنْ لَمْ يُصِبْهُ وَإِنْ كَانَ ٱلْكَثِيرُ يَسِيرًا فَمِنْ هٰذَا وَنَحْوِهِ يَنْظُرُ ٱلْخَطِيبُ فِي سَعَادَةِ ٱلْجَدِّ. وَأَمَّا تَعْرِيفُ ٱلْفَضِيلَةِ فَأَوْلَى ٱلْمَوَاضِعِ بِذِكْرِهَا هُوَ عِنْدَ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا. لِأَنَّ ٱلْفَضِيلَةَ خَاصَّةٌ بِٱلْمَادِحِ وَلِذٰلِكَ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَادِحُ هُوَ ٱلَّذِي يَعْرِفُ بِٱسْتِقْصَاءٍ ٱلْفَضِيلَةَ وَٱلْفَضَائِلَ وَإِنْ كَانَ مِنْهَا مُسْتَقْبِلٌ وَحَاضِرٌ فَٱلْمَادِحُ إِنَّمَا يَنْظُرُ فِيهَا مِنْ جِهَةِ مَا هِيَ حَاضِرَةٌ وَٱلْمُشِيرُ مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا مُسْتَقْبَلَةٌ أَيْ نَافِعَةٌ

البحث السادس

في الفرق بين الخير والسعادة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لابن مسكويه)

نَبْدَأُ بِمَعُونَةِ اللهِ تَعَالَى فِي هٰذِهِ ٱلْمَقَالَةِ بِذِكْرِ ٱلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلْخَيْرِ وَٱلسَّعَادَةِ بَعْدَ اَنْ نَذْكُرَ اَلْفَاظَ اَرِسْطَاطَالِيسَ ٱقْتِدَاءً بِهِ وَتَوْفِيَةً لِحَقِّهِ فَنَقُولُ : اِنَّ ٱلْخَيْرَ عَلَى مَا حَدَّهُ وَٱسْتَحْسَنَهُ مِنْ آرَاءِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ هُوَ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْكُلِّ وَهِيَ ٱلْغَايَةُ ٱلْاَخِيرَةُ وَقَدْ يُسَمَّى ٱلشَّيْءُ ٱلنَّافِعُ فِي هٰذِهِ ٱلْغَايَةِ خَيْرًا فَاَمَّا ٱلسَّعَادَةُ فَهِيَ ٱلْخَيْرُ بِٱلْاِضَافَةِ اِلَى صَاحِبِهَا وَهِيَ كَمَالٌ لَهُ فَٱلسَّعَادَةُ اِذًا خَيْرٌ مَا . وَقَدْ تَكُونُ سَعَادَةُ ٱلْاِنْسَانِ غَيْرَ سَعَادَةِ ٱلْفَرَسِ وَسَعَادَةُ كُلِّ شَيْءٍ فِي تَمَامِهِ وَكَمَالِهِ ٱلَّذِي يَخُصُّهُ . فَاَمَّا ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي يَقْصِدُهُ ٱلْكُلُّ بِٱلشَّوْقِ فَهُوَ طَبِيعَةٌ تُقْصَدُ وَلَهَا ذَاتٌ وَهُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلْعَامُّ لِلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ هُمْ نَاسٌ فَهُمْ بِاَجْمِعِهِمْ مُشْتَرِكُونَ فِيهَا . فَاَمَّا ٱلسَّعَادَةُ فَهِيَ خَيْرٌ مَا لِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ فَهِيَ اِذًا بِٱلْاِضَافَةِ لَيْسَ لَهَا ذَاتٌ مُعَيَّنَةٌ وَهِيَ تَخْتَلِفُ بِٱلْاِضَافَةِ اِلَى قَاصِدِيهَا . فَلِذٰلِكَ يَكُونُ ٱلْخَيْرُ ٱلْمُطْلَقُ غَيْرَ مُخْتَلَفٍ فِيهِ وَقَدْ يُظَنُّ بِٱلسَّعَادَةِ اَنَّهَا تَكُونُ لِغَيْرِ ٱلنَّاطِقِينَ فَاِنْ كَانَ ذٰلِكَ فَاِنَّمَا هِيَ ٱسْتِعْدَادَاتٌ فِيهَا لِقَبُولِ تَمَامَاتِهَا وَكَمَالَاتِهَا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَلَا اِرَادَةٍ وَتِلْكَ ٱلْاِسْتِعْدَادَاتُ هِيَ ٱلشَّوْقُ اَوْ مَا يَجْرِي مَجْرَى ٱلشَّوْقِ

مِنَ النَّاطِقِينَ بِالْإِرَادَةِ. فَأَمَّا مَا يَتَأَتَّى لِلْحَيَوَانَاتِ فِي مَآكِلِهَا وَمَشَارِبِهَا وَرَاحَاتِهَا فَيَنْبَغِي أَنْ يُسَمَّى بَخْتًا أَوِ اتِّفَاقًا وَلَا يُؤَهَّلُ لِلِاسْمِ السَّعَادَةِ كَمَا يُسَمَّى فِي الْإِنْسَانِ أَيْضًا. وَإِنَّمَا اسْتُحْسِنَ الْحَدُّ الَّذِي ذَكَرْنَا لِلْخَيْرِ الْمُطْلَقِ لِأَنَّ الْعَقْلَ لَا يُطْلِقُ السَّعْيَ وَالْحَرَكَةَ إِلَى لَا نِهَايَةٍ وَهٰذَا أَوَّلٌ فِي الْعَقْلِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ الصِّنَاعَاتِ وَالْهِمَمَ وَالتَّدَابِيرَ الِاخْتِيَارِيَّةَ كُلَّهَا يُقْصَدُ بِهَا خَيْرٌ مَا وَمَا لَمْ يُقْصَدْ بِهِ خَيْرٌ مَا فَهُوَ عَبَثٌ وَالْعَقْلُ يَحْتَذِرُهُ وَيَمْتَنِعُ مِنْهُ وَبِالْوَاجِبِ صَارَ الْخَيْرُ الْمُطْلَقُ هُوَ الْمَقْصُودَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ النَّاسِ. وَلٰكِنْ بَقِيَ أَنْ يُعْلَمَ مَا هُوَ وَمَا الْغَايَةُ الْأَخِيرَةُ مِنْهُ الَّتِي هِيَ غَايَةُ الْخَيْرَاتِ الَّتِي تَرْتَقِي الْخَيْرَاتُ كُلُّهَا إِلَيْهَا حَتَّى نَجْعَلَهُ غَرَضَنَا وَنَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ وَلَا نَلْتَفِتَ إِلَى غَيْرِهِ وَلَا تَنْتَشِرَ أَفْكَارُنَا فِي الْخَيْرَاتِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَيْهِ إِمَّا تَأْدِيَةً بَعِيدَةً وَإِمَّا تَأْدِيَةً قَرِيبَةً وَلَا تَغْلَطَ أَيْضًا فِيمَا لَيْسَ بِخَيْرٍ فَنَظُنَّهُ خَيْرًا ثُمَّ تَفْنَى أَعْمَارُنَا فِي طَلَبِهِ وَالتَّعَبِ بِهِ وَكُلًّا سَنُبَيِّنُ بِمَشِيئَةِ اللهِ وَعَوْنِهِ

البحث السابع

في اقسام الخير والسعادة

(من الكتاب نفسه)

الْخَيْرُ عَلَى مَا قَسَمَهُ أَرِسْطَاطَالِيسُ وَحَكَاهُ عَنْهُ فُرْفُورِيُوسُ وَغَيْرُهُ هٰكَذَا قَالَ: الْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ شَرِيفَةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ

مَمْدُوحَةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ بِالْقُوَّةِ كَذٰلِكَ وَمَا هِيَ نَافِعَةٌ فِيهَا . فَالشَّرِيفَةُ مِنْهَا هِيَ الَّتِي شَرَفُهَا مِنْ ذَاتِهَا وَتَجْعَلُ مَنِ اقْتَنَاهَا شَرِيفًا وَهِيَ الْحِكْمَةُ وَالْعَقْلُ . وَالْمَمْدُوحَةُ مِنْهَا مِثْلُ الْفَضَائِلِ وَالْأَفْعَالِ الْجَمِيلَةِ الْإِرَادِيَّةِ . وَالَّتِي هِيَ بِالْقُوَّةِ مِثْلُ التَّهْيُّؤِ وَالِاسْتِعْدَادِ لِنَيْلِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ . وَالنَّافِعَةُ هِيَ جَمِيعُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُطْلَبُ لَا لِذَاتِهَا بَلْ لِيُتَوَصَّلَ بِهَا إِلَى الْخَيْرَاتِ . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) الْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ غَايَاتٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ لَيْسَتْ بِغَايَاتٍ . وَالْغَايَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ تَامَّةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ غَيْرُ تَامَّةٍ . فَالَّتِي هِيَ تَامَّةٌ كَالسَّعَادَةِ وَذٰلِكَ أَنَّا إِذَا وَصَلْنَا إِلَيْهَا لَمْ نَحْتَجْ أَنْ نَسْتَزِيدَ إِلَيْهَا شَيْئًا آخَرَ . وَالَّتِي هِيَ غَيْرُ تَامَّةٍ فَكَالصِّحَّةِ وَالْيَسَارِ مِنْ قِبَلِ أَنَّا إِذَا وَصَلْنَا إِلَيْهَا احْتَجْنَا أَنْ نَسْتَزِيدَ فَنَقْتَنِيَ أَشْيَاءَ أُخَرَ . وَأَمَّا الَّتِي لَيْسَتْ بِغَايَةٍ الْبَتَّةَ فَكَالْعِلَاجِ وَالتَّعَلُّمِ وَالرِّيَاضَةِ . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) الْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هُوَ مُؤْثِرٌ لِأَجْلِ ذَاتِهِ وَمِنْهَا مَا هُوَ مُؤْثِرٌ لِأَجْلِ غَيْرِهِ وَمِنْهَا مَا هُوَ مُؤْثِرٌ لِلْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا وَمِنْهَا مَا هُوَ خَارِجٌ عَنْهُمَا . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) الْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هُوَ خَيْرٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَمِنْهَا مَا هُوَ خَيْرٌ عِنْدَ الضَّرُورَةِ وَالِاتِّفَاقَاتِ الَّتِي تَتَّفِقُ لِبَعْضِ النَّاسِ وَفِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ وَأَيْضًا مِنْهَا مَا هُوَ خَيْرٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ وَمِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ وَفِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ وَمِنْهَا مَا لَيْسَ بِخَيْرٍ لِجَمِيعِ النَّاسِ وَلَا مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) الْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هُوَ فِي الْجَوْهَرِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي الْكَمِّيَّةِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي الْكَيْفِيَّةِ وَفِي سَائِرِ الْمَقُولَاتِ فَمِنْهَا كَالْقُوَى وَالْمَلَكَاتِ وَمِنْهَا

كَالْاَحْوَالِ وَمِنْهَا كَالْاَفْعَالِ وَمِنْهَا كَالْغَايَاتِ وَمِنْهَا كَالْمَوَادِّ وَمِنْهَا كَالْاٰلَاتِ. وَوُجُودُ الْخَيْرَاتِ فِي الْمَقُولَاتِ كُلِّهَا يَكُونُ عَلَى هٰذَا الْمِثَالِ اَمَّا فِي الْجَوْهَرِ اَعْنِي مَا لَيْسَ بِعَرَضٍ فَاللّٰهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الْخَيْرُ الْاَوَّلُ فَاِنَّ جَمِيعَ الْاَشْيَاءِ تَتَحَرَّكُ نَحْوَهُ بِالشَّوْقِ اِلَيْهِ وَلِاَنَّ مَآلَ الْخَيْرَاتِ الْاِلٰهِيَّةِ مِنَ الْبَقَاءِ وَالسَّرْمَدِيَّةِ وَالتَّمَامِ مِنْهُ. وَاَمَّا فِي الْكَمِّيَّةِ فَالْعَدَدُ الْمُعْتَدِلُ وَالْمِقْدَارُ الْمُعْتَدِلُ وَاَمَّا فِي الْكَيْفِيَّةِ فَكَاللَّذَّاتِ. وَاَمَّا فِي الْاِضَافَةِ فَكَالصَّدَقَاتِ وَالرِّئَاسَاتِ. وَاَمَّا فِي الْاَيْنِ وَالْمَتَى فَكَالْمَكَانِ الْمُعْتَدِلِ وَالزَّمَانِ الْاَنِيقِ الْبَهِجِ. وَاَمَّا فِي الْوَضْعِ فَكَالْقُعُودِ وَالْاِضْطِجَاعِ وَالْاِتِّكَاءِ الْمُوَافِقِ. وَاَمَّا فِي الْمِلْكِ فَكَالْاَمْوَالِ وَالْمَنَافِعِ. وَاَمَّا فِي الْاِنْفِعَالِ فَكَالسَّمَاعِ الطَّيِّبِ وَسَائِرِ الْمَحْسُوسَاتِ الْمُؤَثِّرَةِ. وَاَمَّا فِي الْفِعْلِ فَمِثْلُ نَفَاذِ الْاَمْرِ وَرَوَاجِ الْفِعْلِ. (وَعَلَى جِهَةٍ اُخْرَى) اَلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَعْقُولَاتٌ وَمِنْهَا مَحْسُوسَاتٌ

(وَاَمَّا السَّعَادَةُ) فَقَدْ قُلْنَا اِنَّهَا خَيْرٌ مَا وَهِيَ تَمَامُ الْخَيْرَاتِ وَغَايَاتُهَا وَالتَّمَامُ هُوَ الَّذِي اِذَا بَلَغْنَا اِلَيْهِ لَمْ نَحْتَجْ مَعَهُ اِلَى شَيْءٍ آخَرَ فَلِذٰلِكَ نَقُولُ اِنَّ السَّعَادَةَ هِيَ اَفْضَلُ الْخَيْرَاتِ وَلٰكِنَّا نَحْتَاجُ فِي هٰذَا التَّمَامِ الَّذِي هُوَ الْغَايَةُ الْقُصْوَى اِلَى سَعَادَاتٍ اُخَرَ وَهِيَ الَّتِي فِي الْبَدَنِ وَالَّتِي خَارِجَ الْبَدَنِ. (وَاَرِسْطَاطَالِيسُ) يَقُولُ اِنَّهُ يَعْسُرُ عَلَى الْاِنْسَانِ اَنْ يَفْعَلَ الْاَفْعَالَ الشَّرِيفَةَ بِلَا مَادَّةٍ مِثْلِ اتِّسَاعِ الْيَدِ وَكَثْرَةِ الْاَصْدِقَاءِ وَجُودَةِ النَّجْتِ

(وَاَمَّا اَقْسَامُ) السَّعَادَةِ عَلَى مَذْهَبِ هٰذَا الْحَكِيمِ فَهِيَ خَمْسَةٌ

اَقْسَامٍ : (اَحَدُهَا) فِي صِحَّةِ اَلْبَدَنِ وَلُطْفِ اَلْحَوَاسِّ وَيَكُونُ ذٰلِكَ مِنِ اعْتِدَالِ اَلْمِزَاجِ اَعْنِي اَنْ يَكُونَ جَيِّدَ اَلسَّمْعِ وَاَلْبَصَرِ وَاَلشَّمِّ وَاَلذَّوْقِ وَاَللَّمْسِ . (وَاَلثَّانِي) فِي اَلثَّرْوَةِ وَاَلْاَعْوَانِ وَاَشْبَاهِهِمَا حَتَّى يَتَّسِعَ لِاَنْ يَضَعَ اَلْمَالَ فِي مَوْضِعِهِ وَيَعْمَلَ بِهِ سَائِرَ اَلْخَيْرَاتِ وَيُؤَاسِيَ مِنْهُ اَهْلَ اَلْخَيْرَاتِ خَاصَّةً وَاَلْمُسْتَحِقِّينَ عَامَّةً وَيَعْمَلَ بِهِ كُلَّ مَا يَزِيدُ فِي فَضَائِلِهِ وَيَسْتَحِقَّ اَلثَّنَاءَ وَاَلْمَدْحَ عَلَيْهِ . (وَاَلثَّالِثُ) اَنْ تَحْسُنَ اُحْدُوثَتُهُ فِي اَلنَّاسِ وَيَنْشُرَ ذِكْرُهُ بَيْنَ اَهْلِ اَلْفَضْلِ فَيَكُونَ مَمْدُوحًا بَيْنَهُمْ يُكْثِرُونَ اَلثَّنَاءَ عَلَيْهِ لِمَا يَتَصَرَّفُ فِيهِ مِنَ اَلْاِحْسَانِ وَاَلْمَعْرُوفِ . (وَاَلرَّابِعُ) اَنْ يَكُونَ مُنْجِحًا فِي اَلْاُمُورِ وَذٰلِكَ اِذَا اَسْتَتَمَّ كُلَّ مَا رَوَّى فِيهِ وَعَزَمَ عَلَيْهِ حَتَّى يَصِيرَ اِلَى مَا يَأْمُلُهُ مِنْهُ . (وَاَلْخَامِسُ) اَنْ يَكُونَ جَيِّدَ اَلرَّأْيِ صَحِيحَ اَلْفِكْرِ سَلِيمَ اَلْاِعْتِقَادَاتِ فِي دِينِهِ بَرِيئًا مِنَ اَلْخَطَإِ وَاَلزَّلَلِ جَيِّدَ اَلْمَشُورَةِ فِي اَلْآرَاءِ . فَمَنِ اجْتَمَعَتْ لَهُ هٰذِهِ اَلْاَقْسَامُ كُلُّهَا فَهُوَ اَلسَّعِيدُ اَلْكَامِلُ عَلَى مَذْهَبِ هٰذَا اَلرَّجُلِ اَلْفَاضِلِ وَمَنْ حَصَلَ لَهُ بَعْضُهَا كَانَ حَظُّهُ مِنَ اَلسَّعَادَةِ بِحَسَبِ ذٰلِكَ . (وَاَمَّا اَلْحُكَمَاءُ) قَبْلَ هٰذَا اَلرَّجُلِ مِثْلُ فِيثَاغُورُسَ وَبُقْرَاطَ وَاَفْلَاطُونَ وَاَشْبَاهِهِمْ فَاِنَّهُمْ اَجْمَعُوا عَلَى اَنَّ اَلْفَضَائِلَ وَاَلسَّعَادَةَ كُلَّهَا فِي اَلنَّفْسِ وَحْدَهَا وَلِذٰلِكَ لَمَّا قَسَمُوا اَلسَّعَادَةَ جَعَلُوهَا كُلَّهَا فِي قُوَى اَلنَّفْسِ اَلَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي اَوَّلِ اَلْكِتَابِ (وَهِيَ اَلْحِكْمَةُ وَاَلشَّجَاعَةُ وَاَلْعِفَّةُ وَاَلْعَدَالَةُ) . وَاَجْمَعُوا عَلَى اَنَّ هٰذِهِ اَلْفَضَائِلَ هِيَ كَافِيَةٌ فِي اَلسَّعَادَةِ وَلَا يُحْتَاجُ مَعَهَا اِلَى غَيْرِهَا مِنْ فَضَائِلِ اَلْبَدَنِ

وَلَا مَا هُوَ خَارِجَ ٱلْبَدَنِ فَإِنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِذَا حَصَّلَ تِلْكَ ٱلْفَضَائِلَ لَمْ يَضُرَّهُ فِي سَعَادَتِهِ أَنْ يَكُونَ سَقِيمًا نَاقِصَ ٱلْأَعْضَاءِ مُبْتَلًى بِجَمِيعِ أَمْرَاضِ ٱلْبَدَنِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَلْحَقَ ٱلنَّفْسَ مِنْهَا مَضَرَّةٌ فِي خَاصِّ أَفْعَالِهَا مِثْلُ فَسَادِ ٱلْعَقْلِ وَرَدَاءَةِ ٱلذِّهْنِ وَمَا أَشْبَهَهُمَا. وَأَمَّا ٱلْفَقْرُ وَٱلْخُمُولُ وَسُقُوطُ ٱلْحَالِ وَسَائِرُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْخَارِجَةِ عَنْهَا فَلَيْسَتْ عِنْدَهُمْ بِقَادِحَةٍ فِي ٱلسَّعَادَةِ ٱلْبَتَّةَ. وَأَمَّا ٱلرَّوَاقِيُّونَ وَجَمَاعَةٌ مِنَ ٱلطَّبِيعِيِّينَ فَإِنَّهُمْ جَعَلُوا ٱلْبَدَنَ جُزْءًا مِنَ ٱلْإِنْسَانِ وَلَمْ يَجْعَلُوهُ آلَةً كَمَا شَرَحْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ فَلِذٰلِكَ ٱضْطَرُّوا إِلَى أَنْ يَجْعَلُوا ٱلسَّعَادَةَ ٱلَّتِي فِي ٱلنَّفْسِ غَيْرَ كَامِلَةٍ إِذَا لَمْ يَقْتَرِنْ بِهَا سَعَادَةُ ٱلْبَدَنِ وَمَا هُوَ خَارِجٌ ٱلْبَدَنِ أَيْضًا أَعْنِي ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْبَخْتِ وَٱلْجَدِّ. وَٱلْمُحَقِّقُونَ مِنَ ٱلْفَلَاسِفَةِ يَحْقِرُونَ أَمْرَ ٱلْبَخْتِ وَكُلَّ مَا يَكُونُ بِهِ وَمَعَهُ وَلَا يُؤَهِّلُونَ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءَ لِٱسْمِ ٱلسَّعَادَةِ لِأَنَّ ٱلسَّعَادَةَ شَيْءٌ ثَابِتٌ غَيْرُ زَائِلٍ وَلَا مُتَغَيِّرٍ وَهِيَ أَشْرَفُ ٱلْأُمُورِ وَأَكْرَمُهَا وَأَرْفَعُهَا فَلَا يَجْعَلُونَ لِأَخَسِّ ٱلْأَشْيَاءِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَغَيَّرُ وَلَا يَثْبُتُ وَلَا يَتَحَصَّلُ بِرَوِيَّةٍ وَلَا فِكْرٍ وَلَا يَتَأَتَّى بِعَقْلٍ وَفَضِيلَةٍ فِيهَا نَصِيبًا

وَلِهٰذَا ٱلنَّظَرِ ٱخْتَلَفَ ٱلْقُدَمَاءُ فِي ٱلسَّعَادَةِ ٱلْعُظْمَى فَظَنَّ قَوْمٌ أَنَّهَا لَا تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا بَعْدَ مُفَارَقَةِ ٱلْبَدَنِ وَٱلطَّبِيعِيَّاتِ كُلِّهَا. وَهٰؤُلَاءِ هُمُ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ حَكَيْنَا عَنْهُمْ أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ ٱلْعُظْمَى هِيَ فِي ٱلنَّفْسِ وَحْدَهَا وَسَمَّوُا ٱلْإِنْسَانَ ذٰلِكَ ٱلْجَوْهَرَ وَحْدَهُ دُونَ ٱلْبَدَنِ وَلِذٰلِكَ حَكَمُوا إِنَّهَا مَا دَامَتْ فِي ٱلْبَدَنِ وَمُتَّصِلَةً بِٱلطَّبِيعَةِ وَكَدِرِهَا

وَنَجَاسَاتِ ٱلْبَدَنِ وَضَرُورَاتِهِ وَحَاجَاتِ ٱلْإِنْسَانِ بِهِ وَٱفْتِقَارَاتِهِ إِلَى ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْكَثِيرَةِ فَلَيْسَتْ سَعِيدَةً عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ. وَأَيْضًا لَمَّا رَأَوْهَا لَا تَكْمُلُ لِوُجُودِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْعَقْلِيَّةِ لِأَنَّهَا لَا تَسْتَتِرُ عَنْهَا بِظُلْمَةِ ٱلْهُيُولَى أَعْنِي قُصُورَهَا وَنُقْصَانَهَا ظَنُّوا أَنَّهَا إِذَا فَارَقَتْ هٰذِهِ ٱلْكُدُورَةَ فَارَقَتِ ٱلْجَهَالَاتِ وَصَفَتْ وَخَاصَتْ وَقَبِلَتِ ٱلْإِضَاءَةَ وَٱلنُّورَ ٱلْإِلٰهِيَّ أَعْنِي ٱلْعَقْلَ ٱلتَّامَّ. وَيَجِبُ عَلَى رَأْيِ هٰؤُلَاءِ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَا يَسْعَدُ ٱلسَّعَادَةَ ٱلتَّامَّةَ إِلَّا فِي ٱلْآخِرَةِ بَعْدَ مَوْتِهِ. وَأَمَّا ٱلْفِرْقَةُ ٱلْأُخْرَى فَإِنَّهَا قَالَتْ إِنَّهُ مِنَ ٱلْقَبِيحِ ٱلشَّنِيعِ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ مَا دَامَ حَيًّا يَعْمَلُ ٱلْأَعْمَالَ ٱلصَّالِحَةَ وَيَعْتَقِدُ ٱلْآرَاءَ ٱلصَّحِيحَةَ وَيَسْعَى فِي تَحْصِيلِ ٱلْفَضَائِلِ كُلِّهَا نَفْسِهِ أَوَّلًا ثُمَّ لِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ ثَانِيًا وَيَخْلُفُ رَبَّ ٱلْعِزَّةِ تَقَدَّسَ ذِكْرُهُ فِي خَلْقِهِ بِهٰذِهِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْمَرْضِيَّةِ فَهُوَ شَقِيٌّ نَاقِصٌ حَتَّى إِذَا مَاتَ وَعُدِمَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ صَارَ سَعِيدًا تَامَّ ٱلسَّعَادَةِ وَأَرِسْطَاطَالِيسُ يَتَحَقَّقُ بِهٰذَا ٱلرَّأْيِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي ٱلسَّعَادَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَٱلْإِنْسَانُ هُوَ ٱلْمُرَكَّبُ عِنْدَهُ مِنْ بَدَنٍ وَنَفْسٍ وَلِذٰلِكَ حَدَّ ٱلْإِنْسَانَ بِٱلنَّاطِقِ ٱلْمَائِتِ وَبِٱلنَّاطِقِ ٱلْمَاشِي بِرِجْلَيْنِ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ. وَهٰذِهِ ٱلْفِرْقَةُ وَهِيَ ٱلَّتِي رَئِيسُهَا أَرِسْطَاطَالِيسُ رَأَتْ أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ إِذَا سَعَى لَهَا وَتَعِبَ بِهَا حَتَّى يَصِيرَ إِلَى أَقْصَاهَا. وَلَمَّا رَأَى ٱلْحَكِيمُ ذٰلِكَ وَأَنَّ ٱلنَّاسَ مُخْتَلِفُونَ فِي هٰذِهِ ٱلسَّعَادَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَأَنَّهَا قَدْ أَشْكَلَتْ عَلَيْهِمْ إِشْكَالًا شَدِيدًا ٱحْتَاجَ أَنْ يَتْعَبَ فِي ٱلْإِبَانَةِ عَنْهَا وَإِطَالَةِ ٱلْكَلَامِ فِيهَا. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَقِيرَ يَرَى أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ ٱلْعُظْمَى

فِي ٱلثَّرْوَةِ وَٱلْيَسَارِ وَٱلْمَرِيضَ يَرَى اَنَّهَا فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلسَّلَامَةِ وَٱلذَّلِيلَ يَرَى اَنَّهَا فِي ٱلْجَاهِ وَٱلسُّلْطَانِ وَٱلْخَلِيعَ يَرَى اَنَّهَا فِي ٱلتَّمْكِينِ مِنَ ٱلشَّهَوَاتِ كُلِّهَا عَلَى ٱخْتِلَافِهَا وَٱلْعَاشِقَ يَرَى اَنَّهَا فِي ٱلظَّفَرِ بِٱلْمَعْشُوقِ وَٱلْفَاضِلَ يَرَى اَنَّهَا فِي اِفَاضَةِ ٱلْمَعْرُوفِ عَلَى ٱلْمُسْتَحِقِّينَ وَٱلْفَيْلَسُوفَ يَرَى اَنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا اِذَا كَانَتْ مُرَتَّبَةً بِحَسَبِ تَقْسِيطِ ٱلْعَدْلِ اَعْنِي عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ وَفِي ٱلْوَقْتِ ٱلَّذِي يَجِبُ وَكَمَا يَجِبُ وَعِنْدَ مَنْ يَجِبُ فَهِيَ سَعَادَاتٌ كُلُّهَا وَمَا كَانَ مِنْهَا يُرَادُ لِشَيْءٍ آخَرَ فَذٰلِكَ ٱلشَّيْءُ اَحَقُّ بِٱسْمِ ٱلسَّعَادَةِ

وَلَمَّا كَانَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَاتَيْنِ ٱلْفِرْقَتَيْنِ نَظَرَتْ نَظَرًا مَا وَجَبَ اَنْ تُثْبِتَ فِي ذٰلِكَ مَا نَرَاهُ صَوَابًا وَجَامِعًا لِلرَّأْيَيْنِ فَنَقُولُ : اِنَّ ٱلْاِنْسَانَ ذُو فَضِيلَةٍ رُوحَانِيَّةٍ يُنَاسِبُ بِهَا ٱلْاَرْوَاحَ ٱلطَّيِّبَةَ ٱلَّتِي تُسَمَّى مَلَائِكَةً وَذُو فَضِيلَةٍ جِسْمَانِيَّةٍ يُنَاسِبُ بِهَا ٱلْاَنْعَامَ لِاَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْهُمَا فَهُوَ بِٱلْخَيْرِ ٱلْجِسْمَانِيِّ ٱلَّذِي يُنَاسِبُ بِهِ ٱلْاَنْعَامَ مُقِيمٌ فِي هٰذَا ٱلْعَالَمِ ٱلسُّفْلِيِّ مُدَّةً قَصِيرَةً لِيُعَمِّرَهُ وَيُنَظِّمَهُ وَيُرَتِّبَهُ حَتَّى اِذَا ظَفِرَ بِهٰذِهِ ٱلْمَرْتَبَةِ عَلَى ٱلْكَمَالِ ٱنْتَقَلَ اِلَى ٱلْعَالَمِ ٱلْعُلْوِيِّ وَاَقَامَ فِيهِ دَائِمًا سَرْمَدًا فِي صُحْبَةِ ٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلْاَرْوَاحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَيَنْبَغِي اَنْ يُفْهَمَ مِنْ قَوْلِنَا ٱلْعَالَمَ ٱلسُّفْلِيَّ وَٱلْعَالَمَ ٱلْعُلْوِيَّ مَا ذَكَرْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ فَاِنَّا قَدْ قُلْنَا هُنَاكَ اِنَّا لَسْنَا نَعْنِي بِٱلْعُلْوِيِّ ٱلْمَكَانَ ٱلْاَعْلَى فِي ٱلْحِسِّ وَلَا بِٱلْعَالَمِ ٱلسُّفْلِيِّ ٱلْمَكَانَ ٱلْاَسْفَلَ فِي ٱلْحِسِّ بَلْ كُلُّ مَحْسُوسٍ فَهُوَ اَسْفَلُ وَاِنْ كَانَ مَحْسُوسًا فِي ٱلْمَكَانِ ٱلْاَعْلَى وَكُلُّ مَعْقُولٍ فَهُوَ

اَعْلَى وَاِنْ كَانَ مَعْقُولًا فِي ٱلْمَكَانِ ٱلْاَسْفَلِ . وَيَنْبَغِي اَنْ يُعْلَمَ اَنَّهُ لَيْسَ يُحْتَاجُ فِي صِحَّةِ ٱلْاَرْوَاحِ ٱلطَّيِّبَةِ ٱلْمُسْتَغْنِيَةِ عَنِ ٱلْاَبْدَانِ اِلَى شَيْءٍ مِنَ ٱلسَّعَادَاتِ ٱلْبَدَنِيَّةِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَاهَا سِوَى سَعَادَةِ ٱلنَّفْسِ فَقَطْ اَعْنِي ٱلْمَعْقُولَاتِ ٱلْاَبَدِيَّةَ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْحِكْمَةُ فَقَطْ . فَاِذَا مَا دَامَ ٱلْاِنْسَانُ اِنْسَانًا فَلَيْسَ تَتِمُّ لَهُ ٱلسَّعَادَةُ اِلَّا بِتَحْصِيلِ ٱلْحَالَيْنِ جَمِيعًا وَلَيْسَ يَحْصُلَانِ عَلَى ٱلتَّمَامِ اِلَّا بِٱلْاَشْيَاءِ ٱلنَّافِعَةِ فِي ٱلْوُصُولِ اِلَى ٱلْحِكْمَةِ ٱلْاَبَدِيَّةِ . فَٱلسَّعِيدُ اِذًا مِنَ ٱلنَّاسِ يَكُونُ فِي اِحْدَى مَرْتَبَتَيْنِ اِمَّا فِي مَرْتَبَةِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ مُتَعَلِّقًا بِاَحْوَالِهَا ٱلسُّفْلَى سَعِيدًا بِهَا وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ يُطَالِعُ ٱلْاُمُورَ ٱلشَّرِيفَةَ بَاحِثًا عَنْهَا مُشْتَاقًا اِلَيْهَا مُتَحَرِّكًا نَحْوَهَا مُغْتَبِطًا بِهَا . وَاِمَّا اَنْ يَكُونَ فِي رُتْبَةِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلرُّوحَانِيَّةِ مُتَعَلِّقًا بِاَحْوَالِهَا ٱلْعُلْيَا سَعِيدًا بِهَا وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ يُطَالِعُ ٱلْاُمُورَ ٱلْبَدَنِيَّةَ مُعْتَبِرًا بِهَا نَاظِرًا فِي عَلَامَاتِ ٱلْقُدْرَةِ ٱلْاِلٰهِيَّةِ وَدَلَائِلِ ٱلْحِكْمَةِ ٱلْبَالِغَةِ مُقْتَدِيًا بِهَا نَاظِمًا لَهَا مُفِيضًا لِلْخَيْرَاتِ عَلَيْهَا سَابِقًا لَهَا نَحْوَ ٱلْاَفْضَلِ فَٱلْاَفْضَلِ بِحَسَبِ قَبُولِهَا وَعَلَى نَحْوِ ٱسْتِطَاعَتِهَا . وَاَيُّ ٱمْرِىءٍ لَمْ يَحْصُلْ فِي اِحْدَى هَاتَيْنِ ٱلْمَنْزِلَتَيْنِ فَهُوَ فِي رُتْبَةِ ٱلْاَنْعَامِ بَلْ هُوَ اَضَلُّ وَاِنَّمَا صَارَ اَضَلَّ لِاَنَّ تِلْكَ غَيْرُ مُعَرَّضَةٍ لِهٰذِهِ ٱلْخَيْرَاتِ وَلَا اُعْطِيَتِ ٱسْتِطَاعَةً تَتَحَرَّكُ بِهَا نَحْوَ هٰذِهِ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلْعَالِيَةِ وَاِنَّمَا تَتَحَرَّكُ بِقُوَاهَا نَحْوَ كَمَالَاتِهَا ٱلْخَاصَّةِ بِهَا وَٱلْاِنْسَانُ مُعَرَّضٌ لَهَا مَنْدُوبٌ اِلَيْهَا مُزَاحُ ٱلْعِلَّةِ فِيهَا وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ غَيْرُ مُحَصِّلٍ لَهَا وَلَا سَاعٍ نَحْوَهَا وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ مُؤْثِرٌ لِضِدِّهَا يَسْتَعْمِلُ قُوَاهُ ٱلشَّرِيفَةَ فِي

ٱلْأُمُورِ ٱلدِّينِيَّةِ وَتِلْكَ مُخَصِّصَةٌ لِكَمَالَاتِهَا ٱلَّتِي تَخُصُّهَا. فَإِذَا ٱلْأَنْعَامُ إِذَا مُنِعَتِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْإِنْسِيَّةَ حُرِمَتْ جِوَارَ ٱلْأَرْوَاحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَدُخُولَ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ بِهَا ٱلْمُتَّقُونَ فَهِيَ مَعْذُورَةٌ وَٱلْإِنْسَانُ غَيْرُ مَعْذُورٍ. وَمَثَلُ ٱلْأَوَّلِ مَثَلُ ٱلْأَعْمَى إِذَا جَارَ عَنِ ٱلطَّرِيقِ فَتَرَدَّى فِي بِئْرٍ فَهُوَ مَرْحُومٌ غَيْرُ مَلُومٍ وَمَثَلُ ٱلثَّانِي مَثَلُ بَصِيرٍ يَجُورُ عَلَى بَصِيرَةٍ حَتَّى يَتَرَدَّى فِي ٱلْبِئْرِ فَهُوَ مَمْقُوتٌ مَلُومٌ. وَإِذْ قَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ ٱلسَّعِيدَ لَا مَحَالَةَ فِي إِحْدَى ٱلْمَرْتَبَتَيْنِ ٱللَّتَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا فَقَدْ تَبَيَّنَ أَيْضًا أَنَّ أَحَدَهُمَا نَاقِصٌ مُقَصِّرٌ عَنِ ٱلْآخَرِ وَأَنَّ ٱلْأَنْقَصَ مِنْهُمَا لَيْسَ يَخْلُو وَلَا يَتَعَرَّى مِنَ ٱلْآلَامِ وَٱلْحَسَرَاتِ لِأَجْلِ خَدَائِعِ ٱلطَّبِيعَةِ وَٱلزَّخَارِفِ ٱلْحِسِّيَّةِ ٱلَّتِي تَعْتَرِضُهُ فِيمَا يُلَابِسُهُ وَتَعُوقُهُ عَمَّا يُلَاحِظُهُ وَتَمْنَعُهُ مِنَ ٱلتَّرَقِّي فِيهَا عَلَى مَا يَنْبَغِي وَتَشْغَلُهُ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ فَصَاحِبُ هٰذِهِ ٱلْمَرْتَبَةِ غَيْرُ كَامِلٍ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَلَا سَعِيدٍ تَامٍّ. وَأَنَّ صَاحِبَ ٱلْمَرْتَبَةِ ٱلْأُخْرَى هُوَ ٱلسَّعِيدُ ٱلتَّامُّ وَهُوَ ٱلَّذِي نَوَّرَ حَظُّهُ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ فَهُوَ مُقِيمٌ بِرُوحَانِيَّتِهِ بَيْنَ ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَى يَسْتَمِدُّ مِنْهُمْ لَطَائِفَ ٱلْحِكْمَةِ وَيَسْتَنِيرُ بِٱلنُّورِ ٱلْإِلٰهِيِّ وَيَسْتَزِيدُ مِنْ فَضَائِلِهِ بِحَسَبِ عِنَايَتِهِ بِهَا وَقِلَّةِ عَوَائِقِهِ عَنْهَا وَلِذٰلِكَ يَكُونُ أَبَدًا خَالِيًا مِنَ ٱلْآلَامِ وَٱلْحَسَرَاتِ ٱلَّتِي لَا يَخْلُو صَاحِبُ ٱلْمَرْتَبَةِ ٱلْأُولَى مِنْهَا. وَيَكُونُ مَسْرُورًا أَبَدًا بِذَاتِهِ مُغْتَبِطًا بِحَالِهِ وَبِمَا يَحْصُلُ لَهُ دَائِمًا مِنْ فَيْضِ نُورِ ٱلْأَوَّلِ فَلَيْسَ يَسُرُّ إِلَّا بِتِلْكَ ٱلْأَحْوَالِ وَلَا يَغْتَبِطُ إِلَّا بِتِلْكَ ٱلْمَحَاسِنِ وَلَا يَهِشُّ إِلَّا لِإِظْهَارِ تِلْكَ ٱلْحِكْمَةِ بَيْنَ أَهْلِهَا وَلَا يَرْتَاحُ إِلَّا لِمَنْ نَاسَبَهُ أَوْ قَارَبَهُ

وَاَحَبَّ ٱلْاِقْتِبَاسَ مِنْهُ . وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْمَرْتَبَةُ ٱلَّتِي مَنْ وَصَلَ اِلَيْهَا فَقَدْ وَصَلَ اِلَى آخِرِ ٱلسَّعَادَاتِ وَاَقْصَاهَا وَهُوَ ٱلَّذِي لَا يُبَالِي بِفِرَاقِ ٱلْاَحْبَابِ مِنْ اَهْلِ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَتَحَسَّرُ عَلَى مَا يَفُوتُهُ مِنَ ٱلتَّنَعُّمِ فِيهَا وَهُوَ ٱلَّذِي يَرَى جِسْمَهُ وَمَالَهُ وَجَمِيعَ خَيْرَاتِ ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِي عَدَدْنَاهَا فِي ٱلسَّعَادَاتِ ٱلَّتِي فِي بَدَنِهِ وَٱلْخَارِجَةِ عَنْهُ كُلَّهَا كَلَّا عَلَيْهِ اِلَّا فِي ضَرُورَاتٍ يَحْتَاجُ اِلَيْهَا لِبَدَنِهِ ٱلَّذِي هُوَ مَرْبُوطٌ بِهِ لَا يَسْتَطِيعُ ٱلْاِنْحِلَالَ عَنْهُ اِلَّا عِنْدَ مَشِيئَةِ خَالِقِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَشْتَاقُ اِلَى صُحْبَةِ اَشْكَالِهِ وَمُلَاقَاةِ مَنْ يُنَاسِبُهُ مِنَ ٱلْاَرْوَاحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَٱلْمَلَائِكَةِ ٱلْمُقَرَّبِينَ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا يَفْعَلُ اِلَّا مَا اَرَادَهُ ٱللّٰهُ مِنْهُ وَلَا يَخْتَارُ اِلَّا مَا قَرُبَ اِلَيْهِ وَلَا يُخَالِفُهُ اِلَى شَيْءٍ مِنْ شَهَوَاتِهِ ٱلرَّدِيئَةِ وَلَا يَخْدَعُ بِخَدَائِعِ ٱلطَّبِيعَةِ وَلَا يَلْتَفِتُ اِلَى شَيْءٍ يَعُوقُهُ عَنْ سَعَادَتِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا يَحْزَنُ عَلَى فَقْدِ مَحْبُوبٍ وَلَا يَتَحَسَّرُ عَلَى فَوْتِ مَطْلُوبٍ . اِلَّا اَنَّ ٱلْمَرْتَبَةَ ٱلْاَخِيرَةَ تَتَفَاوَتُ تَفَاوُتًا عَظِيمًا اَعْنِي اَنَّ مَنْ يَصِلُ اِلَيْهَا مِنَ ٱلنَّاسِ يَكُونُ عَلَى طَبَقَاتٍ كَثِيرَةٍ غَيْرِ مُتَقَارِبَةٍ وَهَاتَانِ ٱلْمَرْتَبَتَانِ هُمَا ٱللَّتَانِ سَاقَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْكَلَامَ اِلَيْهِمَا وَٱخْتَارَ ٱلْمَرْتَبَةَ ٱلْاَخِيرَةَ مِنْهُمَا . .

(وَاِذْ قَدْ لَخَّصْنَا اَمْرَ هَاتَيْنِ ٱلْمَنْزِلَتَيْنِ مِنَ ٱلسَّعَادَةِ ٱلْقُصْوَى) فَقَدْ تَبَيَّنَ بَيَانًا كَافِيًا اَنَّ اِحْدَاهُمَا بِٱلْاِضَافَةِ اِلَيْنَا اُولَى وَٱلْاُخْرَى ثَانِيَةٌ وَمِنَ ٱلْمُحَالِ اَنْ نَسْلُكَ اِلَى ٱلثَّانِيَةِ مِنْ غَيْرِ اَنْ نَمُرَّ بِٱلْاُولَى . . ثُمَّ اَعْلَمْ اَنَّ مَنْ عُنِيَ بِبَعْضِ ٱلْقُوَى ٱلَّتِي ذَكَرْنَاهَا دُونَ بَعْضٍ اَوْ تَعَمَّدَ لِاِصْلَاحِهَا فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ لَمْ تَحْصُلْ لَهُ ٱلسَّعَادَةُ ٱلتَّامَّةُ . . .

البحث الثامن

في انهُ ينبغي للخطيب المشير ان يعرف الاشياء النافعة وفي مقابلة الخير مع النافع ومقابلة الخيور مع بعضها

(من كتاب خطابة ارسطاطاليس تعريب ابن رشد)

قَدْ تَبَيَّنَتِ ٱلْغَايَاتُ ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُ وَمِنْهَا تَتَبَيَّنُ اَضْدَادُهَا ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا يَمْنَعُ ٱلْمُشِيرُ وَهِيَ تُؤَلَّفُ مِنْهَا اَقَاوِيلُ ٱلْمَنْعِ اِذْ كَانَ عَدَدُهَا هُوَ ذٰلِكَ ٱلْعَدَدَ بِعَيْنِهِ وَوَضْعُهَا مِنَ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْمَشُورِيَّةِ هُوَ ذٰلِكَ ٱلْوَضْعُ بِعَيْنِهِ. وَمِنْ اَجْلِ اَنَّ ٱلْمُشِيرَ اِنَّمَا غَرَضُهُ ٱلْمُقَدَّمُ فِي فِكْرِهِ هُوَ اَنْ يُشِيرَ بِٱلشَّيْءِ ٱلنَّافِعِ ٱلَّذِي تَلْزَمُ عَنْهُ وَاحِدَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ وَذٰلِكَ اَنَّ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ هِيَ اَوَّلُ ٱلْفِكْرَةِ وَآخِرُ ٱلْعَمَلِ وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلنَّافِعَةُ هِيَ آخِرُ ٱلْفِكْرَةِ وَاَوَّلُ ٱلْعَمَلِ وَاَعْنِي بِاَوَّلِ ٱلْفِكْرِ ٱلنَّتِيجَةَ وَبِآخِرِ ٱلْفِكْرِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ

فَقَدْ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ لِلْخَطِيبِ اُصُولٌ وَقَوَانِينُ يَعْرِفُ بِهَا ٱلْاَشْيَاءَ ٱلنَّافِعَةَ فِي ٱلْغَايَاتِ وَهِيَ ٱلْعَوَاقِبُ اِذْ كَانَتْ هِيَ اَوَّلَ ٱلْعَمَلِ وَٱلنَّافِعَاتُ وَاِنْ لَمْ تَكُنْ خَيْرًا مُطْلَقًا فَهِيَ خَيْرٌ لِاَنَّهَا طَرِيقٌ اِلَى ٱلْخَيْرِ بِاِطْلَاقٍ. فَٱلْخَيْرُ ٱلْمُطْلَقُ هُوَ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ اَجْلِ نَفْسِهِ وَيُخْتَارُ غَيْرُهُ مِنْ اَجْلِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُ اِلَيْهِ ٱلْكُلُّ. وَاَعْنِي هَا هُنَا بِٱلْكُلِّ ذَوِي ٱلْفَهْمِ ٱلْحَسَنِ مِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلذَّكَاءِ. وَذٰلِكَ قَدْ يَكُونُ خَيْرًا فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَقَدْ يَكُونُ خَيْرًا فِي ٱلظَّنِّ وَذٰلِكَ بِحَسَبِ اَعْتِقَادِ اِنْسَانٍ اِنْسَانٍ فِي هٰذَا ٱلْخَيْرِ. وَلِذٰلِكَ اِذَا كَانَ ٱلشَّيْءُ ٱلَّذِي

يَعْتَقِدُ فِيهِ ٱلْإِنْسَانُ هٰذَا ٱلِاعْتِقَادَ مَوْجُودٌ لَهُ فَقَدِ ٱكْتَفَى بِهِ وَنَالَ حَاجَتَهُ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ تَشَوُّقٌ إِلَى شَيْءٍ اَصْلًا. وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلنَّافِعَةُ فِي هٰذَا ٱلْخَيْرِ هِيَ بِٱلْجُمْلَةِ اَرْبَعَةُ اَجْنَاسٍ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلْفَاعِلَةُ وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلْحَافِظَةُ لَهُ وَمَا يَلْزَمُ ٱلْفَاعِلَةَ وَذٰلِكَ اَنَّ لَازِمَ ٱلشَّيْءِ يُعَدُّ مَعَ ٱلشَّيْءِ. وَكَذٰلِكَ اَيْضًا لَازِمُ ٱلْمُفْسِدِ لِلشَّيْءِ يُعَدُّ مَعَ ٱلْمُفْسِدِ. وَلَازِمُ ضِدِّ ٱلْفَاعِلِ مَعَ ضِدِّ ٱلْفَاعِلِ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَنْهِي عَنْهَا وَلُزُومُ ٱلْغَايَةِ لِلْفَاعِلِ رُبَّمَا كَانَ مَعًا مِثْلَ مَا يَلْزَمُ ٱلْمَدْحَ اقْتِنَاءُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْمَمْدُوحَةِ وَرُبَّمَا كَانَ مُتَاَخِّرًا مِثْلَ ٱلْعِلْمِ ٱلَّذِي يَتْبَعُ ٱلتَّعَلُّمَ بِآخِرَةٍ. وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلْفَاعِلَةُ ثَلَاثَةُ اَصْنَافٍ اِمَّا بِٱلذَّاتِ وَاِمَّا بِٱلْعَرَضِ. وَٱلَّذِي بِٱلذَّاتِ اثْنَانِ اِمَّا قَرِيبٌ مِثْلُ فِعْلِ ٱلْغِذَاءِ لِلصِّحَّةِ. وَاِمَّا بَعِيدٌ مِثْلُ ٱلطَّبِيبِ. وَٱلَّذِي بِٱلْعَرَضِ مِثْلُ فِعْلِ ٱلتَّعَبِ فِي ٱلرِّيَاضَةِ لِلصِّحَّةِ. وَاِذَا كَانَ وَاجِبًا اَنْ تَكُونَ اَصْنَافُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْفَاعِلَةِ لِلْخَيْرِ هِيَ هٰذِهِ ٱلْاَصْنَافَ ٱلثَّلَاثَةَ فَبِٱضْطِرَارٍ اَنْ تَكُونَ ٱلْاُمُورُ ٱلنَّافِعَةُ فِي ٱلْخَيْرِ بَعْضُهَا خَيْرٌ فِي ذَاتِهَا مِثْلُ نَفْعِ ٱلْغِذَاءِ فِي ٱلصِّحَّةِ وَبَعْضُهَا شَرٌّ فِي ذَاتِهَا وَخَيْرٌ مَا بِحَسَبِ نَفْعِهَا فِي ٱلْخَيْرِ مِثْلُ شُرْبِ ٱلدَّوَاءِ لِلصِّحَّةِ. وَٱلشُّرُورُ ٱلَّتِي تَنْفَعُ فِي ٱلْخَيْرِ هِيَ نَافِعَةٌ عَلَى وَجْهَيْنِ اَحَدُهُمَا اَنْ يُسْتَفَادَ بِهَا خَيْرٌ هُوَ اَعْظَمُ مِنَ ٱلشَّرِّ ٱللَّاحِقِ مِنِ ٱسْتِعْمَالِهَا مِثْلَ ٱسْتِفَادَةِ ٱلصِّحَّةِ عَنْ شُرْبِ ٱلدَّوَاءِ وَمِثْلُ ٱلْمَشَقَّةِ ٱلْيَسِيرَةِ فِي ٱسْتِفَادَةِ ٱلْمَالِ ٱلْكَثِيرِ. وَمِنْهَا مَا تُنَالُ بِهِ ٱلسَّلَامَةُ مِنْ شَرٍّ هُوَ اَعْظَمُ مِنَ ٱلشَّرِّ ٱلَّذِي يُنَالُ مِنْهَا مِثْلُ مَا يَنَالُ رُكَّابَ ٱلْبَحْرِ مِنَ ٱلسَّلَامَةِ اِذَا طَرَحُوا اَمْتِعَتَهُمْ فَاِنَّ

طَرْحَ امْتِعَتِهِمْ شَرٌّ لٰكِنْ تُسْتَفَادُ مِنْهُ السَّلَامَةُ مِنْ شَرٍّ هُوَ اَعْظَمُ وَهُوَ الْعَطَبُ. وَالْخَيْرَاتُ الَّتِي تُسْتَفَادُ مِنَ الْخَيْرَاتِ يُسَمِّيهَا اَرِسْطُو فَوَائِدَ بِاِطْلَاقٍ وَاَمَّا تِلْكَ فَيُسَمِّيهَا انْتِقَالًا وَيَعْنِي بِذٰلِكَ اَنَّهَا انْتِقَالٌ مِنْ شَرٍّ اِلَى مَا هُوَ اَخَفُّ شَرًّا مِنْهُ اَوِ انْتِقَالٌ مِنْ شَرٍّ اِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ

(قَالَ) وَالْفَضَائِلُ وَاِنْ كَانَتْ غَايَاتٍ فَهِيَ اَيْضًا خَيْرَاتٌ فِي اَنْفُسِهَا وَنَافِعَةٌ فِي الْخَيْرِ فَاِنَّ الْمُقْتَنِينَ لَهَا هُمْ بِهَا حَسَنُو الْاَحْوَالِ وَهِيَ مَعَ هٰذَا فَاعِلَةٌ لِلْخَيْرِ وَمُسْتَعْمَلَةٌ فِيهِ

(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي اَنْ نُخْبِرَ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ وَكَيْفَ هِيَ خَيْرٌ فِي نَفْسِهَا وَكَيْفَ هِيَ فَاعِلَةٌ لِلْخَيْرِ وَنُفَصِّلَ الْاَمْرَ فِي ذٰلِكَ. وَاللَّذَاتُ اَيْضًا هِيَ خَيْرٌ بِنَفْسِهَا لِاَنَّ جَمِيعَ الْحَيَوَانِ يَشْتَاقُ اِلَيْهَا. وَالْاُمُورُ اللَّذِيذَةُ اِنَّمَا تَكُونُ خَيْرًا اِذَا كَانَ بِهَا الْمُلْتَذُّ حَسَنَ الْحَالِ وَقَدْ يَسْتَبِينُ مِنَ التَّفَحُّصِ اَنَّهَا خَيْرٌ وَاَنَّهَا قَدْ تَكُونُ نَافِعَةً فِي الْخَيْرِ وَاَجْزَاءِ صَلَاحِ الْحَالِ. وَبِالْجُمْلَةِ مِنْهَا مَا هِيَ غَايَاتٌ فَقَطْ. وَمِنْهَا مَا قَدْ تُعَدُّ غَايَاتٍ وَهِيَ نَافِعَةٌ اَيْضًا فِي الْغَايَاتِ. وَذٰلِكَ اَنَّ لِبَعْضِهَا تَرْتِيبًا عِنْدَ بَعْضٍ اَعْنِي اَنَّ بَعْضَهَا عِلَّةٌ لِوُجُودِ بَعْضٍ وَمُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّ الشَّجَاعَةَ وَالْحِكْمَةَ وَالْعَفَافَ وَكِبَرَ النَّفْسِ وَالنُّبْلَ وَمَا اَشْبَهَهَا مِنْ فَضَائِلِ النَّفْسِ قَدْ تُخْتَارُ اَشْيَاءَ كَثِيرَةً مِنْ اَجْزَاءِ صَلَاحِ الْحَالِ مِنْ اَجْلِهَا. وَكَذٰلِكَ الصِّحَّةُ وَالْجَمَالُ مِنْ فَضَائِلِ الْجَسَدِ قَدْ تُخْتَارُ اَشْيَاءُ مِنْ اَجْلِهَا هِيَ مِنْ صَلَاحِ الْحَالِ وَهِيَ فَاعِلَاتُهَا وَكَذٰلِكَ تُخْتَارُ

فَاعِلَاتُ اَشْيَاءَ اُخَرَ مِنْ صَلَاحِ الْحَالِ مِثْلُ فَاعِلَاتِ اللَّذَّةِ وَفَاعِلَاتِ السِّيرَةِ الْحَسَنَةِ . وَلِذٰلِكَ مَا يُظَنُّ بِالْيَسَارِ اَنَّهُ خَيْرٌ اِذْ كَانَ سَبَبًا لِهٰذَيْنِ الْاَمْرَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ اَحَدُهُمَا اللَّذَّةُ وَالْاٰخَرُ حُسْنُ السِّيرَةِ وَصَلَاحُ الْحَالِ بِكَثْرَةِ الْاِخْوَانِ قَدْ يُوجَدُ فَاعِلًا لِاَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَذٰلِكَ اِذَا كَانَتِ الصَّدَاقَةُ الَّتِي بَيْنَهُمَا مِنْ اَجْلِ الْمَحَبَّةِ نَفْسِهَا لَا اَنْ تَكُونَ الْمَحَبَّةُ بَيْنَهُمَا مِنْ اَجْلِ شَيْءٍ آخَرَ فَاِنَّ الْاِخْوَانَ الَّذِينَ بِهٰذِهِ الصِّفَةِ هُمْ يَفْعَلُونَ الْكَرَامَةَ وَالتَّمْجِيدَ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا مِنَ الْخَيْرَاتِ وَذٰلِكَ يَكُونُ مِنْهُمْ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ فَاِنَّ الْاَقْوَالَ وَالْاَفْعَالَ الَّتِي تُفْعَلُ بِهَا الْكَرَامَةُ وَالتَّمْجِيدُ وَغَيْرُ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا هِيَ خَيْرٌ وَنَافِعٌ

(قَالَ) وَمِنَ النَّافِعَاتِ بِذَاتِهَا الْمَلَكَاتُ الطَّبِيعِيَّةُ الَّتِي يَكُونُ الْاِنْسَانُ بِهَا مُسْتَعِدًّا لِاَشْيَاءَ حَسَنَةٍ مِثْلِ الذَّكَاءِ وَالْحِفْظِ وَالتَّعَلُّمِ وَخِفَّةِ الْحَرَكَاتِ . وَكَذٰلِكَ الْمَلَكَاتُ مِثْلُ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَكَذٰلِكَ السِّيَرُ الْمَحْمُودَةُ وَهٰذِهِ كُلُّهَا مَعَ اَنَّهَا نَافِعَةٌ فِي غَيْرِهَا هِيَ خَيْرٌ فِي نَفْسِهَا وَاِنْ لَمْ يَتَّصِلْ بِهَا خَيْرٌ آخَرُ فَهِيَ خَيْرَاتٌ مُنْفَرِدَةٌ بِاَنْفُسِهَا مُخْتَارَةٌ لِذَاتِهَا وَالْبُرْءُ اَيْضًا خَيْرٌ نَافِعٌ

(قَالَ) فَهٰذِهِ هِيَ الْخَيْرَاتُ الَّتِي يُعْتَرَفُ بِهَا وَيُجْتَمَعُ اَنَّهَا خَيْرَاتٌ وَنَافِعَاتٌ وَمَتَى بُيِّنَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا اَنَّهَا خَيْرٌ فَذٰلِكَ بَيَانٌ لَا عَلَى طَرِيقِ الْمِرَاءِ وَالْمُغَالَطَةِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ . وَاَمَّا اِذَا بُيِّنَ فِي شَيْءٍ مِنْ اَضْدَادِ هٰذِهِ اَنَّهَا خَيْرٌ وَفِيهَا اَنَّهَا شَرٌّ فَذٰلِكَ يَكُونُ فِي هٰذِهِ

ٱلصِّنَاعَةِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمِرَاءِ أَعْنِي بِبَيَانٍ سُوفِسْطَائِيٍّ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلشَّرَّ إِنَّمَا يَنْفَعُ بِٱلْعَرَضِ مِثْلَ أَنْ يُبَيِّنَ خَطِيبٌ لِأَهْلِ مَدِينَةٍ مَا أَنَّ ٱلْجُبْنَ لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنَّهُمْ إِنْ شَجُعُوا خَرَجُوا عَنِ ٱلْمَدِينَةِ فَقَالَ مِنْهُمْ ٱلْعَدُوُّ وَلٰكِنِ ٱلْجُبْنُ لَيْسَ هُوَ خَيْرًا عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَإِنَّمَا كَانَ خَيْرًا بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ٱلَّذِينَ عُرِضَ لَهُمْ هٰذَا. وَأَمَّا ٱلنَّافِعُ فِي ٱلْأَكْثَرِ وَبِٱلذَّاتِ لِلْإِنْسَانِ فَهُوَ ٱلْخَيْرُ كَمَا أَنَّ ٱلشَّرَّ ٱلْمُضَادَّ لِلْخَيْرِ هُوَ نَافِعٌ لِلْأَعْدَاءِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْجُبْنَ لَمَّا كَانَ شَرًّا لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ بِٱلْعَرَضِ كَانَ نَافِعًا لِلْأَعْدَاءِ. وَٱلشَّجَاعَةُ لَمَّا كَانَتْ بِٱلذَّاتِ خَيْرًا لَهُمْ كَانَتْ ضَارَّةً بِٱلْأَعْدَاءِ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يَلْحَقُ مَا هُوَ شَرٌّ مَا لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ ضَارًّا لِعَدُوِّهِ وَمَا هُوَ خَيْرٌ مَا لَهُ أَنْ يَكُونَ نَافِعًا لِعَدُوِّهِ مِثْلُ ٱلْجُبْنِ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ٱلَّذِينَ إِذَا خَرَجُوا عَنِ ٱلْمَدِينَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ قُوَّةٌ يُقَاوِمُونَ بِهَا عَدُوَّهُمْ. فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَتَحَرَّى فِي كُلِّ وَقْتٍ ٱلنَّافِعَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ وَهٰذِهِ ٱلْقَضِيَّةُ أَيْضًا لَيْسَتْ كُلِّيَّةً أَعْنِي ٱلْقَائِلَةَ أَنَّ كُلَّ مَا يَضُرُّ ٱلْعَدُوَّ وَيَكْرَهُهُ نَافِعٌ وَكُلَّ مَا يَنْفَعُ ٱلْعَدُوَّ وَيَسُرُّهُ ضَارٌّ فَإِنَّ كَثِيرًا مَا يَكُونُ ٱلْأَمْرُ ٱلْوَاحِدُ ضَارًّا لِلْإِنْسَانِ وَعَدُوِّهِ وَنَافِعًا لِلْإِنْسَانِ وَعَدُوِّهِ. فَمِثَالُ مَا هُوَ نَافِعٌ لِكِلَيْهِمَا وَيُسَرُّ بِهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُفَارَقَةُ ٱلْعَدُوِّ عَدُوَّهُ إِذَا كَانَتْ بَعْدَ مُقَاتَلَةٍ شَدِيدَةٍ بَيْنَهُمَا وَمُقَاوَمَةٍ أَشْفَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى ٱلْعَطَبِ مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَظْفَرَ أَحَدُهُمَا بِصَاحِبِهِ فَإِنَّهُمَا إِذَا ٱفْتَرَقَا فِي إِثْرِ هٰذِهِ ٱلْحَالِ سُرَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِٱلْإِفْرَاقِ وَلِذٰلِكَ قَدْ يَكُونُ ٱلنَّافِعُ

نافعًا للأعداء أيضًا. وأمّا ما هو ضارٌّ لكليهما فكثيرًا ما يوجب صداقة العدوّ. وذلك إذا كانا متساويين في نزول الشرّ الوارد بهما من غير أن يفضل أحدهما في ذلك صاحبه. وكثيرٌ من الأمم المختلفة كان اتفاقهم بهذا السبب ولذلك قيل إنّ الشرّ قد يجمع الناس فهذا أيضًا أحد ما يكون به الشرّ نافعًا أعني أن يكون الضرّ النازل بالإنسان نازلًا بعدوّه. فإنّ ذلك يوجب صداقة العدوّ وحينئذٍ يهوى العدوّ الوارد ضدّ ما يهواه كلّ واحد من المتعاديين اللذين ورد عليهما العدوّ من خارج. وذلك أنّ كلّ واحد من المتعاديين يهوى صداقة صاحبه لمكان تعاونهما على العدوّ الوارد عليهما من خارج. والعدوّ الوارد يهوى بقاء عداوتهما على حالها أو تأكيدها. وارسطو يقول: ولذلك كثيرًا ما تُنفق النفقات العظيمة وتُفعل الأفعال الكثيرة في مثل هذا الخير الذي يُدفع به الشرّ العظيم وإنّما تطيب النفس بالنفقات في مثل هذه الأشياء لظهور ما يلزم عنها من الغاية المطلوبة وقربها حتّى كأنّها إذا وجدت هذه الأشياء وُجدت الغاية. وقد يكون الشرّ المفرط النازل بالعدوّ أيضًا سببًا للاعتراف بالخير اليسير الذي نالَه من عدوّه ولولاه لم يعترف به العدوّ. مثل ما حكى ارسطو أنّه عرض لبعض الملوك الذين كانوا أعداء لليونانيين أنّه اشتدّت محاربتهم له وحصرهم إيّاه سنين كثيرة وقتلوا في ذلك الحصار ابنه فسألهم أن يعطوه جثّته ليحرقها على عادتهم في موتاهم ففعلوا

ذٰلِكَ فَشَكَرَهُمْ عَلَى ذٰلِكَ وَاَظْهَرَ شُكْرَهُمْ عِنْدَ جَمِيعِ قَوْمِهِ وَاَهْلِ مَدِينَتِهِ. فَلَوْلَا مَا نَزَلَ بِهِ مِنَ الشَّرِّ الْعَظِيمِ لَمَا شَكَرَهُمْ عَلَى هٰذَا الشَّيْءِ الْيَسِيرِ الَّذِي سَمَحُوا لَهُ بِهِ كَمَا قَالَ ذٰلِكَ اُومِيرُوشُ الشَّاعِرُ

(قَالَ) وَمِنَ الْاِصْطِنَاعَاتِ النَّافِعَةِ وَالْاَفْعَالِ الَّتِي يَعْظُمُ قَدْرُهَا عِنْدَ الْمُصْطَنَعِ اِلَيْهِمْ فَيَصِيرُ بِهِ الْمُصْطَنِعُ اِلَى خَيْرٍ عَظِيمٍ مِنَ الْمُصْطَنَعِ اِلَيْهِمْ اَنْ يَخْتَارَ الْاِنْسَانُ اِنْسَانًا عَظِيمَ الْقَدْرِ مِنْ جِنْسِ مَا مِنَ النَّاسِ لَهُ اَيْضًا عَدُوٌّ عَظِيمُ الْقَدْرِ فِي جِنْسٍ آخَرَ مِنَ النَّاسِ فَيَفْعَلَ بِعَدُوِّ ذٰلِكَ الْاِنْسَانِ الشَّرَّ وَبِاَصْدِقَائِهِ الْخَيْرَ. مِثْلَ مَا عَرَضَ لِاُومِيرُوشَ مَعَ الْيُونَانِيِّينَ وَاَعْدَائِهِمْ فَاِنَّهُ قَصَدَ اِلَى عَظِيمٍ مِنْ عُظَمَاءِ الْيُونَانِيِّينَ فِي الْقَدِيمِ وَخَصَّهُ بِالْمَدْحِ وَاَصْدِقَاءَهُ مِنَ الْيُونَانِيِّينَ. وَخَصَّ عَدُوًّا لَهُ عَظِيمًا بِالْهَجْوِ هُوَ وَقَوْمَهُ الْمُعَادِينَ لِلْيُونَانِيِّينَ فِي حُرُوبٍ وَقَعَتْ بَيْنَهُمَا فَكَانَ رَبَّ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ بِذٰلِكَ عِنْدَ الْيُونَانِيِّينَ وَعَظَّمُوهُ كُلَّ التَّعْظِيمِ حَتَّى اعْتَقَدُوا فِيهِ اَنَّهُ كَانَ رَجُلًا اِلٰهِيًّا وَاَنَّهُ كَانَ الْمُعَلِّمَ الْاَوَّلَ لِجَمِيعِ الْيُونَانِيِّينَ. وَبِالْجُمْلَةِ فَفِعْلُ الشَّرِّ بِالْاَعْدَاءِ وَالْخَيْرِ بِالْاَصْدِقَاءِ مِنَ الْاُمُورِ النَّافِعَةِ. وَمِنْ شَرْطِ هٰذَا الْفِعْلِ الَّذِي يَعْظُمُ مَوْقِعُهُ اَنْ يَكُونَ مَا فُعِلَ مِنْهُ يُرَى اَنَّهُ لَمْ يُمْكِنِ الْفَاعِلَ وَلَا تَيَسَّرَ لَهُ غَيْرُهُ وَسَوَاءٌ كَانَ الْفِعْلُ كَثِيرًا فِي نَفْسِهِ اَوْ يَسِيرًا وَاَنْ يَظُنَّ اَنَّ فِعْلَهُ لَمْ يَكُنْ لِمَكَانِ خَوْفٍ وَلَا شَيْءٍ يَرْجُوهُ بَلْ لِاَنَّ شَوْقَهُ وَهَوَاهُ قَادَهُ اِلَى ذٰلِكَ فَاِنَّ بِهٰذَا يَكُونُ الْفِعْلُ مُدَاوَمًا عَلَيْهِ مِنَ الْفَاعِلِ وَهُوَ السَّهْلُ عَلَيْهِ لِاَنَّ

ٱلْأَفْعَالَ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ أَجْلِ خَوْفٍ إِنَّمَا تَكُونُ غَيْرَ شَاقَّةٍ زَمَانًا يَسِيرًا وَإِذَا طَالَ بِهَا ٱلزَّمَانُ كَانَتْ شَاقَّةً فَٱنْقَطَعَتْ وَإِذَا ٱنْقَطَعَتْ كَانَ مِنْ ذٰلِكَ عَدَاوَةٌ مِنَ ٱلْمُصْطَنَعِ إِلَيْهِ لِلْمُصْطَنِعِ. فَلِذٰلِكَ يُشْتَرَطُ فِي هٰذَا ٱلْفِعْلِ أَنْ يَكُونَ سَهْلًا عَلَى ٱلْفَاعِلِ فَهٰذِهِ هِيَ شُرُوطُ ٱلِٱبْتِدَاءِ بِٱلصَّنَائِعِ ٱلَّتِي يَعْظُمُ مَوْقِعُهَا وَيُوجَدُ نَفْعُهَا. وَأَمَا ٱلْمُكَافَاةُ ٱلَّتِي لَا يَعْظُمُ مَوْقِعُهَا فَهِيَ ٱلْمُكَافَاةُ ٱلَّتِي لَا تَكُونُ بِحَسَبِ مَا يَهْوَى ٱلْمُكَافِئُ بِٱلطَّبْعِ مِنْ أَكْثَرِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ أَنْ تَكُونَ نَاقِصَةً عَنِ ٱلصَّنِيعَةِ ٱلَّتِي أُسْدِيَتْ إِلَيْهِ إِمَّا فِي ٱلْكَمِّيَّةِ وَإِمَّا فِي ٱلْمَنْفَعَةِ وَإِمَّا لِأَنَّهَا قَدْ فَضَلَتْ عِنْدَ ٱلْمُكَافِئِ وَلَيْسَ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا وَهِيَ ٱلْمُكَافَاةُ ٱلَّتِي يُغَالِطُ فِيهَا وَإِنَّمَا كَانَ ٱلْمُكَافِئُ بِٱلطَّبْعِ ٱلَّذِي يَشْتَهِي أَنْ تَكُونَ مُكَافَاتُهُ بِأَحَدِ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْأَحْوَالِ لِأَنَّ ٱلْمُكَافِئَ كَأَنَّهُ مَقْصُورٌ عَلَى ٱلْإِعْطَاءِ فَهُوَ إِنَّمَا يَشْتَهِي إِمَا أَلَّا يَلْحَقَهُ نَقْصٌ مِنَ ٱلْخَيْرِ ٱلَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ ٱلنَّقْصُ أَقَلَّ مِنَ ٱلْخَيْرِ ٱلَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ. فَإِذَا لَمْ تَكُنِ ٱلْمُكَافَاةُ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ بَلْ كَانَتْ مُقَارِنَةً لِلصَّنِيعَةِ إِمَّا فِي ٱلْجِنْسِ مِثْلَ أَنْ تَكُونَ ٱلْمُكَافَاةُ عَلَى ٱلدَّنَانِيرِ بِدَرَاهِمَ وَإِمَّا فِي ٱلْقُوَّةِ مِثْلَ أَنْ تَكُونَ ٱلْمُكَافَاةُ عَلَى ٱلْمَالِ بِكَرَامَةٍ يُقْتَنَى بِهَا مِثْلُ ذٰلِكَ ٱلْمَالِ فَهِيَ ٱلْمُكَافَاةُ ٱلْعَادِلَةُ لٰكِنَّهَا سُوقِيَّةٌ. فَإِذَا لَمْ تَكُنِ ٱلْمُكَافَاةُ لَا سُوقِيَّةً وَلَا فِيهَا غَبْنٌ بَلْ كَانَ ٱلْمُكَافِئُ يُعْتَقَدُ فِيهِ أَنَّهُ لَيْسَ ٱخْتِيَارُهُ فِي ٱلْمُكَافَاةِ لِمَا هُوَ أَنْقَصُ أَكْثَرَ مِنِ ٱخْتِيَارِهِ لِمَا هُوَ

ازيدُ وسواءٌ وقعتْ مُكافاتُهُ بما هوَ انقصُ اوْ بما هوَ مُساوٍ. اوْ بما هوَ شبيهٌ فهيَ المكافاةُ الجميلةُ لانَّ مُكافاتَهُ بالانقصِ لمْ تكنْ منهُ باختيارٍ لذلكَ بلْ لانَّهُ لمْ يتيسَّرْ ذلكَ فاذا اتفقَ انْ يكونَ معَ هذا ذلكَ الفضلُ ممَّا يسُرُّ بهِ الاصدقاءَ اعني اصدقاءَ المكافي بالفعلِ ويسوءُ اعداءَهُ ويكونُ معَ هذا مُتعجبًا منهُ عندَ الجمهورِ. وذلكَ بالاضافةِ الى منْ صدرَ عنهُ عظيمُ موقعهِ منَ المصطنَعِ اليهِ وبخاصَّةٍ اذا كانتِ الصَّنيعةُ ممَّا توافقُ شهوةَ المصطنَعِ اليهِ مثلَ انْ يكافئَ اوَ يبدأَ محبَّ الكرامةِ بالكرامةِ ومحبَّ المالِ بالمالِ ومحبَّ الغلبةِ بالغلبةِ فانَّ هذهِ الصَّنيعةَ ليستْ هيَ لذيذةً فقطْ عندَ الذي تُصطنَعُ اليهِ اوْ يُكافأُ بها بلْ هيَ عندهُ فاضلةٌ وكذلكَ الامرُ في سائرِ اصنافِ الخيراتِ وانَّما تكونُ افعالُ الصَّنائعِ والمكافاةُ على المُبتدِيءِ والمكافي افعالا سهلةً يمكنُ انْ يُداوِموا عليها متى كانوا باستعدادِهمِ الطَّبيعيِّ مُهيَّئينَ لتلكَ الافعالِ وكانتْ قدْ حصلتْ لهمُ الملكةُ التي بها تصدرُ منهمْ تلكَ الافعالُ ومنَ الصَّنائعِ اليسيرةِ التي يُظنُّ بها انَّها ليسَ تُنقِصُ المُصطنَعَ شيئًا الاصطناعَ بالتَّاديبِ والموعظةِ

البحث التاسع

في ابثار الخير وفي شروط تفضيل بعضها على بعض والاسباب الموجبة لذلك

(من الكتاب نفسه)

(قالَ) فَمِنْ هٰذِهِ ٱلْوُجُوهِ يَأْخُذُ ٱلْخَطِيبُ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلَّتِي مِنْهَا يُقْنِعُ اَنَّ ٱلشَّيْءَ نَافِعٌ اَوْ غَيْرُ نَافِعٍ. وَمِنْ اَجْلِ اَنَّ ٱلْخَطِيبَ قَدْ يَعْتَرِفُ اَحْيَانًا بِاَنَّ ٱلْاَمْرَ نَافِعٌ وَلٰكِنْ يَدَّعِي اَنَّ هَاهُنَا شَيْئًا هُوَ اَنْفَعُ فَقَدْ يَحْتَاجُ اَنْ تَكُونَ عِنْدَهُ مَوَاضِعُ يَقْدِرُ اَنْ يُبَيِّنَ بِهَا اَنَّ ٱلْاَمْرَ اَنْفَعُ وَاَفْضَلُ. فَمِنْهَا اَنَّ مَا كَانَ نَافِعًا فِي كُلِّ ٱلْاَشْيَاءِ فَهُوَ اَنْفَعُ مِمَّا هُوَ نَافِعٌ فِي بَعْضِ ٱلْاَشْيَاءِ. وَٱلَّذِي هُوَ اَدْوَمُ نَفْعًا هُوَ اَنْفَعُ مِنَ ٱلَّذِي هُوَ اَقْصَرُ نَفْعًا. وَٱلَّذِي هُوَ اَكْبَرُ هُوَ اَنْفَعُ مِنَ ٱلْاَصْغَرِ. وَٱلَّذِي هُوَ اَكْثَرُ هُوَ اَنْفَعُ مِنَ ٱلْاَقَلِّ. وَٱلَّذِي جَمَعَ مِنْ صِفَاتِ ٱلْخَيْرِ اَكْثَرَ اَوْ جَمَعَ صِفَاتِهِ كُلَّهَا فَهُوَ اَنْفَعُ. وَصِفَاتُ ٱلْخَيْرِ ٱلتَّامِّ هُوَ اَنْ يَكُونَ ٱلشَّيْءُ مُخْتَارًا مِنْ اَجْلِ نَفْسِهِ لَا مِنْ اَجْلِ غَيْرِهِ وَاَنْ يَكُونَ مُتَشَوَّقًا عِنْدَ ٱلْكُلِّ وَاَنْ يَكُونَ ذَوُو ٱلْفَضْلِ وَٱللُّبِّ يَخْتَارُونَهُ وَٱلَّذِي جَمَعَ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ كُلَّهَا اَوْ اَكْثَرَهَا فَهُوَ ٱلْخَيْرُ وَٱلنَّافِعُ ٱلَّذِي فِي ٱلْغَايَةِ وَهُوَ ٱلْغَايَةُ لِسَائِرِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُوصَفُ بِٱلْخَيْرِ. وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلْمُتَّصِفَةُ بِٱلْخَيْرِ ٱلْمُتَعَلِّقَةُ بِهٰذَا ٱلْخَيْرِ ٱلَّذِي

جَمعَ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ اِنَّمَا يُقَالُ فِيهَا اَنَّهَا اَنْفَعُ اِذَا وُجِدَ فِي وَاحِدٍ مِنْهَا صِفَةُ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ اَوْ اَكْثَرُ مِنْ صِفَةٍ وَاحِدَةٍ . وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ تُوجَدُ فِيهِ صِفَاتٌ اَكْثَرُ مِنْ صِفَاتِ ٱلْخَيْرِ فَهُوَ اَنْفَعُ مَا لَمْ تَكُنِ ٱلصِّفَةُ ٱلْوَاحِدَةُ اَنْفَعَ مِنِ ٱثْنَتَيْنِ اَوْ مِنْ ثَلَاثٍ . وَاَيْضًا فَمَا كَانَ ٱلْعَظِيمُ فِيهِ اَفْضَلَ مِنَ ٱلْعَظِيمِ فِي جِنْسٍ آخَرَ فَٱلْجِنْسُ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْعَظِيمُ ٱلْاَفْضَلُ هُوَ اَفْضَلُ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْآخَرِ وَمَا كَانَ ٱلْجِنْسُ مِنْهُ اَفْضَلَ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْاَفْضَلِ فَٱلْعَظِيمُ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْاَفْضَلِ اَفْضَلُ مِنَ ٱلْعَظِيمِ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْآخَرِ وَهُوَ عَكْسُ ٱلْاَوَّلِ . وَمِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّهُ اِنْ كَانَ ٱلذُّكْرَانُ اَفْضَلَ مِنَ ٱلْاِنَاثِ فَٱلرَّجُلُ اَفْضَلُ مِنَ ٱلْمَرْاَةِ وَاِنْ كَانَ ٱلرَّجُلُ اَفْضَلَ مِنَ ٱلْمَرْاَةِ فَٱلذُّكْرَانُ اَفْضَلُ مِنَ ٱلْاِنَاثِ . وَاِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِاَنَّ نِسْبَةَ ٱلْعَظِيمِ اِلَى جِنْسِهِ هِيَ كَنِسْبَةِ ٱلْعَظِيمِ ٱلْآخَرِ اِلَى جِنْسِهِ فَتَكُونُ نِسْبَةُ ٱلْجِنْسِ اِلَى ٱلْجِنْسِ هِيَ نِسْبَةُ ٱلْعَظِيمِ اِلَى ٱلْعَظِيمِ . ثُمَّ اِذَا كَانَ ٱلشَّيْءُ لَازِمًا لِشَيْءٍ مَا وَٱلْآخَرُ غَيْرَ لَازِمٍ لَهُ فَاِنَّ ٱلَّذِي يَلْزَمُ عَنْهُ ٱلشَّيْءُ آثَرُ مِنَ ٱلَّذِي لَا يَلْزَمُ عَنْهُ ٱلشَّيْءُ . مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلسُّلْطَانُ وَٱلثَّرْوَةُ فَاِنَّ ٱلثَّرْوَةَ تَلْزَمُ ٱلسُّلْطَانَ وَلَيْسَ يَلْزَمُ ٱلسُّلْطَانُ ٱلثَّرْوَةَ . فَلِذٰلِكَ ٱلسُّلْطَانُ اَفْضَلُ مِنَ ٱلثَّرْوَةِ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْمَضَارِّ فَاِنَّ ٱلْفَقْرَ يَلْزَمُ عَنْهُ ٱلْبُخْلُ وَلَيْسَ يَلْزَمُ عَنِ ٱلْبُخْلِ ٱلْفَقْرُ . فَٱلْفَقْرُ اَكْثَرُ شَرًّا مِنَ ٱلْبُخْلِ وَٱللَّازِمُ يُوجَدُ عَلَى ثَلَاثَةِ اَقْسَامٍ : اِمَّا اَنْ يُوجَدَا مَعًا اَعْنِي ٱللَّازِمَ وَٱلْمَلْزُومَ مِثْلُ وُجُودِ ٱلْاَبْيَضِ وَٱلْبَيَاضِ

مَعًا وَمِثْلُ لُزُومِ ٱلْإِنْسَانِ وَٱلْحَيَوَانِ. وَإِمَّا أَنْ يُوجَدَ ٱللَّازِمُ تَابِعًا بِآخِرَةٍ مِثْلُ لُزُومِ ٱلْعِلْمِ عَنِ ٱلتَّعَلُّمِ. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ تَلَازُمُهُمَا فِي ٱلْقُوَّةِ أَيْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا يَفْعَلُ فِعْلَ ٱلْآخَرِ وَلَا يَنْعَكِسُ أَعْنِي أَلَّا يَفْعَلَ ٱلْآخَرُ فِعْلَ ٱلْأَوَّلِ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْفَقْرُ وَٱلْبُخْلُ فَإِنَّ ٱلْفَقْرَ يَلْزَمُ عَنْهُ أَنْ يَفْعَلَ ٱلْإِنْسَانُ فِعْلَ ٱلْبُخْلِ وَلَيْسَ يَلْزَمُ عَنِ ٱلْبُخْلِ فِعْلُ ٱلْفَقْرِ فَإِنَّ ٱلْفَقْرَ يَعُوقُ عَنْ أَشْيَاءَ أَكْثَرَ مِنْ عَدَمِ ٱسْتِعْمَالِ ٱلْمَالِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْبُخْلُ وَأَيْضًا ٱلَّذِي يَفْعَلُ ٱلْخَيْرَ ٱلْأَنْفَعَ هُوَ أَنْفَعُ مِنَ ٱلنَّافِعِ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْجِلْدُ وَٱلْجِمَالُ فَإِنَّ كِلَيْهِمَا نَافِعٌ وَخَيِّرٌ وَٱلْجِلْدُ يُفْعَلُ بِهِ خَيْرٌ أَعْظَمُ مِمَّا يُفْعَلُ بِٱلْجِمَالِ فَهُوَ أَعْظَمُ نَفْعًا. وَكَذٰلِكَ ٱلصِّحَّةُ أَيْضًا أَعْظَمُ نَفْعًا مِنَ ٱللَّذَّةِ لِأَنَّ ٱلصِّحَّةَ يُفْعَلُ بِهَا خَيْرَاتٌ أَكْثَرُ مِمَّا يُفْعَلُ بِٱللَّذَّاتِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مُفْرَدًا أَفْضَلُ نَفْعًا مِنَ ٱلَّذِي لَا يُخْتَارُ إِلَّا مَعَ ذٰلِكَ ٱلْمُخْتَارِ مُفْرَدًا. وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْجِمَالَ لَا يُخْتَارُ إِلَّا مَعَ ٱلصِّحَّةِ وَٱلصِّحَّةُ تُخْتَارُ دُونَ ٱلْجِمَالِ فَٱلصِّحَّةُ أَفْضَلُ نَفْعًا مِنَ ٱلْجِمَالِ. وَأَيْضًا إِذَا كَانَ شَيْئَانِ أَحَدُهُمَا كَمَالٌ وَٱلْآخَرُ طَرِيقٌ إِلَى ٱلْكَمَالِ فَٱلَّذِي هُوَ كَمَالٌ أَفْضَلُ. مِثْلُ ٱلصِّحَّةِ وَٱللَّذَّةِ فَإِنَّ ٱلصِّحَّةَ كَمَالٌ وَٱللَّذَّةَ كَوْنٌ وَٱلْكَوْنُ طَرِيقٌ إِلَى ٱلْكَمَالِ. وَإِذَا كَانَ شَيْئَانِ أَحَدُهُمَا يُخْتَارُ لِذَاتِهِ وَٱلْآخَرُ يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ فَٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ أَفْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْحِكْمَةُ وَٱلْيَسَارُ فَإِنَّ ٱلْحِكْمَةَ تُخْتَارُ لِذَاتِهَا وَٱلْيَسَارُ يُخْتَارُ لِغَيْرِهِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلَّذِي يَجْعَلُ ٱلْمَرْءَ إِذَا ٱقْتَنَاهُ أَقَلَّ

حَاجَةً اِلَى اَصْدِقَائِهِ اَوْ اِلَى الْاِنْسَانِ فَهُوَ اَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يَجْعَلُهُ اَكْثَرَ حَاجَةً. فَاِنَّ مَنْ هُوَ اَكْثَرُ كِفَايَةً وَاسْتِغْنَاءً عَنِ النَّاسِ هُوَ الَّذِي يَحْتَاجُ اِلَى اَشْيَاءَ قَلِيلَةِ الْعَدَدِ سَهْلٍ وُجُودُهَا. وَاَيْضًا اِذَا كَانَ شَيْئَانِ اَحَدُهُمَا يُخْرِجُ اَقْتِنَاؤُهُ اِلَى الثَّانِي وَالثَّانِي لَا يُخْرِجُ اَقْتِنَاؤُهُ اِلَى الْاٰخَرِ فَاِنَّ الَّذِي لَا يُخْرِجُ اَقْتِنَاؤُهُ اِلَى الْاٰخَرِ هُوَ اَكْثَرُ. مِثَالُ ذٰلِكَ الْيَسَارُ وَالْبَنُونَ فَاِنَّ الْبَنِينَ يُخْرِجُونَ اِلَى اَقْتِنَاءِ الْمَالِ وَالْيَسَارُ لَيْسَ يُخْرِجُ اِلَى اَقْتِنَاءِ الْبَنِينَ فَالْيَسَارُ اَفْضَلُ نَفْعًا

(قَالَ) وَيَسْتَبِينُ اَنَّ الشَّيْءَ الَّذِي هُوَ مَبْدَأٌ لَيْسَ يَلْزَمُ اَنْ يَكُونَ اَعْظَمَ مِنَ الشَّيْءِ الَّذِي هُوَ لَهُ مَبْدَأٌ. وَذٰلِكَ اَنَّ الْاِرَادَةَ مَبْدَأُ الْخَيْرِ وَفِعْلُ الْخَيْرِ اَعْظَمُ مِنْ اِرَادَةِ الْخَيْرِ. وَكَذٰلِكَ التَّعَلُّمُ وَالْعِلْمُ وَاِنْ كَانَ لَيْسَ يُمْكِنُ اَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ النَّافِعُ دُونَ مَبْدَإٍ. وَاِذَا كَانَ شَيْئَانِ مَبْدَأَيْنِ لِشَيْئَيْنِ وَاحِدُ الْمَبْدَأَيْنِ اَعْظَمُ مِنَ الثَّانِي فَاِنَّ الَّذِي يَكُونُ عَنِ الْمَبْدَإِ الْاَعْظَمِ اَعْظَمُ. وَعَكْسُ هٰذَا اَيْضًا وَهُوَ اِذَا كَانَ شَيْئَانِ مَبْدَأَيْنِ لِشَيْئَيْنِ عَلَى اَنَّهُمَا فَاعِلٌ وَاَحَدُهُمَا اَعْظَمُ مِنَ الثَّانِي فَاِنَّ الَّذِي هُوَ مَبْدَأٌ لِلْاَعْظَمِ اَعْظَمُ. وَكَذٰلِكَ اِذَا كَانَ مَبْدَآنِ عَلَى اَنَّهُمَا غَايَةٌ وَاِذَا قِيسَ الْمَبْدَأُ الْفَاعِلُ اِلَى الْغَايَةِ اَمْكَنَ اَنْ يُتَوَهَّمَ اَنَّ الْفَاعِلَ اَعْظَمُ مِنَ الْغَايَةِ. وَذٰلِكَ اَنَّ الْفَاعِلَ هُوَ الَّذِي يَفْعَلُ الْغَايَةَ وَلَوْلَا هُوَ لَمْ تُوجَدِ الْغَايَةُ وَاَمْكَنَ اَنْ يُتَوَهَّمَ اَيْضًا اَنَّ الْغَايَةَ اَعْظَمُ مِنَ الْمَبْدَإِ. وَذٰلِكَ اَنَّهُ لَوْلَا الْغَايَةُ لَكَانَ الْفَاعِلُ فُضْلًا. فَمِثَالُ مَا تُجْعَلُ الْغَايَةُ فِيهِ اَعْظَمَ مِنَ الْفَاعِلِ قَوْلُ مَنْ يَقُولُ فِي الذَّمِّ: اِنَّ

فُلَانًا اَوْلَى بِاَنْ يُنْسَبَ اِلَى الْجَوْرِ فِي فِعْلِهِ كَذَا مِنْ فُلَانٍ الَّذِي اَشَارَ عَلَيْهِ بِذٰلِكَ لِاَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ ذٰلِكَ الْفِعْلُ اِذْ لَوْ لَمْ يَفْعَلْ هُوَ ذٰلِكَ الْفِعْلَ لَمْ يَقَعْ ذٰلِكَ الضَّرَرُ. وَمِثَالُ مَا يُجْعَلُ الْفَاعِلُ فِيهِ اَعْظَمَ مِنَ الْغَايَةِ قَوْلُ الْقَائِلِ: فُلَانٌ اَحَقُّ بِالشُّكْرِ عَلَى هٰذَا الْفِعْلِ مِنْ فُلَانٍ لِاَنَّ فُلَانًا هُوَ الَّذِي اَشَارَ عَلَيْهِ بِذٰلِكَ الْفِعْلِ وَلَوْلَا اِشَارَتُهُ لَمْ يَكُنْ لِيَفْعَلَ ذٰلِكَ الْفِعْلَ الْمَحْمُودَ وَفِي كِلَا الْمَوْضُوعَيْنِ مَا قَبْلَ الْغَايَةِ اِنَّمَا يُفْعَلُ لِمَكَانِ الْغَايَةِ. وَاَيْضًا فَاِنَّ الَّذِي وُجُودُهُ اَقَلُّ فَهُوَ اَفْضَلُ مِثْلُ الذَّهَبِ وَالْحَدِيدِ غَيْرَ اَنَّهُ اِنْ كَانَ الذَّهَبُ اَقَلَّ وُجُودًا مِنَ الْحَدِيدِ فَلَيْسَ هُوَ اَنْفَعَ. وَاَيْضًا مُقَابِلُ هٰذَا وَهُوَ اَنَّ مَا كَثُرَ وُجُودُهُ فَهُوَ اَفْضَلُ مِمَّا قَلَّ وُجُودُهُ لِكَثْرَةِ مَنَافِعِهِ وَمِنْ هُنَا يُقَالُ اِنَّ الْمَاءَ خَيْرٌ لِكَثْرَةِ وُجُودِهِ وَعُمُومِ مَنَافِعِهِ. وَاَيْضًا فَاِنَّ مَا هُوَ اَعْسَرُ وُجُودًا فَهُوَ اَفْضَلُ لِاَنَّ مَا عَسُرَ وُجُودُهُ قَلَّ وُجُودُهُ وَمَا قَلَّ وُجُودُهُ فَهُوَ غَرِيبٌ وَيَتَنَافَسُ فِيهِ. وَمُقَابِلُ هٰذَا وَهُوَ اَنَّ مَا سَهُلَ وُجُودُهُ فَهُوَ اَفْضَلُ لِاَنَّهُ يُوجَدُ فِي كُلِّ حِينٍ يَتَشَوَّقُ اِلَيْهِ. وَاَيْضًا الشَّيْءُ الَّذِي ضِدُّهُ اَعْظَمُ فَهُوَ اَفْضَلُ. وَاَيْضًا الَّذِي عَدَمُهُ اَشَدُّ ضَرَرًا فَهُوَ اَنْفَعُ. وَلَيْسَ يَنْبَغِي اَنْ يُفْهَمَ هَا هُنَا مِنَ الْاَعْظَمِ وَالْاَقَلِّ عِظَمُ الْمُقَايَسَةِ فِي الْخَيْرِ فَقَطْ بَلْ وَفِي الشَّرِّ وَفِيمَا هُوَ لَا خَيْرٌ وَلَا شَرٌّ. وَاَيْضًا فَاِنَّ الْغَايَاتِ وَالْاَشْيَاءَ الَّتِي مِنْ اَجْلِهَا تُفْعَلُ الْاَفْعَالُ اِذَا كَانَتِ الْغَايَاتُ بَعْضُهَا اَزْيَدَ خَيْرًا مِنْ بَعْضٍ اَوْ اَزْيَدَ شَرًّا مِنْ بَعْضٍ فَاِنَّ الْاُمُورَ الْمُتَقَدِّمَةَ لِتِلْكَ الْغَايَاتِ الْاَزْيَدِ هِيَ

اَزْيَدُ. وَاَيْضًا فَاِنَّ مَا كَانَ مِنَ اَلْمَلَكَاتِ وَالْفَضَائِلِ وَبِالْجُمْلَةِ اَلْاَشْيَاءِ اَلْفَاعِلَةُ اَعْظَمُ فَاِنَّ اَفْعَالَهَا اَلصَّادِرَةَ عَنْهَا تَكُونُ اَعْظَمَ لِاَنَّ نِسْبَةَ اَلْاَفْعَالِ اِلَى مَبَادِئِهَا هِيَ نِسْبَةُ اَلْمَبَادِئِ بَعْضِهَا اِلَى بَعْضٍ. فَاِنَّهُ اِنْ كَانَ اَلْبَصَرُ آثَرَ مِنَ اَلشَّمِّ فَاِنَّ اَلْاَبْصَارَ آثَرُ مِنَ اَلشَّمِّ وَهٰكَذَا يُوجَدُ اَلْاَمْرُ فِي جَمِيعِ اَلْاَفْعَالِ مَعَ اَسْبَابِهَا اَلْفَاعِلَةِ لَيْسَ فِي اَلذَّاتِيَّةِ فَقَطْ بَلْ وَفِيمَا يَعْرِضُ عَنِ اَلشَّيْءِ بِالْاِتِّفَاقِ فَاِنَّ اَلْعَظِيمَ يَكُونُ اَلْاِتِّفَاقُ اَلَّذِي يَعْرِضُ لَهُ عَظِيمًا وَفِي اَلْاَعْرَاضِ اَلْمَوْجُودَةِ فِي اَلشَّيْءِ اَعْنِي اَنَّ اَلشَّيْءَ اَلْاَعْظَمَ اَلْعَرَضُ اَلْمَوْجُودُ فِيهِ اَعْظَمُ. وَاَيْضًا اَنْ يُحِبَّ اَلْاِنْسَانُ صَاحِبَ اَلْمَالِ اَفْضَلُ مِنْ اَنْ يُحِبَّ اَلْمَالَ لِاَنَّ حُبَّ اَلْاِنْسَانِ اَفْضَلُ مِنْ حُبِّ اَلْمَالِ. وَاَيْضًا فَاِنَّ اَلْفَضَائِلَ اَفْضَلُ مِنْ ذَوِي اَلْفَضَائِلِ وَالْاَشْيَاءَ اَلَّتِي شَهْوَتُهَا فَاضِلَةٌ اَفْضَلُ مِنَ اَلَّتِي شَهْوَتُهَا غَيْرُ فَاضِلَةٍ. مِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّ شَهْوَةَ اَلْعُلُومِ فَاضِلَةٌ وَشَهْوَةَ اَلْاَكْلِ وَالشُّرْبِ غَيْرُ فَاضِلَةٍ فَالْعُلُومُ اَفْضَلُ مِنَ اَلْاَكْلِ وَالشُّرْبِ. وَاَيْضًا عَكْسُ هٰذَا وَهُوَ اَنَّ مَا هُوَ اَفْضَلُ فَشَهْوَتُهُ اَفْضَلُ مِثْلَ اَنَّ اَلْحِكْمَةَ اَفْضَلُ مِنَ اَلصِّحَّةِ فَشَهْوَتُهَا اَفْضَلُ مِنْ شَهْوَةِ اَلصِّحَّةِ. وَاَيْضًا فَاِنَّ اَلْعُلُومَ اَلَّتِي هِيَ اَحْسَنُ وَاَفْضَلُ فَاَفْعَالُهَا خَيْرٌ وَاَفْضَلُ. مِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّهُ لَمَّا كَانَتِ اَلْعُلُومُ اَلْعِلْمِيَّةُ اَفْضَلَ مِنَ اَلْعَمَلِيَّةِ كَانَ فِعْلُهَا اَلَّذِي هُوَ اَلصِّدْقُ اَفْضَلَ مِنَ اَلَّتِي فِعْلُهَا اَلْعَمَلُ. وَعَكْسُ هٰذَا وَهُوَ اَنَّ اَلَّتِي فِعْلُهَا اَفْضَلُ مِنَ اَلْعُلُومِ فَهِيَ اَفْضَلُ وَذٰلِكَ اَنَّ اَلْوُقُوفَ عَلَى اَلْحَقِّ لَمَّا كَانَ اَفْضَلَ مِنَ اَلْعَمَلِ كَانَتِ

ٱلصَّنَائِعُ ٱلْعِلْمِيَّةُ ٱفْضَلَ مِنَ ٱلْعَمَلِيَّةِ وَإِنَّمَا كَانَا هٰذَانِ ٱلْمَوْضِعَانِ مُتَلَازِمَيْنِ لِأَنَّ نِسْبَةَ ٱلصِّنَاعَةِ إِلَى ٱلصِّنَاعَةِ هِيَ نِسْبَةُ فِعْلِهَا إِلَى فِعْلِهَا

(قَالَ) وَٱلَّذِي يَحْكُمُ بِهِ ٱلْكُلُّ مِنَ ٱلْجُمْهُورِ أَوِ ٱلْأَكْثَرُ أَوْ ذَوُو ٱلْأَلْبَابِ وَٱلْأَخْيَارُ ٱلصَّالِحُونَ أَنَّهُ خَيْرٌ وَأَفْضَلُ فَهُوَ أَفْضَلُ بِإِطْلَاقٍ وَفِي نَفْسِهِ إِذَا كَانَ حُكْمُهُمْ فِي ٱلْأَشْيَاءِ بِحَسَبِ فِطَرِهِمْ وَكَانُوا ذَوِي لُبٍّ لَا بِحَسَبِ مَا ٱسْتَفَادُوهُ مِنَ ٱلْآرَاءِ مِنْ خَارِجٍ. فَإِنَّ ذَوِي ٱلْأَلْبَابِ مِنَ ٱلنَّاسِ قَدْ يَقُولُونَ بِفِطَرِهِمْ فِي ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْخَيْرَاتِ مَا هِيَ وَكَمْ هِيَ وَعِنْدَ أَيِّ شَيْءٍ هِيَ وَإِنْ كَانَ مَا يَقِفُونَ عَلَيْهِ بِفِطَرِهِمْ دُونَ مَا يُوقَفُ عَلَيْهِ مِنْ ذٰلِكَ فِي ٱلْعُلُومِ وَمَا قِيلَ فِي حَدِّ ٱلْخَيْرِ مِنْ أَنَّهُ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلْكُلُّ إِنَّمَا يُرَادُ بِذٰلِكَ ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلْكُلُّ بِحَسَبِ فِطَرِهِمِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ أَعْنِي ٱللَّبِيبَةَ فَإِنَّ مَا تَتَشَوَّقُهُ ٱلْفِطَرُ ٱللَّبِيبَةُ بِمَا هِيَ فِطَرٌ لَبِيبَةٌ هُوَ خَيْرٌ مُطْلَقٌ أَوْ خَيْرٌ أَفْضَلُ مِنْ خَيْرٍ مِثْلُ عِلْمِهِمْ أَنَّ ٱلشَّجَاعَةَ وَٱلْأَدَبَ وَٱلْجَلَدَ خَيْرَاتٌ وَتَشَوُّقِهِمْ إِيَّاهَا. وَأَمَّا ٱلَّذِي هُوَ خَيْرٌ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى إِنْسَانٍ مَا مِثْلُ مَنْ يُرَى مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلْفَاضِلِينَ أَنَّهُ أَنْ يُجَارَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ مِنْ أَنْ يَجُورَ هُوَ فَإِنَّ هٰذَا ٱلْخَيْرَ لَا يُدْرِكُهُ ٱلنَّاسُ بِحَسَبِ طِبَاعِهِمْ وَإِنَّمَا يُرَى هٰذَا ٱلرَّأْيُ ٱلَّذِي هُوَ مِنَ ٱلنَّاسِ فِي غَايَةِ ٱلْعَدْلِ وَٱلْفَضْلِ. وَأَيْضًا مَا كَانَ مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ مَعَهُ أَكْثَرُ لَذَّةً فَهُوَ آثَرُ. وَإِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْكُلَّ مِنَ ٱلْجُمْهُورِ يَبْتَدِرُونَ إِلَى ٱللَّذَّةِ وَيَطْلُبُونَهَا وَطَلَبُهُمُ ٱللَّذَّةَ هُوَ مِنْ أَجْلِ ٱللَّذَّةِ نَفْسِهَا لَا مِنْ أَجْلِ شَيْءٍ آخَرَ غَيْرِهَا. وَمَا

كَانَ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ اَعْنِي مُتَشَوَّقًا لِلْكُلِّ فَقَدْ قِيلَ اِنَّهُ ٱلْخَيْرُ وَٱلْغَايَةُ فَٱللَّذَّةُ اِذَنْ خَيْرٌ وَٱلْاَزْيَدُ لَذَّةً هِيَ ٱلْمَلَذَّاتُ ٱلَّتِي هِيَ اَبْرَأُ مِنَ ٱلْاَذَى وَٱلْحُزْنِ وَاَدْوَمُ بَقَاءً. وَٱللَّذَّةُ ٱلْجَمِيلَةُ اَلَذُّ مِنَ ٱللَّذَّةِ ٱلْقَبِيحَةِ لِاَنَّ ٱلْجَمِيلَ مِمَّا قَدْ يُخْتَارُ بِذَاتِهِ وَاِنْ لَمْ يَكُنْ لَذِيذًا وَهُوَ مِنَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَخْتَارُ ٱلْمَرْءُ اَنْ يَكُونَ عِلَّةً لِكَوْنِهِ اِمَّا لِنَفْسِهِ وَاِمَّا لِصَدِيقِهِ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَكُلُّ مَا كَانَ مِنَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْمُلَذَّةِ اَفْضَلَ فَهُوَ اَلَذُّ مِمَّا هُوَ اَخَسُّ وَكُلُّ مَا هُوَ مِنْهَا اَطْوَلُ مُدَّةً فَهُوَ اَلَذُّ مِنَ ٱلَّتِي هِيَ مِنْهَا اَقْصَرُ مُدَّةً وَكُلُّ مَا كَانَ مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ اَثْبَتَ فِينَا فَهُوَ اَلَذُّ مِمَّا هُوَ اَقَلُّ ثَبَاتًا وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلصِّحَّةَ لَمَّا كَانَتْ اَرْسَخَ فِينَا مِنَ ٱلْجَمَالِ كَانَ وُجُودُ ٱلصِّحَّةِ لَنَا اَلَذَّ مِنْ وُجُودِ ٱلْجَمَالِ. وَٱلْاَشْيَاءُ ٱللَّذِيذَةُ اَوِ ٱلْاَكْثَرُ لَذَّةً اِنَّمَا ٱلسَّبَبُ فِي وُجُودِهَا لَنَا بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ اَحَدُ اَمْرَيْنِ اِمَّا طُولُ اعْتِيَادِ ٱلشَّيْءِ حَتَّى يَصِيرَ لَنَا ٱلِٱلْتِذَاذُ بِهِ مِنْ قِبَلِ ٱلْعَادَةِ كَٱلْحَالِ فِي ٱللَّذَّةِ ٱلْحَاصِلَةِ عَنِ ٱلْعِلْمِ. وَاِمَّا مِنْ قِبَلِ اَنَّهَا لَذِيذَةٌ جِدًّا عِنْدَنَا بِٱلطَّبْعِ وَٱلْهَوَى فَٱلْاَشْيَاءُ اِذَنْ اِنَّمَا تَصِيرُ اَكْثَرَ لَذَّةً اِمَّا مِنْ قِبَلِ طُولِ ٱلزَّمَانِ وَاِمَّا مِنْ قِبَلِ ٱلْهَوَى وَٱلْمُوَافَقَةِ ٱلَّتِي بِٱلطَّبْعِ. وَجَمِيعُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُلَائِمُ هَوَانَا مُلَائِمَةٌ اَكْثَرَ فَاِنَّ مَنْفَعَتَهَا لَنَا اِنَّمَا تَكُونُ فِي رُسُوخِهَا وَثُبُوتِهَا. وَقَدْ تُؤْخَذُ مُقَدَّمَاتُ ٱلْاَنْفَعِ وَٱلْاَفْضَلِ مِنْ مَوَاضِعِ ٱلنَّظَائِرِ وَٱلتَّصَارِيفِ. وَذٰلِكَ اَنَّهُ اِنْ كَانَتِ ٱلشَّجَاعَةُ اَثَرَ مِنَ ٱلْعَفَافِ فَٱلرَّجُلُ ٱلشُّجَاعُ اَثَرُ مِنَ ٱلرَّجُلِ ٱلْعَفِيفِ

(قَالَ) وَمَا اخْتَارَهُ ٱلْكُلُّ اَثَرٌ مِمَّا لَا يَخْتَارُهُ ٱلْكُلُّ مِنَ

ٱلْجُمْهُورِ وَمَا ٱخْتَارَهُ ايضا كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ آثَرُ مِمَّا يَخْتَارُهُ ٱلْقَلِيلُ مِنَ ٱلنَّاسِ فَانَّ ٱلْخَيْرَ كَمَا قِيلَ هُوَ ٱلَّذِي يَشْتَاقُ اِلَيْهِ ٱلْكُلُّ . وَمَا ٱخْتَارَهُ ايضا ٱلْحُكَّامُ ٱلْاُوَلُ اَعْنِي ٱلَّذِينَ لَا يَأْخُذُونَ ٱلْاَحْكَامَ مِنْ غَيْرِهِمْ وَهُمُ ٱلشُّرَّاعُ اَفْضَلُ مِمَّا لَمْ يَخْتَارُوهُ . وَمَا ٱخْتَارَهُ ايضا ٱلَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَ ٱلْاَحْكَامَ مِنْ هٰؤُلَاءِ اَفْضَلُ مِمَّا لَيْسَ يَخْتَارُهُ هٰؤُلَاءِ . وَٱلَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَ ٱلْاَحْكَامَ مِنَ ٱلْحُكَّامِ ٱلْاُوَلِ وَهُمُ ٱلَّذِينَ تُؤْخَذُ عَنْهُمْ اُصُولُ ٱلْاَحْكَامِ صِنْفَانِ اِمَّا سَامِعٌ فَقَطْ مُبَلِّغٌ وَاِمَّا سَامِعٌ عَالِمٌ اَيْ قَادِرٌ عَلَى اَنْ يَسْتَنْبِطَ مِنْ تِلْكَ ٱلْاُصُولِ اَحْكَامًا مَا لَمْ يُصَرِّحْ بِهَا ٱلْحُكَّامُ ٱلْاُوَلُ . وَهٰؤُلَاءِ صِنْفَانِ اِمَّا مُسَلَّطُونَ مِنْ قِبَلِ ٱلْحُكَّامِ ٱلْاُوَلِ وَهُمُ ٱلْقُضَاةُ وَمَا اَشْبَهَهُمْ وَاِمَّا غَيْرُ مُسَلَّطِينَ وَهُمُ ٱلْفُقَهَاءُ . وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ مَا لِجَمِيعِ اَصْنَافِ ٱلْمُتَلَقِّينَ مِنَ ٱلْحُكَّامِ ٱلْاُوَلِ اَنْ يَقُولُوا فِيهَا . وَهُوَ مَا سَمِعُوهُ اَوْ مَا شَاهَدُوهُ مِنَ ٱلْحَاكِمِ ٱلْاَوَّلِ وَمِنْهَا مَا يَخْتَصُّ بِذَوِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَهُوَ ٱلْقَوْلُ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُسْتَنْبَطُ عَنِ ٱلْاَحْكَامِ ٱلْاُوَلِ ٱلَّتِي صَرَّحَ بِهَا ٱلْحَاكِمُ ٱلْاَوَّلُ وَلَيْسَ لِلسَّامِعِينَ دُونَ عِلْمٍ اَنْ يَقُولُوا فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ . وَاَمَّا ٱلَّذِي يَخُصُّ ٱلْحُكَّامَ ٱلْاُوَلَ ٱلْقَوْلُ فِيهِ فَهِيَ ٱلْاُصُولُ ٱلَّتِي تَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ ٱلْمَبَادِيءِ لِسَائِرِ مَا يَحْكُمُ بِهِ ٱلسَّامِعُونَ ذَوُو ٱلْعِلْمِ اَعْنِي ٱلْمُسَلَّطِينَ وَٱلْفُقَهَاءَ وَهِيَ ٱلَّتِي يُسَمِّيهَا ارِسْطُو ٱلْاُمُورَ ٱلْعُظْمَى . وَٱلْفُضَلَاءُ ٱلْاَبْرَارُ ٱلَّذِينَ جَرَتِ ٱلْعَادَةُ اَنْ يَأْخُذَ عَنْهُمُ ٱلْجَمِيعُ اَوِ ٱلْاَكْثَرُ فَحُكْمُهُمْ اَفْضَلُ فَاِنَّ عَدَمَ ٱلْاَخْذِ قَدْ يُخَيَّلُ هَوَانًا وَنَقْصًا فِي ٱلْمَرْءِ ٱلْفَاضِلِ ٱلْبَرِّ

وَقِلَّةَ قَبُولٍ لِقَوْلِهِ وَقَدْ يُخَيَّلُ ٱلْأَمْرُ بِعَكْسِ هٰذَا. وَذٰلِكَ أَنَّهُ رُبَّمَا كَانَ هٰؤُلَاءِ ٱلْأَبْرَارُ ٱلْفَاضِلُونَ مَقْبُولِي ٱلْقَوْلِ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْجُمْهُورِ عَنْهُمْ أَصْلًا شَيْئًا أَوْ إِنَّمَا أَخَذَ عَنْهُمْ قَلِيلٌ. وَذٰلِكَ أَنَّ أَقَاوِيلَ هٰؤُلَاءِ قَدْ يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مَقْبُولَةٌ بِجِهَةٍ أُخْرَى وَذٰلِكَ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ ٱلْمَرْضِيُّ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ مَنْ لَيْسَ مَرْضِيًّا فِي نَفْسِهِ وَٱلْأَقَلِّ مِنَ ٱلْجُمْهُورِ وَهُمْ ذَوُو ٱلتَّمْيِيزِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلْفَاضِلِينَ ٱلَّذِينَ كَتَمُوا فَضَائِلَهُمْ عَنِ ٱلْجُمْهُورِ هُمْ مَمْدُوحُونَ أَكْثَرَ وَهُمْ أَقَلُّ وُجُودًا وَأَعَزُّ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا كَتَمُوا فَضَائِلَهُمْ عَنِ ٱلْجُمْهُورِ لِمَا خَافُوا أَنْ يَلْحَقَهُمْ مِنَ ٱلْكَرَامَاتِ وَٱلرِّئَاسَاتِ ٱلَّتِي يُخَافُ إِذَا لَحِقَتِ ٱلْمَرْءَ أَنْ تَكُونَ سَبَبًا لِأَنْ تَكُونَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱللَّاحِقَةُ لِلْفَضَائِلِ هِيَ ٱلْمَقْصُودَةَ عِنْدَهُ بِٱلْفَضَائِلِ. فَمِنْ هَا هُنَا صَارَتْ أَقْوَالُ هٰذَا ٱلصِّنْفِ مَقْبُولَةً كَمَا صَارَتْ أَقْوَالُ ٱلصِّنْفِ ٱلْأَوَّلِ ٱلْمُضَادِّ لِهٰذَا مَقْبُولَةً وَهُمُ ٱلَّذِينَ أَخَذَ عَنْهُمُ ٱلْجُمْهُورُ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلصِّنْفِ ٱلْمَقْبُولِ ٱلْقَوْلِ مِنَ ٱلنَّاسِ جِدًّا جِدًّا ٱلصِّنْفُ ٱلَّذِينَ كَرَامَاتُهُمْ أَعْظَمُ لِأَنَّ ٱلْكَرَامَةَ لَمَّا كَانَتْ مُكَافَاةَ ٱلْفَضِيلَةِ كَانَ ٱلْمَرْءُ كُلَّمَا عَظُمَتْ كَرَامَتُهُ ظُنَّ بِهِ أَنَّهُ قَدْ عَظُمَتْ فَضِيلَتُهُ. وَٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ نَالَتْهُمُ ٱلْمَضَرَّةُ ٱلْعَظِيمَةُ وَٱلشَّقَاءُ ٱلْكَبِيرُ لِمَكَانِ ٱلْفَضَائِلِ هُمْ أَيْضًا مَقْبُولُو ٱلْأَقْوَالِ جِدًّا جِدًّا بِمَنْزِلَةِ سُقْرَاطَ وَغَيْرِهِ وَٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ يُرَى فِيهِ هٰذَانِ ٱلصِّنْفَانِ مِنَ ٱلنَّاسِ أَعْنِي ٱلَّذِينَ كَرَامَتُهُمْ أَعْظَمُ وَٱلَّذِينَ نَالَهُمُ ٱلضَّرَرُ

ٱلْكَبِيرُ مِنْ قِبَلِ ٱلْفَضَائِلِ ٱنَّهُمْ فَاضِلُونَ وَيَعْتَرِفُونَ لَهُمْ بِٱلْفَضْلِ هُمْ اَيْضًا اَفْضَلُ وَاَعْظَمُ . فَهٰؤُلَاءِ هُمْ اَصْنَافُ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ اِذَا ٱخْتَارُوا شَيْئًا وَٱخْتَارَ غَيْرُهُمْ سِوَاهُ كَانَ مَا يَخْتَارُهُ هٰؤُلَاءِ اَفْضَلَ وَآثَرَ

(قَالَ) وَقِسْمَةُ ٱلشَّيْءِ اِلَى جُزْئِيَّاتِهِ يُخَيَّلُ فِي ٱلشَّيْءِ اَنَّهُ اَعْظَمُ وَلِذٰلِكَ لَمَّا اَرَادَ اُومِيرُوسُ ٱلشَّاعِرُ اَنْ يُعَظِّمَ ٱلشَّرَّ ٱلَّذِي لَحِقَ ٱلْمَدِينَةَ اَخَذَ بَدَلَهُ جُزْئِيَّاتِهِ فَذَكَرَ قَتْلَ ٱلْاَوْلَادِ وَٱلنَّوْحَ عَلَيْهِمْ وَحَرْقَ ٱلْمَدِينَةِ بِٱلنَّارِ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِنْ اَصْنَافِ ٱلشُّرُورِ ٱللَّاحِقَةِ لَهَا

(قَالَ) وَكَذٰلِكَ ٱلتَّرْكِيبُ قَدْ يُخَيَّلُ فِي ٱلشَّيْءِ اَنَّهُ اَعْظَمُ وَهُوَ عَكْسُ . هٰذَا اَعْنِي اَنْ يُؤْخَذَ بَدَلَ ٱلْجُزْئِيَّاتِ ٱلْكُلِّيُّ ٱلَّذِي يَعُمُّهَا وَٱلسَّبَبُ فِي ٱلْاِقْنَاعِ فِي هٰذَيْنِ ٱلصِّنْفَيْنِ هُوَ ٱلتَّغْيِيرُ وَٱلْاِبْدَالُ

(قَالَ) وَلَمَّا كَانَتِ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلْاَعْسَرُ وُجُودًا فِي نَفْسِهَا وَٱلْاَقَلُّ وُجُودًا يُظَنُّ بِهَا اَنَّهَا اَفْضَلُ كَانَتِ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلْكَثِيرَةُ ٱلْوُجُودِ فِي نَفْسِهَا وَٱلسَّهْلَةُ ٱلْوُجُودِ قَدْ تُرَى عَظِيمَةً اِذَا وُجِدَتْ فِي ٱلْمَوَاضِعِ ٱلَّتِي يَقِلُّ فِيهَا وُجُودُهَا اَوْ فِي ٱلْاَزْمِنَةِ ٱلَّتِي يَقِلُّ وُجُودُهَا فِيهَا اَيْضًا اَوْ فِي ٱلْاَسْنَانِ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلَّتِي يَقِلُّ وُجُودُهَا فِيهَا مِثْلُ وُجُودِ ٱلْاِنْسَانِ خَطِيبًا فِي سِنِّ ٱلصِّبَا اَوْ فِي ٱلْمُدَدِ ٱلَّتِي لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا اَنْ تُوجَدَ فِيهِ . مِثْلُ مَنْ يَفْعَلُ مَا شَأْنُهُ اَنْ يُفْعَلَ فِي زَمَانٍ طَوِيلٍ فِي زَمَانٍ قَصِيرٍ اَوْ تَكُونُ صَادِرَةً عَنِ ٱلْقُوَى ٱلَّتِي يَقِلُّ صُدُورُهَا عَنْهَا مِثْلَ اَنْ يَفْعَلَ ٱلضَّعِيفُ فِعْلَ ٱلْقَوِيِّ وَٱلْمَرِيضُ فِعْلَ

ٱلصَّحِيحِ . وَكُلُّ هٰذِهِ وَأَشْبَاهُهَا مِمَّا يُصَيِّرُ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي لَيْسَ بِعَظِيمٍ عَظِيمًا وَمُسْتَغْرَبًا . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلْجُزْءَ ٱلْعَظِيمَ مِنَ ٱلشَّيْءِ هُوَ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي هِيَ أَعْظَمُ مِثْلُ ٱلْقَلْبِ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ وَٱلدِّمَاغِ أَوِ ٱلرَّبِيعِ مِنَ ٱلسَّنَةِ وَٱلشَّبَابِ مِنَ ٱلْمَدِينَةِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلنَّافِعَ فِيمَا ٱلْحَاجَةُ إِلَيْهِ أَشَدُّ هُوَ أَعْظَمُ نَفْعًا وَٱلضَّارَّ فِيهِ أَكْثَرُ ضَرَرًا مِثْلُ ٱلصِّحَّةِ فِي ٱلشَّيْخُوخَةِ وَٱلْمَرَضِ فِيهَا . فَإِنَّ ٱلصِّحَّةَ فِيهَا أَكْثَرُ مِنَ ٱلصِّحَّةِ فِي ٱلصِّبَا وَٱلْمَرَضُ فِيهَا أَضَرُّ . وَأَيْضًا مَا كَانَ مِنَ ٱلْأَمْرَيْنِ أَقْرَبَ إِلَى ٱلْغَايَةِ فَهُوَ أَفْضَلُ . وَأَيْضًا مَا كَانَ فِي آخِرِ ٱلْعُمْرِ فَهُوَ أَفْضَلُ فَإِنَّ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي سَبِيلُهَا أَنْ تَكُونَ لِلنَّاسِ فِي آخِرِ أَعْمَارِهِمْ هِيَ أَفْضَلُ مِثْلُ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْحِلْمِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي تَكْمُلُ مَعَ طُولِ ٱلْعُمْرِ . وَأَيْضًا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي فُعِلَتْ أَوْ قِيلَتْ كَانَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا أَعْظَمَ مِنَ ٱلَّتِي إِذَا فُعِلَتْ لَمْ يَكُنْ فِعْلُهَا حَقِيقَةَ تَمَامِهَا . وَأَرِسْطُو يُسَمِّي ٱلَّتِي إِذَا فُعِلَتْ كَانَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْحَقِيقَةُ وَيُسَمِّي ٱلْآخَرَ ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْمَدْحُ أَعْنِي ٱلَّتِي لَيْسَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا

(قَالَ) وَحَدُّ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْمَدْحُ أَنَّهَا ٱلَّتِي إِذَا فُعِلَتْ بِجَهْلٍ أَوْ بِغَلَطٍ لَمْ تُمْدَحْ أَصْلًا وَٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْحَقِيقَةُ هِيَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي كَيْفَ مَا فُعِلَتْ فَقَدْ حَصَلَتْ عَلَى ٱلتَّمَامِ

(قَالَ) وَلِذٰلِكَ كَانَ حُسْنُ قَبُولِ ٱلشَّيْءِ ٱلْجَمِيلِ أَكْثَرَ مِنْ فِعْلِ ٱلشَّيْءِ ٱلْجَمِيلِ لِأَنَّ فِعْلَ ٱلْجَمِيلِ إِذَا فُعِلَ عَنْ غَلَطٍ أَوْ جَهْلٍ لَمْ يُقْبَلْ وَلَا مُدِحَ فَاعِلُهُ . وَأَمَّا حُسْنُ ٱلِٱنْفِعَالِ وَٱلْقَبُولِ فَكَيْفَ مَا

حَصَلَ فَقَدِ ٱسْتَفَادَ ٱلْخَيْرَ مِنْهُ ٱلْقَابِلُ لَهُ . وَأَيْضًا مَا أُؤْثِرَ فِعْلُهُ لِنَفْسِهِ وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ أَحَدٌ آثَرُ مِمَّا لَا يُخْتَارُ إِلَّا مِنْ جِهَةِ مَا يُعْلَمُ كَٱلْحَالِ فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلْجَمَالِ . فَإِنَّ ٱلصِّحَّةَ مُؤْثَرَةٌ بِذَاتِهَا وَٱلْجَمَالَ مُؤْثَرٌ لِلْغَيْرِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلنَّافِعَةَ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ فَهِيَ أَنْفَعُ كَٱلنَّافِعَةِ فِي طُولِ ٱلْعُمْرِ وَفِي حُسْنِ ٱلْعَيْشِ أَعْنِي ٱلْعَيْشَ ٱلرَّغْدَ وَفِي ٱللَّذَّاتِ وَفِي ٱصْطِنَاعِ ٱلْخَيْرَاتِ . وَلِذٰلِكَ مَا يُظَنُّ بِٱلصِّحَّةِ وَٱلْيَسَارِ أَنَّهُمَا عَظِيمَانِ لِأَنَّهُمَا يَجْمَعَانِ ٱلْحُلْوَ مِنَ ٱلْحُزْنِ وَٱلْفِعْلَ بِلَذَّةٍ أَعْنِي أَنَّ ٱلصِّحَّةَ هِيَ سَبَبُ ٱلْفِعْلِ بِلَذَّةٍ وَٱلْيَسَارَ سَبَبُ ٱلْحُلْوِ مِنَ ٱلْأَحْزَانِ . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذَيْنِ عَلَى ٱلِٱنْفِرَادِ فَاضِلٌ وَمُخْتَارٌ بِنَفْسِهِ أَعْنِي ٱلْحُلْوَ مِنَ ٱلْأَحْزَانِ وَٱلْأَفْعَالَ ٱللَّذِيذَةَ فَإِذَا ٱجْتَمَعَا لِأَمْرِئٍ جَعَلَاهُ أَعْظَمَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَوَاءٌ عَلِمَ ذٰلِكَ مِنْ عِلْمِهِ أَوْ جَهِلَهُ مِنْ جَهْلِهِ لِأَنَّ هٰذِهِ خَيْرَاتٌ مُسْتَفَادَةٌ بِٱلْحَقِيقَةِ لَا مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْمَدْحُ . وَلِكَوْنِ ٱلْيَسَارِ سَبَبًا لِدَفْعِ ٱلْأَحْزَانِ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ ٱلسَّعَادَةُ قَوْمٌ وَآخَرُونَ رَأَوْا أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ هِيَ أَنْ يَقْتَرِنَ بِهِ شَيْءٌ آخَرُ وَذٰلِكَ وَاجِبٌ مِنْ قِبَلِ أَنَّهُ أَخْرَى أَنْ تَكُونَ ٱلسَّعَادَةُ ثَابِتَةً وَمَأْمُونَةَ ٱلزَّوَالِ . فَإِنَّهُ لَيْسَ ٱلضَّرَرُ ٱللَّاحِقُ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ فَفَقَدَ إِحْدَاهُمَا كَمَنْ لَهُ عَيْنٌ وَاحِدَةٌ فَفَقَدَهَا لِأَنَّ ٱلَّذِي لَهُ عَيْنٌ وَاحِدَةٌ سُلِبَ أَحَبَّ مِمَّا سُلِبَ مَنْ لَهُ عَيْنَانِ . وَكَذٰلِكَ إِنْ كَانَتِ ٱلسَّعَادَةُ فِي ٱلْمَالِ وَفِي شَيْءٍ آخَرَ لَمْ يَكُنِ ٱلضَّرَرُ ٱللَّاحِقُ عَنْ سَلْبِ ٱلْمَالِ كَٱلضَّرَرِ ٱللَّاحِقِ عَنْ سَلْبِهِ إِنْ كَانَ هُوَ ٱلسَّعَادَةَ وَحْدَهُ

(قال) والكلام في هذه الاشياء كلها هاهنا ليس هو على جهة التصحيح وانما الكلام فيها بالقدر الذي يحتاج اليه الخطيب من ذلك ويجب للخطيب ابدا متى اتى بالنتائج من امثال هذه المقدمات ان يردفها بالمثالات المأخوذة من الناس الذين فعلوا تلك الافاعيل فيحقهم النفع او الضرر فلذلك ما يجب للخطيب ان يكون حافظا لقصص والاخبار

البحث العاشر

في ان الخطيب المشوري ينبغي ان يعرف اصناف السياسات وفي بيان اجناس هذه السياسات الاربعة

(من الكتاب نفسه)

(قال) فهذه هي الاشياء التي يثبت بها ان الشيء انفع او اضر. واما الاشياء التي يكون بها الاذن والمنع فقد قيل فيها قبل هذا بما فيه كفاية. لكن اهم واعظم ما فيها هو القول في الاشياء التي بها يقدر على جودة الاقناع في السنن والاشارة بالسنن التي لا يوجد انفع منها. ولذلك قد يجب ان نستقصي القول فيها ها هنا فنقول: ان الامارة بالسنن النافعة والاقناع التام فيها يتأتى بمعرفة اصناف السياسات والاخلاق والسنن التي تخص سياسة سياسة. وذلك ان في كل واحدة من السياسات سننا نافعة فيها وهي السنن التي بها

يَكُونُ خَلَاصُ تِلْكَ ٱلْمَدِينَةِ وَقَوَامُهَا . وَٱلسُّنَنُ ٱلنَّفِيسَةُ ٱلْخَطِيرَةُ هِيَ ٱلسُّنَنُ ٱلْعَادِلَةُ اَعْنِي ٱلْمَوْضُوعَةَ فِي ٱلْعَدْلِ ٱلَّتِي رَسَمَهَا ٱلرَّئِيسُ ٱلْاَوَّلُ فِي تِلْكَ ٱلْمَدِينَةِ اَوِ ٱلْمُسَلَّطُ عَلَيْهَا مِنْ قِبَلِ ٱلرَّئِيسِ ٱلْاَوَّلِ . وَهٰذِهِ ٱلسُّنَنُ ٱلنَّفِيسَةُ اَعْنِي ٱلسُّنَنَ ٱلْعَادِلَةَ تَخْتَلِفُ فِي ٱلسِّيَاسَاتِ بِحَسَبِ ٱخْتِلَافِ غَايَتِهَا . وَعَدَدُهَا عَلَى عَدَدِ ٱلسِّيَاسَاتِ . مِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّ ٱلْعَدْلَ فِي سِيَاسَةِ ٱلتَّغَلُّبِ اَنَّهُ لَا شَيْءَ عَلَى ٱلرَّئِيسِ اِذَا لَطَمَ ٱلْمَرْؤُوسَ . وَفِي سِيَاسَةِ ٱلْحُرِّيَّةِ ٱلْعَدْلُ فِي ذٰلِكَ اَنْ يُلْطَمَ ٱلرَّئِيسُ مِثْلَ ٱللَّطْمَةِ ٱلَّتِي لَطَمَهَا . وَٱلسِّيَاسَاتُ بِٱلْجُمْلَةِ اَرْبَعٌ ٱلسِّيَاسَةُ ٱلْجَمَاعِيَّةُ وَسِيَاسَةُ ٱلْخَسَّةِ وَسِيَاسَةُ جُودَةِ ٱلتَّسَلُّطِ وَسِيَاسَةُ ٱلْوَحْدَانِيَّةِ وَهِيَ ٱلْكَرَامِيَّةُ . وَهٰذِهِ ٱلسِّيَاسَاتُ كُلُّهَا ٱلْمَقْصُودُ بِٱلسُّنَنِ ٱلْمَوْضُوعَةِ فِيهَا اِنَّمَا هُوَ ٱلْمَدِينَةُ وَٱلْكُلُّ لَا ٱلشَّخْصُ . فَاَمَّا ٱلْمَدِينَةُ ٱلْجَمَاعِيَّةُ فَهِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ ٱلرِّئَاسَةُ فِيهَا بِٱلِٱتِّفَاقِ وَٱلْبَخْتِ لَا عَنِ ٱسْتِئْهَالٍ اِذْ كَانَ لَيْسَ فِي هٰذِهِ ٱلْمَدِينَةِ لِاَحَدٍ عَلَى اَحَدٍ فَضْلٌ . وَاَمَّا خِسَّةُ ٱلرِّئَاسَةِ فَهِيَ ٱلَّتِي يَتَسَلَّطُ فِيهَا ٱلْمُتَسَلِّطُونَ عَلَى ٱلْمَدَنِيِّينَ بِاَدَاءِ ٱلْاِتَاوَةِ وَٱلتَّغْرِيمِ لَا عَلَى جِهَةِ اَنْ تَكُونَ نَفَقَةً لِلْحُمَاةِ وَٱلْحَفَظَةِ وَلَا عُدَّةً لِلْمَدِينَةِ عَلَى مَا عَلَيْهِ ٱلْاَمْرُ فِي ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلْاُخَرِ بَلْ عَلَى جِهَةِ اَنْ تَحْصُلَ ٱلثَّرْوَةُ لِلرَّئِيسِ ٱلْاَوَّلِ . فَاِنْ جَعَلَ لَهُمْ حَظًّا مِنَ ٱلثَّرْوَةِ كَانَتْ رِئَاسَةَ ٱلثَّرْوَةِ . وَاِنْ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ حَظًّا مِنَ ٱلثَّرْوَةِ كَانَتْ رِئَاسَةَ ٱلتَّغَلُّبِ وَكَانُوا بِمَنْزِلَةِ ٱلْعَبِيدِ لِلرَّئِيسِ ٱلْاَوَّلِ . وَكَانَتْ مُحَامَاتُهُ عَنْهُمْ بِمَنْزِلَةِ مُحَامَاةِ ٱلْاِنْسَانِ عَنْ عَبِيدِهِ . وَاَمَّا جُودَةُ ٱلتَّسَلُّطِ فَهُوَ ٱلتَّسَلُّطُ ٱلَّذِي

يَكُونُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْأَدَبِ وَٱلِٱقْتِدَاءِ بِمَا تُوجِبُهُ ٱلسُّنَّةُ فَإِنَّ ٱلَّذِينَ يُشِيرُونَ بِمَا تُوجِبُهُ ٱلسُّنَّةُ هُمْ مُتَسَلِّطُونَ بِجُودَةِ ٱلتَّسَلُّطِ. وَهٰذَا هُوَ ٱلتَّسَلُّطُ ٱلَّذِي يَحْصُلُ بِهِ صَلَاحُ حَالِ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَٱلسَّعَادَةُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ. وَلِذٰلِكَ كَانَ هٰؤُلَاءِ أَهْلَ فَضَائِلَ وَٱقْتِدَارٍ عَلَى ٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي تُصْلِحُ ٱلْمَدِينَةَ وَأَهْلَ حَزْمٍ وَتَحَرُّزٍ مِمَّا شَأْنُهُ أَنْ يُفْسِدَ ٱلْمَدِينَةَ مِنْ خَارِجٍ أَوْ مِنْ دَاخِلٍ. وَلِذٰلِكَ سُمِّيَتْ هٰذِهِ ٱلْمَدِينَةُ بِهٰذَا ٱلِٱسْمِ. وَهٰذَا ٱلتَّسَلُّطُ ٱلَّذِي ذَكَرْهُ صِنْفَانِ رِئَاسَةُ ٱلْمَلِكِ وَهِيَ ٱلْمَدِينَةُ ٱلَّتِي تَكُونُ آرَاؤُهَا وَأَفْعَالُهَا بِحَسَبِ مَا تُوجِبُهُ ٱلْعُلُومُ ٱلنَّظَرِيَّةُ. وَٱلثَّانِيَةُ رِئَاسَةُ ٱلْأَخْيَارِ وَهِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ أَفْعَالُهَا فَاضِلَةً فَقَطْ. وَهٰذِهِ تُعْرَفُ بِٱلْإِمَامِيَّةِ وَيُقَالُ إِنَّهَا كَانَتْ مَوْجُودَةً فِي ٱلْفُرْسِ ٱلْأُوَلِ فِيمَا حَكَاهُ أَبُو نَصْرٍ

(قَالَ) وَأَمَّا وَحْدَانِيَّةُ ٱلتَّسَلُّطِ فَهِيَ ٱلرِّئَاسَةُ ٱلَّتِي يُحِبُّ ٱلْمَلِكُ أَنْ يَتَوَحَّدَ فِيهَا بِٱلْكَرَامَةِ ٱلرِّئَاسِيَّةِ وَأَلَّا يَنْقُصَهُ مِنْهَا شَيْءٌ بِأَنْ يُشَارِكَهُ فِيهَا غَيْرُهُ وَذٰلِكَ بِضِدِّ مَدِينَةِ ٱلْأَخْيَارِ. وَهٰذِهِ ٱلْمُدُنُ رُبَّمَا كَانَتِ ٱلسُّنَنُ ٱلْمَوْضُوعَةُ فِيهَا مَحْدُودَةً غَيْرَ مُتَبَدِّلَةٍ وَاحِدَةً فِي ٱلدُّهُورِ عَلَى مَا عَلَيْهِ ٱلْأَمْرُ فِي سُنَنِنَا ٱلْإِسْلَامِيَّةِ. وَرُبَّمَا كَانَتْ غَيْرَ ذَاتِ سُنَنٍ مَحْدُودَةٍ بَلْ يُفَوَّضُ ٱلْأَمْرُ فِيهَا إِلَى ٱلْمُتَسَلِّطِينَ عَلَيْهَا بِحَسَبِ ٱلْأَنْفَعِ فِي وَقْتٍ وَقْتٍ عَلَى مَا عَلَيْهِ ٱلْأَمْرُ فِي كَثِيرٍ مِنْ سُنَنِ ٱلرُّومِ ٱلْيَوْمَ

(قَالَ) وَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يَخْفَى عَلَيْنَا مِنْ هٰذَا ٱلَّذِي رَسَمْنَا بِهِ هٰذِهِ

ٱلسِّيَاسَاتِ غَايَةُ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا لِأَنَّا إِذَا عَرَفْنَا ٱلْغَايَةَ عَلِمْنَا ٱلْأَشْيَاءَ ٱلْمُخْتَارَةَ مِنْ أَجْلِ ٱلْغَايَةِ فَغَايَةُ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْجَمَاعِيَّةِ ٱلْحُرِّيَّةُ. وَغَايَةُ خِسَّةِ ٱلرِّئَاسَةِ ٱلثَّرْوَةُ وَغَايَةُ جُودَةِ ٱلتَّسَلُّطِ ٱلْفَضِيلَةُ وَٱلتَّمَسُّكُ بِٱلسُّنَّةِ. وَغَايَةُ ٱلْوَحْدَانِيَّةِ ٱلْكَرَامَةُ وَٱلسِّيَاسَاتُ ٱلَّتِي لَيْسَ يُوضَعُ فِيهَا سُنَنٌ غَيْرُ مُتَبَدِّلَةٍ فَغَايَةُ وَاضِعِهَا هُوَ ٱلتَّحَفُّظُ وَٱلِاحْتِرَاسُ مِنَ ٱلْخَلَلِ ٱلْوَاقِعِ فِي ٱلسُّنَنِ بِتَبَدُّلِ ٱلْأَزْمِنَةِ وَٱلْأَمْكِنَةِ. وَيَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلَّتِي ذَكَرَهَا أَرِسْطُو لَيْسَ تُلْفَى بَسِيطَةً وَإِنَّمَا تُلْفَى أَكْثَرَ ذٰلِكَ مُرَكَّبَةً كَٱلْحَالِ فِي ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْمَوْجُودَةِ ٱلْآنَ فَإِنَّهَا إِذَا تُؤُمِّلَتْ تُوجَدُ مُرَكَّبَةً مِنْ فَضِيلَةٍ وَكَرَامَةٍ وَحُرِّيَّةٍ وَتَغَلُّبٍ

(قَالَ) وَإِذَا كَانَتْ أَصْنَافُ ٱلسِّيَاسَاتِ مَعْلُومَةً عِنْدَنَا فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعْرِفَ ٱلْأَخْلَاقَ وَٱلسُّنَنَ ٱلَّتِي تُؤَدِّي إِلَى غَايَةِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَاتِ أَعْنِي ٱلنَّافِعَةَ فِيهَا وَأَنْ نَعْتَمِدَ فِي أَنْفُسِنَا ٱلتَّخَلُّقَ بِتِلْكَ ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلتَّمَسُّكَ بِٱلصِّنْفِ مِنَ ٱلسُّنَنِ ٱلَّتِي نُرُومُ ٱلِٱقْتِنَاعَ فِيهَا. فَإِنَّهُ إِنَّمَا تَكُونُ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلَّتِي يُحَثُّ بِهَا عَلَى ٱلسُّنَنِ مُقْنِعَةً إِذَا كَانَ ٱلْمُشِيرُونَ بِهَا ذَوِي صَلَاحٍ وَحُسْنِ فِعْلٍ حَتَّى تَكُونَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْمَذْكُورَةُ هَا هُنَا مَعْلُومَةً لَنَا وَمَوْجُودَةً فِينَا. فَإِنَّهُ إِذَا وُجِدَ فِينَا. ٱلْخُلُقُ ٱلَّذِي نَحُثُّ عَلَيْهِ كَانَ قَوْلُنَا فِي ٱلْحَثِّ عَلَيْهِ أَشَدَّ إِقْنَاعًا وَلِذٰلِكَ يَنْبَغِي أَلَّا نُشِيرَ إِلَّا بِمَا هُوَ مَوْجُودٌ لَنَا أَوْ نَحْنُ عَازِمُونَ عَلَى أَنْ يُوجَدَ لَنَا. وَمَعْلُومٌ أَنَّ ٱلْوُقُوفَ عَلَى ٱلسُّنَنِ

ٱلنَّافِعَةِ فِي ٱلْغَايَةِ اِنَّمَا تُسْتَنْبَطُ عَلَى جِهَةِ ٱلتَّحْلِيلِ مِنَ ٱلنَّظَرِ اِلَى ٱلْغَايَةِ. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ مِنْ اَيْنَ تُوجَدُ ٱلْمُقْنِعَاتُ فِي ٱلنَّافِعِ مِنَ ٱلسُّنَنِ فِي سِيَاسَةٍ سِيَاسَةٍ وَكَمْ اَنْحَاءُ ٱلسِّيَاسَاتِ وَٱلسُّنَنِ ٱلَّتِي تُحْتَذَى فِيهَا وَذٰلِكَ بِحَسَبِ ٱلْكَائِنِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ. وَاَمَّا ٱلْقَوْلُ فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ عَلَى ٱلتَّحْقِيقِ فَفِي ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْمَدَنِيَّةِ

البحث الحادي عشر

في ما ينبغي للخطيب ان يعرفهُ في النوع التثْبيتي . وفي الفضيلة والنقيصة والمدح والذمّ وتصرُّف الخطيب فيهما وفي انواع الامور الفاضلة والناقصة

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) وَاَمَّا بَعْدَ هٰذَا فَنَحْنُ قَائِلُونَ فِي ٱلْفَضِيلَةِ وَٱلنَّقِيصَةِ وَٱلْجَمِيلِ وَٱلْقَبِيحِ لِاَنَّ هٰذِهِ هِيَ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا وَيُذَمُّ . وَيَلْحَقُ مِنْ تَعْرِيفِنَا هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءَ اَنْ نُعَرِّفَ ٱلْاُمُورَ ٱلَّتِي بِهَا يُثْبِتُ ٱلْمَرْءُ فَضِيلَةَ نَفْسِهِ اِذْ كَانَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلطَّرِيقَ ٱلثَّانِيَ مِنَ ٱلطُّرُقِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّتِي يَقَعُ بِهَا ٱلْاِقْنَاعُ كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِنَا. وَذٰلِكَ اَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ ٱلْمَدْحِ اَعْنِي اَنْ يَكُونَ بِٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي نَقْدِرُ بِهَا عَلَى مَدْحِ غَيْرِنَا نَقْدِرُ بِهَا اَنْفُسِهَا عَلَى مَدْحِ اَنْفُسِنَا. وَاِنْ لَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ يَتَّفِقُ فِي جَمِيعِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا ٱلْغَيْرُ بَلْ اِنَّمَا يَكُونُ ذٰلِكَ بِٱلْفَضِيلَةِ فَقَطْ

وَهِيَ ٱلْأُمُورُ ٱلرَّاجِعَةُ إِلَى ٱلِٱخْتِيَارِ

(قَالَ) وَمِنْ أَجْلِ أَنَّهُ يَعْرِضُ كَثِيرًا أَنْ يُمْدَحَ ٱلنَّاسُ وَٱلرُّوَاتِيُّونَ بِٱلْفَضِيلَةِ وَبِأَشْيَاءَ غَيْرِ ٱلْفَضِيلَةِ وَلَيْسَ يَعْرِضُ هٰذَا فِي مَدْحِ هَؤُلَاءِ فَقَطْ بَلْ وَفِي مَدْحِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُتَنَفِّسَةِ وَغَيْرِ ٱلْمُتَنَفِّسَةِ. أَعْنِي أَنَّهَا تُمْدَحُ بِأَشْيَاءَ خَارِجَةٍ عَنِ ٱلْفَضِيلَةِ. فَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نَقُولَ هَا هُنَا فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُؤْخَذُ مِنْهَا ٱلْمُقَدِّمَاتُ فِي ٱلْمَدْحِ بِٱلْفَضَائِلِ وَبِغَيْرِ ٱلْفَضَائِلِ لِيَكُونَ ٱلْقَوْلُ فِي ذٰلِكَ عَامًّا فَنَقُولُ: إِنَّ ٱلْجَمِيلَ هُوَ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ وَهُوَ مَمْدُوحٌ وَخَيْرٌ وَٱلَّذِيذُ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ خَيْرٌ. وَإِذَا كَانَ ٱلْجَمِيلُ هُوَ هٰذَا فَبَيِّنٌ أَنَّ ٱلْفَضِيلَةَ جَمِيلَةٌ لِأَنَّهَا خَيْرٌ وَهِيَ مَمْدُوحَةٌ. وَٱلْفَضِيلَةُ هِيَ مَلَكَةٌ مُقَدِّرَةٌ لِكُلِّ فِعْلٍ هُوَ خَيْرٌ مِنْ جِهَةِ ذٰلِكَ ٱلتَّقْدِيرِ أَوْ يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ خَيْرٌ أَعْنِي ٱلْحَافِظَةَ لِهٰذَا ٱلتَّقْدِيرِ وَٱلْفَاعِلَةَ لَهُ. وَلِذٰلِكَ كَانَتْ مُوجِدَةً لِكُلِّ فِعْلٍ يُقْصَدُ بِهِ نَحْوُ غَايَةٍ مَا جَلِيلِ ٱلْقَدْرِ عَظِيمِ ٱلشَّأْنِ فِي حُصُولِ تِلْكَ ٱلْغَايَةِ عَنْهُ. فَأَمَّا أَجْزَاءُ ٱلْفَضِيلَةِ فَٱلْبِرُّ أَيِ ٱلْعَدْلُ ٱلْعَامُّ وَٱلشَّجَاعَةُ وَٱلْمُرُوءَةُ وَٱلْعِفَّةُ وَكِبَرُ ٱلْهِمَّةِ وَٱلْحِلْمُ وَٱلسَّخَاءُ وَٱللُّبُّ وَٱلْحِكْمَةُ. وَهٰذِهِ ٱلْفَضَائِلُ مِنْهَا مَا هِيَ فَضَائِلُ فِي ذَاتِ ٱلْفَاضِلِ فَقَطْ وَمِنْهَا مَا هِيَ فَضَائِلُ مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا تُفْعَلُ فِي أُنَاسٍ آخَرِينَ وَهٰذِهِ ٱلَّتِي تُفْعَلُ فِي أُنَاسٍ آخَرِينَ تَكُونُ أَعْظَمَ عِنْدَ قَوْمٍ مِنْهَا عِنْدَ آخَرِينَ وَفِي حَالٍ دُونَ حَالٍ. مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ فَضِيلَةَ ٱلشَّجَاعَةِ أَثَرُ فِي وَقْتِ ٱلْحَرْبِ مِنْهَا فِي وَقْتِ ٱلسِّلْمِ. وَأَمَّا فَضِيلَةُ ٱلْعَدْلِ فَمُؤَثِّرَةٌ فِي ٱلسِّلْمِ وَٱلْحَرْبِ

جميعاً. وفضيلة السخاء والمروءة عند المحاويج آثر منها عند غير المحاويج. وإنما تنفصل فضيلة المروءة من السخاء بالأقل والأكثر لأن فعل كلتيهما هو في المال لكن المروءة هي فعل أكثر من فعل السخاء. فأما البر فهو فضيلة عادلة يعطي الفاضل بها لكل امرئ من الناس ما يستحق وذلك بقدر ما تأمر به السنة. والجور هو الخلق الذي يأخذ به المرء الأشياء الغريبة التي ليس له أن يأخذها في السنة. وأما الشجاعة ففضيلة يكون المرء بها فعالا للأفعال الصالحة النافعة في الجهاد على حسب ما تأمر به السنة حتى يكون بفعله ذلك خادماً للسنة. وأما الجبن فضد هذا. وأما العفة ففضيلة يكون بها المرء في شهوات البدن على مقدار ما تأمر به السنة. والفجور ضد هذا. وأما السخاء ففضيلة تفعل الجميل المشهور في المال. والدناءة ضد هذا. وأما كبر الهمة ففضيلة يكون بها حسن الأفعال العظيمة وصغر النفس. والنذالة ضدها. وأما اللب ففضيلة العقل الذي يكون به حسن المشورة والروية مع وجود الفضائل الخلقية له التي هي من صلاح الحال. فهذا هو القول في الفضيلة وأجزائها بقدر ما يحتاج إليه في هذه الصناعة. وأما سائر الأشياء التي يمدح بها مما عدا الفضيلة فليس يعسر الوقوف عليها. وذلك أنه معلوم أن فاعلات الفضائل مثل التأدب والارتياض بالأشياء التي بها تحصل الفضائل هي أمور حسان وممدوح بها. وأما الأشياء التي توجد في الفضائل أنفسها أعني الأعراض التي توجد فيها. والأشياء التي توجد تابعة

لِلْفَضَائِلِ فَهِيَ ٱلَّتِي يُقَالُ فِيهَا ٱلْآنَ وَهِيَ عَلَامَاتُ ٱلْفَضَائِلِ وَٱعْرَاضُهَا ٱللَّاحِقَةُ لَهَا. وَٱفْعَالُهَا إِنَّمَا يُمْدَحُ بِهَا إِذَا كَانَتْ حَسَنَةً مَحْمُودَةً فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ ٱفْعَالِ ٱلْفَضَائِلِ قَدْ لَا يُمْدَحُ بِهَا وَكَذٰلِكَ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْاَعْرَاضِ. فَمِثَالُ ٱلْاَفْعَالِ وَٱلْاَعْرَاضِ ٱلَّتِي هِيَ مَحْمُودَةٌ ٱفْعَالُ ٱلشُّجْعَانِ فِي ٱلْحَرْبِ اَوْ مَنْ فَعَلَ فِي ٱلْحَرْبِ فِعْلَهُمْ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ مَلَكَةُ ٱلشَّجَاعَةِ. وَكَذٰلِكَ ٱلْاَعْرَاضُ ٱلَّتِي تَلْحَقُ ٱلشُّجْعَانَ مِمَّا يُمْدَحُ بِهَا. وَمِثَالُ ٱلْاَفْعَالِ ٱلَّتِي لَا يُمْدَحُ بِهَا فِي وَقْتٍ مَا بَذْلُ ٱلْمَالِ فَإِنَّهُ فِعْلٌ مِنْ ٱفْعَالِ ٱلسَّخَاءِ لٰكِنْ رُبَّمَا كَانَ ذٰلِكَ ٱلْفِعْلُ عَلَى جِهَةِ ٱلتَّبْذِيرِ. وَمِثَالُ ٱلْاَعْرَاضِ ٱلَّتِي لَا يُمْدَحُ بِهَا ٱنْفِعَالُ ٱلْمَرْءِ عَنِ ٱلْعَدْلِ وَقَبُولُهُ إِيَّاهُ وَذٰلِكَ اَنَّ فِعْلَ ٱلْعَدْلِ مَمْدُوحٌ وَاَمَّا ٱلِٱنْفِعَالُ عَنْهُ فَلَيْسَ بِمَمْدُوحٍ لِاَنَّهُ يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ مَهَانَةٌ وَضَيْمٌ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَٱفْعَالُ ٱلْفَضَائِلِ إِنَّمَا تَكُونُ مَمْدُوحَةً إِذَا كَانَتْ مُقَدَّرَةً تَقْدِيرَ ٱلْعَدْلِ وَمِمَّا يُمْدَحُ بِهَا ٱلْاَفْعَالُ ٱلْعَظِيمَةُ ٱلشَّاقَّةُ ٱلَّتِي جَزَاؤُهَا ٱلْكَرَامَةُ فَقَطْ. فَإِنَّ ٱلْاَفْعَالَ ٱلَّتِي يَكُونُ جَزَاؤُهَا ٱلْكَرَامَةَ خَيْرٌ مِنَ ٱلْاَفْعَالِ ٱلَّتِي جَزَاؤُهَا ٱلْمَالُ. وَلِذٰلِكَ إِذَا كَانَ فِعْلٌ يُجَازَى عَلَيْهِ بِٱلْاَمْرَيْنِ جَمِيعًا فَفَعَلَهُ فَاعِلٌ مِنْ اَجْلِ ٱلْكَرَامَةِ فَقَطْ مُدِحَ بِهِ وَكُلُّ مَا يَفْعَلُهُ ٱلْمَرْءُ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ لَا مِنْ اَجْلِ نَفْسِهِ مُدِحَ بِهِ. وَفِعْلُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي هِيَ خَيْرَاتٌ بِإِطْلَاقٍ كَذٰلِكَ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِ. وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي فِي طَبِيعَتِهَا خَيْرَاتٌ وَإِنْ كَانَتْ ضَارَّةً لِلْفَاعِلِ يُمْدَحُ بِهَا اَيْضًا. مِثْلُ فِعْلِ ٱلْعَدْلِ فَإِنَّ ٱلْعَادِلَ كَثِيرًا مَا يَسْتَضِرُّ بِهِ.

وَٱلْأَفْعَالُ ٱلَّتِي تَخْتَصُّ بِإِكْرَامِ ٱلْأَمْوَاتِ مَمْدُوحَةٌ لِأَنَّ ٱلْأَفْعَالَ ٱلَّتِي تَكُونُ لِلْأَحْيَاءِ إِنَّمَا يَقْصِدُ مِنْهَا ٱلْمَرْءُ أَكْثَرَ ذٰلِكَ مَنْفَعَةَ نَفْسِهِ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَكُلُّ فِعْلٍ كَانَ ٱلْمَقْصُودُ بِهِ ٱلْغَيْرَ وَلَمْ يَكُنْ يَنْتَفِعْ بِهِ ٱلْفَاعِلُ لَهُ أَوْ كَانَ يَلْحَقُهُ مِنْهُ ضَرَرٌ فَهُوَ مَمْدُوحٌ بِهِ. وَٱلْفِعْلُ ٱلَّذِي يَكُونُ إِلَى ٱلْمُحْسِنِينَ إِلَى ٱلنَّاسِ مَمْدُوحٌ بِهِ أَيْضًا لِأَنَّ هٰذَا هُوَ عَدْلٌ إِذْ كَانَ لَيْسَ يَنْتَفِعُ بِهِ ٱلْفَاعِلُ لَهُ. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ ذُو فَضِيلَةٍ أَنْ لَا يَفْعَلَ ٱلْأَفْعَالَ ٱلَّتِي يَفْتَضِحُ بِهَا أَهْلُ ٱلْفَوَاحِشِ وَأَنْ يُؤَدِّبَهُمْ بِٱلْقَوْلِ وَٱلْفِعْلِ. وَكَذٰلِكَ نُصْرَةُ ذَوِي ٱلْفَضَائِلِ وَمَحْمَدَتُهُمْ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِ. وَٱلْخَجَلُ عِنْدَ ذِكْرِ ٱلْقَبَائِحِ مِمَّا قَدْ يَدُلُّ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ لِأَنَّهُ يُظَنُّ بِهِ أَنَّ ٱلْحَيَاءَ يَمْنَعُهُ عَنْ إِتْيَانِ تِلْكَ ٱلرَّذِيلَةِ. وَقَدْ يَكُونُ أَيْضًا عَدَمُ ٱلْحَيَاءِ عِنْدَ ذِكْرِ ٱلْفَوَاحِشِ عَلَامَةً يُمْدَحُ بِهَا. وَذٰلِكَ أَنَّهُ قَدْ يُظَنُّ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَسْتَحْيِي عِنْدَ ذِكْرِ ٱلْقَبَائِحِ إِذَا كَانَ قَدْ فَعَلَهَا أَوْ نَالَهَا أَوْ هُوَ مُزْمِعٌ أَنْ يَفْعَلَهَا. مِثْلُ مَا حَكَى أَرِسْطُو أَنَّهُ عَرَضَ لِٱمْرَأَةٍ مَشْهُورَةٍ بِٱلْحِكْمَةِ عِنْدَهُمْ وَذٰلِكَ أَنَّ إِنْسَانًا مَشْهُورًا عَرَضَ لَهَا بِٱلْقَبِيحِ بِأَنْ قَالَ لَهَا: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ قَوْلًا يُمْعِنِي عَنْهُ ٱلْحَيَاءُ، فَحَلُمَتْ عَنْهُ وَلَمْ تُجِبْهُ بِقَوْلٍ قَبِيحٍ وَلَمْ يُدْرِكْهَا مِنْ ذٰلِكَ تَأَلُّمٌ وَلَا ٱنْفِعَالٌ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَرَى لِمَكَانِ فَضِيلَتِهَا أَنَّ أَحَدًا لَا يُعَرِّضُ لَهَا لَا بِمَالٍ وَلَا بِقَوْلٍ كَأَيٍّ (وَهُمَا صِنْفَا ٱلتَّعْرِيضِ). لٰكِنَّهَا فِي تِلْكَ ٱلْحَالِ جَعَلَتْ تَمَسُّ ٱلْفَضَائِلَ وَتَمْدَحُ أَهْلَهَا وَتَتَعَصَّبُ لَهُمْ وَتُحَامِي عَنْهُمْ. وَكَانَ أَيْضًا مَنْ مَعَهَا لَمْ يَأْنَفُوا

أيضاً لقول ذلك ولا لتعريضه لعلمهم أن مثلها لا يتهم بمثل هذا

(قال) ولذلك كان التعصب للاشياء التي تكتسب المجد والمحامدة عنها قد تجعل المتعصب لها والمحامي عنها من اهل الفضائل التي لا تحصل للانسان الا بمجاهدة كبيرة للطبيعة مثل العفاف والشجاعة وغيرهما. وذلك اذا صارت له ملكة بتردد فعلها والتعصب لها والمحامدة عنها كما عرض لهذه المرأة التي اقتصصنا ذكرها مع ذلك الرجل. وذلك ان امثال هذه الافعال قد يصير بها الانسان من اهل الفضائل التي لا تحصل للانسان الا بمجاهدة كبيرة

(قال) والانعام على الغير اذا لم يستفد المنعم منه شيئاً هو مما يمدح به ولذلك ما كان العدل والبر يمدح بهما الانسان من جهة انهما نافعان كما يمدح بهما من جهة ما هما جميلان. والانتقام ايضاً من الاعداء والا يرضى عنهم في حال مما يمدح به. فان الانتقام منهم هو جزاء والجزاء عدل والعدل جميل. ومحبة الغلبة ايضاً ومحبة الكرامة مما يمدح بهما لانهما علامتان تدلان على ايثار الفضائل لا لمكان اكتساب مال بهما. اما محبة الغلبة فتدل على ايثار الشجاعة. واما محبة الكرامة فعلى ايثار جميع الفضائل ولذلك كانت الفضائل الاثيرة المختارة هي التي ليس يقصد بها مقتنيها الى اكتساب مال. لان ذلك يدل على شرف

ٱلْفَضِيلَةِ وَمِنَ ٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا ٱلَّتِي شَأْنُهَا ٱنْ يَبْقَى ذِكْرُهَا مَحْفُوظًا ابَدًا عِنْدَ ٱلنَّاسِ. وَمِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا ٱلْهَيْئَاتُ ٱلْمَحْمُودَةُ عِنْدَ قَوْمٍ ٱلَّتِي يَجْعَلُونَهَا عَلَامَةً لِذَوِي ٱلشَّرَفِ مِثْلُ تَوْفِيرِ ٱلشُّعُورِ عِنْدَ ٱلْيُونَانِيِّينَ فَانَّهُ يَدُلُّ عَلَى ٱلشَّرَفِ اِذْ كَانَ لَيْسَ كُلُّ اَحَدٍ يَسْهُلُ عَلَيْهِ تَوْفِيرُ شَعَرِهِ لِاَنَّ ٱلْمُوَفُورِي ٱلشُّعُورِ لَا يَعْمَلُونَ عَمَلَ مَنْ لَيْسَ بِمُوَفُورِ ٱلشَّعَرِ وَلَا يُمْتَهَنُونَ بِاَيِّ مِهْنَةٍ اتَّفَقَتْ. وَٱلْاَزْيَاءُ ٱلَّتِي كَانَتْ تُتَّخَذُ عِنْدَنَا هِيَ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ اَرِسْطُو

(قَالَ) وَمِنَ ٱلشَّرَفِ اَلَّا يَحْتَاجَ ٱلْاِنْسَانُ اِلَى آخَرِينَ بَلْ يَكُونَ مُكْتَفِيًا بِنَفْسِهِ

(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي اَنْ نَأْخُذَ فِي ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ وَٱلْاُمُورِ ٱلْقَرِيبَةِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلنَّقَائِصِ وَهِيَ ٱلنَّقَائِصُ ٱلَّتِي قَدْ تُوجَدُ عَنْهَا اَفْعَالُ ٱلْفَضِيلَةِ اَوِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي قَدْ تُوجَدُ عَنْهَا اَفْعَالُ ٱلنَّقَائِصِ. فَيُمْدَحُ بِٱلنَّقَائِصِ ٱلَّتِي تُوجَدُ عَنْهَا اَفْعَالُ ٱلْفَضِيلَةِ بِاَنْ يُوهِمَ اَنَّهَا فَضَائِلُ مِنْ اَجْلِ اَنَّ تِلْكَ ٱلْاَفْعَالَ هِيَ مِنْ اَفْعَالِ ٱلْفَضَائِلِ. وَكَذٰلِكَ يُوهِمُ فِي ٱلْفَضَائِلِ اَنَّهَا نَقَائِصُ مِنْ اَجْلِ اَنَّهُ عَرَضَ اَنْ وُجِدَ عَنْهَا اَفْعَالُ ٱلنَّقَائِصِ. فَمِثَالُ ٱلنَّقَائِصِ ٱلَّتِي تُوجَدُ عَنْهَا اَفْعَالُ ٱلْفَضَائِلِ فَتُوهِمُ اَنَّهَا فَضَائِلُ ٱلْعِيُّ ٱلَّذِي قَدْ يَكُونُ عَنْهُ اَفْعَالُ ٱلْحِلْمِ فَيُوهِمُ بِهِ اَنَّهُ حَلِيمٌ. وَٱلْبَلَهُ ٱلَّذِي قَدْ تُوجَدُ عَنْهُ اَفْعَالُ ذَوِي ٱلسَّمْتِ فَيُوهِمُ بِذٰلِكَ اَنَّهُ ذُو سَمْتٍ. وَكَذٰلِكَ ٱلْعَدِيمُ ٱلْحِسِّ قَدْ يُوهِمُ فِيهِ اَنَّهُ عَفِيفٌ اِذْ كَانَ قَدْ يُوجَدُ لَهُ فِعْلُ ٱلْعَفِيفِ بِٱلْعَرَضِ. وَكَذٰلِكَ

ٱلْمُتَهَوِّرُ قَدْ يُوهِمُ فِيهِ أَنَّهُ شُجَاعٌ وَٱلسَّفِيهُ أَنَّهُ كَرِيمٌ. وَمِثَالُ مَا يُوهِمُ بِهِ إِنَّهُ نَقِيصَةٌ وَلَيْسَ بِنَقِيصَةٍ مَا يَعْرِضُ لِلْكَبِيرِ ٱلْهِمَّةِ مِنْ أَنْ يَتَجَافَى عَنِ ٱلْأُمُورِ ٱلْيَسِيرَةِ فَيُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ يَغْلَطُ وَيُخْدَعُ. وَٱلْكَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ إِنَّمَا يَصْنَعُ ذٰلِكَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْيَسِيرَةِ ٱلَّتِي لَيْسَ يَلْحَقُهُ مِنْهَا خَوْفٌ كَبِيرٌ وَلَا ضَرَرٌ شَدِيدٌ وَذٰلِكَ أَيْضًا فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي يَحْسُنُ فِيهِ أَنْ يَتَغَافَلَ عَنْهَا. وَقَدْ يُوهِمُ أَيْضًا هٰذَا ٱلْمَوْضِعُ عَكْسَ هٰذَا. وَهُوَ أَنْ يُقَالَ فِي ٱلْمُخْدَعِ إِنَّهُ كَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ. وَمِمَّا يُمْدَحُ بِهِ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَرْءُ يُعْطِي أَصْدِقَاءَهُ وَغَيْرَ أَصْدِقَائِهِ وَمَنْ يَعْرِفُ وَمَنْ لَا يَعْرِفُ لِأَنَّهُ يَظُنُّ أَنَّ شَرَفَ فَضِيلَةِ ٱلسَّخَاءِ هُوَ بَذْلُ ٱلْمَالِ لِلْكُلِّ

(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ٱلْمَدْحُ بِحَضْرَةِ ٱلَّذِينَ يُخِبُّونَ ٱلْمَمْدُوحَ كَمَا قَالَ سُقْرَاطُ: إِنَّهُ يَسْهُلُ مَدْحُ أَهْلِ أَثِينِيَةَ بِأَثِينَا. وَيَنْبَغِي أَنْ يُمْدَحَ كُلُّ إِنْسَانٍ بِٱلَّذِي هُوَ مَمْدُوحٌ عِنْدَ قَوْمِهِ وَأَهْلِ مَدِينَتِهِ إِنْ كَانَ ذٰلِكَ يَخْتَلِفُ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلْمَدْحِ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ مَدْحُ ٱلْآبَاءِ وَذِكْرُ مَآثِرِهِمُ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ وَمَدْحُ ٱلْمَرْءِ بِمَا تَسْمُو إِلَيْهِ هِمَّتُهُ مِنَ ٱلْمَرَاتِبِ. وَأَنَّهُ لَيْسَ يَقْتَصِرُ عَلَى مَا حَصَلَ لَهُ مِنْهَا. وَٱلرَّجُلُ ٱلْكَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ ٱلَّذِي لَا يَقْتَصِرُ بِهِمَّتِهِ عَلَى مَا نَالَ مِنَ ٱلْمَرَاتِبِ يُمْدَحُ بِهٰذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ مِنْ خَارِجٍ أَعْنِي بِفَضَائِلِ آبَائِهِ وَبِمَا يُؤَمَّلُ أَنْ يَسْمُوَ نَحْوَهُ كَمَا يُقَالُ مِنْ أَيِّ مَأْثُرٍ أَبْتَدِأُ مِنْ قِبَلِ آبَائِهِ وَإِلَى أَيِّ مَأْثُرٍ يَنْتَهِي مِنْ قِبَلِ هِمَّتِهِ. وَأَمَّا ٱلَّذِي لَا يَسْمُو بِهِمَّتِهِ إِلَى نَيْلِ أَكْثَرَ مِمَّا

حَصَلَ لَهُ مِنَ ٱلْمَرْتَبَةِ فَإِنَّمَا يُمْدَحُ مِنَ ٱلْأَمْرَيْنِ ٱللَّذَيْنِ مِنْ خَارِجٍ بِآبَائِهِ فَقَطْ. وَكَأَنَّهُ يَرَى هَاهُنَا أَنَّ ٱلْمَدْحَ بِمَنَاقِبِ ٱلْآبَاءِ لَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَيْهِ دُونَ أَنْ يُمْدَحَ بِفَضِيلَةِ ذَاتِهِ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

لَسْنَا وَإِنْ كَرُمَتْ أَوَائِلُنَا ... يَوْمًا عَلَى ٱلْأَحْسَابِ نَتَّكِلُ

نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا ... تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

وَإِنَّهُ قَدْ يُقْتَصَرُ بِٱلْمَدْحِ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ دُونَ ذِكْرِ ٱلْآبَاءِ كَمَا قَالَ:

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَامَا

(قَالَ) وَإِنَّمَا يَكُونُ ٱلْمَدْحُ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ بِٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي تَكُونُ عَنِ ٱلْمَشِيئَةِ وَٱلِٱخْتِيَارِ فَإِنَّ ٱلْفِعْلَ ٱلَّذِي يَكُونُ بِٱلْمَشِيئَةِ وَٱلِٱخْتِيَارِ هُوَ ٱلْفِعْلُ ٱلْفَاضِلُ. وَٱلَّذِي يُمْدَحُ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلِٱتِّفَاقِ أَوْ بِٱلْعَرَضِ مِنْ أَجْلِ أَنَّ لَهَا إِذَا ٱقْتَرَنَتْ بِٱلْفَضَائِلِ تَزْيِينًا لَهَا وَتَفْخِيمًا بِمَنْزِلَةِ ٱلْحَسَبِ ٱلْمُقْتَرِنِ إِلَى ٱلْفَضِيلَةِ وَجُودَةِ ٱلْبَخْتِ ٱلْمُقْتَرِنِ بِأَفْعَالِ ٱلْفَضَائِلِ. وَإِنَّمَا يَدْخُلُ فِي ٱلْمَدْحِ ٱلْأَفْعَالُ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلِٱتِّفَاقِ وَٱلْأَعْرَاضُ ٱلَّتِي تَقْتَرِنُ بِٱلْعَرَضِ مَعَ ٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْمَشِيئَةِ مَتَى تَكَرَّرَتْ مِرَارًا كَثِيرَةً عَلَى صِفَةٍ وَاحِدَةٍ حَتَّى أَوْهَمَتْ أَنَّهَا بِٱلذَّاتِ. وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا عَرَضَ لَهَا ذَلِكَ ظُنَّ بِهَا أَنَّهَا عَلَامَةٌ لِلْفَضِيلَةِ مِثْلَ أَنْ يَخْجَلَ ٱلْإِنْسَانُ مِرَارًا كَثِيرَةً بِٱلِٱتِّفَاقِ فِي مَوَاضِعَ يُمْدَحُ ٱلْخَجَلُ فِيهَا. وَإِنَّمَا دَخَلَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ فِي ٱلْمَدِيحِ لِأَنَّ ٱلْمَدِيحَ هُوَ قَوْلٌ يَصِفُ عِظَمَ ٱلْفَضِيلَةِ وَهٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ هِيَ مِمَّا تَعْظُمُ بِهَا ٱلْفَضِيلَةُ. وَإِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ فِي ٱلْمَدِيحِ فَيَنْبَغِي أَنْ تُسْتَعْمَلَ

على انها حدثت عن الروية . والاشياء التي بالاتفاق منها اشياء ليس الانسان سببها لا بالذات ولا بالعرض مثل الحسب والمنشإ الفاضل ومنها اشياء تعرض عن الافعال التي تكون عن الروية . فاما الاتفاقات الجيدة التي تعرض عن الافعال فتؤخذ علامة على الفضائل . واما الاتفاقات المتقدمة على الانسان فتؤخذ في تقرير الفضيلة وتثبيتها مثل ما يقال في المدح : ان الخيار يولد في الخيار . وفي الذم : ان الحية تلد الحية . والافعال بالجملة هي التي عليها يحمد الفاعل . واما آثار الافعال فهي دلائل على الفعل وانما يمدح بها اذا اثبتنا منها الفعل

(قال) وجودة النجت التي قيل فيما تقدم انها السعادة على ما يراه الجمهور هي وسائر الاشياء الاتفاقية التي يمدح بها واحدة في الجنس وليست هي والفضائل واحدة بالجنس بل كما ان صلاح الحال جنس للفضيلة اعني محيطا بها كذلك ما يحدث بالاتفاق جنس يحيط بالسعادة . وهذان الجنسان اعني الفضائل وما بالاتفاق يدخلان جميعا في باب المدح وفي باب المشورة لكن من جهتين مختلفتين . وانما كان الامر كذلك لانا اذا عرفنا الاشياء التي يجب ان تفعل فقد عرفنا الاشياء التي اذا فعلت مدح بها الانسان . ولذلك اذا ذكرت هذه الاشياء ذكرا مطلقا امكن ان تدخل في المشورة وفي المدح وذلك بزيادة الجهة التي بها تدخل في المشورة او الجهة التي بها تدخل في المدح . وذلك مثل ما يقول القائل

اِنَّهُ لَيْسَ يَنْبَغِي اَنْ يُوجَبَ اَلْعِظَمُ وَاَلْفَضْلُ لِلْاَشْيَاءِ اَلَّتِي تَكُونُ لِلْاِنْسَانِ بِاَلْعَرَضِ بَلْ لِلْاَشْيَاءِ اَلَّتِي تَكُونُ عَنْ رَوِيَّتِهِ وَاخْتِيَارِهِ . فَاِذَا زِيدَ اِلَى هٰذَا . فَلِذٰلِكَ لَيْسَ يَنْبَغِي اَنْ يُمْدَحَ اَلَّذِينَ سَعَادَتُهُمْ بِاَلْبَخْتِ وَاِنَّمَا يَنْبَغِي اَنْ يُمْدَحَ اَلَّذِينَ سَعَادَتُهُمْ عَنْ رَوِيَّةٍ وَاخْتِيَارٍ كَفُلَانٍ كَانَ دَاخِلًا فِي بَابِ اَلْمَدْحِ . وَاِذَا زِيدَ اِلَى هٰذَا فَلِذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي اَنْ تُطْلَبَ اَلْاَشْيَاءُ اَلَّتِي تَكُونُ عَنِ اِلْاِتِّفَاقِ بَلِ اَلْاَشْيَاءُ اَلَّتِي تَكُونُ عَنِ اَلرَّوِيَّةِ دَخَلَ فِي اَلْمَشُورَةِ . وَاَلْاَشْيَاءُ اَلِاتِّفَاقِيَّةُ قَدْ يُمْكِنُ اَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي اَلْمَدِيحِ تَارَةً وَفِي اَلذَّمِّ اُخْرَى . فَاِنَّ ظُنُونَ اَلنَّاسِ فِيهَا مُخْتَلِفَةٌ فَاِنَّ قَوْمًا يَرَوْنَ اَنَّ اَلْخَيْرَاتِ اَلَّتِي تَكُونُ بِاَلْاِتِّفَاقِ لَيْسَ يَنْبَغِي اَنْ يُمْدَحَ بِهَا اِذْ كَانَتْ شَيْئًا غَيْرَ مُحَصَّلٍ وَلَا مُكْتَسَبٍ لِلْاِنْسَانِ . وَقَوْمٌ يَرَوْنَ اَنَّهُ يَجِبُ اَنْ يُمْدَحَ بِهَا وَاَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى عِنَايَةٍ اِلٰهِيَّةٍ بِاَلَّذِي تَعْرِضُ لَهُ وَاَمَّا اَلْاَشْيَاءُ اَلَّتِي عَنِ اَلْاِخْتِيَارِ فَاَلْمَمْدُوحُ مِنْهَا يُمْدَحُ بِهِ اَبَدًا وَاَلْمَذْمُومُ مِنْهَا يُذَمُّ بِهِ اَبَدًا

(قَالَ) وَيَنْبَغِي اَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي اَلْمَدْحِ اَلْاَشْيَاءُ اَلَّتِي يَكُونُ بِهَا تَعْظِيمُ اَلشَّيْءِ وَتَسْمِيَتُهُ وَهُوَ اَنْ يُخَيَّلَ فِي اَلشَّيْءِ اَنَّهُ بِاَلْقُوَّةِ اَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ . وَذٰلِكَ اِذَا قِيلَ اِنَّهُ اَوَّلُ مَنْ فَعَلَ هٰذَا كَمَا قِيلَ فِي قِصَّةِ هَابِيلَ وَقَابِيلَ . اَوْ اِنَّهُ وَحْدَهُ فَعَلَ هٰذَا . اَوْ اِنَّهُ فَعَلَ فِي زَمَانٍ يَسِيرٍ مَا شَأْنُهُ اَنْ يُفْعَلَ فِي زَمَانٍ كَثِيرٍ . اَوْ اِنَّهُ فَعَلَ فِعْلًا كَبِيرًا . فَاِنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا اِنَّمَا تُفِيدُ عِظَمَ اَلْفِعْلِ . وَكَذٰلِكَ اِذَا قِيلَ اَنَّهُ فَعَلَ فِي زَمَانٍ يَعْسُرُ فِعْلُهُ . وَذٰلِكَ اِذَا كَانَ بِحَسَبِ مَا يُشَاكِلُ اِنْسَانًا

انسانا . ثم انه ان كان الفاعل ممن يقتدى به في افعاله واقواله مرارا كثيرة فان فعله عظيم كما قيل : انكم ايها الرهط ائمة يقتدى بكم . والافعال التي يقتدى بها ليست هي الافعال التي تكون بالاتفاق بل الافعال التي تكون عن المشئة والروية . وهذه الاشياء قد يمكن ان تدخل في المشورة اعني الاشياء التي تعظم الشيء مثل ان يشار على المرء ان يتشبه بالممدوح الاول في ذلك الجنس او يتشبه به في المدح او يشار عليه ان يكون من جملة الممدوحين الذين لا ينازع احد في حمدهم . مثل الذين يمدحون في الاسواق او يتشبه بهم في المدح . وربما يعظم الممدوحين ان يقاسوا بالذين يفعلون اضداد افعالهم وذلك عند ذكر افعالهم الفاضلة

(قال) والذين شأنهم ان يتشبهوا بالممدوحين الذين في الغاية ويقايسوا انفسهم معهم دائما فقد ينبغي ان يشبهوا بأولائك وان يجروا مجراهم في المدح وان لم يكونوا وصلوا مراتبهم . فان فضائلهم في نمو دائم . ومقايسة الانسان نفسه مع غيره لا تصح الا من الرجل الفاضل لموضع حب الانسان لنفسه فهو يرى نقائصه اقل من نقائص غيره وان كانت اعظم . ويرى فضائله اكثر وان كانت اصغر ولذلك ليس كل احد يستطيع المقايسة وانما يستطيعها الفضلاء من الناس ومثل ما حكى ارسطو عن سقراط انه كان يقايس بينه وبين غيره ويجري الاحكام

عَلَى اَخْلَاقِ نَفْسِهِ. بِمَعْنَى اَنَّهُ كَانَ يَنْظُرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فَاِنْ وَجَدَ فِيهِ فَضِيلَةً اَثَابَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا وَاِنْ وَجَدَ فِيهِ رَذِيلَةً عَاقَبَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا. وَالْمُقَايَسَةُ النَّافِعَةُ لِمَنْ يُرِيدُ اَنْ يَتَزَيَّدَ فِي الْفَضَائِلِ اِنَّمَا يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ بِالْمَمْدُوحِينَ جِدًّا. وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى اَنَّ اَمْثَالَ هٰؤُلَاءِ مَمْدُوحُونَ اَعْنِي الَّذِينَ فَضَائِلُهُمْ فِي نُمُوٍّ دَائِمٍ اَنَّ الَّذِينَ اَجْهَدُوا اَنْفُسَهُمْ فِي اَنْ يَبْلُغُوا مَبْلَغَ الْفَاضِلِينَ فَعَجَزُوا عَنْ ذٰلِكَ فَهُمْ مَمْدُوحُونَ عِنْدَ الْجُمْهُورِ. وَهُوَ بَيِّنٌ اَنَّ تَعْظِيمَ الشَّيْءِ دَاخِلٌ فِي الْمَدْحِ. فَاِنَّ التَّعْظِيمَ لِلشَّيْءِ تَشْرِيفٌ لَهُ وَالتَّشْرِيفُ مِنَ الْاُمُورِ الَّتِي يُمْدَحُ بِهَا. وَيَنْبَغِي اِذَا اُرِيدَ التَّعْظِيمُ بِالتَّشْبِيهِ اَنْ يُشَبَّهَ بِكَثِيرٍ مِنَ الْمَحْمُودِينَ فَاِنَّ فِي هٰذَا الْفِعْلِ تَشْرِيفًا لِلْمَمْدُوحِ وَدَلَالَةً لِلْجُمْهُورِ عَلَى فَضِيلَتِهِ. وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ فِي الْاَنْوَاعِ الْمُشْتَرَكَةِ لِاَجْنَاسِ الْاَقَاوِيلِ الثَّلَاثَةِ اَنَّ التَّعْظِيمَ وَاِنْ كَانَ مُشْتَرَكًا لِاَجْنَاسِ الْاَقَاوِيلِ الْخُطَبِيَّةِ الثَّلَاثَةِ فَهُوَ اَخَصُّ بِالْمَدْحِ وَالذَّمِّ. لِاَنَّهُ اِنَّمَا يُمْدَحُ الْاِنْسَانُ اَوْ يُذَمُّ بِالْاَشْيَاءِ الْمَوْجُودَةِ الْمُعْتَرَفِ بِوُجُودِهَا. وَتَعْظِيمُ الشَّيْءِ اَخَصُّ بِالْمَوْجُودِ مِنْهُ بِالْمَعْدُومِ. وَلِذٰلِكَ قَدْ يَنْبَغِي لِلْمَادِحِ اَنْ يَصِفَ جَلَالَةَ الشَّيْءِ وَبَهَاءَهُ وَزِينَتَهُ. وَاَمَّا اسْتِعْمَالُ الْعَلَامَاتِ وَالْمِثَالَاتِ فَهُوَ اَخَصُّ بِالْمَشُورَةِ لِاَنَّ مِنَ الْاُمُورِ الْمُتَصَرَّمَةِ الَّتِي قَدْ سَلَفَتْ يُحْدَسُ عَلَى الَّتِي سَتَكُونُ وَاِعْطَاءُ السَّبَبِ وَالْعِلَّةِ مِنَ الْاَشْيَاءِ الَّتِي قَدْ سَلَفَتْ نَحْنُ لَهُ اَكْثَرُ قَبُولًا وَتَعْظِيمًا لِاِنْقِضَائِهِ وَتَصَرُّمِهِ. وَاَمَّا مَعْرِفَةُ الْعَدْلِ وَالْجَوْرِ فَهُوَ خَاصٌّ بِالْمُشَاجَرِيَّةِ. وَبِالْجُمْلَةِ فَجَمِيعُ الْمَدْحِ

وَٱلذَّمِّ اِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْمُقَايَسَةِ بِمَنْ سَلَفَ مِنَ ٱلْمَحْمُودِينَ وَٱلْمَذْمُومِينَ. وَقَدْ يَنْبَغِي لِلْمَادِحِ وَٱلذَّامِّ اَنْ يَعْلَمَ بِحَضْرَةِ مَنْ يَكُونُ ٱلْمَدْحُ اَوِ ٱلذَّمُّ اَعْنِي اَنْ يَمْدَحَ بِحَضْرَةِ ٱلْاَصْدِقَاءِ وَيَذُمَّ بِحَضْرَةِ ٱلْاَعْدَاءِ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ اَنْ يَعْلَمَ ٱلْمَوَاضِعَ ٱلَّتِي يَأْخُذُ مِنْهَا ٱلْمَدْحَ وَٱلذَّمَّ وَهِيَ ٱلَّتِي سَلَفَ ذِكْرُهَا وَهِيَ ٱلْفَضَائِلُ وَفَاعِلَاتُهَا وَعَلَامَاتُهَا وَاَغْرَاضُهَا وَهُوَ بَيِّنٌ اَنَّ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ مِنْ حُدُودِ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ تُعْرَفُ حُدُودُ اَضْدَادِهَا اِذْ كَانَ ٱلضِّدُّ يُعْرَفُ مِنْ ضِدِّهِ

الفصل العاشر

في انواع الخطب ومن برع فيها

البحث الاول

في خطب التهانئ

(من كتاب صناعة الترسل)

اِنَّ ٱلتَّهَانِيَ لَيْسَ فِيهَا اِلَّا بَسْطُ ٱلْكَلَامِ وَٱلْاِطْنَابُ فِي شُكْرِ نِعَمِ ٱللهِ وَٱلتَّبَرُّؤُ مِنَ ٱلْحَوْلِ وَٱلْقُوَّةِ اِلَّا بِهِ وَوَصْفُ مَا اُعْطِيَ مِنَ ٱلنَّصْرِ وَنُجْحَ مِنَ ٱلثَّبَاتِ وَتَعْظِيمُ مَا يُسِّرَ مِنَ ٱلْفَتْحِ ثُمَّ مَا وُصِفَ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمٍ وَاِقْدَامٍ وَصَبْرٍ وَجَلَدٍ عَنِ ٱلْمَلِكِ وَعَنْ جَيْشِهِ حَسُنَ وَعَفُفُهُ فَلَاقَ ذِكْرُهُ وَرَاقَ ٱلتَّوْسِيعُ وَعَذُبَ بَسْطُ

ٱلْكَلَامِ فِيهِ فَإِنَّهُ مُتَرَتِّبٌ عَلَى مَا قَدَّمْنَا مِنْ نِسْبَةِ ٱلنَّصْرِ إِلَى وَاهِبِهِ وَٱلْجُلْدِ إِلَى مُعْطِيهِ وَٱلثَّبَاتِ إِلَى ٱلْمُوَفِّقِ لَهُ ثُمَّ كُلَّمَا ٱتَّسَعَ مَجَالُ ٱلْكَلَامِ فِي ذِكْرِ ٱلْمُوَافَقَةِ وَوَصْفِهَا كَانَ أَحْسَنَ وَأَدَلَّ عَلَى ٱلْبَلَاغَةِ وَأَدْعَى لِسُرُورِ ٱلْمَمْدُوحِ وَأَحْسَنَ لِمَوْقِعِ ٱلنِّعْمَةِ عِنْدَهُ وَأَشْهَى إِلَى سَمْعِهِ وَأَشْفَى لِغَلِيلِ شَوْقِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ ٱلْحَالِ عَلَى جَلِيَّتِهِ وَلَا بَأْسَ بِتَهْوِيلِ أَمْرِ ٱلْعَدُوِّ وَوَصْفِ جَمْعِهِ وَٱقْدَامِهِ فَإِنَّ فِي تَصْغِيرِ أَمْرِهِ تَحْقِيرَ ٱلظَّفَرِ بِهِ

البحث الثاني

في خطب التقليد

(من الكتاب نفسه)

ٱلْأَحْسَنُ مِنْهَا بَسْطُ ٱلْكَلَامِ وَتُعْتَبَرُ كَثْرَتُهُ وَقِلَّتُهُ بِحَسَبِ ٱلرُّتَبِ وَيَجِبُ أَنْ يُرَاعَى فِيهَا أُمُورٌ مِنْهَا بَرَاعَةُ ٱلِٱسْتِهْلَالِ بِذِكْرِ ٱلرُّتْبَةِ أَوِ ٱلْحَالِ وَقَدْرِ ٱلنِّعْمَةِ أَوْ لَقَبِ صَاحِبِ ٱلتَّقْلِيدِ أَوِ ٱسْمِهِ لَا يَكُونُ ٱلْمُطَّلِعُ أَجْنَبِيًا مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالِ وَلَا بَعِيدًا مِنْهَا وَلَا مُبَايِنًا لَهَا ثُمَّ يَسْتَصْحِبُ مَا يُنَاسِبُ ٱلْغَرَضَ وَيُوَافِقُ ٱلْمَقْصَدَ مِنْ أَوَّلِ ٱلْخُطْبَةِ إِلَى آخِرِهَا وَيَحْسُنُ أَنْ يَكُونَ ٱلْكَلَامُ مُنْقَسِمًا فِي ٱلتَّقْلِيدِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ مُتَقَارِبَةِ ٱلْمَقَادِيرِ فَٱلرُّبْعُ ٱلْأَوَّلُ ٱلْخُطْبَةُ وَٱلثَّانِي ذِكْرُ مَوْقِعِ ٱلْإِنْعَامِ فِي حَقِّ ٱلْمُقَلَّدِ وَذِكْرُ ٱلرُّتْبَةِ وَتَفْخِيمُ أَمْرِهَا

وَالثَّالِثُ فِي أَوْصَافِ الْمُقَلَّدِ وَذِكْرِ مَا يُنَاسِبُ تِلْكَ الرُّتْبَةَ وَيُنَاسِبُ حَالَهُ مِنْ عَدْلٍ وَسِيَاسَةٍ وَمَهَابَةٍ وَبُعْدِ صِيتٍ وَسُمْعَةٍ وَشَجَاعَةٍ إِنْ كَانَ نَائِبًا وَوَصْفِ الْعَدْلِ وَالرَّأْيِ وَحُسْنِ التَّدْبِيرِ وَالْمَعْرِفَةِ بِوُجُوهِ الْأَقْوَالِ وَعِمَارَةِ الْبِلَادِ وَصَلَاحِ الْأَحْوَالِ وَمَا يُنَاسِبُ ذٰلِكَ إِنْ كَانَ وَزِيرًا وَكَذٰلِكَ فِي كُلِّ رُتْبَةٍ بِحَسَبِهَا. وَالرَّابِعُ فِي الْوَصَايَا وَهٰذِهِ هِيَ الْقَاعِدَةُ فِي مِثْلِ ذٰلِكَ وَمِنْهَا تُرَاعَى الْمُنَاسَبَةُ وَمَا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ فَلَا يُعْطِي أَحَدًا فَوْقَ حَقِّهِ وَلَا يَصِفُهُ بِأَكْثَرَ مِمَّا يُرَادُ مِنْ مِثْلِهِ وَيُرَاعِي أَيْضًا مِقْدَارَ النِّعْمَةِ وَالرُّتْبَةِ فَيَكُونُ وَصْفُ الْمِنَّةِ بِهَا عَلَى مِقْدَارِ ذٰلِكَ وَمِنْهَا أَنْ لَا يَصِفَ الْمُتَوَلِّيَ بِمَا يَكُونُ فِيهِ تَعْرِيضٌ بِالْمَعْذُولِ وَتَنْقِيصٌ لَهُ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُوغِرُ الصُّدُورَ وَيُورِثُ الضَّغَائِنَ فِي الْقُلُوبِ وَيُدِلُّ عَلَى ضَعْفِ الْآرَاءِ فِي اخْتِيَارِ الْأَوَّلِ وَلَهُ أَنْ يَصِفَ الثَّانِيَ بِمَا يَحْصُلُ بِهِ الْمَقْصُودُ مِنْ غَيْرِ تَعْرِيضٍ بِالْأَوَّلِ وَمِنْهَا أَنْ يَتَخَيَّرَ الْكَلَامَ وَالْمَعَانِيَ فَإِنَّهُ مِمَّا يُشِيعُ وَيُذِيعُ وَلَا يُعْذَرُ الْمُقَصِّرُ فِي ذٰلِكَ بِعَجَلَةٍ وَلَا ضِيقٍ فَإِنَّ مَجَالَ الْكَلَامِ عَلَيْهِ مُتَّسِعٌ وَالْبَلَاغَةُ تَظْهَرُ فِي الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ وَالْأَمْرُ الْجَارِي فِي ذٰلِكَ عَلَى الْعَادَةِ مَعْرُوفٌ وَفِي أَيْدِي النَّاسِ مِمَّا كَتَبْتُ فِيهِ شَيْءٌ كَثِيرٌ لٰكِنْ تَقَعُ أَشْيَاءُ خَارِجَةٌ عَنِ الْعَادَةِ فَيَحْتَاجُ الْكَاتِبُ إِلَى التَّصَرُّفِ فِيهَا عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ

البحث الثالث

في الارتجال والبديهة واشارات الخطيب

(من كتاب بدائع البدائه والعقد الفريد)

قِيلَ اِنَّ ٱلِارْتِجَالَ فِي ٱللُّغَةِ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلِانْصِبَابِ وَٱلسُّهُولَةِ وَمِنْهُ قِيلَ : شَعْرٌ رَجَلٌ اِذَا كَانَ سَبْطًا غَيْرَ جَعْدٍ وَمُسْتَرْسِلًا غَيْرَ مُنْقَضٍ. وَقِيلَ مِنِ ارْتَجَلَ ٱلْبِئْرَ وَهُوَ اَنْ يَنْزِلَهَا ٱلرَّجُلُ بِرِجْلَيْهِ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ فَكَاَنَّهُمْ شَبَّهُوا ٱقْتِدَارَ ٱلشَّاعِرِ عَلَى ٱلْقَوْلِ مِنْ غَيْرِ فِكْرَةٍ وَلَا رُهْبَةٍ بِٱقْتِدَارِ نَازِلِ ٱلْبِئْرِ عَلَى ٱلنُّزُولِ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ وَلَا آلَةٍ. وَٱلْبَدِيهَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ بَدَهَ يَبْدَهُ بِمَعْنَى بَدَأَ يَبْدَأُ اَبْدَلُوا ٱلْهَمْزَةَ هَاءً لِقُرْبِهَا مِنْهَا كَمَا قَالُوا : لَهَنَكَ بِمَعْنَى لَاَنَكَ وَكَمَا اَبْدَلُوا ٱلْحَاءَ اَيْضًا بِٱلْهَاءِ لِقُرْبِهَا مِنْهَا فَقَالُوا مَدَحَ وَمَدَهَ. وَٱشْتِقَاقًا ٱلِارْتِجَالُ وَٱلْبَدِيهَةُ وَاِنْ كَانَا مُتَقَارِبَيْنِ اِلَّا اَنَّ اَهْلَ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مَيَّزُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنِ ٱلْآخَرِ بِمَا سَنَذْكُرُهُ فَنَقُولُ :

ٱلِارْتِجَالُ هُوَ اَنْ يَقُولَ ٱلْقَائِلُ مَا يَقُولُ فِي اَوْحَى مِنْ خَطْفِ ٱلْبَارِقِ وَاَخْتَطَافِ ٱلسَّارِقِ وَاَسْرَعَ مِنِ ٱلْتِمَاحِ ٱلْوَامِقِ وَنُفُوذِ ٱلسَّهْمِ ٱلْمَارِقِ حَتَّى يُخَالَ مَا يَعْمَلُ مَحْفُوظًا اَوْ مَرْئِيًّا مَلْحُوظًا مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ اِلَى كِتَابَةٍ وَلَا تَعَلُّلٍ بِتَقْفِيَةٍ وَتَنْفَرِدُ عِنْدَ ذٰلِكَ قَضِيَّةُ ٱلْحَالِ بِٱخْتِرَاعِ ٱلْوَزْنِ وَٱلْقَافِيَةِ وَهُمُ ٱلشُّهُودُ ٱلْعُدُولُ ٱلَّذِينَ يَجِبُ ٱلرُّجُوعُ

اِلَيْهِمْ وَلَا يَجُوزُ عَنْهُمُ ٱلْعُدُولُ بِٱلشَّهَادَةِ عَلَى ٱسْتِطَاعَتِهِ وَاَنَّ ذٰلِكَ ٱلْمَنْظُومَ اِبْنُ سَاعَتِهِ. وَٱلْبَدِيهَةُ اَنْ يَنْزِلَ عَلَى هٰذِهِ ٱلطَّبَقَةِ قَلِيلًا وَيُفَكِّرَ مُقَصِّرًا لَا مُطِيلًا فَاِنْ اَطَالَ ذُو ٱلْبَدِيهَةِ ٱلْفِكْرَةَ ٱنْعَكَسَتِ ٱلْقَضِيَّةُ وَخَرَجَتْ مِنْ حَدِّ ٱلْبَدِيهَةِ اِلَى حَدِّ ٱلرَّوِيَّةِ وَعِنْدَ ذٰلِكَ تَقْصُرُ نَهْضَةُ ٱلْاِقْتِدَارِ عَنْ بُلُوغِ ذٰلِكَ ٱلْمِضْمَارِ اِذِ ٱلْمُرْتَجِلُ وَٱلْبَادِهُ يُقْنَعُ مِنْهُمَا بِٱلرَّدِيِّ ٱلْيَسِيرِ وَلَا يُقْنَعُ مِنَ ٱلْمَرْوِيِّ اِلَّا بِٱلْجَيِّدِ ٱلْكَثِيرِ وَكَفَاكَ فِي ذِكْرِهِمَا قَوْلُ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ :

وَٱلْفِكْرُ قَبْلَ ٱلْقَوْلِ يُؤْمَنُ زَيْغُهُ ... شَتَّانَ بَيْنَ رَوِيَّةٍ وَبَدِيهِ

وَقَوْلُ ٱبْنِ جَرِيحٍ :

نَارُ ٱلرَّوِيَّةِ نَارٌ تُلْقَى مُنْضَجَةً ... وَلِلْبَدِيهَةِ نَارٌ ذَاتُ تَلْوِيحِ

وَقَدْ يُفَضِّلُهَا قَوْمٌ لِعَاجِلِهَا ... لٰكِنَّهَا عَاجِلٌ يَمْضِي مَعَ ٱلرِّيحِ

وَحَسْبُكَ بِهَرَبِ اِمَامِ ٱلشُّعَرَاءِ وَفَاتِكِهِمْ مِنَ ٱلْبَدِيهَةِ فَمَا ظَنُّكَ بِٱلْاِرْتِجَالِ وَاِذَا كَانَ عَبْدُ ٱللّٰهِ بْنُ وَهْبٍ ٱلرَّاسِبِيُّ رَئِيسُ ٱلْخَوَارِجِ فِي يَوْمِ ٱلنَّهْرَوَانِ يَقُولُ وَهُوَ ٱلْبَدَوِيُّ ٱلْفَصِيحُ وَٱلْعَرَبِيُّ ٱلصَّرِيحُ اِيَّاكُمْ وَٱلرَّأْيَ ٱلْقَطِيرَ وَٱلْكَلَامَ ٱلْقَضِيبَ يَقُولُ هٰذَا فِي مُطْلَقِ ٱلْكَلَامِ وَهُوَ غَيْرُ مُقَيَّدٍ بِوَزْنٍ وَلَا قَافِيَةٍ فَكَيْفَ ٱلظَّنُّ بِٱلْمُقَيَّدِ بِهِمَا لَعَمْرِي اَنَّهُ لَمَقَامٌ يَجْبُنُ فِيهِ ٱلشُّجَاعُ وَيَكْذِبُ فِيهِ رَائِدُ ٱلْفِكْرِ فِي طَلَبِ ٱلْاِنْتِجَاعِ

قَالَ مُحَمَّدٌ كَاتِبُ اِبْرَاهِيمَ وَكَانَ شَاعِرًا رَاوِيًا وَطَالِبًا لِلنَّحْوِ عَلَّامَةً قَالَ : سَمِعْتُ اَبَا دَاوُدَ وَجَرَى شَيْءٌ مِنْ ذِكْرِ ٱلْخُطَبِ وَتَمْيِيزِ ٱلْكَلَامِ

فَقَالَ: تَلْخِيصُ ٱلْمَعَانِي رِفْقٌ وَٱسْتِعَانَةٌ بِٱلْغَرِيبِ عَجْزٌ وَٱلتَّشَادُقُ فِي غَيْرِ اَهْلِ ٱلْبَادِيَةِ نَقْصٌ وَٱلنَّظَرُ فِي عُيُوبِ ٱلنَّاسِ عِيٌّ وَمَسُّ ٱللِّحْيَةِ هُلْكٌ وَٱلْخُرُوجُ مِمَّا بُنِيَ عَلَيْهِ ٱلْكَلَامُ اِسْهَابٌ (فَقَالَ) وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ رَأْسُ ٱلْخَطَابَةِ ٱلطَّبْعُ وَعَمُودُهَا ٱلدُّرْبَةُ وَحَلْيُهَا ٱلْاِعْرَابُ وَبَهَاؤُهَا تَخَيُّرُ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَحَبَّةُ مَقْرُونَةٌ بِقِلَّةِ ٱلْاِسْتِكْرَاهِ وَٱنْشَدَنِي بَيْتًا فِي خُطْبَةِ اِيَادٍ

يُومِنُونَ بِٱللَّفْظِ ٱلْخَفِيِّ وَتَارَةً رَمْيَ ٱلْمَلَاحِظِ خِيفَةَ ٱلرُّقَبَاءِ

(وَقَالَ) ٱبْنُ ٱلْاِعْرَابِي قُلْتُ لِلْفَضْلِ مَا ٱلْاِيجَازُ عِنْدَكَ قَالَ حَذْفُ ٱلْفُضُولِ وَتَقْرِيبُ ٱلْبَعِيدِ (وَتَكَلَّمَ) ٱبْنُ ٱلسَّمَّاكِ يَوْمًا وَجَارِيَةٌ لَهُ تَسْمَعُ فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ لَهَا كَيْفَ سَمِعْتِ كَلَامِي قَالَتْ اِلَى اَنْ تُفْهِمَهُ مَنْ لَمْ يَفْهَمْهُ مَلَّهُ مَنْ فَهِمَهُ

البحث الرابع

في خطب الوعاظة

(من كتاب التبيان للجاحظ وكتاب العقد الفريد

وزهر الاداب للمصري بتصرُّف)

قَالَ ٱبْنُ ٱلْجَوْزِيِّ فِي ٱلْمُنْتَخَبِ. لَمَّا كَانَتِ ٱلْمَوَاعِظُ مَنْدُوبًا اِلَيْهَا بِقَوْلِهِ: فَذَكِّرْ فَاِنَّ ٱلذِّكْرَى تَنْفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَقَوْلِهِ لِعُمَّالِهِ تَعَاهَدُوا ٱلنَّاسَ بِٱلتَّذْكِرَةِ. وَلِاَنَّ اَدْوَاءَ ٱلْقُلُوبِ تَفْتَقِرُ اِلَى اَدْوِيَةٍ كَمَا تَحْتَاجُ اَمْرَاضُ ٱلْبَدَنِ اِلَى مُعَالَجَةٍ اَلَّفْتُ فِي هٰذَا

ٱلْفَنِّ كُتُبًا تَشْتَمِلُ عَلَى أُصُولِهِ وَفُرُوعِهِ وَكَانَ ٱلسَّلَفُ يَقْتَنِعُونَ مِنَ ٱلْمَوَاعِظِ بِٱلْيَسِيرِ مِنْ غَيْرِ تَحْسِينِ لَفْظٍ أَوْ زَخْرَفَةِ نُطْقٍ وَمَنْ تَأَمَّلَ مَوَاعِظَ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ وَغَيْرِهِ مِمَّا أَثَرَتْ إِلَيْهِ. وَكَذٰلِكَ كَانَتْ ٱلْفُقَهَاءُ فِي قَدِيمِ ٱلزَّمَانِ يَتَنَاظَرُونَ مِنْ غَيْرِ مُعَارَضَةٍ فِي تَسْمِيَةِ قِيَاسِ عِلَّةٍ أَوْ قِيَاسِ شَبَهٍ وَنَرْجُو أَنْ يَكُونَ مَا أَخَذْتُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْأَسَامِي لَا يَخْرُجُ عَنْ مَرْضَاةِ ٱلْأَوَائِلِ وَلِذٰلِكَ مَا أَخَذْتُ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلْمَذْكُورِينَ مِنْ تَحْسِينِ لَفْظٍ أَوْ تَسْجِيعِ وَعْظٍ وَلَا يَخْرُجُ مِنْ قَانُونِ ٱلْجَوَادِ وَمَا ذَاكَ إِلَّا بِمُثَابَةِ جَمْعِ ٱلْقُرْآنِ ٱلَّذِي ٱبْتَدَأَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ وَثَنَّى بِهِ عُثْمَانُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ وَآذَنَ لِتَمِيمٍ ٱلدَّارِيِّ أَنْ يُقَصَّ وَمِثْلُ هٰذِهِ لَا تُذَمُّ لِكَوْنِهَا ٱبْتُدِعَتْ إِذْ لَيْسَتْ تُخَارِجُ عَنِ ٱلْأَصْلِ ٱلْمَشْرُوعِ. وَقَالَ ٱلْحَسَنُ ٱلْقَصَصُ بِدْعَةٌ كَمْ مِنْ أَخٍ يُسْتَفَادُ وَدَعْوَةٍ تُسْتَجَابُ

قَالَ بَعْضُ ٱلْقُدَمَاءِ إِنَّ ٱلْوَعْظَ حَبْلُ ٱللّٰهِ ٱلْمَمْدُودُ وَعَهْدُهُ ٱلْمَعْهُودُ وَظِلُّهُ ٱلْعَمِيمُ وَصِرَاطُهُ ٱلْمُسْتَقِيمُ وَحُجَّتُهُ ٱلْكُبْرَى وَمَحَجَّتُهُ ٱلْوُسْطَى وَهُوَ ٱلْوَاضِحُ سَبِيلُهُ ٱلرَّاشِدُ دَلِيلُهُ ٱلَّذِي مَنِ ٱسْتَضَاءَ بِمَصَابِيحِهِ أَبْصَرَ وَنَجَا وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ضَلَّ وَهَوَى حُجَّةُ ٱللّٰهِ وَعَهْدُهُ وَوَعِيدُهُ وَوَعْدُهُ بِهِ يَعْلَمُ ٱلْجَاهِلُ وَيَعْمَلُ ٱلْعَالِمُ ٱلْعَامِلُ وَيَنْتَبِهُ ٱلسَّاهِي وَيَتَذَكَّرُ ٱللَّاهِي بَشِيرُ ٱلثَّوَابِ وَنَذِيرُ ٱلْعِقَابِ وَشِفَاءُ ٱلصُّدُورِ وَجَلَاءُ ٱلْأُمُورِ مِنْ فَضَائِلِهِ أَنَّهُ يُقْرَأُ دَائِمًا وَيُكْتَبُ وَيُمْلَى وَلَا يُمَلُّ مَا أَهْوَنَ ٱلدُّنْيَا عَلَى مَنْ جَعَلَ ٱلدِّينَ إِمَامَهُ وَتَصَوَّرَ ٱلْمَوْتَ أَمَامَهُ قَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ ٱلْحِكْمَةُ مُوقِظَةٌ لِلْقُلُوبِ مِنْ سِنَةِ ٱلْغَفْلَةِ وَمُنْقِذَةٌ لِلْبَصَائِرِ مِنْ سَكْرَةِ

اَلْحَيْرَةِ وَمُحْيِيَةٌ لَهَا مِنْ مَوْتِ اَلْجَهَالَةِ وَمُسْتَخْرِجَةٌ لَهَا مِنْ ضِيقِ اَلضَّلَالَةِ وَاَلْعِلْمُ دَوَاءُ اَلْقُلُوبِ اَلْعَلِيلَةِ وَمُسْتَحَدٌّ لِلْأَذْهَانِ اَلْكَلِيلَةِ وَنُورٌ فِي اَلظُّلْمَةِ وَأُنْسٌ فِي اَلْوَحْشَةِ وَصَاحِبٌ فِي اَلْوَحْدَةِ وَسَمِيرٌ فِي اَلْخَلْوَةِ وَوُصْلَةٌ فِي اَلْمَجْلِسِ وَمَادَّةٌ لِلْعَقْلِ وَتَلْقِيحٌ لِلْفَهْمِ وَنَافٍ لِلْعِيِّ اَلْمُزْرِي بِأَهْلِ اَلْأَحْسَابِ اَلْمُقَصِّرِ بِذَوِي اَلْأَلْبَابِ اَنْطَقَ اَللّٰهُ سُبْحَانَهُ اَهْلَهُ بِاَلْبَيَانِ اَلَّذِي جَعَلَهُ صِفَةً لِكَلَامِهِ فِي تَنْزِيلِهِ وَاَيَّدَهُ رُسُلُهُ اِيضَاحًا لِلْمُشْكِلَاتِ وَفَصْلًا بَيْنَ اَلشُّبُهَاتِ شَرَّفَ بِهِ اَلْوَضِيعَ وَاَعَزَّ بِهِ اَلذَّلِيلَ وَسَوَّدَ بِهِ اَلْمُسَوَّدَ مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِهِ فَهُوَ مُعَطَّلٌ وَمَنْ تَعَطَّلَ مِنْهُ فَهُوَ مُغَفَّلٌ لَا تُبْلِيهِ اَلْاَيَّامُ وَلَا تَخْتَرِمُهُ اَلدُّهُورُ يَتَجَدَّدُ عَلَى اَلْاِبْتِذَالِ وَيَذْكُو عَلَى اَلْاِنْفَاقِ لِلّٰهِ عَلَى مَنْ بِهِ مِنْ عِبَادِهِ اَلْحَمْدُ وَاَلشُّكْرُ. قِيلَ لِعَمْرِو بْنِ عُبَيْدٍ مَا اَلْبَلَاغَةُ قَالَ مَا بَلَّغَكَ اَلْجَنَّةَ وَعَدَلَ بِكَ عَنِ اَلنَّارِ وَبَصَّرَكَ مَوَاقِعَ رُشْدِكَ وَعَوَاقِبَ عَمَلِكَ. قَالَ اَلسَّائِلُ لَيْسَ هٰذَا اُرِيدُ قَالَ مَنْ لَمْ يُحْسِنْ اَنْ يَسْكُتَ لَمْ يُحْسِنْ اَنْ يَسْتَمِعَ وَمَنْ لَمْ يُحْسِنِ اَلْاِسْتِمَاعَ لَمْ يُحْسِنِ اَلْقَوْلَ قَالَ لَيْسَ هٰذَا اُرِيدُ قَالَ: قَالَ اَلنَّبِيُّ اِنَّا مَعْشَرُ اَلْاَنْبِيَاءِ فِينَا تَلَكَّاٌ اَيْ قِلَّةُ اَلْكَلَامِ وَكَانُوا يَكْرَهُونَ اَنْ يَزِيدَ مَنْطِقُ اَلرَّجُلِ عَلَى عَقْلِهِ. قَالَ اَلسَّائِلُ لَيْسَ هٰذَا اُرِيدُ. قَالَ: كَانُوا يَخَافُونَ مِنْ فِتْنَةِ اَلْقَوْلِ وَمِنْ سَقَطَاتِ اَلْكَلَامِ مَا لَا يَخَافُونَ مِنْ فِتْنَةِ اَلسُّكُوتِ وَسَقَطَاتِ اَلصَّمْتِ. قَالَ: لَيْسَ هٰذَا اُرِيدُ. قَالَ عَمْرٌو: يَا هٰذَا فَكَاَنَّكَ تُرِيدُ تَخْيِيرَ اَللَّفْظِ فِي حُسْنِ اَلْاِفْهَامِ. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: اِنَّكَ اِنْ اَرَدْتَ تَقْرِيرَ حُجَّةِ اَللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي عُقُولِ

ٱلْمُكَلَّفِينَ وَتَخْفِيفَ ٱلْمُؤْنَةِ عَلَى ٱلْمُسْتَمِعِينَ وَتَزْيِينَ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي فِي قُلُوبِ ٱلْمُرِيدِينَ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْحَسَنَةِ فِي ٱلْآذَانِ ٱلْمَبْثُوثَةِ عِنْدَ ٱلْأَذْهَانِ رَغْبَةً فِي سِرْعَةِ إِجَابَتِهِمْ وَنَفْيِ ٱلشَّوَاغِلِ عَنْ قُلُوبِهِمْ بِٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ عَلَى ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ كُنْتَ قَدْ أُوتِيتَ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ وَٱسْتَوْجَبْتَ مِنَ ٱللهِ جَزِيلَ ٱلثَّوَابِ

قَالَ ٱبْنُ عَبْدِ رَبِّهِ: وَأَحْكَمُ ٱلْمَوَاعِظِ مَوَاعِظُ ٱللهِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْآبَاءِ لِلْأَبْنَاءِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْحُكَمَاءِ وَٱلْأُدَبَاءِ ثُمَّ مَقَامَاتُ ٱلْعُبَّادِ بَيْنَ أَيْدِي ٱلْخُلَفَاءِ ثُمَّ قَوْلُهُمْ فِي ٱلزُّهْدِ وَرِجَالِهِ ٱلْمَعْرُوفِينَ بِهِ ثُمَّ ٱلْمَشْهُورِينَ مِنَ ٱلْمُنْتَسِبِينَ إِلَيْهِ وَٱلْمَوْعِظَةُ ثَقِيلَةٌ عَلَى ٱلسَّمْعِ مُسْتَحْرِجَةٌ عَلَى ٱلنَّفْسِ بَعِيدَةٌ مِنَ ٱلْقَبُولِ لِاعْتِرَاضِهَا ٱلشَّهْوَةَ وَمُضَادَّتِهَا ٱلْهَوَى ٱلَّذِي هُوَ رَبِيعُ ٱلْقَلْبِ وَمُرَادُ ٱلرُّوحِ وَمَرْبَعُ ٱللَّهْوِ وَمَسْرَحُ ٱلْأَمَانِيِّ إِلَّا مَنْ وَعَظَهُ عِلْمُهُ وَأَرْشَدَهُ قَلْبُهُ وَأَحْكَمَتْهُ تَجْرِبَتُهُ. قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

لَنْ تَرْجِعَ ٱلنَّفْسُ عَنْ غَيِّهَا ... حَتَّى يُرَى مِنْهَا لَهَا وَاعِظُ

(وَقَالَتِ ٱلْحُكَمَاءُ) ٱلسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ وَلَا يَعْنُونَ مَنْ وَعَظَهُ غَيْرُهُ وَلَكِنْ مَنْ رَأَى ٱلْعِبَرَ فِي غَيْرِهِ فَٱتَّعَظَ بِهَا فِي نَفْسِهِ وَلِذٰلِكَ كَانَ يَقُولُ ٱلْحَسَنُ: إِقْرَعُوا هٰذِهِ ٱلنُّفُوسَ فَإِنَّهَا طَلِعَةٌ وَحَادِثُوهَا بِٱلذِّكْرِ فَإِنَّهَا سَرِيعَةُ ٱلدُّثُورِ وَٱعْصُوهَا فَإِنَّهَا إِنْ أُطِيعَتْ بَرِعَتْ فِي ٱلشَّرِّ غَايَةً وَكَانَ يَقُولُ عِنْدَ ٱنْقِضَاءِ مَجْلِسِهِ وَخَتْمِ مَوْعِظَتِهِ يَا لَهَا مِنْ مَوْعِظَةٍ لَوْ صَادَفَتْ مِنَ ٱلْقُلُوبِ حَيَاةً. وَكَانَ ٱبْنُ ٱلسَّمَّاكِ يَقُولُ

اِذَا فَرَغَ مِنْ كَلَامِهِ : اَلسُّنُّ تَصِفُ وَقُلُوبٌ تَعْرِفُ وَاَعْمَالٌ تُخَالِفُ .
وَقَالَ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ : لَوْ اُمِرْنَا بِالْجَزَعِ لَصَبَرْنَا يُرِيدُ ثِقَلَ الْمَوْعِظَةِ عَلَى السَّمْعِ وَجُنُوحَ النَّفْسِ اِلَى مُخَالَفَتِهَا . وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : (اَحَبُّ شَيْءٍ اِلَى الْاِنْسَانِ مَا مُنِعَا) . وَقَوْلُهُمْ : وَالشَّيْءُ يُرْغَبُ فِيهِ حِينَ يُمْتَنَعُ وَالْمَوْعِظَةُ مَانِعَةٌ لَكَ مِمَّا تَشْتَهِي حَامِلَةٌ لَكَ عَلَى مَا تَكْرَهُ اِلَّا اَنْ تَلْقَاهَا بِسَمْعٍ قَدْ فَتَقَتْهُ الْعِبْرَةُ وَقَلْبٍ قَدْحَتْ فِيهِ الْفِكْرَةُ وَنَفْسٍ لَهَا مِنْ عِلْمِهَا زَاجِرٌ وَمِنْ عَقْلِهَا رَادِعٌ فَيُفْتَحُ لَكَ بَابُ التَّوْبَةِ وَيُوضَحُ لَكَ سَبِيلُ الْاِنَابَةِ (قَالَ النَّبِيُّ) حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ يُرِيدُ اَنَّ الطَّرِيقَ اِلَى الْجَنَّةِ اِحْتِمَالُ الْمَكْرُوهِ فِي الدُّنْيَا وَالطَّرِيقَ اِلَى النَّارِ رُكُوبُ الشَّهَوَاتِ وَخَيْرُ الْمَوْعِظَةِ مَا كَانَتْ مِنْ قَائِلٍ مُخْلِصٍ اِلَى سَامِعٍ مُنْصِفٍ (وَقَالَ بَعْضُهُمْ) الْكَلِمَةُ اِذَا خَرَجَتْ مِنَ الْقَلْبِ وَقَعَتْ فِي الْقَلْبِ وَاِذَا خَرَجَتْ مِنَ اللِّسَانِ لَمْ تُجَاوِزِ الْاٰذَانَ . وَقَالُوا مَا اَحْسَنَ التَّاجَ . وَهُوَ عَلَى رَأْسِ الْمَلِكِ اَحْسَنُ . وَمَا اَحْسَنَ الدُّرَّ . وَهُوَ عَلَى نَحْرِ الْفَتَاةِ اَحْسَنُ وَمَا اَحْسَنَ الْمَوْعِظَةَ . وَهِيَ مِنَ الْفَاضِلِ التَّقِيِّ اَحْسَنُ . (وَقَالَ زِيَادٌ) اَيُّهَا النَّاسُ لَا يَمْنَعْكُمْ سُوءُ مَا تَعْلَمُونَ مِنَّا اَنْ تَنْتَفِعُوا بِاَحْسَنِ مَا تَسْمَعُونَ مِنَّا . قَالَ الشَّاعِرُ :

اِعْمَلْ بِقَوْلِي وَاِنْ قَصَّرْتُ فِي عَمَلِي
يَنْفَعْكَ قَوْلِي وَلَا يَضُرُّكَ تَقْصِيرِي

البحث الخامس

في غاية الوعظ

(من كتاب الفصن الرطيب للمقري)

قَالَ لِسَانُ الدِّينِ بْنُ الْخَطِيبِ فِي الرَّوْضَةِ فِي مُحَرِّكَاتِ الْعَزِيمَةِ وَهِيَ الْيَقَظَةُ مَا نَصُّهُ قُلْتُ وَالْمُحَرِّكَاتُ الْمُشْتَرَكَاتُ فِي بَاعِثِ الْيَقَظَةِ كَثِيرَةٌ مِنْهَا الْوَعْظُ السَّائِقُ بِعُقُودِ الشَّارِدِ عَنِ اللهِ تَعَالَى إِلَى مَرْبَطِ التَّوْبَةِ وَمُحَرِّكُ الْعَزِيمَةِ يُرَدِّدُ آذَانَهُ عَلَى نُوَّامِ أَهْلِ الْكَهْفِ وَقَدْ ضُرِبَ نَوْمُ الْغَفْلَةِ عَلَى آذَانِهِمْ حَتَّى يَحُولَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ آذَانِهِمْ وَيُرَكِّبَهُمْ ظَهْرَ الرِّيَاضَةِ حَتَّى تَلْحَقَهُمْ بِالْمُجْتَهِدِينَ مِنْ إِخْوَانِهِمْ وَلَمَّا كَانَ حُبُّ الدُّنْيَا هُوَ الْمَانِعَ عَنِ الشُّرُوعِ فِي إِطْلَاقِ الْعَمَلِ وَالْقَاطِعَ بِهِ لِمَا بَعْدَهُ لَمْ يَجِدْ إِسَاءَةَ خَبَلِ الْهَوَى وَجُنُونَ الْكَسَلِ أَنْجَعَ مِنْ وَقْيِ الْعَذْلِ وَالتَّأْنِيبِ وَتَقْبِيحِ الْمَحْبُوبِ سِيَّمَا إِذَا ازْعَجَتْ بِنَبَالِ نَبْلِهِ عَنْ حَنَيَّاتِ ضُلُوعِ الصِّدْقِ وَقَالَ بَعْضُهُمُ الْكَلَامُ إِذَا خَرَجَ مِنَ الْقَلْبِ دَخَلَ الْقَلْبَ أَوْقِدِ النَّارَ مِنْ رِسَالَةِ لَيْلَى وَاحْذَرِ السَّيْلَ بَعْدَهَا مِنْ دُمُوعِي

وَلَا تَعْدِلِ الْوَعْظَ الْبَلِيغَ بِاللِّسَانِ الْفَصِيحِ وَالْقَلْبِ الْقَرِيحِ فَإِذَا رَأَيْتَ الْأَرْضَ قَدِ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَهِضَابَ الْقُلُوبِ الْقَاسِيَةِ قَدْ تَقَلَّبَتْ فَسَمِّرْ لِلْغِرَاسِ وَالزِّرَاعِ عَنِ الذِّرَاعِ وَاغْتَنِمِ السِّرَاعَ وَالْإِسْرَاعَ إِذَا هَبَّتْ رِيَاحُكَ فَاغْتَنِمْهَا فَإِنَّ لِكُلِّ خَافِقَةٍ سُكُونَا

وَكَقَوْلِ الْآخَرِ:

حَفِّرْ لَهَا مَاءً يُرِيهَا بِدَاءَةً وَٱضْمَنْ لَهَا حَوْضًا وَإِنْ لَمْ تُحْفَرِ
وَٱرْبَأْ بِنَفْسِكَ عَنْ تَسَامُحِ بَائِعٍ وَٱغْنَمْ إِذَا سَامَتْكَ شَهْرَةُ مُشْتَرِي

قَالُوا ٱلْوَعْظُ يَضْرِبُ وَجْهَ ٱلنَّفْسِ عَنِ ٱلتَّبَسُّطِ فِي بِسَاطِ ٱللَّذَّاتِ وَيَنْقُلُ خَطَرَاتِهَا عَنِ ٱلْخَطْوِ فِي مَلْعَبِ ٱلْخَطِيئَاتِ وَيُمَثِّلُ لَهَا ٱلصَّبْرَ عِيَانًا وَيُبَيِّنُ ٱلْعَوَاقِبَ ٱلْمُحَجَّبَةَ بَيَانًا وَيُنْشِئُ سَحَابَ ٱلْحُزْنِ فِي أَجْوَافِ أَجْزَائِهَا وَيُذَكِّرُهَا بِمَآلِهَا وَٱنْتِهَائِهَا وَيُعْرِضُ عَنْ مَصَارِعِ فَنَائِهَا وَخَرَابِ بِنَائِهَا وَفِرَاقِ حَبَائِبِهَا وَٱبْنَائِهَا عِنْدَ نُزُولِ هَادِمِ ٱللَّذَّاتِ بِفِنَائِهَا فَتَرْجِعُ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى بِحُكْمِ ٱلِٱضْطِرَارِ أَفْكَارُهَا وَتَخْشَعُ مِنْ خِيفَةِ ٱللهِ تَعَالَى وَجَلَالِهِ أَبْصَارُهَا وَٱلْوَعْظُ يَكُونُ بِلِسَانَيْنِ وَيُوجَدُ فَنَيْنِ لِسَانَ حَالٍ وَلِسَانَ مَقَالٍ وَرُبَّمَا كَانَ لِسَانُ ٱلْحَالِ أَبْلَغَ وَهُوَ يُسْمَعُ مِنَ ٱلْقُبُورِ ٱلْمُوحِشَةِ وَٱلْقُصُورِ ٱلْخَالِيَةِ وَٱلْعِظَامِ ٱلْبَالِيَةِ وَفِيهِ حِكَايَاتٌ وَأَخْبَارٌ. وَلِسَانُ مَقَالٍ كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ وَهُوَ سَبِيلُ ٱللهِ تَعَالَى ٱلَّتِي بَعَثَ بِهَا ٱلنَّبِيِّينَ وَضَمَّنَ فُصُولَهَا ٱلْكِتَابَ ٱلْمُبِينَ وَٱلسَّوْطَ ٱلَّذِي يَجْعِلُ عَلَى ٱلْأَوْبَةِ وَيَسُوقُ دُودَ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ إِلَى غَدِيرِ ٱلتَّوْبَةِ وَنَحْنُ نَجْعَلُهُ هَنِيمَةً بَيْنَ يَدَيِ ٱلْفِرَاسَةِ لِتَذْكِيَةِ ٱلنُّفُوسِ إِنْ صَدَقَ حُكْمُ ٱلْفِرَاسَةِ مِنْ ذَاكَ فَمِنْ ذٰلِكَ مَا صَدَرَ عَنِّي عَلَى لِسَانِ وَاعِظٍ

البحث السادس

في فوائد الوعظ وجهل كثيرين من الخطباء في هذا الفن

(من كتاب الكلم الثمان للشيخ الحسين المرصفي)

وَلَمَّا كَانَ ٱلْإِنْسَانُ مَوْضِعًا لِلسَّهْوِ وَٱلنِّسْيَانِ وَمَحَلًّا لِلذُّهُولِ وَٱلْغَفْلَةِ لِمَا يَعْتَوِرُهُ وَيَكْنِفُهُ مِنَ ٱلْأَهْوَاءِ وَٱلشَّهَوَاتِ ٱلَّتِي بِٱتِّبَاعِهَا وَٱلِٱنْقِيَادِ مَعَهَا يَدْخُلُ ٱلِٱخْتِلَالُ عَلَى ٱلنِّظَامِ ٱلْكُلِّيِّ وَٱلْمَصْلَحَةِ ٱلْعَامَّةِ ثُمَّ يَسْرِي بِغَايَةِ ٱلسُّرْعَةِ إِلَى ٱلنِّظَامَاتِ ٱلْجُزْئِيَّةِ وَٱلْمَصَالِحِ ٱلْخَاصَّةِ فَيَضِيعُ ٱلْغَنِيُّ فَقِيرًا وَٱلْقَادِرُ عَاجِزًا وَٱلشُّجَاعُ جَبَانًا وَٱلذَّكِيُّ غَبِيًّا وَٱلْفَطِنُ بَلِيدًا وَيَصِيرُ ٱسْمُ ٱلْبَهَائِمِ أَوْلَى بِهِمْ مِنِ ٱسْمِ ٱلْأُنَاسِيِّ بَلْ كَانَتِ ٱلْبَهَائِمُ أَحْسَنَ حَالًا مِنْهُمْ كَمَا سَلَفَ وَكَانُوا مَوْضِعَ قَوْلِهِ: إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا. تَعَيَّنَ أَنْ يَصْحَبَهُ مُذَكِّرٌ دَائِمٌ وَوَاعِظٌ مُسْتَمِرٌّ يَهْدِيهِ إِلَى قَصْدِ ٱلسَّبِيلِ وَجَادَّةِ ٱلْمَحَجَّةِ كُلَّمَا جَارَتْ بِهِ ٱلْخَيَالَاتُ ٱلْفَاسِدَةُ وَٱلْوَسَاوِسُ ٱلرَّدِيئَةُ. وَلِتَحْصِيلِ ذٰلِكَ وَرَدَ ٱلْأَمْرُ فِي قَوْلِهِ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ. فَقَدْ أَبَانَ أَنْ لَا صَلَاحَ لِلْكَافَّةِ إِلَّا بِوُجُودِ أُمَّةٍ تَكُونُ وَظِيفَتُهَا دُعَاءَ ٱلنَّاسِ لِلْخَيْرِ وَصَرْفَهُمْ عَنْ نَاحِيَةِ ٱلشَّرِّ وَأَمْرَهُمْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهْيَهُمْ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ. وَنَوَّهَ بِمِقْدَارِ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ إِذَا وُجِدَتْ وَنَبَّهَ عَلَى شَرَفِهَا وَفَضْلِ مَكَانِهَا حَيْثُ جَعَلَهَا مُخْتَصَّةً بِٱلْفَلَاحِ

وَٱلْفَوْزِ بِحَقِيقَةِ ٱلسَّعَادَةِ إِذْ قَدْ تَكُونُ هِيَ فِي نَفْسِهَا صَالِحَةً وَبِهَا يَعُمُّ ٱلصَّلَاحُ فَيَصِيرُ فَلَاحُهَا أَصْلًا لِفَلَاحِ سِوَاهَا فَٱسْتَحَقَّتْ أَنْ يُقَالَ فِيهَا بِعِبَارَةِ ٱلتَّخْصِيصِ وَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَإِنَّمَا يُمْكِنُ تَأْدِيَةُ تِلْكَ ٱلْوَظِيفَةِ وَٱلْقِيَامُ بِهَا حَقَّ ٱلْقِيَامِ لِقَوْمٍ تَقَدَّسَتْ نُفُوسُهُمْ وَتَنَقَّتْ طِبَاعُهُمْ وَتَهَذَّبَتْ أَخْلَاقُهُمْ وَتَنَوَّرَتْ عُقُولُهُمْ وَصَحَّتْ أَفْهَامُهُمْ وَرَجَحَتْ أَحْلَامُهُمْ وَصَدَقَتْ عَزَائِمُهُمْ وَعَلَتْ هِمَمُهُمْ وَعَرَفُوا أَجْنَاسَ ٱلْخَيْرِ وَأَحَاطُوا بِأَنْوَاعِهِ وَمَيَّزُوهَا مِنْ أَصْنَافِ ٱلشَّرِّ فَرُبَّمَا أَشْتَبَهَ ٱلْحَالُ وَتَمَثَّلَ كُلٌّ فِي صُورَةِ ٱلْآخَرِ وَلَوْلَا ذَٰلِكَ لَمْ يَكُنْ تَمْيِيزُ ٱلْخَيْرِ مِنَ ٱلشَّرِّ أَمْرًا عَسِرًا إِذْ كَانَ ٱلْأَسَاسُ ٱلضَّرَرَ وَٱلنَّفْعَ وَلَا تَجِدُ أَحَدًا يَجْهَلُهُمَا وَلَٰكِنْ رُبَّ ضَارٍّ فِي ٱلْحَالِ نَافِعٌ فِي ٱلْمَآلِ فَيَكُونُ خَيْرًا وَرُبَّ نَافِعٍ فِي ٱلْحَالِ ضَارٌّ فِي ٱلْمَآلِ فَيَكُونُ شَرًّا وَرُبَّمَا ٱجْتَمَعَتِ ٱلْمَضَرَّةُ وَٱلْمَنْفَعَةُ وَٱسْتَوَتَا أَوْ غَلَبَتْ إِحْدَاهُمَا وَمِنْ هُنَا نَبَتَ ٱلِٱحْتِيَاجُ لِوُجُودِ أُمَّةٍ تُفَرِّغُ أَنْفُسَهَا لِلِٱشْتِغَالِ بِذَٰلِكَ حَتَّى تُحْكِمَ أَمْرَهَا ثُمَّ تُلَاحِظُ ٱلنَّاسَ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِمْ لِتَدْعُوَهُمْ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَتَأْمُرَهُمْ بِمَا عَرَفَتْهُ خَيْرًا وَتَنْهَاهُمْ عَمَّا أَنْكَرَتْهُ وَعَرَفَتْهُ شَرًّا تَنْصَحُهُمْ بِٱلْتِزَامِ مَا عَرَفُوهُ وَتَدُلُّهُمْ عَلَى مَا جَهِلُوهُ فَأَكْثَرُ ٱلْمَنَافِعِ وَٱلْمَضَارِّ مَعْرُوفٌ بَيِّنٌ لَا يَخْتَلِفُ بِٱلنَّاسِ عِلْمُهُ حَتَّى قِيلَ إِنَّ ٱلدِّينَ أَمْرٌ تَقْتَضِيهِ ٱلطِّبَاعُ وَتَدْفَعُ إِلَيْهِ ٱلْفِطْرَةُ وَلَٰكِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لِغَلَبَةِ هَوَاهُ قَدْ يُبِيحُ لِنَفْسِهِ مَا يَحْكُمُ عَقْلُهُ بِمَنْعِهِ وَيَجِدُ فِي طَبْعِهِ ٱسْتِقْبَاحَهُ أَلَا تَرَى إِلَى ٱلسَّارِقِ وَٱلْغَاصِبِ كَيْفَ يَسْتَجِيزُ أَنْ يَفْعَلَ

بِغَيْرِهِ مَا لَا يَسْتَجِيزُ اَنْ يَفْعَلَهُ بِهِ غَيْرُهُ. فَمَتَى سُرِقَ مَالُهُ اَوِ اغْتُصِبَ مِنْهُ وَجَدَ بِذٰلِكَ فِي قَلْبِهِ حَرَارَةً وَفِي نَفْسِهِ ضِيقًا وَتَشَوَّشَ فِكْرُهُ وَاخْتَلَّتْ حَالُهُ وَبَطَلَ نِظَامُ سَيْرِهِ. وَهُوَ لَا يُرِيدُ ذٰلِكَ. بَلْ يُرِيدُ اَنْ يَدُومَ مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ طَيِّبَ النَّفْسِ مُسْتَقِيمَ الْاَحْوَالِ. فَهُوَ يَحْكُمُ بِقُبْحِ ذٰلِكَ وَحُسْنِ هٰذَا. وَاِنْ كَانَ لَا يُعَبِّرُ عَنْ ذٰلِكَ لِقُصُورِهِ عَنْ مَعْرِفَةِ الْاَلْفَاظِ بِالْحِلِّ وَالْحُرْمَةِ. وَاِلٰى ذٰلِكَ الْمَعْنَى الْاِشَارَةُ بِقَوْلِهِ الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا اُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ. وَعَلٰى هٰذِهِ الْاُمَّةِ اَنْ تَعْرِفَ الْمُجَدِّدَاتِ الزَّمَانِيَّةَ لِتَكُونَ اَعْمَالُهَا مُطَابِقَةً لِلْاَحْوَالِ الْحَاضِرَةِ. فَرُبَّ اَمْرٍ يَكُونُ خَيْرًا فِي عَصْرٍ فَيُضْحِي شَرًّا فِي غَيْرِهِ. وَهَلْ هٰذِهِ الْاُمَّةُ كَائِنَةٌ اَوْ كَانَتْ. لَا اُثْبِتُ ذٰلِكَ وَلَا اَنْفِيهِ حَتّٰى اُفَاوِضَكَ الْحَدِيثَ فِيهِ. اِنْ قُلْتَ هٰذِهِ الْاُمَّةُ مُتَحَقِّقَةٌ فِي خُطَبَاءِ الْمَنَابِرِ. قُلْتُ لَكَ: اَتُرِيدُ بِهِمْ هٰؤُلَاءِ الَّذِينَ تَرَاهُمْ وَتَسْمَعُهُمْ وَهُمْ اِنَّمَا تَمَيَّزُوا عَنْ آخِرِ طَبَقَةٍ مِنْ طَبَقَاتِ الْعَامَّةِ لِتَمَكُّنِهِمْ مِنْ قِرَاءَةِ نَوْعٍ مِنْ اَنْوَاعِ الْخَطِّ. فَغَايَةُ اَمْرِ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ اَنْ يَقْرَأَ دِيوَانَ خُطَبٍ صَنَّفَهُ بَعْضُ اَسْلَافِهِ كَمَا تُخَيَّلُ مُنَاسِبًا لِلشُّهُورِ وَالْمَوَاسِمِ فَيَتَحَفَّظُ مَا تُعْطِيهِ تِلْكَ النُّقُوشُ مِنْ مَوَادِّ الْاَلْفَاظِ. اَوْ يَنْسَخُ صُورَةَ خُطْبَةٍ لِيَخِفَّ حَمْلُهَا عَلَيْهِ اِذَا قَامَ بِهَا خَطِيبًا. يَسْرُدُ الْفَاظًا حَفِظَهَا اَوْ نَظَرَ حُرُوفَهَا لَا يَعْقِلُ مَعْنَاهَا وَلَا يَفْهَمُ الْمُرَادَ مِنْهَا. كَمَا اِذَا لَمْ يَكُنِ الدِّيوَانُ مَشْكُولًا وَلَمْ يَقْرَإِ الْخُطْبَةَ عَلٰى ذِي دِرَايَةٍ سَمِعَتْ مِنْهُ الْمُعْجَبَ وَالْمُطْرِبَ مِنَ اللَّحْنِ الْفَاحِشِ وَالتَّصْحِيفِ الْقَبِيحِ. فَاِنَّ مِنْهُمْ

مَنْ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ ٱنْتِقَادَ ٱلسَّامِعِينَ فَيَقْرَأُ ٱلْخُطْبَةَ مِرَارًا عَلَى بَعْضِ اَهْلِ ٱلْمَعْرِفَةِ حَتَّى يَقِفَ عَلَى صِحَّةِ ٱلنُّطْقِ بِهَا. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى تَصْحِيحِ ٱلْحَدِيثِ اَحْتِرَامًا لِكَلَامِ ٱلنَّبِيِّ. وَرُبَّمَا قَرَأَهُ عَلَى رَجُلٍ يُقِيمُهُ لَهُ بِصِنَاعَةِ ٱلنَّحْوِ فَيَضِلَّانِ جَمِيعًا. اِذْ لَا عَمَلَ لِصِنَاعَةِ ٱلنَّحْوِ اِلَّا بَعْدَ فَهْمِ ٱلْمَعْنَى. وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُبَالِي بِتَصْحِيحِ آيَةٍ وَلَا حَدِيثٍ. مَا اَظُنُّ اَنَّكَ تَسْتَجِيزُ اَنْ تَقُولَ اَرَدْتُ هٰؤُلَاءِ. فَاِنْ قُلْتَ اِنَّمَا اَرَدْتُ خُطَبَاءَ ٱلْاَسْلَافِ قُلْتُ لَكَ: تَجَاوَزْ عَصْرَ ٱلنَّبِيِّ وَعَصْرَ اَصْحَابِهِ ثُمَّ اِقْرَأْ خُطَبَ ٱلْخُلَفَاءِ وَنُوَّابِهِمْ فِي ٱلنَّوَاحِي ثُمَّ اُمْضِ فِي ذٰلِكَ طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ وَعَصْرًا خَلْفَ عَصْرٍ حَتَّى تَنْتَهِيَ اِلَى وَقْتِكَ هٰذَا تَجِدْ اَنَّ جَمِيعَ ٱلْخُطَبِ يَدُورُ اَمْرُهَا عَلَى مَعَانٍ وَاحِدَةٍ وَاَلْفَاظٍ مُعَيَّنَةٍ لَا تُجَاوِزُهَا. وَهِيَ ٱلتَّزْهِيدُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلتَّرْغِيبُ فِي ٱلْآخِرَةِ وَتَبْشِيرُ ٱلْمُطِيعِ وَاِنْذَارُ ٱلْعَاصِي. يُكَرِّرُونَ ذٰلِكَ كُلَّ جُمُعَةٍ وَكُلَّ مَوْسِمٍ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُ تَأْثِيرٌ وَٱلْتَحَقَ بِٱلْاُمُورِ ٱلْمُعْتَادَةِ. اِنَّمَا يَسْمَعُ ٱلنَّاسُ اَصْوَاتًا ذَاتَ كَيْفِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ اِقَامَةً لِذٰلِكَ ٱلرَّسْمِ حَسْبَمَا يَصِلُ اِلَيْهِ فَهْمُ ٱلْعَامَّةِ مِنْ اَنَّ تِلْكَ ٱلصُّورَةَ هِيَ اِقَامَةُ ٱلدِّينِ. وَفِي صِفَةِ خُطَبَاءِ ٱلْعَصْرِ ٱلثَّانِي بَعْدَ عَصْرِ ٱلنَّبِيِّ وَاَصْحَابِهِ يَقُولُ شَاعِرُهُ:

وَذُمُّوا لَنَا ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَرْضَعُونَهَا اَفَاوِيقَ حَتَّى مَا يَدُرُّ لَنَا ثَعْلُ

وَٱلثَّعْلُ بِفَتْحِ اَوَّلِهِ اَوْ ضَمِّهِ وَسُكُونِ ثَانِيهِ زِيَادَةً فِي اَطْبَاءِ ٱلنَّاقَةِ وَغَيْرِهَا تُشْبِهُ حَلَمَةَ ٱلثَّدْيِ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا فِي ٱلْعَادَةِ لَبَنٌ. وَلَا تَظُنَّ اَنِّي اَنْتَقِصُ بِذٰلِكَ خُطَبَاءَ ٱلْعُصُورِ ٱلْاُولَى فَاِنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ

كِفَايَةَ ذٰلِكَ لِكَثْرَةِ اَهْلِ ٱلْمَعْرِفَةِ حِينَ ذَاكَ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَكَيْفَمَا كَانَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْخَطَابَةِ فَهِيَ غَيْرُ كَافِيَةٍ فِي تَحَقُّقِ ٱلدُّعَاءِ اِلَى ٱلْخَيْرِ وَٱلْاَمْرِ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّهْيِ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ. فَلَا تَكُونُ ٱلْاُمَّةُ مُتَحَقِّقَةً بِخِطَابِ ٱلْمَنَابِرِ. وَاِنْ قُلْتَ: اِنَّهَا ٱلْعُلَمَاءُ قُلْتُ: هٰذَا قَرِيبٌ وَلٰكِنْ نَنْظُرُ. اَمَّا عُلَمَاءُ ٱلصَّدْرِ ٱلْاَوَّلِ جَزَاهُمُ ٱللّٰهُ عَنِ ٱلدِّينِ وَٱلْاُمَّةِ خَيْرًا فَكَانَ ٱشْتِغَالُهُمْ بِجَمْعِ ٱلْاُصُولِ وَتَنْقِيَتِهَا مِنَ ٱلدَّخِيلِ ٱلَّذِي بَادَرَ بِاِدْخَالِهِ اَهْلُ ٱلنِّفَاقِ وَٱلزَّنْدَقَةِ لِاَغْرَاضٍ شَتَّى. مِنْهَا ٱلتَّشْكِيكُ فِي ٱلدِّينِ. وَمِنْهَا ٱلْتِمَاسُ مَا عِنْدَ ٱلْمُلُوكِ وَمِنْهَا ٱبْتِنَاءُ مَنْزِلَةٍ فِي قُلُوبِ ٱلْعَامَّةِ اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يُحِيطُ بِهِ مَنْ قَرَأَ ٱلتَّوَارِيخَ وَتَاَمَّلَهَا. وَٱجْتِهَادُهُمْ وَبَذْلُ هِمَمِهِمْ فِي تَفْرِيعِ ٱلْفُرُوعِ وَتَقْرِيرِ اَحْكَامِ ٱلْحَوَادِثِ مَا كَانَ مِنْهَا وَمَا لَمْ يَكُنْ يُفْرَضُ وَيُقَدَّرُ حَتَّى اِذَا وَقَعَتْ ٱلْحَادِثَةُ وَجَدَتْ لَهَا حُكْمًا حَاضِرًا وَاَمْرًا كَافِيًا فِي اِنْفَاذِ اَعْمَالِهِمْ مَانِعًا لَهُمْ عَنْ رَاحَةِ اَبْدَانِهِمْ فَكَانَ ٱلْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَقُولُ لَا يُنَالُ ٱلْعِلْمُ بِرَاحَةِ ٱلْجِسْمِ. وَاَمَّا مَنْ خَلْفَهُمْ فَكَانَ اِقْبَالُهُمْ عَلَى دَوَاوِينِ مَشْيَخَتِهِمْ يُهَذِّبُونَهَا وَيُجِيدُونَ تَرْتِيبَهَا وَيُوَضِّحُونَ مَا يَحْتَاجُ لِلتَّوْضِيحِ مِنْهَا وَيَسْتَدْرِكُونَ عَلَيْهِمْ مَا فَاتَهُمْ تَخْرِيجًا عَلَى اُصُولِهِمِ ٱلَّتِي قَرَّرُوهَا اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْاَعْمَالِ نَاظِمًا لَهُمْ فِي سِلْكِ سَلَفِهِمْ. فَكَانَ حُكْمُهُمْ وَاحِدًا لَا يَفْرُغُ لَهُمْ وَقْتٌ يَسْتَعْمِلُونَهُ فِي تَعَهُّدِ ٱلنَّاسِ وَدُعَائِهِمْ اِلَى ٱلْخَيْرِ كَمَا هُوَ وَظِيفَةُ تِلْكَ ٱلْاُمَّةِ. ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِ هٰؤُلَاءِ خَلْفٌ ٱتَّخَذُوا ٱلْجَدَلَ شِرْعَةً وَٱلْمُنَازَعَةَ سَبِيلًا. وَخَرَجَ بِهِمْ ذٰلِكَ

اِلَى سِبَابٍ وَمُشَاتَمَةٍ وَاحْتِقَارِ قَوْمٍ قَوْمًا وَرَجَعَ بِهِمْ اِلَى الْقَدْحِ فِي السَّلَفِ وَصَارَ الْاِخْتِلَافُ بَيْنَ اَهْلِ الْمَذَاهِبِ مُنْشِئًا لِعَدَاوَةٍ اِنْ لَمْ تَكُنْ فَوْقَ الْعَدَاوَةِ بَيْنَ اَهْلِ الْاَدْيَانِ فَلَيْسَتْ دُونَهَا. فَكَثِيرًا مَا كَانَتْ سَبَبًا لِتَجْرِيدِ السُّيُوفِ يُقَاتِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى دَخَلَ بَيْنَهُمُ الْحُكَّامُ لِاِصْلَاحِهِمْ وَكَانُوا هُمُ الْاَوْلَى بِذٰلِكَ. وَهُوَ حَقُّهُمُ الَّذِي مَا كَانَ يَنْبَغِي اَنْ يُمَكِّنُوا مِنْهُ غَيْرَهُمْ وَصَارُوا اَحْزَابًا يَحْجَزُ كُلُّ حِزْبٍ اِلَى مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ النَّوَاحِي وَصَارَتِ الْمَدَائِنُ بِمَنْزِلَةِ الْمَعَاقِلِ وَالْحُصُونِ حَتَّى دَخَلَ اَهْلُهَا تَحْتَ نَظَرِ السِّيَاسَةِ وَقَهْرِهَا وَبُدِّلَتْ سُيُوفُ الْمَنَابِرِ بِقِطَعِ خَشَبٍ فِي صُورَتِهَا يَتَّكِئُ عَلَيْهَا الْخُطَبَاءُ حَالَ صُعُودِهِمْ وَهُبُوطِهِمْ. وَآلَ اَمْرُ الْعُلَمَاءِ اِلَى كَوْنِهِمْ طَائِفَةً مِنَ الطَّوَائِفِ الْمَرْبُوبَةِ الْمَسُوسَةِ تَلْحَظُ حَرَكَاتِهِمْ اَرْصَادُ الْحُكُومَةِ وَتَأْخُذُهُمْ عُيُونُهَا مَنْعًا لِتَعَدِّي بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ وَحَسْمًا لِمَادَّةِ الشَّرِّ بَيْنَهُمْ. وَلَعِبَتْ بِهِمْ اَهْوَاءُ الْمُلُوكِ الْخَابِرَةِ الْجَهَلَةِ مِنَ التَّتَرِ وَالدَّيْلَمِ وَغَيْرِهِمْ. وَنَشَاَ مِنْ ذٰلِكَ مَفَاسِدُ عَظِيمَةٌ مِنْهَا تَمَكُّنُ كَثِيرٍ مِنَ الْجَهَلَةِ الَّذِينَ اَمْضَوْا صُدُورَ اَعْمَارِهِمْ فِي اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ دُونَ فِكْرَةٍ فِي تَحْصِيلِ سَبَبٍ مِنْ اَسْبَابِ الْمَعِيشَةِ حَتَّى دَهَمَهُمْ وَقْتُ الْاِحْتِيَاجِ لِذٰلِكَ مِنَ الْاِنْتِسَابِ اِلَى الْعِلْمِ وَاَهْلِهِ فَصَفُّوا كُتُبًا مَلَأُوهَا اَحَادِيثَ كَاذِبَةً وَحِكَايَاتٍ غَيْرَ مَعْقُولَةٍ وَرَوَّجُوهَا عَلَى الْعَامَّةِ وَاَكَلُوا بِهَا الْخُبْزَ وَخَلَطُوا مَا لَيْسَ مِنَ الدِّينِ بِهِ. فَاَيُّ مَفْسَدَةٍ اَكْبَرُ مِنْ ذٰلِكَ وَلَيْسَ لَهُ سَبَبٌ اِلَّا اِفْرَاقُ الْعُلَمَاءِ وَاِهْمَالُهُمْ اَمْرَ الرَّعَايَةِ. وَلَمْ يَزَلِ الْاِخْتِلَافُ الَّذِي هُوَ مَنْشَاُ تِلْكَ

ٱلْعَدَاوَةِ مُسْتَتِرًا يُخْفِيهِ ٱلضَّعْفُ وَتُظْهِرُهُ ٱلْقُوَّةُ كَمَا تَرَى. فَهَلْ يَسُوغُ لَكَ بَعْدَ مَعْرِفَةِ هٰذَا اَنْ تَقُولَ اِنَّهَا ٱلْعُلَمَاءُ. وَاِنْ قُلْتَ اِنَّهَا ٱلْوُعَّاظُ قُلْتُ هٰذَا اَقْرَبُ فَاِنَّ ٱلْوِعَاظَةَ كَانَتْ حِرْفَةً شَائِعَةً وَصِنَاعَةً فَاشِيَةً كَانَ اَهْلُهَا يَتَنَافَسُونَهَا وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ اَخَذَ عَلَيْهَا ٱلرَّوَاتِبَ مِنْ بُيُوتِ ٱلْاَمْوَالِ وَاَكْثَرُهُمْ كَانَ يَلْمُّ بِهَا ٱلْقِطَعَ مِنَ ٱلْعَامَّةِ ٱلَّذِينَ يَحْضُرُونَ مَجَالِسَهُمْ. فَكَانَ ٱلْوَاعِظُ اِذَا فَرَغَ مِنْ كَلَامِهِ ٱلَّذِي اَعَدَّهُ لِذٰلِكَ ٱلْمَجْلِسِ بَسَطَ مِنْدِيلَهُ وَطَرَحَ فِيهِ كُلَّ مَا سَحَتْ بِهِ نَفْسُهُ

وَصُنِّفَتْ لِاَجْلِ ٱلْوِعَاظَةِ كُتُبٌ لَقَّبُوهَا بِٱلْمَجَالِسِ تَشْتَمِلُ عَلَى تَفْسِيرِ آيَاتٍ مِنْ آيَاتِ ٱلتَّرْغِيبِ وَٱلتَّرْهِيبِ وَبَعْضِ اَحَادِيثَ صَحِيحَةٍ وَبَعْضِ اَشْعَارٍ وَحِكَايَاتٍ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْوَادِي. وَنُمُوذَجُ ذٰلِكَ مَا تَرَاهُ فِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحُسَيْنِيِّ بَعْدَ ٱلْعَصْرِ فِي رَمَضَانَ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَمَحْصُولُ تِلْكَ ٱلْكُتُبِ هُوَ مَحْصُولُ خُطَبِ ٱلْمَنَابِرِ. وَاِنْ كَانَ بَعْضُ اَهْلِ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ وَهُمْ قَلِيلٌ كَانُوا مِنَ ٱلْفِطْنَةِ وَٱلذَّكَاءِ وَبَرَاعَةِ ٱلْمَنْطِقِ وَبَلَاغَةِ ٱلْعِبَارَةِ بِمَكَانٍ رَفِيعٍ. فَاِنَّ اَكْثَرَهُمُ ٱلْقُصَّاصُ ٱلْجَهَلَةُ ٱلَّذِينَ غَايَةُ اَمَلِ ٱلْوَاحِدِ مِنْهُمْ اَنْ يُلَفِّقَ اَحَادِيثَ يَضَعُهَا اَوْ وَضَعَهَا غَيْرُهُ يُفْرِحُ بِهَا نُفُوسَ ٱلْعَامَّةِ بِمَا يَذْكُرُ مِنْ كَثْرَةِ ٱلثَّوَابِ مَعَ قِلَّةِ ٱلْعَمَلِ وَمَا يُهَوِّنُ مِنْ اَمْرِ ٱلْمَعْصِيَةِ حَتَّى يَكُونَ ذٰلِكَ بِمَنْزِلَةِ ٱلتَّحْرِيضِ عَلَى ٱرْتِكَابِ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلْاِسْتِرْسَالِ مَعَ ٱلْاَهْوَاءِ وَطَرْحِ ٱلْمُبَالَاةِ اِعْتِمَادًا عَلَى مَا رَكَزُوهُ فِي نُفُوسِهِمْ وَشَغَلُوا بِهِ عُقُولَهُمْ مِنْ كَثْرَةِ اَسْبَابِ ٱلْمَغْفِرَةِ وَسَعَةِ ٱلرَّحْمَةِ وَعِظَمِ ٱلْعَفْوِ اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ. لَا

يَتَكَلَّمُونَ فِي سِوَاهُ حَتَّى صَارَ سَبَبًا قَوِيًّا فِي خُمُودِ ٱلطِّبَاعِ وَٱسْتِحْكَامِ ٱلْغَفْلَةِ وَٱلْإِنْصِرَافِ عَنْ تَذَكُّرِ مَعْنَى ٱلْاِجْتِمَاعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ وَتَعَقُّلِ ضَرُورَةِ ٱلتَّعَاوُنِ وَٱلتَّفَكُّرِ فِي اِحْكَامِ اَسْبَابِ ٱلتَّعَارُفِ وَٱلتَّوَاصُلِ وَمُحَاوَرَةِ ٱلنَّاسِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِيمَا يُوجِبُ عِزَّ ٱلْأُمَّةِ وَسَعَادَتَهَا وَسُرُورَ آحَادِهَا وَٱبْتِهَاجَهُمْ بِٱلتَّنَاصُفِ وَٱفْضَالَ ٱلْاَقْوِيَاءِ عَلَى ٱلضُّعَفَاءِ مِنْ ثِمَارِ قِوَاهُمْ فَلَا يَتَلَاقَوْنَ اِلَّا وَصُدُورُهُمْ مُنْشَرِحَةٌ وَقُلُوبُهُمْ فَرِحَةٌ وَثُغُورُهُمْ بَاسِمَةٌ وَوُجُوهُهُمْ مُنْبَسِطَةٌ . قَدْ اَمِنَ بَعْضُهُمْ غَوَائِلَ بَعْضٍ وَتَحَقَّقُوا ٱلسَّلَامَةَ مِنْ مَقَاصِدِ ٱلسُّوءِ وَٱلتَّمَاكُرِ بِٱسْتِلَابِ ٱلْاَمْوَالِ وَقَهْرِ ٱلنُّفُوسِ وَتَسْخِيرِ ٱلْاَقْوِيَاءِ ٱلضُّعَفَاءَ فِيمَا يَخْتَصُّونَ بِهِ مِنَ ٱللَّذَاتِ وَيُحَافِظُونَ عَلَيْهِ بِجُدْرَانِ ٱلصُّخُورِ وَأَبْوَابِ ٱلْحَدِيدِ حَتَّى كَانَ ذٰلِكَ مُوَلِّدًا فِي ٱلنَّاسِ كَثِيرًا مِنْ خَسِيسِ ٱلطِّبَاعِ ٱلَّتِي تَمِيلُ بِاَصْحَابِهَا نَحْوَ ٱلْاِكْتِسَابِ بِجِهَةِ ٱلسَّرِقَةِ وَٱلسُّؤَالِ بِٱلضَّرَاعَةِ وَٱلتَّرَامِي عَلَى اَعْتَابِ ٱلْمُكْثِرِينَ . وَاَنْتَ لِذٰلِكَ عَارِفٌ وَاِلَيْهِ نَاظِرٌ لَا تَجْهَلُ تِلْكَ ٱلطَّوَائِفَ ٱلْكَاسِبَةَ بِهٰذِهِ ٱلْوُجُوهِ ٱلرَّدِيئَةِ . وَاَسْوَأُهَا حَالًا وَاَخَسُّهَا عَمَلًا وَاَبْغَضُهَا مُتَرَدِّدًا هُؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ اَطْفَأُوا اَنْوَارَ عُقُولِهِمْ ٱلْخَلْقِيَّةِ وَاَخْمَدُوا لَهَبَ قِوَاهُمُ ٱلطَّبْعِيَّةِ وَعَطَّلُوا جَوَارِحَ اَبْدَانِهِمْ بِمَا يَتَلَاعَبُونَ بِهِ رُؤُوسَهُمْ مِنْ اَشْرِبَةٍ خُرَافَاتٍ تَخْرُجُ بِهِمْ مِنْ نَوْعِ ٱلْحَيَوَانِ لَا يَجُوزُ اَنْ اَقُولَ مِنْ نَوْعِ ٱلْإِنْسَانِ يَؤُولُ اَمْرُهُمْ اِلَى ٱلْاِخْتِبَاجِ وَطَلَبِ ٱلْمَعَاشِ بِاَبْدَانِهِمْ وَاَبْدَانٍ ٱنْتَقَضَتْ عَنْهُمْ وَشَغَلُوا بِهَا كَثِيرًا مِنَ ٱلْفَرَاغِ اَيْ اَبْدَانَهُمْ وَاَبْدَانَ نَسْلِهِمْ اِلَى اَنْ يَطْرَحُوا نُفُوسَهُمْ بَيْنَ اَيْدِي اَهْلِ ٱلْمَكَاسِبِ بِطُرُقٍ

ٱلْأَعْمَالِ ٱلْمُتْعِبَةِ وَٱلْمُحَاوَلَاتِ ٱلشَّاقَّةِ . يُذَكِّرُونَهُمْ ثَوَابَ ٱلصَّدَقَاتِ وَيُلِحُّونَ فِي ٱلسُّؤَالِ حَتَّى تَمَلَّ ذٰلِكَ نُفُوسُهُمْ وَيَضْعُفَ يَقِينُهُمْ وَتَقْسُوَ قُلُوبُهُمْ وَيَلْتَمِسُوا وُجُوهًا لِلطَّعْنِ عَلَى تِلْكَ ٱلطَّائِفَةِ لَا يَفْرُقُونَ بَيْنَ أَهْلِ ٱلنَّزَاهَةِ مِنْهُمْ وَغَيْرِهِمْ . فَيَكُونُ ٱلْقَدْحُ عَامًّا وَٱلِٱحْتِقَارُ شَامِلًا . وَجِهَةُ ٱلِٱعْتِبَارِ فِيهِ أَنَّ مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِوَظِيفَةِ ٱلْهُدَى وَدُعَاءِ ٱلنَّاسِ إِلَى ٱلْخَيْرِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ أَبْعَدَهُمْ مِنَ ٱلتَّصَنُّعِ وَأَحْرَصَهُمْ عَلَى ٱلْكَمَالِ . فَإِنَّ أَدْنَى هَفْوَةٍ مِنْهُ تُسْقِطُ ٱعْتِبَارَهُ وَتُسَهِّلُ ٱلتَّهَاوُنَ بِهِ فَلَا يَكُونُ لِكَلَامِهِ تَأْثِيرٌ فِي ٱلْقُلُوبِ وَيَصِيرُ مَجْلِسُهُ مَسْلَاةً يُتَلَهَّى بِحُضُورِهِ فَكَثِيرًا مَا كَانَتْ تِلْكَ ٱلْمَجَالِسُ مَوَاعِدَ لِأَهْلِ ٱلْخَلَاعَاتِ وَٱلْمُجُونِ

البحث السابع

في الخطب عند العرب

(نقلًا عن الجاحظ والشريشي والقيرواني)

إِنَّا لَا نَعْرِفُ ٱلْخُطَبَ إِلَّا لِلْعَرَبِ وَٱلْفُرْسِ . فَأَمَّا ٱلْهِنْدُ فَإِنَّمَا لَهُمْ مَعَانٍ مُدَوَّنَةٌ وَكُتُبٌ مُخَلَّدَةٌ لَا تُضَافُ إِلَى رَجُلٍ مَعْرُوفٍ وَلَا إِلَى عَالِمٍ مَوْصُوفٍ . وَإِنَّمَا هِيَ كُتُبٌ مُتَوَارَثَةٌ وَآدَابٌ عَلَى وَجْهِ ٱلدَّهْرِ سَائِرَةٌ مَذْكُورَةٌ . وَٱلْيُونَانِيِّينَ فَلْسَفَةٌ وَصِنَاعَةُ مَنْطِقٍ وَكَانَ صَاحِبُ ٱلْمَنْطِقِ نَفْسُهُ عَيِيَّ ٱللِّسَانِ غَيْرَ مَوْصُوفٍ بِٱلْبَيَانِ مَعَ عِلْمِهِ بِتَمْيِيزِ ٱلْكَلَامِ وَتَفْصِيلِهِ وَمَعَانِيهِ وَبِخَصَائِصِهِ . وَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ جَالِينُوسَ كَانَ أَنْطَقَ ٱلنَّاسِ وَلَمْ يَذْكُرُوهُ بِٱلْخَطَابَةِ وَلَا بِهٰذَا ٱلْجِنْسِ مِنَ

ٱلْبَلَاغَةِ وَفِي ٱلْفُرْسِ خُطَبَاءُ إِلَّا أَنَّ كَلَامَ ٱلْفُرْسِ وَكُلَّ مَعْنًى لَهُمْ فَإِنَّمَا هُوَ عَنْ طُولِ فِكْرَةٍ وَعَنِ ٱجْتِهَادِ رَأْيٍ وَعَنْ مُشَاوَرَةٍ وَمُعَاوَنَةٍ وَعَنْ طُولِ ٱلتَّفَكُّرِ وَدِرَاسَةِ ٱلْكُتُبِ وَحِكَايَةِ ٱلثَّانِي عِلْمَ ٱلْأَوَّلِ وَزِيَادَةِ ٱلثَّالِثِ فِي عِلْمِ ٱلثَّانِي حَتَّى ٱجْتَمَعَتْ ثِمَارُ تِلْكَ ٱلْفِكَرِ عِنْدَ آخِرِهِمْ. وَكُلُّ شَيْءٍ لِلْعَرَبِ فَإِنَّمَا هُوَ بَدِيهَةٌ وَٱرْتِجَالٌ وَكَأَنَّهُ إِلْهَامٌ وَلَيْسَتْ هُنَاكَ مُعَانَاةٌ وَلَا مُكَابَدَةٌ وَلَا إِجَالَةُ فِكْرٍ وَلَا ٱسْتِعَانَةٌ وَإِنَّمَا هُوَ أَنْ يَصْرِفَ أَحَدُهُمْ وَهْمَهُ إِلَى ٱلْكَلَامِ وَإِلَى زَجْرِ يَوْمِ ٱلْخِصَامِ أَوْ حِينَ يَمْتَحُ عَلَى رَأْسِ بِئْرٍ أَوْ يَحْدُو بِبَعِيرٍ أَوْ عِنْدَ ٱلْمُقَارَعَةِ أَوِ ٱلْمُنَاقَلَةِ أَوْ عِنْدَ صِرَاعٍ أَوْ حَرْبٍ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَصْرِفَ وَهْمَهُ إِلَى جُمْلَةِ ٱلْمَذْهَبِ وَإِلَى ٱلْعَمُودِ ٱلَّذِي إِلَيْهِ يَقْصِدُ فَتَأْتِيهِ ٱلْمَعَانِي ٱرْسَالًا وَتَنْهَالُ عَلَيْهِ ٱلْأَلْفَاظُ ٱمْتِثَالًا. ثُمَّ لَا يُقَيِّدُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَلَا يَدْرُسُهُ أَحَدٌ مِنْ وَلَدِهِ وَكَانُوا أُمِّيِّينَ لَا يَكْتُبُونَ وَمَطْبُوعِينَ لَا يَتَكَلَّفُونَ وَكَانَ ٱلْكَلَامُ ٱلْجَيِّدُ عِنْدَهُمْ أَظْهَرَ وَأَكْثَرَ وَهُمْ عَلَيْهِ أَقْدَرُ وَلَهُ أَقْهَرُ وَكُلُّ وَاحِدٍ فِي نَفْسِهِ أَنْطَقُ وَمَكَانُهُ مِنَ ٱلْبَيَانِ أَرْفَعُ وَخُطَاهُمْ لِلْكَلَامِ أَجْوَدُ وَٱلْكَلَامُ عَلَيْهِمْ أَسْهَلُ وَهُوَ عَلَيْهِمْ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَفْتَقِرُوا إِلَى تَحَفُّظٍ وَيَحْتَاجُوا إِلَى تَدَارُسٍ. وَلَيْسَ هُمْ كَمَنْ حَفِظَ عِلْمَ غَيْرِهِ وَٱحْتَذَى عَلَى كَلَامِ مَنْ قَبْلَهُ فَمَا يَحْفَظُونَ إِلَّا مَا عَلِقَ بِقُلُوبِهِمْ وَٱلْتَحَمَ بِصُدُورِهِمْ وَٱتَّصَلَ بِعُقُولِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ وَلَا قَصْدٍ وَلَا تَحَفُّظٍ وَلَا طَلَبٍ وَإِنَّ هٰذَا ٱلَّذِي فِي أَيْدِينَا جُزْءٌ مِنْهُ (اه)

وَمِمَّنِ ٱشْتَهَرَ فِي ٱلْخَطَابَةِ أَيْضًا قُسُّ بْنُ سَاعِدَةَ ٱلْإِيَادِيُّ أُسْقُفُ

نَجْرَانَ خَطِيبُ ٱلْعَرَبِ وَشَاعِرُهَا وَحَايِمُهَا وَحَكِيمُهَا وَحَكَمُهَا فِي عَصْرِهِ يُقَالُ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَلَا عَلَى شَرَفٍ وَخَطَبَ عَلَيْهِ. وَأَوَّلُ مَنْ قَالَ فِي كَلَامِهِ: أَمَّا بَعْدُ. قِيلَ: وَبَعْدُ لَفْظَةٌ عَرَبِيَّةٌ وَفَصْلُ ٱلْخِطَابِ وَٱلَّذِي أُوتِيَهُ قُسٌّ هُوَ فَصْلُ ٱلْخُصُومَةِ وَهٰذَا يُؤَيِّدُ مَا قِيلَ عَنْهُ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ قَالَ: ٱلْبَيِّنَةُ عَلَى ٱلْمُدَّعِي وَٱلْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ. وَأَوَّلُ مَنِ ٱتَّكَأَ عِنْدَ خُطْبَتِهِ عَلَى سَيْفٍ أَوْ عَصًا. وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ: مِنْ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ. أَدْرَكَهُ رَسُولُ ٱلْمُسْلِمِينَ وَرَآهُ بِعُكَاظَ فَكَانَ يَأْثِرُ عَنْهُ كَلَامًا يَسْمَعُهُ مِنْهُ. وَكَانَ مُؤْمِنًا بِٱللهِ وَٱلْبَعْثِ. بَلِيغَ ٱلنُّطْقِ وَفِيهِ يَقُولُ ٱلْأَعْشَى:

وَأَفْصَحُ مِنْ قُسٍّ وَأَجْرَى مِنَ ٱلَّذِي
بِذِي ٱلْعَيْنِ (١) مِنْ خَفَّانَ أَصْبَحَ خَادِرَا

وَكَانَ قُسٌّ يَفِدُ عَلَى قَيْصَرَ زَائِرًا فَيُكْرِمُهُ وَيُعَظِّمُهُ فَقَالَ لَهُ قَيْصَرُ: مَا أَفْضَلُ ٱلْعِلْمِ. قَالَ: مَعْرِفَةُ ٱلرَّجُلِ بِنَفْسِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْعَقْلِ. قَالَ: وُقُوفُ ٱلْمَرْءِ عِنْدَ عِلْمِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْأَدَبِ. قَالَ: ٱسْتِبْقَاءُ ٱلرَّجُلِ مَاءَ وَجْهِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْمُرُوءَةِ. قَالَ: قِلَّةُ رَغْبَةِ ٱلْمَرْءِ فِي إِخْلَافِ وَعْدِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْمَالِ. قَالَ: مَا قُضِيَ بِهِ ٱلْحَقُّ

وَقِيلَ إِنَّ ٱلْجَارُودَ بْنَ عَبْدِ ٱللهِ لَمَّا وَفَدَ فِي وَفْدِ عَبْدِ ٱلْقَيْسِ عَلَى رَسُولِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَكَانَ سَيِّدًا فِي قَوْمِهِ مُعَظَّمًا فِي عَشِيرَتِهِ فَأَسْلَمَ سَأَلَهُ

(١) وروى الميداني: بذي الغيل

ٱلرَّسُولُ: يَا جَارُودُ هَلْ فِي جَمَاعَةِ عَبْدِ ٱلْقَيْسِ مَنْ يَعْرِفُ لَنَا قُسًّا. قَالَ: كُلُّنَا نَعْرِفُهُ. وَأَنَا كُنْتُ مِنْ بَيْنِهِمْ أَقْفُو أَثَرَهُ وَأَطَّلِعُ خَبَرَهُ. كَانَ قُسٌّ سَبْطًا مِنْ أَسْبَاطِ ٱلْعَرَبِ. صَحِيحَ ٱلنَّسَبِ فَصِيحًا ذَا شَيْبَةٍ حَسَنَةٍ يَتَقَرَّ ٱلْقِفَارَ. وَلَا تَكُنُّهُ دَارٌ. وَلَا يُقِرُّهُ قَرَارٌ. يَتَحَسَّى فِي تَقَفُّرِهِ بَعْضَ ٱلطَّعَامِ. وَيَأْنَسُ بِٱلْوُحُوشِ وَٱلْهَوَامِّ. يَلْبَسُ ٱلْمُسُوحَ. وَيَتْبَعُ ٱلسُّيَّاحَ عَلَى مِنْهَاجِ ٱلْمَسِيحِ. لَا يُغَيِّرُ ٱلرَّهْبَانِيَّةَ. مُقِرًّا بِٱلْوَحْدَانِيَّةِ. تُضْرَبُ بِحِكْمَتِهِ ٱلْأَمْثَالُ. وَتُكْسَفُ بِهِ ٱلْأَهْوَالُ. وَتَنْبَعُهُ ٱلْأَبْدَالُ. أَدْرَكَ رَأْسَ ٱلْحَوَارِيِّينَ سِمْعَانَ فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَأَلَّهَ مِنَ ٱلْعَرَبِ. وَأَعْبَدُ مَنْ تَعَبَّدَ فِي ٱلْحِقَبِ. وَأَيْقَنَ بِٱلْبَعْثِ وَٱلْحِسَابِ. وَحَذِرَ سُوءَ ٱلْمُنْقَلَبِ وَٱلْمَآبِ. وَوَعَظَ بِذِكْرِ ٱلْمَوْتِ. وَأَمَرَ بِٱلْعَمَلِ قَبْلَ ٱلْفَوْتِ. ٱلْحَسَنُ ٱلْأَلْفَاظِ. ٱلْخَاطِبُ بِسُوقِ عُكَاظَ. ٱلْعَارِفُ بِشَرْقٍ وَغَرْبٍ. وَيَابِسٍ وَرَطْبٍ. وَأُجَاجٍ وَعَذْبٍ. كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ. وَٱلْعَرَبُ بَيْنَ يَدَيْهِ يُقْسِمُ بِٱلرَّبِّ ٱلَّذِي هُوَ لَهُ. لَيَبْلُغَنَّ ٱلْكِتَابُ أَجَلَهُ. وَلَيُوَفَّيَنَّ كُلُّ عَامِلٍ عَمَلَهُ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

هَاجَ ٱلْقَلْبَ مِنْ هَوَاهُ أُدِّكَارُ ... وَلَيَالٍ خِلَالَهُنَّ نَهَارُ

وَجِبَالٌ شَوَامِخٌ رَاسِيَاتٌ ... وَبِحَارٌ مِيَاهُهُنَّ غِزَارُ

وَنُجُومٌ يَحْتُّهَا قَمَرُ ٱللَّيْلِ (١) م ... وَشَمْسٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ تُدَارُ

ضَوْؤُهَا يَطْمُسُ ٱلْعُيُونَ وَإِرْ ... عَادٌ شَدِيدٌ فِي ٱلْخَافِقَيْنِ مُثَارُ (٢)

وَغُلَامٌ وَأَشْمَطٌ وَرَضِيعٌ ... كُلُّهُمْ فِي ٱلتُّرَابِ يَوْمًا يَزُارُ

(١) ويروى: ونجوم تلوح في ظلم الليل (٢) ويُروى: مُطار

وَقُصُورٌ مَشِيدَةٌ حَوتِ ٱلْخَيْرَ م وَأُخْرَى خَوَتْ (١) فَهُنَّ قِفَارُ
وَكَثِيرٌ مِمَّا تُقَصِّرُ عَنْهُ حَدْسَةُ ٱلنَّاظِرِ ٱلَّذِي لَا يَحَارُ
وَٱلَّذِي قَدْ ذَكَرْتُ دَلَّ عَلَى ٱللهِ م نُفُوسًا لَهَا هُدًى وَٱعْتِبَارُ

فَقَالَ رَسُولُ ٱلْمُسْلِمِينَ: يَرْحَمُ ٱللهُ قُسًا إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يُبْعَثَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ

وَمِنْ خُطَبِ قُسٍّ ٱلْمَأْثُورَةِ مَا رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ ٱلصِّدِّيقُ قَالَ: لَسْتُ أَنْسَاهُ بِسُوقِ عُكَاظَ (وَهُوَ سُوقٌ بَيْنَ بَطْنِ ٱلنَّخْلَةِ وَٱلطَّائِفِ كَانَ لِثَقِيفٍ وَقَيْسٍ) عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَوْرَقَ. وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ مُؤْنِقٍ. فَقَالَ حِينَ خَطَبَ فَأَطْنَبَ. وَرَغَّبَ وَرَهَّبَ. وَحَذَّرَ وَأَنْذَرَ. وَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱسْمَعُوا وَعُوا. وَإِذَا وَعَيْتُمْ فَٱنْتَفِعُوا. إِنَّهُ مَنْ عَاشَ مَاتَ. وَمَنْ مَاتَ فَاتَ. وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ. مَطَرٌ وَنَبَاتٌ. وَأَرْزَاقٌ وَأَقْوَاتٌ. وَآبَاءٌ وَأُمَّهَاتٌ. وَأَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتٌ. وَجَمْعٌ وَشَتَاتٌ. وَآيَاتٌ بَعْدَ آيَاتٍ. لَيْلٌ مَوْضُوعٌ. وَسَقْفٌ مَرْفُوعٌ. وَنُجُومٌ تَغُورُ. وَأَرَاضٍ تَمُورُ. وَبُحُورٌ تَمُوجُ. وَتِجَارَةٌ تُرُوجُ. وَضَوْءٌ وَظَلَامٌ. وَبَرٌّ وَآثَامٌ. وَمَطْعَمٌ وَمَشْرَبٌ. وَمَلْبَسٌ وَمَرْكَبٌ. أَلَا إِنَّ أَبْلَغَ ٱلْعِظَاتِ. ٱلسَّيْرُ فِي ٱلْفَلَوَاتِ. وَٱلنَّظَرُ إِلَى مَحَلِّ ٱلْأَمْوَاتِ. إِنَّ فِي ٱلسَّمَاءِ لَخَبَرًا. وَإِنَّ فِي ٱلْأَرْضِ لَعِبَرًا. لَيْلٌ دَاجٍ. وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ. وَأَرْضٌ ذَاتُ رِتَاجٍ. وَبِحَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ. مَا لِي أَرَى ٱلنَّاسَ يَذْهَبُونَ فَلَا يَرْجِعُونَ. أَرَضُوا بِٱلْمُقَامِ فَأَقَامُوا. أَمْ تُرِكُوا هُنَاكَ فَنَامُوا. أَقْسَمَ قُسٌّ

(١) ويروى: خلت

بِاللهِ قَسَمًا حَقًّا لَا آثِمًا فِيهِ وَلَا حَانِثًا اِنَّ لِلهِ دِينًا هُوَ اَحَبُّ اِلَيْهِ مِنْ دِينِكُمُ ٱلَّذِي اَنْتُمْ عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: تَبًا لِاَرْبَابِ ٱلْغَفْلَةِ مِنَ ٱلْاُمَمِ ٱلْخَالِيَةِ. وَٱلْقُرُونِ ٱلْمَاضِيَةِ. يَا مَعْشَرَ اِيَادٍ. اَيْنَ ٱلْآبَاءُ وَٱلْاَجْدَادُ. وَاَيْنَ ٱلْمَرِيضُ وَٱلْعُوَّادُ. وَاَيْنَ ٱلْفَرَاعِنَةُ ٱلشِّدَادُ. اَيْنَ مَنْ بَنَى وَشَيَّدَ. وَزَخْرَفَ وَنَجَّدَ. وَغَرَّهُ ٱلْمَالُ وَٱلْوَلَدُ. اَيْنَ مَنْ بَغَى وَطَغَى. وَجَمَعَ فَاَوْعَى. وَقَالَ اَنَا رَبُّكُمُ ٱلْاَعْلَى. اَلَمْ يَكُونُوا اَكْثَرَ مِنْكُمْ اَمْوَالًا. وَاَطْوَلَ مِنْكُمْ آجَالًا. طَحَنَهُمُ ٱلثَّرَى بِكَلْكَلِهِ. وَمَزَّقَهُمْ بِتَطَاوُلِهِ. فَتِلْكَ عِظَامُهُمْ بَالِيَةً. وَبُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً. عَمَرَتْهَا ٱلذِّئَابُ ٱلْعَاوِيَةُ. كَلَّا بَلْ هُوَ ٱلْمَعْبُودُ. ثُمَّ اَنْشَأَ يَقُولُ:

فِي ٱلذَّاهِبِينَ ٱلْاَوَّلِينَ مِنَ ٱلْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرْ
لَمَّا رَاَيْتُ مَوَارِدًا لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرْ
وَرَاَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا تَمْضِي ٱلْاَصَاغِرُ وَٱلْاَكَابِرْ
لَا يَرْجِعُ ٱلْمَاضِي وَلَا يَبْقَى مِنَ ٱلْبَاقِينَ غَابِرْ (١)
اَيْقَنْتُ اَنِّي لَا مَحَا لَةَ حَيْثُ صَارَ ٱلْقَوْمُ صَائِرْ

وَمِمَّنِ ٱشْتَهَرَ عِنْدَ ٱلْعَرَبِ سَحْبَانُ بْنُ زُفَرَ بْنِ اِيَاسٍ ٱلْوَائِلِيُّ وَائِلُ بَاهِلَةَ خَطِيبٌ مُفْصِحٌ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْبَيَانِ. اَدْرَكَ ٱلْاِسْلَامَ وَاَسْلَمَ وَمَاتَ سَنَةَ اَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ. وَحَكَى ٱلْاَصْمَعِيُّ قَالَ: كَانَ اِذَا خَطَبَ يَسِيلُ عَرَقًا وَلَا يُعِيدُ كَلِمَةً وَلَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَقْعُدُ حَتَّى يَفْرُغَ. وَقَدِمَ

---

(١) ويروى: لا يرجع الماضي اليَّ ولا من الماضين غابر

عَلَى مُعَاوِيَةَ وَفْدٌ مِنْ خُرَاسَانَ فِيهِمْ سَعِيدُ بْنُ عُثْمَانَ فَطَلَبَ سَحْبَانَ فَلَمْ يُوجَدْ فِي مَنْزِلِهِ فَاقْتُضِبَ مِنْ نَاحِيَةٍ اقْتِضَابًا وَأُدْخِلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: تَكَلَّمْ فَقَالَ: انْظُرُوا إِلَى عَصًا تُقَوَّمُ مِنْ أَوَدِي. قَالُوا: وَمَا تَصْنَعُ بِهَا وَأَنْتَ بِحَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ: مَا كَانَ يَصْنَعُ بِهَا مُوسَى وَهُوَ يُخَاطِبُ رَبَّهُ وَعَصَاهُ فِي يَدِهِ. فَضَحِكَ مُعَاوِيَةُ وَقَالَ: هَاتُوا عَصًا فَجَاؤُوا بِهَا إِلَيْهِ فَرَكِبَهَا بِرِجْلِهِ وَلَمْ يَرْضَهَا وَقَالَ: هَاتُوا عِصَايَ فَأَتَوْا بِهَا فَأَخَذَهَا. ثُمَّ قَامَ وَتَكَلَّمَ مُنْذُ صَلَاةِ الظُّهْرِ إِلَى أَنْ قَامَتْ صَلَاةُ الْعَصْرِ مَا تَنَخْنَخَ وَلَا سَعَلَ وَلَا تَوَقَّفَ وَلَا ابْتَدَأَ فِي مَعْنًى فَخَرَجَ مِنْهُ وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ. فَمَا زَالَتْ تِلْكَ حَالُهُ حَتَّى أَشَارَ مُعَاوِيَةُ بِيَدِهِ فَأَشَارَ إِلَيْهِ سَحْبَانُ أَنْ لَا تَقْطَعْ عَلَيَّ كَلَامِي فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: الصَّلَاةَ. قَالَ: هِيَ أَمَامَكَ وَنَحْنُ فِي صَلَاةٍ وَتَحْمِيدٍ وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ. فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: أَنْتَ أَخْطَبُ الْعَرَبِ. فَقَالَ سَحْبَانُ: وَالْعَجَمِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ. وَمِمَّا رُوِيَ عَنْهُ فِي بَعْضِ خُطَبِهِ الْبَلِيغَةِ يَقُولُ: إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلَاغٍ وَالْآخِرَةَ دَارُ قَرَارٍ. أَيُّهَا النَّاسُ فَخُذُوا مِنْ دَارِ مَمَرِّكُمْ لِدَارِ مَقَرِّكُمْ وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَسْرَارُكُمْ. وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُخْرَجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ. فَفِيهَا حَبِيتُمْ وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ. إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا هَلَكَ. قَالَ النَّاسُ مَا تَرَكَ. وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ مَا قَدَّمَ لِنَفْسِهِ. قَدِّمُوا بَعْضًا يَكُونُ لَكُمْ وَلَا تُخَلِّفُوا كُلًّا يَكُونُ عَلَيْكُمْ. وَمِنْ شِعْرِهِ يَمْدَحُ طَلْحَةَ الطَّلَحَاتِ وَهُوَ طَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْخُزَاعِيُّ:

يَا طَلْحَ اَكْرَمْ مَنْ بِهَا حَسَبًا وَاَعْطَاهُمْ لِتَالِدْ
مِنْكَ الْعَطَاءَ فَاَعْطِنِي وَعَلَيَّ مَدْحُكَ فِي الْمَشَاهِدْ

فَيُقَالُ اِنَّ طَلْحَةَ قَالَ لَهُ: اَحْتَكِمْ. قَالَ: فَرَسَكَ الْوَرْدَ وَقَصْرَكَ بِكَذَا. فَقَالَ طَلْحَةُ اُفٍّ لَكَ لَوْ سَاَلْتَنِي عَلَى قَدْرِي اَعْطَيْتُكَ كُلَّ فَرَسٍ لِي وَكُلَّ قَصْرٍ وَلٰكِنْ اَبَيْتُ اِلَّا بِاَهْلِيَّتِكَ

وَذَكَرَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى فِي مَجْلِسِ ثُمَامَةَ بْنِ اَشْرَسَ فَقَالَ: مَا رَاَيْتُ اَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللّٰهِ كَانَ اَبْسَطَ لِسَانًا وَلَا اَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ وَلَا اَقْدَرَ عَلَى كَلَامٍ بِنَظْمٍ حَسَنٍ وَاَلْفَاظٍ عَذْبَةٍ وَمَنْطِقٍ فَصِيحٍ مِنْ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى كَانَ لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَتَحَبَّسُ وَلَا يَصِلُ كَلَامَهُ بِحَشْوٍ مِنَ الْكَلَامِ وَلَا يُعِيدُ لَفْظًا وَلَا مَعْنًى وَلَا يَخْرُجُ مِنْ فَنٍّ اِلَى غَيْرِهِ حَتَّى يَبْلُغَ آخِرَ مَا فِيهِ. وَكَانَ لَا يَرَى شَيْئًا اِلَّا حَكَاهُ وَلَا يَحْكِي شَيْئًا اِلَّا كَانَ اَكْثَرَ مِنْهُ وَلَا يَمُرُّ بِذِهْنِهِ شَيْءٌ اِلَّا حَفِظَهُ. وَكَانَ اِذَا شَاءَ اَضْحَكَ الثَّكْلَى وَاَذْهَلَ الزَّاهِدَ وَخَشَّنَ قَلْبَ الْعَابِدِ. قُلْتُ فَكَيْفَ كَانَتْ مَعْرِفَتُهُ. قَالَ: كَانَ مِنْ اَعْلَمِ النَّاسِ بِالْخَبَرِ الْبَاهِرِ وَالشِّعْرِ النَّادِرِ وَالْمَثَلِ السَّائِرِ وَالْفَصَاحَةِ التَّامَّةِ وَاللِّسَانِ الْبَسِيطِ. قَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ وَذَكَرَ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ وَاَبْنَهُ جَعْفَرًا فَقَالَ: لَوْ كَانَ الْكَلَامُ مُتَصَوَّرًا دُرًّا وَيَاقُوتًا لَكَانَ مَنْطِقُ جَوْهَرًا لَكَانَ كَلَامُهُمَا وَالْمُنْتَقَى مِنْ اَلْفَاظِهِمَا. وَلَقَدْ غَبَرْتُ مَعَهُمَا وَاَدْرَكْتُ طَبَقَةَ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي اَيَّامِهِمَا وَهُمْ يَرَوْنَ الْبَلَاغَةَ لَمْ تَسْتَكْمِلْ اِلَّا فِيهِمَا. وَلَمْ تَكُنْ مَقْصُورَةً اِلَّا عَلَيْهِمَا وَلَا اَنْقَادَتْ اِلَّا لَهُمَا وَاِنَّهُمَا لَبَابُ الْكَرَمِ

عَتْقَ مَنْظَرٍ وَجُودَةَ مَخْبَرٍ وَسُهُولَةَ لَفْظٍ وَجَزَالَةَ مَنْطِقٍ وَنَزَاهَةَ نَفْسٍ وَكَمَالَ خِصَالٍ حَتَّى لَوْ فَاخَرَتِ ٱلدُّنْيَا بِقَلِيلِ ٱيَّامِهَا وَٱلْمَأْثُورِ مِنْ خَصَائِصِهِمَا جَمِيعَ ٱيَّامِ مَنْ سِوَاهُمَا مِنْ لَدُنْ آدَمَ اِلَى اَنْ يُنْفَخَ فِي ٱلصُّورِ وَيُبْعَثَ اَهْلُ ٱلْقُبُورِ حَاشَا اَنْبِيَاءَ ٱللهِ ٱلْكِرَامَ وَسَلَفَ عِبَادِهِ ٱلصَّالِحِينَ لَمَا بَاهَتْ اِلَّا بِهِمَا وَلَا عَوَّلَتْ فِي ٱلْفَخْرِ اِلَّا عَلَيْهِمَا. وَلَقَدْ كَانَا مَعَ تَهْذِيبِ اَخْلَاقِهِمَا وَمَعْسُولِ مَذَاقِهِمَا وَسَنَا اِشْرَاقِهِمَا وَكَمَالِ خِصَالِ ٱلْخَيْرِ فِيهِمَا فِي مَحَاسِنِ ٱلْمَأْمُونِ كَالنُّقْطَةِ فِي ٱلنَّحْرِ وَٱلْخُرْدَةِ فِي ٱلْقُفْرِ

القسم الثاني

في علم الشعر

الفصل الاول

في تعريف الشعر وانواعه وفوائده

البحث الاول

في تحديد الشعر

(عن ابن خلدون)

اِعْلَمْ اَنَّ لِسَانَ اَلْعَرَبِ وَكَلَامَهُمْ عَلَى فَنَّيْنِ فَنِّ اَلشِّعْرِ اَلْمَنْظُومِ وَهُوَ اَلْكَلَامُ اَلْمَوْزُونُ اَلْمُقَفَّى وَمَعْنَاهُ اَلَّذِي تَكُونُ اَوْزَانُهُ كُلُّهَا عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَهُوَ اَلْقَافِيَةُ. وَفَنِّ اَلنَّثْرِ وَهُوَ اَلْكَلَامُ غَيْرُ اَلْمَوْزُونِ. وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ اَلْفَنَّيْنِ يَشْتَمِلُ عَلَى فُنُونٍ وَمَذَاهِبَ فِي اَلْكَلَامِ. فَاَمَّا اَلشِّعْرُ فَمِنْهُ اَلْمَدْحُ وَاَلْهِجَاءُ وَاَلرِّثَاءُ. وَاَمَّا اَلنَّثْرُ فَمِنْهُ اَلْكَلَامُ اَلَّذِي يُؤْتَى بِهِ قِطَعًا وَيُلْتَزَمُ فِي كُلِّ كَلِمَتَيْنِ مِنْهُ قَافِيَةٌ وَاحِدَةٌ وَيُسَمَّى سَجْعًا. وَمِنْهُ اَلْمُرْسَلُ وَهُوَ اَلَّذِي يُطْلَقُ فِيهِ اَلْكَلَامُ اِطْلَاقًا

وَلَا يُقَطَّعُ أَجْزَاءً بَلْ يُرْسَلُ إِرْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ بِقَافِيَةٍ وَلَا غَيْرِهَا. وَيُسْتَعْمَلُ فِي الْخُطَبِ وَالدُّعَاءِ وَتَرْغِيبِ الْجُمْهُورِ وَتَرْهِيبِهِمْ.
وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَهُوَ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمَنْثُورِ إِلَّا أَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ الْوَصْفَيْنِ وَلَيْسَ يُسَمَّى مُرْسَلًا مُطْلَقًا وَلَا مُسَجَّعًا بَلْ تَفْصِيلَ آيَاتٍ يَنْتَهِي إِلَى مَقَاطِعَ يَشْهَدُ الذَّوْقُ بِانْتِهَاءِ الْكَلَامِ عِنْدَهَا. ثُمَّ يُعَادُ الْكَلَامُ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى بَعْدَهَا وَيُثَنَّى مِنْ غَيْرِ الْتِزَامِ حَرْفٍ يَكُونُ سَجْعًا أَوْ قَافِيَةً. وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ الْقُرْآنِ: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ. وَقَالَ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ. وَيُسَمَّى آخِرُ الْآيَاتِ مِنْهُ فَوَاصِلَ إِذْ لَيْسَتْ أَسْجَاعًا وَلَا الْتُزِمَ فِيهَا مَا يُلْتَزَمُ فِي السَّجْعِ وَلَا هِيَ أَيْضًا قَوَافٍ. وَأُطْلِقَ اسْمُ الْمَثَانِي عَلَى آيَاتِ الْقُرْآنِ كُلِّهَا عَلَى الْعُمُومِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَاخْتُصَّتْ بِأُمِّ الْقُرْآنِ لِلْغَلَبَةِ فِيهَا كَالنَّجْمِ لِلثُّرَيَّا وَلِهَذَا سُمِّيَتِ السَّبْعَ الْمَثَانِيَ.
وَانْظُرْ هَذَا مَعَ مَا قَالَهُ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَعْلِيلِ تَسْمِيَتِهَا بِالْمَثَانِي يَشْهَدْ لَكَ الْحَقُّ بِرُجْحَانِ مَا قُلْنَاهُ. وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْفُنُونِ أَسَالِيبَ تَخْتَصُّ بِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ وَلَا تَصْلُحُ لِلْفَنِّ الْآخَرِ وَلَا تُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلَ النَّسِيبِ الْمُخْتَصِّ بِالشِّعْرِ وَالْحَمْدِ وَالدُّعَاءِ الْمُخْتَصِّ بِالْخُطَبِ وَالدُّعَاءِ الْمُخْتَصِّ بِالْمُخَاطَبَاتِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ. وَقَدِ اسْتَعْمَلَ الْمُتَأَخِّرُونَ أَسَالِيبَ الشِّعْرِ وَمَوَازِينَهُ فِي الْمَنْثُورِ مِنْ كَثْرَةِ الْاِسْتِجَاعِ وَالْتِزَامِ التَّقْفِيَةِ وَتَقْدِيمِ النَّسِيبِ بَيْنَ يَدَيِ الْأَغْرَاضِ وَصَارَ هَذَا الْمَنْثُورُ إِذَا تَأَمَّلْتَهُ مِنْ بَابِ الشِّعْرِ وَفَنِّهِ وَلَمْ يَفْتَرِقَا إِلَّا فِي الْوَزْنِ. وَاسْتَمَرَّ

ٱلْمُتَاخِّرُونَ مِنَ ٱلْكُتَّابِ عَلَى هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ وَٱسْتَعْمَلُوهَا فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَقَصَرُوا ٱلِاسْتِعْمَالَ فِي ٱلْمَنْثُورِ كُلِّهِ عَلَى هٰذَا ٱلْفَنِّ ٱلَّذِي ٱرْتَضَوْهُ وَخَلَطُوا ٱلْأَسَالِيبَ فِيهِ وَهَجَرُوا ٱلْمُرْسَلَ وَتَنَاسَوْهُ وَخُصُوصًا أَهْلُ ٱلْمَشْرِقِ وَصَارَتِ ٱلْمُخَاطَبَاتُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ عِنْدَ ٱلْكُتَّابِ ٱلْغُفْلِ جَارِيَةً عَلَى هٰذَا ٱلْأُسْلُوبِ ٱلَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ. وَهُوَ غَيْرُ صَوَابٍ مِنْ جِهَةِ ٱلْبَلَاغَةِ لِمَا يُلَاحَظُ فِي تَطْبِيقِ ٱلْكَلَامِ عَلَى مُقْتَضَى ٱلْحَالِ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْمُخَاطِبِ وَٱلْمُخَاطَبِ. وَهٰذَا ٱلْفَنُّ ٱلْمَنْثُورُ ٱلْمُقَفَّى ٱدْخَلَ ٱلْمُتَاخِّرُونَ فِيهِ أَسَالِيبَ ٱلشِّعْرِ فَوَجَبَ أَنْ تُنَزَّهَ ٱلْمُخَاطَبَاتُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ عَنْهُ إِذْ أَسَالِيبُ ٱلشِّعْرِ تُنَافِيهَا ٱللَّوْذَعِيَّةُ وَخَلْطُ ٱلْجِدِّ بِٱلْهَزْلِ وَٱلْإِطْنَابُ فِي ٱلْأَوْصَافِ وَضَرْبُ ٱلْأَمْثَالِ وَكَثْرَةُ ٱلتَّشْبِيهَاتِ وَٱلِاسْتِعَارَاتِ حَيْثُ لَا تَدْعُو ضَرُورَةٌ إِلَى ذٰلِكَ فِي ٱلْخِطَابِ. وَٱلْمَحْمُودُ فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ ٱلتَّرَسُّلُ وَهُوَ إِطْلَاقُ ٱلْكَلَامِ وَإِرْسَالُهُ مِنْ غَيْرِ تَسْجِيعٍ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ ٱلنَّادِرِ وَحَيْثُ تُرْسِلُهُ ٱلْمَلَكَةُ إِرْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ لَهُ. ثُمَّ إِعْطَاءُ ٱلْكَلَامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَإِنَّ ٱلْمَقَامَاتِ مُخْتَلِفَةٌ وَلِكُلِّ مَقَامٍ أُسْلُوبٌ يَخُصُّهُ مِنْ إِطْنَابٍ أَوْ إِيجَازٍ أَوْ حَذْفٍ أَوْ إِثْبَاتٍ أَوْ تَصْرِيحٍ أَوْ إِشَارَةٍ وَكِنَايَةٍ وَٱسْتِعَارَةٍ. وَأَمَّا إِجْرَاءُ ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ عَلَى هٰذَا ٱلنَّحْوِ ٱلَّذِي هُوَ عَلَى أَسَالِيبِ ٱلشِّعْرِ فَمَذْمُومٌ وَمَا حَمَلَ عَلَيْهِ أَهْلَ ٱلْعَصْرِ إِلَّا ٱسْتِيلَاءُ ٱلْعُجْمَةِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ وَقُصُورُهُمْ لِذٰلِكَ عَنْ إِعْطَاءِ ٱلْكَلَامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَعَجَزُوا عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُرْسَلِ لِبُعْدِ أَمَدِهِ

فِي ٱلْبَلَاغَةِ وَٱنْفِسَاحِ خَطْوَتِهِ وَوَلِعُوا بِهٰذَا ٱلْمُسْتَحَّ يُلْفِقُونَ بِهِ مَا نَقَصَهُمْ مِنْ تَطْبِيقِ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ وَمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِيهِ وَيَجْبُرُونَهُ بِذٰلِكَ ٱلْقَدْرِ مِنَ ٱلتَّزْيِينِ بِٱلْأَسْجَاعِ وَٱلْأَلْقَابِ ٱلْبَدِيعَةِ وَيَغْفُلُونَ عَمَّا سِوَى ذٰلِكَ. وَأَكْثَرُ مَنْ أَخَذَ بِهٰذَا ٱلْفَنِّ وَبَالَغَ فِيهِ فِي سَائِرِ ٱلْأَحْيَاءِ كَلَامِيُّو كُتَّابُ ٱلْمَشْرِقِ وَشُعَرَاؤُهُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيُخِلُّونَ بِٱلْإِعْرَابِ فِي ٱلْكَلِمَاتِ وَٱلتَّصْرِيفِ إِذَا دَخَلَتْ لَهُمْ فِي تَجْنِيسٍ أَوْ مُطَابَقَةٍ لَا يَجْتَمِعَانِ مَعَهَا فَيُرَجِّحُونَ ذٰلِكَ ٱلصِّنْفَ مِنَ ٱلتَّجْنِيسِ وَيَدَعُونَ ٱلْإِعْرَابَ وَيُفْسِدُونَ بِنْيَةَ ٱلْكَلِمَةِ عَسَاهَا تُصَادِفُ ٱلتَّجْنِيسَ. فَتَأَمَّلْ ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمْنَاهُ لَكَ تَقِفْ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ إِلَى ٱلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَٱللّٰهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

البحث الثاني

في صناعة الشعر وانواع الاشعار

(عن تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الشعر تأليف ابي الوليد بن رشد)

ٱلْغَرَضُ فِي هٰذَا ٱلْقَوْلِ تَلْخِيصُ مَا فِي كِتَابِ أَرِسْطَاطَالِيسَ فِي ٱلشِّعْرِ مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْكُلِّيَّةِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ ٱلْأُمَمِ أَوْ لِلْأَكْثَرِ إِذْ كَثِيرٌ مِمَّا فِيهِ هِيَ قَوَانِينُ خَاصَّةٌ بِأَشْعَارِهِمْ وَعَادَتِهِمْ فِيهَا. وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ نِسَبًا مَوْجُودَةً فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ أَوْ مَوْجُودَةً فِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلْأَلْسِنَةِ. (قَالَ) إِنَّ قَصْدَنَا ٱلْآنَ ٱلتَّكَلُّمُ فِي صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ وَفِي أَنْوَاعِ ٱلْأَشْعَارِ. وَقَدْ يَجِبُ عَلَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ ٱلْقَوَانِينُ

ٱلَّتِي يُعطَى فِيهَا تَجْرِي مَجْرَى ٱلْجُودَةِ ٱنْ يَقُولَ اَوَّلًا مَا فِعْلُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْاَنْوَاعِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَمِمَّاذَا تَتَقَوَّمُ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلشِّعْرِيَّةُ وَمِنْ كَمْ شَيْءٍ تَتَقَوَّمُ وَاَيُّمَا هِيَ اَجْزَاؤُهَا ٱلَّتِي تَتَقَوَّمُ بِهَا وَكَمْ اَصْنَافُ ٱلْاَغْرَاضِ ٱلَّتِي تُقْصَدُ بِٱلْاَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ. وَاَنْ يَجْعَلَ كَلَامَهُ مِنَ ٱلْاَوَائِلِ ٱلَّتِي لَنَا بِٱلطَّبْعِ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى. (قَالَ) فَكُلُّ شِعْرٍ وَكُلُّ قَوْلٍ شِعْرِيٍّ فَهُوَ اِمَّا هِجَاءٌ وَاِمَّا مَدِيحٌ وَذٰلِكَ بَيِّنٌ بِٱسْتِقْرَاءِ ٱلْاَشْعَارِ وَبِخَاصَّةٍ اَشْعَارُهُمُ ٱلَّتِي كَانَتْ فِي ٱلْاُمُورِ ٱلْاِرَادِيَّةِ اَعْنِي ٱلْحَسَنَةَ وَٱلْقَبِيحَةَ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَالُ فِي ٱلصَّنَائِعِ ٱلْمُحَاكِيَةِ لِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلضَّرْبُ بِٱلْعِيدَانِ وَٱلزَّمْرُ وَٱلرَّقْصُ اَعْنِي اَنَّهَا مُعَدَّةٌ بِٱلطَّبْعِ لِهٰذَيْنِ ٱلْغَرَضَيْنِ. وَٱلْاَقَاوِيلُ ٱلشِّعْرِيَّةُ هِيَ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلْمُخَيِّلَةُ. وَاَصْنَافُ ٱلتَّخْيِيلِ وَٱلتَّشْبِيهِ ثَلَاثَةٌ اِثْنَانِ بَسِيطَانِ وَثَالِثٌ مُرَكَّبٌ مِنْهُمَا. اَمَّا ٱلْاِثْنَانِ ٱلْبَسِيطَانِ فَاَحَدُهُمَا تَشْبِيهُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ وَتَمْثِيلُهُ بِهِ وَذٰلِكَ يَكُونُ فِي لِسَانٍ بِاَلْفَاظٍ خَاصَّةٍ عِنْدَهُمْ مِثْلَ كَاَنَّ وَاِخَالُ وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَهِيَ ٱلَّتِي تُسَمَّى عِنْدَهُمْ حُرُوفَ ٱلتَّشْبِيهِ. وَاَمَّا اَخْذُ ٱلشَّبِيهِ بِعَيْنِهِ بَدَلَ ٱلشَّبِيهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلْاِبْدَالَ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

هُوَ ٱلْبَحْرُ مِنْ اَيِّ ٱلْمَوَاضِعِ جِئْتَهُ

وَيَنْبَغِي اَنْ نَعْلَمَ اَنَّ فِي هٰذَا ٱلْقِسْمِ تَدْخُلُ ٱلْاَنْوَاعُ ٱلَّتِي يُسَمِّيهَا اَهْلُ زَمَانِنَا ٱسْتِعَارَةً وَكِنَايَةً مِثْلَ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

وَعُرِّيَ اَفْرَاسُ ٱلصِّبَا وَرَوَاحِلُهْ

اِلَّا اَنَّ اَلْكِنَايَاتِ اَكْثَرُ ذٰلِكَ هِيَ اِبْدَالَاتٌ مِنْ لَوَاحِقِ اَلشَّيْءِ . وَالْاِسْتِعَارَةُ هِيَ اِبْدَالٌ مِنْ مُنَاسِبِهِ اَعْنِي اِذَا كَانَ شَيْءٌ نِسْبَتُهُ اِلَى اَلثَّانِي نِسْبَةُ اَلثَّالِثِ اِلَى اَلرَّابِعِ فَاِبْدَالُ اِسْمِ اَلثَّالِثِ اِلَى اَلْاَوَّلِ وَبِالْعَكْسِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي كِتَابِ اَلْخَطَابَةِ مِنْ كَمْ شَيْءٍ تَكُونُ اَلْاِبْدَالَاتُ . وَاَمَّا اَلْقِسْمُ اَلثَّانِي فَهُوَ اَنْ يُبْدَلَ اَلتَّشْبِيهُ مِثْلَ اَنْ تَقُولَ : اَلشَّمْسُ كَاَنَّهَا فُلَانٌ اَوِ اَلشَّمْسُ هِيَ فُلَانٌ لَا فُلَانٌ كَالشَّمْسِ وَلَا هُوَ اَلشَّمْسُ

وَالصِّنْفُ اَلثَّالِثُ مِنَ اَلْاَقَاوِيلِ اَلشِّعْرِيَّةِ هُوَ اَلْمُرَكَّبُ مِنْ هٰذَيْنِ (قَالَ) وَكَمَا اَنَّ اَلنَّاسَ بِالطَّبْعِ قَدْ يُخَيِّلُونَ وَيُحَاكُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالْاَفْعَالِ مِثْلَ مُحَاكَاةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا بِالْاَلْوَانِ وَالْاَشْكَالِ وَالْاَصْوَاتِ وَذٰلِكَ اِمَّا بِصِنَاعَةٍ وَمَلَكَةٍ تُوجَدُ لِلْمُحَاكِينَ وَاِمَّا مِنْ قِبَلِ عَادَةٍ تَقَدَّمَتْ لَهُمْ فِي ذٰلِكَ . كَذٰلِكَ تُوجَدُ لَهُمُ اَلْمُحَاكَاةُ بِالْاَقَاوِيلِ بِالطَّبْعِ وَالتَّخْيِيلِ . وَالْمُحَاكَاةُ فِي اَلْاَقَاوِيلِ اَلشِّعْرِيَّةِ تَكُونُ مِنْ قِبَلِ ثَلَاثَةِ اَشْيَاءَ : مِنْ قِبَلِ اَلنَّغَمِ اَلْمُتَّفِقِ وَمِنْ قِبَلِ اَلْوَزْنِ وَمِنْ قِبَلِ اَلتَّشْبِيهِ نَفْسِهِ . وَهٰذِهِ قَدْ يُوجَدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُفْرَدًا عَنْ صَاحِبِهِ مِثْلُ وُجُودِ اَلنَّغَمِ فِي اَلْمَزَامِيرِ وَالْوَزْنِ فِي اَلرَّقْصِ وَالْمُحَاكَاةِ فِي اَللَّفْظِ . اَعْنِي اَلْاَقَاوِيلَ اَلْمُخَيِّلَةَ اَلْغَيْرَ مَوْزُونَةٍ . وَقَدْ تَجْتَمِعُ هٰذِهِ اَلثَّلَاثَةُ بِاَسْرِهَا مِثْلَ مَا يُوجَدُ عِنْدَنَا فِي اَلنَّوْعِ اَلَّذِي يُسَمَّى اَلْمُوَشَّحَاتِ وَالْاَزْجَالَ وَهِيَ اَلْاَشْعَارُ اَلَّتِي اَسْتَنْبَطَهَا فِي هٰذَا اَللِّسَانِ اَهْلُ هٰذِهِ اَلْجَزِيرَةِ اِذْ كَانَتِ اَلْاَشْعَارُ اَلطَّبِيعِيَّةُ هِيَ مَا جُمِعَتِ

ٱلْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا. وَٱلْأُمُورُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ إِنَّمَا تُوجَدُ لِلْأُمَمِ ٱلطَّبِيعِيَّيْنَ فَإِنَّ أَشْعَارَ ٱلْعَرَبِ لَيْسَ فِيهَا لَحْنٌ. وَإِنَّمَا هِيَ إِمَّا ٱلْوَزْنُ فَقَطْ وَإِمَّا ٱلْوَزْنُ وَٱلْمُحَاكَاةُ مَعًا فِيهَا. وَإِذَا كَانَ هٰذَا هٰكَذَا فَٱلصِّنَاعَةُ ٱلْمُخَيِّلَةُ أَوِ ٱلَّتِي تَفْعَلُ فِعْلَ ٱلتَّخْيِيلِ ثَلَاثَةٌ. صِنَاعَةُ ٱللَّحْنِ وَصِنَاعَةُ ٱلْوَزْنِ وَصِنَاعَةُ عَمَلِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمُحَاكِيَةِ وَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ ٱلْمَنْطِقِيَّةُ ٱلَّتِي نَنْظُرُ فِيهَا فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ. (قَالَ): وَكَثِيرًا مَا يُوجَدُ مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلَّتِي تُسَمَّى أَشْعَارًا مَا لَيْسَ فِيهَا مِنْ مَعْنَى ٱلشِّعْرِيَّةِ إِلَّا ٱلْوَزْنُ فَقَطْ كَأَقَاوِيلِ سُقْرَاطَ ٱلْمَوْزُونَةِ وَأَقَاوِيلِ إِنْبَادُقْلِيسَ فِي ٱلطَّبِيعِيَّاتِ بِخِلَافِ ٱلْأَمْرِ فِي أَشْعَارِ أُومِيرُوسَ فَإِنَّهُ يُوجَدُ فِيهَا ٱلْأَمْرَانِ جَمِيعًا. (قَالَ): وَلِذٰلِكَ لَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُسَمَّى شِعْرًا بِٱلْحَقِيقَةِ إِلَّا مَا جَمَعَ هٰذَيْنِ. وَأَمَّا تِلْكَ فَهِيَ أَنْ تُسَمَّى أَقَاوِيلَ أُخْرَى مِنْهَا أَنْ تُسَمَّى شِعْرًا وَكَذٰلِكَ ٱلْفَاعِلُ أَقَاوِيلَ مَوْزُونَةً بِٱلطَّبِيعِيَّاتِ هُوَ أَحْرَى أَنْ يُسَمَّى مُتَكَلِّمًا مِنْ أَنْ يُسَمَّى شَاعِرًا. وَكَذٰلِكَ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْمُخَيِّلَةُ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ أَوْزَانٍ مُخْتَلِطَةٍ لَيْسَتْ أَشْعَارًا. وَحُكِيَ أَنْ كَانَتْ تُوجَدُ عِنْدَهُمْ أَعْنِي مِنْ أَوْزَانٍ مُخْتَلِطَةٍ وَهٰذَا غَيْرُ مَوْجُودٍ عِنْدَنَا فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ كَمْ هِيَ أَصْنَافُ ٱلْمُحَاكَاةِ وَمِنْ أَيِّ ٱلصَّنَائِعِ تَلْتَئِمُ ٱلْمُحَاكَاةُ بِٱلْقَوْلِ حَتَّى تَكُونَ تَامَّةَ ٱلْفِعْلِ

البحث الثاني

في غاية صناعة الشعر

(من الكتاب نفسه)

(قال) وَلَمَّا كَانَ ٱلْمُحَاكُونَ وَٱلْمُشَبِّهُونَ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ بِذٰلِكَ أَنْ يَحُثُّوا عَلَى عَمَلِ بَعْضِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْإِرَادِيَّةِ وَأَنْ يَكُفُّوا عَنْ عَمَلِ بَعْضِهَا فَقَدْ يَجِبُ ضَرُورَةً أَنْ تَكُونَ ٱلْأُمُورُ ٱلَّتِي تُقْصَدُ مُحَاكَاتُهَا إِمَّا فَضَائِلَ وَإِمَّا رَذَائِلَ وَذٰلِكَ أَنَّ كُلَّ فِعْلٍ وَكُلَّ خُلُقٍ إِنَّمَا هُوَ تَابِعٌ لِأَحَدِ هٰذَيْنِ أَعْنِي ٱلْفَضِيلَةَ وَٱلرَّذِيلَةَ فَقَدْ يَجِبُ ضَرُورَةً أَنْ تَكُونَ ٱلْفَضَائِلُ إِنَّمَا تُحَاكِي بِٱلْفَضَائِلِ وَٱلْفَاضِلِينَ وَأَنْ تَكُونَ ٱلرَّذَائِلُ تُحَاكِي بِٱلرَّذَائِلِ وَٱلْأَرْذَلِينَ. وَإِذَا كَانَ كُلُّ تَشْبِيهٍ وَحِكَايَةٍ إِنَّمَا تَكُونُ بِٱلْحَسَنِ وَٱلْقَبِيحِ فَظَاهِرٌ أَنَّ كُلَّ تَشْبِيهٍ وَحِكَايَةٍ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا ٱلتَّحْسِينُ وَٱلتَّقْبِيحُ وَقَدْ يَجِبُ مَعَ هٰذَا ضَرُورَةً أَنْ يَكُونَ ٱلْمُحَاكُونَ لِلْفَضَائِلِ أَعْنِي ٱلْمَائِلِينَ بِٱلطَّبْعِ إِلَى مُحَاكَاتِهَا أَفَاضِلَ. وَٱلْمُحَاكُونَ لِلرَّذَائِلِ أَنْقَصُ طَبْعًا مِنْ هٰؤُلَاءِ وَأَقْرَبُ إِلَى ٱلرَّذِيلَةِ وَعَنْ هٰذَيْنِ ٱلصِّنْفَيْنِ مِنَ ٱلنَّاسِ وُجِدَ ٱلْمَدِيحُ وَٱلْهَجْوُ. أَعْنِي مَدْحَ ٱلْفَضَائِلِ وَهَجْوَ ٱلرَّذَائِلِ وَلِهٰذَا كَانَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ يُجِيدُ ٱلْمَدْحَ وَلَا يُجِيدُ ٱلْهَجْوَ وَبَعْضُهُمْ بِٱلْعَكْسِ أَعْنِي يُجِيدُ ٱلْهَجْوَ وَلَا يُجِيدُ ٱلْمَدْحَ فَإِذَنْ بِٱلْوَاجِبِ مَا كَانَ يُوجَدُ لِكُلِّ تَشْبِيهٍ وَحِكَايَةٍ هٰذَانِ

ٱلْفَصْلَانِ ٱعْنِي ٱلتَّحْسِينَ وَٱلتَّقْبِيحَ وَهٰذَانِ ٱلْفَصْلَانِ إِنَّمَا يُوجَدَانِ لِلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْقَوْلِ لَا ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْوَزْنِ وَلَا ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱللَّحْنِ. وَقَدْ يُوجَدُ لِلتَّشْبِيهِ بِٱلْقَوْلِ فَصْلٌ ثَالِثٌ وَهُوَ ٱلتَّشْبِيهُ ٱلَّذِي يُقْصَدُ بِهِ مُطَابَقَةُ ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُقْصَدَ فِي ذٰلِكَ تَحْسِينٌ أَوْ تَقْبِيحٌ لٰكِنْ نَفْسُ ٱلْمُطَابَقَةِ وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ هُوَ كَٱلْمَادَّةِ ٱلْمُعَدَّةِ لِأَنْ يَسْتَحِيلَ إِلَى ٱلطَّرَفَيْنِ أَعْنِي أَنَّهَا تَسْتَحِيلُ تَارَةً إِلَى ٱلتَّحْسِينِ بِزِيَادَةٍ عَلَيْهَا وَتَارَةً إِلَى ٱلتَّقْبِيحِ بِزِيَادَةٍ أَيْضًا عَلَيْهَا (قَالَ) وَهٰذِهِ كَانَتْ طَرِيقَةُ أُومِيرُوسَ أَعْنِي أَنَّهُ كَانَ يَأْتِي فِي تَشْبِيهَاتِهِ بِٱلْمُطَابَقَةِ وَٱلزِّيَادَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَٱلْمُفَخَّمَةِ. وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ إِجَادَتُهُ إِنَّمَا هِيَ فِي ٱلْمُطَابَقَةِ فَقَطْ. وَمِنْهُمْ مَنْ إِجَادَتُهُ فِي ٱلتَّحْسِينِ وَٱلتَّقْبِيحِ. وَمِنْهُمْ مَنْ جَمَعَ ٱلْأَمْرَيْنِ مِثْلُ أُومِيرُوسَ وَتَمَثَّلَ فِي كُلِّ صِنْفٍ مِنْ هٰؤُلَاءِ بِأَصْنَافٍ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ كَانُوا مَشْهُورِينَ فِي مُدَّتِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ بِٱسْتِعْمَالِ صِنْفٍ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ هٰذِهِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ ٱلثَّلَاثَةِ. وَأَنْتَ فَلَيْسَ يَعْسُرُ عَلَيْكَ وُجُودُ مِثَالَاتِ ذٰلِكَ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَإِنْ كَانَتْ أَكْثَرُ أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ إِنَّمَا هِيَ كَمَا يَقُولُ أَبُو نَصْرٍ فِي ٱلنَّهْيِ وَٱلْكَرِيهِ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلنَّوْعَ ٱلَّذِي يُسَمُّونَهُ ٱلنَّسِيبَ إِنَّمَا هُوَ حَثٌّ عَلَى ٱلْفُسُوقِ وَلِذٰلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَتَجَنَّبَهُ ٱلْوِلْدَانُ وَيُؤَدَّبُونَ مِنْ أَشْعَارِهِمْ بِمَا يُحَثُّ فِيهِ عَلَى ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْكَرَمِ. فَإِنَّهُ لَيْسَ تَحُثُّ ٱلْعَرَبُ فِي أَشْعَارِهَا مِنَ ٱلْفَضَائِلِ عَلَى سِوَى هَاتَيْنِ ٱلْفَضِيلَتَيْنِ وَإِنْ كَانَتْ لَيْسَ تَتَكَلَّمُ فِيهِمَا عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَثِّ عَلَيْهِمَا

وَإِنَّمَا تَتَكَلَّمُ فِيهِمَا عَلَى طَرِيقِ ٱلْفَخْرِ. وَأَمَّا ٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ ٱلَّذِي ٱلْمَقْصُودُ بِهِ ٱلْمُطَابَقَةُ فَقَطْ فَهُوَ مَوْجُودٌ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ وَلِذٰلِكَ يَصِفُونَ ٱلْجَمَادَاتِ كَثِيرًا وَٱلْحَيَوَانَاتِ وَٱلنَّبَاتَ. وَأَمَّا ٱلْيُونَانِيُّونَ فَلَمْ يَكُونُوا يَقُولُونَ أَكْثَرَ ذٰلِكَ شِعْرًا إِلَّا وَهُوَ مُوَجَّهٌ نَحْوَ ٱلْفَضِيلَةِ أَوِ ٱلْكَفِّ عَنِ ٱلرَّذِيلَةِ أَوْ مَا يُفِيدُ أَدَبًا مِنَ ٱلْآدَابِ أَوْ مَعْرِفَةً مِنَ ٱلْمَعَارِفِ. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ أَنَّ أَصْنَافَ ٱلتَّشْبِيهَاتِ ثَلَاثَةُ أُصُولٍ وَأَنَّ فُصُولَهَا ثَلَاثَةٌ وَتَبَيَّنَ مَا هِيَ هٰذِهِ ٱلْفُصُولُ ٱلثَّلَاثَةُ وَٱلْأَصْنَافُ ٱلثَّلَاثَةُ. وَيُشْبِهُ إِذَا ٱسْتُقْرِيَتِ ٱلْأَشْعَارُ أَنْ يَقَعَ ٱلْيَقِينُ بِأَنَّهُ لَيْسَ هَاهُنَا صِنْفٌ رَابِعٌ مِنْ أَصْنَافِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ وَلَا فَصْلٌ رَابِعٌ مِنْ فُصُولِ تِلْكَ ٱلْأَصْنَافِ

البحث الثالث

في العلل المولّدة للشعر

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَيُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ ٱلْعِلَلُ ٱلْمُوَلِّدَةُ لِلشِّعْرِ بِٱلطَّبْعِ فِي ٱلنَّاسِ عِلَّتَيْنِ. أَمَّا ٱلْعِلَّةُ ٱلْأُولَى فَوُجُودُ ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةُ لِلْإِنْسَانِ بِٱلطَّبْعِ مِنْ أَوَّلِ مَا يَنْشَأُ أَعْنِي أَنَّ هٰذَا ٱلْفِعْلَ يُوجَدُ لِلنَّاسِ وَهُمْ أَطْفَالٌ وَهٰذَا شَيْءٌ يَخْتَصُّ بِهِ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ دُونِ سَائِرِ ٱلْحَيَوَانَاتِ وَٱلْعِلَّةُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ ٱلْحَيَوَانِ هُوَ ٱلَّذِي

يَلْتَذُّ بِٱلتَّشْبِيهِ لِلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قَدْ أَحَسَّهَا وَبِٱلْمُحَاكَاةِ لَهَا. وَٱلدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ يُسَرُّ بِٱلتَّشْبِيهِ بِٱلطَّبْعِ وَيَفْرَحُ هُوَ أَنَّا نَلْتَذُّ وَنُسَرُّ بِمُحَاكَاةِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي لَا نَلْتَذُّ بِإِحْسَاسِهَا وَبِخَاصَّةٍ إِذَا كَانَتِ ٱلْمُحَاكَاةُ شَدِيدَةَ ٱلِٱسْتِقْصَاءِ مِثْلُ مَا يَعْرِضُ فِي تَصَاوِيرِ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلَّتِي يَعْمَلُهَا ٱلْمَهَرَةُ مِنَ ٱلْمُصَوِّرِينَ وَلِهٰذِهِ ٱلْعِلَّةِ ٱسْتُعْمِلَ فِي ٱلتَّعْلِيمِ عِنْدَ ٱلْإِفْهَامِ وَٱلتَّخَاطُبِ ٱلْإِشَارَاتُ فَإِنَّهَا أَدَاةٌ مُعِينَةٌ عَلَى فَهْمِ ٱلْأَمْرِ ٱلَّذِي يُقْصَدُ تَفْهِيمُهُ لِمَكَانِ مَا فِيهَا مِنَ ٱلِٱلْتِذَاذِ ٱلَّذِي هُوَ مَوْجُودٌ فِي ٱلْإِشَارَاتِ مِنْ قِبَلِ مَا فِيهَا مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ فَتَكُونُ ٱلنَّفْسُ بِحَسَبِ ٱلْتِذَاذِهَا بِهِ أَتَمَّ قُبُولًا لَهُ. فَإِنَّ ٱلتَّعْلِيمَ لَيْسَ إِنَّمَا يُوجَدُ لِلْفَيْلَسُوفِ فَقَطْ بَلْ وَلِلنَّاسِ فِي ذٰلِكَ مُشَارَكَةٌ يَسِيرَةٌ مَعَ ٱلْفَيْلَسُوفِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ يُوجَدُ ٱلتَّعْلِيمُ بِٱلطَّبْعِ يَصْدُرُ مِنْ إِنْسَانٍ إِلَى إِنْسَانٍ بِحَسَبِ قِيَاسِ ذٰلِكَ ٱلْإِنْسَانِ ٱلْمُعَلِّمِ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ ٱلْمُتَعَلِّمِ وَٱلْإِشَارَاتُ لَمَّا كَانَتْ إِنَّمَا هِيَ تَشْبِيهَاتٌ لِأُمُورٍ قَدْ أُحِسَّتْ فَبَيِّنٌ أَنَّهَا إِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ لِمَوَاضِعِ ٱلْمُسَارَعَةِ إِلَى ٱلْفَهْمِ وَٱلْقَبُولِ لَهُ وَأَنَّهُ إِنَّمَا يُفْهَمُ بِمَا فِيهَا مِنَ ٱلِٱلْتِذَاذِ لِمَوْضِعِ ٱلتَّخْيِيلِ ٱلَّذِي فِيهَا. فَهٰذِهِ هِيَ ٱلْعِلَّةُ ٱلْأُولَى ٱلْمُوَلِّدَةُ لِلشِّعْرِ. وَأَمَّا ٱلْعِلَّةُ ٱلثَّانِيَةُ فَٱلِٱلْتِذَاذُ ٱلْإِنْسَانِ أَيْضًا بِٱلطَّبْعِ بِٱلْوَزْنِ وَٱلْأَلْحَانِ فَإِنَّ ٱلْأَلْحَانَ يَظْهَرُ مِنْ أَمْرِهَا أَنَّهَا مُنَاسِبَةٌ لِلْوَزْنِ عِنْدَ ٱلَّذِينَ فِي طِبَاعِهِمْ أَنْ يُدْرِكُوا ٱلْأَوْزَانَ وَٱلْأَلْحَانَ فَٱلِٱلْتِذَاذُ ٱلنَّفْسِ بِٱلطَّبْعِ بِٱلْمُحَاكَاةِ وَٱلْأَلْحَانِ وَٱلْأَوْزَانِ هُوَ ٱلسَّبَبُ فِي وُجُودِ ٱلصِّنَاعَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ

وَبِخَاصَّةٍ عِنْدَ ٱلْفِطَرِ ٱلْفَائِقَةِ فِي ذٰلِكَ فَاِذَا نَشَاَتِ ٱلْاُمَّةُ تَوَلَّدَتْ فِيهِمْ صِنَاعَةُ ٱلشِّعْرِ مِنْ حَيْثُ اِنَّ ٱلْاَوَّلَ يَاْتِي مِنْهَا اَوَّلًا بِجُزْءٍ يَسِيرٍ ثُمَّ يَاْتِي مَنْ بَعْدَهُ بِجُزْءٍ آخَرَ وَهٰكَذَا اِلَى اَنْ تَكْمُلَ ٱلصِّنَاعَاتُ ٱلشِّعْرِيَّةُ . وَتَكْمُلُ اَيْضًا اَصْنَافُهَا بِحَسَبِ ٱسْتِعْدَادِ صِنْفٍ صِنْفٍ مِنَ ٱلنَّاسِ لِلْاِلْتِذَاذِ اَكْثَرَ بِصِنْفٍ صِنْفٍ مِنْ اَصْنَافِ ٱلشِّعْرِ . مِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّ ٱلنُّفُوسَ ٱلَّتِي هِيَ فَاضِلَةٌ وَشَرِيفَةٌ بِٱلطَّبْعِ هِيَ ٱلَّتِي تُنْشِئُ اَوَّلًا صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ اَعْنِي مَدِيحَ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْجَمِيلَةِ . وَٱلنُّفُوسُ ٱلَّتِي هِيَ اَخَسُّ مِنْ هٰذِهِ هِيَ ٱلَّتِي تُنْشِئُ صِنَاعَةَ ٱلْهِجَاءِ اَعْنِي هِجَاءَ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْقَبِيحَةِ وَاِنْ كَانَ قَدْ يَضْطَرُّ ٱلَّذِي مَقْصَدُهُ ٱلْهِجَاءُ لِلشِّرَارِ وَٱلشُّرُورِ اَنْ يَمْدَحَ ٱلْاَخْيَارَ وَٱلْاَفْعَالَ ٱلْفَاضِلَةَ لِيَكُونَ ظُهُورُ قُبْحِ ٱلشُّرُورِ اَكْثَرَ اَعْنِي اِذَا ذَكَرَهَا ثُمَّ ذَكَرَ بِاِزَائِهَا ٱلْاَفْعَالَ ٱلْقَبِيحَةَ . فَهٰذَا مَا فِي هٰذَا ٱلْفَصْلِ مِنَ ٱلْاُمُورِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ ٱلْاُمَمِ اَوْ لِلْاَكْثَرِ وَسَائِرُ مَا يُذْكَرُ فِيهِ فَكُلُّهُ اَوْ جُلُّهُ مِمَّا يَخُصُّ اَشْعَارَهُمْ وَعَادَتَهُمْ فِيهَا وَذٰلِكَ اَنَّهُ يَذْكُرُ اَصْنَافَ ٱلصِّنَاعَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلَّتِي كَانَتْ تُسْتَعْمَلُ عِنْدَهُمْ وَكَيْفَ كَانَ مَنْشَأُ وَاحِدَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِٱلطَّبْعِ وَاَيُّ جُزْءٍ هُوَ ٱلْمُتَقَدِّمُ مِنْهَا فِي ٱلْكَوْنِ عَلَى اَيِّ جُزْءٍ وَبِخَاصَّةٍ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَصِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ ٱلْمَشْهُورَتَيْنِ عِنْدَهُمْ وَيَذْكُرُ مَعَ هٰذَا اَوَّلَ مَنِ ٱبْتَدَاَ صِنَاعَةً صِنَاعَةً مِنْ تِلْكَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلْمُعْتَادَةِ عِنْدَهُمْ وَمَنْ زَادَ فِيهَا وَمَنْ كَمَّلَهَا بَعْدُ . وَهُوَ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ يُثْنِي عَلَى اُومِيرُوسَ ثَنَاءً كَثِيرًا وَيَعْرِفُ اَنَّهُ ٱلَّذِي اَعْطَى مَبَادِئَ هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ وَاَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِاَحَدٍ

قَبْلَهُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ عَمَلٌ لَهُ قَدْرٌ يُعْتَدُّ بِهِ وَلَا فِي صِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ وَلَا فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْمَشْهُورَةِ عِنْدَهُمْ . قَالَ وَٱلْأَنْقَصُ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ وَٱلْأَقْصَرُ هِيَ ٱلْمُتَقَدِّمَةُ بِٱلزَّمَانِ لِأَنَّ ٱلطِّبَاعَ أَسْهَلُ وُقُوعًا عَلَيْهَا أَوَّلًا. وَٱلْأَقْصَرُ هِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ مَقَاطِعَ أَقَلَّ وَٱلْأَنْقَصُ هِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ نَغَمَاتٍ أَقَلَّ أَيْضًا. (قَالَ) وَٱلدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ هٰذِهِ ٱلْأَنْوَاعَ أَسْبَقُ إِلَى ٱلنُّفُوسِ أَنَّ ٱلنَّاسَ عِنْدَ ٱلْمُنَازَعَاتِ قَدْ يَرْتَجِلُونَ مَصَارِيعَ مِنْ هٰذِهِ فِي مُحَادَثَتِهِمْ وَذٰلِكَ عِنْدَ ٱلْحَرَجِ. يُرِيدُ فِيمَا أَحْسِبُ مِثْلَ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ: لَا لَا لَا يُمِدُّ بِهَا صَوْتَهُ. وَمِثْلَ قَوْلِهِ لَيْسَ هٰذَا كَذَا مَادًّا بِهَا صَوْتَهُ فَإِنَّ أَمْثَالَ هٰذِهِ ٱلْمُرَاجَعَاتِ هِيَ مَصَارِيعُ مَوْزُونَةٌ ذَاتُ لَحْنٍ وَأَمَّا ٱلَّتِي هِيَ أَطْوَلُ وَأَتَمُّ فَإِنَّمَا ظَهَرَتْ بِأَخَرَةٍ كَٱلْحَالِ فِي سَائِرِ ٱلصَّنَائِعِ. (قَالَ) وَصِنَاعَةُ ٱلْهِجَاءِ لَيْسَ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا ٱلْمُحَاكَاةُ بِكُلِّ مَا هُوَ شَرٌّ وَقَبِيحٌ فَقَطْ بَلْ وَبِكُلِّ مَا هُوَ شَيْءٌ مُسْتَهْزَأٌ بِهِ أَيْ مَرْذُولٌ قَبِيحٌ غَيْرُ مُغْتَمٍّ بِهِ. (قَالَ) وَٱلدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ ٱلِٱسْتِهْزَاءَ يَجِبُ أَنْ يَجْمَعَ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةَ ٱلْأَوْصَافَ أَنَّهُ يُوجَدُ فِي وَجْهِ ٱلْمُسْتَهْزِئِ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالُ ٱلثَّلَاثَةُ أَعْنِي قَبَاحَةَ ٱلْوَجْهِ وَهَيْئَةَ ٱلِٱسْتِصْغَارِ وَقِلَّةَ ٱلِٱكْتِرَابِ بِٱلْمُسْتَهْزَإِ بِهِ وَذٰلِكَ بِخِلَافِ وَجْهِ ٱلْغَاضِبِ أَعْنِي أَنَّ فِيهِ قُبْحًا وَٱهْتِمَامًا وَتِلْكَ هِيَ حَالَةُ نَفْسِ ٱلْغَاضِبِ عَلَى ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يُغْضَبُ عَلَيْهِ

البحث الرابع

في وزن الشعر ولحنه

(من الكتاب نفسه)

(قال) وايجاد صناعة المديح يكون تعلمها في الاعاريض الطويلة لا في القصيرة ولذلك رفض المتاخرون الاعاريض القصار التي كانت تستعمل فيها وفي غيرها من صنايع الشعر. واخص الاوزان بها هو الوزن البسيط الغير مركب ولكن ينبغي الا يبلغ فيها من الطول الى حد يستكره. والحد المفهم جوهر صناعة المديح هو انها نسبة ومحاكاة للعمل الارادي الفاضل الكامل الذي له قوة كلية في الامور الفاضلة لا قوة جزئية في واحد واحد من الامور الفاضلة محاكاة تنفعل لها النفوس انفعالا معتدلا بما يولد فيها من الرحمة والخوف وذلك بما يخيل في الفاضلين من النقي والنظافة فان المحاكاة انما هي للهيئات التي تلزم الفضائل لا للملكات اذ ليس يمكن فيها ان يتخيل. وهذه المحاكاة بالقول تكمل اذا قرن بها اللحن والوزن وقد توجد من المنشدين احوال اخر خارجة عن الوزن واللحن تجعل القول اتم محاكاة وهي الاشارات والاخذ بالوجوه الذي قيل في كتاب الخطابة فاول اجزاء صناعة المديح الشعري في العمل هو ان تحصى

ٱلْمَعَانِي ٱلشَّرِيفَةُ ٱلَّتِي بِهَا يَكُونُ ٱلتَّخْيِيلُ . ثُمَّ تُكْسَى تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱللَّحْنَ وَٱلْوَزْنَ ٱللَّذَيْنِ لِلشَّيْءِ ٱلْمَقُولِ فِيهِ . وَعَمَلُ ٱللَّحْنِ فِي ٱلشِّعْرِ هُوَ أَنَّهُ يُعِدُّ ٱلنَّفْسَ لِقَبُولِ خَيَالِ ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يُقْصَدُ تَخْيِيلُهُ فَكَانَ ٱللَّحْنُ هُوَ ٱلَّذِي يُفِيدُ ٱلنَّفْسَ ٱلِاسْتِعْدَادَ ٱلَّذِي بِهِ يُقْبَلُ ٱلتَّشْبِيهُ وَٱلْمُحَاكَاةُ لِلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ تَشْبِيهُهُ . وَإِنَّمَا يُفِيدُ ٱلنَّفْسَ هٰذِهِ ٱلْهَيْئَةَ فِي نَوْعٍ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلشِّعْرِ ٱللَّحْنُ ٱلْمُلَائِمُ لِذٰلِكَ ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلشِّعْرِ بِنَغَمَاتِهِ وَتَأْلِيفِهِ . فَإِنَّهُ كَمَا أَنَّا نَجِدُ ٱلنَّغَمَ ٱلْحَادَّةَ تُلَائِمُ نَوْعًا مِنَ ٱلْقَوْلِ غَيْرَ ٱلَّذِي تُلَائِمُهُ ٱلنَّغَمَاتُ ٱلثِّقَالُ كَذٰلِكَ يَنْبَغِي أَنْ نَعْتَقِدَ فِي تَرْكِيبِ ٱلْأَلْحَانِ وَهَيْئَاتِ ٱلْمُحْدِثِينَ وَٱلْقُصَّاصِ ٱلَّتِي تُكْمِلُ ٱلتَّخْيِيلَ ٱلْمَوْجُودَ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ أَنْفُسِهَا مِنْ قِبَلِ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ أَعْنِي ٱلتَّشْبِيهَ وَٱلْوَزْنَ وَٱللَّحْنَ ٱلَّتِي هِيَ ٱسْطُقُسَّاتُ ٱلْمُحَاكَاةِ هِيَ بِٱلْجُمْلَةِ هَيْئَتَانِ إِحْدَاهُمَا هَيْئَةٌ تَدُلُّ عَلَى خُلُقٍ وَعَادَةٍ كَمَنْ يَتَكَلَّمُ كَلَامَ عَاقِلٍ أَوْ كَلَامَ غَضُوبٍ وَٱلثَّانِيَةُ هَيْئَةٌ تَدُلُّ عَلَى ٱعْتِقَادٍ فَإِنَّهُ لَيْسَ هَيْئَةُ مَنْ يَتَكَلَّمُ وَهُوَ مُتَحَقِّقٌ بِٱلشَّيْءِ هَيْئَةَ مَنْ يَتَكَلَّمُ فِيهِ وَهُوَ شَاكٌّ . فَٱلْقَاصُّ وَٱلْمُحْدِثُ فِي ٱلْمَدِيحِ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ هَيْئَةُ قَوْلِهِ وَشَكْلِهِ هَيْئَةَ مُحِقٍّ لَا شَاكٍّ وَهَيْئَةَ جَادٍّ لَا هَازِلٍ وَٱلْقَصَصُ وَٱلْحَدِيثُ ٱلَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُعْبَرَ عَنْهُ ٱلْقَاصُّ وَٱلْمُحْدِثُ وَهُوَ بِهَاتَيْنِ ٱلْحَالَتَيْنِ هُوَ ٱلْخُرَافَةُ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةِ وَأَعْنِي بِٱلْخُرَافَةِ تَرْكِيبَ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي تُقْصَدُ مُحَاكَاتُهَا إِمَّا بِحَسَبِ مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي أَنْفُسِهَا أَعْنِي فِي ٱلْوُجُودِ وَإِمَّا بِحَسَبِ مَا أُعْتِيدَ فِي ٱلشِّعْرِ

مِنْ ذٰلِكَ وَاِنْ كَانَ كَذِبًا. وَلِهٰذَا قِيلَ لِلْاَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ خُرَافَاتٌ فَٱلْقُصَّاصُ وَٱلْمُحَدِّثُونَ بِٱلْجُمْلَةِ هُمُ ٱلَّذِينَ لَهُمْ قُدْرَةٌ عَلَى مُحَاكَاةِ ٱلْعَادَاتِ وَٱلْاِعْتِقَادَاتِ (قَالَ) وَقَدْ يَجِبُ اَنْ تَكُونَ اَجْزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ سِتَّةً : ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلْخُرَافِيَّةُ وَٱلْعَادَاتُ وَٱلْوَزْنُ وَٱلْاِعْتِقَادَاتُ وَٱلنَّظَرُ وَٱللَّحْنُ. وَٱلدَّلِيلُ عَلَى ذٰلِكَ اَنَّ كُلَّ قَوْلٍ شِعْرِيٍّ قَدْ يَنْقَسِمُ اِلَى مُشَبَّهٍ وَمُشَبَّهٍ بِهِ وَٱلَّذِي بِهِ يُشَبَّهُ ثَلَاثَةٌ ٱلْمُحَاكَاةُ وَٱلْوَزْنُ وَٱللَّحْنُ وَٱلَّذِي يُشَبَّهُ فِي ٱلْمَدْحِ ثَلَاثَةٌ اَيْضًا: ٱلْعَادَاتُ وَٱلْاِعْتِقَادَاتُ وَٱلنَّظَرُ اَعْنِي ٱلْاِسْتِدْلَالَ لِصَوَابِ ٱلْاِعْتِقَادِ فَتَكُونُ اَجْزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ ضَرُورَةً سِتَّةً. وَاِنَّمَا كَانَتِ ٱلْعَادَاتُ وَٱلْاِعْتِقَادَاتُ اَعْظَمَ اَجْزَاءِ ٱلْمَدِيحِ لِاَنَّ صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ لَيْسَتْ هِيَ صِنَاعَةً تُحَاكِي ٱلنَّاسَ اَنْفُسَهُمْ مِنْ جِهَةِ مَا هُمْ اَشْخَاصُ نَاسٍ مَحْسُوسُونَ بَلْ اِنَّمَا تُحَاكِيهِمْ مِنْ قِبَلِ عَادَاتِهِمِ ٱلْجَمِيلَةِ وَاَفْعَالِهِمِ ٱلْحَسَنَةِ وَاَعْتِقَادَاتِهِمِ ٱلسَّعِيدَةِ تَشْمَلُ ٱلْاَفْعَالَ وَٱلْخُلُقَ وَلِذٰلِكَ جُعِلَتِ ٱلْعَادَةُ اَحَدَ اَجْزَاءِ ٱلسِّتَّةِ وَٱسْتُغْنِيَ بِذِكْرِهَا فِي ٱلتَّقْسِيمِ عَنْ ذِكْرِ ٱلْاَفْعَالِ وَٱلْخُلُقِ. وَاَمَّا ٱلنَّظَرُ فَهُوَ اِبَانَةُ صَوَابِ ٱلْاِعْتِقَادِ وَكَاَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُمْ ضَرْبًا مِنَ ٱلْاِحْتِجَاجِ لِصَوَابِ ٱلْاِعْتِقَادِ ٱلْمَمْدُوحِ بِهِ. وَهٰذَا كُلُّهُ لَيْسَ يُوجَدُ فِي اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَاِنَّمَا يُوجَدُ فِي ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلشَّرْعِيَّةِ ٱلْمَدِيحِيَّةِ وَكَانُوا يُحَاكُونَ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةَ ٱلْاَشْيَاءَ اَعْنِي ٱلْعَادَاتِ وَٱلْاِعْتِقَادَاتِ وَٱلْاِسْتِدْلَالَ بِٱلثَّلَاثَةِ ٱلْاَصْنَافِ مِنَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا يُحَاكَى اَعْنِي ٱلْقَوْلَ ٱلْمُخَيَّلَ وَٱلْوَزْنَ وَٱللَّحْنَ (قَالَ) وَاَجْزَاءُ ٱلْقَوْلِ ٱلْخُرَافِيِّ مِنْ جِهَةِ مَا هُوَ مُحَاكٍ جُزْءَانِ وَذٰلِكَ اَنَّ

كُلَّ مُحَاكَاةٍ فَإِمَّا اَنْ تُوطِئَ لِمُحَاكَاتِهِ بِمُحَاكَاةِ ضِدِّهِ ثُمَّ يُنْتَقَلُ مِنْهُ اِلَى مُحَاكَاتِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي كَانَ يُعْرَفُ عِنْدَهُمْ بِٱلْاِدَارَةِ وَاِمَّا اَنْ يُحَاكِيَ ٱلشَّيْءَ نَفْسَهُ دُونَ اَنْ يَعْرِضَ لِمُحَاكَاةِ ضِدِّهِ وَهُوَ ٱلَّذِي كَانَ يُسَمُّونَهُ بِٱلْاِسْتِدْلَالِ. وَٱلَّذِي يَتَنَزَّلُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَجْزَاءِ مَنْزِلَةَ ٱلْمَبْدَإِ وَٱلْاَسِّ هُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلْخُرَافِيُّ ٱلْمُحَاكِي. وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّانِي ٱلْعَادَاتُ وَهُوَ ٱلَّذِي تُسْتَعْمَلُ اَوَّلًا فِيهِ ٱلْمُحَاكَاةُ اَعْنِي اَنَّهُ ٱلَّذِي يُحَاكَى وَاِنَّمَا كَانَتِ ٱلْحِكَايَةُ هِيَ ٱلْعَمُودَ وَٱلْاَسَّ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لِاَنَّ ٱلْاِلْتِذَاذَ لَيْسَ يَكُونُ بِذِكْرِ ٱلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ ذِكْرُهُ دُونَ اَنْ يُحَاكَى بَلْ اِنَّمَا يَكُونُ ٱلْاِلْتِذَاذُ بِهِ وَٱلْقَبُولُ لَهُ اِذَا حُوكِيَ. وَلِذٰلِكَ لَا يَلْتَذُّ ٱلْاِنْسَانُ بِٱلنَّظَرِ اِلَى صُوَرِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْمَوْجُودَةِ اَنْفُسِهَا وَيَلْتَذُّ بِمُحَاكَاتِهَا وَتَصْوِيرِهَا بِٱلْاَصْبَاغِ وَٱلْاَلْوَانِ وَلِذٰلِكَ ٱسْتَعْمَلَ ٱلنَّاسُ صِنَاعَةَ ٱلزَّوَاقَةِ وَٱلتَّصْوِيرِ. وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّالِثُ لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ اَعْنِي ٱلتَّالِي لِلثَّانِي هُوَ ٱلْاِعْتِقَادُ وَهٰذَا هُوَ ٱلْقُدْرَةُ عَلَى مُحَاكَاةِ مَا هُوَ مَوْجُودٌ كَذَا اَوْ لَيْسَ بِمَوْجُودٍ كَذَا. وَذٰلِكَ مِثْلُ مَا تَتَكَلَّفُهُ ٱلْخَطَابَةُ مِنْ تَبْيِينِ اَنَّ شَيْئًا مَوْجُودٌ اَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ اِلَّا اَنَّ ٱلْخَطَابَةَ تَتَكَلَّفُ ذٰلِكَ بِقَوْلٍ مُقْنِعٍ وَٱلشِّعْرَ بِقَوْلٍ مُحَاكٍ وَهٰذِهِ ٱلْمُحَاكَاةُ هِيَ اَيْضًا مَوْجُودَةٌ فِي ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ. (قَالَ) وَقَدْ كَانَ ٱلْاَقْدَمُونَ مِنْ وَاضِعِي ٱلسِّيَاسَاتِ يَقْتَصِرُونَ عَلَى تَمْكِينِ ٱلْاِعْتِقَادَاتِ فِي ٱلنُّفُوسِ بِٱلْاَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ حَتَّى شَعَرَ ٱلْمُتَاَخِّرُونَ بِٱلطُّرُقِ ٱلْخَطَابِيَّةِ وَٱلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلْقَوْلِ ٱلشِّعْرِيِّ ٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلْاِعْتِقَادِ وَٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلْعَادَةِ.

اِنَّ ٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلْعَادَةِ يَحُثُّ عَلَى عَمَلِ شَيْءٍ اَوْ عَلَى ٱلْهَرَبِ مِنْ شَيْءٍ وَٱلْقَوْلَ ٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلِاعْتِقَادِ اِنَّمَا يَحُثُّ عَلَى اَنَّ شَيْئًا مَوْجُودٌ اَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ لَا عَلَى شَيْءٍ يُطْلَبُ اَوْ يُهْرَبُ عَنْهُ. وَٱلْجُزْءُ ٱلرَّابِعُ لِهٰذِهِ ٱلْاَجْزَاءِ اَعْنِي ٱلتَّالِيَ لِلثَّالِثِ هُوَ ٱلْوَزْنُ وَمِنْ تَمَامِهِ اَنْ يَكُونَ مُنَاسِبًا لِلْغَرَضِ قَرُبَ وَزْنٍ يُنَاسِبُ غَرَضًا وَلَا يُنَاسِبُ غَرَضًا آخَرَ. وَٱلْجُزْءُ ٱلْخَامِسُ فِي ٱلْمَرْتَبَةِ هُوَ ٱللَّحْنُ وَهُوَ اَعْظَمُ هٰذِهِ ٱلْاَجْزَاءِ تَأْثِيرًا وَاَفْعَلُهَا فِي ٱلنُّفُوسِ. وَٱلْجُزْءُ ٱلسَّادِسُ هُوَ ٱلنَّظَرُ اَعْنِي ٱلِاحْتِجَاجَ لِصَوَابِ ٱلِاعْتِقَادِ اَوْ صَوَابِ ٱلْعَمَلِ لَا بِقَوْلٍ اِقْنَاعِيٍّ فَاِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مُلَائِمٍ لِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ بَلْ بِقَوْلٍ مُحَاكٍ فَاِنَّ صِنَاعَةَ ٱلشِّعْرِ لَيْسَتْ مَبْنِيَّةً عَلَى ٱلِاحْتِجَاجِ وَٱلْمُنَاظَرَةِ وَبِخَاصَّةٍ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ. وَلِذٰلِكَ لَيْسَ يَسْتَعْمِلُ ٱلْمَدِيحُ صِنَاعَةَ ٱلنِّفَاقِ وَٱلْاَخْذِ بِٱلْوُجُوهِ كَمَا تَسْتَعْمِلُهَا ٱلْخَطَابَةُ. (قَالَ) وَٱلصِّنَاعَةُ ٱلْعِلْمِيَّةُ ٱلَّتِي تُعْرَفُ بِمَاذَا تُعْمَلُ ٱلْاَشْعَارُ وَكَيْفَ تُعْمَلُ اَتَمُّ رِئَاسَةً مِنْ عَمَلِ ٱلْاَشْعَارِ فَاِنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ تُوَقِّفُ مَا تَحْتَهَا مِنَ ٱلصَّنَائِعِ عَلَى عَمَلِهَا هِيَ اَرْأَسُ مِمَّا تَحْتَهَا

البحث الخامس

في صناعة المديح واجزائها

(من الكتاب نفسه)

فَاِذْ قَدْ قِيلَ مَا هِيَ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ وَبِمَاذَا تَلْتَئِمُ وَكَمْ اَجْزَاؤُهَا وَمَا هِيَ فَلْنَقُلْ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا يَكُونُ حُسْنُ ٱلْاُمُورِ ٱلَّتِي يَتَقَوَّمُ بِهَا ٱلشِّعْرُ . فَاِنَّ ٱلْقَوْلَ فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ ضَرُورِيٌّ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَفِي غَيْرِهَا وَهُوَ لَهَا بِمَنْزِلَةِ ٱلْمَبْدَإِ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْاُمُورَ ٱلَّتِي تَتَقَوَّمُ مِنْهَا ٱلصَّنَائِعُ صِنْفَانِ اُمُورٌ ضَرُورِيَّةٌ وَاُمُورٌ تَكُونُ بِهَا اَتَمَّ وَاَفْضَلَ فَنَقُولُ اِنَّهُ يَجِبُ اَنْ تَكُونَ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ مُسْتَوْفِيَةً اِلْغَايَاتِ فِعْلِهَا اَعْنِي اَنْ تَبْلُغَ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةِ ٱلْغَايَةَ ٱلَّتِي فِي طِبَاعِهَا اَنْ تَبْلُغَهَا وَذٰلِكَ يَكُونُ بِاَشْيَاءَ اَحَدُهَا اَنْ يَكُونَ لِلْقَصِيدَةِ عِظَمٌ مَا مَحْدُودٌ تَكُونُ بِهِ كُلًّا وَكَامِلَةً وَٱلْكُلُّ وَٱلْكَامِلُ هُوَ مَا كَانَ لَهُ مَبْدَأٌ وَوَسَطٌ وَآخِرٌ وَٱلْمَبْدَأُ قَبْلُ وَلَيْسَ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ مَعَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي هُوَ لَهَا مَبْدَأٌ وَٱلْآخِرُ هُوَ مَعَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي هُوَ لَهَا آخِرٌ وَلَيْسَ قَبْلُ وَٱلْوَسَطُ هُوَ قَبْلُ وَمَعًا فَهُوَ اَفْضَلُ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ اِذْ كَانَ ٱلْوَسَطُ فِي ٱلْمَكَانِ قَبْلُ وَبَعْدُ فَاِنَّ ٱلشُّجْعَانَ هُمُ ٱلَّذِينَ مَكَانُهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ مَا بَيْنَ مَكَانِ ٱلْجُبَنَاءِ وَٱلْمُتَهَوِّرِينَ وَهُوَ ٱلْمَكَانُ ٱلْوَسَطُ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَدُّ ٱلْفَاضِلُ فِي ٱلتَّرْكِيبِ هُوَ ٱلْوَسَطُ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَرَكَّبُ مِنَ ٱلْاَطْرَافِ وَلَا تَتَرَكَّبُ ٱلْاَطْرَافُ مِنْهُ وَلَيْسَ يَجِبُ اَنْ

يَكُونَ ٱلْمُتَوَسِّطُ وَسَطًا اَيْ خِيَارًا فِي ٱلتَّرْكِيبِ وَٱلتَّرْتِيبِ فَقَطْ بَلْ وَفِي ٱلْمِقْدَارِ وَاِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَقَدْ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ لِلْقَصِيدَةِ اَوَّلٌ وَوَسَطٌ وَآخِرٌ وَاَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَجْزَاءِ وَسَطًا فِي ٱلْمِقْدَارِ وَكَذٰلِكَ يَجِبُ فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلْمُرَكَّبَةِ مِنْهَا اَنْ تَكُونَ بِقَدْرٍ مَحْدُودٍ لَا اَنْ تَكُونَ بِاَيِّ عِظَمٍ اتَّفَقَ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْجَوْدَةَ فِي ٱلْمُرَكَّبِ تَكُونُ مِنْ قِبَلِ شَيْئَيْنِ اَحَدُهُمَا ٱلتَّرْتِيبُ وَٱلثَّانِي ٱلْمِقْدَارُ وَلِهٰذَا لَا يُقَالُ فِي ٱلْحَيَوَانِ ٱلصَّغِيرِ ٱلْجُثَّةِ بِٱلْاِضَافَةِ اِلَى ٱلْاَشْخَاصِ نَوْعِهِ اِنَّهُ جَيِّدٌ. وَٱلْحَالُ فِي ٱلْمُخَاطَبَةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ فِي ذٰلِكَ كَٱلْحَالِ فِي ٱلتَّعْلِيمِ ٱلْبُرْهَانِيِّ اَعْنِي اَنَّ ٱلتَّعْلِيمَ اِنْ كَانَ قَصِيرَ ٱلْمُدَّةِ لَمْ يَكُنِ ٱلْفَهْمُ جَيِّدًا وَلَا اِنْ كَانَ اَطْوَلَ مِمَّا يَنْبَغِي لِاَنَّهُ يُخِلُّ ٱلْمُتَعَلِّمَ فِي ذٰلِكَ ٱلنِّسْيَانُ وَٱلْحَالُ فِي ذٰلِكَ كَٱلْحَالِ فِي ٱلنَّظَرِ اِلَى ٱلْمَحْسُوسِ اَعْنِي اَنَّ ٱلنَّظَرَ اِلَى ٱلْمَحْسُوسِ اِنَّمَا يَكُونُ جَيِّدًا اِذَا كَانَ بَيْنَ ٱلنَّاظِرِ وَبَيْنَهُ بُعْدٌ مُتَوَسِّطٌ لَا اِذَا كَانَ بَعِيدًا مِنْهُ جِدًّا وَلَا اِذَا كَانَ قَرِيبًا مِنْهُ جِدًّا. وَٱلَّذِي يَعْرِضُ فِي ٱلتَّعْلِيمِ بِعَيْنِهِ يَعْرِضُ فِي ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ اَعْنِي اَنَّهُ اِذَا كَانَتِ ٱلْقَصِيدَةُ قَصِيرَةً لَمْ تَسْتَوْفِ اَجْزَاءَ ٱلْمَدِيحِ وَاِنْ كَانَتْ طَوِيلَةً لَمْ يُمْكِنْ اَنْ تُحْفَظَ فِي ذِكْرِ ٱلسَّامِعِينَ اَجْزَاؤُهَا فَيَعْرِضُ لَهُمْ اِذَا سَمِعُوا ٱلْاَجْزَاءَ ٱلْاَخِيرَةَ اَنْ يَكُونُوا قَدْ نَسُوا ٱلْاُولَى وَاَمَّا ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلْخَطَابِيَّةُ ٱلَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْمُنَاظَرَةِ فَلَيْسَ لَهَا قَدْرٌ مَحْدُودٌ بِٱلطَّبْعِ وَلِذٰلِكَ ٱحْتَاجَ ٱلنَّاسُ اَنْ يُقَدِّرُوا زَمَانَ ٱلْمُنَاظَرَةِ بَيْنَ ٱلْخُصُومِ اِمَّا بِآلَةِ ٱلْمَاءِ عَلَى مَا جَرَتْ بِهِ

ٱلْعَادَةُ عِنْدَ ٱلْيُونَانِيِّينَ اِذْ كَانُوا اِنَّمَا يَعْتَمِدُونَ ٱلضَّمَائِرَ فَقَطْ وَاِمَّا بِتَأْجِيلِ ٱلْاَيَامِ كَالْحَالِ عِنْدَنَا اِذْ كَانَ ٱلْمُعْتَمَدُ فِي ٱلْخُصُومَاتِ عِنْدَنَا اِنَّمَا هِيَ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلْمُقْنِعَةُ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ وَلِذٰلِكَ لَوْ كَانَتْ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ بِٱلْمُنَاظَرَةِ لَكَانَ يُحْتَاجُ فِيهَا اِلَى تَقْدِيرِ زَمَانِ ٱلْمُنَاظَرَةِ بِسَاعَاتِ ٱلْمَاءِ اَوْ غَيْرِهَا. لٰكِنْ لَمَّا لَمْ يَكُنِ ٱلْاَمْرُ كَذٰلِكَ وَجَبَ اَنْ يَكُونَ لِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ حَدٌّ طَبِيعِيٌّ كَالْحَالِ فِي ٱلْاَقْدَارِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ لِلْاُمُورِ ٱلْمَوْجُودَةِ وَذٰلِكَ اَنَّهُ كَمَا اَنَّ جَمِيعَ ٱلْمُتَكَوِّنَاتِ اِذْ لَمْ يَعُقْهَا فِي حَالِ ٱلْكَوْنِ سُوءُ ٱلْبَخْتِ صَارَتْ اِلَى عِظَمٍ مَحْدُودٍ بِٱلطَّبْعِ كَذٰلِكَ يَجِبُ اَنْ تَكُونَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَبِخَاصَّةٍ فِي صِنْفَيِ ٱلْمُحَاكَاةِ اَعْنِي ٱلَّتِي يُنْتَقَلُ فِيهَا مِنَ ٱلضِّدِّ اِلَى ٱلضِّدِّ اَوْ يُحَاكَى فِيهَا ٱلشَّيْءُ نَفْسُهُ مِنْ غَيْرِ اَنْ يُنْتَقَلَ اِلَى ضِدِّهِ (قَالَ) وَرُبَّمَا يُحَسَّنُ بِهِ قِوَامُ ٱلشِّعْرِ اَلَّا يُطَوَّلَ فِيهِ بِذِكْرِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلَّتِي تَعْرِضُ لِلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْمَقْصُودِ بِٱلشِّعْرِ فَاِنَّ ٱلشَّيْءَ ٱلْوَاحِدَ تَعْرِضُ لَهُ اَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ وَكَذٰلِكَ يُوجَدُ لِلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْمُشَارِ اِلَيْهِ اَفْعَالٌ كَثِيرَةٌ (قَالَ) وَيُشْبِهُ اَنْ يَكُونَ جَمِيعُ ٱلشُّعَرَاءِ لَا يَتَحَفَّظُونَ بِهٰذَا بَلْ يَنْتَقِلُونَ مِنْ شَيْءٍ اِلَى شَيْءٍ وَلَا يَلْزَمُونَ غَرَضًا وَاحِدًا بِعَيْنِهِ مَا عَدَا اُومِيرُوسَ. وَاَنْتَ تَجِدُ هٰذَا كَثِيرًا مَا يَعْرِضُ فِي اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُحْدَثِينَ وَبِخَاصَّةٍ عِنْدَ ٱلْمَدْحِ اَعْنِي اَنَّهُ اِذَا عَنَّ لَهُمْ شَيْءٌ مَا مِنْ اَسْبَابِ ٱلْمَمْدُوحِ مِثْلُ سَيْفٍ اَوْ قَوْسٍ اَشْتَغَلُوا بِمُحَاكَاتِهِ وَاَضْرَبُوا عَنْ ذِكْرِ ٱلْمَمْدُوحِ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَيَجِبُ اَنْ تَكُونَ ٱلصِّنَاعَةُ تَتَشَبَّهُ بِٱلطَّبِيعَةِ

اَعْنِي اَنْ تَكُونَ اِنَّمَا تَفْعَلُ جَمِيعَ مَا تَفْعَلُهُ مِنْ اَجْلِ غَرَضٍ وَاحِدٍ وَغَايَةٍ وَاحِدَةٍ. وَاِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَوَاجِبٌ اَنْ يَكُونَ اَلتَّشْبِيهُ وَاَلْمُحَاكَاةُ لِوَاحِدٍ وَمَقْصُودًا بِهِ غَرَضٌ وَاحِدٌ وَاَنْ يَكُونَ لِاَجْزَائِهِ عِظَمٌ مَحْدُودٌ وَاَنْ يَكُونَ فِيهَا مَبْدَأٌ وَوَسَطٌ وَاٰخِرٌ وَاَنْ يَكُونَ اَلْوَسَطُ اَفْضَلَهَا فَاِنَّ اَلْمَوْجُودَاتِ اَلَّتِي وُجُودُهَا فِي اَلتَّرْتِيبِ وَحُسْنِ اَلنِّظَامِ اِذَا عَدِمَتْ تَرْتِيبَهَا لَمْ يُوجَدْ لَهَا اَلْفِعْلُ اَلْخَاصُّ بِهَا. (قَالَ) وَظَاهِرٌ اَيْضًا مِمَّا قِيلَ مِنْ مَقْصَدِ اَلْاَقَاوِيلِ اَلشِّعْرِيَّةِ اَنَّ اَلْمُحَاكَاةَ اَلَّتِي تَكُونُ بِاَلْاُمُورِ اَلْمُخْتَرَعَةِ اَلْكَاذِبَةِ لَيْسَتْ مِنْ فِعْلِ اَلشَّاعِرِ وَهِيَ اَلَّتِي تُسَمَّى اَمْثَالًا وَقِصَصًا مِثْلُ مَا فِي كِتَابِ دِمْنَةَ وَكَلِيلَةَ. لٰكِنَّ اَلشَّاعِرَ اِنَّمَا يَتَكَلَّمُ فِي اَلْاُمُورِ اَلْمَوْجُودَةِ اَوِ اَلْمُمْكِنَةِ اَلْوُجُودِ لِاَنَّ هٰذِهِ هِيَ اَلَّتِي يُقْصَدُ اَلْهَرَبُ عَنْهَا اَوْ طَلَبُهَا اَوْ مُطَابَقَةُ اَلتَّشْبِيهِ لَهَا عَلَى مَا قِيلَ فِي فُصُولِ اَلْمُحَاكَاةِ. وَاَمَّا اَلَّذِينَ يَعْمَلُونَ اَلْاَمْثَالَ وَاَلْقِصَصَ فَاِنَّ عَمَلَهُمْ غَيْرُ عَمَلِ اَلشُّعَرَاءِ وَاِنْ كَانُوا قَدْ يَعْمَلُونَ تِلْكَ اَلْاَمْثَالَ وَاَلْاَحَادِيثَ اَلْمُخْتَرَعَةَ بِكَلَامٍ مَوْزُونٍ. وَذٰلِكَ اَنَّ كِلَيْهِمَا وَاِنْ كَانَا يَشْتَرِكَانِ فِي اَلْوَزْنِ فَاَحَدُهُمَا يَتِمُّ لَهُ اَلْعَمَلُ اَلَّذِي قَصَدَهُ بِاَلْخُرَافَةِ وَاِنْ لَمْ تَكُنْ مَوْزُونَةً وَهُوَ اَلتَّعَقُّلُ اَلَّذِي يُسْتَفَادُ مِنَ اَلْاَحَادِيثِ اَلْمُخْتَرَعَةِ وَاَلشَّاعِرُ لَا يَحْصُلُ لَهُ مَقْصُودُهُ عَلَى اَلتَّمَامِ مِنَ اَلتَّخْيِيلِ اِلَّا بِاَلْوَزْنِ فَاَلْفَاعِلُ لِلْاَمْثَالِ اَلْمُخْتَرَعَةِ وَاَلْقِصَصِ اِنَّمَا يَخْتَرِعُ اَشْخَاصًا لَيْسَ لَهَا وُجُودٌ اَصْلًا وَيَضَعُ لَهَا اَسْمَاءً وَاَمَّا اَلشَّاعِرُ فَاِنَّمَا يَضَعُ اَسْمَاءً لِاَشْيَاءَ مَوْجُودَةٍ وَرُبَّمَا تَكَلَّمُوا فِي اَلْكُلِّيَّاتِ وَلِذٰلِكَ كَانَتْ صِنَاعَةُ اَلشِّعْرِ اَقْرَبَ اِلَى اَلْفَلْسَفَةِ مِنْ صِنَاعَةِ اِخْتِرَاعِ اَلْاَمْثَالِ وَهٰذَا اَلَّذِي

قَالَهُ هُوَ بِحَسَبِ عَادَتِهِمْ فِي ٱلشِّعْرِ ٱلَّذِي يُشْبِهُ اَنْ يَكُونَ هُوَ ٱلْاَمْرَ ٱلطَّبِيعِيَّ لِلْاُمَمِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ (قَالَ) وَاَكْثَرُ مَا يَجِبُ اَنْ يُعْتَمَدَ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ اَنْ تَكُونَ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلْمُحَاكِيَاتُ اُمُورًا مَوْجُودَةً لَا اُمُورًا لَهَا اَسْمَاءٌ مُخْتَرَعَةٌ فَاِنَّ ٱلْمَدِيحَ اِنَّمَا يَتَوَجَّهُ نَحْوَ ٱلتَّحْرِيكِ اِلَى ٱلْاَفْعَالِ ٱلْاِرَادِيَّةِ فَاِذَا كَانَتِ ٱلْاَفْعَالُ مُمْكِنَةً كَانَ ٱلْاِقْنَاعُ فِيهَا اَكْثَرَ وُقُوعًا اَعْنِي ٱلتَّصْدِيقَ ٱلشِّعْرِيَّ ٱلَّذِي يُحَرِّكُ ٱلنَّفْسَ اِلَى ٱلطَّلَبِ وَٱلْهَرَبِ. وَاَمَّا ٱلْاَشْيَاءُ ٱلْغَيْرُ ٱلْمَوْجُودَةِ فَلَيْسَ تُوضَعُ وَتُخْتَرَعُ لَهَا اَسْمَاءٌ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ اِلَّا اَقَلَّ ذٰلِكَ مِثْلَ وَضْعِهِمِ ٱلْجُودَ شَخْصًا ثُمَّ يَضَعُونَ اَفْعَالًا لَهُ وَيُحَاكُونَهَا وَيُطْنِبُونَ فِي مَدْحِهِ. وَهٰذَا ٱلنَّحْوُ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ وَاِنْ كَانَ قَدْ يُنْتَفَعُ بِهِ مَنْفَعَةً غَيْرَ يَسِيرَةٍ لِمُنَاسَبَةِ اَفْعَالِ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلْمُخْتَرَعِ وَاَنْفِعَالَاتِهِ لِلْاُمُورِ ٱلْمَوْجُودَةِ فَلَيْسَ يَنْبَغِي اَنْ يُعْتَمَدَ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ فَاِنَّ هٰذَا ٱلنَّحْوَ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ لَيْسَ مِمَّا يُوَافِقُ جَمِيعَ ٱلطِّبَاعِ بَلْ قَدْ يَضْحَكُ مِنْهُ وَيَزْدَرِيهِ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ. وَمِنْ جَيِّدِ مَا فِي هٰذَا ٱلْبَابِ لِلْعَرَبِ وَاِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ قَوْلُ ٱلْاَعْشَى:

لَعَمْرِي لَقَدْ لَاحَتْ عُيُونٌ نَوَاظِرُ ... اِلَى ضَوْءِ نَارٍ بِٱلْيَفَاعِ تُحَرِّقُ
تُشَبُّ لِقُرُورَيْنِ يَصْطَلِيَانِهَا ... وَبَاتَ عَلَى ٱلنَّارِ ٱلنَّدَى وَٱلْمُحَلَّقُ
رَضِيعَيْ لِبَانٍ ثَدْيَ اُمٍّ تَحَالَفَا ... بِاَسْحَمَ دَاجٍ عَوْضُ لَا نَتَفَرَّقُ

وَاِذَا كَانَ هٰذَا هٰكَذَا فَظَاهِرٌ اَنَّ ٱلشَّاعِرَ اِنَّمَا يَكُونُ شَاعِرًا بِعَمَلِ ٱلْخُرَافَاتِ وَٱلْاَوْزَانِ بِقَدْرِ مَا يَكُونُ قَادِرًا عَلَى عَمَلِ ٱلتَّشْبِيهِ

وَٱلْمُحَاكَاةِ وَهُوَ إِنَّمَا يَعْمَلُ ٱلتَّشْبِيهَ لِلْأُمُورِ ٱلْإِرَادِيَّةِ ٱلْمَوْجُودَةِ وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِهِ ٱنْ يُحَاكِيَ ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي هِيَ مَوْجُودَةٌ فَقَطْ بَلْ وَقَدْ يُحَاكِي ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا ٱنَّهَا مُمْكِنَةُ ٱلْوُجُودِ وَهُوَ فِي ذٰلِكَ شَاعِرٌ لَيْسَ بِدُونِ مَا هُوَ فِي مُحَاكَاةِ ٱلْأُمُورِ ٱلْمَوْجُودَةِ مِنْ قِبَلِ ٱنَّهُ لَيْسَ مَانِعٌ يَمْنَعُ ٱنْ نُوجَدَ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءُ عَلَى مِثْلِ حَالِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْآنَ مَوْجُودَةٌ فَلَيْسَ يَحْتَاجُ فِي ٱلتَّخْيِيلِ ٱلشِّعْرِيِّ إِلَى مِثْلِ هٰذِهِ ٱلْخُرَافَاتِ ٱلْمُخْتَرَعَةِ وَلَا ٱيْضًا يَحْتَاجُ ٱلشَّاعِرُ ٱلْمُفْلِقُ ٱنْ تَتِمَّ مُحَاكَاتُهُ بِٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ وَهُوَ ٱلَّذِي يُدْعَى نِفَاقًا وَٱخْذًا بِٱلْوُجُوهِ فَإِنَّ ذٰلِكَ إِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُ ٱلْمَوْهُونَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ اَعْنِي ٱلَّذِينَ يَرَوْنَ ٱنَّهُمْ شُعَرَاءُ وَلَيْسُوا شُعَرَاءَ. وَاَمَّا ٱلشُّعَرَاءُ بِٱلْحَقِيقَةِ فَلَيْسَ يَسْتَعْمِلُونَهُ إِلَّا عِنْدَ مَا يُرِيدُونَ ٱنْ يُقَابِلُوا بِهِ ٱسْتِعْمَالَ شُعَرَاءِ ٱلزُّورِ لَهُ وَاَمَّا إِذَا قَابَلُوا ٱلشُّعَرَاءَ ٱلْمُجِيدِينَ فَلَيْسَ يَسْتَعْمِلُونَهُ اَصْلًا. وَقَدْ يُضْطَرُّ ٱلْمُفْلِقُونَ فِي مَوَاضِعَ ٱنْ يَسْتَعِينُوا بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْخَارِجَةِ عَنْ عَمُودِ ٱلشِّعْرِ مِنْ قِبَلِ ٱنَّ ٱلْمُحَاكَاةَ لَيْسَ تَكُونُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ لِلْأَشْيَاءِ ٱلْكَامِلَةِ ٱلَّتِي تُمْكِنُ مُحَاكَاتُهَا عَلَى ٱلتَّمَامِ بَلْ لِأَشْيَاءَ نَاقِصَةٍ تَعْسُرُ مُحَاكَاتُهَا بِٱلْقَوْلِ فَيَسْتَعِينُ عَلَى مُحَاكَاتِهَا بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ وَبِخَاصَّةٍ اِذَا قَصَدُوا مُحَاكَاةَ ٱلِٱعْتِقَادَاتِ لِأَنَّ تَخْيِيلَهَا يَعْسُرُ إِنْ كَانَتْ لَيْسَتْ اَفْعَالًا وَلَا جَوَاهِرَ وَقَدْ تُمْزَجُ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ بِٱلْمُحَاكِيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ اَحْيَانًا كَأَنَّهَا بِٱتِّفَاقٍ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ فَيَكُونُ لَهَا فِعْلٌ مُعْجِبٌ اِذَا كَانَتِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي شَأْنُهَا ٱنْ تَقَعَ بِٱتِّفَاقٍ مُعْجِبَةً

(قالَ) وكثيرٌ من الاقاويل الشعريّة تكون جودتها في المحاكاة البسيطة الغير المتفننة وكثيرٌ منها انّما تكون جودتها في نفس التشبيه والمحاكاة وذلك انّ الحال في التشبيه كالحال في الاعمال فكما انّ من الاعمال ما ينال بفعل واحد بسيط ومنها ما ينال بفعل مركّب كذلك الامر في المحاكاة. والمحاكاة البسيطة هي التي يستعمل فيها احد نوعي التخييل اعني النوع الذي يسمّى الادارة او النوع الذي يسمّى الاستدلال. واما المحاكاة المركّبة فهي التي يستعمل فيها الصنفان جميعًا وذلك اما بان يبتدأ بالادارة ثمّ ينتقل منه الى الاستدلال او يبتدأ بالاستدلال ثمّ ينتقل منه الى الادارة والاعتماد هو ان يبدأ بالادارة ثمّ ينتقل منه الى الاستدلال فانّه فرقٌ كبيرٌ بين ان يبدأ اوّلًا بالادارة ثمّ ينتقل الى الاستدلال او يبدأ بالاستدلال ثمّ ينتقل الى الادارة. (قالَ) واعني بالادارة محاكاة ضدّ المقصود مدحه اوّلًا بما ينفر النفس عنه ثمّ ينتقل منه الى محاكاة الممدوح نفسه مثلًا انّه اذا اراد ان يحاكي السعادة واهلها ابتدأ اوّلًا بمحاكاة الشقاوة واهلها ثمّ انتقل الى محاكاة اهل السعادة وذلك بضدّ ما حاكى به اهل الشقاوة. واما الاستدلال فهو محاكاة الشيء فقط (قالَ) واحسن الاستدلال ما خلط بالادارة. (قالَ) وقد يستعمل الاستدلال والادارة في الاشياء الغير المتنفسة وفي المتنفسة لا من جهة ما يقصد به عمل

اَوْ تَرْكٌ بَلْ مِنْ جِهَةِ ٱلتَّخْيِيلِ فَقَطْ اَعْنِي ٱلْمُطَابَقَةَ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلِاسْتِدْلَالِ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ ٱلْغَالِبُ عَلَى اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ اَعْنِي ٱلِاسْتِدْلَالَ وَٱلْاِدَارَةَ فِي غَيْرِ ٱلْمُتَنَفِّسَةِ وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ:

كَمْ زَوْرَةٍ لَكَ فِي ٱلْاَعْرَابِ خَافِيَةٍ
اَدْهَى وَقَدْ رَقَدُوا مِنْ زَوْرَةِ ٱلذِّيبِ
اَزُورُهُمْ وَسَوَادُ ٱللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي
وَاَنْثَنِي وَبَيَاضُ ٱلصُّبْحِ يُغْرِي بِي

فَاِنَّ ٱلْبَيْتَ ٱلْاَوَّلَ هُوَ ٱسْتِدْلَالٌ . وَٱلثَّانِي اِدَارَةٌ وَلَمَّا جَمَعَ هٰذَانِ ٱلْبَيْتَانِ صِنْفَيِ ٱلْمُحَاكَاةِ كَانَا فِي غَايَةٍ مِنَ ٱلْحُسْنِ (قَالَ) وَٱلِاسْتِدْلَالُ ٱلْاِنْسَانِيُّ وَٱلْاِدَارَةُ اِنَّمَا يُسْتَعْمَلَانِ فِي ٱلطَّلَبِ وَٱلْهَرَبِ وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلِاسْتِدْلَالِ هُوَ ٱلَّذِي يُثِيرُ فِي ٱلنَّفْسِ ٱلرَّحْمَةَ تَارَةً وَٱلْخَوْفَ تَارَةً وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي نَحْتَاجُ اِلَيْهِ فِي صِنَاعَةِ مَدِيحِ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْاِنْسَانِيَّةِ ٱلْجَمِيلَةِ وَهَجْوِ ٱلْقَبِيحَةِ (قَالَ) فَهَذَانِ ٱلْجُزْءَانِ ٱللَّذَانِ اَخْبَرْنَا عَنْهُمَا هُمَا جُزْءَا صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَهَا هُنَا جُزْءٌ ثَالِثٌ وَهُوَ ٱلْجُزْءُ ٱلَّذِي يُولِّدُ ٱلِانْفِعَالَاتِ ٱلنَّفْسَانِيَّةَ اَعْنِي ٱلِانْفِعَالَاتِ ٱلْخَوْفِ وَٱلرَّحْمَةِ وَٱلْحُزْنِ وَهُوَ يَكُونُ بِذِكْرِ ٱلْمَصَائِبِ وَٱلرَّزَايَا ٱلنَّازِلَةِ بِٱلنَّاسِ فَاِنَّ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءَ هِيَ ٱلَّتِي تَبْعَثُ ٱلرَّحْمَةَ وَٱلْخَوْفَ وَهُوَ جُزْءٌ عَظِيمٌ مِنْ اَجْزَاءِ ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلْاَفْعَالِ ٱلَّتِي هِيَ مَقْصُودَةُ ٱلْمَدِيحِ عِنْدَهُمْ

البحث السادس

في اجزاء صناعة المديح من جهة الكمية

(من الكتاب نفسه)

(قال) فاما اجزاء صناعة المديح من باب الكيفية فقد تكلمنا فيها. واما اجزاؤها من جهة الكمية فينبغي ان نتكلم فيها وهو يذكر في هذا المعنى اجزاء خاصة باشعارهم والذي يوجد منها في اشعار العرب فهو ثلاثة. الجزء الذي يجري عندهم مجرى الصدر في الخطبة وهو الذي فيه يذكرون الديار والآثار ويتغزلون فيه والجزء الثاني المدح. والجزء الثالث الذي يجري مجرى الخاتمة في الخطبة وهذا الجزء اكثر ما هو عندهم اما دعاء للممدوح واما في تقريض الشعر الذي قاله والجزء الاول اشهر من هذا الآخر ولذلك يسمون الانتقال من الجزء الاول الى الثاني استطرادا وربما اتوا بالمديح دون صدر. مثل قول ابي تمام:

لهان علينا ان نقول ونفعلا

ومثل قول ابي الطيب:

لكل امرىء من دهره ما تعودا

ولما فرغ من تعديد اجزاء الشعر عندهم (قال) فاما اجزاء صناعة المديح التي من جهة الكيفية والتي من جهة الكمية فقد

اَخْبَرْنَا بِهَا. فَاَمَّا مِنْ اٰيِ اَلْمَوَاضِعِ يُمْكِنُ عَمَلُ صِنَاعَةِ اَلْمَدِيحِ فَنَحْنُ مُخْبِرُونَ عَنْهَا بَعْدُ وَمُضِيفُونَ ذٰلِكَ اِلَى مَا تَقَدَّمَ (قَالَ) وَيَنْبَغِي كَمَا قِيلَ اَنْ لَا يَكُونَ تَرْكِيبُ اَلْمَدَائِحِ مِنْ مُحَاكَاةٍ بَسِيطَةٍ بَلْ مَخْلُوطَةٍ مِنْ اَنْوَاعِ اَلْاِسْتِدْلَالَاتِ وَاَنْوَاعِ اَلْاِدَارَةِ وَمِنَ اَلْمُحَاكَاةِ اَلَّتِي تُوجِبُ اَلْاِنْفِعَالَاتِ اَلْخَفِيفَةَ اَلْمُحَرِّكَةَ اَلْمُرَقِّقَةَ لِلنُّفُوسِ وَذٰلِكَ اَنَّهُ يَجِبُ اَنْ تَكُونَ اَلْمَدَائِحُ اَلَّتِي يُقْصَدُ بِهَا اَلْحَثُّ عَلَى اَلْفَضَائِلِ مُرَكَّبَةً مِنْ مُحَاكَاةِ اَلْفَضَائِلِ وَمِنْ مُحَاكَاةِ اَشْيَاءَ مُحْزِنَةٍ مُخْزِنَةٍ يُتَفَجَّعُ لَهَا وَهِيَ اَلشَّقَاوَةُ اَلَّتِي تَلْحَقُ مِنْ عَدَمِ اَلْفَضَائِلِ لَا بِاسْتِيهَالٍ وَذٰلِكَ اَنَّ بِهٰذِهِ اَلْاَشْيَاءِ يَشْتَدُّ تَحَرُّكُ اَلنَّفْسِ لِقَبُولِ اَلْفَضَائِلِ فَاِنَّ اَنْتِقَالَ اَلشَّاعِرِ مِنْ مُحَاكَاةٍ فَضِيلَةٍ اِلَى مُحَاكَاةٍ لَا فَضِيلَةٍ اَوْ مِنْ مُحَاكَاةِ فَاضِلٍ اِلَى مُحَاكَاةِ لَا فَاضِلٍ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِمَّا يَحُثُّ اَلْاِنْسَانَ وَيُزْعِجُهُ اِلَى فِعْلِ اَلْفَضَائِلِ اِذَا كَانَ لَيْسَ يُوجِبُ مَحَبَّةً لَهَا زَائِدَةً وَلَا خَوْفًا. وَاَلْاَقَاوِيلُ اَلْمَدِيحِيَّةُ يَجِبُ اَنْ يُوجَدَ فِيهَا هٰذَانِ اَلْاَمْرَانِ وَذٰلِكَ يَكُونُ اِذَا اُنْتُقِلَ مِنْ مُحَاكَاةِ اَلْفَضَائِلِ اِلَى مُحَاكَاةِ اَلشَّقَاوَةِ وَرَدَاءَةِ اَلْبَخْتِ اَلنَّازِلَةِ بِالْاَفَاضِلِ اَوِ اُنْتُقِلَ مِنْ هٰذِهِ اِلَى مُحَاكَاةِ اَهْلِ اَلْفَضَائِلِ فَاِنَّ هٰذِهِ اَلْمُحَاكَاةَ تُرِقُّ اَلنُّفُوسَ وَتَدْعُوهَا اِلَى قَبُولِ اَلْفَضَائِلِ وَاَنْتَ تَجِدُ اَكْثَرَ اَلْمُحَاكَاةِ اَلْوَاقِعَةِ فِي اَلْاَقَاوِيلِ اَلشَّرْعِيَّةِ عَلَى هٰذَا اَلنَّحْوِ اَلَّذِي ذُكِرَ اِذْ كَانَتْ تِلْكَ هِيَ اَقَاوِيلَ مَدِيحِيَّةً تَدُلُّ عَلَى اَلْعَمَلِ مِثْلُ مَا وَرَدَ مِنْ حَدِيثِ يُوسُفَ وَاِخْوَتِهِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ اَلْاَقَاصِيصِ اَلَّتِي تُسَمَّى مَوَاعِظَ (قَالَ) وَاِنَّمَا تَحْدُثُ اَلرَّحْمَةُ وَالرِّقَّةُ بِذِكْرِ حُدُوثِ اَلشَّقَاوَةِ

بِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ وَعَلَى غَيْرِ ٱلْوَاجِبِ . وَٱلْخَوْفُ إِنَّمَا يَحْدُثُ عِنْدَ
ذِكْرِ هٰذِهِ مِنْ قِبَلِ تَخَيُّلِ وُقُوعِ ٱلضَّارِّ بِمَنْ هُوَ دُونَهُمْ أَعْنِي بِنَفْسِ
ٱلسَّامِعِ إِذْ كَانَ أَحْرَى بِذٰلِكَ وَٱلْحُزْنُ وَٱلرَّحْمَةُ إِنَّمَا تَحْدُثُ عِنْدَ هٰذِهِ
مِنْ قِبَلِ وُقُوعِهَا بِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ وَإِذَا كَانَ ذِكْرُ ٱلْفَضَائِلِ مُفْرَدَةً لَا
يُوقِعُ فِي ٱلنَّفْسِ خَوْفًا مِنْ فَوَاتِهَا وَلَا رَحْمَةً وَمَحَبَّةً فَوَاجِبٌ عَلَى مَنْ
يُرِيدُ أَنْ يَحُثَّ عَلَى ٱلْفَضَائِلِ أَنْ يَجْعَلَ جُزْءًا مِنْ مُحَاكَاتِهِ لِلْأَشْيَاءِ
ٱلَّتِي تَبْعَثُ ٱلْحُزْنَ وَٱلْخَوْفَ وَٱلرَّحْمَةَ (قَالَ) وَلِذٰلِكَ ٱلْمَدَائِحُ ٱلْحِسَانُ
ٱلْمَوْجُودَةُ لِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ هِيَ ٱلْمَدَائِحُ ٱلَّتِي يُوجَدُ فِيهَا هٰذَا ٱلتَّرْكِيبُ
أَعْنِي ذِكْرَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُخْزِيَةِ ٱلْمُخَوِّفَةِ وَٱلْمُرَقِّقَةِ (قَالَ) وَلِذٰلِكَ
يُخْطِئُ ٱلَّذِينَ يَلُومُونَ مَنْ يَجْعَلُ أَحَدَ أَجْزَاءِ شِعْرِهِ هٰذِهِ ٱلْخُرَافَاتِ
وَمِنَ ٱلدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ ذٰلِكَ نَافِعٌ فِي ٱلْمَدِيحِ أَنَّ صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ
ٱلْجِهَادِيَّةَ قَدْ تَدْخُلُ فِيهَا ٱلْمُغْضِبَاتُ وَٱلْغَضَبُ هُوَ حُزْنٌ مَعَ حُبِّ
شَدِيدٍ لِلِانْتِقَامِ وَإِذْ كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَذِكْرُ ٱلرَّزَايَا وَٱلْمَصَائِبِ
ٱلنَّازِلَةِ بِأَهْلِ ٱلْفَضْلِ يُوجِبُ حُبًّا زَائِدًا لَهُمْ وَخَوْفًا مِنْ فَوَاتِ
ٱلْفَضَائِلِ فَأَمَّا مُحَاكَاةُ ٱلنَّقَائِصِ فِي ٱلْمَدَائِحِ فَقَدْ يُدْخِلُهَا قَوْمٌ فِيهَا
لِأَنَّ فِيهَا ضَرْبًا مِنَ ٱلْإِدَارَةِ لٰكِنَّ مُنَاسَبَةَ ذَمِّ ٱلنَّقَائِصِ لِصِنَاعَةِ
ٱلْهِجَاءِ أَكْثَرُ مِنْهَا لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَلِذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَخْيِيلُهَا
فِي ٱلْمَدَائِحِ عَلَى ٱلْقَصْدِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ مِنْ قِبَلِ ٱلْإِدَارَةِ وَإِذَا كَانَ
ٱلشِّعْرُ ٱلْمَدِيحِيُّ تُذْكَرُ فِيهِ ٱلنَّقَائِصُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِ ذِكْرُ
ٱلْأَعْدَاءِ ٱلْمُبْغِضِينَ وَٱلْمَدَائِحُ إِنَّمَا تُبْتَنَى عَلَى ذِكْرِ أَفْعَالِ ٱلْأَوْلِيَاءِ

وَٱلْأَصْدِقَاءِ. وَأَمَّا عَدُوُّ ٱلْعَدُوِّ أَوِ صَدِيقُ ٱلصَّدِيقِ فَلَيْسَ يُذْكَرُ لَا فِي ٱلْمَدْحِ وَلَا فِي ٱلذَّمِّ إِذْ كَانَ لَا صَدِيقًا وَلَا عَدُوًّا (قَالَ) وَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ ٱلْخُرَافَةُ ٱلْمُخْتَرَعَةُ ٱلْمُخْزِنَةُ مَخْرَجُهَا مَخْرَجَ مَا يَقَعُ تَحْتَ ٱلْبَصَرِ يُرِيدُ مِنْ وُقُوعِ ٱلتَّصْدِيقِ بِهَا لِأَنَّهُ إِذْ كَانَتِ ٱلْخُرَافَةُ مَشْكُوكًا فِيهَا أَوْ أُخْرِجَتْ مَخْرَجَ مَشْكُوكٍ فِيهَا لَمْ تَفْعَلِ ٱلْفِعْلَ ٱلْمَقْصُودَ بِهَا وَذٰلِكَ أَنَّ مَا لَا يُصَدِّقُهُ ٱلْمَرْءُ فَهُوَ لَا يَفْزَعُ مِنْهُ وَلَا يُشْفِقُ لَهُ. وَهٰذَا ٱلَّذِي ذُكِرَ هُوَ ٱلسَّبَبُ فِي أَنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يُصَدِّقُونَ بِٱلْقَصَصِ ٱلشَّرْعِيِّ يَصِيرُونَ أَرَاذِلَ لِأَنَّ ٱلنَّاسَ إِنَّمَا يَتَحَرَّكُونَ بِٱلطَّبْعِ لِأَحَدِ قَوْلَيْنِ إِمَّا قَوْلٍ بُرْهَانِيٍّ وَإِمَّا قَوْلٍ لَيْسَ بُرْهَانِيًا. وَهٰذَا ٱلصِّنْفُ ٱلْخَسِيسُ مِنَ ٱلنَّاسِ قَدْ عَدِمَ ٱلتَّحَرُّكَ عَنْ هٰذَيْنِ ٱلْقَوْلَيْنِ (قَالَ) وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يُدْخِلُ فِي ٱلْمَدَائِحِ مُحَاكَاةَ أَشْيَاءَ يُقْصَدُ بِهَا ٱلتَّعَجُّبُ فَقَطْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ مُخِيفَةً وَلَا مُخْزِنَةً وَأَنْتَ تَجِدُ مِثْلَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ كُلِّهَا كَثِيرًا فِي ٱلْمَكْتُوبَاتِ ٱلشَّرْعِيَّةِ إِذْ كَانَتْ مَدَائِحُ ٱلْفَضَائِلِ لَيْسَ تُوجَدُ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَإِنَّمَا تُوجَدُ فِي زَمَانِنَا هٰذَا فِي ٱلسُّنَنِ ٱلْمَكْتُوبَةِ (قَالَ) وَهٰذَا ٱلْفِعْلُ لَيْسَ فِيهِ مُشَارَكَةٌ لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ بِوَجْهٍ مِنَ ٱلْوُجُوهِ وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ يُقْصَدُ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ أَيُّ لَذَّةٍ ٱتَّفَقَتْ لٰكِنْ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا حُصُولُ ٱلِٱلْتِذَاذِ بِتَخْيِيلِ ٱلْفَضَائِلِ وَهِيَ ٱللَّذَّةُ ٱلْمُنَاسِبَةُ لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ (قَالَ) وَهُوَ مَعْلُومٌ مَا هِيَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَفْعَلُ ٱللَّذَّاتِ بِمُحَاكَاتِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَلْحَقَ عَنْ ذٰلِكَ حُزْنٌ وَلَا خَوْفٌ. وَأَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَلْحَقُ مَعَ ٱلِٱلْتِذَاذِ بِمُحَاكَاتِهَا

ٱلرَّحْمَةَ وَٱلْخَوْفَ فَإِنَّمَا يَقْدِرُ ٱلْإِنْسَانُ عَلَى ذٰلِكَ إِذَا ٱلْتَمَسَ . أَيَّ ٱلْأَشْيَاءِ هِيَ ٱلصَّعْبَةُ مِنَ ٱلنَّوَائِبِ ٱلَّتِي تَنُوبُ وَأَيُّ ٱلْأَشْيَاءِ هِيَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْيَسِيرَةُ ٱلْهَيِّنَةُ ٱلَّتِي لَيْسَ يَلْحَقُ عَنْهَا كِبَرُ حُزْنٍ وَلَا خَوْفٍ وَأَمْثَالُ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ هِيَ مَا يَنْزِلُ بِٱلْأَصْدِقَاءِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مِنْ قِبَلِ ٱلْإِرَادَةِ مِنَ ٱلرَّزَايَا وَٱلْمَصَائِبِ لَا مَا يَنْزِلُ بِٱلْأَعْدَاءِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ فَإِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَيْسَ يَحْزَنُ وَلَا يُشْفِقُ لِمَا يَنْزِلُ مِنَ ٱلسُّوءِ بِٱلْعَدُوِّ مِنْ عَدُوِّهِ كَمَا يَحْزَنُ وَيَخَافُ مِنَ ٱلسُّوءِ ٱلنَّازِلِ بِٱلصَّدِيقِ مِنْ صَدِيقِهِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَلْحَقُ عَنْ ذٰلِكَ أَلَمٌ فَلَيْسَ يَلْحَقُ مِثْلَ ٱلْأَلَمِ ٱلَّذِي يَلْحَقُ مِنَ ٱلسُّوءِ ٱلَّذِي يَنْزِلُ مِنَ ٱلْحَبِيبِينَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ مِثْلُ قَتْلِ ٱلْإِخْوَةِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَوْ قَتْلِ ٱلْآبَاءِ ٱلْأَبْنَاءَ أَوِ ٱلْأَبْنَاءِ ٱلْآبَاءَ وَلِهٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرْهُ كَانَ قَصَصُ إِبْرَاهِيمَ فِيمَا أُمِرَ فِي ٱبْنِهِ فِي غَايَةِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمُوجِبَةِ لِلْحُزْنِ وَٱلْخَوْفِ (قَالَ) وَٱلْمَدْحُ إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِٱلْأَفْعَالِ ٱلْفَاضِلَةِ ٱلَّتِي تَصْدُرُ عَنْ إِرَادَةٍ وَعِلْمٍ لِأَنَّ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ مَا يُفْعَلُ عَنْ إِرَادَةٍ وَعِلْمٍ وَمِنْهَا مَا يُفْعَلُ لَا عَنْ إِرَادَةٍ وَلَا عِلْمٍ وَمِنْهَا يُفْعَلُ عَنْ عِلْمٍ لَا عَنْ إِرَادَةٍ أَوْ عَنْ إِرَادَةٍ لَا عَنْ عِلْمٍ وَكَذٰلِكَ ٱلْأَفْعَالُ مِنْهَا مَا تَكُونُ لِمَنْ يَعْرِفُ وَلِمَنْ لَا يَعْرِفُ فَٱلْفِعْلُ إِذَا صَدَرَ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ وَلَا إِرَادَةٍ فَلَيْسَ يَدْخُلُ فِي بَابِ ٱلْمَدِيحِ وَكَذٰلِكَ إِذَا كَانَ صَادِرًا مِنْ غَيْرِ مَعْرُوفٍ لِأَنَّهُ يَكُونُ حِينَئِذٍ فِي ٱلْأُكْذُوبَاتِ أُدْخِلَ مِنْهُ فِي ٱلشِّعْرِ وَلَا يَجِبُ أَنْ يُحَاكَى . وَأَمَّا ٱلْأَفْعَالُ ٱلَّتِي لَا يُشَكُّ أَنَّهَا صَدَرَتْ عَنْ إِرَادَةٍ وَمَعْرِفَةٍ

وَعنْ مَعْرُوفِينَ فَمَا احْسَنَ ٱلِاسْتِدْلَالَ ٱلَّذِي يَكُونُ فِي هٰذِهِ ٱلْاَفْعَالِ (قَالَ) فَاَمَّا فِي حُسْنِ قِوَامِ ٱلْاُمُورِ ٱلَّتِي تُرَكَّبُ مِنْهَا ٱلْاَشْعَارُ وَكَيْفَ يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ تركيبُهَا فَقَدْ قُلْنَا فِي ذٰلِكَ قَوْلًا كَافِيًا فَاَمَّا اَيُّ ٱلْعَادَاتُ هِيَ ٱلْعَادَاتُ ٱلَّتِي يَنْبَغِي اَنْ تُحَاكَى فِي ٱلْمَدْحِ فَقَدْ يَجِبُ انْ نَقُولَ فِيهَا فَنَقُولُ اِنَّ ٱلْعَادَاتِ ٱلَّتِي تُحَاكَى عِنْدَ ٱلْمَدْحِ ٱلْجَيِّدِ اَعْنِي ٱلَّذِي يَحْسُنُ مَوْقِعُهَا مِنَ ٱلسَّامِعِينَ اَرْبَعَةٌ اِحْدَاهَا ٱلْعَادَاتُ ٱلَّتِي هِيَ خَيِّرَةٌ وَفَاضِلَةٌ فِي ذٰلِكَ ٱلْمَمْدُوحِ فَاِنَّ ٱلَّذِي يُؤَثِّرُ فِي ٱلنَّفْسِ هُوَ مُحَاكَاةُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْحَقِّ ٱلْمَوْجُودَةِ فِي ذٰلِكَ ٱلْمَمْدُوحِ وَكُلُّ جِنْسٍ فَفِيهِ خَيْرٌ مَا وَاِنْ كَانَ فِيهِ اَشْيَاءُ لَيْسَتْ خَيْرًا. وَٱلثَّانِيَةُ اَنْ تَكُونَ ٱلْعَادَاتُ مِنَ ٱلَّتِي تَلِيقُ بِٱلْمَمْدُوحِ وَتَصْلُحُ لَهُ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْعَادَاتِ ٱلَّتِي تَلِيقُ بِٱلْمَرْاَةِ لَيْسَتْ تَلِيقُ بِٱلرَّجُلِ. وَٱلثَّالِثَةُ اَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْعَادَاتِ ٱلْمَوْجُودَةِ فِيهِ عَلَى اَتَمِّ مَا يُمْكِنُ اَنْ تُوجَدَ فِيهِ مِنَ ٱلشَّبَهِ وَٱلْمُوَافَقَةِ. وَٱلرَّابِعَةُ اَنْ تَكُونَ مُعْتَدِلَةً مُتَوَسِّطَةً بَيْنَ ٱلْاَطْرَافِ وَاِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلْعَوَائِدَ ٱلرَّذْلَةَ لَيْسَ مِمَّا يُمْدَحُ بِهَا وَكَذٰلِكَ ٱلْعَوَائِدُ ٱلَّتِي لَا تَلِيقُ بِٱلْمَمْدُوحِ وَاِنْ كَانَتْ جِيَادًا وَكَذٰلِكَ ٱلْعَوَائِدُ ٱللَّائِقَةُ اِذَا لَمْ تُوجَدْ عَلَى اَتَمِّ مَا يُمْكِنُ فِيهَا مِنَ ٱلْمُشَابَهَةِ اَوْ لَمْ تُوجَدْ مُسْتَوْفَاةً وَٱلْعَوَائِدُ ٱلَّتِي هِيَ خَيْرٌ وَتَدُلُّ عَلَى ٱلْخُلُقِ ٱلْخَيِّرِ ٱلْفَاضِلِ مِنْهَا مَا هِيَ كَذٰلِكَ فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَمِنْهَا مَا هِيَ كَذٰلِكَ فِي ٱلْمَشْهُورِ وَمِنْهَا مَا هِيَ شَبِيهَةٌ بِهٰذَيْنِ وَٱلْعَوَائِدُ ٱلْجِيَادُ اِمَّا حَقِيقِيَّةٌ وَاِمَّا شَبِيهَةٌ بِٱلْحَقِيقِيَّةِ وَاِمَّا مَشْهُورَةٌ اَوْ شَبِيهَةٌ بِٱلْمَشْهُورَةِ وَكُلُّ

هٰذِهِ تَدْخُلُ فِي ٱلْمَدْحِ (قَالَ) وَيَجِبُ ٱنْ تَكُونَ خَوَاتِمُ ٱلْاَشْعَارِ وَٱلْقَصَائِدِ تَدُلُّ بِاِجْمَالٍ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ ٱلْعَوَائِدِ ٱلَّتِي وَقَعَ ٱلْمَدْحُ بِهَا كَٱلْحَالِ فِي خَوَاتِمِ ٱلْخُطَبِ وَٱنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ لَا يُورِدُ فِي شِعْرِهِ مِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلْخَارِجَةِ عَنِ ٱلْقَوْلِ اِلَّا بِقَدْرِ مَا يَحْتَمِلُهُ ٱلْمُخَاطَبُونَ مِنْ ذٰلِكَ حَتَّى لَا يُنْسَبَ فِي ذٰلِكَ اِلَى ٱلْغُلُوِّ وَٱلْخُرُوجِ عَنْ طَرِيقَةِ ٱلشِّعْرِ وَلَا اِلَى ٱلتَّقْصِيرِ (قَالَ) وَٱلتَّشْبِيهُ وَٱلْمُحَاكَاةُ هِيَ مَدَائِحُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي فِي غَايَةِ ٱلْفَضِيلَةِ فَكَمَا اَنَّ ٱلْمُصَوِّرَ ٱلْحَاذِقَ يُصَوِّرُ ٱلشَّيْءَ بِحَسَبِ مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي ٱلْوُجُودِ حَتَّى اَنَّهُمْ قَدْ يُصَوِّرُونَ ٱلْغِضَابَ وَٱلْكَسَالَى مَعَ اَنَّهَا صِفَاتٌ نَفْسَانِيَّةٌ كَذٰلِكَ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ فِي مُحَاكَاتِهِ يُصَوِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِحَسَبِ مَا هُوَ عَلَيْهِ حَتَّى يُحَاكِيَ ٱلْاَخْلَاقَ وَاَحْوَالَ ٱلنَّفْسِ وَذَكَرَ مِثَالَ ذٰلِكَ فِي شِعْرِ لِاُومِيرُوسَ قَالَهُ فِي صِفَةِ قَضِيَّةٍ عَرَضَتْ لِرَجُلٍ. وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّحْوِ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ اَعْنِي ٱلَّذِي يُحَاكِي حَالَ ٱلنَّفْسِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ يَصِفُ رَسُولَ ٱلرُّومِ ٱلْوَاصِلَ اِلَى سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ:

اَتَاكَ يَكَادُ ٱلرَّأْسُ يَخْبِزُ عُنْقَهُ ... وَتَنْقَدُّ تَحْتَ ٱلذُّعْرِ مِنْهُ ٱلْمَفَاصِلُ

يُقَوِّمُ تَقْوِيمُ ٱلسِّمَاطَيْنِ مَشْيَهُ ... اِلَيْكَ اِذَا مَا عَوَّجَتْهُ ٱلْاَفَاكِلُ

(قَالَ) وَيَجِبُ عَلَى ٱلشَّاعِرِ اَنْ يَلْزَمَ فِي تَخْيِيلَاتِهِ وَمُحَاكَيَاتِهِ ٱلْاَشْيَاءَ ٱلَّتِي جَرَتِ ٱلْعَادَةُ بِاسْتِعْمَالِهَا فِي ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلَّا يَتَعَدَّى فِي ذٰلِكَ طَرِيقَةَ ٱلشِّعْرِ (قَالَ) وَاَنْوَاعُ ٱلِاسْتِدْلَالَاتِ ٱلَّتِي تَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى اَعْنِي ٱلْمُحَاكَاةَ ٱلْجَارِيَةَ مَجْرَى ٱلْجَوْدَةِ عَلَى ٱلطَّرِيقِ ٱلصِّنَاعِيِّ

اَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ فَمِنْهَا اَنْ تَكُونَ اَلْمُحَاكَاةُ لِاَشْيَاءَ مَحْسُوسَةٍ بِاَشْيَاءَ مَحْسُوسَةٍ مِنْ شَأْنِهَا اَنْ تُوقِعَ اَلشَّكَّ لِمَنْ يَنْظُرُ اِلَيْهَا وُتُوهِمُ اَنَّهَا هِيَ لِاَشْتِرَاكِهَا فِي اَحْوَالٍ مَحْسُوسَةٍ وَذٰلِكَ مِثْلُ تَشْبِيهِهِمْ لِبَعْضِ صُوَرِ اَلْكَوَاكِبِ سَرَطَانًا وَلِبَعْضِهَا مُمْسِكَ اَلْحَرْبَةِ لِاَنَّهَا مِنْ جِهَةِ اَلشَّكْلِ يُمْكِنُ اَنْ يَتَوَهَّمَ مُتَوَهِّمٌ اَنَّهَا هِيَ هِيَ. وَجُلُّ تَشْبِيهَاتِ اَلْعَرَبِ رَاجِعَةٌ اِلَى هٰذَا اَلْمَوْضِعِ وَلِذٰلِكَ كَانَتْ حُرُوفُ اَلتَّشْبِيهِ عِنْدَهُمْ تَقْتَضِي اَلشَّكَّ وَكُلَّمَا كَانَتْ هٰذِهِ اَلْمُتَوَهَّمَاتُ اَقْرَبَ اِلَى وُقُوعِ اَلشَّكِّ كَانَتْ اَتَمَّ تَشْبِيهًا وَكُلَّمَا كَانَتْ اَبْعَدَ مِنْ وُقُوعِ اَلشَّكِّ كَانَتْ اَنْقَصَ تَشْبِيهًا وَهٰذِهِ هِيَ اَلْمُحَاكَاةُ اَلْبَعِيدَةُ وَيَنْبَغِي اَنْ تُطْرَحَ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ اِمْرِىءِ اَلْقَيْسِ فِي اَلْفَرَسِ:

كَاَنَّهَا هِرَاوَةُ مِنْوَالِ

وَمِثْلُ قَوْلِهِ:

اِذَا اَقْبَلَتْ قُلْتُ دُبَّاءَةٌ مِنَ اَلْخُضْرِ مَغْمُوسَةٌ فِي اَلْغُدُرْ
وَاِنْ اَدْبَرَتْ قُلْتُ اُثْفِيَّةٌ مُلَمْلَمَةٌ لَيْسَ فِيهَا اَثَرْ

وَاِنْ كَانَ هٰذَا اَقْرَبَ مِنَ اَلْاَوَّلِ لِاَنَّ فِيهِ مُقَابَلَةً مَا. وَمِنْهَا اَنْ تَكُونَ اَلْمُحَاكَاةُ لِاُمُورٍ مَعْنَوِيَّةٍ بِاُمُورٍ مَحْسُوسَةٍ اِذْ كَانَ لِتِلْكَ اَلْاُمُورِ اَفْعَالٌ مُنَاسِبَةٌ لِتِلْكَ اَلْمَعَانِي حَتَّى تُوهِمَ اَنَّهَا هِيَ مِثْلُ قَوْلِهِمْ فِي اَللُّغَةِ اِنَّهَا طَوْقُ اَلْعُنُقِ وَفِي اَلْاِحْسَانِ قَيْدٌ كَمَا قَالَ اَبُو اَلطَّيِّبِ:

وَمَنْ وَجَدَ اَلْاِحْسَانَ قَيْدًا تَقَيَّدَا

وَهٰذَا كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَمِنْهُ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

قَيْدِ ٱلْأَوَابِدِ هَيْكَلِ

وَمَا كَانَ مِنْ هٰذِهِ أَيْضًا غَيْرَ مُنَاسِبٍ وَلَا شَبِيهٍ فَيَنْبَغِي أَنْ يُطْرَحَ وَهٰذَا كَثِيرًا مَا يُوجَدُ فِي أَشْعَارِ ٱلْمُحْدَثِينَ وَبِخَاصَّةٍ فِي شِعْرِ أَبِي تَمَّامٍ مِثْلُ قَوْلِهِ:

لَا تَسْقِنِي مَاءَ ٱلْمَلَامِ

فَإِنَّ ٱلْمَاءَ غَيْرُ مُنَاسِبٍ لِلْمَلَامِ. وَأَسْخَفُ مِنْ هٰذَا قَوْلُهُ:

كُتُبَ ٱلْمَوْتِ رَائِبًا وَحَلِيبَا

وَكَمَا أَنَّ ٱلْبَعِيدَ ٱلْوُجُودِ هَا هُنَا مُطَّرَحٌ كَذٰلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ٱلتَّشْبِيهُ بِٱلْخَسِيسِ ٱلْوُجُودِ مُطَّرَحًا أَيْضًا وَأَنْ يَكُونَ ٱلتَّشْبِيهُ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْفَاضِلَةِ. فَمِثَالُ تَشْبِيهِ ٱلشَّرِيفِ بِٱلْخَسِيسِ قَوْلُ ٱلرَّاجِزِ:

وَٱلشَّمْسُ مَائِلَةٌ وَلَمَّا تَفْعَلِ فَكَأَنَّهَا فِي ٱلْأُفْقِ عَيْنُ ٱلْأَحْوَلِ

وَكَمَا قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ يَمْدَحُ سَيْفَ ٱلدَّوْلَةِ:

وَقَدْ عَلِمَ ٱلرُّومُ ٱلشَّقِيُّونَ أَنَّهُمْ سَتَلْقَاهُمُ يَوْمًا وَتَلْقَى ٱلدُّمُسْتُقَا

وَكَانُوا كَفَارٍ وَشَوْشُوا خَلْفَ حَائِطٍ وَكُنْتَ كَسِنَّوْرٍ عَلَيْهِمْ تَسَلَّقَا

قَالَ وَهُنَا نَوْعٌ آخَرُ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَهِيَ ٱلْأَشْعَارُ ٱلَّتِي هِيَ فِي بَابِ ٱلتَّصْدِيقِ وَٱلْإِقْنَاعِ أُدْخِلَ مِنْهَا فِي بَابِ ٱلتَّخْيِيلِ وَهِيَ أَقْرَبُ إِلَى ٱلْمَقَالَاتِ ٱلْخَطَابِيَّةِ مِنْهَا إِلَى ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَهٰذَا ٱلْجِنْسُ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ مِنَ ٱلشِّعْرِ هُوَ كَثِيرٌ فِي شِعْرِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ مِثْلُ قَوْلِهِ:

لَيْسَ ٱلتَّكَحُّلُ فِي ٱلْعَيْنَيْنِ كَٱلْكَحَلِ

وَقَوْلِهِ :

فِي طَلْعَةِ ٱلشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى قَوْلُ أَبِي فِرَاسٍ :

وَنَحْنُ أُنَاسٌ لَا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا لَنَا ٱلصَّدْرُ دُونَ ٱلْعَالَمِينَ أَوِ ٱلْقَبْرُ
تَهُونُ عَلَيْنَا فِي ٱلْمَعَالِي نُفُوسُنَا وَمَنْ خَطَبَ ٱلْحَسْنَاءَ لَمْ يَغْلُهُ ٱلْمَهْرُ

(قَالَ) وَٱلنَّوْعُ ٱلثَّالِثُ مِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ هِيَ ٱلْمُحَاكَاةُ ٱلَّتِي تَقَعُ بِٱلتَّذَكُّرِ وَذٰلِكَ أَنْ يُورِدَ ٱلشَّاعِرُ شَيْئًا يُتَذَكَّرُ بِهِ شَيْءٌ آخَرُ مِثْلَ أَنْ يَرَى ٱلْإِنْسَانُ خَطَّ إِنْسَانٍ فَيَتَذَكَّرُهُ فَيَحْزَنُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مَيِّتًا أَوْ يَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ إِنْ كَانَ حَيًّا وَهٰذَا مَوْجُودٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ كَثِيرًا مِثْلُ قَوْلِ مُتَمِّمِ بْنِ نُوَيْرَةَ :

وَقَالُوا أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ لِقَبْرٍ ثَوَى بَيْنَ ٱللِّوَى وَٱلدَّكَادِكِ
فَقُلْتُ لَهُمْ إِنَّ ٱلْأَسَى يَبْعَثُ ٱلْأَسَى دَعُونِي فَهٰذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ

وَمِنْهُ قَوْلُ قَيْسٍ ٱلْمَجْنُونِ :

وَدَاعٍ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِٱلْخَيْفِ مِنْ مِنًى فَهَيَّجَ أَحْزَانَ ٱلْفُؤَادِ وَمَا يَدْرِي
دَعَا بِٱسْمِ لَيْلَى غَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا أَطَارَ بِلَيْلَى طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِي

وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ ٱلْخَنْسَاءِ :

يُذَكِّرُنِي طُلُوعُ ٱلشَّمْسِ صَخْرًا وَأَذْكُرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسِ

وَقَوْلُ ٱلْهُذَلِيِّ :

أَبَى الصَّبْرُ إِنِّي لَا يَزَالُ يَهِيجُنِي ... مَيِتٌ لَنَا فِيمَا مَضَى وَمَقِيلُ
إِذَا مَا بَيَاضُ الصُّبْحِ آنَسْتُ ضَوْءَهُ ... يُعَاوِدُنِي جِنْحٌ عَلَيَّ ثَقِيلُ

وَهٰذَا النَّوْعُ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَمِنْ هٰذَا الْمَوْضِعِ تَذَكُّرُهَا الْأَحِبَّةَ بِالدِّيَارِ وَالْأَطْلَالِ كَمَا قَالَ:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

وَيَقْرُبُ مِنْ هٰذَا الْمَوْضِعِ مَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ الْعَرَبِ مِنْ تَذَكُّرِ الْأَحِبَّةِ بِالْخَيَالِ وَإِقَامَتِهِ مُقَامَ التَّخَيُّلِ كَمَا قَالَ شَاعِرُهُمْ:

وَإِنِّي لَأَسْتَغْشِي وَمَا بِيَ نَعْسَةٌ ... لَعَلَّ خَيَالًا مِنْكِ يَلْقَى خَيَالِيَا
وَأَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الْبُيُوتِ لَعَلَّنِي ... أُحَدِّثُ عَنْكِ النَّفْسَ فِي السِّرِّ خَالِيَا

وَتَصَرُّفُ الْعَرَبِ وَالْمُحْدَثِينَ فِي الْخَيَالِ مُتَفَنِّنٌ وَانْحَاءُ اسْتِعْمَالِهِمْ لَهُ كَثِيرَةٌ وَلِذٰلِكَ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمَوَاضِعِ الشِّعْرِيَّةِ الْخَاصَّةِ بِالنَّسِيبِ وَقَدْ يَدْخُلُ فِي الرِّثَاءِ كَمَا قَالَ الْبُحْتُرِيُّ:

خَلَا نَاظِرِي مِنْ طَيْفِهِ بَعْدَ شَخْصِهِ ... فَيَا عَجَبًا لِلدَّهْرِ فَقْدٌ عَلَى فَقْدِ

(قَالَ) وَأَمَّا النَّوْعُ الرَّابِعُ مِنَ الْمُحَاكَاةِ فَهُوَ أَنْ يُذْكَرَ أَنَّ شَخْصًا مَا شَبِيهٌ بِشَخْصٍ مِنْ ذٰلِكَ النَّوْعِ بِعَيْنِهِ وَهٰذَا التَّشْبِيهُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْخَلْقِ أَوِ الْخُلُقِ مِثْلَ قَوْلِ الْقَائِلِ جَاءَ شَبِيهُ يُوسُفَ وَلَمْ يَأْتِ إِلَّا فُلَانٌ وَمِنْ هٰذَا قَوْلُ امْرِئِ الْقَيْسِ:

وَتَعْرِفُ فِيهِ مِنْ أَبِيهِ شَمَائِلًا

وَالتَّصْرِيحُ بِالتَّشْبِيهِ خِلَافُ التَّشْبِيهِ فَإِنَّ التَّشْبِيهَ هُوَ إِيقَاعُ شَكٍّ وَالتَّصْرِيحَ بِالشَّبِيهِ بَيْنَ أَمْرَيْنِ هُوَ تَحْقِيقٌ لِوُجُودِ الشَّبَهِ وَهُوَ الْغَايَةُ فِي

مُطَابَقَةِ ٱلتَّخْيِيلِ اَعْنِي اِذْ قِيلَ شَبِيهُ فُلَانٍ (قَالَ) وَٱلنَّوْعُ ٱلْخَامِسُ هُوَ ٱلَّذِي يَسْتَعْمِلُهُ ٱلسُّوفُسْطَائِيُّونَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَهُوَ ٱلْغُلُوُّ ٱلْكَاذِبُ وَهٰذَا كَثِيرٌ فِي اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُحْدَثِينَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ:

تَقُدُّ ٱلسَّلُوقِيَّ ٱلْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ وَتُوقِدُ بِٱلصُّفَّاحِ نَارَ ٱلْحُبَاحِبِ

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ:

فَلَوْلَا ٱلرِّيحُ اُسْمِعَ مَنْ بِحَجْرٍ صَلِيلَ ٱلْبِيضِ تُقْرَعُ بِٱلذُّكُورِ

وَهٰذَا كُلُّهُ كَذِبٌ وَمِنْ هٰذَا قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ:

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانِ وَلَوْ كَانَ مِنْ اَعْدَائِكَ ٱلْقَمَرَانِ

وَقَوْلُهُ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ:

لَوِ ٱلْفَلَكَ ٱلدَّوَّارَ اَبْغَضْتَ سَيْرَهُ لَعَوَّقَهُ شَيْءٌ عَنِ ٱلدَّوَرَانِ

وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ اِمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

مِنَ ٱلْقَاصِرَاتِ ٱلطَّرْفَ لَوْ دَبَّ مُحْوِلٌ
مِنَ ٱلذَّرِّ فَوْقَ ٱلْاِتْبِ مِنْهَا لَاَثَّرَا

وَهٰذَا كَثِيرٌ مَوْجُودٌ فِي اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَلَيْسَ تَجِدُ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْعَزِيزِ مِنْهُ شَيْئًا اِذْ كَانَ يَتَنَزَّلُ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ مِنَ ٱلْقَوْلِ اَعْنِي ٱلشِّعْرَ مَنْزِلَةَ ٱلْكَلَامِ ٱلسُّوفُسْطَائِيِّ مِنَ ٱلْبُرْهَانِ وَلٰكِنْ قَدْ يُوجَدُ لِلْمَطْبُوعِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مِنْهُ شَيْءٌ مَحْمُودٌ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي:

وَاَنَّى ٱهْتَدَى هٰذَا ٱلرَّسُولُ بِاَرْضِهِ
وَمَا سَكَنَتْ مُذْ سِرْتَ فِيهَا ٱلْقَسَاطِلُ

وَمِنْ اَيِّ مَاءٍ كَانَ يَسْقِي جِيَادَهُ
وَلَمْ تَصْفُ مِنْ مَزْجِ ٱلدِّمَاءِ ٱلْمَاهِلُ

وَقَوْلِهِ :

لَبِسْنَ ٱلْوَشْيَ لَا مُتَجَمِّلَاتٍ وَلٰكِنْ كَيْ يَصُنَّ بِهِ ٱلْجَمَالَا
وَصُنَّ ٱلْغَدَائِرَ لَا لِحُسْنٍ وَلٰكِنْ خِفْنَ فِي ٱلشَّعَرِ ٱلضَّلَالَا

وَهَا هُنَا مَوْضِعٌ سَادِسٌ مَشْهُورٌ يَسْتَعْمِلُهُ ٱلْعَرَبُ وَهُوَ اِقَامَةُ ٱلْجَمَادَاتِ مُقَامَ ٱلنَّاطِقِينَ فِي مُخَاطَبَتِهِمْ وَمُرَاجَعَتِهِمْ اِذَا كَانَتْ فِيهَا اَحْوَالٌ تَدُلُّ عَلَى ٱلنُّطْقِ مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

وَاَجْهَشْتُ لِلتَّوْبَاذِ لَمَّا رَاَيْتُهُ وَكَبَّرَ لِلرَّحْمٰنِ حِينَ رَاٰنِي
فَقُلْتُ لَهُ اَيْنَ ٱلَّذِينَ عَهِدْتُهُمْ حَوَالَيْكَ فِي اَمْنٍ وَخَفْضِ زَمَانِ
فَقَالَ مَضَوْا وَٱسْتَوْدَعُونِي بِلَادَهُمْ وَمَنْ ذَا ٱلَّذِي يَبْقَى عَلَى ٱلْحَدَثَانِ

وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ مُخَاطَبَتُهُمُ ٱلدِّيَارَ وَٱلْاَطْلَالَ وَمُجَاوَبَتُهَا لَهُمْ كَقَوْلِ ذِي ٱلرُّمَّةِ :

وَاَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا اَبُثُّهُ تُكَلِّمُنِي اَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهْ

وَقَوْلِ عَنْتَرَةَ :

اَعْيَاكَ رَسْمُ ٱلدَّارِ لَمْ يَتَكَلَّمِ حَتَّى تَكَلَّمَ كَٱلْاَصَمِّ ٱلْاَعْجَمِ
يَا دَارَ عَبْلَةَ بِٱلْجِوَاءِ تَكَلَّمِي وَعِمِي صَبَاحًا دَارَ عَبْلَةَ وَٱسْلَمِي

اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يُشْبِهُ هٰذَا مِمَّا هُوَ كَثِيرٌ فِي اَشْعَارِهِمْ وَقَدْ ذَكَرَ هُوَ هٰذَا ٱلْمَوْضِعَ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ وَذَكَرَ اَنَّ اُومِيرُوسَ كَانَ يَعْتَمِدُهُ كَثِيرًا (قَالَ) وَٱلْاِسْتِدْلَالُ ٱلْفَاضِلُ وَٱلْاِدَارَةُ اِنَّمَا تَكُونُ لِلْاَفْعَالِ

ٱلْإِرَادِيَّةِ وَأَكْثَرُ مَا يُوجَدُ هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلِٱسْتِدْلَالِ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْعَزِيزِ أَعْنِي فِي مَدْحِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْفَاضِلَةِ وَذَمِّ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْغَيْرِ فَاضِلَةٍ وَهُوَ قَلِيلٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ. وَمِثَالُ ٱلْإِدَارَةِ فِي ٱلْمَدْحِ قَوْلُ ٱلْقُرْآنِ: ضَرَبَ ٱللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً إِلَى قَوْلِهِ: مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ. وَمِثَالُ ٱلِٱسْتِدْلَالِ. قَوْلُهُ: كَمِثْلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ٱلْآيَةَ. (قَالَ) وَإِجَادَةُ ٱلْقَصْصِ ٱلشِّعْرِيِّ وَٱلْبُلُوغُ بِهِ إِلَى غَايَةِ ٱلتَّمَامِ إِنَّمَا يَكُونُ مَتَى بَلَغَ ٱلشَّاعِرُ مِنْ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ أَوِ ٱلْقَضِيَّةِ ٱلْوَاقِعَةِ ٱلَّتِي يَصِفُهَا مَبْلَغًا يُرِي ٱلسَّامِعِينَ لَهُ كَأَنَّهُ مَحْسُوسٌ وَمَنْظُورٌ إِلَيْهِ وَيَكُونُ مَعَ هٰذَا ضِدُّهُ غَيْرَ ذَاهِبٍ عَلَيْهِمْ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْوَصْفِ وَهٰذَا يُوجَدُ كَثِيرًا فِي شِعْرِ ٱلْفُحُولِ وَٱلْمُفْلِقِينَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ لٰكِنْ إِنَّمَا يُوجَدُ هٰذَا ٱلنَّحْوُ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ لِلْعَرَبِ إِمَّا فِي أَفْعَالٍ غَيْرِ عَفِيفَةٍ وَإِمَّا فِيمَا ٱلْقَصْدُ مِنْهُ مُطَابَقَةُ ٱلتَّخْيِيلِ فَقَطْ فَمِثَالُ مَا وَرَدَ مِنْ ذٰلِكَ فِي ٱلْفُجُورِ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا ... سُمُوَّ حَبَابِ ٱلْمَاءِ حَالًا عَلَى حَالِ

فَقَالَتْ سَبَاكَ ٱللهُ إِنَّكَ فَاضِحِي ... أَلَسْتَ تَرَى ٱلسُّمَّارَ وَٱلنَّاسَ أَحْوَالِي

فَقُلْتُ يَمِينُ ٱللهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا ... وَلَوْ قَطَّعُوا رَأْسِي لَدَيْكِ وَأَوْصَالِي

وَمِثَالُ مَا وَرَدَ مِنْ ذٰلِكَ مِمَّا ٱلْقَصْدُ بِهِ مُطَابَقَةُ ٱلتَّشْبِيهِ فَقَطْ قَوْلُ ذِي ٱلرُّمَّةِ يَصِفُ ٱلنَّارَ:

وَسِقْطِ كَعَيْنِ ٱلدِّيكِ عَاوَرْتُ صُحْبَتِي ... أَبَاهَا وَهَيَّأْنَا لِمَوْقِعِهَا وَكْرَا

فَقُلْتُ لَهَا ٱرْفَعْهَا إِلَيْكَ وَأَحْيِهَا
بِرُوحِكَ وَٱقْتَتْهُ لَهَا قُتَّةً قِدْرَا
وَظَاهِرْ لَهَا مِنْ يَابِسِ ٱلشَّخْتِ وَٱسْتَعِنْ
عَلَيْهَا ٱلصَّبَا وَٱجْعَلْ يَدَيْكَ لَهَا سِتْرَا

وَقَدْ يُوجَدُ فِي أَشْعَارِهِمْ فِي وَصْفِ ٱلْأَحْوَالِ ٱلْوَاقِعَةِ مِثْلِ ٱلْحُرُوبِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَتَمَدَّحُونَ بِهِ وَٱلْمُتَنَبِّي أَفْضَلُ مَنْ يُوجَدُ لَهُ هٰذَا ٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِ وَلِذٰلِكَ يُحْكَى عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ لَا يُرِيدُ أَنْ يَصِفَ ٱلْوَقَائِعَ ٱلَّتِي لَمْ يَشْهَدْهَا مَعَ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ وَإِجَادَةُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ يَتَأَتَّى بِأَنْ يُحْصَلَ لِلْإِنْسَانِ أَوَّلًا جَمِيعُ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي فِي ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يَقْصِدُ وَصْفَهُ ثُمَّ يُرَكِّبَ عَلَى تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱلْأَجْزَاءَ ٱلثَّلَاثَةَ مِنْ أَجْزَاءِ ٱلشِّعْرِ أَعْنِي ٱلتَّخْيِيلَ وَٱلْوَزْنَ وَٱللَّحْنَ (قَالَ) وَتَعْدِيدُ مَوَاضِعِ ٱلِٱسْتِدْلَالَاتِ مِمَّا يَطُولُ وَإِنَّمَا أَشَارَ بِذٰلِكَ إِلَى كَثْرَتِهَا وَٱخْتِلَافِ ٱلْأُمَمِ فِيهَا (قَالَ) وَكُلُّ مَدِيحٍ فَمِنْهُ مَا فِيهِ رِبَاطٌ بَيْنَ أَجْزَائِهِ وَمِنْهُ مَا فِيهِ حَلٌّ وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ أَقْرَبَ ٱلْأَشْيَاءِ شَبَهًا بِٱلرِّبَاطِ ٱلْمَوْجُودِ فِي أَشْعَارِهِمْ هُوَ ٱلْجُزْءُ ٱلَّذِي يُسَمَّى عِنْدَنَا ٱلِٱسْتِطْرَادَ وَهُوَ رَبْطُ جُزْءِ ٱلنَّسِيبِ وَبِٱلْجُمْلَةِ صَدْرِ ٱلْقَصِيدَةِ بِٱلْجُزْءِ ٱلْمَدِيحِيِّ . وَٱلْحَلُّ تَفْصِيلُ ٱلْجُزْئَيْنِ أَحَدِهِمَا مِنَ ٱلْآخَرِ أَيْ يُؤْتَى بِهِمَا مُفَصَّلًا . وَأَكْثَرُ مَا يُوجَدُ ٱلرِّبَاطُ فِي أَشْعَارِ ٱلْمُحْدَثِينَ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

عَامِي وَعَامُ ٱلْعِيسِ بَيْنَ وَدِيقَةٍ مَنْجُورَةٍ وَتَنُوفَةٍ صَيْخُودِ

حَتَّى أُغَادِرَ كُلَّ يَوْمٍ بِالْفَلَا لِلطَّيْرِ عِيدًا مِنْ بَنَاتِ الْعِيدِ
هَيْهَاتِ مِنْهَا رَوْضَةٌ مَحْمُودَةٌ حَتَّى تُنَاخَ بِأَحْمَدَ الْمَحْمُودِ

وَكَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ:

مَرَّتْ بِنَا بَيْنَ تِرْبَيْهَا فَقُلْتُ لَهَا
مِنْ أَيْنَ جَالَسَ هٰذَا الشَّادِنُ الْعَرَبَا
فَاسْتَضْحَكَتْ ثُمَّ قَالَتْ كَالْمُغِيثِ يُرَى
لَيْثَ الشَّرَى وَهُوَ مِنْ عِجْلٍ إِذَا انْتَسَبَا

وَأَمَّا الْحَلُّ فَهُوَ مَوْجُودٌ كَثِيرًا فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ مِثْلُ قَوْلِ زُهَيْرٍ:

دَعْ ذَا وَعَدِّ الْقَوْلَ فِي هَرِمٍ

(قَالَ) وَأَنْوَاعُ الْمَدَائِحِ أَرْبَعَةٌ ثَلَاثَةٌ مِنْهَا بَسِيطَةٌ وَهِيَ الَّتِي تَقَدَّمَتْ أَحَدُهَا الْإِدَارَةُ. وَالثَّانِي الْاِسْتِدْلَالُ. وَالثَّالِثُ الْاِنْفِعَالُ (قَالَ) مِثْلُ مَا يُقَالُ فِي أَهْلِ النَّجِيمِ فَإِنَّ هٰذِهِ مُخْزِنَةٌ مُفْزِعَةٌ. وَالرَّابِعُ الْمُرَكَّبُ مِنْ هٰذِهِ إِمَّا مِنْ ثَلَاثَتِهَا وَإِمَّا مِنِ اثْنَيْنِ مِنْهَا وَيَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ أَمْثَالَ أَنْوَاعِ هٰذِهِ الْمَدَائِحِ الْأَرْبَعَةِ لِلْفِعْلِ الْإِرَادِيِّ الْفَاضِلِ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَإِنَّمَا هِيَ مَوْجُودَةٌ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ كَثِيرًا (قَالَ) وَمِنَ الشُّعَرَاءِ مَنْ يُجِيدُ الْقَوْلَ فِي الْقَصَائِدِ الْمُطَوَّلَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُجِيدُ الْأَشْعَارَ الْقِصَارَ وَالْقَصَائِدَ الْقَصِيرَةَ وَهِيَ الَّتِي تُسَمَّى عِنْدَنَا الْمُقَطَّعَاتِ وَالسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الشَّاعِرُ الْمُجِيدُ هُوَ الَّذِي يَصِفُ كُلَّ شَيْءٍ بِخَوَاصِّهِ وَعَلَى كُنْهِهِ وَكَانَتْ هٰذِهِ الْأَشْيَاءُ تَخْتَلِفُ بِالْكَثْرَةِ وَالْقِلَّةِ فِي شَيْءٍ شَيْءٍ مِنْ

ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَوْضُوعَةِ وَجَبَ اَنْ يَكُونَ ٱلتَّخْيِيلُ ٱلْفَاضِلُ هُوَ ٱلَّذِي لَا يَتَجَاوَزُ خَوَاصَّ ٱلشَّيْءِ وَلَا حَقِيقَتَهَا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ لَقَدِ ٱعْتَادَ اَوْ مَنْ فِطْرَتُهُ مُعَدَّةٌ نَحْوَ تَخْيِيلِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْقَلِيلَةِ ٱلْخَوَاصِّ فَهٰؤُلَاءِ تَجُودُ اَشْعَارُهُمْ فِي ٱلْمُقَطَّعَاتِ وَلَا تَجُودُ فِي ٱلْقَصَائِدِ وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ هُوَ عَلَى ضِدِّ هٰؤُلَاءِ وَهُمُ ٱلْمُقْصِدُونَ كَٱلْمُتَنَبِّيءِ وَحَبِيبٍ وَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَادُوا ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلْخَوَاصِّ اَوْ هُمْ بِفِطَرِهِمْ مُعَدُّونَ لِمُحَاكَاتِهَا اَوِ ٱجْتَمَعَ لَهُمُ ٱلْأَمْرَانِ جَمِيعًا (قَالَ) وَمِنَ ٱلتَّخْيِيلَاتِ وَٱلْمَعَانِي مَا يُنَاسِبُ ٱلْأَوْزَانَ ٱلطَّوِيلَةَ وَمِنْهَا مَا يُنَاسِبُ ٱلْقَصِيرَةَ وَرُبَّمَا كَانَ ٱلْوَزْنُ مُنَاسِبًا لِلْمَعْنَى غَيْرَ مُنَاسِبٍ لِلتَّخْيِيلِ وَرُبَّمَا كَانَ ٱلْأَمْرُ بِٱلْعَكْسِ وَرُبَّمَا كَانَ غَيْرَ مُنَاسِبٍ لِكِلَيْهِمَا وَاَمْثِلَةُ هٰذِهِ مِمَّا يَعْسُرُ وُجُودُهَا فِي اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ اَوْ تَكُونُ غَيْرَ مَوْجُودَةٍ فِيهَا اِذْ اَعَارِيضُهُمْ قَلِيلَةُ ٱلْقَدْرِ (قَالَ) وَقَدْ يُضَافُ اِلَى ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا قِوَامُ ٱلْأَشْعَارِ اُمُورٌ مِنْ خَارِجٍ وَهِيَ ٱلْهَيْئَاتُ ٱلَّتِي تَكُونُ فِي صَوْتِ ٱلشَّاعِرِ وَصُورَتِهِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ وَاَكْثَرُ مَا تُوجَدُ هٰذِهِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ ٱلْمُسْتَعْمِلِينَ لَهَا فِي ٱلْأَشْعَارِ ٱلِٱنْفِعَالِيَّةِ مِثْلُ ٱلَّتِي تُقَالُ فِي اَهْلِ ٱلْجَحِيمِ وَغَيْرِهِمْ وَلَمَّا كُنَّا قَدْ قُلْنَا فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَتَقَوَّمُ بِهَا ٱلْأَشْعَارُ ٱلَّتِي هِيَ اَجْزَاؤُهَا بِٱلْحَقِيقَةِ فَقَدْ يَنْبَغِي اَنْ نَقُولَ فِي هٰذِهِ اَيْضًا فَنَقُولُ: اِنَّ هٰذِهِ ٱلْأَفْعَالَ بِٱلْجُمْلَةِ هِيَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا ٱلْأَقْوَالُ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلِٱنْفِعَالِيَّةَ وَلِذٰلِكَ يَنْبَغِي اِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ هٰذِهِ اَنْ تُسْتَعْمَلَ مَعَ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ. وَذٰلِكَ اَنَّ هٰذِهِ تُرِي ٱلِٱنْفِعَالَ ٱلَّذِي يُقْصَدُ بِٱلْقَوْلِ تَثْبِيتُهُ كَأَنَّهُ قَدْ وَقَعَ

وَٱسْتَيْقَنَ. وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلِانْفِعَالِيَّةُ ٱلْخُطْبِيَّةُ وَضُرُوبُ ٱلِانْفِعَالَاتِ ٱلَّتِي تَنْفَعِلُهَا هٰذِهِ ٱلْاَقَاوِيلُ وَلِذٰلِكَ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْاَفْعَالُ اَخَصَّ بِكِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ مِنْهَا بِكِتَابِ ٱلشِّعْرِ. وَٱلِانْفِعَالَاتُ ٱلَّتِي تَثْبُتُ بِٱلْقَوْلِ ٱلْخُطْبِيِّ اَوِ ٱلشِّعْرِيِّ هِيَ ٱلْخَوْفُ وَٱلْغَضَبُ وَٱلرَّحْمَةُ وَٱلتَّعْظِيمُ وَسَائِرُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي عُدِّدَتْ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ. وَهُوَ ظَاهِرٌ اَنَّهُ كَمَا اَنَّ هَا هُنَا اَقْوَالًا تُوجِبُ هٰذِهِ ٱلِانْفِعَالَاتِ كَذٰلِكَ هَا هُنَا هَيْئَاتٌ وَاَشْكَالٌ تَدُلُّ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّمِ عَلَى حُضُورِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُوجِبُ هٰذِهِ ٱلِانْفِعَالَاتِ وَاَنَّهَا قَدْ وَقَعَتْ لِوُقُوعِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْمُلَاءِمَةِ لَهَا فَيَنْفَعِلُ لِذٰلِكَ ٱلنَّاظِرُ مَا فَهٰذِهِ ٱلصُّوَرُ وَٱلْهَيْئَاتُ اِنَّمَا يَنْبَغِي اَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي ٱلشِّعْرِ اِنِ ٱسْتُعْمِلَتْ مَعَ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلِانْفِعَالِيَّةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَذٰلِكَ اِمَّا فِي ٱلتَّعْظِيمِ وَاِمَّا فِي ٱلتَّصْغِيرِ وَاِمَّا فِي ٱلْاَشْيَا ٱلْمُخْزِنَةِ ٱلْمُحَرَّفَةِ اِذْ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءُ هِيَ ٱلَّتِي تَسْتَعْمِلُ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ مِنَ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلِانْفِعَالِيَّةِ عَلَى مَا سَلَفَ. وَاِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ هٰذِهِ مَعَ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلِانْفِعَالِيَّةِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ صَادِقَةً اَعْنِي ٱلَّتِي لَيْسَتْ هِيَ ظَاهِرَةَ ٱلتَّخْيِيلِ. وَاَمَّا ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلِانْفِعَالِيَّةُ ٱلَّتِي هِيَ ظَاهِرَةُ ٱلتَّخْيِيلِ وَمُنَاسِبَةٌ لِلْغَرَضِ ٱلْمَقْوُلِ فِيهِ وَهِيَ حَقٌّ فَلَيْسَ يُحْتَاجُ اَنْ تُسْتَعْمَلَ فِيهَا هٰذِهِ ٱلْاُمُورُ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ فَاِنَّهَا تُهَجِّنُهَا اِذْ كَانَتْ هٰذِهِ اِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلَّتِي تَضْعُفُ اَنْ تَفْعَلَ مَا قُصِدَ بِهَا اِلَّا بِٱقْتِرَانِ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ بِهَا وَهِيَ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلشِّعْرِيَّةُ فَاِنَّ ٱلْقَائِلَ مِنَ ٱلْفُقَهَاءِ لِعَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلنَّاصِرِ يَخْضَرُ ٱلْمَلَاءَ مِنْ اَهْلِ قُرْطُبَةَ يُحَرِّضُهُ عَلَى حَسْدَايَ ٱلْيَهُودِيِّ:

اِنَّ ٱلَّذِي شَرَّفْتَ مِنْ اَجْلِهِ ... يَزْعُمُ هٰذَا اِنَّهُ كَاذِبُ

لَمْ يَحْتَجْ فِي اِغْضَابِ ٱلنَّاصِرِ عَلَيْهِ اِلَى ٱكْثَرَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ وَاِنْ كَانَ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ سِمَتِهِ وَهَيْئَتِهِ لِكَوْنِ هٰذَا ٱلْقَوْلِ حَقًّا فَلِذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ اَنْ يَسْتَعْمِلَهَا اِذْ كَانَتْ لَيْسَتْ اِنَّمَا هِيَ فَضْلٌ فَقَطْ بَلْ وَ قَدْ تُهَجِّنُ ٱلْقَوْلَ وَٱلْقَائِلَ اِذَا كَانَ بِٱلسِّمَتِ وَٱلْوَقَارِ (قَالَ) وَقَدْ يَكْتَفِي ٱلشَّاعِرُ بِنَ هٰذِهِ بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْاَشْكَالِ ٱلْخَاصَّةِ بِصِنْفٍ صِنْفٍ مِنْ اَصْنَافِ ٱلْاَقَاوِيلِ وَذٰلِكَ اِذَا اُضْطُرَّ اِلَى ذٰلِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَسْتَعْمِلُونَ ٱلْاَخْذَ بِٱلْوُجُوهِ . وَاَعْنِي بِٱشْكَالِ ٱلْقَوْلِ شَكْلَ ٱلْخَبَرِ وَشَكْلَ ٱلسُّؤَالِ وَشَكْلَ ٱلْاَمْرِ وَشَكْلَ ٱلتَّضَرُّعِ وَذٰلِكَ اَنَّ شَكْلَ ٱلْمُخْبِرِ غَيْرُ شَكْلِ ٱلسَّائِلِ وَشَكْلَ ٱلْاٰمِرِ غَيْرُ شَكْلِ ٱلطَّالِبِ اَوِ ٱلْمُتَضَرِّعِ فَٱلشَّاعِرُ قَدْ يَكْتَفِي بِٱشْكَالِ ٱلْاَقَاوِيلِ عَنْ سَائِرِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ فَاِنَّ تِلْكَ اِذْ كَانَ مِنْ شَأْنِهَا تَهْجِينُ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ فَلَيْسَ يَنْبَغِي اَنْ تُجْعَلَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ وَاِنَّمَا يَنْبَغِي اَنْ تُجْعَلَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةٍ اُخْرَى

البحث السابع

في اسطقسات الاقاويل الشعريّة

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَٱلْاَسْمَاءُ صِنْفَانِ اِمَّا بَسِيطٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَيْسَ هُوَ مُرَكَّبًا مِنْ اَسْمَاءٍ تَدُلُّ وَاِمَّا مُضَاعَفٌ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرَكَّبُ مِنْ اَسْمَاءٍ تَدُلُّ وَاِنْ كَانَ مِنْ حَيْثُ يُقْصَدُ بِهِ تَسْمِيَةُ شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا

تَدُلُّ تِلكَ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلَّتِي رُكِّبَ مِنْهَا مِثْلُ عَبْدِ شَمْسٍ وَعَبْدِ ٱلْقَيْسِ
(قَالَ) وَكُلُّ ٱسْمٍ فَهُوَ اما حَقِيقِيٌّ وَاِمَّا دَخِيلٌ فِي ٱللِّسَانِ
وَاِمَّا نَقْلٌ نَادِرُ ٱلِاسْتِعْمَالِ وَاِمَّا مُزَيَّنٌ وَاِما مَعْمُولٌ وَاِمَّا مَعْقُولٌ
وَاِمَّا مُفَارَقٌ وَاِمَّا مُغَيَّرٌ . فَٱلْحَقِيقِيُّ هُوَ ٱلِٱسْمُ ٱلَّذِي يَكُونُ خَاصًّا
بِأُمَّةٍ أُمَّةٍ وَٱلدَّخِيلُ هُوَ ٱلَّذِي يُكُونُ لِأُمَّةٍ أُخْرَى فَيُدْخِلُهُ
ٱلشَّاعِرُ فِي شِعْرِهِ وَذٰلِكَ مِثْلُ ٱلِاسْتَبْرَقِ وَٱلْمِشْكَاةِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ
ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْأَعْجَمِيَّةِ ٱلدَّخِيلَةِ فِي لِسَانِ اَمَّا ٱلِٱسْمُ ٱلنَّادِرُ
ٱلْمَنْقُولُ فَهُوَ نَقْلُ ٱسْمٍ غَرِيبٍ اِمَّا مِنَ ٱلنَّوْعِ اِلَى ٱلْجِنْسِ مِثْلُ
تَسْمِيَةِ ٱلْقَتْلِ مَوْتًا وَاِمَّا مِنَ ٱلْجِنْسِ اِلَى ٱلنَّوْعِ مِثْلُ تَسْمِيَةِ ٱلثُّقْلَةِ
حَرَكَةً وَاِمَّا مِنْ نَوْعٍ اِلَى نَوْعٍ آخَرَ مِثْلُ تَسْمِيَةِ ٱلْخِيَانَةِ سَرِقَةً
وَاِمَّا اَنْ يُنْقَلَ شَيْءٌ مَنْسُوبٌ اِلَى ثَانٍ اِلَى شَيْءٍ ثَالِثٍ مَنْسُوبٍ اِلَى
رَابِعٍ مِثْلُ نِسْبَةِ ٱلْأَوَّلِ اِلَى ٱلثَّانِي مِثْلَ مَا كَانَ يُسَمِّي بَعْضُ
ٱلْقُدَمَاءِ ٱلشَّيْخُوخَةَ عَشِيَّةَ ٱلْعُمْرِ وَيُسَمِّي ٱلْعَشِيَّةَ شَيْخُوخَةَ ٱلنَّهَارِ وَذٰلِكَ
اَنَّ نِسْبَةَ ٱلشَّيْخُوخَةِ اِلَى ٱلْعُمْرِ نِسْبَةُ ٱلْعَشِيَّةِ اِلَى ٱلنَّهَارِ وَاَمَّا
ٱلِٱسْمُ ٱلْمَعْمُولُ ٱلْمُرْتَجَلُ فَهُوَ ٱلِٱسْمُ ٱلَّذِي يَخْتَرِعُهُ ٱلشَّاعِرُ ٱخْتِرَاعًا
وَيَكُونُ هُوَ اَوَّلَ مَنِ ٱسْتَعْمَلَهُ وَهٰذَا غَيْرُ مَوْجُودٍ فِي اَشْعَارِ
ٱلْعَرَبِ وَاِنَّمَا يُوجَدُ ذٰلِكَ فِي ٱلصَّنَائِعِ ٱلنَّاشِئَةِ وَاَكْثَرُ مَا فِي ٱلصَّنَائِعِ
هُوَ مَنْقُولٌ لَا مَعْمُولٌ مُخْتَرَعٌ وَرُبَّمَا ٱسْتَعْمَلَهُ ٱلْمُحْدَثُونَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ
عَلَى طَرِيقِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ اَعْنِي ٱلْمَنْقُولَ اِلَى ٱلصَّنَائِعِ مِثْلُ قَوْلِ اَبِي
ٱلطَّيِّبِ :

اِذَا كَانَ مَا تَنْوِيهِ فِعْلًا مُضَارِعًا
مَضَى قَبْلَ اَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ الْجَوَازِمُ

وَرُبَّمَا اسْتَعْمَلُوا تَصْرِيفًا لَمْ يُسْتَعْمَلْ قَبْلُ مِثْلُ قَوْلِهِ :

تَفَاوَحَ مِسْكُ الْغَانِيَاتِ وَرَنْدُهُ

وَاَمَّا الْمُفَارَقُ وَالْمَعْقُولُ فَلَيْسَ يُوجَدَانِ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ . وَالْمُزَيَّنَةُ هِيَ اَسْمَاءٌ كَانَتْ تُجْعَلُ بَعْضُ اَجْزَائِهَا نَعْمًا فَتُزَيَّنُ بِهَا وَقَدْ قِيلَ اِنَّهُ يَعْنِي بِالْمُفَارَقِ الْاَسْمَاءَ الْمُغَيَّرَةَ بِالزِّيَادَةِ فِيهَا وَالنُّقْصَانِ مِنْهَا وَالْحَذْفِ اَوِ الْقَلْبِ وَقِيلَ بَلْ يَعْنِي بِذٰلِكَ الْاَسْمَاءَ الَّتِي يَعْسُرُ النُّطْقُ بِهَا وَظَاهِرُ كَلَامِهِ اَنَّهُ اَسْمٌ كَانَ يُؤَلِّفُ عِنْدَهُمْ مِنْ مَقَاطِعَ مَحْدُودَةٍ وَالْاِسْمُ الْمَعْقُولُ فَاِنَّهُ فِيمَا اَحْسِبُ الَّذِي سَمَّاهُ الْمُخْتَلِفَ وَظَاهِرُ كَلَامِهِ اَنَّهُ الْاِسْمُ الْمَحْذُوفُ بِالنُّقْصَانِ مِثْلُ الْاَسْمَاءِ الْمُرَخَّمَةِ عِنْدَنَا وَاَمَّا الْمُغَيَّرَةُ فَهِيَ الْمُسْتَعَارَةُ الَّتِي تُسْتَعَارُ اِمَّا مِنَ الشَّبِيهِ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمُ الْكَوْكَبَ نَسْرًا وَاِمَّا مِنَ الضِّدِّ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمُ الشَّمْسَ جَوْنَةً وَاِمَّا مِنَ اللَّازِمِ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمُ الشَّحْمَ نَدًا وَالْمَطَرَ سَمَاءً (قَالَ) وَاَفْضَلُ الْقَوْلِ فِي التَّفْهِيمِ اِنَّمَا هُوَ الْقَوْلُ الْمَشْهُورُ الْمُبْتَذَلُ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَى اَحَدٍ وَهٰذِهِ الْاَقَاوِيلُ اِنَّمَا تُؤَلَّفُ مِنَ الْاَسْمَاءِ الْمَشْهُورَةِ الْمُبْتَذَلَةِ وَهِيَ الَّتِي سَمَّاهَا فِي مَا قَبْلُ الْحَقِيقِيَّةَ وَتُسَمِّي الْمُسْتَوْلِيَةَ وَالْاَهْلِيَّةَ (قَالَ) وَذٰلِكَ مِثْلُ شِعْرِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ لِقَوْمٍ مَشْهُورِينَ عِنْدَهُمْ . وَيَنْبَغِي اَنْ تَتَفَقَّدَ مَنِ الْغَالِبُ عَلَى اَشْعَارِهِ هٰذَا النَّوْعُ مِنَ الْاَلْفَاظِ مِنْ شُعَرَاءِ الْعَرَبِ (قَالَ) وَالْاَقَاوِيلُ الْعَفِيفَةُ الْمَلِيحَةُ

فَهِيَ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلَّتِي تُؤَلَّفُ مِنَ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُبْتَذَلَةِ وَمِنَ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْاُخَرِ اَعْنِي ٱلْمَنْقُولَةَ ٱلْغَرِيبَةَ ٱلْمُغَيَّرَةَ وَٱللُّغَوِيَّةَ لِاَنَّهُ مَتَى تَعَرَّى ٱلشِّعْرُ كُلُّهُ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْحَقِيقِيَّةِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ كَانَ رَمْزًا وَلُغْزًا وَلِذٰلِكَ كَانَتِ ٱلْاَلْغَازُ وَٱلرُّمُوزُ هِيَ ٱلَّتِي تُؤَلَّفُ مِنَ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْغَرِيبَةِ اَعْنِي بِٱلْغَرِيبَةِ ٱلْمَنْقُولَ ٱلْمُسْتَعَارَ وَٱلْمُشْتَرَكَ وَٱللُّغَوِيَّ. وَٱلرَّمْزُ وَٱللُّغْزُ هُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَى مَعَانٍ لَا يُمْكِنُ اَوْ يَعْسُرُ ٱتِّصَالُ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا بَعْضًا بِبَعْضٍ حَتَّى يُطَابِقَ بِذٰلِكَ اَحَدَ ٱلْمَوْجُودَاتِ. وَيَكُونُ اِمَّا بِحَسَبِ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْمَشْهُورَةِ فَٱتِّصَالُ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي بَعْضِهَا بِبَعْضٍ غَيْرُ مُمْكِنٍ وَاِمَّا بِحَسَبِ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمَشْهُورَةِ فَمُمْكِنٌ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ فِي شِعْرِ ذِي ٱلرُّمَّةِ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْعَرَبِ. وَفَضِيلَةُ ٱلْقَوْلِ ٱلشِّعْرِيِّ ٱلْعَفِيفِيِّ اَنْ يَكُونَ مُؤَلَّفًا مِنَ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ مِنْ تِلْكَ ٱلْاَنْوَاعِ ٱلْاُخَرِ وَاَنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ حَيْثُ يُرِيدُ ٱلْاِيضَاحَ يَأْتِي بِٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ وَحَيْثُ يُرِيدُ ٱلتَّعَجُّبَ وَٱلْاِلْذَاذَ يَأْتِي بِٱلصِّنْفِ ٱلْاَخَرِ مِنَ ٱلْاَسْمَاءِ وَلِذٰلِكَ قَدْ يُتَضَاحَكُ بِمَنْ يُرِيدُ ٱلْاِيضَاحَ فَيَأْتِي بِٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ اَوِ ٱلْغَرِيبَةِ اَوِ ٱلْاَلْسُنِ اَوِ ٱلْمَعْمُولَاتِ وَيُتَضَاحَكُ اَيْضًا بِمَنْ يُرِيدُ ٱلتَّعَجُّبَ وَٱلْاِلْذَاذَ فَيَأْتِي بِٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُبْتَذَلَةِ وَكَانَ ٱلشَّاعِرُ يَجِبُ لَهُ اَلَّا يُفْرِطَ فِي ٱسْتِعْمَالِ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ فَيَخْرُجَ اِلَى حَدِّ ٱلرَّمْزِ وَلَا اَيْضًا يُفْرِطَ فِي ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ فَيَخْرُجَ عَنْ طَرِيقَةِ ٱلشِّعْرِ اِلَى ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَعَارَفِ (قَالَ) وَاَمَّا مُوَافَقَةُ ٱلْاَلْفَاظِ بَعْضِهَا لِبَعْضٍ فِي ٱلْمِقْدَارِ

وَمُعَادَلَةُ ٱلْمَعَانِي بَعْضِهَا لِبَعْضٍ وَمُوَازَنَتُهَا فَأَمْرٌ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَامًّا وَمُشْتَرَكًا لِجَمِيعِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلَّتِي هِيَ أَجْزَاءُ ٱلْقَوْلِ ٱلشِّعْرِيِّ وَذٰلِكَ أَنَّا نَجِدُ ٱلشُّعَرَاءَ وَإِنِ ٱسْتَعْمَلُوا ٱلْأَلْفَاظَ ٱلْحَقِيقِيَّةَ فِي ٱلْمَوَاضِعِ ٱلَّتِي يُنْزِلُونَهُمْ فِي ٱسْتِعْمَالِهِمْ إِيَّاهَا لَيْسَ يَخْلُو شِعْرُهُمْ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ أَعْنِي مِنَ ٱلْمُوَازَنَةِ وَٱلْمُوَافَقَةِ فِي ٱلْمِقْدَارِ وَلٰكِنْ كَانَ هٰذَا عَامًّا لِجَمِيعِ أَنْوَاعِ ٱلشِّعْرِ. وَأَمَّا ٱلْأَشْعَارُ ٱلَّتِي تَأْتَلِفُ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ فَوُجُودُ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فِيهَا أَبْيَنُ وَمُوَافَقَةُ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلَّتِي ذُكِرَ فِي ٱلْمِقْدَارِ هِيَ مُقَارَنَةُ بَعْضِهَا لِبَعْضٍ فِي عَدَدِ ٱلْحُرُوفِ وَإِنْ وَافَقَتْ مَعَ هٰذَا فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ أَوْ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ فَهُوَ ٱلَّذِي يُعْرَفُ بِٱلْمُطَابَقَةِ وَٱلْمُجَانَسَةِ عِنْدَ أَهْلِ زَمَانِنَا. وَٱلْمُوَافَقَةُ أَخَاءٌ وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَا تَخْلُو ٱلْمُوَافَقَةُ أَنْ تَكُونَ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ وَكُلِّ ٱلْمَعْنَى وَهٰذَا مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

لَا أَرَى ٱلْمَوْتَ يَسْبِقُ ٱلْمَوْتَ شَيْءٌ

وَمِثْلُ قَوْلِهِمْ طَوِيلُ ٱلنِّجَادِ طَوِيلُ ٱلْعِمَادِ. أَوْ أَنْ تَكُونَ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى أَوْ أَنْ تَكُونَ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَكُلِّ ٱلْمَعْنَى أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ فَقَطْ أَوْ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ فَقَطْ أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ ٱلْمَعْنَى فَقَطْ أَوْ فِي بَعْضِ ٱلْمَعْنَى فَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُشْتَقَّةُ مِنْ تَصْرِيفِ وَاحِدٍ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي:

عَلَى قَدْرِ اَهْلِ ٱلْعَزْمِ تَأْتِي ٱلْعَزَائِمُ
وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ ٱلْكِرَامِ ٱلْمَكَارِمُ

وَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَكُلِّ ٱلْمَعْنَى قَوْلُهُمْ دِرْهَمٌ ضَرْبُ ٱلْاَمِيرِ وَمَضْرُوبُ ٱلْاَمِيرِ. وَمِثَالُ عَكْسِ هٰذَا اَعْنِي فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى ٱلْاَسْمَاءُ ٱلْمُشَكِّكَةُ وَٱلشُّعَرَاءُ يَسْتَعْمِلُونَهَا كَثِيرًا وَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ فَقَطِ ٱلْاَسْمَاءُ ٱلْمُشْتَرَكَةُ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْمَعَرِّيِّ:

مَعَانٌ مِنْ اِحِنَّتِنَا مَعَانُ

وَمِثْلُ قَوْلِهِ:

فَزَنْدُكَ مُغْتَالٌ وَطَرْفُكَ مُغْتَالُ

وَمِثَالُ ٱلْمُتَّفِقَةِ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ فَقَطْ قَوْلُ حَبِيبٍ:

مَا اَنْتَ عَنْ ذُهْلِيَّةٍ بِذَاهِلِ

وَقَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ:

اُقَلِّبُ ٱلطَّرْفَ بَيْنَ ٱلْخَيْلِ وَٱلْخَوَلِ

وَهٰذَا كُلُّهُ فِي لُغَةِ ٱلْعَرَبِ مِثْلُ ٱلضَّرْبِ وَٱلضَّرْبِ وَٱلْحَمْلِ وَٱلْحَمَلِ وَاَشْرَقَتِ ٱلشَّمْسُ وَشَرَقَتْ. وَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي كُلِّ ٱلْمَعْنَى فَقَطِ ٱلْاَسْمَاءُ ٱلْمُتَرَادِفَةُ مِثْلُ قَوْلِهِ اَقْوَى وَاَقْفَرَ. وَمِثَالُ ٱلْمُتَّفِقَةِ فِي بَعْضِ ٱلْمَعْنَى فَقَطِ ٱلْاَسْمَاءُ ٱلْمُخْتَلِفَةُ ٱلَّتِي تَدُلُّ مِنَ ٱلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ عَلَى جِهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ مِثْلَ ٱلصَّارِمِ وَٱلذَّكَرِ. وَٱلْقَوَافِي عِنْدَ ٱلْعَرَبِ هِيَ مُوَافِقَةٌ فِي ٱلْمِقْدَارِ وَفِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَذٰلِكَ اِمَّا فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ

وَهُوَ ٱلْآخِرُ وَإِمَّا فِي حَرْفَيْنِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُعَرِّفُهُ ٱلْمُحْدَثُونَ بِٱللُّزُومِ وَأَمَّا ٱلْمُوَازَنَةُ فِي أَجْزَاءِ ٱلْقَوْلِ فَهِيَ عَلَى ٱلْحَاءِ أَرْبَعَةٍ أَحَدُهَا أَنْ يَأْتِيَ ٱلشَّاعِرُ بِٱلشَّيْءِ وَشَبِيهِهِ مِثْلَ ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ أَوْ يَأْتِيَ بِٱلْأَضْدَادِ مِثْلَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَوْ يَأْتِيَ بِٱلشَّيْءِ وَمَا يُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلُ ٱلْقَوْسِ وَٱلسَّهْمِ وَٱلْفَرَسِ وَٱللِّجَامِ أَوْ يَأْتِيَ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُنَاسِبَةِ مِثْلُ ٱلْمَلِكِ وَٱلْإِلٰهِ وَهٰذِهِ ٱلْمُنَاسَبَةُ إِنَّمَا تُؤْخَذُ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ. وَفِي هٰذَا ٱلْبَابِ عِيبَ عَلَى ٱلْكُمَيْتِ:

تَكَامَلَ فِيهِ ٱلدَّلُّ وَٱلشَّنَبُ

لِأَنَّ ٱلدَّلَّ غَيْرُ شَبِيهٍ بِٱلشَّنَبِ. وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ قَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

كَأَنِّيَ لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلَذَّةٍ ... وَلَمْ أَتَعَرَّفْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالِ

وَلَمْ أَسْبَإِ ٱلزِّقَّ ٱلرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ ... لِخَيْلِيَ كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ

إِنَّهُ غَيْرُ مُنَاسِبٍ وَإِنَّ ٱلتَّنَاسُبَ فِيهِ هُوَ عَكْسُ مَا فَعَلَ أَعْنِي أَنْ يَكُونَ صَدْرُ ٱلْبَيْتِ ٱلْأَوَّلِ صَدْرَ ٱلثَّانِي وَصَدْرُ ٱلثَّانِي صَدْرَ ٱلْأَوَّلِ وَمِثْلُ هٰذَا قِيلَ فِي قَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

وَقَفْتَ وَمَا فِي ٱلْمَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ

كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ ٱلرَّدَى وَهُوَ نَائِمُ

تُمُرُّ بِكَ ٱلْأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً

وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ

إِنَّ ٱلتَّنَاسُبَ فِيهِ أَنْ يَكُونَ صَدْرُ ٱلْبَيْتِ ٱلْأَوَّلِ لِلثَّانِي وَصَدْرُ

ٱلثَّانِي لِلْأَوَّلِ وَمَا قَالَهُ اَبُو ٱلطَّيِّبِ لَهُ وَجْهٌ مِنَ ٱلتَّنَاسُبِ وَكَذٰلِكَ مَا قَالَهُ اَمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ (قَالَ) وَٱلْقَوْلُ اِنَّمَا يَكُونُ مُخْتَلِفًا اَيْ مُغَيَّرًا عَنِ ٱلْقَوْلِ ٱلْحَقِيقِيِّ مِنْ حَيْثُ تُوضَعُ فِيهِ ٱلْاَسْمَاءُ مُتَوَافِقَةً فِي ٱلْمُوَازَنَةِ وَٱلْمِقْدَارِ وَبِٱلْاَسْمَاءِ ٱلْغَرِيبَةِ وَبِغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ اَنْوَاعِ ٱلتَّغْيِيرِ. وَقَدْ يُسْتَدَلُّ عَلَى اَنَّ ٱلْقَوْلَ ٱلشِّعْرِيَّ هُوَ ٱلْمُغَيَّرُ اَنَّهُ اِذَا غُيِّرَ ٱلْقَوْلُ ٱلْحَقِيقِيُّ سُمِّيَ شِعْرًا اَوْ قَوْلًا شِعْرِيًا وَوُجِدَ لَهُ فِعْلُ ٱلشِّعْرِ مِثَالُ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ:

وَكُلَّمَا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجَةٍ وَمَسَّحَ بِٱلْاَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ
اَخَذْنَا بِاَطْرَافِ ٱلْاَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِاَعْنَاقِ ٱلْمَطِيِّ ٱلْاَبَاطِحُ

اِنَّمَا صَارَ شِعْرًا مِنْ قِبَلِ اَنَّهُ اَسْتَعْمَلَ قَوْلَهُ:

اَخَذْنَا بِاَطْرَافِ ٱلْاَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِاَعْنَاقِ ٱلْمَطِيِّ ٱلْاَبَاطِحُ

بَدَلَ قَوْلِهِ تَحَدَّثْنَا وَمَشَيْنَا وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ:

بَعِيدَةُ مَهْوَى ٱلْقُرْطِ

اِنَّمَا صَارَ شِعْرًا لِاَنَّهُ اَسْتَعْمَلَ هٰذَا ٱلْقَوْلَ بَدَلَ قَوْلِهِ طَوِيلَةُ ٱلْعُنُقِ وَكَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْاٰخَرِ:

يَا دَارُ اَيْنَ ظِبَاؤُكِ ٱللُّعْسُ قَدْ كَانَ لِي فِي اِنْسِهَا اُنْسُ

اِنَّمَا صَارَ شِعْرًا لِاَنَّهُ اَقَامَ ٱلدَّارَ مُقَامَ ٱلنَّاطِقِ بِمُخَاطَبَتِهَا وَاَبْدَلَ لَفْظَ ٱلنِّسَاءِ بِٱلظِّبَاءِ وَاَتَى بِمُوَافَقَةِ ٱلْاِنْسِ وَٱلْاُنْسِ فِي ٱللَّفْظِ وَاَنْتَ اِذَا تَاَمَّلْتَ ٱلْاَشْعَارَ ٱلْمُحَرَّكَةَ وَجَدْتَهَا بِهٰذِهِ ٱلْحَالِ. وَمَا عَدَا هٰذِهِ ٱلتَّغْيِيرَاتِ فَلَيْسَ فِيهِ مِنْ مَعْنَى ٱلشِّعْرِيَّةِ اِلَّا ٱلْوَزْنُ فَقَطْ وَٱلتَّغْيِيرَاتُ

تَكُونُ بِٱلْمُوَازَنَةِ وَٱلْمُدَافَعَةِ وَٱلْإِبْدَالِ وَٱلتَّشْبِيهِ وَبِٱلْجُمْلَةِ بِإِخْرَاجِ ٱلْقَوْلِ غَيْرَ مُخْرَجِ ٱلْعَادَةِ مِثْلُ ٱلْقَلْبِ وَٱلْحَذْفِ وَٱلزِّيَادَةِ وَٱلنُّقْصَانِ وَٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ وَتَغْيِيرِ ٱلْقَوْلِ مِنَ ٱلْإِيجَابِ إِلَى ٱلسَّلْبِ وَمِنَ ٱلسَّلْبِ إِلَى ٱلْإِيجَابِ وَبِٱلْجُمْلَةِ مِنَ ٱلْمُقَابِلِ إِلَى ٱلْمُقَابِلِ وَبِٱلْجُمْلَةِ بِجَمِيعِ ٱلْأَنْوَاعِ ٱلَّتِي تُسَمَّى عِنْدَنَا مَجَازًا فَٱلْحَذْفُ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْقُرْآنِ وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ. وَقَوْلِهِ: وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَى. وَٱلْقَلْبُ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ: فُلَانٌ مِنْ أَجْلِ بَنِيهِ لَا بَنُوهُ مِنْ أَجْلِهِ وَٱلسُّنَّةُ سَبَبُ ٱلْإِنْسَانِ لَا ٱلْإِنْسَانُ سَبَبُ ٱلسُّنَّةِ. وَٱلتَّقْدِيمُ وَٱلتَّأْخِيرُ مِثْلُ قَوْلِهِ: وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا. وَقَوْلِهِ: وَإِذِ ٱبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ. وَٱلزِّيَادَةُ مِثْلُ قَوْلِهِ: تَنْبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَمِثْلُ قَوْلِهِ: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَمِثْلُ قَوْلِهِ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ وَمِثَالُ ٱلتَّغْيِيرِ مِنَ ٱلْإِيجَابِ إِلَى ٱلسَّلْبِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: مَا فَعَلَهُ أَحَدٌ إِلَّا أَنْتَ بَدَلَ قَوْلِهِ: أَنْتَ فَعَلْتَهُ وَمِنْ هٰذَا ٱلْمَعْنَى قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ ٱلْكَتَائِبِ

فَإِنَّهُ أَوْجَبَ لَهُمُ ٱلْفَضَائِلَ لِيَنْفِيَ ٱلْعُيُوبَ وَٱسْتَثْنَى مِنْهَا مَا لَيْسَ بِعَيْبٍ عَلَى جِهَةِ تَسْمِيَةِ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ ضِدِّهِ. وَمِنَ ٱلتَّغْيِيرَاتِ ٱللَّذِيذَةِ جَمْعُ ٱلْأَضْدَادِ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ كَقَوْلِهِ:

فِيكَ ٱلْخِصَامُ وَأَنْتَ ٱلْخَصْمُ وَٱلْحَكَمُ

وَكَوْنُ ٱلضِّدِّ سَبَبًا لِضِدِّ كَقَوْلِهِ: وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَاةٌ وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكَ أَنْوَاعُهَا ٱلْبَسِيطَةُ وَٱلْمُرَكَّبَةُ ٱلْمَحْصُورَةُ فِي هٰذِهِ ٱلْكُلِّيَّاتِ

وَيُشْبِهُ اَنْ يَكُونَ اِحْصَاءُ اَنْوَاعِهَا اَلْاَخِيرَةِ عَسِيرًا جِدًّا وَلِذٰلِكَ اَقْتَصَرَ هُنَا عَلَى اَلْكُلِّيَّاتِ فَقَطْ. وَالْفَاضِلُ مِنْ هٰذِهِ اَلْاَشْيَاءِ هُوَ اَنْ يُسْتَعْمَلَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَا هُوَ اَبْيَنُ وَاَظْهَرُ وَاَشْبَهُ وَهٰذَا لَا يُوجَدُ اِلَّا فِي اَلنَّادِرِ مِنَ اَلشُّعَرَاءِ وَذٰلِكَ اَنَّ اَسْتِعْمَالَ اَلْاَبْيَنِ مِنْ هٰذِهِ اَلْاَشْيَاءِ وَالْاَشْبَهِ هُوَ دَلِيلُ اَلْمَهَارَةِ. وَهٰذَا اَلصِّنْفُ هُوَ اَلَّذِي يَجْمَعُ اِلَى جُودَةِ اَلْاِفْهَامِ فِعْلَ اَلْاَقَاوِيلِ اَلشِّعْرِيَّةِ اَعْنِي تَحْرِيكَ اَلنَّفْسِ مِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّ اَلْاِبْدَالَ اِذَا كَانَ شَدِيدَ اَلشَّبَهِ اَفَادَ جُودَةَ اَلتَّخْيِيلِ وَالْاِفْهَامِ مَعًا وَرُبَّمَا عَرَضَ مِنَ اَلْاِبْدَالِ اَلْمُنَاسِبِ قِلَّةُ فَهْمٍ عِنْدَ اَلْفِدَامِ مِنَ اَلسَّامِعِينَ كَمَا عَرَضَ فِي قَوْلِهِ: حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ اَلْخَيْطُ اَلْاَبْيَضُ مِنَ اَلْخَيْطِ اَلْاَسْوَدِ اَنْ ظَنَّ بَعْضُهُمْ اَنَّهُ اَلْخَيْطُ اَلْحَقِيقِيُّ فَنَزَلَتْ مِنَ اَلْفَجْرِ. (قَالَ) وَالْاَسْمَاءُ اَلْمُرَكَّبَةُ تَصْلُحُ لِلْوَزْنِ اَلَّذِي يُثْنَى فِيهِ عَلَى اَلْاَخْيَارِ مِنْ غَيْرِ تَعْيِينِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَهٰذِهِ اَلْاَسْمَاءُ هِيَ قَلِيلَةُ اَلْوُجُودِ فِي لِسَانِ اَلْعَرَبِ وَهِيَ مِثْلُ قَوْلِهِمِ اَلْعَبْشَمِيُّ اَلْمَنْسُوبُ اِلَى عَبْدِ شَمْسٍ. وَاَمَّا اَللُّغَاتُ فَتَصْلُحُ لِلشِّعْرِ اَلَّذِي يُذْكَرُ فِيهِ اَمْرُ اَلْمَعَادِ وَمَا فِيهِ مِنَ اَلْاَهْوَالِ وَكَانَ صِنْفًا مِنَ اَلشِّعْرِ عِنْدَهُمْ مَعْرُوفًا. وَاَمَّا اَلْاَسْمَاءُ اَلْمَنْقُولَةُ اَلْغَرِيبَةُ فَتَخْتَصُّ بِالْاَشْعَارِ اَلَّتِي تُقَالُ فِي اَلْاَمْثَالِ وَاَلْحِكَمِ وَاَلْقِصَصِ اَلْمَشْهُورَةِ

البحث الثامن

في صناعة الاشعار القصصية

(من الكتاب نفسه)

(قالَ) فَفِيمَا قُلْنَاهُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَفِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِأَصْنَافِ ٱلْأَشْعَارِ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ كِفَايَةٌ. وَٱلْأَشْعَارُ ٱلْقَصَصِيَّةُ سَبِيلُهَا فِي ٱلْأَجْزَاءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْمَبْدَأُ وَٱلْوَسَطُ وَٱلنِّهَايَةُ سَبِيلُ أَجْزَاءِ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَكَذٰلِكَ فِي ٱلْمُحَاكَاةِ إِلَّا أَنَّ ٱلْمُحَاكَاةَ لَيْسَ تَكُونُ لِلْأَفْعَالِ فِيهَا وَإِنَّمَا تَكُونُ لِلْأَزْمِنَةِ ٱلْوَاقِعَةِ فِيهَا تِلْكَ ٱلْأَفْعَالُ وَذٰلِكَ أَنَّهُ إِنَّمَا يُحَاكَى فِي هٰذِهِ كَيْفَ كَانَتْ أَحْوَالُ ٱلْمُتَقَدِّمِ مَعَ أَحْوَالِ ٱلْمُتَأَخِّرِ وَكَيْفَ تُنْقَلُ ٱلدُّوَلُ وَٱلْمَمَالِكُ وَٱلْأَيَّامُ. وَمُحَاكَاةُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلْوُجُودِ قَلِيلٌ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَهُوَ كَثِيرٌ فِي ٱلْكُتُبِ ٱلشَّرْعِيَّةِ. وَذَكَرَ مُجِيدِينَ فِي هٰذَا ٱلصِّنْفِ مِنْ شُعَرَائِهِمْ وَأَثْنَى ثَنَاءً عَاماً عَلَى أُومِيرُوشَ. وَمِنْ جَيِّدِ مَا فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى لِلْعَرَبِ قَوْلُ ٱلْأَسْوَدِ بْنِ يَعْفُرَ:

مَاذَا أُؤَمِّلُ بَعْدَ آلِ مُحَرِّقٍ ... تَرَكُوا مَنَازِلَهُمْ وَبَعْدَ إِيَادِ

أَرْضِ ٱلْخَوَرْنَقِ وَٱلسَّدِيرِ وَبَارِقٍ ... وَٱلْقَصْرِ ذِي ٱلشُّرُفَاتِ مِنْ سِنْدَادِ

نَزَلُوا بِأَنْقِرَةٍ يَسِيلُ عَلَيْهِمُ ... مَاءُ ٱلْفُرَاتِ يَجِيءُ مِنْ أَطْوَادِ

جَرَتِ ٱلرِّيَاحُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ ... فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِيعَادِ

فَأَرَى ٱلنَّعِيمَ وَكُلَّ مَا يُلْهَى بِهِ ... يَوْماً يَصِيرُ إِلَى بِلًى وَنَفَادِ

(قالَ) وَاَجْزَاءُ هٰذَا النَّوْعِ هِيَ اَجْزَاءُ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ الْعَفِيفَةِ مِنَ الْاِدَارَةِ وَالْاِسْتِدْلَالِ وَالتَّرْكِيبِ مِنْهُمَا. وَرُبَّمَا كَانَ بَعْضُ اَجْزَائِهَا اَنْفَعَالِيًا كَالْخَالِ فِي صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ. وَصَنَائِعُ الشِّعْرِ وَاَحْكَامُهَا فِي التَّلْحِينِ وَالْغِنَاءِ اَحْكَامُ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ. وَذَكَرَ قُرُوقَا بَيْنَ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ وَبَيْنَ صَنَائِعِ الشِّعْرِ الْاُخَرِ عَنْهُمْ وَخَوَاصَّ تَخْتَصُّ بِهَا تِلْكَ الْاَشْعَارُ الْاُخَرُ فِي الْاَوْزَانِ وَالْاَجْزَاءِ وَالْمُحَاكَاةِ وَالْقَدْرِ وَاَنَّ هَا هُنَا اَوْزَانًا هِيَ اَلْيَقُ بِبَعْضِ الْاَشْعَارِ مِنْ بَعْضٍ وَذَكَرَ مَنْ اَجَادَ مِنَ الشُّعَرَاءِ فِي هٰذِهِ الْاَشْيَاءِ وَمَنْ لَمْ يُجِدْ وَاَثْنَى فِي هٰذَا كُلِّهِ عَلَى اُومِيرُوشَ وَكُلُّ ذٰلِكَ خَاصٌّ بِهِمْ وَغَيْرُ مَوْجُودٍ مِثَالُهُ عِنْدَنَا اِمَّا لِاَنَّ ذٰلِكَ الَّذِي ذَكَرَ غَيْرُ مُشْتَرَكٍ لِلْاَكْثَرِ مِنَ الْاُمَمِ وَاِمَّا اَنَّهُ عَرَضَ لِلْعَرَبِ فِي هٰذِهِ الْاَشْيَاءِ اَمْرٌ خَارِجٌ عَنِ الطَّبْعِ وَهُوَ اَبْيَنُ فَاِنَّهُ مَا كَانَ لِيُثْبِتَ فِي كِتَابِهِ هٰذَا مَا هُوَ خَاصٌّ بِهِمْ بَلْ مَا هُوَ مُشْتَرَكٌ لِلْاُمَمِ الطَّبِيعِيَّةِ

البحث التاسع

في كيفية التخلص الى ما يراد محاكاتهُ

(من الكتاب نفسهِ)

وَيَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ مَا يَأْتِي بِهِ الشَّاعِرُ مِنَ الْكَلَامِ يَسِيرًا بِالْاِضَافَةِ اِلَى الْكَلَامِ الْمُحَاكِي كَمَا كَانَ يَفْعَلُ اُومِيرُوشُ فَاِنَّهُ اِنَّمَا كَانَ يَعْمَلُ صَدْرًا يَسِيرًا ثُمَّ يَتَخَلَّصُ اِلَى مَا يُرِيدُ مُحَاكَاتَهُ مِنْ غَيْرِ اَنْ يَأْتِيَ فِي ذٰلِكَ بِشَيْءٍ لَمْ يُعْتَدْ لٰكِنْ مَا قَدِ اعْتِيدَ فَاِنَّ غَيْرَ الْمُعْتَادِ

مُنْكَرٌ وَاِنَّمَا قَالَ ذٰلِكَ فِيمَا اَحْسِبُ لِاَنَّ لِلْاُمَمِ فِي تَشْبِيهَاتِهِمْ عَوَائِدَ خَاصَّةً مِثْلُ قَوْلِ اِمْرِىءِ الْقَيْسِ :

يُهَيِّلُ وَيُذْرِي تُرْبَهَا وَيُثِيرُهُ اِثَارَةَ نَبَّاثِ الْهَوَاجِرِ مُخْمِسِ

وَكَذٰلِكَ تَشْبِيهُهُمُ الضَّبَّ بِالْنُّونِ لِمَكَانِ السَّرَابِ الْمَوْجُودِ فِي بِلَادِهِمْ وَمِنْ هٰذَا قَوْلُهُ : وَالَّذِينَ كَفَرُوا اَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ (قَالَ) وَمَتَى طَالَ الْكَلَامُ وَلَيْسَ فِيهِ تَغْيِيرٌ وَلَا مُحَاكَاةٌ فَيَنْبَغِي اَنْ يُعْتَنَى فِي ذٰلِكَ بِاِيرَادِ الْاَلْفَاظِ الْبَيِّنَةِ الدَّلَالَةِ وَهِيَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى اَشْيَاءَ بِاَعْيَانِهَا لَا عَلَى اَشْيَاءَ مُتَضَادَّةٍ اَوْ مُخْتَلِفَةٍ وَاَنْ يَكُونَ تَرْكِيبُهَا عَلَى الْمَشْهُورِ عِنْدَهُمْ وَتَكُونَ سَهْلَةً عِنْدَ النُّطْقِ. وَيُشْبِهُ اَنْ يَكُونَ هٰذَا هُوَ اَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ اِسْمُ الْفَصَاحَةِ اِلَّا اَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ الْقَوْلُ ظَاهِرَ الصِّدْقِ وَمَشْهُورًا فَاِنَّ الصِّدْقَ الَّذِي يَتَضَمَّنُهُ يَشْفَعُ لِمَا فِيهِ مِنْ قِلَّةِ الْفَصَاحَةِ وَقِلَّةِ التَّغْيِيرِ وَالْمُحَاكَاةِ

البحث العاشر

في انواع المحاكاة غير المقبولة

(من الكتاب نفسه)

وَالْغَلَطُ الَّذِي يَقَعُ فِي الشِّعْرِ وَيَجِبُ عَلَى الشَّاعِرِ تَوَقِّيهِ فِيهِ سِتَّةُ اَصْنَافٍ. اَحَدُهَا اَنْ يُحَاكِيَ بِغَيْرِ مُمْكِنٍ بَلْ مُمْتَنِعٍ. وَمِثَالُ هٰذَا عِنْدِي قَوْلُ ابْنِ الْمُعْتَزِّ يَصِفُ الْقَمَرَ فِي تَنَقُّصِهِ :

اُنْظُرْ اِلَيْهِ كَزَوْرَقٍ مِنْ فِضَّةٍ قَدْ اَثْقَلَتْهُ حُمُولَةٌ مِنْ عَنْبَرِ

فَإِنَّ هٰذَا مُمْتَنِعٌ . وَإِنَّمَا آنَسَهُ بِذٰلِكَ شِدَّةُ الشَّبَهِ وَإِنَّهُ لَمْ يُقْصَدْ بِهِ حَثٌّ وَلَا نَهْيٌ بَلْ إِنَّمَا يَجِبُ انْ يُحَاكَى بِمَا هُوَ مَوْجُودٌ اَوْ يُظَنُّ اَنَّهُ مَوْجُودٌ مِثْلُ مُحَاكَاةِ الْاَشْرَارِ بِالشَّيَاطِينِ اَوْ بِمَا هُوَ مُمْكِنُ الْوُجُودِ فِي الْاَكْثَرِ لَا فِي الْاَقَلِّ اَوْ عَلَى التَّسَاوِي فَإِنَّ هٰذَا النَّوْعَ مِنَ الْوُجُودِ هُوَ اَلْيَقُ بِالْخَطَابَةِ مِنْهُ بِالشِّعْرِ . وَالْمَوْضِعُ الثَّانِي مِنْ غَلَطِ الشَّاعِرِ اَنْ يُحَرِّفَ الْمُحَاكَاةَ وَذٰلِكَ مِثْلُ مَا يَعْرِضُ لِلْمُصَوِّرِ اَنْ يَزِيدَ فِي الصُّورَةِ عُضْوًا لَيْسَ فِيهَا اَوْ يُصَوِّرَهُ فِي غَيْرِ الْمَكَانِ الَّذِي هُوَ فِيهِ كَمَنْ يُصَوِّرُ الرِّجْلَيْنِ فِي مُقَدَّمِ الْحَيَوَانِ ذِي الْاَرْبَعِ وَالْيَدَيْنِ فِي مُؤَخَّرِهِ وَيَنْبَغِي اَنْ يُتَفَقَّدَ مِثَالُ هٰذَا فِي اَشْعَارِ الْعَرَبِ وَقَرِيبٌ مِنْهُ عِنْدِي قَوْلُ بَعْضِ الْمُحْدَثِينَ الْاَنْدَلُسِيِّينَ يَصِفُ الْفَرَسَ :

وَعَلَى اُذُنَيْهِ اُذْنٌ ثَالِثٌ ... مِنْ سِنَانِ السَّهْرِيِّ الْاَزْرَقِ

وَالْمَوْضِعُ الثَّالِثُ اَنْ يُحَاكِيَ النَّاطِقِينَ بِاَشْيَاءَ غَيْرِ نَاطِقَةٍ فَإِنَّ هٰذَا اَيْضًا مِنْ مَوَاضِعِ التَّوْبِيخِ وَذٰلِكَ اَنَّ الصِّدْقَ فِي هٰذِهِ الْمُحَاكَاةِ يَكُونُ قَلِيلًا وَالْكَذِبَ كَثِيرًا اِلَّا اَنْ يُشَبِّهَ مِنَ النَّاطِقِ صِفَةً مُشْتَرَكَةً لِلنَّاطِقِ وَغَيْرِ النَّاطِقِ وَقَدْ تُؤْنِسُ بِمِثْلِ هٰذَا الْعَادَةُ مِثْلُ تَشْبِيهِ الْعَرَبِ النِّسَاءَ بِالظِّبَاءِ وَبَقَرِ الْوَحْشِ . وَالْمَوْضِعُ الرَّابِعُ اَنْ يُشَبِّهَ الشَّيْءَ بِشَبِيهِ ضِدِّهِ اَوْ بِضِدِّ نَفْسِهِ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ الْعَرَبِ سَقِيمَةُ الْجُفُونِ فِي الْحَسَنَةِ الْغَاضَّةِ النَّظَرِ وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ :

رَاحُوا كَاَنَّهُمُ مَرْضَى مِنَ الْكَرَمِ

وَقَوْلُ الْآخَرِ :

وَمُخَرَّقٍ عَنْهُ ٱلْقَمِيصُ تَخَالُهُ وَسْطَ ٱلْبُيُوتِ مِنَ ٱلْحَيَاءِ سَقِيمًا

فَإِنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا هِيَ اَضْدَادُ ٱلصِّفَاتِ ٱلْحَسَنَةِ وَإِنَّمَا آنَسَ بِذٰلِكَ ٱلْعَادَةُ. وَٱلْمَوْضِعُ ٱلْخَامِسُ اَنْ يَأْتِيَ بِٱلْاَسْمَاءِ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى ٱلْمُتَضَادَيْنِ بِٱلسَّوَاءِ مِثْلُ ٱلصَّرِيمِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْقَرْءِ وَٱلْجَلَدِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا قَدْ ذَكَرَهُ اَهْلُ ٱللُّغَةِ. وَٱلْمَوْضِعُ ٱلسَّادِسُ اَنْ يَتْرُكَ ٱلْحَاكَاةَ ٱلشِّعْرِيَّةَ وَيَنْتَقِلَ اِلَى ٱلْاِقْنَاعِ وَٱلْاَقَاوِيلِ ٱلتَّصْدِيقِيَّةِ وَبِخَاصَّةٍ مَتَى كَانَ ٱلْقَوْلُ هَجِينًا قَلِيلَ ٱلْاِقْنَاعِ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ اِمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ يَعْتَذِرُ عَنْ جُبْنِهِ:

وَمَا جَبُنَتْ خَيْلِي وَلٰكِنْ تَذَكَّرَتْ مَرَابِطَهَا مِنْ بَرْبَعِيصَ وَمَيْسَرَا

وَقَدْ يَحْسُنُ هٰذَا ٱلصِّنْفُ اِذَا كَانَ حَسَنَ ٱلْاِقْنَاعِ اَوْ صَادِقًا مِثْلُ قَوْلِ ٱلْآخَرِ يَعْتَذِرُ عَنِ ٱلْفِرَارِ:

ٱللّٰهُ يَعْلَمُ مَا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ حَتَّى رَمَوْا فَرَسِي بِأَشْقَرَ مُزْبِدِ

وَعَلِمْتُ اَنِّي اِنْ اُقَاتِلْ وَاحِدًا اُقْتَلْ وَلَا يَنْكِي عَدُوِّيَ مَشْهَدِي

فَصَدَدْتُ عَنْهُمْ وَٱلْاَحِبَّةُ فِيهِمِ طَمَعًا لَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمٍ مُفْسِدِ

فَإِنَّ هٰذَا ٱلْقَوْلَ اِنَّمَا حَسُنَ فِي ٱلْاَكْثَرِ لِصِدْقِهِ لِاَنَّ ٱلتَّغْيِيرَ ٱلَّذِي فِيهِ يَسِيرٌ وَلِذٰلِكَ قَالَ ٱلْقَائِلُ: يَا مَعْشَرَ ٱلْعَرَبِ لَقَدْ حَسَّنْتُمْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى ٱلْفِرَارَ (قَالَ) وَاِذَا كَانَتْ مَوَاضِعُ ٱلْغَلَطِ سِتَّةً وَمَوَاضِعُ ٱلتَّوْبِيخِ مُقَابِلَتَهَا فَيَجِبُ اَنْ تَكُونَ مَوَاضِعُ ٱلْغَلَطِ ٱلذَّاتِيِّ وَٱلتَّوْبِيخِ ٱلْخَاصِّيِّ اَثْنَيْ عَشَرَ مَوْضِعًا سِتَّةٌ اَغَالِيطُ وَسِتَّةٌ تَوْبِيخَاتٌ وَاَمْثِلَةُ ٱلتَّوْبِيخَاتِ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ عِنْدَنَا اِذْ كَانَ شُعَرَاؤُنَا لَمْ تَتَمَيَّزْ

لَهُمْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ وَلَا شَعَرُوا بِهَا فَهٰذَا هُوَ مَا تَأَدَّى إِلَى فَهْمِنَا مِمَّا ذَكَرَهُ أَرِسْطُو فِي كِتَابِهِ هٰذَا مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ أَصْنَافِ ٱلشِّعْرِ وَٱلْخَاصَّةِ بِٱلْمَدِيحِ أَعْنِي ٱلْمُشْتَرَكَةَ مِنْهَا أَيْضًا إِلَى ٱلْأَكْثَرِ أَوْ لِلْجَمِيعِ وَسَائِرُ مَا ذَكَرَهُ فِي كِتَابِهِ هٰذَا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلَّتِي بَيْنَ سَائِرِ أَصْنَافِ ٱلشِّعْرِ عِنْدَهُمْ وَبَيْنَ صِنْفِ ٱلْمَدِيحِ فَهُوَ خَاصٌّ بِهِمْ وَمَعَ ذٰلِكَ فَلَسْنَا نَجِدُهُ ذَكَرَ مِنْ ذٰلِكَ فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ ٱلْوَاصِلِ إِلَيْنَا إِلَّا بَعْضَ ذٰلِكَ. وَذٰلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هٰذَا ٱلْكِتَابَ لَمْ يُتَرْجَمْ عَلَى ٱلتَّمَامِ وَأَنَّهُ بَقِيَ مِنْهُ ٱلتَّكَلُّمُ فِي سَائِرِ فُصُولِ أَصْنَافٍ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ عِنْدَهُمْ وَقَدْ كَانَ هُوَ وَعَدَ بِٱلتَّكَلُّمِ فِي هٰذِهِ كُلِّهَا فِي صَدْرِ كِتَابِهِ. وَٱلَّذِي نَقَصَ مِمَّا هُوَ مُشْتَرَكٌ هُوَ ٱلتَّكَلُّمُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ لٰكِنْ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ ٱلْوُقُوفُ عَلَى ذٰلِكَ بِقُرْبٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قِيلَتْ فِي بَابِ ٱلْمَدِيحِ إِذْ كَانَتِ ٱلْأَضْدَادُ يُعْرَفُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ. وَأَنْتَ تَتَبَيَّنُ إِذَا وَقَفْتَ عَلَى مَا كَتَبْنَاهُ هَا هُنَا أَنَّ مَا شَعَرَ بِهِ أَهْلُ لِسَانِنَا مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلشِّعْرِيَّةِ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى مَا فِي كِتَابِ أَرِسْطُو هٰذَا وَفِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ نَزْرٌ يَسِيرٌ كَمَا يَقُولُهُ أَبُو نَصْرٍ. وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكَ أَيْضًا كَيْفَ تَرْجِعُ تِلْكَ ٱلْقَوَانِينُ إِلَى هٰذِهِ وَلَا مَا ذَكَرُوا مِنْ ذٰلِكَ عَلَى وَجْهِ ٱلصَّوَابِ مِمَّا ذُكِرَ عَلَى غَيْرِ ذٰلِكَ وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ

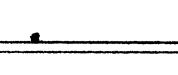

الفصل الثاني

في معرفة الشعراء

البحث الاول

في القدماء من الشعراء

(من كتاب المزهر في علوم اللغة للعلّامة جلال الدين السيوطي)

وَمِنْ قُدَمَاءِ ٱلشُّعَرَاءِ ٱعْصُرُ بْنُ سَعْدِ بْنِ قَيْسِ عَيْلَانَ بْنِ مُضَرَ وَهُوَ مُنَبِّهٌ ٱبُو بَاهِلَةَ وَغَنِيٌّ وَٱلطُّفَاوَةُ . وَمِنْهُمُ ٱلْمُسْتَوْعِرُ بْنُ رَبِيعَةَ ٱبْنِ كَعْبِ بْنِ نَهْدٍ وَكَانَ قَدِيمًا وَبَقِيَ بَقَاءً طَوِيلًا حَتَّى قَالَ :

وَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ ٱلْحَيَاةِ وَطُولِهَا وَٱزْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ ٱلسِّنِينَ مِئِينَا
مِائَةٌ ٱتَتْ مِنْ بَعْدِهَا مِائَتَانِ لِي وَٱزْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ ٱلشُّهُورِ سِنِينَا

وَمِنْهُمْ زُهَيْرُ بْنُ جَنَابِ ٱلْكَلْبِيُّ كَانَ قَدِيمًا شَرِيفًا وَهُوَ ٱلْقَائِلُ :

إِذَا قَالَتْ حَذَامِ فَصَدِّقُوهَا فَإِنَّ ٱلْقَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامِ

وَمِنْهُمْ جَذِيمَةُ ٱلْأَبْرَشُ وَلُجَيْمُ بْنُ صَعْبِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ بَكْرِ ٱبْنِ وَائِلٍ وَهُوَ ٱلْقَائِلُ :

مِنْ كُلِّ مَا نَالَ ٱلْفَتَى قَدْ نِلْتُهُ إِلَّا ٱلتَّحِيَّهْ

وَقَالَ اَمْرُؤُ الْقَيْسِ بْنُ حُجْرٍ:

عُوجَا عَلَى طَلَلِ الدِّيَارِ لَعَلَّنَا نَبْكِي الدِّيَارَ كَمَا بَكَى ابْنُ حَذَامِ

وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ طَيِّئٍ لَمْ نَسْمَعْ شِعْرَهُ الَّذِي بَكَى فِيهِ وَلَا شِعْرًا غَيْرَ هٰذَا الْبَيْتِ الَّذِي ذَكَرَهُ اَمْرُؤُ الْقَيْسِ. وَكَانَ اَوَّلَ مَنْ قَصَّدَ الْقَصَائِدَ وَذَكَرَ الْوَقَائِعَ الْمُهَلْهِلُ بْنُ رَبِيعَةَ التَّغْلِبِيُّ فِي قَتْلِ اَخِيهِ كُلَيْبٍ قَالَ الْفَرَزْدَقُ:

وَمُهَلْهِلُ الشُّعَرَاءِ ذَاكَ الْاَوَّلُ

وَزَعَمَتِ الْعَرَبُ اَنَّهُ كَانَ يَتَكَثَّرُ وَيَدَّعِي فِي قَوْلِهِ اَكْثَرَ مِنْ فِعْلِهِ. وَكَانَ شُعَرَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ فِي رَبِيعَةَ اَوَّلُهُمُ الْمُهَلْهِلُ وَهُوَ خَالُ اَمْرِئِ الْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ الْكِنْدِيِّ وَالْمُرَقِّشَانِ وَالْاَكْبَرُ مِنْهُمَا عَمُّ الْاَصْغَرِ وَالْاَصْغَرُ عَمُّ طَرَفَةَ بْنِ الْعَبْدِ. وَاسْمُ الْاَكْبَرِ عَوْفُ بْنُ سَعْدٍ وَاسْمُ الْاَصْغَرِ عَمْرُو بْنُ حَرْمَلَةَ وَقِيلَ رَبِيعَةُ بْنُ سُفْيَانَ. وَمِنْهُمْ سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ وَطَرَفَةُ بْنُ الْعَبْدِ وَعَمْرُ بْنُ قَمِيئَةَ وَالْمُتَلَمِّسُ وَهُوَ خَالُ طَرَفَةَ. وَالْاَعْشَى وَالْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ وَالْحَرْثُ بْنُ حِلِّزَةَ. ثُمَّ تَحَوَّلَ الشِّعْرُ فِي قَيْسٍ فَمِنْهُمُ النَّابِغَتَانِ وَزُهَيْرُ بْنُ اَبِي سُلْمَى وَابْنُهُ كَعْبٌ وَلَبِيدٌ وَالْحُطَيْئَةُ وَالشَّمَّاخُ وَاَخُوهُ مُزَرِّدٌ وَخِدَاشُ بْنُ زُهَيْرٍ ثُمَّ آلَ الَى تَمِيمٍ فَلَمْ يَزَلْ فِيهِمْ الَى الْيَوْمِ وَمِنْهُمْ كَانَ اَوْسُ بْنُ حَجَرٍ شَاعِرُ مُضَرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَتَقَدَّمْهُ اَحَدٌ مِنْهُمْ حَتَّى نَشَاَ النَّابِغَةُ وَزُهَيْرٌ وَاَخْمَلَاهُ وَبَقِيَ شَاعِرَ تَمِيمٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ غَيْرَ مُدَافَعٍ. وَكَانَ الْاَصْمَعِيُّ يَقُولُ اَوْسُ اَشْعَرُ بْنِ زُهَيْرٍ وَلٰكِنِ النَّابِغَةُ طَأْطَأَ مِنْهُ

وَكَانَ رَاوِيَةَ اَوْسِ زُهَيْرٌ وَكَانَ اَوْسٌ زَوْجَ اُمِّ زُهَيْرٍ (قَالَ عُمَرُ بْنُ شَبَّةَ) فِي طَبَقَاتِ الشُّعَرَاءِ: لِلشِّعْرِ وَالشُّعَرَاءِ اَوَّلٌ لَا يُوقَفُ عَلَيْهِ وَقَدِ اخْتَلَفَ فِي ذٰلِكَ الْعُلَمَاءُ وَادَّعَتِ الْقَبَائِلُ كُلُّ قَبِيلَةٍ لِشَاعِرِهَا اَنَّهُ الْاَوَّلُ وَلَمْ يَدَّعُوا ذٰلِكَ لِقَائِلِ الْبَيْتَيْنِ وَالثَّلَاثَةِ لِاَنَّهُمْ لَا يَسْتُونَ ذٰلِكَ شِعْرًا فَادَّعَتِ الْيَمَانِيَةُ لِاُمْرِءِ الْقَيْسِ وَبَنُو اَسَدٍ لِعُبَيْدِ بْنِ الْاَبْرَصِ وَتَغْلِبُ لِلْمُهَلْهِلِ وَبَكْرٌ لِعَمْرِو بْنِ قَمِيئَةَ وَالْمُرَقِّشِ الْاَكْبَرِ وَاِيَادٌ لِاَبِي دُؤَادٍ (قَالَ) وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ اَنَّ الْاَفْوَهَ الْاَوْدِيَّ اَقْدَمُ مِنْ هٰؤُلَاءِ وَاَنَّهُ اَوَّلُ مَنْ قَصَّدَ الْقَصِيدَ (قَالَ) وَهٰؤُلَاءِ النَّفَرُ الْمُدَّعَى لَهُمُ التَّقَدُّمُ فِي الشِّعْرِ مُتَقَارِبُونَ لَعَلَّ اَقْدَمَهُمْ لَا يَسْبِقُ الْهِجْرَةَ بِمِائَةِ سَنَةٍ اَوْ نَحْوِهَا (وَقَالَ ثَعْلَبٌ فِي اَمَالِيهِ) قَالَ الْاَصْمَعِيُّ: اَوَّلُ مَنْ يُرْوَى لَهُ كَلِمَةٌ تَبْلُغُ ثَلَاثِينَ بَيْتًا مِنَ الشِّعْرِ مُهَلْهِلٌ ثُمَّ ذُؤَيْبُ بْنُ كَعْبِ بْنِ عَمْرِو بْنِ تَمِيمٍ ثُمَّ ضَمْرَةُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ وَالْاَضْبَطُ بْنُ مُرَاعِبٍ (قَالَ) وَكَانَ بَيْنَ هٰؤُلَاءِ وَبَيْنَ الْاِسْلَامِ اَرْبَعُمِائَةِ سَنَةٍ وَكَانَ اُمْرُؤُ الْقَيْسِ بَعْدَ هٰؤُلَاءِ بِكَثِيرٍ (وَقَالَ ابْنُ خَالَوَيْهِ فِي كِتَابِ لَيْسَ) اَوَّلُ مَنْ قَالَ الشِّعْرَ ابْنُ حَذَامٍ (وَقَالَ ابْنُ رَشِيقٍ فِي الْعُمْدَةِ): الْمَشَاهِيرُ مِنَ الشُّعَرَاءِ اَكْثَرُ مِنْ اَنْ يُحِيطَ بِهِمْ عَدَدٌ وَمِنْهُمْ مَشَاهِيرُ قَدْ طَارَتْ اَسْمَاؤُهُمْ وَسَارَ شِعْرُهُمْ وَكَثُرَ ذِكْرُهُمْ حَتَّى غَلَبُوا عَلَى سَائِرِ مَنْ كَانَ فِي زَمَانِهِمْ وَلِكُلِّ اَحَدٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ تُفَضِّلُهُ وَتَتَعَصَّبُ لَهُ وَقَلَّمَا تَجْتَمِعُ عَلَى وَاحِدٍ اِلَّا مَا رُوِيَ عَنِ الرَّسُولِ فِي امْرِئِ الْقَيْسِ اَنَّهُ اَشْعَرُ الشُّعَرَاءِ وَقَائِدُهُمْ اِلَى النَّارِ يَعْنِي شُعَرَاءَ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْمُشْرِكِينَ

قَالَ دِعْبِلُ بْنُ عَلِيٍّ ٱلْخُزَاعِيُّ : وَلَا يَقُودُ قَوْمًا إِلَّا أَمِيرُهُمْ . قَالَ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ وَقَدْ سَأَلَهُ عَنِ ٱلشُّعَرَاءِ : أَمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ سَابِقُهُمْ خَسَفَ لَهُمْ عَيْنَ ٱلشِّعْرِ فَٱفْتَقَرَ عَنْ مَعَانٍ عُورٍ أَصَحَّ بَصَرًا (قَالَ عَبْدُ ٱلْكَرِيمِ) خَسَفَ مِنَ ٱلْخَسْفِ وَهِيَ ٱلْبِئْرُ ٱلَّتِي حُفِرَتْ فِي حِجَارَةٍ فَخَرَجَ مِنْهَا مَاءٌ كَثِيرٌ . وَقَوْلُهُ ٱفْتَقَرَ أَيْ فَتَحَ وَهُوَ مِنَ ٱلْفَقْرِ وَهُوَ فَمُ ٱلْقَنَاةِ وَقَوْلُهُ : عَنْ مَعَانٍ عُورٍ يُرِيدُ أَنَّ أَمْرَأَ ٱلْقَيْسِ مِنَ ٱلْيَمَنِ وَأَنَّ أَهْلَ ٱلْيَمَنِ لَيْسَتْ لَهُمْ فَصَاحَةُ نِزَارٍ فَجَعَلَ لَهُمْ مَعَانِيَ عُورًا فَكَانَ فَتْحُ أَمْرِئِ ٱلْقَيْسِ أَصَحَّ بَصَرًا فَإِنَّ أَمْرَأَ ٱلْقَيْسِ يَأْتِي ٱلنَّسَبِ نِزَارِيُّ ٱلدَّارِ وَٱلْمَنْشَإِ . وَفَضَّلَهُ عَلِيٌّ بِأَنْ قَالَ : رَأَيْتُهُ أَحْسَنَهُمْ نَادِرَةً وَأَسْبَقَهُمْ بَادِرَةً وَأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ لِرَغْبَةٍ وَلَا لِرَهْبَةٍ (وَقَدْ قَالَ ٱلْعُلَمَاءُ بِٱلشِّعْرِ) إِنَّ أَمْرَأَ ٱلْقَيْسِ لَمْ يَتَقَدَّمِ ٱلشُّعَرَاءَ لِأَنَّهُ قَالَ مَا لَمْ يَقُولُوا وَلٰكِنَّهُ سَبَقَ إِلَى أَشْيَاءَ فَٱسْتَحْسَنَهَا ٱلشُّعَرَاءُ وَٱتَّبَعُوهُ فِيهَا لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ لَطَفَ ٱلْمَعَانِيَ وَمِنِ ٱسْتَوْقَفَ عَلَى ٱلطُّلُولِ وَوَصَفَ ٱلنِّسَاءَ بِٱلظِّبَاءِ وَٱلْمَهَى وَٱلْبِيضِ وَشَبَّهَ ٱلْخَيْلَ بِٱلْعِقْبَانِ وَٱلْعِصِيِّ وَفَرَّقَ بَيْنَ ٱلنَّسِيبِ وَمَا سِوَاهُ مِنَ ٱلْقَصِيدَةِ وَقَرَّبَ مَأْخَذَ ٱلْكَلَامِ فَقَيَّدَ ٱلْأَوَابِدَ وَأَجَادَ ٱلِٱسْتِعَارَةَ وَٱلتَّشْبِيهَ وَحَكَى مُحَمَّدُ بْنُ سَلَّامٍ ٱلْجُمَحِيُّ : إِنَّ سَائِلًا سَأَلَ ٱلْفَرَزْدَقَ مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ ذُو ٱلْقُرُوحِ (وَسُئِلَ لَبِيدٌ) : مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱلضَّلِيلُ قِيلَ ثُمَّ مَنْ قَالَ : ٱلشَّابُّ ٱلْقَتِيلُ قِيلَ : ثُمَّ مَنْ قَالَ : ٱلشَّيْخُ أَبُو عَقِيلٍ يَعْنِي نَفْسَهُ . وَكَانَ ٱلْحُذَّاقُ يَقُولُونَ : ٱلْفُحُولُ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ ثَلَاثَةٌ

مُتَشَابِهُونَ زُهَيْرٌ وَٱلْفَرَزْدَقُ وَٱلنَّابِغَةُ وَٱلْأَخْطَلُ وَٱلْأَعْشَى وَجَرِيرٌ وَكَانَ خَلَفٌ ٱلْأَحْمَرُ يَقُولُ : أَجْمَعُهُمُ ٱلْأَعْشَى . وَقَالَ أَبُو عَمْرِو ٱبْنُ ٱلْعَلَاءِ : مَثَلُهُ مَثَلُ ٱلْبَازِي يَضْرِبُ كَبِيرَ ٱلطَّيْرِ وَصَغِيرَهُ . وَكَانَ أَبُو ٱلْخَطَّابِ ٱلْأَخْفَشُ يُقَدِّمُهُ جِدًّا لَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ أَحَدًا . وَحَكَى ٱلْأَصْمَعِيُّ عَنِ ٱبْنِ أَبِي طَرَفَةَ : كَفَاكَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ أَرْبَعَةٌ زُهَيْرٌ إِذَا رَغِبَ وَٱلنَّابِغَةُ إِذَا رَهِبَ وَٱلْأَعْشَى إِذَا طَرِبَ وَعَنْتَرَةُ إِذَا كَلِبَ وَزَادَ قَوْمٌ : وَجَرِيرٌ إِذَا غَضِبَ . وَقِيلَ لِكُثَيِّرٍ أَوْ لِنَصِيبٍ مَنْ أَشْعَرُ ٱلْعَرَبِ فَقَالَ : أَمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ إِذَا رَكِبَ وَزُهَيْرٌ إِذَا رَغِبَ وَٱلنَّابِغَةُ إِذَا رَهِبَ وَٱلْأَعْشَى إِذَا شَرِبَ . وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُقَدِّمُ ٱلنَّابِغَةَ وَيَقُولُ هُوَ أَحْسَنُهُمْ شِعْرًا وَأَعْذَبُهُمْ بَحْرًا وَأَبْعَدُهُمْ قَعْرًا . وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي ٱلْخَطَّابِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمُوسُومِ بِجَمْهَرَةِ أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ إِنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَالَ : أَصْحَابُ ٱلسَّبْعِ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلسُّمُطَ أَمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَزُهَيْرٌ وَٱلنَّابِغَةُ وَٱلْأَعْشَى وَلَبِيدٌ وَعَمْرٌو وَطَرَفَةُ . (قَالَ) وَقَالَ ٱلْمُفَضَّلُ : مَنْ زَعَمَ أَنَّ فِي ٱلسَّبْعِ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلسُّمُطَ لِأَحَدٍ غَيْرِ هٰؤُلَاءِ فَقَدْ أَبْطَلَ وَأَسْقَطَا مِنْ أَصْحَابِ ٱلْمُعَلَّقَاتِ عَنْتَرَةَ وَٱلْحَرْثَ بْنَ حِلِزَةَ وَأَثْبَتَا ٱلْأَعْشَى وَٱلنَّابِغَةَ وَكَانَتِ ٱلْمُعَلَّقَاتُ تُسَمَّى ٱلْمُذَهَّبَاتِ وَذٰلِكَ أَنَّهَا ٱخْتِيرَتْ مِنْ سَائِرِ ٱلشِّعْرِ فَكُتِبَتْ فِي ٱلْقَبَاطِيِّ بِمَاءِ ٱلذَّهَبِ وَعُلِّقَتْ عَلَى ٱلْكَعْبَةِ فَلِذٰلِكَ يُقَالُ مُذَهَّبَةُ فُلَانٍ إِذَا كَانَتْ أَجْوَدَ شِعْرِهِ . ذَكَرَ ذٰلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَقِيلَ بَلْ كَانَ ٱلْمَلِكُ إِذَا ٱسْتُجِيدَتْ قَصِيدَةٌ يَقُولُ : عَلِّقُوا لَنَا هٰذِهِ

لِتَكُونَ فِي خِزَانَتِهِ (وَقَالَ ٱلْجُمَحِيُّ) سَأَلَ عِكْرِمَةُ بْنُ جَرِيرٍ أَبَاهُ جَرِيرًا. مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ قَالَ: أَعَنِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ تَسْأَلُنِي أَمِ ٱلْإِسْلَامِ قَالَ: مَا أَرَدْتُ إِلَّا ٱلْإِسْلَامَ فَإِذْ ذَكَرْتَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَهْلِهَا قَالَ: زُهَيْرٌ شَاعِرُهُمْ (قَالَ) قُلْتُ: فَٱلْإِسْلَامُ قَالَ: ٱلْفَرَزْدَقُ نَبْعَةُ ٱلشِّعْرِ قُلْتُ: وَٱلْأَخْطَلُ قَالَ: يُجِيدُ مَدْحَ ٱلْمُلُوكِ وَيُصِيبُ صِفَةَ ٱلْخَمْرِ قُلْتُ: فَمَا تَرَكْتَ لِنَفْسِكَ قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي بَحَرْتُ ٱلشِّعْرَ بَحْرًا (وَسُئِلَ) ٱلْفَرَزْدَقُ مَرَّةً: مَنْ أَشْعَرُ ٱلْعَرَبِ فَقَالَ بِشْرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ. قِيلَ لَهُ: بِمَاذَا. قَالَ: بِقَوْلِهِ:

نَوَى فِي مُلْحِدٍ لَا بُدَّ مِنْهُ كَفَى بِٱلْمَوْتِ نَأْيًا وَٱغْتِرَابَا

ثُمَّ سُئِلَ جَرِيرٌ فَقَالَ: بِشْرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ قِيلَ: لَهُ بِمَاذَا قَالَ بِقَوْلِهِ:

رَهِينُ بِلًى وَكُلُّ فَتًى سَيَبْلَى فَسُقْيِ ٱلْجَيْبَ وَٱنْتَحِبِي ٱنْتِحَابَا

فَأَتَّفَقَا عَلَى بِشْرِ بْنِ أَبِي خَازِمٍ كَمَا تَرَى (وَكَتَبَ) ٱلْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ إِلَى قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْعَرِ ٱلشُّعَرَاءِ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَأَشْعَرِ شُعَرَاءِ وَقْتِهِ فَقَالَ: أَشْعَرُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ أَمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَأَضْرَبُهُمْ مَثَلًا طَرَفَةُ. وَأَمَّا شُعَرَاءُ ٱلْوَقْتِ فَٱلْفَرَزْدَقُ أَفْخَرُهُمْ وَجَرِيرٌ أَهْجَاهُمْ وَٱلْأَخْطَلُ أَوْصَفُهُمْ (وَأَمَّا ٱلْحُطَيْئَةُ) فَسُئِلَ مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ أَبُو دُؤَادٍ حَيْثُ يَقُولُ:

لَا أَعُدُّ ٱلْإِقْتَارَ عُدْمًا وَلَكِنْ فَقْدُ مَنْ قَدْ رُزِئْتُهُ ٱلْإِعْدَامُ

وَهُوَ كَانَ فَحْلًا قَدِيمًا وَكَانَ أَمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ يَتَوَكَّأُ عَلَيْهِ

وَيُرْوِي شِعْرَهُ فَلَمْ يَقُلْ فِيهِ اَحَدٌ مِنَ ٱلنُّقَّادِ مَقَالَةَ ٱلْحُطَيْئَةِ (وَسَأَلَهُ ٱبْنُ عَبَّاس مَرَّةً اُخْرَى) فَقَالَ ٱلَّذِي يَقُولُ :

وَمَنْ يَجْعَلِ ٱلْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ
يَفِرْهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ ٱلشَّتْمَ يُشْتَمِ

وَلَيْسَ ٱلَّذِي يَقُولُ :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ اَخًا لَا تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ اَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ

وَلٰكِنِ ٱلضَّرَاعَةُ اَفْسَدَتْهُ كَمَا اَفْسَدَتْ جَرْوَلًا وَٱللهِ لَوْلَا وَلَوْلَا لَكُنْتُ اَشْعَرَ ٱلْمَاضِينَ . وَاَمَّا ٱلْبَاقُونَ فَلَا اَشُكُّ اَنِّي اَشْعَرُهُمْ (وَزَعَمَ) ٱبْنُ اَبِي ٱلْخَطَّابِ اَنَّ اَبَا عَمْرٍو يَقُولُ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ : اَرْبَعَةٌ اَمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَٱلنَّابِغَةُ وَطَرَفَةُ وَمُهَلْهِلٌ وَقَالَ ٱلْمُفَضَّلُ : سُئِلَ ٱلْفَرَزْدَقُ فَقَالَ : اَمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ جَرِيرٌ : ٱلنَّابِغَةُ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱلْاَخْطَلُ : ٱلْاَعْشَى اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱبْنُ اَحْمَرَ : زُهَيْرٌ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ذُو ٱلرُّمَّةِ : لَبِيدٌ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ نَضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ : طَرَفَةُ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱلْكُمَيْتُ : عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَهٰذَا يَدُلُّكَ عَلَى ٱخْتِلَافِ ٱلْاَهْوَاءِ وَقِلَّةِ ٱلْاِتِّفَاقِ . وَكَانَ ٱبْنُ اَبِي اِسْحَاقَ وَهُوَ عَالِمٌ نَاقِدٌ وَمُقَدَّمٌ مَشْهُورٌ يَقُولُ : اَشْعَرُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْمُرَقِّشُ ٱلْاَكْبَرُ وَاَشْعَرُ ٱلْاِسْلَامِيِّينَ كُثَيِّرٌ وَهٰذَا غُلُوٌّ مُفْرِطٌ غَيْرَ اَنَّهُمْ مُجْمِعُونَ عَلَى اَنَّهُ اَوَّلُ مَنْ اَطَالَ ٱلْمَدْحَ (وَقِيلَ) لِنُصَيْبٍ مَرَّةً : مَنْ اَشْعَرُ ٱلْعَرَبِ فَقَالَ : اَخُو تَمِيمٍ يَعْنِي عَلْقَمَةَ بْنَ عَبَدَةَ وَقِيلَ اَوْسُ بْنُ حَجَرٍ . وَلَيْسَ لِاَحَدٍ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ بَعْدَ اَمْرِئِ ٱلْقَيْسِ مَا

لِزُهَيْرٍ وَٱلنَّابِغَةِ وَٱلْأَعْشَى فِي ٱلنُّفُوسِ . وعُلَمَاءُ ٱلْبَصْرَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ وَاَهْلُ ٱلْكُوفَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ ٱلْأَعْشَى وَاَهْلُ ٱلْحِجَازِ وَٱلْبَادِيَةِ كانُوا يُقَدِّمُونَ زُهَيْرًا وَٱلنَّابِغَةَ وَكَانَ اَهْلُ ٱلْعَالِيَةِ لَا يَعْدِلُونَ بِٱلنَّابِغَةِ اَحَدًا كَمَا اَنَّ اَهْلَ ٱلْحِجَازِ لَا يَعْدِلُونَ بِزُهَيْرٍ اَحَدًا . قَالَ ٱبْنُ سَلَامٍ : قَالَ اَهْلُ ٱلنَّظَرِ كَانَ زُهَيْرٌ اَحْصَفَهُمْ شِعْرًا وَاَبْعَدَهُمْ مِنْ سَخَفٍ وَاَجْمَعَهُمْ لِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي فِي قَلِيلٍ مِنَ ٱلْمَنْطِقِ . وَاَمَّا ٱلنَّابِغَةُ فَقَالَ مَنْ يَحْتَجُّ لَهُ كَانَ اَحْسَنَهُمْ دِيبَاجَةَ شِعْرٍ وَاَكْثَرَهُمْ رَوْنَقَ كَلَامٍ وَاَجْزَلَهُمْ بَيْتًا كَانَ شِعْرُهُ كَلَامٌ لَيْسَ فِيهِ تَكَلُّفٌ . وَزَعَمَ اَصْحَابُ ٱلْأَعْشَى اَنَّهُ اَكْثَرُهُمْ عَرُوضًا وَاَذْهَبُهُمْ فِي فُنُونِ ٱلشِّعْرِ وَاَكْثَرُهُمْ طَوِيلَةً جَيِّدَةً وَمَدْحًا وَهِجَاءً وَفَخْرًا وَصِفَةً (وَقَالَ بَعْضُ مُتَقَدِّمِي ٱلْعُلَمَاءِ) ٱلْأَعْشَى اَشْعَرُ ٱلْاَرْبَعَةِ قِيلَ لَهُ : فَاَيْنَ ٱلْخَبَرُ عَنِ ٱلنَّبِيِّ اِنَّ اِمْرَأَ ٱلْقَيْسِ بِيَدِهِ لِوَاءُ ٱلشِّعْرِ فَقَالَ : بِهٰذَا ٱلْخَبَرِ صَحَّ لِلْأَعْشَى مَا قُلْتُ وَذٰلِكَ اَنَّهُ مَا مِنْ حَامِلِ لِوَاءٍ اِلَّا عَلَى رَأْسِ اَمِيرٍ فَاَمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ حَامِلُ ٱللِّوَاءِ وَٱلْأَعْشَى ٱلْاَمِيرُ (وَسُئِلَ) حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ مَنْ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ : اَرَجُلًا اَمْ حَيًّا قِيلَ بَلْ حَيًّا قَالَ : اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ حَيًّا هُذَيْلٌ . قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ ٱلْجُمَحِيُّ وَاَشْعَرُ هُذَيْلٍ اَبُو ذُؤَيْبٍ غَيْرُ مُدَافَعٍ (وَقَالَ ٱلْاَصْمَعِيُّ) قَالَ اَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ : اَفْصَحُ ٱلشُّعَرَاءِ ٱلسُّنَا وَاَعْرَبُهُمْ اَهْلُ ٱلسَّرَوَاتِ وَهُنَّ ثَلَاثٌ وَهِيَ ٱلْجِبَالُ ٱلْمُطِلَّةُ عَلَى تِهَامَةَ مِمَّا يَلِي ٱلْيَمَنَ فَاَوَّلُهَا هُذَيْلٌ وَهِيَ تَلِي ٱلرَّمْلَ مِنْ تِهَامَةَ ثُمَّ عِلِّيَّةُ ٱلسَّرَاةِ

ٱلْوُسْطَى وَقَدْ شَرِكَتْهُمْ ثَقِيفٌ فِي نَاحِيَةٍ مِنْهَا . ثُمَّ سَرَاةُ ٱلْأَزْدِ
ٱزْدِ شَنُوءَةَ وَهُمْ بَنُو ٱلْحَرْثِ بْنِ كَعْبِ بْنِ ٱلْحَرْثِ بْنِ نَصْرِ بْنِ
ٱلْأَزْدِ وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو أَيْضًا: أَفْصَحُ ٱلنَّاسِ عُلْيَا تَمِيمٍ وَسُفْلَى قَيْسٍ
وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ) أَفْصَحُ ٱلنَّاسِ سَافِلَةُ ٱلْعَالِيَةِ وَعَالِيَةُ ٱلسَّافِلَةِ يَعْنِي
هَوَازِنَ وَأَهْلُ ٱلْعَالِيَةِ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَمَنْ يَلِيهَا وَدَنَا مِنْهَا
وَلُغَتُهُمْ لَيْسَتْ بِتِلْكَ عِنْدَهُ. وَقَوْمٌ يَرُدُّونَ تَقْدِمَةَ ٱلشِّعْرِ لِلْيَمَنِ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ
بِٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَفِي ٱلْإِسْلَامِ بِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ وَفِي ٱلْمُوَلَّدِينَ
بِٱلْحَسَنِ بْنِ هَانِئٍ وَأَصْحَابِهِ. وَأَشْعَرُ أَهْلِ ٱلْمَدَرِ بِإِجْمَاعٍ مِنَ ٱلنَّاسِ
وَٱتِّفَاقٍ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ. وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ: خُتِمَ ٱلشِّعْرُ
بِذِي ٱلرُّمَّةِ وَٱلرَّجَزُ بِرُؤْبَةَ بْنِ ٱلْعَجَّاجِ. وَزَعَمَ يُونُسُ: أَنَّ ٱلْعَجَّاجَ
لَيْسَ فِي شِعْرِهِ شَيْءٌ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَقُولَ: لَوْ كَانَ مَكَانَهُ
غَيْرُهُ لَكَانَ أَجْوَدَ (وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ) إِنَّمَا كَانَ ٱلشَّاعِرُ يَقُولُ
مِنَ ٱلرَّجَزِ ٱلْبَيْتَيْنِ وَٱلثَّلَاثَةَ وَنَحْوَ ذٰلِكَ إِذَا حَارَبَ أَوْ شَاتَمَ أَوْ
فَاخَرَ حَتَّى كَانَ ٱلْعَجَّاجُ أَوَّلَ مَنْ أَطَالَهُ وَقَصَّدَهُ وَشَبَّبَ فِيهِ وَذَكَرَ
ٱلدِّيَارَ وَٱسْتَوْقَفَ ٱلرِّكَابَ عَلَيْهَا وَٱسْتَوْصَفَ مَا فِيهَا وَبَكَى عَلَى
ٱلشَّبَابِ وَوَصَفَ ٱلرَّاحِلَةَ كَمَا فَعَلَتِ ٱلشُّعَرَاءُ بِٱلْقَصِيدِ فَكَانَ فِي
ٱلرَّجَزِ كَٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلشُّعَرَاءِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: أَوَّلُ مَنْ طَوَّلَ
شِعْرَ ٱلرَّجَزِ ٱلْأَغْلَبُ ٱلْعِجْلِيُّ وَهُوَ قَدِيمٌ. وَزَعَمَ ٱلْجُمَحِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ أَوَّلُ
مَنْ رَجَزَ. وَقَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ: وَلَا أَظُنُّ ذٰلِكَ صَحِيحًا لَهُ
لِأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ عَلَى عَهْدِ ٱلنَّبِيِّ وَنَحْنُ نَجِدُ ٱلرَّجَزَ أَقْدَمَ مِنْ ذٰلِكَ.

وَكَانَ اَبُو عُبَيْدَةَ يَقُولُ: اُفْتُتِحَ الشِّعْرُ بِاَمْرِئِ الْقَيْسِ وَخُتِمَ بِابْنِ هَرْمَةَ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: الشُّعَرَاءُ ثَلَاثَةٌ جَاهِلِيٌّ وَاِسْلَامِيٌّ وَمُوَلَّدٌ فَالْجَاهِلِيُّ اَمْرُؤُ الْقَيْسِ وَالْاِسْلَامِيُّ ذُو الرُّمَّةِ وَالْمُوَلَّدُ ابْنُ الْمُعْتَزِّ وَهٰذَا قَوْلُ مَنْ يُفَضِّلُ الْبَدِيعَ وَخَاصَّةً التَّشْبِيهَ عَلَى جَمِيعِ فُنُونِ الشِّعْرِ. وَطَائِفَةٌ اُخْرَى تَقُولُ بَلِ الثَّلَاثَةُ الْاَعْشَى وَالْاَخْطَلُ وَاَبُو الْفَوَارِسِ وَهٰذَا مَذْهَبُ اَصْحَابِ الْخَبَرِ وَمَا نَاسَبَهَا وَمَنْ يَقُولُ بِالتَّصَرُّفِ وَقِلَّةِ التَّكَلُّفِ. وَقَالَ قَوْمٌ بَلِ الثَّلَاثَةُ مُهَلْهِلٌ وَابْنُ اَبِي رَبِيعَةَ وَعَبَّاسُ بْنُ الْاَحْنَفِ وَهٰذَا قَوْلُ مَنْ يُؤْثِرُ الْاَنَفَةَ وَسُهُولَةَ الْكَلَامِ وَالْقُدْرَةَ عَلَى الصَّنْعَةِ وَالتَّجْوِيدَ فِي فَنٍّ وَاحِدٍ وَلَيْسَ فِي الْمُوَلَّدِينَ اَشْهَرُ اسْمًا مِنَ الْحَسَنِ ثُمَّ حَبِيبٍ وَالْبُحْتُرِيِّ. وَيُقَالُ اِنَّهُمَا اَخْمَلَا فِي زَمَانِهِمَا خَمْسِمِائَةِ شَاعِرٍ كُلُّهُمْ مُجِيدٌ ثُمَّ تَبِعَهُمَا فِي الْاِشْتِهَارِ ابْنُ الرُّومِيِّ وَابْنُ الْمُعْتَزِّ وَصَارَ اسْمُ ابْنِ الْمُعْتَزِّ حَتَّى صَارَ كَالْحَسَنِ فِي الْمُوَلَّدِينَ وَاَمْرِئِ الْقَيْسِ فِي الْقُدَمَاءِ. ثُمَّ جَاءَ الْمُتَنَبِّي فَمَلَأَ الدُّنْيَا وَهٰذَا كُلُّهُ كَلَامُ ابْنِ رَشِيقٍ

قَالَ صَاحِبُ الْاَغَانِيِّ:

وَمِمَّنْ صَنَعَ مِنْ اَوْلَادِ الْخُلَفَاءِ فَاَجَادَ وَاَحْسَنَ وَبَرَعَ وَتَقَدَّمَ اَهْلَ عَصْرِهِ فَضْلًا وَشَرَفًا وَاَدَبًا وَشِعْرًا وَظَرْفًا وَتَصَرُّفًا فِي سَائِرِ الْآدَابِ اَبُو الْعَبَّاسِ عَبْدُ اللّٰهِ بْنُ الْمُعْتَزِّ بِاللّٰهِ وَاَمْرُهُ مَعَ قُرْبِ عَصْرِنَا هٰذَا مَشْهُورٌ فِي فَضَائِلِهِ وَآدَابِهِ. وَشِعْرُهُ وَاِنْ كَانَ فِيهِ رِقَّةُ الْمُلُوكِيَّةِ وَغَزَلُ الظُّرَفَاءِ وَهَلْهَلَةُ الْمُحْدَثِينَ

فَانَّ فِيهِ اَشْيَاءَ كَثِيرَةً تَجْرِي فِي اُسْلُوبِ الْمُجِيدِينَ وَلَا تُقَصِّرُ عَنْ مَدَى السَّابِقِينَ وَاَشْيَاءَ ظَرِيفَةً مِنْ اَشْعَارِ الْمُلُوكِ فِي جِنْسِ مَا هُمْ بِسَبِيلِهِ لَيْسَ عَلَيْهِ اَنْ يَتَشَبَّهَ فِيهَا بِفُحُولِ الْجَاهِلِيَّةِ. فَلَيْسَ يُمْكِنُ وَاصِفًا لِصُبُوحٍ فِي مَجْلِسِ شَكْلٍ ظَرِيفٍ بَيْنَ نُدَامَى وَقِيَانٍ وَعَلَى مَيَادِينَ مِنَ النَّوْرِ وَالْبَنَفْسَجِ وَالنَّرْجِسِ وَمَنْضُودٍ مِنْ اَمْثَالِ ذٰلِكَ اِلَى غَيْرِ مَا ذَكَرْتُهُ مِنْ جِنْسِ الْمَجَالِسِ وَفَاخِرِ الْفَرْشِ وَمُخْتَارِ الْاٰلَاتِ وَرِقَّةِ الْخَدَمِ اَنْ يَعْدِلَ بِذٰلِكَ عَمَّا يُشْبِهُهُ مِنَ الْكَلَامِ السَّبْطِ الرَّقِيقِ الَّذِي يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ حَضَرَ اِلَى جَعْدِ الْكَلَامِ وَوَحْشِيِّهِ وَاِلَى وَصْفِ الْبِيدِ وَالْمَهَامِهِ وَالظِّبَاءِ وَالظَّلِيمِ وَالنَّاقَةِ وَالْجَمَلِ وَالدِّيَارِ وَالْقِفَارِ وَالْمَنَازِلِ الْخَالِيَةِ الْمَهْجُورَةِ وَلَا اِذَا عَدَلَ عَنْ ذٰلِكَ وَاَحْسَنَ قِيلَ لَهُ مُسِيءٌ وَلَا اَنْ يَغْمِطَ حَقَّهُ كُلُّهُ اِذَا اَحْسَنَ الْكَثِيرَ وَتَوَسَّطَ فِي الْبَعْضِ وَقَصَّرَ فِي الْيَسِيرِ وَيُنْسَبَ اِلَى التَّقْصِيرِ فِي الْجَمِيعِ لِنَشْرِ الْمَقَابِحِ وَطَيِّ الْمَحَاسِنِ. فَلَوْ شَاءَ اَنْ يَفْعَلَ هٰذَا كُلُّ اَحَدٍ بِمَنْ تَقَدَّمَ لَوَجَدَ مَسَاغًا وَلَوْ اَنَّ قَائِلًا اَرَادَ الطَّعْنَ عَلَى صُدُورِ الشُّعَرَاءِ لَقَدَرَ اَيْ اَنْ يَطْعَنَ عَلَى الْاَعْشَى وَهُوَ اَحَدُ مَنْ يُقَدِّمُهُ الْاَوَائِلُ عَلَى سَائِرِ الشُّعَرَاءِ بِقَوْلِهِ:

فَاَصَابَ حَبَّةَ قَلْبِهِ وَطِحَالَهَا

وَبِقَوْلِهِ:

وَقَدْ كَانَ اِنْ يَأْمُرْهُمْ كُلَّ لَيْلَةٍ بِقِتٍّ وَتَعْلِيقٍ فَقَدْ كَادَ يَسْبُقُ

وَاَمْثَالُ هٰذَا كَثِيرَةٌ. وَاِنَّمَا عَلَى الْاِنْسَانِ اَنْ يَحْفَظَ مِنَ

ٱلشَّيْءِ ٱحْسَنَهُ وَيُلْغِيَ مَا لَا يُسْتَحْسَنُهُ فَلَيْسَ مَأْخُوذًا بِهِ وَلٰكِنَّ أَقْوَامًا
أَرَادُوا أَنْ يَرْفَعُوا أَنْفُسَهُمُ ٱلْوَضِيعَةَ وَيَشِيدُوا بِذِكْرِهِمِ ٱلْخَامِلِ
وَيُعْلُوا أَقْدَارَهُمُ ٱلسَّاقِطَةَ بِٱلطَّعْنِ عَلَى أَهْلِ ٱلْفَضْلِ وَٱلْقَدْحِ فِيهِمْ
فَلَا يَزْدَادُونَ بِذٰلِكَ إِلَّا ضَعَةً وَلَا يَزْدَادُ ٱلْآخَرُ إِلَّا ٱرْتِفَاعًا. أَلَا تَرَى
إِلَى ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ قَدْ قُتِلَ أَسْوَأَ قِتْلَةٍ وَدَرَجَ فَلَمْ يَبْقَ لَهُ خَلَفٌ يَفْرُطُهُ
وَلَا عَقِبٌ يَرْفَعُ مِنْهُ وَمَا يَزْدَادُ بِأَدَبِهِ وَشِعْرِهِ وَفَضْلِهِ وَحُسْنِ أَخْبَارِهِ
وَتَصَرُّفِهِ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنَ ٱلْعُلُومِ إِلَّا رِفْعَةً وَعُلُوًّا وَلَا نَظَرَ إِلَى أَضْدَادِهِ
كُلَّمَا ٱزْدَادُوا فِي طَعْنِهِ وَتَقْرِيظِ أَنْفُسِهِمْ. وَأَسْلَافُهُمُ ٱلَّذِينَ كَانُوا
مِثْلَهُمْ فِي ثَلْبِهِ وَٱلطَّعْنِ عَلَيْهِ زَادُوهَا سُقُوطًا وَضَعَةً وَكُلَّمَا وَصَفُوا
أَشْعَارَهُمْ وَقَرَّظُوا آدَابَهُمْ زَادُوا بِهَا ثِقَلًا وَمَقْتًا فَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمِ
ٱلْمُحَصِّلُ ٱلْمُوَافِقُ عَدَلُوا عَنْ ثَلْبِهِ فِي ٱلْآدَابِ إِلَى ٱلتَّشْنِيعِ بِأَمْرِ
ٱلدِّينِ وَهِجَاءِ آلِ أَبِي طَالِبٍ وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ فَعَلَ ذٰلِكَ وَشَنَّعَ بِهِ عَلَى
آلِ أَبِي طَالِبٍ عِنْدَ ٱلْمُكْتَفِي حَتَّى نَهَاهُمْ عَنْهُ فَعَدَلُوا عَنْ عَيْبِ
أَنْفُسِهِمْ بِذٰلِكَ إِلَى عَيْبِهِ وَٱرْتَكَبُوا أَكْثَرَ مِنْهُ. وَكَانَ عَبْدُ ٱللّٰهِ
حَسَنَ ٱلْعِلْمِ بِصِنَاعَةِ ٱلْمُوسِيقَى وَٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلنَّغَمِ وَعِلَلِهَا وَلَهُ فِي
ذٰلِكَ وَفِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلْآدَابِ كُتُبٌ مَشْهُورَةٌ وَمُرَاسَلَاتٌ جَرَتْ
بَيْنَهُ وَبَيْنَ عُبَيْدِ ٱللّٰهِ بْنِ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ طَاهِرٍ وَبَيْنَ بَنِي حَمْدُونَ
وَغَيْرِهِمْ تَدُلُّ عَلَى فَضْلِهِ وَغَزَارَةِ عِلْمِهِ وَأَدَبِهِ وَلَقَدْ قَرَأْتُ بِخَطِّ عُبَيْدِ
ٱللّٰهِ بْنِ طَاهِرٍ رُقْعَةً إِلَيْهِ بِخَطِّهِ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْهِ بِرِسَالَةٍ إِلَى ٱبْنِ
حَمْدُونَ فِي أَنَّهُ يَجُوزُ وَلَا يُنْكَرُ أَنْ يُغَيِّرَ ٱلْإِنْسَانُ بَعْضَ نَغَمِ ٱلْغِنَاءِ

ٱلْقَدِيمِ وَيَعْدِلَ بِهَا إِلَى مَا يَحْسُنُ فِي خُلُقِهِ وَمَذْهَبِهِ وَهِيَ رِسَالَةٌ طَوِيلَةٌ لَيْسَ هٰذَا مَوْضِعُ ذِكْرِهَا

البحث الثاني

في المقلّين من الشعراء

(من الكتاب نفسه)

ثُمَّ قَالَ: وَلَمَّا كَانَ ٱلْمَشَاهِيرُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ كَمَا قَدَّمْتُ اَكْثَرَ مِنْ اَنْ يُحْصَوْا ذَكَرْتُ مِنَ ٱلْمُقِلِّينَ مَنْ وَسِعَ ذِكْرُهُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ فَمِنْهُمْ طَرَفَةُ بْنُ ٱلْعَبْدِ وَعَبِيدُ بْنُ ٱلْاَبْرَصِ وَعَلْقَمَةُ ٱلْفَحْلُ وَعَدِيُّ ٱبْنُ زَيْدٍ. وَطَرَفَةُ فَضَلَ ٱلنَّاسَ بِوَاحِدَةٍ عِنْدَ ٱلْعُلَمَاءِ وَهِيَ ٱلْمُعَلَّقَةُ:

لِخَوْلَةَ اَطْلَالٌ بِبُرْقَةِ تَهْمَدِ

وَلَهُ سِوَاهَا يَسِيرٌ لِاَنَّهُ قُتِلَ صَغِيرًا حَوْلَ ٱلْعِشْرِينَ فِيمَا رُوِيَ وَاَصَحُّ مَا فِي ذٰلِكَ قَوْلُ اُخْتِهِ تَرْثِيهِ:

عَدَدْنَا لَهُ سِتًّا وَعِشْرِينَ حِجَّةً فَلَمَّا تَوَفَّاهَا ٱسْتَوَى سَيِّدًا ضَخْمَا
فَجِعْنَا بِهِ لَمَّا رَجَوْنَا اِيَابَهُ عَلَى خَيْرِ حَالٍ لَا وَلِيدًا وَلَا فَحْمَا

اَنْشَدَهُ ٱلْمُبَرِّدُ وَٱلْفَحْمُ ٱلْمُتَنَاهِي فِي ٱلسِّنِّ. وَعُبَيْدٌ قَلِيلُ ٱلشِّعْرِ فِي اَيْدِي ٱلنَّاسِ عَلَى قِدَمِ ذِكْرِهِ وَعِظَمِ شُهْرَتِهِ وَطُولِ عُمْرِهِ يُقَالُ اِنَّهُ عَاشَ ثَلَاثَمِائَةِ سَنَةٍ وَكَذٰلِكَ اَبُو دُؤَادٍ. وَلِعَلْقَمَةَ ٱلْفَحْلِ ثَلَاثُ قَصَائِدَ مَشْهُورَاتٌ اِحْدَاهَا قَوْلُهُ:

(ذَهَبَتْ مِنَ ٱلْهِجْرَانِ فِي كُلِّ مَذْهَبِ) وَٱلثَّانِيَةُ قَوْلُهُ (طَحَا بِكَ قَلْبٌ

فِي ٱلْحِسَانِ طَرُوبُ) وَٱلثَّالِثَةُ قَوْلُهُ (هَلْ مَا عَلِمْتَ وَمَا ٱسْتُودِعْتَ مَكْتُومُ)

وَأَمَّا عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ فَمَشْهُورَاتُهُ أَرْبَعٌ قَوْلُهُ: (أَرَوَاحٌ مُوَدِّعٌ أَمْ بُكُورُ) وَقَوْلُهُ (أَتَعْرِفُ رَسْمَ ٱلدَّارِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ) وَقَوْلُهُ (لَيْسَ شَيْءٌ عَلَى ٱلْمَنُونِ بِبَاقِ) وَقَوْلُهُ:

لَمْ أَرَ مِثْلَ ٱلْفِتْيَانِ فِي غِيَرِ ٱلْأَ يَّامِ يَنْسَوْنَ مَا عَوَاقِبُهَا

وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: عَدِيٌّ فِي ٱلشُّعَرَاءِ مِثْلُ سُهَيْلٍ فِي ٱلنُّجُومِ يُعَارِضُهَا وَلَا يَجْرِي مَعَهَا. هَؤُلَاءِ أَشْعَارُهُمْ كَثِيرَةٌ فِي ذَاتِهَا قَلِيلَةٌ فِي أَيْدِي ٱلنَّاسِ ذَهَبَتْ بِذَهَابِ ٱلرُّوَاةِ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَهَا.

وَمِنَ ٱلْمُقِلِّينَ سَلَامَةُ بْنُ جَنْدَلٍ وَحُصَيْنُ بْنُ ٱلْحُمَامِ ٱلْمُرِّيُّ وَٱلْمُتَلَمِّسُ وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ كُلُّ أَشْعَارِهِمْ قَلِيلٌ فِي ذَاتِهِ جَيِّدُ ٱلْجُمْلَةِ. وَيُرْوَى عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ أَنَّهُ قَالَ: ٱتَّفَقُوا أَنَّ أَشْعَرَ ٱلْمُقِلِّينَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ ثَلَاثَةٌ ٱلْمُتَلَمِّسُ وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ وَحُصَيْنُ بْنُ ٱلْحُمَامِ ٱلْمُرِّيُّ. وَأَمَّا أَصْحَابُ ٱلْوَاحِدَةِ فَطَرَفَةُ أَوَّلُهُمْ وَمِنْهُمْ عَنْتَرَةُ وَٱلْحَرِثُ ٱبْنُ حِلِّزَةَ وَعَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ أَصْحَابُ ٱلْمُعَلَّقَاتِ ٱلْمَشْهُورَاتِ وَعَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبَ وَٱلْأَشْعَرُ بْنُ حُمْرَانَ ٱلْجَعْفِيِّ وَسُوَيْدُ بْنُ أَبِي كَاهِلٍ وَٱلْأَسْوَدُ بْنُ يَعْفُرَ وَكَانَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ مُقِلًّا كَثِيرَ ٱلْمَعَانِي وَٱلتَّصَرُّفِ لَا يَصِحُّ لَهُ إِلَّا نَيِّفٌ وَعِشْرُونَ شِعْرًا بَيْنَ طَوِيلٍ وَقِطْعَةٍ

البحث الثالث

في المغلَّبين من الشعراء

(من الكتاب نفسه)

وَأَمَّا ٱلْمُغَلَّبُونَ فَمِنْهُمْ تَابِغَةُ بْنُ جَعْدَةَ وَمَعْنَى ٱلْمُغَلَّبِ ٱلَّذِي لَا زَالَ مَغْلُوبًا قَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ:

فَإِنَّكَ لَمْ يَفْخَرْ عَلَيْكَ كَفَاخِرٍ ضَعِيفٍ وَلَمْ يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّبِ

يَعْنِي إِذَا قَدَرَ لَمْ يُبْقِ وَقَدْ غَلَبَ عَلَى ٱلْجَعْدِيِّ ٱوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ وَلَيْلَى ٱلْأَخْيَلِيَّةُ وَغَيْرُهُمَا. وَقِيلَ إِنَّ مَوْتَ ٱلْجَعْدِيِّ كَانَ بِسَبَبِ لَيْلَى ٱلْأَخْيَلِيَّةِ فَرَّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا فَمَاتَ فِي ٱلطَّرِيقِ مُسَافِرًا. وَٱلْمُغَلَّبُونَ ٱلزِّبْرِقَانُ غَلَبَهُ عَمْرُو بْنُ ٱلْأَهْتَمِ وَغَلَبَهُ ٱلْمُخَبَّلُ ٱلسَّعْدِيُّ وَغَلَبَهُ ٱلْحُطَيْئَةُ وَقَالَ يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ كَانَ ٱلْبَعِيثُ مُغَلَّبًا فِي ٱلْخُطَبِ

قَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ فِي بَابِ ٱلْقُدَمَاءِ وَٱلْمُحْدَثِينَ: كُلُّ قَدِيمٍ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فَهُوَ مُحْدَثٌ فِي زَمَانِهِ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى مَنْ كَانَ قَبْلَهُ وَكَانَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ يَقُولُ لَقَدْ حَسُنَ هٰذَا ٱلْمُوَلَّدُ حَتَّى هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ صِبْيَانَنَا بِرِوَايَتِهِ يَعْنِي بِذٰلِكَ شِعْرَ جَرِيرٍ وَٱلْفَرَزْدَقِ فَجَعَلَهُ مُوَلَّدًا بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى شِعْرِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْمُخَضْرَمِينَ وَكَانَ لَا يَعُدُّ ٱلشِّعْرَ إِلَّا مَا كَانَ لِلْمُتَقَدِّمِينَ قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ: جَلَسْتُ إِلَيْهِ عَشْرَ حِجَجٍ فَمَا سَمِعْتُهُ يَحْتَجُّ بِبَيْتٍ إِسْلَامِيٍّ وَسُئِلَ عَنِ ٱلْمُوَلَّدِينَ فَقَالَ: مَا كَانَ مِنْ حَسَنٍ فَقَدْ سُبِقُوا إِلَيْهِ وَمَا كَانَ مِنْ

قبيح فهو من عندهم ليس النمط واحدا هذا مذهب ابي عمرو واصحابه كالاصمعي وابن الاعرابي اعني ان كل واحد منهم يذهب في اهل عصره هذا المذهب ويقدم من قبلهم وليس ذلك لشيء الا لحاجتهم في الشعر الى الشاهد وقلة ثقتهم بما يأتي به المولدون فاما ابن قتيبة فقال: لم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص قوما دون قوم بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر وجعل كل قديم حديثا في عصره. ثم قال ابن رشيق في باب آخر: طبقات الشعراء اربع جاهلي قديم ومخضرم وهو الذي ادرك الجاهلية والاسلامي ومحدث ثم صار المحدثون طبقات اولى وثانية على التدريج هكذا في الهبوط الى وقتنا هذا فليعلم المتأخر مقدار ما بقي له من الشعر مقتفيا اشعار من قبله لينظر كم بين المخضرم والجاهلي وبين الاسلامي والمخضرم وان للمحدث الاول فضلا عمن بعده في المرتبة. ففي الجاهلية والاسلاميين من ذهب بكل ملاحة ورشاقة وسبق الى كل طلاوة ولباقة (قال) ابو الحسن الاخفش: يقال ماء خضرم اذا تناهى في الكثرة والسعة فمنه سمي الرجل الذي شهد الجاهلية والاسلام مخضرما كأنه استوفى الامرين (قال) ويقال: اذن مخضرمة اذ كانت مقطوعة فكأنه انقطع عن الجاهلية الى الاسلام. (وحكى) ابن قتيبة عن الاصمعي قال: اسلم قوم في

ٱلْجَاهِلِيَّةِ عَلَى إِبِلٍ قَطَعُوا آذَانَهَا فَسُمِّيَ كُلُّ مَنْ أَدْرَكَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ وَٱلْإِسْلَامَ مُخْضَرَمًا وَزَعَمَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ مُخَضْرَمًا حَتَّى يَكُونَ إِسْلَامُهُ بَعْدَ وَفَاةِ ٱلرَّسُولِ وَقَدْ أَدْرَكَهُ كَبِيرًا فَلَمْ يُسْلِمْ (قَالَ) ٱبْنُ رَشِيقٍ: وَهٰذَا عِنْدِي خَطَأٌ لِأَنَّ ٱلنَّابِغَةَ ٱلْجَعْدِيَّ وَلَبِيدًا قَدْ وَقَعَ عَلَيْهِمَا هٰذَا ٱلِٱسْمُ فَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ ٱلْحَسَنِ كُرَاعٌ فَقَدْ حَكَى: شَاعِرٌ مُخَضْرَمٌ بِجَاءِ غَيْرِ مُعْجَمَةٍ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْخَضْرَمَةِ وَهِيَ ٱلْخَلْطَةُ لِأَنَّهُ خَلَطَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ وَٱلْإِسْلَامَ وَقَالُوا: ٱلشُّعَرَاءُ أَرْبَعَةٌ: شَاعِرٌ خِنْذِيذٌ وَهُوَ ٱلَّذِي يَجْمَعُ إِلَى جُودَةِ شِعْرِهِ رِوَايَةَ ٱلْجَيِّدِ مِنْ شِعْرِ غَيْرِهِ. وَسُئِلَ رُؤْبَةُ عَنِ ٱلْفُحُولِ فَقَالَ: هُمُ ٱلرُّوَاةُ. وَشَاعِرٌ مُفْلِقٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا رِوَايَةَ لَهُ إِلَّا أَنَّهُ مُجَوِّدٌ كَٱلْخِنْذِيذِ فِي شِعْرِهِ. وَشَاعِرٌ فَقَطْ وَهُوَ فَوْقَ ٱلرَّدِيءِ بِدَرَجَةٍ وَشُعْرُورٌ وَهُوَ لَا شَيْءَ. قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ:

يَا رَابِعَ ٱلشُّعَرَاءِ كَيْفَ هَجَوْتَنِي ... وَزَعَمْتَ أَنِّي مُفْحَمٌ لَا أَنْطِقُ

وَقِيلَ بَلْ هُمْ شَاعِرٌ مُفْلِقٌ مُطْبِقٌ وَشُوَيْعِرٌ وَشُعْرُورٌ وَٱلْمُفْلِقُ ٱلَّذِي يَأْتِي فِي شِعْرِهِ بِٱلْفَلْقِ وَهُوَ ٱلْعَجَبُ وَقِيلَ ٱلدَّاهِيَةُ (قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ) ٱلشُّوَيْعِرُ حُمْرَانُ بْنُ أَبِي حُمْرَانَ سَمَّاهُ بِذٰلِكَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَمِثْلُ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْمَعْرُوفِ بِٱلشُّوَيْعِرِ. قَالَ ٱلْجَاحِظُ: وَٱلشَّاعِرُ عَبْدُ بَالِيلَ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ لَيْثٍ وَقِيلَ ٱسْمُهُ رَبِيعَةُ بْنُ عُثْمَانَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ شَاعِرٌ وَشُوَيْعِرٌ وَشُعْرُورٌ. قَالَ ٱلْعَبْدِيُّ فِي شَاعِرٍ يُدْعَى ٱلْمُفَوَّفَ مِنْ بَنِي ضَبَّةَ ثُمَّ مِنْ بَنِي خَمِيسٍ:

أَلَا تَنْهَى سَرَاةُ بَنِي خَمِيسٍ ... شُوَيْعِرَهَا فُوَيْلِيَةَ ٱلْأَفَاعِي

فَسَمَّاهُ شُوَيْعِرًا. وَقَالِيَةُ ٱلْأَفَاعِي دُوَيْبَّةٌ فَوْقَ ٱلْخُنْفَسَاءِ فَصَغَّرَهَا تَحْقِيرًا بِهِ وَزَعَمَ ٱلْحَاتِمِيُّ اَنَّ ٱلنَّابِغَةَ سُئِلَ: مَنْ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ مَنِ ٱسْتُجِيدَ جَيِّدُهُ وَاَضْحَكَ رَدِيئُهُ كَانَ مِنْ سَفِلَةِ ٱلشُّعَرَاءِ اِلَّا اَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ فِي ٱلْهِجَاءِ خَاصَّةً وَقَالَ ٱلْحُطَيْئَةُ:

ٱلشِّعْرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سُلَّمُهُ وَٱلشِّعْرُ لَا يَسْطِيعُهُ مَنْ يَظْلِمُهْ
اِذَا ٱرْتَقَى فِيهِ ٱلَّذِي لَا يَعْلَمُهُ زَلَّتْ بِهِ اِلَى ٱلْحَضِيضِ قَدَمُهْ
يُرِيدُ اَنْ يُعْرِبَهُ فَيُعْجِمُهْ

وَقَالَ بَعْضُهُمْ:

ٱلشُّعَرَاءُ فَاعْلَمَنْ اَرْبَعَهْ فَشَاعِرٌ لَا يُرْتَجَى لِمَنْفَعَهْ
وَشَاعِرٌ يُنْشِدُ وَسْطَ ٱلْمَجْمَعَهْ وَشَاعِرٌ آخَرُ لَا يُجْرَى مَعَهْ
وَشَاعِرٌ يُقَالُ خَمْرٌ فِي دَعَهْ

قَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ: وَاِنَّمَا سُمِّيَ ٱلشَّاعِرُ شَاعِرًا لِاَنَّهُ يَشْعُرُ بِمَا لَا يَشْعُرُ بِهِ غَيْرُهُ. قَالَ ٱبْنُ خَالَوَيْهِ فِي شَرْحِ ٱلدُّرَيْدِيَّةِ يُقَالُ: اَنْشَدْتُهُ مُقَلَّدَاتِ ٱلشُّعَرَاءِ اَيْ اَبْيَاتَهُمُ ٱلطَّنَّانَةَ ٱلْمُسْتَحْسَنَةَ وَيَقُولُ آخَرُونَ: اِنَّ ٱلْمُقَلَّدَ مِنَ ٱلشِّعْرِ مَا كَانَ ٱسْمُ ٱلْمَمْدُوحِ فِيهِ مَذْكُورًا فِي قَافِيَتِهِ وَيُقَالُ: هٰذَا بَيْتُ عُقْرِ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ اَيْ اَجْوَدُ بَيْتٍ فِيهَا كَمَا يُقَالُ: هٰذَا بَيْتٌ طَنَّانٌ. اه. وَفِي ٱلْمَقْصُورِ وَٱلْمَمْدُودِ لِلْقَالِي: قَالَ اَبُو عُبَيْدَةَ فِي قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْيَانِيِّ:

يَصُدُّ ٱلشَّاعِرَ ٱلثُّنْيَانُ عَنِّي صُدُودَ ٱلْبِكْرِ عَنْ قَرْمِ ٱلْهِجَانِ

قَالَ ٱلثُّنْيَانُ ٱلَّذِي هُوَ شَاعِرٌ وَاَبُوهُ شَاعِرٌ كَكَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ

وَعَبْدِ ٱلرَّحْمَانِ بْنِ حَسَّانَ وَرُؤْبَةَ بْنِ ٱلْعَجَّاجِ. وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو ٱلشَّيْبَانِيُّ ٱلثُّنْيَانُ ٱلَّذِي يُسْتَثْنَى فَيُقَالُ مَا فِي ٱلْقَوْمِ أَشْعَرُ مِنْ فُلَانٍ إِلَّا فُلَانٌ فَفُلَانٌ ٱلْمُسْتَثْنَى هُوَ ٱلْأَفْضَلُ ٱلْأَشْعَرُ. وَقَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ ٱلثُّنْيَانُ ٱلَّذِي تُثْنَى عَلَيْهِ ٱلْخَنَاصِرُ فِي ٱلْعَدَدِ لِأَنَّهُ أَوَّلُ وَقَالَ ٱبْنُ هِشَامٍ هُوَ ٱلَّذِي يُسْتَثْنَى مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ لِأَنَّهُ دُونَهُمْ. وَقَالَ غَيْرُهُ ٱلثُّنْيَانُ ٱلضَّعِيفُ. وَقَالَ ٱلْقَالِي: ٱلثُّنْيَانُ عِنْدِي ٱلَّذِي يُسْتَثْنَى مِنَ ٱلْقَوْمِ رَفِيعًا كَانَ أَوْ ضَعِيفًا فَيُقَالُ لِلدُّونِ وَٱلضَّعِيفِ ثُنْيَانٌ وَلِلرَّفِيعِ وَٱلشَّاعِرِ ثُنْيَانٌ (وَقَالَ ٱلْقَالِي) فِي ٱلْمَقْصُورِ وَٱلْمَمْدُودِ. حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ دُرَيْدٍ قَالَ. ذَكَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَأَحْسِبُ ٱلْأَصْمَعِيَّ قَدْ ذَكَرَهُ أَيْضًا قَالَ. لَقِيتِ ٱلسِّعْلَاةُ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ فِي بَعْضِ طُرُقَاتِ ٱلْمَدِينَةِ وَهُوَ غُلَامٌ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ ٱلشِّعْرَ فَبَرَكَتْ عَلَى صَدْرِهِ وَقَالَتْ أَنْتَ ٱلَّذِي تَهْجُو قَوْمَكَ أَنْ تَكُونَ شَاعِرَهُمْ قَالَ: نَعَمْ. قَالَتْ. فَأَنْشِدْنِي ثَلَاثَةَ أَبْيَاتٍ عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَإِلَّا قَتَلْتُكَ فَقَالَ:

إِذَا مَا تَرْعَرَعَ فِينَا ٱلْغُلَا مُ فَإِنْ يُقَالُ لَهُ مَنْ هُوَهْ
إِذَا لَمْ يَسُدْ قَبْلَ شَدِّ ٱلذَّقَ نِ فِينَا ٱلَّذِي لَا هُوَهْ
وَلِي صَاحِبٌ مِنْ بَنِي ٱلشَّيْصُبَا نِ فَحِينًا أَقُولُ وَحِينًا هُوَهْ

فَخَلَّتْ سَبِيلَهُ وَقَالَتْ: أَوْلَى لَكَ قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ: يُقَالُ ٱلسِّعْلَاةُ سَاحِرَةُ ٱلْجِنِّ

(فَائِدَةٌ) قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ ٱلْبَطَلْيُوسِيُّ. وَقَدْ أَنْشَدَ قَوْلَ ٱلْفَرَزْدَقِ:

وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكًا أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ

هٰذَا وَٱمْثَالُهُ وَإِنْ كَانَ جَائِزًا فِي ٱلْإِعْرَابِ. فَلَيْسَ يَحْسُنُ فِي ٱلشِّعْرِ عِنْدَ ذَوِي ٱلْأَلْبَابِ. لِمَا فِيهِ مِنْ وَهْيِ ٱلنَّسْجِ وَٱلِاضْطِرَابِ. وَٱلشِّعْرُ إِذَا أُخْرِجَ إِلَى شَرْحٍ لَمْ يُعَدَّ فِي فَاخِرِ ٱلْمَسَاقِ. وَلَا قَامَ فِي ٱلْإِحْسَانِ عَلَى سَاقٍ. وَلَا عَذُبَ فِي ٱلْمَذَاقِ. فَهُوَ مَكْرُوهٌ عِنْدَ ٱلْحُذَّاقِ. وَيَحْتَاجُ ٱلشِّعْرُ إِلَى أَنْ يَسْبِقَ مَعْنَاهُ لَفْظَهُ. فَتَسْتَلِذَّ ٱلنُّفُوسُ رِوَايَتَهُ وَحِفْظَهُ. وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ وَٱلْمُتَكَلِّمِ. بَيَانُ مَا يُحَاوِلُهُ لِلْعَالِمِ وَٱلْمُتَعَلِّمِ. فَإِنْ تَكَلَّمَ بِقُلُوبٍ. مُخْتَلِفَةٍ ٱلْأَسْمَاعُ وَٱلْقُلُوبُ. وَلَمْ يَتَحَصَّلْ مِنْهُ ٱلْغَرَضُ ٱلْمَطْلُوبُ. فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ أَمَا تَرَى فِي ٱلْأَشْعَارِ أَمْثَالَ هٰذَا كَقَوْلِهِ:

لَهَا مُقْلَتَا آدَاءَ طَلَّ خَمِيلَةٍ مِنَ ٱلْوَحْشِ مَا يَنْفَكُّ يَرْعَى عَرَارَهَا

قِيلَ لَهُ وَهٰذَا أَيْضًا قَدْ أَحَالَ وَمَنْ تَكَلَّفَ مِثْلَ هٰذَا لَمْ يُخْفِفْ عَنْ نَفْسِهِ ٱلْكُلْفَةَ وَٱلْمَلَامَ. وَتَعَرَّضَ لِأَنْ يُلَامَ. وَتَرْكُ بَيْنَ ٱلْكَلَامِ. وَإِنَّمَا يَتَفَاضَلُ ٱلْكَلَامُ وَٱلشِّعْرُ بِحُسْنِ ٱلْعِبَارَةِ وَٱلدِّبَاجَةِ. وَرَوْنَقِ ٱلْفَصَاحَةِ حَتَّى تَكُونَ أَلْفَاظُهَا كَٱلزُّجَاجَةِ. وَإِلَّا فَٱلْمَعَانِي مُعَرَّضَةٌ لِكُلِّ جِيلٍ مِنْ أَهْلِ ٱلتَّوْحِيدِ وَٱلشِّرْكِ حَتَّى لِلزِّنْجِ وَٱلتَّتَرِ وَٱلتُّرْكِ لٰكِنَّهُمْ قَصُرَتْ بِهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ عَنْ بُلُوغِ مَا رَامُوهُ مِنْ أَرَبٍ. قَدْ تَهَيَّأَ عَلَى أَلْسِنَةِ ٱلْعَرَبِ. وَأَقَلُّ مَا يَجِبُ عَلَى ٱلْمُتَكَلِّمِ ٱلْبَيَانُ لِمُخَاطِبِهِ. وَإِلَّا كَانَ كَمُخَاطِبِ ٱللَّيْلِ وَحَاطِبِهِ. يُخَاطِبُ ٱلْعَرَبِيَّ بِٱلْعَجَمِيَّةِ وَيُخَاطِبُ ٱلْعَجَمِيَّ بِٱلْعَرَبِيَّةِ. وَصِنَاعَةُ ٱلشِّعْرِ أَشَدُّ

حَضْرًا. وَلَمَدٌ عَصْرا وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلشَّاعِرَ اِنَّمَا هُوَ رَاغِبٌ رَاهِبٌ اَوْ مُعَاتِبٌ بَيْنَ يَدَيْ مَلِكٍ فَاِنْ حَكَى عَنْ نَفْسِهِ وَاِلَّا كَانَ جَدِيرًا بِاَنْ يَهْلِكَ فَمِنْ ذٰلِكَ مَا رَوَاهُ ٱبْنُ جِنِّيْ قَالَ: حَدَّثَنَا اَحْمَدُ بْنُ زَكَرِيَّاءَ حدَّثَنَا اَبُو عَبْدِ ٱللهِ ٱلْغَلَابِيُّ حَدَّثَنَا مَهْدِيُّ بْنُ سَابِق قَالَ: دَخَلَ ٱلنَّابِغَةُ عَلَى ٱلنُّعْمَانِ بْنِ ٱلْمُنْذِرِ فَقَالَ:

تَخِفُّ ٱلْاَرْضُ اِنْ تَفْقِدْكَ يَوْمًا وَتَبْقَى مَا بَقِيتَ بِهَا ثَقِيلَا

فَنَظَرَ اِلَيْهِ ٱلنُّعْمَانُ نَظَرَ غَضْبَانَ. وَكَانَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ حَاضِرًا فَقَالَ: اَصْلَحَ ٱللهُ ٱلْمَلِكَ اِنَّ مَعَ هٰذَا بَيْتًا ضَلَّ عَنْهُ هُوَ

لِاَنَّكَ مَوْضِعُ ٱلْقِسْطَاسِ مِنْهَا فَتَمْنَعُ جَانِبَيْهَا اَنْ تَمِيلَا

فَضَحِكَ ٱلنُّعْمَانُ وَاَمَرَ لَهُمَا بِجَائِزَتَيْنِ فَلَوْلَا كَعْبٌ كَانَ قَدْ هَلَكَ. فَاِنْ كَانَ ٱلشَّاعِرُ مُخَاطِبًا مَنْ دُونَ ٱلْمَلِكِ ٱلْاَشَمِّ بِمَا لَا يَفْهَمُ وَكَانَ رَاغِبًا فِي دِرْهَمٍ كَانَ ذٰلِكَ سَبَبًا لِبُطْلَانِ حَاجَتِهِ وَٱسْتِهْجَانِ شِعْرِهِ وَتَحْقِيرِ اَمْرِهِ وَٱلْقُدَمَاءُ فِي هٰذَا اَعْذَرُ لِاَنَّهَا لُغَتُهُمْ

الفصل الثالث

في فنون الشعر

البحث الاول

في المطبوع والمصنوع

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

وَمِنَ ٱلشِّعْرِ مَطْبُوعٌ وَمَصْنُوعٌ فَٱلْمَطْبُوعُ هُوَ ٱلْأَصْلُ وُضِعَ عَلَيْهِ اَوَّلًا وَعَلَيْهِ ٱلْمَدارُ وَٱلْمَصْنُوعُ وَاِنْ وَقَعَ عَلَيْهِ هٰذَا ٱلْاِسْمُ فَلَيْسَ بِمتكلَّفًا تَكَلُّفَ اشْعارِ ٱلْمُوَلَّدِينَ. لٰكِنْ وَقَعَ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي سَمَّوْهُ صَنْعَةً مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا تَعَمُّلٍ لٰكِنْ بِطِبَاعِ ٱلْقَوْمِ عُنُوا وَٱسْتَحْسَنُوهُ وَمَالُوا اِلَيْهِ بَعْضَ ٱلْمَيْلِ بَعْدَ اَنْ عَرَفُوا وَجْهَ ٱخْتِيَارِهِ عَلَى غَيْرِهِ حَتَّى صَنَعَ زُهَيْرٌ ٱلْحَوْلِيَّاتِ عَلَى ٱلتَّنْقِيحِ وَٱلتَّثْقِيفِ يَصْنَعُ ٱلْقَصِيدَةَ ثُمَّ يُكَرِّرُ نَظَرَهُ بِهَا خَوْفًا مِنَ ٱلتَّعَقُّبِ بَعْدَ اَنْ يَكُونَ قَدْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهَا فِي سَاعَةٍ اَوْ لَيْلَةٍ. وَرُبَّمَا قَصَدَ اِقَامَةَ نَشَاطِهِ فَتَبَاطَأَ عَمَلُهُ لِذٰلِكَ. وَٱلْعَرَبُ لَا تَنْظُرُ فِي اَعْطَافِ شِعْرِهَا بِاَنْ تُجَانِسَ اَوْ تُطَابِقَ اَوْ تُقَابِلَ فَتَتْرُكَ لَفْظَةً لِلَفْظَةٍ اَوْ مَعْنًى لِمَعْنًى كَمَا يَفْعَلُ ٱلْمُحْدَثُونَ وَلٰكِنْ نَظَرُهَا فِي فَصَاحَةِ ٱلْكَلَامِ اَوْ جَزَالَتِهِ

وَبَسْطِ ٱلْمَعْنَى أَوْ إِبْرَازِهِ وَإِتْقَانِ بِنْيَةِ ٱلشِّعْرِ وَإِحْكَامِ ٱلْقَافِيَةِ وَتَلَاحُمِ ٱلْكَلَامِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ حَتَّى عَدُّوا مِنْ فَضْلِ صَنْعَةِ ٱلْحُطَيْئَةِ حَتَّى نَسْقَهُ ٱلْكَلَامَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ:

فَلَا وَأَبِيكَ مَا ظَلَمَتْ قُرَيْعٌ ... بِأَنْ يَبْنُوا ٱلْمَكَارِمَ حَيْثُ شَاؤُوا

وَلَا وَأَبِيكَ مَا ظَلَمَتْ قُرَيْعٌ ... وَلَا عَنُفُوا بِذَاكَ وَلَا أَسَاؤُوا

فَإِنَّ ٱلْجَارَ مِثْلَ ٱلضَّيْفِ يَغْدُو ... لِوُجْهَتِهِ وَإِنْ طَالَ ٱلثَّوَاءُ

وَإِنِّي قَدْ عَلِقْتُ بِحَبْلِ قَوْمٍ ... أَعَانَهُمُ عَلَى ٱلْحَسَبِ ٱلثَّرَاءُ

وَٱسْتَظْرَفُوا مَا جَاءَ مِنَ ٱلصَّنْعَةِ نَحْوَ ٱلْبَيْتِ وَٱلْبَيْتَيْنِ فِي ٱلْقَصِيدَةِ بَيْنَ ٱلْقَصَائِدِ يُسْتَدَلُّ بِذَلِكَ عَلَى جُودَةِ شِعْرِ ٱلرَّجُلِ وَصِدْقِ حِسِّهِ وَصَفَاءِ خَاطِرِهِ. وَأَمَّا إِذَا كَثُرَ ذَلِكَ فَهُوَ عَيْبٌ يَشْهَدُ بِخِلَافِ ٱلطَّبْعِ وَإِيثَارِ ٱلْكُلْفَةِ وَلَيْسَ يَشِحُّ ٱلْبَتَّةَ أَنْ يَأْتِيَ مِنَ ٱلشَّاعِرِ قَصِيدَةٌ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا مُتَصَنَّعٌ مِنْ غَيْرِ قَصِيدٍ كَٱلَّذِي يَأْتِي مِنْ أَشْعَارِ صَبِيبٍ وَٱلْبُحْتُرِيِّ وَغَيْرِهِمَا وَقَدْ كَانَا يَطْلُبَانِ ٱلصَّنْعَةَ وَيُولَعَانِ بِهَا. فَأَمَّا حَبِيبٌ فَيَذْهَبُ إِلَى حُزُونَةِ ٱللَّفْظِ وَمَا يَمْلَأُ ٱلْأَسْمَاعَ مِنْهُ مَعَ ٱلتَّصْنِيعِ ٱلْمُحْكَمِ طَوْعًا وَكَرْهًا يَأْتِي ٱلْأَشْيَاءَ مِنْ بُعْدٍ وَيَطْلُبُهَا بِكُلْفَةٍ وَيَأْخُذُهَا بِقُوَّةٍ. وَأَمَّا ٱلْبُحْتُرِيُّ فَكَانَ أَمْلَحَ وَأَحْسَنَ مَذْهَبًا فِي ٱلْكَلَامِ يَسْلُكُ مِنْهُ دَمَاثَةً وَسُهُولًا مَعَ إِحْكَامِ ٱلتَّصَنُّعِ وَقُرْبِ ٱلْمَأْخَذِ لَا يَظْهَرُ عَلَيْهِ كُلْفَةٌ وَلَا مَشَقَّةٌ. وَمَا أَعْلَمُ شَاعِرًا أَكْمَلَ وَلَا أَمْلَحَ تَصَنُّعًا مِنْ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فَإِنَّ صَنْعَتَهُ خَفِيَّةٌ لَا تَكَادُ تَظْهَرُ فِي بَعْضِ ٱلْمَوَاضِعِ إِلَّا لِلْبَصِيرِ بِدَقَائِقِ ٱلشِّعْرِ وَهُوَ عِنْدِي

أنظفُ أصحابِهِ شِعْرًا وأكثرُهم بديعًا وأفتنُّهم وأقربُهم قوافيَ وأوزانًا ولا أرى وراءهُ غايةً لطالبِها في هذا البابِ. غيرَ أنّا لا نجدُ المُبتدئَ في طلبِ التّصنيعِ ومُزاولةِ الكلامِ أكثرَ انتفاعًا منهُ بمُطالعةِ شِعرِ حبيبٍ وشِعرِ مُسلمِ بنِ الوليدِ لما فيهما من الفضيلةِ لمُبتغيها ولأنّهما طرقا إلى الصّنعةِ ومعرفتِها طريقًا سابلةً وكثّرا منها في أشعارِهما تكثيرًا سهّلها عندَ النّاسِ وحسّرهم عليها. على أنّ مُسلمًا أسهلُ شِعرًا من حبيبٍ وأقلُّ تكلّفًا وهو أوّلُ من تكلّفَ البديعَ من المُولّدينَ وأخذَ نفسهُ بالصّنعةِ وكثّرَ منها ولم يكُن في الأشعارِ المُحدثةِ قبلَ مُسلمٍ إلّا النّبذُ اليسيرةُ. وهو رهينُ المُولّدينَ كانَ يُطيلُ في صنعتِهِ ويُجيدُها. وقالوا: أوّلُ من فتقَ البديعَ من المُحدثينَ بشّارُ بنُ بُردٍ وهو ساقةُ العربِ وآخرُ من يُستشهدُ بشِعرِهِ ثمّ أتبعهُما مُقتديًا بهما كلثومُ بنُ عمرٍو العتّابيُّ ومنصورٌ النّمريُّ ومُسلمُ بنُ الوليدِ وأبو نواسٍ وأتبعَ هؤلاءِ أبو تمّامٍ والبحتريُّ وعبدُ اللهِ بنُ المُعتزّ فانتهى علمُ البديعِ والصّنعةِ وختمَ بهِ. وشبّهَ قومٌ أبا نواسٍ بالنّابغةِ لما اجتمعَ لهُ من الجزالةِ مع الرّشاقةِ وحُسنِ الدّيباجةِ والمعرفةِ بمدحِ المُلوكِ. وأمّا بشّارٌ فقد شبّهوهُ بامرئِ القيسِ لتقدُّمِهِ على المُولّدينَ وأخذِهم عنهُ. ومن كلامِهم: بشّارٌ أبو المُحدثينَ. وسمعنا أبا عبدِ اللهِ غيرَ مرّةٍ يقولُ: إنّما سُمّيَ الأعشى صنّاجةَ العربِ لأنّهُ أوّلُ من ذكرَ الصّنجَ في شِعرِهِ. قالَ ويُقالُ بل سُمّيَ صنّاجةً لقوّةِ طبعِهِ وجلْيةِ شِعرِهِ يُخيّلُ إليكَ إذا

أَنْشَدْتُهُ أَنَّ آخَرَ يُنْشِدُ مَعَكَ. وَمِثْلُهُ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ تُنْشِدُ أَقْصَرَ شِعْرِهِ عَرُوضًا وَأَلْيَنَهُ كَلَامًا فَتَجِدُ لَهُ فِي نَفْسِكَ هَزَّةً وَجَلَبَةً مِنْ قُوَّةِ الطَّبْعِ

انْقَضَى كَلَامُ عَبْدِ اللهِ وَرَجَعْنَا إِلَى الْقَوْلِ فِي الطَّبْعِ وَالتَّصْنِيعِ. فَإِذَا كَانَ الشَّاعِرُ مُصَنِّعًا فَإِنَّ جَيِّدَهُ مِنْ سَائِرِ شِعْرِهِ كَأَبِي تَمَّامٍ فَصَارَ مَحْصُورًا مَعْرُوفًا بِأَعْيَانِهِ فَإِذَا كَانَ الطَّبْعُ غَالِبًا عَلَيْهِ لَمْ يَبِنْ جَيِّدُهُ كُلَّ الْبَيْنُونَةِ وَكَانَ قَرِيبًا مِنْ قَرِيبٍ كَالْبُحْتُرِيِّ وَمَنْ شَاكَلَهُ وَقَدْ نَصَّ ابْنُ الرُّومِيِّ فِي بَعْضِ تَسْطِيرَاتِهِ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي حَكِيمَةَ الشَّاعِرِ حِينَ عَابَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فِي الْفَرَسِ مِنْ قَصِيدَةٍ رَثَى بِهَا عَبْدَ اللهِ بْنَ طَاهِرٍ:

فَلَهُ شَهَامَةُ سُودِدٍ بَاكِرٍ وَحَوَافِرٌ حُفْرٌ وَرَأْسٌ صَلْتَعُ

وَذَكَرَ قَوْلَ أَبِي تَمَّامٍ (بِحَوَافِرٍ حُفْرٍ وَصُلْبٍ صُلَّبٍ) فَحَفَلَ بِهِ وَاعْتَذَرَ لَهُ وَخَرَّجَ التَّخَارِيجَ الْحِسَانَ وَذَكَرَ أَنَّ الْحَافِرَ الْوَأْبَ وَالْحَافِرَ الْمُقَعَّبَ وَنَحْوَهُمَا أَشْرَفُ فِي اللَّفْظِ مِنَ الْحَافِرِ الْأَحْفَرِ إِلَّا أَنَّ أَبَا تَمَّامٍ كَانَ يَطْلُبُ الْمَعْنَى وَلَا يُبَالِي بِاللَّفْظِ حَتَّى لَوْ تَمَّ لَهُ الْمَعْنَى بِلَفْظَةٍ نَبَطِيَّةٍ لَأَتَى بِهَا. وَالَّذِي أَرَاهُ أَنَّ ابْنَ الرُّومِيِّ أَبْصَرُ بِأَبِي تَمَّامٍ وَغَيْرِهِ مِنَّا وَأَنَّ التَّسْلِيمَ لَهُ وَالرُّجُوعَ إِلَيْهِ أَحْزَمُ. غَيْرَ أَنِّي لَوْ شِئْتُ أَنْ أَقُولَ وَلَسْتُ رَادًّا عَلَيْهِ وَلَا مُعْتَرِضًا بَيْنَ يَدَيْهِ أَنَّ الْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَهُ وَأَشَارَ إِلَيْهِ مِنْ جِهَةِ أَبِي تَمَّامٍ إِنَّمَا هُوَ مَعْنَى الصَّنْعَةِ مِثْلُ التَّطْبِيقِ وَالتَّجْنِيسِ وَمَا أَشْبَهَهُمَا لَا مَعْنَى الْكَلَامِ الَّذِي هُوَ رُوحُهُ. وَأَمَّا اللَّفْظُ الَّذِي ذَكَرَ أَنَّهُ لَا يُبَالِي بِهِ إِنَّمَا هُوَ فَصِيحٌ

ٱلْكَلَامِ وَمُسْتَعْمَلُهُ وَيَدُلُّكَ عَلَى صِحَّةِ مَا ٱدَّعَيْتُهُ عَلَى ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ قَوْلُهُ اِنَّ ٱلْحَافِرَ ٱلْوَأْبَ وَٱلْقَعْبَ اَشْرَفُ فِي ٱللَّفْظِ مِنَ ٱلْحَافِرِ ٱلْاَحْفَرِ . فَكَلَامُهُ رَاجِعٌ اِلَى مَا قُلْتُهُ فِي اَبِي تَمَّامٍ غَيْرُ مُخَالِفٍ لَهُ وَاِنْ كَانَ فِي ٱلظَّاهِرِ عَلَى خِلَافِهِ لَسَاغَ ذٰلِكَ اِلَّا اَنَّ اَكْثَرَ ٱلنَّاسِ عَلَى مَا قَالَ وَاِنَّمَا هُوَ هٰذَا مَعْرِضٌ لِلْكَلَامِ لَا مُخَالَفَةٌ . وَقَالَ ٱلْجَاحِظُ : كَمَا لَا يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ عَامِيًّا وَلَا سَاقِطًا سُوقِيًّا فَكَذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ وَحْشِيًّا اِلَّا اَنْ يَكُونَ ٱلْمُتَكَلِّمُ بِهِ بَدَوِيًّا اَعْرَابِيًّا فَاِنَّ ٱلْوَحْشِيَّ مِنَ ٱلْكَلَامِ يَفْهَمُهُ ٱلْوَحْشِيُّ مِنَ ٱلنَّاسِ كَمَا يَفْهَمُ ٱلسُّوقِيُّ رَطَانَةَ ٱلسُّوقِيِّ (قَالَ) وَٱنْشَدَ رَجُلٌ قَوْمًا شِعْرًا فَٱسْتَغْرَبُوهُ فَقَالَ : وَٱللّٰهِ مَا هُوَ بِغَرِيبٍ وَلٰكِنَّكُمْ فِي ٱلْاَدَبِ غُرَبَاءُ . وَعَنْ غَيْرِهِ اَنَّ رَجُلًا قَالَ لِاَبِي تَمَّامٍ فِي مَجْلِسٍ قَدْ حَفَلَ وَاَرَادَ تَبْكِيتَهُ لَمَّا ٱنْشَدَهُ : يَا اَبَا تَمَّامٍ لِمَ لَا تَقُولُ مِنَ ٱلشِّعْرِ مَا يُفْهَمُ . فَقَالَ لَهُ : وَاَنْتَ لِمَ لَا تَفْهَمُ مِنَ ٱلشِّعْرِ مَا يُقَالُ فَفَضَحَهُ . وَيُرْوَى اَنَّ هٰذِهِ ٱلْحِكَايَةَ كَانَتْ مَعَ اَبِي ٱلْعَمَيْثَلِ وَصَاحِبَيْنِ لَهُ خَاطَبَاهُ فَاَجَابَهُمَا . وَقَالَ بَعْضُ مَنْ نَظَرَ بَيْنَ اَبِي تَمَّامٍ وَاَبِي ٱلطَّيِّبِ اِنَّمَا اَبُو تَمَّامٍ كَٱلْقَاضِي ٱلْعَدْلِ يَضَعُ ٱللَّفْظَةَ مَوْضِعَهَا وَيُعْطِي ٱلْمَعْنَى حَقَّهُ بَعْدَ طُولِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْبَحْثِ عَنِ ٱلْبَيِّنَةِ اَوْ كَٱلْفَقِيهِ ٱلْوَرِعِ يَتَحَرَّى فِي كَلَامِهِ وَيَتَحَرَّجُ . وَاَبُو ٱلطَّيِّبِ كَٱلشُّجَاعِ ٱلْجَرِيءِ يَهْجُمُ عَلَى مَا يُرِيدُهُ لَا يُبَالِي مَا لَقِيَ وَلَا حَيْثُ وَقَعَ . وَكَانَ ٱلْاَصْمَعِيُّ يَقُولُ زُهَيْرٌ وَٱلنَّابِغَةُ مِنْ عَبِيدِ ٱلشِّعْرِ يُرِيدُ اَنَّهُمَا يَتَكَلَّفَانِ اِصْلَاحَهُ وَيُشْغِلَانِ بِهِ خَوَاطِرَهُمَا وَحَوَاسَّهُمَا . وَمِنْ

اَضحايِهِما فِي اَلتَّنقيحِ وَفِي اَلتَّثقيفِ وَاَلتَّحكيكِ طُفَيلٌ اَلغَنَوِيُّ. وَقَدْ قيلَ اِنَّ زُهَيرًا اَيضًا رَوَى لَهُ وَكَانَ يُسَمَّى مُحَبِّرًا لِحُسنِ شِعرِهِ. وَمِنهُمُ اَلحُطَيئَةُ وَاَلنَّمِرُ بنُ تولَبٍ وَكَانَ يُسَمِّيهِ اَبُو عَمرِو بنُ اَلعَلاءِ اَلكَيِّسَ. وَكَانَ بَعضُ اَلحُذّاقِ يَقُولُ: قُلْ مِنَ اَلشِّعرِ مَا يَحْدُمُكَ وَلَا تَقُلْ مِنهُ مَا تَحْدُمُهُ وَهُوَ مَعنَى كَلامِ اَلاَصمَعِيِّ. وَسَاُحَلِّي هٰذَا اَلبَابَ مِن كَلامِ اَلسَّيِّدِ اَبِي اَلحَسَنِ بِحِلْيَةٍ تَكُونُ لَهُ زِينَةً فَائِقَةً وَاَختِمُهُ بِخَاتِمَةٍ تَكسُوهُ حُلَّةً رَائِقَةً لِاُوفِيَ بِذٰلِكَ بَعضَ مَا ضَمِنتُ وَاَقضِيَ بِهِ حَقَّ مَا شَرَطتُ اِن شَاءَ اَللهُ تَعَالَى. فَمِن ذٰلِكَ قَولُهُ سَنَةَ ٤٠٥ يَتَشَوَّقُ اَهلَهُ:

وَلِي كَبِدٌ مَكلُومَةٌ لِفِرَاقِكُمْ ... اُطَأْ مِنهَا صَبرًا عَلَى مَا اَجَنَّتِ
تَمَنَّيتُكُمْ شَوقًا اِلَيكُمْ وَصَبوَةً ... عَسَى اَللهُ اَن يُبدِي لَهَا مَا تَمَنَّتِ
وَعَينٌ جَفَاهَا اَلنَّومُ وَاَعتَادَهَا اَلبُكَا ... اِذَا عَنَّ ذِكرُ اَلقَيرَوَانِ اَستَهَلَّتِ

فَلَو اَنَّ اَعرَابِيًّا تَذَكَّرَ نَجدًا فَحَنَّ بِهِ اِلَى اَلوَطَنِ اَوْ تَشَوَّقَ فِيهِ بَعضَ اَلسَّكَنِ مَا حَسِبتُهُ يَزِيدُ عَلَى مَا اَتَى بِهِ هٰذَا اَلوَلَدُ اَلحَضَرِيُّ اَلمُتَاَخِّرُ اَلعَصرِ. وَمَا اَنخَطُّ فِي هٰذَا اَلتَّمييزِ فِي هَوَايَ وَلَا اَتَعَقَّبُ بِهٰذَا اَلقَولِ عِندَ مَولَايَ وَلَا اَلحَدِيقَةُ مِمَّا نَظَنُّ بِهِ وَلَا فِيهِ وَلٰكِن قَد رَاَيتُ وَجهَ اَلحَقِّ فَعَرَفتُهُ وَاَلحَقُّ لَا يَتَلَثَّمُ وَمَا هُوَ فِي بَلَاغَتِهِ وَاِيجَازِهِ اِلَّا كَمَا قَالَ اَلاَحمَرُ اَلسَّعدِيُّ فِي وَصِيَّتِهِ:

مِنَ اَلقَولِ مَا يَكفِي اَلمُصِيبَ قَلِيلُهُ
وَمِنهُ اَلَّذِي لَا يَكتَفِي اَلدَّهرَ قَائِلُهُ

يَصُدُّ عَنِ ٱلْمَعْنَى فَيَتْرُكُ مَا نَجَا
وَيَذْهَبُ فِي ٱلتَّقْصِيرِ مِنْهُ تَطَاوُلُهْ
فَلَا تَكُ مِكْثَارًا تَزِيدُ عَلَى ٱلَّذِي
عُنِيتَ بِهِ فِي خَطْبِ أَمْرٍ تُزَاوِلُهْ

البحث الرابع

في اقسام الشعر

(من الكتاب نفسه)

قَالَ عَبْدُ ٱلْكَرِيمِ يَجْمَعُ أَصْنَافَ الشِّعْرِ أَرْبَعَةٌ ٱلْمَدِيحُ وَٱلْهِجَاءُ وَٱلْحِكْمَةُ وَٱللَّهْوُ ثُمَّ يَتَفَرَّعُ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ ذٰلِكَ فُنُونٌ فَيَكُونُ فِي ٱلْمَدِيحِ ٱلْمَرَاثِي وَٱلِافْتِخَارُ وَٱلشُّكْرُ ثُمَّ يَكُونُ مِنَ ٱلْهِجَاءِ ٱلذَّمُّ وَٱلْعِتَابُ وَٱلِاسْتِبْطَاءُ وَمِنَ ٱلْحِكْمَةِ ٱلْأَمْثَالُ وَٱلتَّزْهِيدُ وَٱلْمَوَاعِظُ وَيَكُونُ مِنَ ٱللَّهْوِ ٱلْغَزَلُ وَصِفَةُ ٱلْخَمْرِ وَٱلْخُمُورِ. وَقَالَ قَوْمٌ ٱلشِّعْرُ كُلُّهُ نَوْعَانِ مَدْحٌ وَهِجَاءٌ فَإِلَى ٱلْمَدْحِ يَرْجِعُ ٱلرِّثَاءُ وَٱلِافْتِخَارُ وَٱلتَّشْبِيبُ وَمَا تَعَلَّقَ بِذٰلِكَ مِنْ مَحْمُودِ ٱلْوَصْفِ كَصِفَاتِ ٱلْخُيُولِ وَٱلْآثَارِ وَٱلتَّشْبِيهَاتِ ٱلْحِسَانِ وَكَذٰلِكَ تَحْسِينُ ٱلْخُلُقِ كَٱلْأَمْثَالِ وَٱلْحِكَمِ وَٱلْمَوَاعِظِ وَٱلزُّهْدِ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْقَنَاعَةِ. وَٱلْهِجَاءُ ضِدُّ ذٰلِكَ كُلِّهِ غَيْرَ أَنَّ ٱلْعِتَابَ حَالٌ مِنَ ٱلْحَالَيْنِ فَهُوَ طَرَفٌ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَكَذٰلِكَ ٱلْإِغْرَاءُ لَيْسَ بِمَدْحٍ وَلَا هِجَاءٍ لِأَنَّكَ لَا تُغْرِي بِإِنْسَانٍ فَتَقُولُ إِنَّهُ حَقِيرٌ وَلَا ذَلِيلٌ إِلَّا كَانَ عَلَيْكَ وَعَلَى ٱلْمُغْرَى ٱلدَّرَكُ وَلَا تَقْصِدُ

اَيضًا بِمَدْحِهِ ٱلثَّنَاءَ عَلَيْهِ فَيَكُونَ ذٰلِكَ عَلَى وَجْهِهِ . وَٱلْبَيْتُ مِنَ ٱلشِّعْرِ كَٱلْبَيْتِ مِنَ ٱلْاَبْنِيَةِ وَٱلشِّعْرِ قَرَارُهُ ٱلطَّبْعُ وَسَمْكُهُ ٱلرِّوَايَةُ وَدَعَائِمُهُ ٱلْقَلَمُ وَبَابُهُ ٱلدُّرْبَةُ وَسَاكِنُهُ ٱلْمَعْنَى وَلَا خَيْرَ فِي بَيْتٍ غَيْرِ مَسْكُونٍ . وَصَارَتِ ٱلْاَعَارِيضُ وَٱلْقَوَافِي كَٱلْمَوَازِينِ وَٱلْاَمْثِلَةِ لِلْاَبْنِيَةِ اَوْ كَٱلْاَوَاخِيِّ وَٱلْاَوْتَادِ لِلْاَخْبِيَةِ . وَاَمَّا مَا سِوَى ذٰلِكَ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلشِّعْرِ فَاِنَّمَا هُوَ زِينَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ لَوْ لَمْ تَكُنْ لَاسْتُغْنِيَ عَنْهَا . قَالَ ٱلْقَاضِي عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْجُرْجَانِيُّ صَاحِبُ كِتَابِ ٱلْوَسَاطَةِ : ٱلشِّعْرُ عِلْمٌ مِنْ عُلُومِ ٱلْعَرَبِ يَشْتَرِكُ فِيهِ ٱلطَّبْعُ وَٱلرِّوَايَةُ وَٱلذَّكَاءُ ثُمَّ تَكُونُ ٱلدُّرْبَةُ مَادَّةً لَهُ وَقُوَّةً لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ اَسْبَابِهِ فَمَنِ ٱجْتَمَعَتْ لَهُ هٰذِهِ ٱلْخِصَالُ فَهُوَ ٱلْمُحْسِنُ ٱلْمُبَرِّزُ وَبِقَدْرِ نَصِيبِهِ مِنْهَا تَكُونُ مَرْتَبَتُهُ مِنَ ٱلْاِحْسَانِ . قَالَ وَلَسْتُ اَفْصِلُ فِي هٰذِهِ ٱلْقَضِيَّةِ بَيْنَ ٱلْقَدِيمِ وَٱلْمُحْدَثِ وَٱلْجَاهِلِيِّ وَٱلْمُخَضْرَمِ وَٱلْاَعْرَابِيِّ وَٱلْمُوَلَّدِ اِلَّا اَنِّي اَرَى حَاجَةَ ٱلْمُحْدَثِ اِلَى ٱلرِّوَايَةِ اَمَسَّ وَاجِدُهُ اِلَى كَثْرَةِ ٱلْحِفْظِ اَفْقَرَ فَاِذَا ٱسْتَكْشَفْتَ عَنْ هٰذِهِ ٱلْحَالَةِ وَجَدْتَ سَبَبَهَا وَٱلْعِلَّةَ فِيهَا اَنَّ ٱلْمَطْبُوعَ ٱلَّذِي لَا يُمْكِنُهُ تَنَاوُلُ اَلْفَاظِ ٱلْعَرَبِ اِلَّا رِوَايَةً وَلَا رِوَايَةَ وَلَا طَرِيقَ اِلَى ٱلرِّوَايَةِ اِلَّا ٱلسَّمْعُ وَمِلَاكُ ٱلسَّمْعِ ٱلْحِفْظُ . وَقَالَ دِعْبِلٌ فِي كِتَابِهِ مَنْ اَرَادَ ٱلْمَدِيحَ فَبِٱلرَّغْبَةِ وَمَنْ اَرَادَ ٱلْهِجَاءَ فَبِٱلْبَغْضَاءِ وَمَنْ اَرَادَ ٱلتَّشْبِيبَ فَبِٱلشَّوْقِ وَٱلْعِشْقِ وَمَنْ اَرَادَ ٱلْمُعَاتَبَةَ فَبِٱلْاِسْتِبْطَاءِ : فَقَسَّمَ ٱلشِّعْرَ كَهٰذِهِ ٱلْاَقْسَامِ ٱلْاَرْبَعَةِ وَكَانَ ٱلرِّثَاءُ عِنْدَهُ مِنْ بَابِ ٱلْمَدْحِ عَلَى مَا قَدَّمْتُ . اِلَّا اَنَّهُ جَعَلَ ٱلْعِتَابَ

بَدَلًا مِنْهُ وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ: ٱلشِّعْرُ مَا ٱشْتَمَلَ عَلَى ٱلْمَثَلِ ٱلسَّائِرِ وَٱلِٱسْتِعَارَةِ ٱلرَّائِعَةِ وَٱلتَّشْبِيهِ ٱلْوَاقِعِ وَمَا سِوَى ذٰلِكَ فَإِنَّمَا لِقَائِلِهِ فَضْلُ ٱلْوَزْنِ

البحث العاشر

في صناعة المديح

(من الكتاب نفسه)

وَسَبِيلُ ٱلشَّاعِرِ إِذَا مَدَحَ مَلِكًا أَنْ يَسْلُكَ طَرِيقَةَ ٱلْإِفْصَاحِ وَٱلْإِشَادَةِ بِذِكْرِ ٱلْمَمْدُوحِ وَأَنْ يَجْعَلَ مَعَانِيَهُ جَزْلَةً وَأَلْفَاظَهُ نَقِيَّةً غَيْرَ مُبْتَذَلَةٍ سُوقِيَّةٍ وَيَجْتَنِبَ مَعَ ذٰلِكَ ٱلتَّقْصِيرَ وَٱلتَّطْوِيلَ فَإِنَّ لِلْمَلِكِ سَآمَةً وَضَجَرًا وَرُبَّمَا عَابَ مِنْ أَجْلِهَا مَا لَا يُرِيدُ جِرْمَانَهُ وَقَدْ رَأَيْتَ عَمَلَ ٱلْبُحْتُرِيِّ إِذَا مَدَحَ ٱلْخَلِيفَةَ كَيْفَ يُقِلُّ ٱلْأَبْيَاتَ وَيُبَرِّرُ وُجُوهَ ٱلْمَعَانِي فَإِذَا مَدَحَ ٱلْكُتَّابَ عَمِلَ طَاقَتَهُ وَبَلَغَ مُرَادَهُ. وَقَدْ حُكِيَ عَنْ عَمَّارَةَ أَنَّ جَدَّهُ جَرِيرًا قَالَ: يَا بُنَيَّ إِذَا مَدَحْتُمْ فَلَا تُطِيلُوا ٱلْمَدَاحَةَ وَإِذَا هَجَوْتُمْ فَخَالِفُوا. وَحُكِيَ آخَرُ قَالَ: دَخَلَ ٱلْفَرَزْدَقُ عَلَى عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱبْنِ أُمِّ ٱلْحَكَمِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ: يَا أَبَا فِرَاسٍ دَعْنِي مِنْ شِعْرِكَ ٱلَّذِي لَيْسَ يَأْتِي آخِرُهُ حَتَّى يُنْسَى أَوَّلُهُ وَقُلْ فِيَّ بَيْتَيْنِ يَعْلَقَانِ بِٱلرِّوَايَةِ وَأَنَا أُعْطِيكَ عَطِيَّةً لَمْ يُعْطِكَهَا أَحَدٌ قَبْلِي فَغَدَا عَلَيْهِ وَقَالَ:

وَأَنتَ أَبنُ بَطْحَاوَى قُرَيشٍ وَإِنْ تَسَا
تَكُنْ مِنْ ثَقِيفٍ سُبْلَ ذِي حَذَرٍ عُمُرِ
وَأَنتَ أَبنُ سَوَّارِ ٱلْيَدَيْنِ إِلَى ٱلْعُلَا
تَلَقَّتْ بِكَ ٱلشَّمْسُ ٱلْمُضِيئَةُ لِلْبَدْرِ

فَقَالَ لَهُ: أَحْسَنْتَ وَأَمَرَ لَهُ بِعَشَرَةِ آلَافٍ. وَإِذَا كَانَ ٱلْمَمْدُوحُ مَلِكًا لَمْ يُبَالِ ٱلشَّاعِرُ مَا قَالَ فِيهِ وَلَا كَيْفَ أَطْنَبَ وَذَلِكَ مَحْمُودٌ وَسِوَاهُ ٱلْمَذْمُومُ. فَإِنْ كَانَ سُوقَةً فَإِيَّاهُ وَٱلتَّجَاوُزَ بِهِ خُطَّتَهُ فَإِنَّهُ مَتَى تَجَاوَزَ بِهِ خُطَّتَهُ كَانَ كَمَنْ نَقَصَهُ مِنْهَا وَكَذٰلِكَ لَا يَجِبُ أَنْ يُقَصِّرَ بِهِ عَمَّا يَسْتَحِقُّ وَلَا أَنْ يُعْطِيَهُ صِفَةَ غَيْرِهِ فَيَصِفَ ٱلْكَاتِبَ بِٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْقَاضِيَ بِٱلْحَمِيَّةِ وَٱلْمَهَابَةِ. وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ هٰذَا لِشُعَرَاءِ وَقْتِنَا وَهُوَ خَطَأٌ إِلَّا أَنْ تَصْحَبَهُ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى صَوَابِ ٱلرَّأْيِ فِيهِ وَكَذٰلِكَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُمْدَحَ ٱلْمَلِكُ بِبَعْضِ مَا يَحْسُنُ فِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَإِنْ كَانَ فَضِيلَةً وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ فِي مَدْحِ ٱلْمُعْتَزِّ:

لَا ٱلْعَذْلُ يَرْدَعُهُ وَلَا مِ ٱلتَّعْنِيفُ عَنْ كَرَمٍ يَصُدُّهُ

فَإِنَّهُ مِمَّا أَنْكَرَهُ عَلَيْهِ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدِ ٱللهِ قَالَ: وَمَنْ ذَا يُعَنِّفُ ٱلْخَلِيقَةَ عَنِ ٱلْكَرَمِ أَوْ يَصُدُّهُ. هٰذَا بِٱلْهِجَاءِ أَوْلَى مِنْهُ بِٱلْمَدْحِ. وَعِيبَ عَلَى ٱلْأَخْطَلِ قَوْلُهُ فِي عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ هٰذَا ٱلْبَيْتَ:

وَقَدْ جَعَلَ ٱللهُ ٱلْخِلَافَةَ مِنْهُمُ
لِأَبْيَضَ لَا عَارِي ٱلْخَوَانِ وَلَا جَدْبِ

وَقَالُوا: لَوْ مَدَحَ بِهٰذَا حَرَسِيًّا لِعَبْدِ ٱلْمَلِكِ لَكَانَ قَصَّرَ بِهِ.
وَأَجْوَدُ مِنْهُ فِي مَعْنَاهُ قَوْلُ حَسَّانَ فِي آلِ جَفْنَةَ:

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ ٱلْبَرِيصَ عَلَيْهِمُ
بَرَدَى يُصَفَّقُ بِٱلرَّحِيقِ ٱلسَّلْسَلِ

وَيُرْوَى مِسْكًا. وَعَابُوا عَلَى ٱلْأَخْوَصِ قَوْلَهُ لِلْمَلِكِ:

وَأَرَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُهُمْ
مَذْقُ ٱللِّسَانِ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ

قَالُوا لِأَنَّ ٱلْمُلُوكَ لَا تُمْدَحُ بِمَا يَلْزَمُهَا فِعْلُهُ كَمَا تُمْدَحُ بِهِ ٱلْعَامَّةُ وَإِنَّمَا تُمْدَحُ بِٱلْإِغْرَاقِ وَٱلتَّفَضُّلِ لَا مِمَّا يَتَّسِعُ غَيْرُهُمْ لِبَذْلِهِ. وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ كُثَيِّرٍ:

رَأَيْتُ ٱبْنَ لَيْلَى يَعْتَرِي صُلْبَ مَالِهِ
مَسَائِلُ شَتَّى مِنْ غَنِيٍّ وَمُصْرِمِ

مَسَائِلُ إِنْ تُوجَدْ لَدَيْكَ تَجِدْ بِهَا
يَدَاكَ وَإِنْ تُظْلَمْ بِهَا تَتَظَلَّمِ

لِأَنَّ هٰذَا إِنَّمَا يُقَالُ لِمَنْ دُونَ ٱلْخَلِيفَةِ وَٱلْمَلِكِ وَإِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ زُهَيْرٍ فِي هَرِمٍ. وَلَيْسَ بِمَلِكٍ فَلِذٰلِكَ حَسُنَ قَوْلُهُ:

هُوَ ٱلْجَوَادُ ٱلَّذِي يُعْطِيكَ نَائِلَهُ عَفْوًا وَيُظْلَمُ أَحْيَانًا فَيَظْلِمُ

يُرِيدُ أَنَّهُ يُسْأَلُ مَا لَيْسَ قِبَلَهُ فَيَتَحَمَّلُهُ. وَحُكِيَ عَنِ ٱلصَّوْلِيِّ أَنَّ مَرْوَانَ بْنَ أَبِي حَفْصَةَ كَانَ يُقَدِّمُ كُثَيِّرًا فِي ٱلْمَدْحِ عَلَى جَرِيرٍ وَٱلْفَرَزْدَقِ. وَمِمَّا قُدِّمَ بِهِ زُهَيْرٌ قَوْلُهُ:

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ النَّجْمِ مِنْ كَرَمٍ
قَوْمٌ بِأَوَّلِهِمْ اَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا

وَقَدَّمَهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ الْكَاتِبُ فَقَالَ فِي كِتَابِهِ نَقْدِ الشِّعْرِ لَوْ كَانَتْ فَضَائِلُ النَّاسِ مِنْ حَيْثُ هُمْ نَاسٌ لَا مِنْ طَرِيقِ مَا هُمْ مُشْتَرِكُونَ فِيهِ مَعَ سَائِرِ الْحَيَوَانِ عَلَى مَا عَلَيْهِ اَهْلُ الْاَلْبَابِ مِنَ الْاِتِّفَاقِ فِي ذٰلِكَ اِنَّمَا هِيَ الْعَقْلَ وَالْعِفَّةَ وَالْعَدَالَةَ وَالشَّجَاعَةَ كَانَ الْقَاصِدُ لِلْمَدْحِ بِهٰذِهِ الْاَرْبَعَةِ مُصِيبًا وَبِمَا سِوَاهَا مُخْطِئًا. وَقَدْ قَالَ زُهَيْرٌ:

اَخِي ثِقَةٍ لَا يُتْلِفُ الْخَمْرَ مَالُهُ وَلٰكِنَّهُ قَدْ يُتْلِفُ الْمَالَ نَائِلُهْ

لِاَنَّهُ قَدْ وَصَفَهُ بِالْعِفَّةِ لِقِلَّةِ اِمْعَانِهِ فِي اللَّذَّاتِ وَاَنَّهُ لَا يُنْفِدُ فِيهَا مَالَهُ بِالسَّخَاءِ لِاِهْلَاكِ مَالِهِ فِي النَّوَالِ وَالْحِرَافِهِ فِي ذٰلِكَ عَنِ اللَّذَّاتِ وَذٰلِكَ هُوَ الْعَدْلُ (قَالَ) ثُمَّ قَالَ:

تَرَاهُ اِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا كَاَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي اَنْتَ سَائِلُهْ

اَرَادَ اَنَّ فَرَحَهُ بِمَا يُعْطِي اَكْثَرُ مِنْ فَرَحِهِ بِمَا يَاْخُذُ فَزَادَ فِي وَصْفِ السَّخَاءِ مِنْهُ بِاَنَّهُ جَعَلَهُ يَهَشُّ وَلَا يَلْحَقُهُ مَضَضٌ وَلَا تَكْرُهُ لِفِعْلِهِ ثُمَّ قَالَ:

وَمَنْ مِثْلُ حِصْنٍ فِي الْحُرُوبِ وَمِثْلُهُ لِاِنْكَارِ ضَيْمٍ اَوْ لِاَمْرٍ يُحَاوِلُهْ

وَيُرْوَى اَوْ لِخَصْمٍ يُجَادِلُهُ. فَاَتَى فِي هٰذَا الْبَيْتِ بِالْوَصْفِ مِنْ جِهَةِ الشَّجَاعَةِ وَالْعَقْلِ فَاسْتَوْفَى فِي ضُرُوبِ الْمَدْحِ الْاَرْبَعَةِ الَّتِي هِيَ فَضَائِلُ الْاِنْسَانِ عَلَى الْحَقِيقَةِ وَزَادَهَا بِهٰذَا وَاِنْ كَانَ دَاخِلًا فِي

ٱلْأَرْبَعَةِ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْرِفُ وَجْهَ دُخُولِهِ فِيهَا حَيْثُ قَالَ : (أَخِي ثِقَةٌ) فَوَصَفَهُ بِٱلْوَفَاءِ وَٱلْوَفَاءُ دَاخِلٌ فِي هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي قَدَّمْنَا وَقَدْ يُحْدِثُ هٰذَا لِلشُّعَرَاءِ فَيَعُدُّونَ أَنْوَاعَ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْأَرْبَعِ وَأَقْسَامَهَا وَكُلَّ دَاخِلٍ فِي جُمْلَتِهَا مِثْلَ أَنْ يَذْكُرُوا ٱلْمَعْرِفَةَ وَٱلْحَيَاءَ وَٱلْبَيَانَ وَٱلسِّيَاسَةَ وَٱلصَّدْعَ بِٱلْحُجَّةِ وَٱلْعِلْمِ وَٱلْحِلْمِ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى . وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلْعَقْلِ . وَكَذِكْرِهِمِ ٱلْقَنَاعَةَ وَقِلَّةَ ٱلشَّرَهِ وَطَهَارَةَ ٱلْإِزَارِ وَغَيْرَ ذٰلِكَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلْعِفَّةِ . وَكَذِكْرِهِمِ ٱلْحِمَايَةَ وَٱلْأَخْذَ بِٱلثَّارِ وَٱلدِّفَاعَ عَنِ ٱلْجَارِ وَٱلْكِنَايَةَ فِي ٱلْعَدُوِّ وَقَتْلَ ٱلْأَقْرَانِ وَٱلْمَهَابَةَ وَٱلسَّيْرَ فِي ٱلْمَهَامِهِ وَٱلْقِفَارِ ٱلْمُوحِشَةِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلشَّجَاعَةِ . وَكَذِكْرِهِمِ ٱلسَّمَاحَةَ وَٱلتَّغَابُنَ وَٱلْإِنْظِلَامَ وَٱلتَّبَرُّعَ بِٱلنَّائِلِ وَإِجَابَةَ ٱلسَّائِلِ وَقِرَى ٱلْأَضْيَافِ وَمَا جَانَسَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلْعَدْلِ

وَأَمَّا تَرْكِيبُ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ فَتَحْدُثُ مِنْهُ سِتَّةُ أَقْسَامٍ : يَحْدُثُ مِنْ تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ مَعَ ٱلشَّجَاعَةِ ٱلصَّبْرُ عَلَى ٱلْمُلِمَّاتِ وَنَوَازِلِ ٱلْخُطُوبِ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ وَٱلسَّخَاءِ ٱلْبِرُّ وَإِنْجَازُ ٱلْوَعْدِ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ وَٱلْعِفَّةِ ٱلتَّنَزُّهُ وَٱلرَّغْبَةُ عَنِ ٱلْمَسْئَلَةِ وَٱلِٱقْتِصَارُ عَلَى أَدْنَى مَعِيشَةٍ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلشَّجَاعَةِ مَعَ ٱلسَّخَاءِ ٱلِٱتْلَافُ وَٱلْإِسْرَافُ وَمَا جَانَسَ ذٰلِكَ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلشَّجَاعَةِ مَعَ ٱلْعِفَّةِ إِنْكَارُ ٱلْفَوَاحِشِ وَٱلْغَيْرَةُ عَلَى ٱلْحَرِيمِ . وَعَنِ ٱلسَّخَاءِ مَعَ ٱلْعِفَّةِ ٱلْإِسْعَافُ بِٱلْقُوتِ وَٱلْإِيثَارُ عَلَى ٱلنَّفْسِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ . قَالَ وَكُلُّ

وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْأَرْبَعِ ٱلْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهَا وَسَطٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ مَذْمُومَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَدِيحِ ٱلْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

وَفِيهِ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ ... وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا ٱلْقَوْلُ وَٱلْفِعْلُ

وَإِنْ جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ ... مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بِأَحْلَامِهَا ٱلْجَهْلُ

عَلَى مُكْثِرِيهِمْ رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهِمِ ... وَعِنْدَ ٱلْمُقِلِّينَ ٱلسَّمَاحَةُ وَٱلْبَذْلُ

سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُمُ ... فَلَمْ يَفْعَلُوا وَلَمْ يُلِيمُوا وَلَمْ يَأْلُوا

وَلَمْ يَكُ مِنْ خَيْرٍ أُتُوهُ وَإِنَّمَا ... تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ

وَهَلْ يُنْبِتُ ٱلْخَطِّيَّ إِلَّا وَشِيجُهُ ... وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا ٱلنَّخْلُ

وَقَوْلُهُ :

مَنْ يَلْقَ يَوْمًا عَلَى عِلَّاتِهِ هَرِمًا ... يَلْقَ ٱلسَّمَاحَةَ مِنْهُ وَٱلنَّدَى خُلُقَا

أَيْثٌ بِعَثَّرَ يَصْطَادُ ٱلرِّجَالَ إِذَا ... مَا كَذَّبَ ٱللَّيْثُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقَا

يَطْعَنُهُمْ مَا ٱرْتَمَوْا حَتَّى إِذَا طَعَنُوا ... ضَارَبَ حَتَّى إِذَا مَا ضَارَبُوا ٱعْتَنَقَا

لَوْ نَالَ حَيٌّ مِنَ ٱلدُّنْيَا بِمَنْزِلَةٍ ... أُفُقَ ٱلسَّمَاءِ لَنَالَتْ كَفُّهُ ٱلْأُفُقَا

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ قَصْدُ ٱلشَّعْرِ فِي مَدْحِ ٱلْوَزِيرِ وَٱلْكَاتِبِ عَلَى مَا ٱخْتَارَهُ قُدَامَةُ وَغَيْرُهُ مَا نَاسَبَ حُسْنَ ٱلرَّوِيَّةِ وَسُرْعَةَ ٱلْخَاطِرِ بِٱلصَّوَابِ وَشِدَّةَ ٱلْحَزْمِ وَقِلَّةَ ٱلْغَفْلَةِ وَجَوْدَةَ ٱلنَّظَرِ لِلْخَلِيقَةِ وَٱلنِّيَابَةَ عَنْهُ فِي ٱلْمُعْضِلَاتِ بِٱلرَّأْيِ أَوْ بِٱلذَّاتِ كَمَا قَالَ أَبُو نُوَاسٍ :

إِذَا نَابَهُ أَمْرٌ فَإِمَّا كَفَيْتَهُ ... وَإِمَّا عَلَيْهِ بِٱلْكِفَايِ تُشِيرُ

وَبِأَنَّهُ مَحْمُودُ ٱلسِّيرَةِ حَسَنُ ٱلسِّيَاسَةِ لَطِيفٌ فَإِنْ أَضَافَ إِلَى ذٰلِكَ ذِكْرَ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلْخَطِّ وَٱلتَّفَنُّنِ فِي ٱلْعِلْمِ كَانَ غَايَةً . وَأَفْضَلُ مَا

مُدِحَ بِهِ ٱلْقَائِدُ ٱلْجُودُ وَٱلشَّجَاعَةُ وَمَا تَفَرَّعَ مِنْهَا مِنَ ٱلْإِفْرَاطِ فِي ٱلنَّجْدَةِ وَسُرْعَةِ ٱلْبَطْشِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ. وَيُمْدَحُ ٱلْقَاضِي بِمَا نَاسَبَ ٱلْعَدْلَ وَٱلْإِنْصَافَ وَتَقْرِيبَ ٱلْبَعِيدِ فِي ٱلْحَقِّ وَتَبْعِيدَ ٱلْقَرِيبِ فِي ٱلْأَخْذِ لِلضَّعِيفِ مِنَ ٱلْقَوِيِّ وَٱلْمُسَاوَاةِ بَيْنَ ٱلْفَقِيرِ وَٱلْغَنِيِّ بِبَسْطِ ٱلْوَجْهِ وَلِينِ ٱلْجَانِبِ وَقِلَّةِ ٱلْمُبَالَاةِ فِي إِقَامَةِ ٱلْحُدُودِ وَٱسْتِخْرَاجِ ٱلْحُقُوقِ فَإِنْ زَادَ إِلَى ذٰلِكَ وَذَكَرَ ٱلْوَرَعَ وَٱلتَّحَرُّجَ وَمَا شَاكَلَهُمَا فَقَدْ بَلَغَ ٱلنِّهَايَةَ. وَصِفَاتُ ٱلْقَاضِي كُلُّهَا لَائِقَةٌ بِصَاحِبِ ٱلْمَظَالِمِ وَمَنْ كَانَ دُونَ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثِ ٱلطَّبَقَاتِ سِوَى طَبَقَةِ ٱلْمَلِكِ فَلَا أَرَى لِمَدْحِهِ وَجْهًا فَإِنْ دَعَتْ إِلَى ذٰلِكَ ضَرُورَةٌ مَدَحَ كُلَّ إِنْسَانٍ بِٱلْفَضْلِ فِي صِنَاعَتِهِ وَٱلْمَعْرِفَةِ بِطَرِيقَتِهِ ٱلَّتِي هُوَ فِيهَا. وَأَكْثَرُ مَا يُعَوَّلُ عَلَى ٱلْفَضَائِلِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَاهَا قُدَامَةُ وَإِنْ أُضِيفَتْ إِلَيْهَا فَضَائِلُ عَرَضِيَّةٌ أَوْ جِسْمِيَّةٌ كَٱلْجَمَالِ وَٱلْأُبَّهَةِ وَبَسْطَةِ ٱلْخَلْقِ وَسَعَةِ ٱلدُّنْيَا وَكَثْرَةِ ٱلْعَيْشِ كَانَ ذٰلِكَ جَيِّدًا. إِلَّا أَنَّ قُدَامَةَ قَدْ أَبَى مِنْهُ وَأَنْكَرَهُ جُمْلَةً وَلَيْسَ ذٰلِكَ صَوَابًا وَإِنَّمَا ٱلْوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ: ٱلْمَدْحُ بِٱلْفَضَائِلِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ أَشْرَفُ وَأَصَحُّ فَأَمَّا إِنْكَارُ مَا سِوَاهَا جُمْلَةً وَاحِدَةً فَمَا أَظُنُّ أَحَدًا يُسَاعِدُهُ فِيهِ وَلَا يُوَافِقُهُ عَلَيْهِ وَقَدْ كَرِهَ ٱلْحُذَّاقُ أَنْ يُمْدَحَ ٱلْمُلُوكُ بِمَا نَاسَبَ قَوْلَ مُوسَى شَهَوَاتٍ وَيُرْوَى لِغَيْرِهِ:

أَنْتَ نِعْمَ ٱلْمَتَاعُ لَوْ كُنْتَ تَبْقَى ... غَيْرَ أَنْ لَا بَقَاءَ لِلْإِنْسَانِ

لَيْسَ فِيمَا بَدَا لَنَا مِنْكَ عَيْبٌ ... عَابَهُ ٱلنَّاسُ غَيْرَ أَنَّكَ فَانِي

وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِ ٱلْمُلُوكِ أَنَّهُ قَالَ مَا لِهٰؤُلَاءِ ٱلشُّعَرَاءِ قَاتَلَهُمُ ٱللهُ رُبَّمَا ذَكَرُونَا شَيْئًا نَحْنُ أَكْثَرُ لَهُ ذِكْرًا مِنْهُمْ فَيَنْقُصُونَ بِهِ عَلَيْنَا أَوْقَاتَ لَذَّاتِنَا يَعْنِي بِذٰلِكَ ٱلْمَوْتَ. وَمِنْ أَبْشَعِ مَا فِي ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ:

فَلْيَطُلْ عُمْرُهُ فَلَوْ مَاتَ فِي طَوْ ... سٍ مُقِيمًا لَمَاتَ فِيهَا غَرِيبَا

مَا ٱلَّذِي دَعَاهُ إِلَى ذِكْرِ ٱلْمَوْتِ هٰهُنَا إِلَّا ٱلنَّكَدُ وَٱلْبَغَاضَةُ

وَأَجْمَعَ ٱلنَّاسُ عَلَى تَقْدِيمِ قَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ بِمَدْحِ ٱلرَّسُولِ:

تَحْمِلُهُ ٱلنَّاقَةُ ٱلْأَدْمَاءُ مُعْتَجِرًا ... بِٱلْبُرْدِ كَٱلْبَدْرِ جَلَّى لَيْلَةَ ٱلظُّلَمِ

وَفِي عِطَافَيْهِ أَوْ أَثْنَاءِ رَيْطَتِهِ ... مَا يَعْلَمُ ٱللهُ مِنْ دِينٍ وَمِنْ كَرَمِ

وَٱلْجُهَّالُ يَرْوُونَ ٱلْبَيْتَ لِأَبِي دِغْفِلٍ ٱلْجُمَحِيِّ وَيُنَاسِبُهُ قَوْلُ ٱلْعَجَّاجِ:

يُخَيِّلْنَ كُلَّ سُؤْدُدٍ وَفَخْرِ ... يُخَيِّلْنَ مَا نَدْرِي وَمَا لَا نَدْرِي

قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ أَصْلُهُ مِنْ قَوْلِ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ:

وَفَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا عَلِمَ ٱللهُ ... مُ وَمَا إِنْ لِلْخَائِنِينَ دِمَاءُ

قَالَ وَلَمْ يُقَلْ شِعْرٌ قَطُّ أَحْسَنُ مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْمَعَانِي. قَالَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلْمُبَرِّدُ: مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَجْعَلُ ٱلْمَدْحَ فَيَكُونُ ذٰلِكَ وَجْهًا حَسَنًا لِبُلُوغِهِ ٱلْإِرَادَةَ مَعَ خُلُوِّهِ مِنَ ٱلْإِطَالَةِ وَبُعْدِهِ عَنِ ٱلْإِكْثَارِ وَدُخُولِهِ فِي ٱلْإِخْتِصَارِ وَذٰلِكَ نَحْوُ قَوْلِ ٱلْحُطَيْئَةِ:

تَرُورُ فَتًى يُعْطِي عَلَى ٱلْحَمْدِ مَالَهُ ... وَيَعْلَمُ أَنَّ ٱلْمَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ

كَسُوبٌ وَمِتْلَافٌ إِذَا مَا سَأَلْتَهُ ... تَهَلَّلَ وَٱهْتَزَّ ٱهْتِزَازَ ٱلْمُهَنَّدِ

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ

تَصَرَّفَ فِي أَبْيَاتِهِ هٰذِهِ فِي أَصْنَافِ ٱلْمَدِيحِ وَأَتَى بِجَمَاعِ ٱلْوَصْفِ وَجُمْلَةِ ٱلْمَدْحِ عَلَى سَبِيلِ ٱلْاِقْتِصَادِ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلْأَخِيرِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلشَّمَّاخِ:

رَأَيْتُ عُرَابَةَ ٱلْأَوْسِيَّ يَسْمُو إِلَى ٱلْخَيْرَاتِ مُنْقَطِعَ ٱلْقَرِينِ

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عُرَابَةُ بِٱلْيَمِينِ

وَأَفْضَلُ مَدْحٍ مُدِحَ بِهِ ٱلْمُلُوكُ وَأَكْثَرُهُ إِصَابَةً لِلْغَرَضِ مَا يُنَاسِبُ قَوْلَ ٱبْنِ هَرْمَةَ فِي ٱلْمَنْصُورِ:

لَهُ لَحَظَاتٌ عَنْ حِفَافِ سَرِيرِهِ إِذَا كَرَّهَا فِيهَا عِقَابٌ وَنَائِلُ

فَأَمَّا ٱلَّذِي آمَنْتَ آمَنَهُ ٱلرَّدَى وَأَمَّا ٱلَّذِي أَوْعَدْتَ بِٱلْكُلِ ثَاكِلُ

وَقَوْلَ أَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ يَمْدَحُ ٱلْمَهَادِيَ:

يَضْطَرِبُ ٱلْخَوْفُ وَٱلرَّجَاءُ إِذَا حَرَّكَ مُوسَى ٱلْقَضِيبَ أَوْ فَكَّرْ

وَكَذٰلِكَ قَوْلَ ٱلْحَزِينِ ٱلْكِنَانِيِّ فِي عَبْدِ ٱللهِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱبْنِ مَرْوَانَ وَتُرْوَى لِلْفَرَزْدَقِ فِي عَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ وَقِيلَ بَلْ قَالَهَا فِي ٱللَّعِينِ ٱلْمِنْقَرِيِّ وَقِيلَ هِيَ لِدَاوُدَ بْنِ مُسْلِمٍ فِي قُثَمَ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ عَبَّاسٍ:

فِي كَفِّهِ خَيْزُرَانٌ رِيحُهُ عَبِقٌ مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ فِي عِرْنِينِهِ شَمَمُ

يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ فَمَا يُكَلَّمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ

وَٱجْتَمَعَ ٱلشُّعَرَاءُ بِبَابِ ٱلْمُعْتَصِمِ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُحْسِنُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ قَوْلِ مَنْصُورٍ ٱلنَّمَرِيِّ فِي ٱلرَّشِيدِ:

إِنَّ ٱلْمَكَارِمَ وَٱلْمَعْرُوفَ أَوْدِيَةٌ ... أَحَلَّكَ ٱللهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ
إِذَا رَفَعْتَ أَمْرَأً فَٱللهُ رَافِعُهُ ... وَمَنْ وَضَعْتَ مِنَ ٱلْأَقْوَامِ مُتَّضَعُ
مَنْ لَمْ يَكُنْ بِأَمِينِ ٱللهِ مُعْتَصِمًا ... فَلَيْسَ بِٱلصَّلَوَاتِ ٱلْخَمْسِ يَنْتَفِعُ
إِنْ أَخْلَفَ ٱلْغَيْثُ لَمْ تُخْلِفْ أَنَامِلُهُ ... أَوْ ضَاقَ أَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَتَّسِعُ

فَلْيَدْخُلْ. فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وُهَيْبٍ: فِينَا مَنْ يَقُولُ خَيْرًا مِنْهُ وَأَنْشَدَ:

ثَلَاثَةٌ تُشْرِقُ ٱلدُّنْيَا بِبَهْجَتِهِمْ ... شَمْسُ ٱلضُّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ وَٱلْقَمَرُ
تَحْكِي أَفَاعِيلُهُ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ ... ٱلْغَيْثَ وَٱللَّيْثَ وَٱلصَّمْصَامَةَ ٱلذَّكَرُ

فَأَمَرَ بِإِدْخَالِهِ وَأَحْسَنَ صِلَتَهُ

وَقَالُوا لَمَّا حَضَرَتِ ٱلْخُطَيْئَةَ ٱلْوَفَاةُ قَالَ: بَلِّغُوا ٱلْأَنْصَارَ أَنَّ أَخَاهُمْ أَمْدَحُ ٱلنَّاسِ حَيْثُ يَقُولُ:

يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهِرُّ كِلَابُهُمْ ... لَا يَسْأَلُونَ عَنِ ٱلسَّوَادِ ٱلْمُقْبِلِ

قَالَ ثَعْلَبٌ بَلْ قَوْلُ ٱلْأَعْشَى:

فَتًى لَوْ يُنَادِي ٱلشَّمْسَ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا ... أَوِ ٱلْقَمَرَ ٱلسَّارِي لَأَلْقَى ٱلْمَقَالِدَا

أَمْدَحُ مِنْهُ. وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ: بَيْتُ جَرِيرٍ

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ ٱلْمَطَايَا ... وَأَنْدَى ٱلْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ

أَسْيَرُ مَا قِيلَ فِي ٱلْمَدْحِ وَأَسْهَلُهُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: بَلْ قَوْلُ ٱلْأَخْطَلِ:

شَمْسُ ٱلْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ ... وَأَعْظَمُ ٱلنَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا

وَقَالَ دِعْبِلٌ بَلْ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّحْمَانِ ٱلْقَيْنِيِّ

اَضَاءَتْ لَهُمْ اَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ
دُجَى ٱللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ ٱلْجِزْعَ صَاحِبُهُ

قَالَ : وَقَدْ تَنَازَعَ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ يَعْنِي بَيْتَ اَبِي ٱلطَّحْمَانِ قَوْمٌ وَفِي بَيْتِ حَسَّانَ فِي آلِ جَفْنَةَ وَبَيْتِ ٱلنَّابِغَةِ :

بِاَنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ اِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَبَيْتُ اَبِي ٱلطَّحْمَانِ اَشْعَرُهَا. قَالَ ٱلْحَاتِمِيُّ : بَلْ بَيْتُ زُهَيْرٍ :

تَرَاهُ اِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا كَاَنَّكَ تُعْطِيهِ ٱلَّذِي اَنْتَ سَائِلُهُ

وَحُكِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ هَارُونَ عَنْ اَبِيهِ اَنَّهُ قَالَ : اَجْمَعَ اَهْلُ ٱلْعِلْمِ اَنَّ بَيْتَيْ اَبِي نُوَاسٍ اَجْوَدُ بَيْتَيْنِ فِي ٱلْمَدِيحِ لِلْمُوَلَّدِينَ وَهُمَا :

اَنْتَ ٱلَّذِي تَأْخُذُ ٱلْاَيْدِي بِحُجْزَتِهِ
اِذَا ٱلزَّمَانُ عَلَى اَنْيَابِهِ كَلِحَا

وَكَانَتْ بِٱلدَّهْرِ عَيْنًا غَيْرَ غَافِلَةٍ
مِنْ جُودِ كَفِّكَ تَأْسُو كُلَّمَا جَرَحَا

وَحَكَى ٱلْحَاتِمِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْوَاحِدِ عَنْ اَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى قَالَ : سَمِعْتُ ٱبْنَ ٱلْاَعْرَابِيِّ يَقُولُ : اَمْدَحُ بَيْتٍ قَالَهُ مُوَلَّدٌ قَوْلُ اَبِي نُوَاسٍ :

تَغَطَّيْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ فَعَيْنِي تَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي

فَلَوْ تَسَالُ ٱلْاَجْدَاثُ مَا اَسْمِي مَا دَرَتْ
وَاَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفْنَ مَكَانِي

قَالَ صَاحِبُ ٱلْكِتَابِ: نَحْنُ إِلَى ٱلْإِنْصَافِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَى ٱلْمُكَابَرَةِ وَٱلْخِلَافِ وَأَبُو نُوَاسٍ ذَهَبَ مَذْهَبًا لَطِيفًا يَخْرُجُ لَهُ فِيهِ ٱلْعُذْرُ وَٱلتَّأْوِيلُ وَإِلَّا فَمَا فِي صِفَةِ ٱلْخُمُولِ أَشَدُّ مِمَّا ذُكِرَ لَاسِيَّمَا عَلَى رِوَايَةِ مَنْ رَوَى (فَلَوْ تَسْأَلُ ٱلْأَيَّامَ). وَمِنْ جَيِّدِ مَا سَمِعْتُ لِلْمُحْدَثِ وَأَظُنُّهُ لِٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ فِي عُبَيْدِ ٱللهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ وَرَأَيْتُ مَنْ بَرْوِيهِ لِأَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ ٱلْكَاتِبِ أَبِي ٱلْحَسَنِ:

إِذَا أَبُو قَاسِمٍ جَادَتْ يَدَاهُ لَنَا
لَمْ يُحْمَدِ ٱلْأَجْوَدَانِ ٱلْبَحْرُ وَٱلْمَطَرُ
وَإِنْ أَضَاءَتْ لَنَا أَنْوَارُ غُرَّتِهِ
تَضَاءَلَ ٱلنَّيِّرَانِ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ
وَإِنْ مَضَى رَأْيُهُ أَوْ جَدَّ عَزْمَتُهُ
تَأَخَّرَ ٱلْمَاضِيَانِ ٱلسَّيْفُ وَٱلْقَدَرُ
مَنْ لَمْ يَبِتْ حَذِرًا مِنْ سَطْوَةِ صَوْلَتِهِ
لَمْ يَدْرِ مَا ٱلْمُزْعِجَانِ ٱلسَّيْفُ وَٱلْحَذَرُ
يَنَالُ بِٱلظَّنِّ مَا يَعْيَا ٱلْعِيَانُ بِهِ
وَٱلشَّاهِدَانِ عَلَيْهِ ٱلْعَيْنُ وَٱلْأَثَرُ
كَأَنَّهُ وَزِمَامُ ٱلدَّهْرِ فِي يَدِهِ
يَرَى عَوَاقِبَ مَا يَأْتِي وَمَا يَذَرُ

قَالَ خَلَفٌ ٱلْأَحْمَرُ: أَخْلَبُ ٱلْمَدْحِ وَأَكْثَرُهُ مَلَقًا قَوْلُ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلْمَى:

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهْ
أَخُو ثِقَةٍ لَا تُتْلِفُ الْخَمْرُ مَالَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُتْلِفُ الْمَالَ نَائِلُهْ
غَدَوْتُ عَلَيْهِ غُدْوَةً فَرَأَيْتُهُ قُعُودًا لَدَيْهِ بِالصَّرِيمِ عَوَاذِلُهْ
يُغَدِّينَهُ طَوْرًا وَطَوْرًا يَلُمْنَهُ وَأَعْيَا فَمَا يَدْرِينَ أَيْنَ مَحَاتِلُهْ
فَأَعْرَضَ عَنْهُ عَنْ كَرِيمٍ مُرَزَّإٍ جُمُوعٍ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي هُوَ فَاعِلُهْ

وَقَوْلُ طُفَيْلٍ:

جَزَى اللهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ أَزْلَقَتْ بِنَا نَعْلُنَا فِي الْوَاطِئِينَ وَزَلَّتِ(١)
أَبَوْا أَنْ يَمِلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَا تُلَاقِي الَّذِي لَاقَوْهُ مِنَّا لَمَلَّتِ

وَسَأَلَ الرَّشِيدُ الْمُفَضَّلَ الضَّبِّيَّ: أَيُّ بَيْتٍ قَالَتِ الْعَرَبُ أَمْدَحُ فَقَالَ:

أَغَرُّ ابْلَجُ تَأْتَمُّ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

قَالَ شَرَاحِيلُ بْنُ مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ: كُنْتُ أَسِيرُ تَحْتَ قُبَّةِ يَحْيَى ابْنِ خَالِدٍ وَقَدْ حَجَّ مَعَ الرَّشِيدِ وَعَدِيلُهُ أَبُو يُوسُفَ الْقَاضِي إِذْ أَعْرَابِيٌّ مِنْ بَنِي أَسَدٍ كَانَ يَلْقَاهُ إِذَا حَجَّ فَيَمْدَحُهُ فَأَنْشَدَهُ شِعْرًا أَنْكَرَ يَحْيَى مِنْهُ بَيْتًا فَقَالَ: يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ مِثْلِ هٰذَا الشِّعْرِ أَلَا قُلْتَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ اللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ جِلَادِهِمِ بَيْنَ التَّمَاكِينِ مَنْزِلُ
بِهَا لِيلُ فِي الْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ كَأَوَّلِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
هُمُ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطَوْا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا

(١) وكان الاصل: بنا فعلنا في الواطئين وزلت وهو تصحيف

وَلَا يَسْتَطِيعُ ٱلْفَاعِلُونَ فِعَالَهُمْ وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي ٱلنَّائِبَاتِ وَأَجْمَلُوا

فَقَالَ أَبُو يُوسُفَ لِمَنْ هٰذَا ٱلشِّعْرُ أَصْلَحَكَ ٱللهُ فَمَا سَمِعْتُ أَحْسَنَ مِنْهُ فَقَالَ يَحْيَى يَقُولُهُ ٱبْنُ أَبِي حَفْصَةَ فِي أَبِي هٰذَا ٱلْفَتَى وَأَوْمَأَ إِلَيَّ فَكَانَ قَوْلُهُ أَسَرَّ إِلَيَّ مِنْ جَلِيلِ ٱلْفَوَائِدِ ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ يَا شَرَاحِيلُ ٱنْشِدْنِي أَجْوَدَ مَا قَالَهُ ٱبْنُ أَبِي حَفْصَةَ فِي أَبِيكَ فَأَنْشَدْتُهُ:

نِعْمَ ٱلْمُنَاخُ لِرَاهِبٍ وَلِرَاغِبٍ ... مِمَّنْ تُصِيبُ حَوَائِجُ ٱلْأَزْمَانِ

مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ ٱلَّذِي زِيدَتْ بِهِ ... شَرَفًا إِلَى شَرَفِ بَنُو شَيْبَانِ

إِنْ عُدَّ أَيَّامُ ٱللِّقَاءِ فَإِنَّمَا ... يَوْمَاهُ يَوْمُ نَدًى وَيَوْمُ طِعَانِ

يَكْسُو ٱلْأَسِرَّةَ وَٱلْمَنَابِرَ بَهْجَةً ... وَيَزِينُهَا بِجَهَارَةٍ وَبَيَانِ

تَمْضِي أَسِنَّتُهُ وَيُسْفِرُ وَجْهُهُ ... فِي ٱلْحَرْبِ عِنْدَ تَغَيُّرِ ٱلْأَلْوَانِ

نَفْسِي فِدَاكَ أَبَا ٱلْوَلِيدِ إِذَا بَدَا ... رَهَجُ ٱلسَّنَابِكِ وَٱلْقَتَامُ دُوَانِ

فَقَالَ يَحْيَى أَنْتَ لَا تَدْرِي جَيِّدَ مَا مُدِحَ بِهِ أَبُوكَ وَأَجْوَدَ مِنْ هٰذَا قَوْلُهُ:

تَشَابَهَ يَوْمَاهُ عَلَيْنَا فَأَشْكَلَا ... فَلَا نَحْنُ نَدْرِي أَيُّ يَوْمَيْهِ أَفْضَلُ

أَيَوْمُ نَدَاهُ ٱلْغُرُّ أَمْ يَوْمُ بَأْسِهِ ... وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا أَغَرُّ مُحَجَّلُ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَنْقُلُ ٱلْمَدِيحَ عَنْ رَجُلٍ إِلَى رَجُلٍ وَكَانَ ذٰلِكَ دَأْبَ ٱلْبُحْتُرِيِّ وَفَعَلَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَصَائِدَ مِنْهَا:

قَدْكَ ٱتَّئِبْ أَرْبَيْتَ فِي ٱلْغُلَوَاءِ

نَقَلَهَا عَنْ يَحْيَى بْنِ ثَابِتٍ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ حَسَّانَ ٱلضَّبِّيِّ

البحث الرابع

في الافتخار

(من الكتاب نفسه)

اَلْاِفْتِخَارُ هُوَ اَلْمَدْحُ بِعَيْنِهِ اِلَّا اَنَّ اَلشَّاعِرَ يَخُصُّ بِهِ نَفْسَهُ وَقَوْمَهُ فَكُلَّمَا حَسُنَ فِي اَلْمَدْحِ حَسُنَ فِي اَلْاِفْتِخَارِ وَكُلَّمَا قَبُحَ فِيهِ قَبُحَ فِي اَلْاِفْتِخَارِ فَمِنْ اَبْيَاتِ اَلْاِفْتِخَارِ قَوْلُ اَلْفَرَزْدَقِ :

اِنَّ اَلَّذِي سَمَكَ اَلسَّمَاءَ بَنَى لَنَا بَيْتًا دَعَائِمُهُ اَعَزُّ وَاَطْوَلُ

قَالَ اَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ ثَعْلَبٍ : اَفْخَرُ بَيْتٍ قَالَتْهُ اَلْعَرَبُ قَوْلُ اَمْرِئِ اَلْقَيْسِ :

مَا يُنْكِرُ اَلنَّاسُ مِنَّا حِينَ نَمْلِكُهُمْ كَانُوا عَبِيدًا وَكُنَّا نَحْنُ اَرْبَابَا

وَقَالَ دِعْبِلٌ اَفْخَرُ اَلشِّعْرِ قَوْلُ كَعْبٍ :

وَبِبَدْرٍ اِذْ يَرُدُّ وُجُوهَهُمْ جِبْرِيلُ تَحْتَ لِوَائِنَا وَمُحَمَّدُ

وَقَالَ اَلْحَاتِمِيُّ : قَوْلُ اَلْفَرَزْدَقِ :

تَرَى اَلنَّاسَ مَا سِرْنَا يَسِيرُونَ خَلْفَنَا وَاِنْ نَحْنُ اَوْمَأْنَا اِلَى اَلنَّاسِ وَقَّفُوا

قَالَ وَيَتْلُوهُ قَوْلُ جَرِيرٍ :

اِذَا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ وَجَدْتَ اَلنَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

وَقَالَ آخَرُ : بَلْ قَوْلُ اَلْفَرَزْدَقِ :

وَنَحْنُ اِذَا عَدَّتْ مَعَدٌّ قَدِيمَهَا مَكَانَ اَلنَّوَاصِي مِنْ وُجُوهِ اَلسَّوَابِقِ

وَقَالَ غَيْرُهُ : بَلْ قَوْلُ اَلْفَرَزْدَقِ لِجَرِيرٍ :

فَإِذَا نَظَرْتَ رَأَيْتَ فَوْقَكَ دَارِمًا وَالشَّمْسَ حَيْثُ تَقَطَّعُ الْأَبْصَارُ

وَقِيلَ بَلْ قَوْلُ ابْنِ مَيَّادَةَ :

وَلَوْ أَنَّ قَيْسًا قَيْسَ غَيْلَانَ أَقْسَمَتْ

عَلَى الشَّمْسِ لَمْ يَطْلُعْ عَلَيْكَ حِجَابُهَا

وَأَفْخَرُ بَيْتٍ صَنَعَهُ مُحْدَثٌ عِنْدَهُمْ قَوْلُ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ :

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً

هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمَا (١)

إِذَا مَا أَعَرْنَا سَيِّدًا مِنْ قَبِيلَةٍ ذُرَى مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَا

وَمِنْ جَيِّدِ الْافْتِخَارِ قَوْلُ بَكْرِ بْنِ النَّطَّاحِ :

وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنَّا يَعِشْ بِحُسَامِهِ وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ يَسْأَلِ

وَنَحْنُ وُصِفْنَا دُونَ كُلِّ قَبِيلَةٍ بِبَأْسٍ شَدِيدٍ فِي الْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ

وَإِنَّا لَنَلْهُو فِي الْحُرُوبِ كَمَا لَهَتْ فَتَاةٌ بِعِقْدٍ أَوْ سِخَابٍ فَرَنْفُلِ

يَعْنِي قَوْلَ الْقُرْآنِ : سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ . وَبِسَبَبِ هٰذَا الشِّعْرِ وَأَشْبَاهِهِ طَلَبَهُ الرَّشِيدُ أَشَدَّ طَلَبٍ فَقَالَ : كَيْفَ تَفْتَخِرُ عَلَى مُضَرَ وَمِنْهُمُ النَّبِيُّ . فَهٰذَا الِافْتِخَارُ بِالشَّجَاعَةِ خَاصَّةً . وَمِمَّنِ افْتَخَرَ بِالْكَثْرَةِ أَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ فَقَالَ :

مَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ إِلَّا عِنْدَ أَوَّلِنَا وَلَا تَغِيبُ إِلَّا عِنْدَ آخِرِنَا

وَقَدْ أَنْكَرَ قُدَامَةُ أَنْ يُمْدَحَ الْإِنْسَانُ بِآبَائِهِ دُونَ أَنْ يَكُونَ مَمْدُوحًا بِنَفْسِهِ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَا يَكُونُونَ كَآبَائِهِمْ . وَالَّذِي

(١) ويروى : هتكنا سماء الله او امطرت دما

ذَهَبَ إِلَيْهِ حَسَنٌ. وَأَنْكَرَ الْجُرْجَانِيُّ عَلَى أَبِي الطَّيِّبِ قَوْلَهُ :

مَا بِقَوْمِي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بِي ... بَلْ بِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي

وَقَالَ إِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَلِيِّ بْنِ جَبَلَةَ حَيْثُ يَقُولُ :

وَمَا سَوَّدَتْ عِجْلًا مَآثِرُ عِنْدَهُمْ ... وَلَكِنْ بِهِمْ سَادَتْ عَلَى غَيْرِهَا عِجْلُ

قَالَ وَهٰذَا مَعْنًى سُوءٍ يَغُضُّ مِنْ حَسَبِ الْمَمْدُوحِ وَيُحَقِّرُ مِنْ شَأْنِ سَلَفِهِ وَإِنَّمَا طَرِيقَةُ الْمَدْحِ أَنْ يَجْعَلَ الْمَمْدُوحَ لِشَرَفِ آبَائِهِ وَالْآبَاءَ تَزْدَادُ شَرَفًا بِهِ فَيَجْعَلَ لِكُلٍّ مِنْهُمْ فِي الْفَخْرِ حَظًّا وَفِي الْمَدْحِ نَصِيبًا. وَإِذَا حُصِّلَتِ الْحَقَائِقُ كَانَ النَّصِيبَانِ مَقْسُومَيْنِ بَلْ كَانَ الْكُلُّ خَالِصًا لِكُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ لِأَنَّ شَرَفَ الْوَالِدِ جُزْءٌ مِنْ مِيرَاثِهِ وَمُنْتَقِلٌ إِلَى وَلَدِهِ كَانْتِقَالِ مَالِهِ فَإِذَا رُعِيَ وَحُرِثَ ثَبَتَ وَازْدَادَ وَإِنْ أُهْمِلَ وَضُيِّعَ هَلَكَ وَكَذٰلِكَ شَرَفُ الْوَالِدِ يَعُمُّ الْقَبِيلَةَ وَلِلْوَلَدِ مِنْهُ الْقِسْمُ الْأَوْفَرُ وَالْحَظُّ الْأَكْبَرُ

قَالَ صَاحِبُ الْكِتَابِ : وَالَّذِي يَقَعُ عَلَيْهِ الِاخْتِيَارُ عِنْدَهُمْ مَا نَاسَبَ قَوْلَ الْمُتَوَكِّلِ اللَّيْثِيِّ :

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كَرُمَتْ ... يَوْمًا عَلَى الْأَحْسَابِ نَتَّكِلُ

نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا ... تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَمَا فَعَلُوا

وَقَوْلَ عَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ :

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ ابْنَ سَيِّدِ عَامِرٍ ... وَفِي السِّرِّ مِنْهَا وَالصَّرِيحِ الْمُهَذَّبِ

فَمَا سَوَّدَتْنِي عَامِرٌ عَنْ وِرَاثَةٍ ... أَبَى اللّٰهُ أَنْ أَسْمُو بِأُمٍّ وَلَا أَبِ

وَمِنْ أَفْخَرِ مَا قَالَ الْمُوَلَّدُونَ قَوْلُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْمَوْصِلِيِّ

يَفْخَرُ بِوِلَايَةِ مِنْ خَزِيمَةَ بْنِ خَازِمٍ ٱلنَّهْشَلِيِّ :

إِذَا مُضَرُ ٱلْحَمْرَاءُ كَانَتْ أُرُومَتِي ... وَقَامَ بِنَصْرِي خَازِمٌ وَٱبْنُ خَازِمِ
عَطَسْتُ بِأَنْفٍ شَامِخٍ وَتَنَاوَلَتْ ... يَدَايَ ٱلثُّرَيَّا قَاعِدًا غَيْرَ قَائِمِ

وَمِنْ قَوْلِ ٱلسَّيِّدِ أَبِي ٱلْحَسَنِ يَفْخَرُ بِقَوْمِهِ بَنِي شَيْبَانَ .

يَا آلَ شَيْبَانَ لَا غَارَتْ نُجُومُكُمُ ... وَلَا خَبَتْ نَارُكُمْ مِنْ بَعْدِ تَوْقِيدِ
أَنْتُمْ دَعَائِمُ هٰذَا ٱلْمُلْكِ مُذْ رَكَضَتْ ... قَبْلَ ٱلْخُيُولُ لِإِبْرَامٍ وَتَوْكِيدِ
ٱلْمُنْعِمُونَ إِذَا مَا أَزْمَةٌ أَزَمَتْ ... وَٱلْوَاهِبُونَ عَتِيقَاتِ ٱلْمَزَادِيدِ
سُيُوفُكُمْ أَفْقَدَتْ كِسْرَى مَرَازِبَهُ ... فِي يَوْمِ ذِي قَارَ إِذْ جَاؤُوا لِمَوْعُودِ

فَهٰذَا هُوَ ٱلْفَخْرُ ٱلْحَلَالُ غَيْرُ ٱلْمُدَّعَى فِيهِ وَلَا ٱلْمُنْتَحَلِ .

وَعَابَ ٱلْأَصْمَعِيُّ وَغَيْرُهُ قَوْلَ عَامِرِ بْنِ مُغْسِرِ بْنِ أَسْحَمَ يَصِفُ أَسِيرًا :

فَظَلَّ يُخَالِسُ ٱلْمَذَقَاتِ فِينَا ... يُقَادُ كَأَنَّهُ جَمَلٌ رَبِيقُ

وَذٰلِكَ لِأَنَّهُ وَصَفَ أَسِيرَهُمْ بِأَنَّهُ جَائِعٌ يُخَالِسُ ٱلْقَلِيلَ ٱلْمَذُوقَ مِنَ ٱللَّبَنِ إِنَّمَا ذٰلِكَ مِنَ ٱلْجَهْلِ . وَمِنْ أَجْوَدِ قَصِيدَةٍ أُفْتُخِرَ فِيهَا شَاعِرٌ قَصِيدَةُ ٱلسَّمَوْأَلِ بْنِ عَادِيَاءَ فَإِنَّهُ قَدْ جَمَعَ فِيهَا ضُرُوبَ ٱلْمَدَائِحِ وَأَنْوَاعَ ٱلْمَفَاخِرِ وَهِيَ مَشْهُورَةٌ

البحث الخامس

في الرثاء

(من الكتاب نفسه)

وَلَيْسَ بَيْنَ ٱلرِّثَاءِ وَٱلْمَدْحِ فَرْقٌ إِلَّا أَنْ يُخْلَطَ بِٱلرِّثَاءِ شَيْءٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْمَقْصُودَ بِهِ مَيِّتٌ مِثْلَ كَانَ أَوْ عَدِمْنَا كَيْتَ وَكَيْتَ أَوْ مَا شَاكَلَ ذٰلِكَ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ مَيِّتٌ. وَسَبِيلُ ٱلرِّثَاءِ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُ ٱلتَّفَجُّعِ بَيِّنَ ٱلْحَسْرَةِ مَخْلُوطًا بِٱلتَّلَهُّفِ وَٱلْأَسَفِ وَٱلِٱسْتِعْظَامِ إِنْ كَانَ ٱلْمَيِّتُ مَلِكًا أَوْ رَئِيسًا كَبِيرًا كَمَا قَالَ ٱلنَّابِغَةُ فِي حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ:

يَقُولُونَ حِصْنٌ ثُمَّ تَأْبَى نُفُوسُهُمْ ... وَكَيْفَ بِحِصْنٍ وَٱلْجِبَالُ جُمُوحُ
وَلَمْ تَلْفُظِ ٱلْمَوْتَى ٱلْقُبُورُ وَلَمْ تُزَلْ ... نُجُومُ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَدِيمُ صَحِيحُ
فَعَمَّا قَلِيلٍ ثُمَّ جَاءَ نَعِيُّهُ ... فَظَلَّ بَنِي ٱلْقَوْمِ وَهْوَ يَنُوحُ

فَهٰذَا وَمَا شَاكَلَهُ رِثَاءُ ٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ ٱلْحِلَّةِ وَإِلَى هٰذَا ذَهَبَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ حِينَ قَالَ: (مَاتَ ٱلْخَلِيفَةُ أَيُّهَا ٱلثَّقَلَانِ) فَرَفَعَ ٱلنَّاسُ رُؤُوسَهُمْ وَفَتَحُوا عُيُونَهُمْ وَقَالُوا: أَنْعَاهُ إِلَى ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ ثُمَّ قَالَ: (فَكَأَنَّنِي أَفْطَرْتُ فِي رَمَضَانَ) يُرِيدُ إِنِّي بُجَاهَرَتِي بِهٰذَا ٱلْقَوْلِ كَأَنَّمَا جَاهَرْتُ نَهَارًا بِٱلْإِفْطَارِ فِي رَمَضَانَ فَكُلُّ أَحَدٍ يُنْكِرُ عَلَيَّ ذٰلِكَ وَيَسْتَعْظِمُهُ مِنْ فِعْلِي وَهٰذَا مَعْنًى جَيِّدٌ غَرِيبٌ فِي لَفْظٍ رَدِيٍّ غَيْرِ مُعْرِبٍ عَمَّا فِي ٱلنَّفْسِ. وَمِنْ أَفْضَلِ ٱلرِّثَاءِ قَوْلُ

اَلْحُسَيْنِ بْنِ مَطِيرٍ يَرْثِي مَعْنَ بْنَ زَائِدَةَ وَيُرْوَى لِأَبْنِ اَبِي حَفْصَةَ:

فَيَا قَبْرَ مَعْنٍ اَنْتَ اَوَّلُ بُقْعَةٍ
مِنَ اَلْاَرْضِ خُطَّتْ لِلسَّمَاحَةِ مَوْضِعَا

وَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ
وَقَدْ كَانَ مِنْهُ اَلْبَرُّ وَالْبَحْرُ مُتْرَعَا

بَلَى قَدْ وَسِعْتَ اَلْجُودَ وَالْجُودُ مَيِّتٌ
وَلَوْ كَانَ حَيًّا عِشْتَ حَتَّى تَصَدَّعَا

فَتًى عِيشَ فِي مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ
كَمَا كَانَ بَعْدَ اَلسَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعَا

وَمِمَّا قَصَّرَ بِهِ اَبُو تَمَّامٍ فِي رِثَائِهِ مُحَمَّدَ بْنَ حُمَيْدٍ بِالْقَصِيدَةِ اَلَّتِي يَقُولُ فِيهَا:

اَلَا فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ مَنْ عُطِّلَتْ لَهُ
فِجَاجُ سَبِيلِ اَللّٰهِ وَاَنْثَغَرَ اَلثَّغْرُ

وَقَدْ اَجَادَ اَيْضًا فِي اَلْقَصِيدَةِ اَلَّتِي رَثَى بِهَا اَدْرِيسَ بْنَ بَدْرٍ يَقُولُ فِيهَا:

وَلَمْ اَنْسَ سَعْيَ اَلْجُودِ خَلْفَ سَرِيرِهِ
بِاَكْسَفَ بَالٍ يَسْتَقِلُّ وَيَطْلُعُ

وَاَبُو تَمَّامٍ مِنَ اَلْمَعْدُودِينَ فِي اِجَادَةِ اَلرِّثَاءِ وَمِثْلُهُ دِيكُ اَلْجِنِّ وَهُوَ اَشْهَرُ فِي هٰذَا مِنْ اَبِي تَمَّامٍ لَهُ فِيهِ طَرِيقٌ قَدِ اَنْفَرَدَ بِهَا قَالَ فِي عُبَيْدِ اَللّٰهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ:

قَدِ اَسْتَوَى اَلنَّاسُ وَمَاتَ اَلْكَمَالُ
وَصَاحَ صَرْفُ اَلدَّهْرِ اَيْنَ اَلرِّجَالُ

هٰذَا اَبُو اَلْقَاسِمِ فِي نَعْشِهِ
قُومُوا اُنْظُرُوا كَيْفَ تَسِيرُ اَلْجِبَالُ

وَمِنْ عَادَةِ ٱلْقُدَمَاءِ اَنْ يَضْرِبُوا ٱلْاَمْثَالَ فِي ٱلْمَرَاثِي بِٱلْمُلُوكِ ٱلْاَعِزَّةِ وَٱلْاُمَمِ ٱلسَّالِفَةِ وَبِٱلْوُعُولِ ٱلْمُمْتَنِعَةِ فِي قُلَلِ ٱلْجِبَالِ وَٱلْاُسُودِ ٱلْحَادِرَةِ فِي ٱلْغِيَاضِ وَحُمُرِ ٱلْوَحْشِ ٱلْمُتَصَرِّفَةِ بَيْنَ ٱلْقِفَارِ وَبِٱلنُّسُورِ وَٱلْعِقْبَانِ وَٱلْحَيَّاتِ لِبَأْسِهَا وَطُولِ اَعْمَارِهَا وَذٰلِكَ فِي اَشْعَارِهِمْ كَثِيرٌ مَوْجُودٌ لَا تَكَادُ تَخْلُو مِنْهُ. فَاَمَّا ٱلْمُحْدَثُونَ فَهُمْ اِلَى غَيْرِ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ اَمْيَلُ وَمَذْهَبُهُمْ فِي ٱلرِّثَاءِ اَمْثَلُ فِي وَقْتِنَا هٰذَا وَقَبْلَهُ وَرُبَّمَا جَرَوْا عَلَى سُنَنِ مَنْ قَبْلَهُمْ ٱقْتِدَاءً بِهِمْ وَاَخْذًا بِسُنَّتِهِمْ كَٱلَّذِي صَنَعَ اَبُو نُوَاسٍ فِي رِثَائِهِ اَبَا ٱلْوَلِيدِ ٱلْاَعْرَابِيَّ وَخَلَفًا ٱلْاَحْمَرَ وَمَرَاثِيهِ فِيهِمَا ثَلَاثُ قَوَافٍ مَشْهُورَاتٌ

وَكَمَا صَنَعَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ يَرْثِي اَبَاهُ بِٱلْقَصِيدَةِ ٱللَّامِيَّةِ ٱلْمُقَيَّدَةِ فِي ٱلرَّمَلِ اَوَّلُهَا :

رُبَّ حَتْفٍ بَيْنَ اَثْنَاءِ ٱلْاَمَلْ وَحَيَاةُ ٱلْمَرْءِ ظِلٌّ مُنْتَقِلْ

وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ وَلَوْلَا ٱشْتِهَارُ هٰذِهِ ٱلْقَصَائِدِ وَوُجُودُهَا وَخِيفَةُ ٱلتَّطْوِيلِ لَاَثْبَتُّهَا بِهٰذَا ٱلْمَوْضِعِ وَلَيْسَ مِنْ عَادَةِ ٱلشُّعَرَاءِ اَنْ يُقَدِّمُوا قَبْلَ ٱلرِّثَاءِ نَسِيبًا كَمَا يَصْنَعُونَ فِي ٱلْمَدْحِ وَٱلْهِجَاءِ. قَالَ ٱبْنُ ٱلْكَلْبِيِّ وَكَانَ عَلَّامَةً لَا اَعْرِفُ مَرْثِيَةً فِي اَوَّلِهَا نَسِيبٌ اِلَّا قَصِيدَةَ دُرَيْدِ بْنِ ٱلصِّمَّةِ فِي رِثَاءِ اَخِيهِ خَالِدٍ :

اَرَثَّ جَدِيدُ ٱلْحَبْلِ مِنْ اُمِّ مَعْبَدِ لِعَاقِبَةٍ اَوْ اَخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدِ

وَحَكَى ٱلْخَفَّاسُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ سُلَيْمَانَ عَنْ اَبِي ٱلْعَبَّاسِ ٱلْاَحْوَلِ اَنَّ ٱلْقَصِيدَةَ ٱلَّتِي لِاَبِي قُحَافَةَ اَعْشَى بَاهِلَةَ اِنَّمَا هِيَ لِاَبْنَةٍ ٱلْمُنْتَشِرِ

وَأَسْمُهَا ٱلدَّعْجَاءُ. وَٱلْحَاصِلُ أَنَّ ٱلْمُتَعَارَفَ عِنْدَ أَهْلِ ٱللُّغَةِ أَنَّهُ لَيْسَ لِلْعَرَبِ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ مَرْثِيَةٌ أَوَّلُهَا تَشْبِيبٌ إِلَّا قَصِيدَةُ دُرَيْدٍ. وَأَنَا أَقُولُ إِنَّهُ ٱلْوَاجِبُ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْإِسْلَامِ إِلَى وَقْتِنَا هٰذَا وَمِنْ بَعْدِهِ لِأَنَّ ٱلْآخِذَ فِي ٱلرِّثَاءِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَشْغُولًا عَنِ ٱلنَّسِيبِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنَ ٱلْحَسْرَةِ وَٱلِٱهْتِمَامِ بِٱلْمُصِيبَةِ وَإِنَّمَا تَغَزَّلَ دُرَيْدٌ بَعْدَ قَتْلِ أَخِيهِ بِسَنَةٍ وَحِينَ أَخَذَ بِثَارِهِ وَأَدْرَكَ طَائِلَتَهُ

وَمِنَ ٱلْعَجِيبِ أَنْ يَقُولَ عَبْدَةُ بْنُ ٱلطَّبِّ فِي تَأْبِينِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ ٱلْمِنْقَرِيِّ:

عَلَيْكَ سَلَامُ ٱللهِ قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَا

وَيَقُولَ ٱلْكُمَيْتُ فِي تَأْبِينِ ٱلنَّبِيِّ هٰذَا ٱلْقَوْلَ فَهَلَّا قَالَ مِثْلَ قَوْلِ فَاطِمَةَ:

إِغْبَرَّ آفَاقُ ٱلسَّمَاءِ وَكُوِّرَتْ شَمْسُ ٱلنَّهَارِ وَأَظْلَمَ ٱلْعَصْرَانِ

وَٱلنِّسَاءُ أَشْجَى ٱلنَّاسِ قُلُوبًا عِنْدَ ٱلْمُصِيبَةِ وَأَشَدُّهُمْ جَزَعًا عَلَى هَالِكٍ لِمَا رَكَّبَ ٱللهُ تَعَالَى فِي طِبَاعِهِنَّ مِنْ ضُعْفِ ٱلْعَزِيمَةِ

فَٱنْظُرْ إِلَى قَوْلِ جَلِيلَةَ بِنْتِ مُرَّةَ تَرْثِي زَوْجَهَا كُلَيْبًا حِينَ قَتَلَهُ أَخُوهَا جَسَّاسٌ مَا أَشْجَى لَفْظَهَا وَأَظْهَرَ ٱلْفَجِيعَةَ فِيهِ وَكَيْفَ يُثِيرُ ٱلْأَشْجَانَ وَيَقْدَحُ شَرَرَ ٱلنِّيرَانِ وَذٰلِكَ:

يَا أَبْنَةَ ٱلْأَقْوَامِ إِنْ كُنْتِ فَلَا تَعْجَلِي بِٱللَّوْمِ حَتَّى تَسْأَلِي

وَمِنْ أَشَدِّ ٱلرِّثَاءِ صُعُوبَةً عَلَى ٱلشَّاعِرِ أَنْ يَرْثِيَ طِفْلًا أَوِ ٱمْرَأَةً لِضِيقِ ٱلْكَلَامِ عَلَيْهِ فِيهِمَا وَقِلَّةِ ٱلصِّفَاتِ. أَلَا تَرَى مَا صَنَعُوا بِأَبِي

ٱلطَّيِّبِ وَهُوَ فَحْلٌ مُجَوَّدٌ اِذْ ذَكَرَ ٱلْمُحْدَثُونَ فِي قَوْلِهِ يَذْكُرُ اُمَّ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

صَلَاةُ ٱللهِ خَالِقِنَا حَنُوطٌ عَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْمُكَفَّنِ بِٱلْجَمَالِ

وَقَالُوا مَا لَهُ وَلِهٰذِهِ ٱلْعَجُوزِ يَصِفُ جَمَالَهَا وَقَالَ ٱلصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ : هٰذِهِ ٱسْتِعَارَةُ حِدَادٍ فِي عُرْسٍ فَاِنْ كَانَ اَرَادَ ٱلصَّاحِبُ بِٱلْاِسْتِعَارَةِ ٱلْحُنُوطَ فَقَدْ وَٱللهِ ظَلَمَ وَتَعَسَّفَ وَاِنْ كَانَ اَرَادَ ٱسْتِعَارَةَ ٱلْكَفَنِ لِجَمَالِ ٱلْعَجُوزِ فَقَدِ ٱعْتَرَضَ فِي مَوْضِعِ ٱعْتِرَاضٍ اِلَى مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ مَا يَمْحَقُ كُلَّ زَلَّةٍ وَيُعْفِي كُلَّ اِسَاءَةٍ . قَالَ ٱلصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى مَرْثِيَةٍ لَهُ فِي اُمِّ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ تَدُلُّ مَعَ فَسَادِ ٱلْحُسْنِ عَلَى سُوءِ اَدَبِ ٱلنَّفْسِ وَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يُخَاطِبُ مَلِكًا فِي اُمِّهِ بِقَوْلِهِ :

رِوَاقُ ٱلْعِزِّ فَوْقَكَ مُسْبَطِرٌّ وَمُلْكُ عَلِيٍّ ٱبْنِكَ فِي كَمَالِ

وَلَعَلَّ لَفْظَ ٱلْاِسْبِطْرَارِ فِي مَرَاثِي ٱلنِّسَاءِ مِنَ ٱلْخِذْلَانِ ٱلصَّفِيقِ ٱلرَّقِيقِ . وَاَنَا اَقُولُ اِنَّ اَشَدَّ مَا هُجِّنَ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةَ وَجَعَلَهَا مَقَامَ قَصِيدَةِ هِجَاءٍ اَنَّهُ قَرَنَهَا بِفَوْقَكَ فَجَاءَ عَمَلًا تَامًّا لَمْ يَبْقَ فِيهِ اِلَّا فَضَاءُ

وَمِنْ اَصْعَبِ ٱلرِّثَاءِ اَيْضًا جَمْعُ تَعْزِيَةٍ وَتَهْنِئَةٍ فِي مَوْضِعٍ قَالُوا : لَمَّا مَاتَ مُعَاوِيَةُ ٱجْتَمَعَ ٱلنَّاسُ بِبَابِ يَزِيدَ فَلَمْ يَقْدِرْ اَحَدٌ عَلَى ٱلْجَمْعِ بَيْنَ ٱلتَّعْزِيَةِ وَٱلتَّهْنِئَةِ حَتَّى اَتَى عَبْدُ ٱللهِ ٱبْنُ هَمَّامٍ ٱلسَّلُولِيُّ فَدَخَلَ فَقَالَ : يَا اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ اَجَرَكَ ٱللهُ عَلَى ٱلرَّزِيَّةِ . وَبَارَكَ لَكَ فِي ٱلْعَطِيَّةِ . وَاَعَانَكَ عَلَى ٱلرَّعِيَّةِ . فَقَدْ رُزِيتَ عَظِيمًا وَاُعْطِيتَ فَاَشْكِرْ

اللهَ عَلَى مَا أُعطِيتَ وَاصْبِرْ عَلَى مَا رُزِيتَ فَقَدتَّ خَلِيفَةَ اللهِ وَأُعطِيتَ خِلَافَةَ اللهِ فَفَارَقْتَ جَلِيلًا وَأُعطِيتَ عَظِيمًا إِذْ قَضَى مُعَاوِيَةُ نَحْبَهُ وَوُلِّيتَ الرِّئَاسَةَ وَأُعطِيتَ السِّيَاسَةَ فَأَوْرَدَهُ اللهُ مَوَارِدَ السُّرُورِ وَوَفَّقَكَ لِمَصَالِحِ الْأُمُورِ :

فَاصْبِرْ يَزِيدُ فَقَدْ فَارَقْتَ ذَا ثِقَةٍ
فَاشْكُرْ حِبَاءَ الَّذِي بِالْمُلْكِ اصْفَاكَا
لَا رُزْءَ اصْبَحَ فِي الْأَيَّامِ نَعْلَمُهُ كَمَا رُزِيتَ وَلَا عُقْبَى كَعُقْبَاكَا

فَفَتَحَ لِلنَّاسِ بَابَ الْقَوْلِ وَعَلَى هٰذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ جَرَى الشُّعَرَاءُ بَعْدَهُ قَالَ أَبُو نُوَاسٍ يُعَزِّي الْفَضْلَ بْنَ الرَّبِيعِ وَيُهَنِّيهِ بِالْأَمِينِ :

تَعَزَّ أَبَا الْعَبَّاسِ عَنْ خَيْرِ هَالِكٍ بِأَكْرَمِ حَيٍّ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنُ
حَوَادِثُ أَيَّامٍ تَدُورُ صُرُوفُهَا لَهُنَّ مَسَاوٍ مَرَّةً وَمَحَاسِنُ
وَفِي الْحَيِّ بِالْمَيْتِ الَّذِي غَيَّبَ الثَّرَى
فَلَا الْمُلْكُ مَغْبُونٌ وَلَا الْمَوْتُ غَابِنُ

وَيُرْوَى فَلَا أَنْتَ مَغْبُونٌ . وَأَتْبَعَهُ أَبُو تَمَّامٍ بِالْقَصِيدَةِ الَّتِي أَوَّلُهَا (مَا لِلدُّمُوعِ تَرُومُ كُلَّ مَرَامِ) يَقُولُ فِيهَا لِلْوَاثِقِ بَعْدَ الْمُعْتَصِمِ صَرَفَ فِيهَا الْكَلَامَ حَيْثُ شَاءَ وَاطْنَبَ كَمَا أَرَادَ وَأَحْتَجَّ وَاسْهَبَ وَتَقَدَّمَ فِيهَا عَلَى مَنْ سَلَكَ هٰذِهِ النَّاحِيَةَ مِنَ الشِّعْرِ . وَأَرَادَ ابْنُ الزَّيَّاتِ مُجَارَاتَهُ فَعَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ التَّقْصِيرَ فَاقْتَصَرَ عَلَى :

قَدْ قُلْتُ إِنْ غَيَّبُوكَ وَاصْطَفَقَتْ عَلَيْكَ أَيْدٍ بِالتُّرْبِ وَالطِّينِ
إِذْهَبْ فَنِعْمَ الْمُعِينُ كُنْتَ عَلَى الدُّ نْيَا وَنِعْمَ الظَّهِيرُ لِلدِّينِ

لَنْ يَجْبُرَ اللهُ اُمَّـةً فَقَدَتْ مِثْلَكَ اِلَّا بِمِثْـلِ هَارُونِ

وَمِنْ جَيِّدِ مَا رُثِيَ بِهِ النِّسَاءُ وَاَشَدِّهِ تَأْثِيرًا فِي الْقَلْبِ وَاِثَارَةً لِلْحُزْنِ قَوْلُ ابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ هٰذَا فِي اُمِّ وَلَدِهِ :

اَلَا مَنْ رَاَى الطِّفْـلَ الْمُفَارِقَ اُمَّهُ

بُعَيْـدَ الْكَرَى عَيْنَاهُ تَبْتَدِرَانِ

يَقُولُ فِيهَا :

اَلَا اِنَّ سَجْلًا وَاحِدًا قَدْ اَرَقْتُهُ مِنَ الدَّمْعِ اَوْ سَجْلَيْنِ قَدْ شَفَيَانِي

وَاِنَّ مَكَانًا فِي الثَّرَى خُطَّ لَحْـدُهُ

لَمُنْ كَانَ فِي قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانِ

وَمِنْ اَشْجَى الشِّعْرِ رِثَاءُ قَوْلُهُ فِي هٰذِهِ الْقَصِيدَةِ :

فَهَنِّنِي عَدِمْتُ الصَّبْرَ عَنْهَا لِاَنَّنِي جَلِيدٌ فَمُنْ بِالصَّبْرِ لِلْاَبْنِ ثَمَانِ

فَهٰذِهِ الطَّرِيقُ هِيَ الَّتِي يَجْرِي حُذَّاقُ الشُّعَرَاءِ اِلَيْهَا وَيَعْتَمِدُونَ فِي الرِّثَاءِ عَلَيْهَا مَا لَمْ تَكُنِ الْمَرْثِيَّـةُ مِنْ نِسَاءِ الْمُلْكِ وَبَنَاتِ الْاَشْرَافِ وَغَيْرِ ذَوَاتِ مَحَارِمِ الشَّاعِرِ فَاِنَّهُ يُتَجَافَى عَنْ هٰذِهِ الطَّرِيقَةِ اِلَى اَرْفَعَ مِنْهَا نَحْوُ قَوْلِ اَبِي الطَّيِّبِ :

وَلَوْ اَنَّ النِّسَاءَ كَمَنْ فَقَدْنَا لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ

وَقَوْلِهِ فِي هٰذِهِ الْقَصِيدَةِ :

مَشَى الْاُمَرَاءُ حَوْلَيْهَا حُفَـاةً كَاَنَّ الْمَرْوَ مِنْ زِفِّ الرِّيَالِ

وَقَوْلِهِ لِاُخْتِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ :

يَا اُخْتَ خَيْرِ اَخٍ يَا بِنْتَ خَيْرِ اَبٍ كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ اَشْرَفِ النَّسَبِ

أُجِلُّ قَدْرَكِ اَنْ تُسْمَيْ مُؤَبَّنَةً وَمَنْ يَصِفُكِ فَقَدْ سَمَّاكِ لِلْعَرَبِ

وَرِثَاءُ ٱلْأَطْفَالِ اَنْ يَذْكُرَ مَخَايِلَهُمْ وَمَا كَانَتِ ٱلْفِرَاسَةُ تُعْطِيهِ فِيهِمْ مِمَّنْ تَحَنَّنَ لِصَابِيهِمْ وَتَفَجَّعَ بِهِمْ كَٱلَّذِي صَنَعَ اَبُو تَمَّامٍ فِي اَبْنَيْ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ طَاهِرٍ

البحث السادس

في الاقتضاء والاستنجاز

(من الكتاب نفسه)

حَسْبُ ٱلشَّاعِرِ اَنْ يَكُونَ مَدْحُهُ شَرِيفًا وَٱقْتِضَاؤُهُ لَطِيفًا وَهِجَاؤُهُ اِنْ هَجَا عَنِيفًا فَاِنَّ ٱلِٱقْتِضَاءَ ٱلْخَشِنَ رُبَّمَا كَانَ سَبَبَ ٱلْمَنْعِ وَٱلْحِرْمَانِ وَدَاعِيَةَ ٱلْقَطِيعَةِ وَٱلْهِجْرَانِ. وَقَوْمٌ يُدْرِجُونَ ٱلْعِتَابَ فِي ٱلِٱقْتِضَاءِ وَٱلِٱقْتِضَاءَ بِٱلْعِتَابِ وَاَنَا اَرَى غَيْرَ هٰذَا ٱلْمَذْهَبِ اَصْوَبَ فَٱلِٱقْتِضَاءُ طَلَبُ حَاجَةٍ وَبَابُ ٱلتَّلَطُّفِ فِيهِ اَجْوَدُ فَاِنْ بَلَغَ ٱلْأَمْرُ ٱلْعِتَابَ فَاِنَّمَا هُوَ طَلَبُ ٱلْاِبْقَاءِ عَلَى ٱلْمَوَدَّةِ وَٱلْمُرَاعَاةِ وَفِيهِ تَوْبِيخٌ وَمُضَادَّةٌ لَا يَجُوزُ مَعَهَا بَعْدُ ٱقْتِضَاءٌ اِلَّا اَنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ خَلَطُوا هٰذَيْنِ وَسَاوَوْا بَيْنَهُمَا. فَمِنْ اَحْسَنِ ٱلِٱقْتِضَاءِ عَلَى مَا تَخَيَّرُوهُ وَتُخُوِّتُ اِلَيْهِ قَوْلُ اُمَيَّةَ بْنِ اَبِي ٱلصَّلْتِ لِعَبْدِ ٱللهِ بْنِ جُدْعَانَ:

اَ اَذْكُرُ حَاجَتِي اَمْ قَدْ كَفَانِي حَيَاؤُكَ اِنَّ شِيمَتَكَ ٱلْحَيَاءُ

وَعِلْمُكَ بِٱلْحُقُوقِ وَاَنْتَ فَرْعٌ لَهُ ٱلْحَسَبُ ٱلْمُهَذَّبُ وَٱلسَّنَاءُ

خَلِيلٌ لَا يُغَيِّرُهُ صَبَاحٌ عَنِ ٱلْخُلُقِ ٱلْجَمِيلِ وَلَا مَسَاءُ

اِذَا اَثْنَى عَلَيْكَ اَلْمَرْءُ يَوْمًا كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ اَلثَّنَاءُ

فَاَنْتَ تَرَى هٰذَا اَلِاقْتِضَاءَ كَيْفَ يُلِينُ اَلصَّخْرَ وَيَسْتَنْزِلُ اَلْقَطْرَ وَيَحُطُّ اَلْعُضْمَ اِلَى اَلسَّهْلِ وَمِثْلُهُ. قَوْلُ اَلْآخَرِ:

لَا شُكْرَ نَكَ مَعْرُوفًا هَمَمْتَ بِهِ اِنَّ اِهْتِمَامَكَ بِالْمَعْرُوفِ مَعْرُوفُ

وَلَا اَلُومُكَ اِنْ لَمْ يُمْضِهِ قَدَرٌ فَالشَّيْءُ بِالْقَدَرِ اَلْمَحْتُومِ مَصْرُوفُ

فَاَمَّا مَا نَاسَبَ قَوْلَ مُحَمَّدِ بْنِ يَزِيدَ اَلْاَمَوِيِّ لِعِيسَى بْنِ فَرْخَا اِذْ يَقُولُ لَهُ مُسْتَبْطِئًا:

لَقَدْ كُنْتُ اَرْتَجِيكَ لِمَا اَخْشَى مِنَ اَلدَّهْرِ

فَقَدْ اَصْبَحْتَ مِنْ اَوْكَدِ مَ اَسْبَابِي اِلَى اَلْفَقْرِ

اَتَرْضَى لِي بِاَنْ اَرْضَى بِتَقْصِيرِكَ فِي اَمْرِي

وَقَدْ اَفْنَيْتُ مَا اَفْنَيْتُ فِي شُكْرِكَ مِنْ عُمْرِي

فَهُوَ اَلْعِتَابُ اَلْمَحْضُ وَاَلتَّوْبِيخُ اَلَّذِي دُونَهُ اَلْجِلْدُ بِالسَّوْطِ بَلْ بِالسَّيْفِ. وَمِمَّا صَنَعَهُ فِي اَلْعِتَابِ عَلَى هٰذَا اَلشَّكْلِ بَعْدَ اَلْيَأْسِ اَلْمُحْكَمِ كَمَا شَرَطْتُ:

رَجَوْتُكَ لِلْاَمْرِ اَلْمُهِمِّ وَفِي يَدِي بَقَايَا اُمْنِيَّ اَلنَّفْسَ فِيهَا اَلْاَمَانِيَا

فَسَاوَفْتَ فِي اَلْاَيَّامِ حَتَّى اِذَا اَنْقَضَتْ

اَوَاخِرُ مَا عِنْدِي قَطَعْتُ رَجَائِيَا

وَكُنْتُ كَبَاغِي نَازِفُ اَلْبِئْرِ طَالِبًا لِاِحْمَامِهَا اَوْ يَرْجِعَ اَلْمَاءُ صَافِيَا

فَلَا هُوَ اَبْقَى مَا اَصَابَ لِنَفْسِهِ وَلَا هِيَ اَعْطَتْهُ اَلَّذِي كَانَ رَاجِيَا

وَمِنْ اَمْلَحِ مَا رَاَيْتُ فِي اَلِاقْتِضَاءِ وَاَلِاسْتِبْطَاءِ قَوْلُ اَبِي

ٱلْعَتَاهِيَةِ لِعَمْرِو بْنِ ٱلْعَلَاءِ. وَٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ يُسَمِّي هٰذَا ٱلنَّوْعَ مَزْحًا يُرَادُ بِهِ ٱلْجِدُّ وَهُوَ:

أَصَابَتْ عَلَيْنَا جُودَكَ ٱلْعَيْنُ يَا عُمَرْ ... فَنَحْنُ لَهَا نَبْغِي ٱلتَّمَائِمَ وَٱلنُّشَرْ
سَنَرْقِيكَ بِٱلْأَشْعَارِ حَتَّى تَمَلَّهَا ... فَإِنْ لَمْ تُفِقْ مِنْهَا رَقَيْنَاكَ بِٱلسُّوَرْ

وَكُنْتُ صَنَعْتُ فِي ٱلِٱسْتِبْطَاءِ:

أَحْسَنْتَ فِي تَأْخِيرِهَا مِنَّةً ... لَوْ لَمْ تُؤَخِّرْ لَمْ تَكُنْ كَامِلَهْ
وَكَيْفَ لَا يَحْسُنُ تَأْخِيرُهَا ... بَعْدَ يَقِينِي أَنَّهَا حَاصِلَهْ
وَجَنَّةُ ٱلْفِرْدَوْسِ يُدْعَى بِهَا ... آجِلَةً لِلْمَرْءِ لَا عَاجِلَهْ
لٰكِنَّمَا أَضْعَفَ مِنْ نِيَّتِي ... أَيَّامُ عَمْرٍو دُونَهَا زَائِلَهْ

وَٱلْعِتَابُ أَوْسَعُ جِدًّا مِنَ ٱلِٱقْتِضَاءِ لِأَنَّهُ يَكُونُ مِثْلُهُ بِسَبَبِ ٱلْحَاجَاتِ وَقَدْ يَكُونُ بِسَبَبِ غَيْرِهَا كَثِيرًا وَٱلِٱقْتِضَاءُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي حَاجَةٍ

البحث السابع

في العتاب

(من الكتاب نفسه)

وَإِنْ كَانَ حَيَاةَ ٱلْمَوَدَّةِ وَشَاهِدَ ٱلْوَفَاءِ فَإِنَّهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ ٱلْخَدِيعَةِ وَسَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ ٱلْقَطِيعَةِ وَٱلْجَفَاءِ وَإِذَا قَلَّ كَانَ دَاعِيَةَ ٱلْأُلْفَةِ وَقَيْدَ ٱلصُّحْبَةِ وَإِذَا كَثُرَ خَشُنَ جَانِبُهُ وَثَقُلَ صَاحِبُهُ. وَلِلْعِتَابِ طُرُقٌ كَثِيرَةٌ وَٱلنَّاسُ فِيهِ ضُرُوبٌ مُخْتَلِفَةٌ فَمِنْهُ مَا يُوَازِجُهُ ٱلِٱسْتِعْطَافُ

وَٱلِاسْتِئْلَافُ وَمِنْهُ مَا يَدْخُلُهُ ٱلِاحْتِجَاجُ وَٱلِانْتِصَافُ . وَقَدْ يَعْرِضُ فِيهِ ٱلْمَنُّ وَٱلِاجْحَافُ . مِثْلَ مَا يَشْرُكُهُ ٱلِاعْتِذَارُ وَٱلِاعْتِرَافُ . وَاَحْسَنُ ٱلنَّاسِ طَرِيقًا فِي عِتَابِ ٱلْاَشْرَافِ شَيْخُ ٱلصَّنَاعَةِ وَسَيِّدُ ٱلْجَمَاعَةِ اَبُو عِبَادَةَ ٱلْبُحْتُرِيُّ ٱلَّذِي يَقُولُ :

يُرِيبُنِي ٱلشَّيْءُ تَأْتِي بِهِ ... وَٱلْكِبْرُ قَدْرَكَ اَنْ اَسْتَرِيبَا
وَاَكْرَهُ اَنْ اَتَّقَادَى عَلَى ... سَبِيلِ اَعْتِذَارٍ فَاَلْقَى شَعُوبَا
اُكَذِّبُ ظَنِّي بِاَنْ قَدْ سَخِطْتُ ... م وَمَا كُنْتُ اَعْهَدُ ظَنِّي كَذُوبَا
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ سَاقِطًا لَمْ اَكُنْ ... اَذُمُّ ٱلزَّمَانَ وَاَشْكُو ٱلْخُطُوبَا
وَلَا بُدَّ مِنْ لَوْمَةٍ اَنْتَحِي ... عَلَيْكَ بِهَا مُخْطِئًا اَوْ مُصِيبَا
اَيُصْبِحُ وِرْدِي فِي سَاحَتَيْكَ ... م طَرْقًا وَمَرْعَايَ مَحْلًا جَدِيبَا
فَفِي كُلِّ يَوْمٍ لَنَا مَوْقِفٌ ... يُشَقِّقُ فِيهِ ٱلْوَدَاعُ ٱلْجُيُوبَا

وَٱلَّذِي يَقُولُ :

وَاَغْيَدَ اِنْ نَازَعَتْهُ ٱللَّحْظَ رَدَّهُ ... كَلِيلًا وَاِنْ رَاجَعْتَهُ ٱلْقَوْلَ جَحْجَمَا
ثَنَاهُ ٱلْعِدَا عَنِّي فَاَصْبَحَ مُعْرِضًا ... وَاَوْهَمَهُ ٱلْوَاشُونَ حَتَّى تَوَهَّمَا
وَقَدْ كَانَ سَهْلًا وَاضِحًا فَتَوَعَّرَتْ ... رُبَاهُ وَطَلْقًا ضَاحِكًا فَتَجَهَّمَا
يُخَوِّفُنِي مِنْ سُوءِ رَأْيِكَ مَعْشَرٌ ... وَلَا خَوْفَ اِلَّا اَنْ تَجُورَ وَتَظْلِمَا
اُعِيذُكَ اَنْ اَخْشَاكَ مِنْ غَيْرِ حَادِثٍ
تَبَيَّنَ مِنْ جُرْمٍ اِلَيْكَ تَقَدَّمَا
اَلَسْتُ ٱلْوَالِي فِيكَ نَظْمَ قَصَائِدٍ
هِيَ ٱلْاَنْجُمُ ٱقْتَادَتْ مَعَ ٱللَّيْلِ اَنْجُمَا

فَهٰذَا اَعْتَبُ كَمَا قَالَ :

عِتَابٌ بِاَطْرَافِ الْقَوَافِي كَاَنَّهُ طِعَانٌ بِاَطْرَافِ الْقَنَا الْمُتَكَسِّرِ

وَقَدْ نَحَوْتُ اَنَا بَعْضَ هٰذَا النَّحْوِ فِي كَلِمَةٍ عَاتَبْتُ بِهَا الْقَاضِيَ جَعْفَرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الْكُورِيَّ قُلْتُ فِيهَا :

وَقَدْ كُنْتُ لَا آتِي اِلَيْكَ مُخَايِلًا لَدَيْكَ وَلَا اُثْنِي عَلَيْكَ تَصَنُّعَا
وَلٰكِنْ رَاَيْتُ الْمَدْحَ فِيكَ فَرِيضَةً عَلَيَّ اِذَا كَانَ الْمَدِيحُ تَطَوُّعَا
فَقُمْتُ بِمَا لَا تَخْفَى عَنْكَ مَكَانُهُ مِنَ الْقَوْلِ حَتَّى ضَاقَ مِمَّا تَوَسَّعَا

اِلَى اَنْ اَقُولَ :

فَوَاللهِ مَا طَوَّلْتُ بِاللَّوْمِ فِيكُمُ لِسَانِي وَلَا عَرَّضْتُ لِلذَّمِّ مِسْمَعَا
اَلُوذُ بِاَكْنَافِ الرَّجَاءِ وَاَتَّقِي شَمَاتَ الْعِدَا اِنْ لَمْ اَجِدْ فِيكَ مَطْمَعَا

وَمِنْ مُعَاتَبَاتِ اَبِي تَمَّامٍ قَوْلُهُ لِاَبْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الزَّيَّاتِ :

تَقَطَّعَتِ الْاَسْبَابُ اِنْ لَمْ تُعِزَّ لَهَا
قُوًى اَوْ يَصِلْهَا مِنْ يَمِينِكَ وَاصِلُ
سِوَى مَطْلَبٍ يَنْضَى الرَّجَاءَ بِطُولِهِ
وَتُخْلِقُ اَخْلَاقَ الْجُفُونِ الْمَسَائِلُ
وَقَدْ تَاْلَفُ الْعَيْنُ الدُّجَى وَهْوَ قَيْدُهَا
وَيُرْجَى شِفَاءُ السَّمِّ وَالسَّمُّ قَاتِلُ

اِلَى قَوْلِهِ :

وَاِنَّ الْمَعَالِي يُسْتَرَمُّ بِنَاؤُهَا وَشِيكًا كَمَا قَدْ تُسْتَرَمُّ الْمَنَازِلُ
مَنَحْتُكَهَا تَشْفِي الْجَوَى وَهْوَ لَاعِجٌ وَتَبْعَثُ اَشْجَانَ الْفَتَى وَهْوَ ذَاهِلُ

تُرِدْ قَوَافِيهَا إِذَا هِيَ أُرْسِلَتْ هَوَامِلَ مَجْدِ ٱلْقَوْمِ وَهْيَ هَوَامِلُ
فَكَيْفَ إِذَا حَلَّيْتَهَا بِمَحَامِدٍ تَكُونُ وَهٰذَا حُسْنُهَا وَهْيَ عَاطِلُ

وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ لِأَبِي ٱلصَّغِيرِ يُعَاتِبُهُ فِي قَصِيدَةٍ جَيِّدَةٍ:

عَذَرْتُكَ لَوْ كَانَتْ سَمَاءً تَقَشَّعَتْ سَحَابَتُهَا أَوْ كَانَ رَوْضًا تَصَوَّحَا
فَيَا لَكَ بَحْرًا لَمْ أَجِدْ فِيهِ مَشْرَعًا وَإِنْ كَانَ غَيْرِي وَاجِدًا فِيهِ مَسْبَحَا
مَدِيحِي عَصَا مُوسَى وَذٰلِكَ أَنَّنِي ضَرَبْتُ بِهِ بَحْرَ ٱلنَّدَى فَتَضَحْضَحَا

إِلَى أَنْ يَقُولَ:

سَأَمْدَحُ بَعْضَ ٱلْبَاخِلِينَ لَعَلَّهُ إِذَا أَطَّرَدَ ٱلْقِيَاسُ أَنْ يَتَسَمَّحَا

فَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي لَا يُبْلَغُ جُودَةً وَلَا يُجَارَى سَبْقًا. عَلَى أَنَّ ٱلْبُحْتُرِيَّ قَدْ تَقَدَّمَ إِلَى بَعْضِ ٱلْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ لِلْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ:

غَمَامٌ خَطَا فِي صَوْبِهِ وَهْوَ مُسْبِلُ وَبَحْرٌ عَدَا فِي فَيْضِهِ وَهْوَ مُنْعِمُ
وَبَدْرٌ أَضَاءَ ٱلْأَرْضَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا وَمَوْضِعُ رَحْلِي مِنْهُ أَسْوَدُ أَقْتَمُ
وَمَا بَخَلَ ٱلْفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ بِٱلنَّدَى وَلٰكِنَّهَا ٱلْأَقْدَارُ تُعْطِي وَتَحْرِمُ

فَأَمَّا أَبُو ٱلطَّيِّبِ فَكَانَتْ فِي طَبْعِهِ غِلْظَةٌ وَفِي عِتَابِهِ شِدَّةٌ وَكَانَ كَثِيرَ ٱلتَّحَامُلِ ظَاهِرَ ٱلْكِبْرِ وَٱلْأَنَفَةِ وَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يَقُولُ لِسَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ:

يَا أَعْدَلَ ٱلنَّاسِ إِلَّا فِي مُعَامَلَتِي فِيكَ ٱلْخِصَامُ وَأَنْتَ ٱلْخَصْمُ وَٱلْحَكَمُ
أُعِيذُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً أَنْ تَحْسَبَ ٱلشَّحْمَ فِي مَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ
وَمَا ٱنْتِفَاعُ أَخِي ٱلدُّنْيَا بِنَاظِرِهِ إِذَا ٱسْتَوَتْ عِنْدَهُ ٱلْأَنْوَارُ وَٱلظُّلَمُ

وَفِيهَا يَقُولُ:

إِذَا رَأَيتَ نُيُوبَ اللَّيثِ بَارِزَةً فَلَا تَظُنَّنَّ أَنَّ اللَّيثَ مُبتَسِمُ

فَهٰذَا الكَلَامُ فِي نِهَايَةِ الجُودَةِ غَيرَ أَنَّهُ مِن جِهَةِ الوَاجِبِ وَالسِّيَاسَةِ غَايَةٌ فِي القُبحِ وَالرَّدَاءَةِ وَإِنَّمَا عَرَّضَ بِقَومٍ يَنتَقِصُونَهُ عِندَ سَيفِ الدَّولَةِ وَيُعَارِضُونَهُ فِي أَشعَارِهِ. وَالإِشَارَةُ كُلُّهَا إِلَى سَيفِ الدَّولَةِ. ثُمَّ قَالَ بَعدَ أَبيَاتٍ:

يَا مَن يَعِزُّ عَلَينَا أَن نُفَارِقَهُ وِجدَانُنَا كُلَّ شَيءٍ بَعدَكُم عَدَمُ

مَا كَانَ أَخلَقَنَا مِنكُم بِتَكرِمَةٍ لَو أَنَّ أَمرَكُمُ مِن أَمرِنَا أَمَمُ

وَبَينَنَا لَو رَعَيتُم ذَاكَ مَعرِفَةٌ إِنَّ المَعَارِفَ فِي أَهلِ النُّهَى ذِمَمُ

كَم تَطلُبُونَ لَنَا عَيبًا فَيُعجِزُكُم وَاللَّهُ يَكرَهُ مَا تَأتُونَ وَالكَرَمُ

مَا أَبعَدَ العَيبَ وَالنُّقصَانَ مِن شَرَفِي

أَنَا الثُّرَيَّا وَذَانِ الشَّيبُ وَالهَرَمُ

وَلَيسَ هٰذَا عِتَابًا لٰكِنَّهُ سِبَابٌ وَبِسَبَبِ هٰذِهِ القَصِيدَةِ كَادَ يُقتَلُ بَعدَ انصِرَافِهِ مِن مَجلِسِ إِنشَادِهَا. وَأَمَّا عِتَابُ الأُكفَاءِ وَأَهلِ المَوَدَّاتِ مِنَ الظُّرَفَاءِ فَمِنهُ قَولُ إِبرَاهِيمَ بنِ عَبَّاسٍ الصَّولِيِّ يُعَاتِبُ مُحَمَّدَ بنَ عَبدِ المَلِكِ الزَّيَّاتَ وَقَد تَغَيَّرَ عَلَيهِ كَمَا وَرَدَ:

وَكُنتَ أَخِي بِإِخَاءِ الزَّمَانِ فَلَمَّا نَبَا صِرتَ حَربًا عَوَانَا

وَكُنتُ أَذُمُّ إِلَيكَ الزَّمَانَ فَأَصبَحتُ فِيكَ أَذُمُّ الزَّمَانَا

وَكُنتُ أُعِدُّكَ لِلنَّائِبَاتِ فَهَا أَنَا أَطلُبُ مِنكَ الأَمَانَا

وَهٰذَا عِندِي مِن أَشَدِّ العِتَابِ وَأَوجَعِهِ. وَمِن أَكرَمِ العِتَابِ قَولُ السَّيِّدِ أَبِي الحَسَنِ:

وَإِنِّي لَأُطْرِي كُلَّ خِلٍّ صَحِبْتُهُ ... وَأَنْتَ تَرَى سَمْتِي بِغَيْرِ حَيَاءِ

وَمِنْ مَلِيحِ مَا سَمِعْتُ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ حُمَيْدٍ يُعَاتِبُ صَدِيقًا لَهُ :

اَقْلِلْ عِتَابَكَ فَالْبَقَاءُ قَلِيلُ ... وَالدَّهْرُ يَعْدِلُ مَرَّةً وَيَمِيلُ

لَمْ اَبْكِ مِنْ زَمَنٍ ذَمَمْتُ صُرُوفَهُ ... اِلَّا بَكَيْتُ عَلَيْكَ حِينَ يَزُولُ

وَلِكُلِّ نَائِبَةٍ اَلَمَّتْ مُدَّةٌ ... وَلِكُلِّ حَالٍ اَقْبَلَتْ تَحْوِيلُ

وَالْمُنْتَمُونَ اِلَى الْاِخَاءِ عِصَابَةٌ ... اِنْ حَصَّلُوا اَفْنَاهُمُ التَّحْصِيلُ

وَلَعَلَّ اَحْدَاثَ الْمَنِيَّةِ وَالرَّدَى ... يَوْمًا سَتَصْدَعُ بَيْنَنَا وَتَحُولُ

فَلَئِنْ سَبَقْتُ لَتُنْكَبَنَّ بِحَسْرَةٍ ... وَلَيَكْثُرَنَّ عَلَيَّ مِنْكَ عَوِيلُ

وَلَتَفْجَعَنَّ بِمُخْلِصٍ لَكَ وَامِقٍ ... حَبْلُ الْوَفَاءِ بِحَبْلِهِ مَوْصُولُ

وَلَئِنْ سَبَقْتَ وَلَا سَبَقْتَ لَيَمْضِيَنْ ... مَنْ لَا يُشَاكِلُهُ لَدَيَّ خَلِيلُ

وَلَيَذْهَبَنَّ بَهَاءُ كُلِّ مُرُوءَةٍ ... وَلَيُفْقَدَنَّ جَمَالُهَا الْمَجْهُولُ

وَاَرَاكَ تَكْلَفُ بِالْعِتَابِ وَوُدُّنَا ... صَافٍ عَلَيْهِ مِنَ الْوَفَاءِ دَلِيلُ

وُدٌّ بَدَا لِذَوِي الْاِخَاءِ كَمَالُهُ ... وَبَدَتْ عَلَيْهِ بَهْجَةٌ وَقَبُولُ

وَلَعَلَّ اَيَّامَ الْاِخَاءِ قَصِيرَةٌ ... فَعَلَامَ يَكْثُرُ عَتْبُنَا وَيَطُولُ

وَاِلَى هٰذَا اَوْمَأَ اَبُو الطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ :

ذَرِ النَّفْسَ تَأْخُذْ وُسْعَهَا قَبْلَ بَيْنِهَا ... فَفُرْقَةُ جَارَانِ دَارُهُمَا الْعُمْرُ

وَاَشَارَ اِلَيْهِ اَيْضًا بِقَوْلِهِ وَاَرَدْتُ الْبَيْتَ الْاَخِيرَ :

وَصِلِينَا نَصِلْكِ فِي هٰذِهِ الدُّنْـ ... ـيَا فَاِنَّ الْمُقَامَ فِيهَا قَلِيلُ

وَالْجَمِيعُ مِنْ قَوْلِ الْاَوَّلِ :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ فَلَا تَكُنْ مُتَجَنِّبًا
اَنَّ ٱلصُّدُودَ هُوَ ٱلْفِرَاقُ ٱلْاَوَّلُ
حَسْبُ ٱلْاَحِبَّةِ اَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ رَيْبُ ٱلْمَنُونِ فَمَا لَنَا نَسْتَعْجِلُ

اِلَّا اَنَّ ٱبْنَ حُمَيْدٍ قَدْ فَتَّنَ وَبَيَّنَ وَشَرَحَ مَا اَجْمَلَ غَيْرُهُ بِقَوْلِهِ: لَئِنْ سَبَقْتُ اَنَا وَلَئِنْ سَبَقْتَ اَنْتَ وَلَا سَبَقْتَ فَلَهُ بِذٰلِكَ فَضْلٌ بَيِّنٌ ٱلرُّجْحَانِ ظَاهِرٌ. وَمَا اَحْسَنَ اِيجَازَ ٱلَّذِي قَالَ:

اَلْعُمْرُ اَقْصَرُ مُدَّةً مِنْ اَنْ يُحَقَّ بِالْعِتَابْ

وَقَالَ اَبُو ٱلْمُحَدِّثِينَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ:

اِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ ٱلْاُمُورِ مُعَاتِبًا صَدِيقَكَ لَمْ تَلْقَ ٱلَّذِي لَا تُعَاتِبُهْ

البحث الثامن

في الوعيد والانذار

(من الكتاب نفسه)

كَانَ ٱلْعُقَلَاءُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَذَوُو ٱلْحَزْمِ يَتَوَعَّدُونَ بِالْهِجَاءِ وَيَحْذَرُونَ مِنْ سُوءِ ٱلْاُحْدُوثَةِ وَلَا يُمْضُونَ ٱلْقَوْلَ اِلَّا ضَرُورَةً حِينَ لَا يَحْسُنُ ٱلسُّكُوتُ. قَالَ ٱبْنُ مُقْبِلٍ:

بَنِي عَامِرٍ مَا تَأْمُرُونَ لِشَاعِرٍ تَخَيَّرَ آيَاتِ ٱلْكِتَابِ هِجَائِيَا
اَ اَعْفُو كَمَا يَعْفُو ٱلْكَرِيمُ فَاِنَّنِي اَرَى ٱلشَّعْبَ فِيمَا بَيْنَنَا مُتَدَانِيَا
اَ اَغْمِضُ بَيْنَ ٱللَّحْمِ وَٱلْجِلْدِ غَمْضَةً بِبُرْدٍ رُومِيٍّ يَقُطُّ ٱلنَّوَاصِيَا
فَاَمَّا سُرَاقَاتُ ٱلْهِجَاءِ فَاِنَّهَا كَلَامٌ تَهَادَاهُ ٱللِّئَامُ تَهَادِيَا

وَعِنْدِي ٱلدُّهَيْمُ لَوْ أُحِلَّ عِقَالَهَا فَتُضْبِحَ لَمْ تَعْدَمْ مِنَ ٱلْجِنِّ حَادِيَا

شَبَّهَ لِسَانَهُ بِمِبْرَدٍ رُومِيٍّ لِمَضَائِهِ وَشَبَّهَ ٱلْقَصِيدَةَ ٱلَّتِي لَوْ شَاءَ هِجَاءَهُمْ بِهَا بِٱلدُّهَيْمِ وَهُوَ ٱلدَّاهِيَةُ. وَأَصْلُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلدُّهَيْمَ نَاقَةُ عَمْرِو بْنِ زَبَّانَ ٱلثَّعْلَبِيِّ ٱلَّتِي حَمَلَتْ رُؤُوسَ بَنِيهِ مُعَلَّقَةً فِي عُنُقِهَا فَجَاءَتْ بِهَا ٱلْحَيَّ فَضُرِبَ بِهَا ٱلْمَثَلُ لِلدَّاهِيَةِ. وَقَالَ جَرِيرٌ لِبَنِي حَنِيفَةَ وَكَانَ مَيْلُهُمْ مَعَ ٱلْفَرَزْدَقِ عَلَيْهِ:

أَبَنِي حَنِيفَةَ حَكِّمُوا سُفَهَاءَكُمْ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمُ أَنْ أَغْضَبَا

قَوْلُهُ حَكِّمُوا أَيْ كُفُّوا. وَقَالَ لِتَيْمِ ٱلرَّبَابِ رَهْطِ عَمْرِو بْنِ لَجَإٍ:

يَا تَيْمَ تَيْمَ عَدِيٍّ لَا أَبَا لَكُمُ لَا يُلْفِيَنَّكُمُ فِي سَوْءَةٍ عُمَرُ

وَمِمَّا قُلْتُهُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ:

يَا مُوجِعِي شَتْمًا عَلَى أَنَّهُ لَوْ تُرِكَ ٱلْبُرْغُوثُ مَا أَوْجَعَا

كُلٌّ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ آفَةٌ وَآفَةُ ٱلنَّخْلَةِ أَنْ تَلْسَعَا

البحث التاسع

في الهجاء

(من الكتاب نفسه)

يُرْوَى عَنْ أَبِي عَمْرِو بْنِ ٱلْعَلَاءِ أَنَّهُ قَالَ: خَيْرُ ٱلْهِجَاءِ مَا تُنْشِدُهُ ٱلْعَذْرَاءُ فِي خِدْرِهَا فَلَا يَقْبُحُ بِمِثْلِهَا. نَحْوَ قَوْلِ جَرِيرٍ:

لَوْ أَنَّ تَغْلِبَ جُمِّعَتْ أَحْسَابُهَا يَوْمَ ٱلتَّفَاخُرِ لَمْ تَزِنْ مِثْقَالَا

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ:

فَغُضَّ ٱلطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلَا كِلَابَا

وَلَمَّا أَطْلَقَ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ ٱلْحُطَيْئَةَ مِنْ حَبْسِهِ إِيَّاهُ بِسَبَبِ هِجَائِهِ ٱلزِّبْرِقَانَ قَالَ لَهُ: تَدَعُ ٱلْهِجَاءَ ٱلْمُقْذِعَ. قَالَ: وَمَا ٱلْهِجَاءُ ٱلْمُقْذِعُ. قَالَ: ٱلْمُقْذِعُ أَنْ تَقُولَ هٰؤُلَاءِ أَفْضَلُ مِنْ هٰؤُلَاءِ وَأَشْرَفُ وَتَبْنِيَ شِعْرًا عَلَى مَدْحِ لِقَوْمٍ وَذَمِّ لِمَنْ يُعَادِيهِمْ. قَالَ: أَنْتَ وَٱللهِ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعْلَمُ مِنِّي بِمَذَاهِبِ ٱلشِّعْرِ لٰكِنِّي حَبَانِي هٰؤُلَاءِ فَمَدَحْتُهُمْ وَحَرَمَنِي هٰؤُلَاءِ فَذَكَرْتُ حِرْمَانَهُمْ وَلَمْ أَنَلْ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ شَيْئًا وَصَرَفْتُ مَدْحِي إِلَى مَنْ أَرَادَهُ وَرَغِبْتُ بِهِ عَلَى مَنْ كَرِهَهُ وَزَهِدَ فِيهِ. يُرِيدُ قَصِيدَتَهُ ٱلْمَهْمُوزَةَ وَهِيَ أَخْبَثُ مَا صَنَعَ وَفِيهَا أَوْ مِنْ أَجْلِهَا قَالَ خَلَفٌ ٱلْأَحْمَرُ: أَشَدُّ ٱلْهِجَاءِ أَعَفُّهُ وَأَصْدَقُهُ. وَقَالَ مَرَّةً أُخْرَى: مَا عَفَّ لَفْظُهُ وَصَدَقَ مَعْنَاهُ. وَمِنْ كَلَامِ صَاحِبِ ٱلْوَسَاطَةِ: فَأَمَّا ٱلْهَجْوُ فَأَبْلَغُهُ مَا قَرُبَتْ مَعَانِيهِ وَسَهُلَ حِفْظُهُ وَأَسْرَعَ عُلُوقُهُ بِٱلْقَلْبِ وَلُصُوقُهُ بِٱلنَّفْسِ فَأَمَّا ٱلْقَذْفُ وَٱلْفُحْشُ فَبَابٌ مَحْضٌ وَلَيْسَ لِلشَّاعِرِ فِيهِ إِلَّا إِقَامَةُ ٱلْوَزْنِ. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَهُ صَاحِبُ ٱلْوَسَاطَةِ وَحُسْنِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ إِعْجَابُ ٱلْحُذَّاقِ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَفُرْسَانِ ٱلْكَلَامِ بِقَوْلِ زُهَيْرٍ فِي تَشَكُّكِهِ وَتَهَزُّلِهِ وَتَجَاهُلِهِ فِيمَا يَعْلَمُ:

وَمَا أَدْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِي أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

فَإِنَّ هٰذَا عِنْدَهُمْ مِنْ أَشَدِّ ٱلْهِجَاءِ وَأَمَضِّهِ. وَلَمَّا قَدِمَ ٱلنَّابِغَةُ بَعْدَ وَقْعَةِ حُسًى سَأَلَ بَنِي ذُبْيَانَ مَا قُلْتُمْ لِعَامِرِ بْنِ ٱلطُّفَيْلِ وَمَا قَالَ

لَكُمْ . فَأَنْشَدُوهُ . فَقَالَ : أَفَحَشْتُمْ عَلَى الرَّجُلِ وَهُوَ شَرِيفٌ لَا يُقَالُ لَهُ مِثْلُ هٰذَا وَلٰكِنِّي سَأَقُولُ ثُمَّ قَالَ :

فَإِنْ يَكُ عَامِرٌ قَدْ قَالَ جَهْلًا ... فَإِنَّ مَظِنَّةَ الْجَهْلِ الشَّبَابُ (١)

فَلَمَّا بَلَغَ عَامِرًا قَوْلُ النَّابِغَةِ شَقَّ عَلَيْهِ وَقَالَ جَعَلَنِي الْقَوْمُ رَئِيسًا وَجَعَلَنِي النَّابِغَةُ سَفِيهًا جَاهِلًا وَتَهَكَّمَ بِي . وَرُوِيَ أَنَّ شَاعِرًا مَدَحَ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ فَأَجْزَلَ عَطِيَّتَهُ فَلِيمَ عَلَى ذٰلِكَ فَقَالَ : أَتَرَوْنِي خِفْتُ أَنْ يَقُولَ : لَسْتَ ابْنَ فَاطِمَةَ وَلَا ابْنَ عَلِيٍّ . وَلٰكِنْ خِفْتُ أَنْ يَقُولَ : لَسْتَ كَالرَّسُولِ وَلَسْتَ كَعَلِيٍّ فَيَصْدُقُ وَيُحْمَلُ عَنْهُ وَيَبْقَى مُخَلَّدًا فِي الْكُتُبِ مَحْفُوظًا عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّوَاةِ . فَقَالَ الشَّاعِرُ : أَنْتَ وَاللّٰهِ أَعْلَمُ مِنِّي بِالْمَدْحِ . وَقَدْ وَقَعَ الْحَسَنُ بْنُ زَيْدٍ بِبَعْضِ مَا قَالَ فِيهِ أَبُو عَاصِمٍ مُحَمَّدُ بْنُ حَمْزَةَ الْأَسْلَمِيُّ الْمَدَنِيُّ :

لَهُ حَقٌّ وَلَيْسَ عَلَيْهِ حَقٌّ ... وَمَهْمَا قَالَ فَالْحَسَنُ الْجَمِيلُ

وَجَمِيعُ الشُّعَرَاءِ يَرَوْنَ قَصْرَ الْهِجَاءِ أَجْوَدَ وَتَرْكَ الْفُحْشِ أَصْوَبَ إِلَّا جَرِيرًا فَإِنَّهُ قَالَ لِبَنِيهِ : إِذَا مَدَحْتُمْ فَلَا تُطِيلُوا وَإِذَا هَجَوْتُمْ فَخَالِفُوا . وَأَنَا أَرَى التَّعْرِيضَ أَهْجَى مِنَ التَّصْرِيحِ لِاتِّسَاعِ الظَّنِّ فِي التَّعْرِيضِ وَشِدَّةِ قَلَقِ النَّفْسِ بِهِ وَالْبَحْثِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَطَلَبِ حَقِيقَتِهِ فَإِذَا كَانَ الْهَجْوُ تَصْرِيحًا أَحَاطَتْ بِهِ النَّفْسُ عِلْمًا وَقَلَّتْهُ يَقِينًا فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ وَكَانَ كُلَّ يَوْمٍ فِي نَقْصٍ لِنِسْيَانٍ أَوْ مَلَلٍ يَعْرِضُ . وَهٰذَا الْمَذْهَبُ الصَّحِيحُ عَلَى أَنْ يَكُونَ الْمَهْجُوُّ ذَا قَدْرٍ فِي نَفْسِهِ وَحَسَبِهِ . فَأَمَّا

(١) انظر تتمة هذه القصيدة في ترجمة النابغة من كتاب شعراء النصرانية

إِنْ كَانَ مِمَّنْ لَا يُوقِظُهُ ٱلتَّلْوِيحُ وَلَا يُؤْلِمُهُ إِلَّا ٱلتَّصْرِيحُ فَذٰلِكَ .
وَلِهٰذِهِ ٱلْعِلَّةِ ٱخْتَلَفَ هِجَاءُ أَبِي نُوَاسٍ وَكَذٰلِكَ هِجَاءُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ فِيهِ ٱخْتِلَافٌ لِٱخْتِلَافِ مَرَاتِبِ ٱلْمَهْجُوِّينَ فَمِنَ ٱلتَّفْضِيلِ فِي ٱلْهِجَاءِ قَوْلُ رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّقِيِّ :

لَشَتَّانَ مَا بَيْنَ ٱلْيَزِيدَيْنِ فِي ٱلنَّدَى يَزِيدِ سُلَيْمٍ وَٱلْأَغَرِّ بْنِ حَاتِمِ
فَهُمْ ٱلْفَتَى ٱلْقَيْسِيُّ ٱئْتِلَافُ مَالِهِ وَهُمْ ٱلْفَتَى ٱلْعَبْسِيُّ جَمْعُ ٱلدَّرَاهِمِ
فَلَا يَحْسَبِ ٱلتَّمْتَامُ أَنِّي هَجَوْتُهُ وَلٰكِنَّنِي فَضَّلْتُ أَهْلَ ٱلْمَكَارِمِ

وَمِنَ ٱلِٱخْتِصَارِ وَٱلِٱسْتِخْفَافِ قَوْلُ زِيَادٍ ٱلْأَعْجَمِ :

قُمْ صَاغِرًا يَا شَيْخَ جُرْمٍ فَإِنَّمَا يُقَالُ لِشَيْخِ ٱلصِّدْقِ قُمْ غَيْرَ صَاغِرِ
فَمَنْ أَنْتُمُ إِنَّا نَسِينَا مَنَ ٱنْتُمْ وَرِيحُكُمُ مِنْ أَيِّ رِيحِ ٱلْأَعَاصِرِ
أَأَنْتُمْ أُولَى جِئْتُمْ مَعَ ٱلرِّيحِ وَٱلدَّبَا فَطَارَ وَهٰذَا شَيْخُكُمْ غَيْرُ طَائِرِ
قَضَى ٱللّٰهُ خَلْقَ ٱلنَّاسِ ثُمَّ خُلِقْتُمُ بَقِيَّةَ خَلْقِ ٱللّٰهِ آخِرَ آخِرِ
فَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَّا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ
وَلَمْ تُدْرِكُوا إِلَّا مَدَقَّ ٱلْحَوَافِرِ

أَخَذَ مِنْهُ ٱلطِّرِمَّاحُ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَقَالَ :

وَمَا خُلِقَتْ تَيْمٌ وَعَبْدُ مَنَاتِهَا وَضَبَّةُ إِلَّا بَعْدَ خَلْقِ ٱلْقَبَائِلِ

وَمِنَ ٱلِٱحْتِقَارِ قَوْلُ جَرِيرٍ فِي تَيْمٍ :

وَيُقْضَى ٱلْأَمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ وَلَا يُسْتَأْذَنُونَ وَهُمْ شُهُودُ
وَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ عَبِيدَ تَيْمٍ وَتَيْمًا قُلْتَ أَيُّهُمَا ٱلْعَبِيدُ

وَمِنْ مَلِيحِ ٱلتَّهَكُّمِ قَوْلُ أَبِي هَفَّانَ :

سُلَيْمَانُ مَيْمُونُ ٱلنَّقِيبَةِ حَازِمٌ وَلٰكِنَّهُ وَقْفٌ عَلَيْهِ ٱلْهَزَائِمُ

وَفِيهِ يَقُولُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ:

قِرْنُ سُلَيْمَانَ قَدْ أَضَرَّ بِهِ شَوْقٌ إِلَى وَجْهِهِ سَيَتْلِفُهُ

كَمْ يَعِدُ ٱلْقِرْنَ بِٱللِّقَاءِ وَكَمْ يَكْذِبُ فِي وَعْدِهِ وَيُخْلِفُهُ

أَخَذَ مَعْنَى ٱلْبَيْتِ ٱلْأَخِيرِ مِنْ قَوْلِ ٱلْخَارِجِيِّ. وَقَدْ قَالَ لَهُ ٱلْمَنْصُورُ: أَيُّ أَصْحَابِي كَانَ أَشَدَّ إِقْدَامًا فِي مُبَارَزَتِكُمْ فَقَالَ: مَا أَعْرِفُ وُجُوهَهُمْ وَلٰكِنْ أَعْرِفُ أَقْفَاءَهُمْ. وَأَجْوَدُ فِي ٱلْهِجَاءِ أَنْ يُسْلَبَ ٱلْإِنْسَانُ ٱلْفَضَائِلَ ٱلنَّفْسِيَّةَ وَمَا تَرَكَّبَ مِنْ بَعْضِهَا. فَأَمَّا مَا كَانَ فِي ٱلْخِلْقَةِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ مِنَ ٱلْمَعَايِبِ فَإِنَّ ٱلْهِجَاءَ بِهِ دُونَ مَا تَقَدَّمَ وَقُدَامَةُ لَا يَرَاهُ هِجْوًا ٱلْبَتَّةَ وَكَذٰلِكَ مَا جَاءَ مِنَ ٱلْآبَاءِ وَٱلْأُمَّهَاتِ مِنَ ٱلنَّقْصِ وَٱلْفَسَادِ لَا يَكُونُ عَيْبًا وَلَا يُعَدُّ ٱلْهِجَاءُ بِهِ صَوَابًا وَكَانَ ٱلنَّابِغَةُ ٱلْجَعْدِيُّ يَقُولُ إِنِّي وَأَوْسًا لَنَبْتَدِرُ بَابًا مِنَ ٱلْهِجَاءِ فَمَنْ غَلَبَ مِنَّا إِلَيْهِ غَلَبَ صَاحِبَهُ فَلَمَّا قَالَ أَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ:

لَعَمْرُكَ مَا تُبْلِي سَرَابِيلُ عَامِرٍ مِنَ ٱللُّؤْمِ مَا دَامَتْ عَلَيْهَا جُلُودُهَا

قَالَ ٱلنَّابِغَةُ: هٰذَا ٱلْبَيْتُ ٱلَّذِي كُنَّا نَبْتَدِرُهُ. وَٱلَّذِي أُرَاهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ أَنَّ أَشَدَّ ٱلْهِجَاءِ مَا أَصَابَ ٱلْغَرَضَ وَوَقَعَ عَلَى ٱلنُّكْتَةِ وَهُوَ كَمَا قَالَ خَلَفٌ ٱلْأَحْمَرُ بِعَيْنِهِ

البحث العاشر

في الاعتذار

(من الكتاب نفسه)

وَيَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ اَنْ لَا يَقُولَ شَيْئًا يَحْتَاجُ اَنْ يَعْتَذِرَ مِنْهُ فَاِنِ اضْطَرَّهُ الْمِقْدَارُ اِلَى ذٰلِكَ وَاَوْقَعَهُ فِيهِ الْقَضَاءُ فَلْيَذْهَبْ مَذْهَبًا لَطِيفًا وَلْيَقْصِدْ مَقْصَدًا عَجِيبًا وَلْيَعْرِفْ كَيْفَ يَأْخُذُ بِقَلْبِ الْمُعْتَذَرِ اِلَيْهِ مِنْ بَابِ الْاِحْتِجَاجِ وَاِقَامَةِ الدَّلِيلِ لَا سِيَّمَا مَعَ الْمُلُوكِ وَذَوِي السُّلْطَانِ وَحَقُّهُ اَنْ يُلَطِّفَ بُرْهَانَهُ مُدَرَّجًا فِي التَّضَرُّعِ وَالدُّخُولِ تَحْتَ عَفْوِ الْمُلُوكِ وَاِعَادَةِ النَّظَرِ فِي الْكَشْفِ عَنْ كَذِبِ النَّاقِلِ وَالْحَاسِدِ فَاَمَّا مَعَ الْاِخْوَانِ فَتِلْكَ طَرِيقَةٌ اُخْرَى وَقَدْ اَحْسَنَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْاَصْبَهَانِيُّ حَيْثُ يَقُولُ :

وَقَدْ اَسَأْتُ فَبِالنُّعْمَى الَّتِي سَلَفَتْ ... اِلَّا مَنَنْتَ بِعَفْوٍ مَا لَهُ سَبَبُ

وَقَالَ اِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِيِّ لِلْمَأْمُونِ مِنْ اَبْيَاتٍ يَعْتَذِرُ اِلَيْهِ :

اَللّٰهُ يَعْلَمُ مَا اَقُولُ فَاِنَّهَا ... جَهْدُ الْاَلِيَّةِ مِنْ مُقِرٍّ خَاضِعِ

مَا اِنْ عَصَيْتُكَ وَالْغُوَاةُ تُمِدُّنِي ... اَسْبَابُهَا اِلَّا بِنِيَّةِ طَائِعِ

وَقَدْ سَلَكَ اَبُو عَلِيٍّ الْبَصِيرُ مَذْهَبَ الْحُجَّةِ وَاِقَامَةِ الدَّلِيلِ بَعْدَ اِرْتِكَابِ الْجِنَايَةِ فَقَالَ :

لَمْ اَجْنِ ذَنْبًا فَاِنْ زَعَمْتَ بِاَنْ ... جَنَيْتُ ذَنْبًا فَغَيْرُ مُعْتَمِدِ

نَحَوْتُ هٰذَا النَّحْوَ فَقُلْتُ :

لَا يُبْعِدِ اللهُ اَبَا جَعْفَرٍ دَعَابَةٌ بِتُّ عَلَى نَارِهَا
وَاِنْ تَاَذَّيْتَ فَيَا رُبَّمَا تَاَذَّتِ الْعَيْنُ بِاَشْفَارِهَا

وَاَجَلُّ مَا وَقَعَ فِي الْاِعْتِذَارِ مِنْ مَشْهُورَاتِ الْعَرَبِ قَصَائِدُ النَّابِغَةِ الثَّلَاثُ اِحْدَاهُنَّ «يَا دَارَ مَيَّةَ بِالْعَلْيَاءِ بِالسَّنَدِ» يَقُولُ فِيهَا:

فَلَا لَعَمْرُ الَّذِي مَسَّحْتُ كَعْبَتَهُ وَمَا هُرِيقَ عَلَى الْاَنْصَابِ مِنْ جَسَدِ
وَالْمُؤْمِنِ الْعَائِذَاتِ الطَّيْرِ تَمْسَحُهَا رُكْبَانُ مَكَّةَ بَيْنَ الْغِيلِ وَالسَّعَدِ
مَا قُلْتَ مِنْ سَيِّءٍ مِمَّا اَتَيْتَ بِهِ اِذًا فَلَا رَفَعَتْ سَوْطِي اِلَيَّ يَدِي
اِلَّا مَقَالَةَ اَقْوَامٍ شَقِيتُ بِهَا كَانَتْ مَقَالَتُهُمْ قَرْعًا عَلَى الْكَبِدِ
اُنْبِئْتُ اَنَّ اَبَا قَابُوسَ اَوْعَدَنِي وَلَا قَرَارَ عَلَى زَأْرٍ مِنَ الْاُسُدِ

وَالثَّانِيَةُ (اَرَنْمًا جَدِيدًا مِنْ سُعَادَ تَجَنُّبُ) يَقُولُ فِيهَا مُعْتَذِرًا مِنْ مَدْحِ آلِ جَفْنَةَ وَمُخْتَجًّا بِاِحْسَانِهِمْ اِلَيْهِ:

حَلَفْتُ فَلَمْ اَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً وَلَيْسَ وَرَاءَ اللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ
لَئِنْ كُنْتَ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّي خِيَانَةً لَمُبْلِغُكَ الْوَاشِي اَغَشُّ وَاَكْذَبُ
وَلَكِنَّنِي كُنْتُ اِمْرَأً لِي جَانِبٌ مِنَ الْاَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ
مُلُوكٌ وَاِخْوَانٌ اِذَا مَا اَتَيْتُهُمْ اُحَكِّمُ فِي اَمْوَالِهِمْ وَاُقَرَّبُ
كَفِعْلِكَ فِي قَوْمٍ اَرَاكَ اَصْطَنَعْتَهُمْ فَلَمْ تَرْهُمْ فِي شُكْرِ ذَلِكَ اَذْنَبُوا
فَلَا تَتْرُكَنِّي بِالْوَعِيدِ كَاَنَّنِي اِلَى النَّاسِ مَطْلِيٌّ بِهِ الْقَارُ اَجْرَبُ
اَلَمْ تَرَ اَنَّ اللهَ اَعْطَاكَ سُورَةً تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونَهَا يَتَذَبْذَبُ
بِاَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ اِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَالثَّالِثَةُ (عَفَا ذُو حُسًى مِنْ فَرْتَنَا فَالْفَوَارِعُ) يَقُولُ فِيهَا بَعْدَ

قسم قدمه على عادته :

لكلفتني ذنب امرئ وتركته كذي العرّ يكوى غيره وهو راتع

فان كنت لا ذو الضغن عني مكذب ولا حلفي على البراءة نافع

ولا انا مأمون بشيء اقوله وانت بامر لا محالة واقع

فانك كالليل الذي هو مدركي وان خلت ان المنتأى عنك واسع

وقد علق بهذا المعنى جماعة من الشعراء فقال سلم الخاسر يعتذر الى المهدي :

اني اعوذ بخير الناس كلهم وانت ذاك لما تأتي وتجتنب

وانت كالدهر مبثوثا حبائله والدهر لا ملجأ منه ولا هرب

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

واني وان حدثت نفسي باتيتي افوتك ان الرأي مني لعازب

والى هذه الناحية اشار ابو الطيب بقوله :

ولكنك الدنيا الي حبيبة فما عنك لي الا اليك ذهاب

غير انه حرف الكلام عن موا ضعه . واختار العلماء بهذا الشأن قول علي بن جبلة :

وما لامرئ حاولته عنك مهرب ولو رفعته في السماء الطالع

بلى هارب لا يهتدي لمكانه ظلام ولا ضوء من الفجر ساطع

لانه قد اجاد مع معارضته النابغة وزاد عليه ذكر الصبح واظنه اقتدى بقول الاصمعي في بيت النابغة : ليس الليل اولى

بِهٰذَا ٱلْمِثَالِ مِنَ ٱلنَّهَارِ . وَفِي هٰذَا ٱلِٱعْتِرَاضِ كَلَامٌ يَأْتِي فِي مَوْضِعِهِ مِنْ هٰذَا ٱلْكِتَابِ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى . وَأَفْضَلُ مِنْ هٰذَا كُلِّهِ قَوْلُ ٱلْقُرْآنِ : إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنْفُذُوا . وَوَجَدَ ٱلْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى عَلَى أَبِي ٱلْهَوْلِ ٱلْحِمْيَرِيِّ فَدَخَلَ إِلَيْهِ فَأَنْشَدَهُ :

كَسَانِي وَعِيدُ ٱلْفَضْلِ ثَوْبًا مِنَ ٱلْبِلَى
وَإِبْعَادُهُ عِنْدِي ٱلَّذِي مَا لَهُ رَدُّ
فَجُدْ بِٱلرِّضَى لَا ٱبْتَغِي مِنْكَ غَيْرَهُ وَرَأْيُكَ فِيمَا كُنْتَ عَوَّدْتَنِي بَعْدُ

فَقَالَ لَهُ ٱلْفَضْلُ عَلَى مَذْهَبِ ٱلْكُتَّابِ فِي تَحْرِيرِ ٱلْخِطَابِ : لَا أَحْتَمِلُ وَٱللهِ قَوْلَكَ (وَرَأْيُكَ فِيمَا كُنْتَ عَوَّدْتَنِي بَعْدُ) فَقَالَ أَبُو ٱلْهَوْلِ : لَا تَنْظُرْ إِلَى قِصَرِ بَاعِي وَقِلَّةِ تَمْيِيزِي وَٱفْعَلْ بِي مَا أَنْتَ أَهْلُهُ . فَأَمَرَ لَهُ بِمَالٍ جَسِيمٍ وَرَضِيَ عَنْهُ وَقَرَّبَهُ

وَفِي ٱشْتِقَاقِ ٱلْأَعْذَارِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ أَحَدُهَا أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمَحْوِ كَأَنَّكَ مَحَوْتَ آثَارَ ٱلْمَوْجِدَةِ مِنْ قَوْلِهِمِ ٱعْتَذَرَتِ ٱلْمَنَازِلُ إِذَا دَرَسَتْ وَأَنْشَدَ قَوْلَ ٱبْنِ حُجْرٍ :

أَوْ كُنْتَ تَعْرِفُ آيَاتٍ فَقَدْ جَعَلَتْ
أَطْلَالُ إِلْفِكَ بِٱلْوَدْكَاءِ تَعْتَذِرُ

وَٱلثَّانِي أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلِٱنْقِطَاعِ كَأَنَّكَ قَطَعْتَ ٱلرَّجُلَ عَمَّا أَمْسَكَ فِي قَلْبِهِ مِنَ ٱلْمَوْجِدَةِ وَيَقُولُونَ ٱعْتَذَرَتِ ٱلْمِيَاهُ إِذَا ٱنْقَطَعَتْ :

وَٱلْقَوْلُ ٱلثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْحَجْرِ وَٱلْمَنْعِ . قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ

يُقَالُ عَذَرْتُ ٱلدَّابَّةَ اَيْ جَعَلْتُ لَهَا عِذَارًا يَحْجُزُهَا مِنَ ٱلشَّرَادِ فَمَعْنَى ٱعْتَذَرَ ٱلرَّجُلُ ٱحْتَجَزَ وَعَذَرْتُهُ جَعَلْتُ لَهُ حَاجِزًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْعُقُوبَةِ اَوِ ٱلْعَتْبِ وَمِنْهُ تَعَذَّرَ ٱلْاَمْرُ وَٱحْتَجَزَ اَنْ يُقْضَى وَمِنْهُ جَارِيَةٌ عَذْرَاءُ

البحث الحادي عشر

في سيرورة الشعر والحظوة في المدح

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

كَانَ ٱلْاَعْشَى اَسْيَرَ ٱلنَّاسِ شِعْرًا وَاَعْظَمَهُمْ فِيهِ حَظًّا حَتَّى كَادَ يُنْسِي اَصْحَابَهُ ٱلْمَذْكُورِينَ مَعَهُ وَقَبْلَهُ زُهَيْرٌ وَٱلنَّابِغَةُ وَاَمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَكَانَ جَرِيرٌ بَاقِعَةً سَائِرَ ٱلشِّعْرِ مُظَفَّرًا. قَالَ ٱلْاَخْطَلُ لِلْفَرَزْدَقِ وَاَنَا وَٱللهِ اَشْعَرُ مِنْ جَرِيرٍ غَيْرَ اَنَّهُ رُزِقَ مِنْ سَيْرُورَةِ ٱلشِّعْرِ مَا لَمْ اُرْزَقْهُ وَقَدْ قُلْتُ بَيْتًا لَا اَحْسَبُ اَحَدًا قَالَ اَهْجَا مِنْهُ

وَلَيْسَ مِنَ ٱلْعَرَبِ قَبِيلَةٌ اِلَّا وَقَدْ نِيلَ مِنْهَا وَعُيِّرَتْ وَهُجِيَتْ فَحَطَّ ٱلشِّعْرُ مِنْهُمْ بَعْضًا بِمُوَافَقَةِ ٱلْحَقِيقَةِ وَمَضَى صَفْحًا عَلَى ٱلْآخَرِينَ لَمَّا لَمْ يُوَافِقِ ٱلْحَقِيقَةَ وَلَا صَادَفَ مَوْضِعَ ٱلرِّيبَةِ. فَمِنَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُحْكَ فِيهِمْ هِجَاءٌ اِلَّا قَلِيلًا عَلَى كَثْرَةِ مَا قِيلَ فِيهِمْ تَمِيمُ بْنُ مُرَّةَ وَبَكْرُ بْنُ وَائِلٍ وَاَسَدُ بْنُ خُزَيْمَةَ وَنُظَرَاؤُهُمْ مِنْ قَبَائِلِ ٱلْيَمَنِ. فَاَمَّا مَنْ شُتُوا بِٱلْهِجَاءِ وَمُزِّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ عَلَى تَقَدُّمِهِمْ فِي ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْفَضْلِ اَحْيَاءٌ مِنْ قَيْسٍ نَحْوَ غَنِيٍّ وَبَاهِلَةَ بْنِ اَعْصُرَ بْنِ سَعْدِ بْنِ قَيْسِ بْنِ غَيْلَانَ وَٱسْمُ غَنِيٍّ

عَمْرٌو وَكَانُوا مَوَالِيَ عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ يَحْمِلُونَ عَلَيْهِمُ الدِّيَاتِ وَالْنَّوَائِبَ وَنَحْوَ مُحَارِبِ بْنِ خَصَفَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ غَيْلَانَ وَجَسْرِ بْنِ مُحَارِبٍ وَمِنْ وُلْدِ طَابِخَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ تَيْمٌ وَعُكْلٌ أَبْنَا عَبْدِ مَنَاةَ وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّبْيُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَاسْتَهَانَتِ الْعَرَبُ بِهِمْ وَأَطْمَعَ الْهِجَاءُ فِيهِمْ وَعَدِيُّ بْنُ عَبْدِ مَنَاةَ كَانُوا قَطِينًا لِحَاجِبِ بْنِ زُرَارَةَ وَأَرَادَ أَنْ يَسْتَمْلِكَهُمْ مَلِكُ رِقٍّ بِسِجِلٍّ مِنْ قِبَلِ الْمُنْذِرِ. وَالْحِبَطَاتُ وَهُمْ وُلْدُ الْحَارِثِ بْنِ عَمْرِو بْنِ تَيْمٍ وَسُمِّيَ الْحِبَطَ لِعِظَمِ بَطْنِهِ شَبَّهُوهُ بِالْجَمَلِ الْحِبَطِ وَهُوَ الَّذِي انْتَفَخَ بَطْنُهُ مِنْ كَلَإٍ يَسْتَوْبِلُهُ. فَأَمَّا السَّمَوْأَلُ فَقَدْ قَالَ فِيهِمْ أَبُو زِيَادٍ الْكِلَابِيُّ: كِرَامٌ مِنْ كِرَامٍ صَعْصَعَةَ لَمْ يُخَالَفُوا فِي أَمْرٍ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي صَغَارٍ وَإِنَّمَا كَلِمَةُ عَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ هِيَ الَّتِي شَامَتْهُمْ يُرِيدُ قَوْلَهُ: أَغُدَّةً كَغُدَّةِ الْبَعِيرِ وَمَوْتًا فِي بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ. قُلْتُ أَمَّا عَامِرٌ فَقَدْ قَالَ هٰذِهِ الْكَلِمَةَ حِينَ دَعَا عَلَيْهِ الرَّسُولُ فَمَا يَصْنَعُ بِقَوْلِ السَّمَوْأَلِ بْنِ عَادِيَاءَ:

وَإِنَّا لَقَوْمٌ لَا نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ

وَالسَّمَوْأَلُ فِي زَمَانِ امْرِئِ الْقَيْسِ وَبَيْنَ امْرِئِ الْقَيْسِ وَمَبْعَثِ الرَّسُولِ مِئَةٌ وَأَرْبَعٌ وَخَمْسُونَ سَنَةً. قَالَ الْجَاحِظُ لَمْ يُمْدَحْ قَبِيلَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ قُرَيْشٍ كَمَا مُدِحَتْ مَخْزُومٌ. قَالَ وَكَانَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ أَخْطَأَ فِي الشِّعْرِ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ خُلَفَائِهِمْ. وَمَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ نِعْمَةً بَعْدَ وِلَايَةِ اللهِ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ مُمَدَّحًا. قُلْتُ أَنَا: أَمَّا هٰذِهِ النِّعْمَةُ فَقَدْ أَحَلَّهَا اللهُ مُضَاعَفَةً

عِندَ ٱلسَّيِّدِ ٱبِي ٱلْحَسَنِ وَقَرَنَهَا مِنْهُ بِٱلِٱسْتِحْقَاقِ فَقَرَّتْ مَقَرَّهَا وَنَزَلَتْ مَنْزِلَهَا ٱلْمُخْتَارَ لَهَا . وَٱحْيَا ٱللهُ بِهِ لِبَنِي شَيْبَانَ حَمْدًا لَمْ يَشُبْهُ ذَمٌّ وَجُودٌ لَمْ يُعْقِبْهُ نَدَمٌ مِمَّا زَادَ عَلَى يَزِيدَ وَلَمْ يَدَعْ لِلَعْنٍ مَعْنًى فِي ٱلْجُودِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : كَانَ عَمْرُو ٱبْنُ ٱلْعَلَاءِ مَمْدُوحًا وَفِيهِ يَقُولُ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ :

قُلْ لِلْخَلِيفَةِ إِنْ جِئْتَهُ نَصِيحًا وَلَا خَيْرَ فِي ٱلْمُتَّهَمْ
إِذَا ٱيْقَظَتْكَ حُرُوبُ ٱلْعِدَا فَنَبِّهْ لَهَا عُمَرًا ثُمَّ نَمْ
فَتًى لَا يَبِيتُ عَلَى دِمْنَةٍ وَلَا يَشْرَبُ ٱلْمَاءَ إِلَّا بِدَمْ

وَقَالَ ٱبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ :

إِنَّ ٱلْمَطَايَا تَشْتَكِيكَ لِأَنَّهَا قَطَعَتْ إِلَيْكَ سَبَاسِبًا وَرِمَالَا

قَالَ ٱبُو عُبَيْدَةَ : لَمْ يَمْدَحْ أَحَدٌ قَطُّ بَنِي كُلَيْبٍ غَيْرُ ٱلْحُطَيْئَةِ :

لَعَمْرُكَ مَا ٱلْمُجَاوِرُ فِي كُلَيْبٍ بِمُقْصًى فِي ٱلْجِوَارِ وَلَا مُضَاعِ

وَكَانَتْ قَيْسٌ تَفْتَخِرُ عَلَى تَمِيمَ لِأَنَّ شُعَرَاءَ تَمِيمَ تَضْرِبُ ٱلْمَثَلَ بِقَبَائِلِ قَيْسٍ وَرِجَالِهَا . فَأَقَامَتْ تَمِيمٌ دَهْرًا لَا تَرْفَعُ رُؤُوسَهَا حَتَّى قَالَ لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ :

أَبَنِي كُلَيْبٍ كَيْفَ تُنْفَى جَعْفَرٌ وَبَنُو ضُبَيْعَةَ حَاضِرُوا ٱلْأَجْنَابِ
قَتَلُوا ٱبْنَ عُرْوَةَ ثُمَّ لَطُّوا دُونَهُ حَتَّى يُحَاكِمَهُمْ إِلَى جَوَّابِ
يَرْعَوْنَ مُخْرَقَ ٱللَّدِيدِ كَأَنَّهُمْ فِي ٱلْعِزِّ أُسْرَةُ حَاجِبٍ وَشِهَابِ
مُتَظَاهِرٌ حَلَقُ ٱلْحَدِيدِ عَلَيْهِمِ كَبَنِي زُرَارَةَ أَوْ بَنِي عَتَّابِ

قَوْمٌ لَهُمْ عَرَفَتْ مَعَدٌّ فَضْلَهُمْ وَٱلْفَضْلُ يَعْرِفُهُ ذَوُو ٱلْأَلْبَابِ

وَقَالَ ٱبْنُ مَنْظُورِ بْنِ سَيَّارٍ ٱلْفَزَارِيُّ :

فَجَاؤُوا بِجَمْعٍ مُخْزِلٍ كَأَنَّهُمْ بَنُو دَارِمٍ إِذْ كَانَ فِي ٱلنَّاسِ دَارِمُ

فَتَكَلَّمَتْ تَمِيمٌ وَٱفْتَخَرَتْ لِمَكَانِ هٰذَيْنِ ٱلشَّاعِرَيْنِ ٱلْعَظِيمَيْنِ قَدْرًا فِي قَيْسٍ فَدَلَّ هٰذَا عَلَى أَنَّ قَيْسًا أَحْظَى بِٱلْمَدْحِ مِنْ تَمِيمٍ . وَٱلْأَوَابِدُ مِنَ ٱلشِّعْرِ ٱلْأَبْيَاتُ ٱلسَّائِرَةُ كَٱلْأَمْثَالِ وَأَكْثَرُ مَا تُسْتَعْمَلُ ٱلْأَوَابِدُ فِي ٱلْهِجَاءِ يُقَالُ : رَمَاهُ بِآبِدَةٍ فَتَكُونُ ٱلْآبِدَةُ هٰهُنَا ٱلدَّاهِيَةَ . قَالَ ٱلْجَاحِظُ : ٱلْأَوَابِدُ ٱلدَّوَاهِي وَمِنْهُ أَوَابِدُ ٱلشِّعْرِ حَكَاهُ عَنْ أَبِي زَيْدٍ وَحَكَى : ٱلْأَوَابِدُ ٱلْإِبِلُ ٱلَّتِي تَتَوَحَّشُ فَلَا يُقْدَرُ عَلَيْهَا إِلَّا بِٱلْعَقْرِ . وَٱلْأَوَابِدُ ٱلطَّيْرُ ٱلَّتِي تُقِيمُ صَيْفًا وَشِتَاءً . وَٱلْأَوَابِدُ ٱلْوَحْشُ فَإِذَا حُمِلَتْ أَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِ عَلَى مَا قَالَ ٱلْجَاحِظُ كَانَتِ ٱلْمَعَانِي ٱلسَّائِرَةُ كَٱلْإِبِلِ ٱلشَّارِدَةِ ٱلْمُتَوَحِّشَةِ وَإِنْ شِئْتَ أَلْقَيْتَهَا عَلَى مَنْ قِيلَتْ فِيهِ لَا تُفَارِقُهُ كَإِقَامَةِ ٱلطَّيْرِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ بِقَوَاطِعَ . وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي بُعْدِهَا مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَٱمْتِنَاعِهَا عَلَيْهِمْ كَٱلْوَحْشِ فِي نِفَارِهَا مِنَ ٱلنَّاسِ . وَأَمَّا ٱلْمُحْدَثُونَ فِي ٱلْكَسْبِ بِٱلشِّعْرِ وَٱلْحُظْوَةِ عِنْدَ ٱلْمُلُوكِ فَمِنْهُمْ مُسْلِمٌ ٱلْخَاسِرُ مَاتَ عَنْ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَلَمْ يَتْرُكْ وَارِثًا وَأَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ مَنَعَ :

تَعَالَى ٱللّٰهُ يَا مُسْلِمَ بْنَ عَمْرٍو أَذَلَّ ٱلْحِرْصُ أَعْنَاقَ ٱلرِّجَالِ

وَكَانَ صَدِيقَهُ جِدًّا . فَقَالَ مُسْلِمٌ : وَيْلِي مِنْ هٰذَا ٱلرَّجُلِ جَمَعَ ٱلْقَنَاطِيرَ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَقَدْ نَسَبَنِي إِلَى مَا تَرَوْنَ مِنَ ٱلْحِرْصِ . وَلَمْ

يَرُدَّ ذٰلِكَ اَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ وَمَرْوَانُ بْنُ اَبِي حَفْصَةَ اُعْطِيَ مِائَةَ اَلْفِ دِينَارٍ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً وَكَانَ لَا يُقَابَلُ اِلَّا بِٱلْكَثِيرِ وَهُوَ لَعَمْرِي مِنْ ذَوِي ٱلْبُيُوتَاتِ وَٱلْمَعْرُوفِينَ فِي ٱلْكَسْبِ وَٱلشِّعْرِ . وَكَانَ اَبُو نُوَاسٍ مَحْظُوظًا لَا يُدْرَى لِمَا وَصَلَ اِلَيْهِ لٰكِنَّهُ كَانَ مُتْلِفًا سَمْحًا وَكَانَ يَتَسَاجَلُ فِي ٱلْاِنْفَاقِ هُوَ وَعَبَّاسُ بْنُ اَحْنَفَ . وَكَانَ ٱلْبُحْتُرِيُّ مَلِيًا قَدْ فَاضَ كَسْبُهُ مِنَ ٱلشِّعْرِ . وَكَانَ يَرْكَبُ فِي مَوْكِبٍ مِنْ عَبِيدِهِ . وَاَمَّا اَبُو تَمَّامٍ فَمَا وُفِّيَ حَقَّهُ مَعَ مَا صَارَ اِلَيْهِ مِنَ ٱلْاَمْوَالِ لِاَنَّهُ تَبَذَّلَ وَجَابَ ٱلْاَرْضَ وَكَذٰلِكَ اَبُو ٱلطَّيِّبِ

البحث الثاني عشر

في ما اشكل من المدح والهجاء

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

اَنْشَدَنَا اَبُو عَبْدِ ٱللّٰهِ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلنَّحْوِيُّ عَنْ اَبِي عَلِيٍّ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ اِبْرٰهِيمَ ٱلْآمِدِيِّ لِرَجُلٍ مِنْ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَمِيمٍ :

تَضَيَّفَنِي وَهْنًا فَقُلْتُ اَسَابِقِي ... اِلَى ٱلزَّادِ شَلَّتْ مِنْ يَدَيَّ ٱلْاَصَابِعُ

وَلَمْ تَلْقَ لِلسَّعْدِيِّ ضَيْفًا بِقَفْرَةٍ ... مِنَ ٱلْاَرْضِ اِلَّا وَهْوَ عُرْيَانُ جَائِعُ

لَمْ يُرِدْ اَنَّهُ يَسْبِقُ ضَيْفَهُ اِلَى ٱلزَّادِ فَيَكُونُ قَدْ هَجَا نَفْسَهُ لٰكِنَّهُ وَصَفَ ذِئْبًا لَقِيَهُ لَيْلًا فَقَالَ : اَتَسْبِقُنِي اَنْتَ اِلَى ٱلْاَكْلِ اَيْ تَأْكُلُنِي شَلَّتْ اِذًا اَصَابِعِي اِذَا لَمْ اَرْمِكَ فَاَقْتُلَكَ وَآكُلَ لَحْمَكَ . ثُمَّ قَالَ عَلَى ٱلْمَثَلِ : لَمْ تَلْقَ لِلسَّعْدِيِّ يَعْنِي نَفْسَهُ ضَيْفًا فِي

قَفْرَةٍ يَعْنِي ٱلذِّئْبَ ٱلَّا هُوَ جَائِعٌ فَهُوَ لَا يُبْقِي عَلَيَّ لِأَنِّي أَقْتُلُهُ قَبْلَ أَنْ يَشْبَعَ مِنْ لَحْمِي. وَمِنْ أَنَاشِيدِهِمْ:

أَبُوكَ ٱلَّذِي نُبِّئْتُ يَحْبِسُ خَيْلَهُ غَدَاةَ ٱلنَّدَى حَتَّى يَخِفَّ لَهَا ٱلْبَقْلُ

قَالُوا إِذَا أَخَذَ مَطَرُ ٱلصَّيْفِ ٱلْأَرْضَ أَنْبَتَتْ بَقْلًا فِي أُصُولِ بَقْلٍ قَدْ يَبِسَ فَذٰلِكَ ٱلْأَخْضَرُ هُوَ ٱلنَّشْرُ وَهُوَ ٱلْغَمِيرُ فَتَأْكُلُهُ ٱلْإِبِلُ فَيَأْخُذُهَا ٱلسَّهَامُ وَلَا سَهَامَ فِي ٱلْخَيْلِ فَعَابَهُ بِٱلْجَهْلِ بِٱلْخَيْلِ. قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ: هٰذَا ٱلْقَوْلُ خَطَأٌ بَلْ مَدَحَهُ بِمَعْرِفَةِ ٱلْخَيْلِ لِأَنَّ ٱلنَّشْرَ مُؤْذٍ لِكُلِّ مَا أَكَلَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ سَهَامٌ. وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ قُتَّةَ فِي رِثَاءِ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ وَذِكْرِ آلِ ٱلرَّسُولِ:

أُولٰئِكَ قَوْمٌ لَمْ يَشِيمُوا سُيُوفَهُمْ وَلَمْ تَكْثُرِ ٱلْقَتْلَى بِهَا حِينَ سُلَّتِ

قَالَ قَوْمٌ أَرَادَ لَمْ يُغْمِدُوا سُيُوفَهُمْ إِلَّا بَعْدَ كَثْرَةِ ٱلْقَتْلَى بِهَا كَمَا تَقُولُ لَمْ أَضْرِبْكَ وَلَمْ تَجْنِ عَلَيَّ إِلَّا بَعْدَ أَنْ جَنَيْتُ عَلَيْكَ. وَقَالَ آخَرُونَ: أَرَادَ لَمْ يَسُلُّوا سُيُوفَهُمْ إِلَّا وَكَثُرَتْ بِهَا ٱلْقَتْلَى كَمَا تَقُولُ: لَمْ أَلْقَكَ وَلَمْ أُحْسِنْ إِلَيْكَ أَيْ إِلَّا وَقَدْ أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ وَٱلْقَوْلَانِ مَعًا صَحِيحَانِ لِأَنَّهُ مِنَ ٱلْأَضْدَادِ وَيُنْشِدُونَ قَوْلَ ٱلْآخَرِ:

هَجَمْنَا عَلَيْهِ وَهْوَ يَكْعَمُ كَلْبَهُ دَعِ ٱلْكَلْبَ يَنْبَحْ إِنَّمَا ٱلْكَلْبُ نَابِحُ

وَيُرْوَى:

دَفَعْتُ إِلَيْهِ وَهْوَ يَخْنُقُ كَلْبَهُ أَلَا كُلُّ كَلْبٍ لَا أَبَا لَكَ نَابِحُ

وَأَنْشَدَ أَبُو عَبْدِ ٱللّٰهِ:

فَجَنَّبَتِ ٱلْجُيُوشَ أَبَا حَبِيبٍ وَجَادَ عَلَى مَحَلَّتِكَ ٱلسَّحَابُ

وَيُرْوَى اَنَّ اَبَا زَيْنَبَ قَالَ : اِنْ دَعَا لَهُ فَاِنَّمَا اَرَادَ اَنْ يُعَافَى مِنَ الْجُيُوشِ وَاَنْ يَجُودَهُ السَّحَابُ فَتُخْصِبَ اَرْضُهُ وَاِنْ دَعَا عَلَيْهِ قَالَ : لَا اَبْقَى لَكَ خَيْرًا تَطْمَعُ فِيهِ الْجُيُوشُ فَهِيَ تَتَجَنَّبُ دِيَارَكَ لِعِلْمِهِمْ بِقِلَّةِ الْخَيْرِ فِيهَا وَيَدْعُو عَلَى مَحَلَّتِهِ بِاَنْ تَدْرُسَهَا الْاَمْطَارُ . وَقَالَ غَيْرُهُ : اِنَّمَا مَعْنَاهُ جَادَ عَلَى مَحَلَّتِكَ السَّحَابُ فَاَخْصَبَتْ وَلَا مَاشِيَةَ لَكَ فِيهَا فَذٰلِكَ اَشَدُّ لِهَمِّكَ وَغَمِّكَ وَيَكُونُ الْمَعْنَى حِينَئِذٍ كَقَوْلِ الْاٰخَرِ :

وَخَيْفَاءَ اَلْقَى اللَّيْثُ فِيهَا ذِرَاعَهُ فَسَرَّتْ وَسَاءَتْ كُلَّ مَاشٍ وَمُصْرِمِ

اَيْ سَرَّتْ كُلَّ ذِي مَاشِيَةٍ وَسَاءَتْ كُلَّ فَقِيرٍ . وَاَنْشَدَ اَبُو عَبْدِ اللّٰهِ اَيْضًا :

اِنِّي عَلَى كُلِّ اِيسَارٍ وَعَسْرَةٍ اَدْعُو خَبِيثًا كَمَا تُدْعَى اَبْنَةُ الْجَبَلِ

وَرَوَى الْمُبَرِّدُ حَنِيفًا يُرِيدُ اَنَّهُ يُجِيبُهُ بِسُرْعَةٍ كَالصَّدَى وَهُوَ اَبْنَةُ الْجَبَلِ وَقِيلَ اَبْنَةُ الْجَبَلِ الصَّخْرَةُ الْمُنْحَدِرَةُ مِنْ اَعْلَاهُ . وَزَادَ اَبُو زَيْدٍ فِي رِوَايَتِهِ بَيْتًا وَهُوَ :

اِنْ تَدْعُهُ مُوهِنًا يَعْجَلْ بِحَاجِبِهِ عَارِي الْاَشَاجِعِ يَسْعَى غَيْرَ مُشْتَمِلِ

فَهٰذَا مَدْحٌ لَا مَحَالَةَ وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى قَوْلِ الْاٰخَرِ :

كَاَنِّي اِنْ دَعَوْتُ بَنِي حَنِيفٍ دَعَوْتُ بِدَعْوَتِي لَهُمُ الْجِبَالَا

وَرَوَاهُ قَوْمٌ بَنِي سُلَيْمٍ فَمَنْ مَدَحَ جَعَلَهُ مِثْلَ الْاَوَّلِ فِي سُرْعَةِ الْاِجَابَةِ وَمَنْ ذَمَّ نَسَبَهُمْ اِلَى الثِّقَلِ عَنْ اِجَابَتِهِ مِثْلَ الْجِبَالِ . وَمِنَ الدُّعَاءِ الَّذِي يَدْخُلُ فِي هٰذَا الْبَابِ :

تَفَرَّقْتُ غَنَمِي يَوْمًا فَقُلْتُ لَهَا يَا رَبِّ سَلِّطْ عَلَيْهَا الذِّئْبَ وَالضَّبُعَا

قِيلَ انَّهُمَا اِذَا اجْتَمَعَا لَا يُؤْذِيَانِ وَشُغِلَ كُلٌّ مِنْهُمَا الْآخَرَ وَاِذَا تَفَرَّقَا اَدَّيَا وَقِيلَ : اِنَّ مَعْنَاهُ فِي الدُّعَاءِ عَلَيْهَا : قَتَلَ الذِّئْبُ الْاَحْيَاءَ عَبَثًا وَاَكَلَتِ الضَّبُعُ الْاَمْوَاتَ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا بَقِيَّةٌ . وَمِنْ لَطِيفِ مَا وَقَعَ فِي هٰذَا الْبَابِ قَوْلُ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِيِّ :

يَصُدُّ الشَّاعِرَ الثُّنْيَانَ عَنِّي صُدُودَ الْبِكْرِ عَنْ قَرْمِ الْهِجَانِ

وَلَمْ يُرِدْ اَنَّهُ يَغْلِبُ الثُّنْيَانَ وَلَا يَغْلِبُ الْفَحْلَ لٰكِنْ اَرَادَ التَّصْغِيرَ بِالَّذِي هَاجَاهُ فَجَعَلَهُ ثُنْيَانًا . وَقَالَ آخَرُ :

وَمَنْ يَفْخَرْ بِمِثْلِ اَبِي وَجَدِّي يَجِي قَبْلَ السَّوَابِقِ وَهْوَ ثَانِ

اَرَادَ وَهْوَ ثَانٍ مِنْ عِنَانِهِ لَا يُسْبَقُ مُتَمَهِّلًا . وَمِمَّا يُمْدَحُ بِهِ وَيُذَمُّ قَوْمٌ بَيْضَةُ الْبَلَدِ فَمَنْ مَدَحَ اَرَادَ اَنَّهَا اَصْلُ الطَّائِرِ وَمَنْ ذَمَّ اَرَادَ اَنَّهَا لَا اَصْلَ لَهَا . قَالَتْ اُخْتُ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ وُدٍّ فِي عَلِيٍّ لَمَّا قَتَلَ اَخَاهَا :

لَوْ كَانَ قَاتِلُ عَمْرٍو غَيْرَ قَاتِلِهِ لَقَدْ بَكَيْتُ عَلَيْهِ آخِرَ الْاَبَدِ

لٰكِنَّ قَاتِلَهُ مَنْ لَا يُعَابُ بِهِ مَنْ كَانَ يُدْعَى قَدِيمًا بَيْضَةَ الْبَلَدِ

فَهٰذَا اَمْدَحُ كَمَا تَرَاهُ وَقَالَ الرَّاعِي النُّمَيْرِيُّ يَهْجُو عَدِيَّ بْنَ الرِّقَاعِ الْعَامِلِيَّ :

لَوْ كُنْتَ مِنْ اَحَدٍ تُهْجَى هَجَوْتُكُمُ

يَا اِبْنَ الرِّقَاعِ وَلٰكِنْ لَسْتَ مِنْ اَحَدِ

تَاْبَى قُضَاعَةُ اَنْ تَرْضَى بِكُمْ نَسَبًا

وَاَبْنَا نِزَارٍ فَاَنْتُمْ بَيْضَةُ الْبَلَدِ

وَأَنْشَدَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ:

وَإِنِّي لَظَلَّامٌ لِأَشْعَثَ بَائِسٍ
عَرَارًا وَمَقْرُورًا يُرَى مَالَهُ ٱلدَّهْرُ

وَجَارٍ قَرِيبِ ٱلدَّارِ أَوْ ذِي جِنَايَةٍ
غَرِيبٍ بَعِيدِ ٱلدَّارِ لَيْسَ لَهُ وَقْرُ

يَظُنُّهُ ٱلسَّامِعُ هَجَا نَفْسَهُ بِظُلْمِ هٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ ذُكِرُوا إِنَّمَا مَدَحَهَا بِأَنَّهُ يَظْلِمُ ٱلنَّاقَةَ فَيَنْحَرُ لِلضِّيَافَةِ فَصِيلَهَا مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ وَلَا دَاءٍ هٰذَا هُوَ ٱلْأَشْعَثُ وَٱلْجَارُ وَأَشْبَاهُهُمَا

البحث الثالث عشر

في البديهة والارتجال

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

ٱلْبَدِيهَةُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَوْسُومِينَ بِعِلْمِ هٰذِهِ ٱلصَّنَاعَةِ فِي بَلَدِنَا وَمِنْ أَهْلِ عَصْرِنَا هِيَ ٱلِٱرْتِجَالُ وَلَيْسَتْ بِهِ لِأَنَّ ٱلْبَدِيهَةَ فِيهَا ٱلْفِكْرُ وَٱلتَّأَيُّدُ . وَٱلِٱرْتِجَالُ مَا كَانَ ٱنْهِمَارًا وَتَدَفُّقًا لَا يَتَوَقَّفُ فِيهِ قَائِلُهُ كَٱلَّذِي صَنَعَ ٱلْفَرَزْدَقُ وَقَدْ دَفَعَ إِلَيْهِ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ أَسِيرًا مِنَ ٱلرُّومِ لِيَقْتُلَهُ فَدَسَّ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْسٍ سَيْفًا كَهَامًا فَنَبَا حِينَ ضَرَبَ بِهِ وَضَحِكَ سُلَيْمَانُ فَقَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ ٱرْتِجَالًا فِي مَقَالَةٍ يَعْتَذِرُ لِنَفْسِهِ وَيُعَيِّرُ بَنِي عَبْسٍ بِنُبُوِّ سَيْفِ وَرْقَاءَ بْنِ زُهَيْرٍ عَنْ رَأْسِ خَالِدِ بْنِ جَعْفَرٍ:

فَإِنْ يَكُ سَيْفٌ خَانَ اَوْ نَبَا حَدُّهُ
لِتَأْخِيرِ نَفْسٍ حَيْنُهَا غَيْرُ شَاهِدِ
فَسَيْفُ بَنِي عَبْسٍ وَقَدْ ضَرَبُوا بِهِ
نَبَا بِيَدَيْ وَرْقَاءَ عَنْ رَأْسِ خَالِدِ
كَذَاكَ سُيُوفُ ٱلْهِنْدِ تَنْبُو ظُبَاتُهَا
وَيَقْطَعْنَ اَحْيَانًا مَنَاطَ ٱلْقَلَائِدِ
وَلَوْ شِئْتُ قَطَّ ٱلسَّيْفُ مَا بَيْنَ اَنْفِهِ
اِلَى عَرَقٍ دُونَ ٱلشَّرَاسِيفِ حَايِدِ

ثُمَّ جَلَسَ وَهُوَ يَقُولُ:

وَلَا نَقْتُلُ ٱلْاَسْرَى وَلَكِنْ نَفُكُّهُمْ
اِذَا شَغَلَ ٱلْاَعْنَاقَ حَمْلُ ٱلْمَغَارِمِ

وَاَعْظَمُ اِرْتِجَالٍ وَقَعَ قَصِيدَةُ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ بَيْنَ يَدَيْ عَمْرِو ٱبْنِ هِنْدٍ فَاِنَّهُ يُقَالُ اَتَى بِهَا كَٱلْخُطْبَةِ. وَكَذٰلِكَ قَصِيدَةُ عُبَيْدِ بْنِ ٱلْاَبْرَصِ. وَقِيلَ: اَفْضَلُ ٱلْبَدِيهَةِ بَدِيهَةُ اَمْنٍ وَرَدَتْ فِي مَوْضِعِ خَوْفٍ فَمَا ظَنُّكَ بِٱلِارْتِجَالِ وَهُوَ اَسْرَعُ مِنَ ٱلْبَدِيهَةِ. وَكَانَ اَبُو نُوَاسٍ قَوِيَ ٱلْبَدِيهَةِ وَٱلِارْتِجَالِ لَا يَكَادُ يَنْقَطِعُ وَلَا يَرْوِي اِلَّا فَلْتَةً. وَيُرْوَى اَنَّ ٱلْخَطِيبَ قَالَ لَهُ مَرَّةً يُمَازِحُهُ وَهُوَ بِٱلْمَسْجِدِ ٱلْجَامِعِ: وَاَنْتَ غَيْرُ مُدَافِعٍ فِي ٱلشِّعْرِ وَلٰكِنَّكَ لَا تَخْطُبُ. فَقَامَ مِنْ فَوْرِهِ يَقُولُ مُرْتَجِلًا:

مَنَحْتُكُمُ يَا اَهْلَ مِصْرَ نَصِيحَتِي اَلَا فَخُذُوا مِنْ نَاصِحٍ بِنَصِيبِ

رَمَاكُمْ اَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِحَيَّةٍ اَكُولٍ لِحَيَاتِ ٱلْبِلَادِ شَرُوبِ
فَإِنْ يَكُ بَاقِي سِحْرِ فِرْعَوْنَ فِيكُمُ فَإِنَّ عَصَا مُوسَى بِكَفِّ خَطِيبِ

ثُمَّ ٱلْتَفَتَ اِلَيْهِ : وَٱللهِ لَا يَأْتِي بِمِثْلِهَا خَطِيبٌ مِصْقَعٌ فَكَيْفَ رَأَيْتَ فَاعْتَذَرَ اِلَيْهِ فَحَلَفَ : اِنْ كُنْتُ اِلَّا مَازِحًا . وَسَمِعْتُ جَمَاعَةً مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ يَقُولُونَ : كَانَ مُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ نَظِيرَ اَبِي نُوَاسٍ فِي وُقُوفِهِ عِنْدَ قَوْمٍ مِنْ اَهْلِ زَمَانِهِ فِي اَشْيَاءَ اِلَّا اَنَّ اَبَا نُوَاسٍ قَهَرَ بِٱلْبَدِيهَةِ وَٱلِارْتِجَالِ مَعَ تَقَبُّضٍ كَانَ فِي مُسْلِمٍ وَاِظْهَارِ تَوَقُّدٍ وَكَانَ صَاحِبَ فِكْرَةٍ وَرَوِيَّةٍ لَا يَبْتَدِهُ وَلَا يَرْتَجِلُ فَكَانَ اَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ فِيمَا يُقَالُ اَقْدَرَ ٱلنَّاسِ عَلَى ٱرْتِجَالٍ وَبَدِيهَةٍ لِقُرْبِ مَأْخَذِهِ وَسُهُولَةِ طَرِيقِهِ

وَٱجْتَمَعَ عِدَّةٌ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فِيهِمْ اَبُو نُوَاسٍ فَشَرِبَ اَحَدُهُمْ مَاءً ثُمَّ قَالَ اَجِيزُونَا : بَرَدَ ٱلْمَاءُ وَطَابَا . فَكُلُّهُمْ تَلَعْثَمَ حَتَّى طَلَعَ اَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ . قَالَ : فِيمَ اَنْتُمْ فَاَنْشَدُوهُ . فَقَالَ وَمَا تَرَدَّدَ : حَبَّذَا ٱلْمَاءُ شَرَابَا . فَاَتَى بِٱلْقَسِيمِ شَبِيهًا بِصَاحِبِهِ . وَذٰلِكَ هُوَ ٱلَّذِي اَعْوَزَ ٱلْقَوْمَ لَا وَزْنُ ٱلْكَلَامِ . وَصَحِبَ رِفْقَةً فَسَمِعَ زُقَاءَ ٱلدُّيُوكِ . فَقَالَ لِرَفِيقِهِ : هَلْ رَأَيْتَ ٱلصُّبْحَ لَاحَا . قَالَ نَعَمْ . قَالَ : وَسَمِعْتَ ٱلدِّيكَ صَاحَا . قَالَ نَعَمْ . قَالَ :

اِنَّمَا بُكَى عَلَى ٱلْمَرْءِ تَزَيِّ بِٱلدُّنْيَا وَنَاحَا

فَاسْتَيْقَظَ رَفِيقُهُ لِلْكَلَامِ اَنَّهُ شِعْرٌ فَرَوَاهُ . فَمَا جَرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى فَهُوَ ٱلِارْتِجَالُ . وَاَمَّا ٱلْبَدِيهَةُ فَبَعْدَ اَنْ يُفَكِّرَ ٱلشَّاعِرُ يَسِيرًا وَيَكْتُبَ

سَرِيعًا اِنْ حَضَرَتْ آلَةٌ اِلَّا اَنَّهُ غَيْرُ بَطِيءٍ وَلَا مُتَرَاخٍ فَاِنْ اَطَالَ حَتَّى يُفْرِطَ اَوْ قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ لَمْ يَعُدْ بَدِيهًا

وَقَالُوا اجْتَمَعَ الشُّعَرَاءُ بِبَابِ الرَّشِيدِ فَاِذَنَ لَهُمْ وَقَالَ: مَنْ يُجِيزُ هٰذَا الْقَسِيمَ وَلَهُ حُكْمُهُ. قَالُوا: مَا هُوَ يَا اَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: اَلْمُلْكُ لِلّٰهِ وَحْدَهُ. فَقَالَ الْحِجَازُ: وَلِلْخَلِيفَةِ بَعْدَهُ وَلِلْمُحِبِّ اِذَا مَا حَبِيبُهُ بَاتَ عِنْدَهُ. فَقَالَ: اَحْسَنْتَ وَاَتَيْتَ عَلَى مَا فِي نَفْسِي وَاَمَرَ لَهُ بِعَشَرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ. وَقَدْ كَانَ اَبُو الطَّيِّبِ كَثِيرَ الْبَدِيهَةِ وَالْاِرْتِجَالِ اِلَّا اَنَّ شِعْرَهُ فِيهَا نَازِلٌ عَنْ طَبَقَتِهِ جِدًّا وَهُوَ لَعَمْرِي فِي سَعَةٍ مِنَ الْفَنَدِ اِذْ كَانَتِ الْبَدِيهَةُ كَمَا قَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ فِيهَا:

نَارُ الرَّوِيَّةِ نَارٌ جِدُّ مُنْضِجَةٍ ... وَلِلْبَدِيهَةِ نَارٌ ذَاتُ تَلْوِيحِ

وَقَدْ يُفَضِّلُهَا قَوْمٌ لِعَاجِلِهَا ... لٰكِنَّ عَاجِلَهَا يَمْضِي مَعَ الرِّيحِ

وَقَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ:

وَالْقَوْلُ بَعْدَ الْفِكْرِ يُؤْمَنُ زَيْفُهُ ... شَتَّانَ بَيْنَ رَوِيَّةٍ وَبَدِيهَةِ

وَمِنَ الشُّعَرَاءِ مَنْ شِعْرُهُ فِي الرَّوِيَّةِ وَالْبَدِيهَةِ سَوَاءٌ وَعِنْدَ الْاَمْنِ وَالْخَوْفِ لِقُدْرَتِهِ وَسُكُونِ جَاْشِهِ وَقُوَّةِ غَرِيزَتِهِ كَهَدِيَّةَ بْنِ الْخَشْرَمِ الْعُذْرِيِّ وَطَرَفَةَ بْنِ الْعَبْدِ الْبَكْرِيِّ وَمُرَّةَ بْنِ مَحْكَانَ السَّعْدِيِّ اِذْ يَقُولُ وَقَدْ اَمَرَ مُصْعَبُ بْنُ الزُّبَيْرِ رَجُلًا مِنْ بَنِي اَسَدٍ بِقَتْلِهِ:

بَنِي اَسَدٍ اِنْ تَقْتُلُونِي تُحَارِبُوا ... قَتِيمًا اِذَا الْحَرْبُ الْعَوَانُ اُشْمَعَلَّتِ

وَاَسْتُ وَاِنْ كَانَتْ اِلَيَّ حَبِيبَةً ... بِبَاكٍ عَلَى الدُّنْيَا اِذَا مَا تَوَلَّتِ

وَهٰذَا شِعْرٌ لَوْ تَرَوَّى فِيهِ صَاحِبُهُ حَوْلًا كَامِلًا عَلَى اَمْنِ وَدَعَةٍ وَفَرْطِ شَهْوَةٍ اَوْ شِدَّةِ حَمِيَّةٍ لَمَا اَتَى بِهِ فَوْقَ هٰذَا وَكَذٰلِكَ عَبْدُ يَاغُوثَ بْنُ صَلَاءَةَ اِذْ يَقُولُ فِي كَلِمَةٍ لَهُ طَوِيلَةٍ :

اَقُولُ وَقَدْ شَدُّوا لِسَانِي بِنِسْعَةٍ اَمَعْشَرَ تَيْمٍ اَطْلِقُوا مِنْ لِسَانِيَا
اَيَا رَاكِبًا اِمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ نُدَامَايَ مِنْ نَجْرَانَ اَنْ لَا تَلَاقِيَا

وَكَانُوا شَدُّوا لِسَانَهُ خَوْفًا مِنَ الْهِجَاءِ فَعَاهَدَهُمْ فَاَطْلَقُوهُ لِيَنُوحَ عَلَى نَفْسِهِ وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ فِي فِدَائِهِ اَلْفَ نَاقَةٍ فَاَبَوْا اِلَّا قَتْلَهُ فَقَالَ :

فَاِنْ تَقْتُلُونِي تَقْتُلُونِي بِخَيِّرِكُمْ وَاِنْ تُطْلِقُونِي تَحْرُبُونِي بِمَالِيَا

وَهٰذِهِ شَهَامَةٌ عَظِيمَةٌ وَشِدَّةٌ . وَمِنْ قَوْلِ طَرَفَةَ بْنِ الْعَبْدِ لَمَّا اَيْقَنَ بِالْمَوْتِ :

اَبَا مُنْذِرٍ كَانَتْ غُرُورًا صَحِيفَتِي
وَلَمْ اُعْطِكُمْ فِي الطَّوْعِ مَالِي وَلَا عِرْضِي
اَبَا مُنْذِرٍ اَفْنَيْتَ فَاسْتَبْقِ بَعْضَنَا
حَنَانَيْكَ بَعْضُ الشَّرِّ اَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

وَاَيْنَ هٰؤُلَاءِ مِنْ عُبَيْدِ بْنِ الْاَبْرَصِ وَهُوَ شَيْخٌ مِنْ شُيُوخِ الصَّنَاعَةِ وَمُقَدَّمٌ فِي السِّنِّ عَلَى الْجَمَاعَةِ اِذْ يَقُولُ لَهُ النُّعْمَانُ يَوْمَ بُؤْسِهِ : اَنْشِدْنِي . قَالَ : حَالَ الْجَرِيضُ دُونَ الْقَرِيضِ . قَالَ : اَنْشِدْنِي قَوْلَكَ اَقْفَرَ مِنْ اَهْلِهِ مَلْحُوبُ . فَقَالَ :

اَقْفَرَ مِنْ اَهْلِهِ عُبَيْدُ فَالْيَوْمَ لَا يُبْدِي وَلَا يُعِيدُ

فَبَلَغَتْ بِهِ حَالُ ٱلْجَزَعِ إِلَى مِثْلِ هٰذَا عَلَى أَنَّ فِي طَرَفَةَ بَعْضَ ٱلضَّرَاعَةِ

حَكَى عَلِيُّ بْنُ يَحْيَى قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ ٱلْمُتَوَكِّلِ إِذْ أَتَاهُ رَسُولُ إِسْحَقَ بْنِ إِسْمٰعِيلَ فَقَامَ عَلِيُّ بْنُ ٱلْجَهْمِ يَخْطُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَقُولُ:

أَهْلًا وَسَهْلًا بِكَ مِنْ رَسُولِ جِئْتَ بِمَا يَشْفِي مِنَ ٱلْغَلِيلِ

بِرَأْسِ إِسْحَقَ بْنِ إِسْمَاعِيلِ

فَقَالَ ٱلْمُتَوَكِّلُ ٱقْطُوا هٰذَا ٱلْجَوْهَرَ لَا يَضِيعُ. وَٱشْتِقَاقُ ٱلْبَدِيهَةِ مِنْ بَدَهَ بِمَعْنَى بَدَأَ أُبْدِلَتِ ٱلْهَمْزَةُ هَاءً كَمَا أُبْدِلَتْ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ لِقُرْبِهَا مِنْهَا. فَقَدْ قَالُوا: مَدَحَ وَمَدَهَ وَلٰهَنَّكَ تَفْعَلُ كَذَا بِمَعْنَى لَأَنَّكَ وَمِثْلُ ذٰلِكَ كَثِيرٌ. وَٱلِٱرْتِجَالُ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلسُّهُولَةِ وَٱلِٱنْصِبَابِ. وَمِنْهُ قِيلَ: شَعَرَ ٱلرَّجُلُ إِذَا كَانَ شَعَرُهُ سَبْطًا مُسْتَرْسِلًا غَيْرَ جَعْدٍ. وَقِيلَ هُوَ مِنِ ٱرْتِجَالِ ٱلْبِئْرِ وَهُوَ أَنْ تَتْرُكَهَا بِرِجْلَيْكَ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ

المبحث الرابع عشر

في آداب الشاعر

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

مِنْ حِكَمِ ٱلشَّاعِرِ أَنْ يَكُونَ حُلْوَ ٱلشَّمَائِلِ حَسَنَ ٱلْأَخْلَاقِ طَلْقَ ٱلْوَجْهِ بَعِيدَ ٱلْغَوْرِ مَأْمُونَ ٱلْجَانِبِ سَهْلَ ٱلنَّاحِيَةِ وَطِيءَ ٱلْأَكْنَافِ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُحَبِّبُهُ إِلَى ٱلنَّاسِ وَيُزَيِّنُهُ فِي عُيُونِهِمْ وَيُقَرِّبُهُ

مِنْ قُلُوبِهِمْ وَلْيَكُنْ مَعَ ذٰلِكَ شَرِيفَ ٱلنَّفْسِ لَطِيفَ ٱلْحِسِّ عَرُوفَ ٱلْهِمَّةِ نَظِيفَ ٱلْبِزَّةِ آنِفًا لِتَهَابَهُ ٱلْعَامَّةُ وَيَدْخُلَ فِي جُمْلَةِ ٱلْخَاصَّةِ فَلَا تَحُجُّهُ أَبْصَارُهُمْ سَمْحَ ٱلْيَدَيْنِ وَإِلَّا فَهُوَ كَمَا قَالَ ٱبْنُ أَبِي فَنَنٍ:

وَإِنَّ أَحَقَّ ٱلنَّاسِ بِٱللَّوْمِ شَاعِرٌ يَلُومُ عَلَى ٱلْبُخْلِ ٱلرِّجَالَ وَيَبْخَلُ

وَإِلَى هٰذَا ٱلْمَعْنَى ذَهَبَ ٱلطَّائِيُّ بِقَوْلِهِ:

أَأَلُومُ مَنْ بَخِلَتْ يَدَاهُ وَأَعْتَدِي لِلْبُخْلِ جَزْيًا سَاءَ ذَاكَ صَنِيعَا

وَٱلشَّاعِرُ مَأْخُوذٌ بِكُلِّ عِلْمٍ مَطْلُوبٌ بِكُلِّ مَكْرُمَةٍ لِٱتِّسَاعِ ٱلشِّعْرِ وَٱحْتِمَالِهِ كُلَّ مَا حُمِلَ مِنْ نَحْوٍ وَلُغَةٍ وَفِقْهٍ وَجَبْرٍ وَحِسَابٍ وَفَرِيضَةٍ وَٱحْتِيَاجِ أَكْثَرِ هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ إِلَى شَهَادَتِهِ وَهُوَ مُكَيَّفٌ بِذَاتِهِ مُسْتَغْنٍ عَمَّا سِوَاهُ وَلِأَنَّهُ قَيْدٌ لِلْأَخْبَارِ وَتَجْدِيدٌ لِلْآثَارِ وَصَاحِبُهُ ٱلَّذِي يَذُمُّ وَيَحْمَدُ وَيَهْجُو وَيَمْدَحُ وَيَعْرِفُ مَا يَأْتِي ٱلنَّاسُ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْأَشْيَاءِ وَمَا يَدَرُونَهُ فَهُوَ عَلَى نَفْسِهِ شَاهِدٌ وَبِحُجَّتِهِ مَأْخُوذٌ. وَلْيَأْخُذْ نَفْسَهُ بِحِفْظِ ٱلشِّعْرِ وَٱلْخَبَرِ وَمَعْرِفَةِ ٱلنَّسَبِ وَأَيَّامِ ٱلْعَرَبِ يَسْتَعْمِلُ ذٰلِكَ فِيمَا يُرِيدُهُ مِنْ ذِكْرِ ٱلْآثَارِ وَضَرْبِ ٱلْأَمْثَالِ لِيَعَاقَ نَفْسُهُ بَعْضَ أَنْفَاسِهِمْ وَيَقْوَى بِقُوَّةِ طِبَاعِهِمْ. فَقَدْ وَجَدْنَا ٱلشَّاعِرَ مِنَ ٱلْمَطْبُوعِينَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ يَفْضُلُ أَصْحَابَهُ بِرِوَايَةِ ٱلشِّعْرِ وَمَعْرِفَةِ ٱلْأَخْبَارِ وَٱلتِّلْمِذَةِ لِمَنْ فَوْقَهُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ شَاعِرٌ رَاوِيَةٌ يُرِيدُونَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ رَاوِيَةً عَرَفَ ٱلْمَقَاصِدَ وَسَهُلَ عَلَيْهِ مَأْخَذُ ٱللَّفْظِ وَلَمْ يَضِقْ بِهِ ٱلْمَذْهَبُ وَإِذَا كَانَ مَطْبُوعًا لَا عِلْمَ لَهُ وَلَا رِوَايَةَ ضَلَّ وَٱهْتَدَى مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ وَرُبَّمَا طَلَبَ ٱلْمَعْنَى فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ

وَهُوَ مَاثِلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ لِضُعْفِ آلَتِهِ كَالْمُقْعَدِ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ الْقُوَّةَ عَلَى النُّهُوضِ فَلَا تُعِينُهُ الْآلَةُ . وَقَدْ سُئِلَ رُؤْبَةُ بْنُ الْعَجَّاجِ عَنِ الْفَحْلِ مِنَ الشُّعَرَاءِ . فَقَالَ : هُوَ الرَّاوِيَةُ يُرِيدُ أَنَّهُ إِذَا رَوَى اسْتَفْحَلَ . قَالَ يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ : وَإِنَّمَا ذٰلِكَ لِأَنَّهُ يَجْمَعُ إِلَى جَيِّدِ شِعْرِهِ مَعْرِفَةَ جَيِّدِ غَيْرِهِ فَلَا يَحْمِلُ نَفْسَهُ إِلَّا عَلَى بَصِيرَةٍ . وَقَالَ رُؤْبَةُ فِي صِفَةِ شَاعِرٍ :

لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ تَكُونَ سَاحِرَا رِوَايَةً مُرًّا وَمُرًّا شَاعِرَا

وَاسْتَعْظَمَ حَالَهُ حَتَّى قَرَنَهَا بِالسِّحْرِ . وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : لَا يَصِيرُ الشَّاعِرُ فِي قَرِيضِ الشِّعْرِ فَحْلًا حَتَّى يَرْوِيَ أَشْعَارَ الْعَرَبِ وَيَسْمَعَ الْأَخْبَارَ وَيَعْرِفَ الْمَعَانِيَ وَتَدُورَ فِي مَسَامِعِهِ الْأَلْفَاظُ . وَأَوَّلُ ذٰلِكَ أَنْ يَعْرِفَ الْعَرُوضَ لِيَكُونَ مِيزَانًا عَلَى قَوْلِهِ وَالنَّحْوَ يُصْلِحُ بِهِ لِسَانَهُ وَيُقِيمُ بِهِ إِعْرَابَهُ وَالنَّسَبَ وَأَيَّامَ النَّاسِ لِيَسْتَعِينَ بِذٰلِكَ عَلَى مَعْرِفَةِ الْمَنَاقِبِ وَالْمَثَالِبِ وَذِكْرِهِمَا بِمَدْحٍ أَوْ ذَمٍّ . وَقَدْ كَانَ الْفَرَزْدَقُ عَلَى فَضْلِهِ فِي هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ يَرْوِي لِلْحُطَيْئَةِ كَثِيرًا وَكَانَ الْحُطَيْئَةُ رَاوِيَةَ زُهَيْرٍ وَكَانَ زُهَيْرٌ رَاوِيَةَ أَوْسِ بْنِ حَجَرٍ وَطُفَيْلٍ الْغَنَوِيِّ جَمِيعًا . وَقَدْ نَزَلَ أَعْشَى بَنِي قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بَيْنَ يَدَيِ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِيِّ بِسُوقِ عُكَاظَ وَأَنْشَدَهُ فَقَدَّمَهُ . وَأَنْشَدَهُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَلَبِيدُ ابْنُ رَبِيعَةَ فَمَا عَابَهُمْ ذٰلِكَ وَلَا غَضَّ مِنْهُمْ . وَكَانَ كُثَيِّرٌ رَاوِيَةَ جَمِيلٍ مُفَضِّلًا لَهُ . وَكَانَ أَبُو حَيَّةَ النُّمَيْرِيُّ وَاسْمُهُ الْهَيْثَمُ بْنُ الرَّبِيعِ وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ شِعْرًا وَأَنْظَفِهِمْ كَلَامًا مُؤْتَمًّا بِالْفَرَزْدَقِ

آخِذًا عَنْهُ كَثِيرًا مُتَعَصِّبًا لَهُ . وَلَا يَسْتَغْنِي ٱلْمُوَلَّدُ عَنْ تَصَفُّحِ ٱشْعَارِ ٱلْمُوَلَّدِينَ لِمَا فِيهَا مِنْ حَلَاوَةِ ٱللَّفْظِ وَقُرْبِ ٱلْمَأْخَذِ وَإِشَارَاتِ ٱلْمُلَحِ وَوُجُوهِ ٱلْبَدِيعِ ٱلَّذِي مِثْلُهُ فِي شِعْرِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ قَلِيلٌ وَإِنْ كَانُوا هُمْ فَتَحُوا بَابَهُ وَفَتَقُوا جِلْبَابَهُ . وَلِلْمُتَعَقِّبِ زِيَادَاتٌ وَٱفْتِنَانٌ . لَا عَلَى ٱنْ تَكُونَ عُدَّةُ ٱلشَّاعِرِ مُطَالَعَةَ مَا ذَكَرْتُهُ آخِرَ كَلَامِي هٰذَا دُونَ مَا قَدَّمْتُهُ فَإِنَّهُ مَتَى فَعَلَ ذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مِنَ ٱلْمَلَكَةِ وَفَضْلِ ٱلْقُوَّةِ مَا يَبْلُغُ بِهِ طَاقَةَ مَنْ تَبِعَ فَيُجَارِيَهُ . وَإِذَا أَعَانَتْهُ فَصَاحَةُ ٱلْمُتَقَدِّمِ وَحَلَاوَةُ ٱلْمُتَأَخِّرِ ٱشْتَدَّ سَاعِدُهُ وَبَعُدَ مَرَامُهُ فَلَمْ يَقَعْ دُونَ ٱلْغَرَضِ وَسَعَى أَنْ يَكُونَ أَوْثَقَ سِهَامًا وَأَحْسَنَ مَوْقِعًا مِمَّنْ لَوْ عَوَّلَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمُحْدَثِينَ لَقَصَّرَ عَنْهُ وَوَقَعَ دُونَهُ . وَلْيَجْعَلْ طَلَبَهُ أَوَّلًا لِلسَّلَامَةِ فَإِذَا صَحَّتْ لَهُ طَلَبَ ٱلتَّجْوِيدَ حِينَئِذٍ وَلْيَرْغَبْ فِي ٱلْحَلَاوَةِ وَٱلطَّلَاوَةِ رَغْبَتَهُ فِي ٱلْجَزَالَةِ وَٱلْفَخَامَةِ . وَلْيَجْتَنِبِ ٱلسُّوقِيَّ ٱلْقَرِيبَ وَٱلْوَحْشِيَّ ٱلْغَرِيبَ حَتَّى يَكُونَ شِعْرُهُ حَالًا بَيْنَ حَالَيْنِ كَمَا قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

عَلَيْكَ بِأَوْسَاطِ ٱلْأُمُورِ فَإِنَّهَا ... نَجَاةٌ وَلَا تَرْكَبْ ذَلُولًا وَلَا صَعْبَا

وَأَوَّلُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ٱلشَّاعِرُ بَعْدَ ٱلْجِدِّ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْغَايَةُ وَفِيهِ وَحْدَهُ ٱلْكِفَايَةُ حُسْنُ ٱلتَّأَنِّي وَٱلسِّيَاسَةِ وَعِلْمُ مَقَاصِدِ ٱلْقَوْلِ فَإِنْ نَسَبَ ذَلَّ وَخَضَعَ وَإِنْ مَدَحَ أَطْرَبَ وَأَسْمَعَ وَإِنْ هَجَا أَقَلَّ وَأَوْجَعَ وَلْتَكُنْ غَايَتُهُ مَعْرِفَةَ أَغْرَاضِ ٱلْمُخَاطَبِ كَائِنًا مَنْ كَانَ لِيَدْخُلَ إِلَيْهِ مِنْ بَابِهِ وَيُدَاخِلَهُ فِي ثِيَابِهِ فَذٰلِكَ هُوَ سِرُّ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ وَمَغْزَاهُ ٱلَّذِي تَفَاوَتَ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ تَفَاضَلُوا . وَقَدْ قِيلَ : لِكُلِّ

مَقَامٍ مَقَالٌ. وَشِعْرُ ٱلشَّاعِرِ لِنَفْسِهِ وَفِي مُرَادِهِ وَأُمُورِ ذَاتِهِ مِنْ مَدْحٍ وَغَزَلٍ وَمُكَاتَبَةٍ وَمُجُونٍ وَخَمْرِيَّةٍ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ غَيْرُ شِعْرِهِ فِي قَصَائِدِ ٱلْمَحْفِلِ ٱلَّتِي يَقُومُ بِهَا بَيْنَ ٱلسِّمَاطَيْنِ. يُقْبَلُ مِنْهُ فِي تِلْكَ ٱلطَّرِيقِ عَفْوُ كَلَامِهِ وَمَا لَا يَتَكَلَّفُ لَهُ وَلَا أَلْقَى بِهِ بَالًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ فِي هٰذِهِ إِلَّا مَا كَانَ مُحْكَمًا مُعَاوَدًا فِيهِ ٱلنَّظَرُ جَيِّدًا لَا غَثَّ فِيهِ وَلَا سَاقِطَ وَلَا قَلِقَ. وَشِعْرُهُ لِلْأَمِيرِ غَيْرُ شِعْرِهِ لِلْوَزِيرِ وَٱلْكَاتِبِ وَمُخَاطَبَتُهُ لِلْقُضَاةِ وَٱلْفُقَهَاءِ بِخِلَافِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَنْوَاعِ.

وَٱلْمُتَأَخِّرُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فِي ٱلزَّمَانِ لَا يَضُرُّهُ تَأَخُّرُهُ إِذَا أَجَادَ كَمَا لَا يَنْفَعُ ٱلْمُتَقَدِّمَ تَقَدُّمُهُ إِذَا قَصَّرَ وَإِنْ كَانَ لَهُ فَضْلُ ٱلسَّبْقِ فَعَلَيْهِ دَرَكُ ٱلتَّقْصِيرِ كَمَا أَنَّ لِلْمُتَأَخِّرِ فَضْلَ ٱلْإِجَادَةِ وَٱلزِّيَادَةِ. وَلَا يَكُونُ ٱلشَّاعِرُ حَاذِقًا مُجَوِّدًا حَتَّى يَتَفَقَّدَ شِعْرَهُ وَيُعِيدَ فِيهِ نَظَرَهُ فَيُسْقِطَ رَدِيَّهُ وَيُثْبِتَ جَيِّدَهُ وَيَكُونَ بِٱلرَّكِيكِ مُطَّرِحًا لَهُ رَاغِبًا عَنْهُ. فَإِنَّ بَيْتًا جَيِّدًا مَقَامَ أَلْفِ رَدِيٍّ. وَقَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَهُوَ أَوَّلُ مَا زَعَمُوا أَنَّهُ ٱخْتِيرَ لَهُ وَعُلِمَ بِهِ أَنَّهُ أَفْضَلُ ٱلشُّعَرَاءِ وَٱلْمُقَدَّمُ عَلَيْهِمْ:

أَذُودُ ٱلْقَوَافِيَ عَنِّي ذِيَادَا ذِيَادَ غُلَامٍ جَرِيءٍ جَرَادَا
فَلَمَّا كَثُرْنَ وَعَنَّيْنَهُ تَخَيَّرَ مِنْهُنَّ سِتًّا جِيَادَا
فَأَعْزِلُ مِرْجَانَهَا جَانِبًا وَآخُذُ مِنْ دُرِّهَا ٱلْمُسْتَجَادَا

وَيُقَالُ إِنَّ أَبَا نُوَاسٍ كَانَ يَفْعَلُ هٰذَا ٱلْفِعْلَ وَيُبْقِي ٱلْجَيِّدَ وَيَلْتَمِسُ لَهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا سَهُلَ وَمِنَ ٱلْمَعْنَى مَا كَانَ وَاضِحًا جَلِيًّا

يُعرَفُ بَدِيًا. فَقَدْ قَالَ بَعْضُ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ: شَرُّ ٱلشِّعْرِ مَا سُئِلَ عَنْهُ. وَكَانَ ٱلْحُطَيْئَةُ يَقُولُ: خَيْرُ ٱلشِّعْرِ ٱلْحَوْلِيُّ ٱلْمُحَكَّكُ. اَخَذَ فِي ذٰلِكَ بِمَذْهَبِ زُهَيْرِ بْنِ اَبِي سُلْمَى وَاَوْسٍ وَطُفَيْلٍ. وَلَا يَجُوزُ لِلشَّاعِرِ كَمَا لَا يَجُوزُ لِغَيْرِهِ اَنْ يَكُونَ مُعْجَبًا بِنَفْسِهِ مُثْنِيًا عَلَى شِعْرِهِ وَاِنَّ فَضِيحَةً ظَاهِرَةً كَانَ غَنِيًّا عَنْهَا. وَكَانَ فِي ٱلْبُحْتُرِيِّ اِعْجَابٌ شَدِيدٌ اِذَا اَنْشَدَ يَقُولُ: مَا لَكُمْ لَا تَعْجَبُونَ مَا اَحْسَنَ مَا تَسْمَعُونَ. فَاَنْشَدَ ٱلْمُتَوَكِّلَ يَوْمًا قَصِيدَتَهُ:

عَنْ اَيِّ ثَغْرٍ تَبْتَسِمْ وَبِاَيِّ طَرْفٍ تَحْتَكِمْ

وَاَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلصِّمِّيرِيُّ حَاضِرٌ فَلَمَّا رَاَى اِعْجَابَهُ قَامَ حِذَاءَهُ وَقَالَ:

مِنْ اَيِّ سَلْحٍ تَلْتَقِمْ وَبِاَيِّ كَفٍّ تَلْتَطِمْ

فَوَلَّى وَهُوَ غَضْبَانُ. فَقَالَ: وَعَلِمْتُ اَنَّكَ تَنْهَزِمْ. فَضَحِكَ ٱلْمُتَوَكِّلُ حَتَّى فَحَصَ بِرِجْلَيْهِ وَاَعْطَى ٱلصِّمِّيرِيَّ جَائِزَةً سَنِيَّةً

البحث الخامس عشر

في عمل الشعر وشحذ القريحة

(من كتاب العمدة)

لَا بُدَّ لِلشَّاعِرِ وَاِنْ كَانَ فَحْلًا حَاذِقًا مُبَرِّزًا مُقَدَّمًا مِنْ فَتْرَةٍ تَعْرِضُ لَهُ فِي بَعْضِ ٱلْاَوْقَاتِ اِمَّا لِشُغْلٍ طَرَاَ اَوْ مَوْتِ قَرِيحَةٍ اَوْ نُبُوِّ طَبْعٍ فِي تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ اَوْ ذٰلِكَ ٱلْحِينِ. وَقَدْ كَانَ ٱلْفَرَزْدَقُ

وَهُوَ فَحْلُ مُضَرَ فِي زَمَانِهِ يَقُولُ : تَمُرُّ عَلَيَّ السَّاعَةُ وَقَلْعُ ضِرْسٍ مِنْ اَضْرَاسِي اَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ عَمَلِ بَيْتٍ مِنَ الشِّعْرِ فَاِذَا تَمَادَى ذٰلِكَ عَلَى الشَّاعِرِ قِيلَ : قَدْ اَضْفَى كَمَا يُقَالُ اَضْفَتِ الدَّجَاجَةُ اِذَا انْقَطَعَ بَيْضُهَا وَكَذٰلِكَ يُقَالُ لَهُ اَجْبَلَ كَمَا يُقَالُ لِحَافِرِ الْبِئْرِ اِذَا بَلَغَ جَبَلًا تَحْتَ الْاَرْضِ لَا يَعْمَلُ فِيهِ شَيْءٌ اَجْبَلَ . وَاُفْحِمَ الشَّاعِرُ عَلَى اُفْعِلَ وَقَالُوا : هُوَ مِنْ فَحَمِ الصَّبِيِّ اِذَا انْقَطَعَ صَوْتُهُ مِنْ شِدَّةِ الْبُكَاءِ . فَاِنْ سَاءَ لَفْظُهُ وَفَسَدَتْ مَعَانِيهِ قِيلَ لَهُ اَهْتَرَ فَهُوَ مُهْتَرٌّ . وَقَدْ قِيلَ فِي الذُّبْيَانِيِّ اِنَّهُ كَانَ شِعْرُهُ نَظِيفًا مِنَ الْعُيُوبِ لِاَنَّهُ قَالَهُ كَبِيرًا وَمَاتَ عَنْ قُرْبٍ وَلَمْ يُهْتَرْ وَاَكْثَرُ مَا جَاءَ الْاِهْتِارُ فِي صِفَةِ الْكَبِيرِ الَّذِي يَخْتَلِطُ كَلَامُهُ . وَقَوْلُهُمْ فِي شِعْرِ النَّابِغَةِ اِنَّهُ قَالَ كَثِيرًا يَدُلُّ عَلَى اَنَّهُ بِهٰذَا يُسَمَّى نَابِغَةً كَمَا عِنْدَ اَكْثَرِ النَّاسِ لَا لِقَوْلِهِ : « فَقَدْ نَبَغَتْ لَنَا مِنْهُمْ شُؤُونُ » كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ . وَيُقَالُ اَخْلَى الشَّاعِرُ كَمَا يُقَالُ اَخْلَى الرَّامِي اِذَا لَمْ يُصِبْ مَعْنًى

وَيُحْكَى عَنِ الْبُحْتُرِيِّ اَنَّهُ قَالَ : فَاوَضْتُ عَلِيَّ بْنَ الْجَهْمِ فِي الشِّعْرِ وَذِكْرِ اَشْجَعَ السَّلَمِيِّ فَقَالَ : اِنَّهُ يُخْلِي . فَلَمْ اَفْهَمْهَا وَاَنِفْتُ اَنْ اَسَالَهُ عَنْهَا . فَلَمَّا انْصَرَفْتُ فَكَّرْتُ فِيهَا وَنَظَرْتُ فِي شِعْرِ اَشْجَعَ فَاِذَا هُوَ رُبَّمَا مَرَّتْ بِهِ الْاَبْيَاتُ مَعْسُولَةً لَيْسَ فِيهَا بَيْتٌ رَائِعٌ

ثُمَّ اِنَّ لِلنَّاسِ فِيمَا بَعْدُ ضُرُوبًا مُخْتَلِفَةً يَسْتَدْعُونَ بِهَا الشِّعْرَ

فَتَشْحَذُ ٱلْقَرَائِحَ وَتُنَبِّهُ ٱلْخَوَاطِرَ وَتُلِينُ عَرِيكَةَ ٱلْكَلَامِ وَتُسَهِّلُ طَرِيقَ ٱلْمَعْنَى لِكُلِّ ٱمْرِئٍ بِحَسَبِ تَدْبِيرِ طَبْعِهِ وَٱطِّرَادِ عَادَتِهِ. وَسَيَأْتِي ذٰلِكَ فِي أَقَاوِيلِ ٱلْعُلَمَاءِ بِمَا أَرْجُو أَنْ يَكُونَ فِيهِ هِدَايَةٌ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى

قَالَ بَكْرُ بْنُ ٱلنَّطَّاحِ ٱلْحَنَفِيُّ: ٱلشِّعْرُ مِثْلُ عَيْنِ ٱلْمَاءِ إِنْ تَرَكْتَهَا نَضَبَتْ وَإِنِ ٱسْتَهْتَنْتَهَا هَتَنَتْ. وَلَيْسَ مُرَادُ بَكْرٍ أَنْ تُسْتَهْتَنَ بِٱلْعَمَلِ وَحْدَهُ لِأَنَّا نَجِدُ ٱلشَّاعِرَ تَكِلُّ قَرِيحَتُهُ مَعَ كَثْرَةِ ٱلْعَمَلِ مِرَارًا وَتَنْزِفُ مَادَّتُهُ وَتَنْفَدُ مَعَانِيهِ فَإِذَا جَمَّ طَبْعُهُ أَيَّامًا وَرُبَّمَا زَمَانًا طَوِيلًا ثُمَّ صَنَعَ ٱلشِّعْرَ جَاءَ بِكُلِّ آبِدَةٍ وَأَتَاهُمْ بِكُلِّ قَافِيَةٍ شَارِدَةٍ وَفُتِحَ لَهُ مِنَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْأَلْفَاظِ مَا لَوْ رَامَهُ مِنْ قَبْلُ لَٱسْتَغْلَقَ عَلَيْهِ وَأَبْهَمَ دُونَهُ. لٰكِنْ بِٱلْمُذَاكَرَةِ مَرَّةً فَأَنَّهَا تَقْدَحُ زِنَادَ ٱلْخَاطِرِ وَتُفَجِّرُ عُيُونَ ٱلْمَعَانِي وَتُوقِظُ أَبْصَارَ ٱلْفِتْنَةِ وَبِمُطَالَعَةِ ٱلْأَشْعَارِ كَرَّةً فَإِنَّهَا تَبْعَثُ ٱلْجَسَدَ وَتُولِدُ ٱلشَّهْوَةَ. وَسُئِلَ ذُو ٱلرُّمَّةِ كَيْفَ تَفْعَلُ إِذَا ٱنْقَفَلَ دُونَكَ ٱلشِّعْرُ. فَقَالَ: كَيْفَ يَنْقَفِلُ دُونِي وَعِنْدِي مَفَاتِحُهُ. قِيلَ لَهُ: وَعَنْهُ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ. قَالَ: ٱلْخُلُوُّ بِذِكْرِ ٱلْأَحْبَابِ وَلَعَمْرِي إِنَّهُ إِذَا ٱنْفَتَحَ لِلشَّاعِرِ نَسِيبُ ٱلْقَصِيدَةِ فَقَدْ وَلَجَ مِنَ ٱلْبَابِ وَحَطَّ رَحْلَهُ فِي ٱلرِّكَابِ عَلَى أَنَّ ذَا ٱلرُّمَّةِ لَمْ يَكُنْ كَثِيرَ ٱلْمَدْحِ وَٱلْهِجَاءِ وَإِنَّمَا كَانَ وَاصِفَ أَطْلَالٍ وَنَادِبَ أَظْعَانٍ وَهُوَ ٱلَّذِي أَخْرَجَهُ مِنْ طَبَقَةِ ٱلْفُحُولِ. وَقِيلَ لِكُثَيِّرٍ كَيْفَ تَصْنَعُ ٱلشِّعْرَ إِذَا عَسُرَ عَلَيْكَ. قَالَ: أَطُوفُ فِي ٱلرِّيَاضِ ٱلْمُشَعَّبَةِ فَيَسْهُلُ عَلَيَّ صَعْبُهُ وَيُسْرِعُ إِلَيَّ

احسنه . وقال الاصمعي : ما استدعي شارد الشعر بمثل الماء الجاري والشرف العالي والمكان الخالي . وقيل الخالي يعني الروض

وحدثنا بعض اصحابنا من اهل المهدية وقد مررنا بموضع يعرف بالكندية وهو اشرفها ارضا وهواء . قال : جئت هذا الموضع مرة فاذا عبد الكريم على سطح هنالك قد كشف الدنيا . فقلت : ابا محمد . قال : نعم . فقلت : ما تصنع هاهنا . قال : اقمع خاطري واجلو ناظري قلت : فهل نتج لك شيء . قال : ما تقر به عيني وعينك ان شاء الله تعالى وانشد شعرا يدخل مسام القلوب رقة . قلت : هذا اختيار منك اخترعته . قال : بل برأي الاصمعي

وقالوا كان جرير اذا اراد ان يؤيد قصيدة صنعها ليلا يشعل سراجا ويعتزل اهله وربما علا السطح وحده وغطى رأسه رغبة في الخلوة في نفسه . فحكي انه صنع ذلك في قصيدته التي اخزى بها بني نمير

وروي ان الفرزدق كان اذا عصت عليه صنعة الشعر ركب ناقة وطاف وحده منفردا في شعاب الجبال وبطون الاودية والاماكن الخالية فيعطيه الكلام قياده . حكي ذلك في قصيدته الفائية :

عرفت باعشاش وما كدت تعرف

وذكر ان فتى من الانصار فاخر بابيات حسان بن ثابت :

لَنَا ٱلْجَفَنَاتُ ٱلْغُرُّ يَلْمَعْنَ فِي ٱلضُّحَى
وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

وَٱنْظَرَهُ سَنَةً فَمَضَى حَنِقًا وَطَالَتْ لَيْلَتُهُ لَمْ يَصْنَعْ شَيْئًا فَلَمَّا كَانَ قُرْبَ ٱلصَّبَاحِ أَتَى جَبَلًا بِٱلْمَدِينَةِ يُقَالُ لَهُ ذُبَابٌ فَنَادَى : أَخَاكُمْ أَخَاكُمْ يَا بَنِي لَبِينَا صَاحِبَكُمْ صَاحِبَكُمْ صَاحِبَكُمْ وَتَوَسَّدَ ذِرَاعَ نَاقَتِهِ فَٱنْثَالَتْ عَلَيْهِ ٱلْقَوَافِي وَجَاءَ بِٱلْقَصِيدَةِ بُكْرَةً وَقَدْ أَعْجَزَتِ ٱلشُّعَرَاءَ وَبَهَرَتْهُمْ طُولًا وَجُودَةً

قَالَ ٱبْنُ قُتَيْبَةَ : وَلِلشِّعْرِ أَوْقَاتٌ تُسْرِعُ فِيهَا قَوَافِيهِ مِنْهَا أَوَّلُ ٱللَّيْلِ قَبْلَ تَعَشِّي ٱلْكَرَى وَمِنْهَا صَدْرُ ٱللَّيْلِ وَقَبْلَ ٱلْغَدَاءِ وَمِنْهَا يَوْمُ شُرْبِ ٱلدَّوَاءِ وَمِنْهَا ٱلْخَلْوَةُ فِي ٱلْحَبْسِ . فَلِهَذِهِ ٱلْأَسْبَابِ تَخْتَلِفُ أَشْعَارُ ٱلشَّاعِرِ وَرَسَائِلُ ٱلْمُتَرَسِّلِ . وَحُكِيَ عَنْ أَبِي تَمَّامٍ وَقَدْ سَأَلَهُ ٱلْبُحْتُرِيُّ عَنْ أَوْقَاتِ صَنْعَةِ ٱلشِّعْرِ فَقَالَ قَرِيبًا مِنْ هٰذَا لَا أَحْفَظُهُ وَلَا أَشُكُّ أَنَّ ٱبْنَ قُتَيْبَةَ بِهِ أَقْتَدَى وَإِنْ كَانَ مِمَّا رَوَاهُ

وَمِمَّا يَجْمَعُ ٱلْفِكْرَةَ فِي طَرِيقِ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱسْتِلْقَاءُ ٱلْمَرْءِ عَلَى ظَهْرِهِ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَلَيْسَ يَفْتَحُ مُقْفَلَ ٱلْخَوَاطِرِ مِثْلُ مُبَاكَرَةِ ٱلْعَمَلِ بِٱلْأَسْحَارِ عِنْدَ ٱلْهُبُوبِ مِنَ ٱلنَّوْمِ لِكَوْنِ ٱلنَّفْسِ مُجْتَمِعَةً لَمْ يَتَفَرَّقْ حِسُّهَا فِي أَسْبَابِ ٱللَّهْوِ أَوِ ٱلْمَعِيشَةِ أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ وَإِذَا هِيَ مُسْتَرِيحَةٌ جَدِيدَةٌ كَأَنَّمَا نَشَأَتْ نَشْأَةً أُخْرَى وَلِأَنَّ ٱلسَّحَرَ أَلْطَفُ هَوَاءً وَأَرَقُّ نَسِيمًا وَأَعْدَلُ مِيزَانًا بَيْنَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَإِنْ لَمْ يَكُنِ ٱلْعَشِيُّ كَٱلسَّحَرِ

وَهُوَ عَدِيلُهُ فِي ٱلتَّوَسُّطِ بَيْنَ طَرَفَيِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لِدُخُولِ ٱلظُّلْمَةِ فِيهِ عَلَى ٱلضِّيَاءِ بَعْدَ دُخُولِ ٱلضِّيَاءِ بِٱلسَّحَرِ عَلَى ٱلظُّلْمَةِ وَلِأَنَّ ٱلنَّفْسَ فِيهِ كَآلَةٍ مُرَيَّضَةٍ مِنْ تَعَبِ ٱلنَّهَارِ وَتَصَرُّفِهَا مُحْتَاجَةٌ إِلَى قُوتِهَا مِنَ ٱلنَّوْمِ وَمُتَشَوِّقَةٌ نَحْوَهُ فَٱلسَّحَرُ أَحْسَنُ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصْنَعَ . فَأَمَا لِمَنْ أَرَادَ ٱلْحِفْظَ وَٱلدِّرَاسَةَ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ فَٱللَّيْلُ . قَالَ ٱللّٰهُ تَعَالَى وَهُوَ أَصْدَقُ ٱلْقَائِلِينَ : إِنَّ نَاشِئَةَ ٱللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا . وَهٰذَا ٱلْكَلَامُ لَا مَطْعَنَ فِيهِ وَلَا ٱعْتِرَاضَ عَلَيْهِ . وَكَانَ أَبُو تَمَّامٍ يُكْرِهُ نَفْسَهُ عَلَى ٱلْعَمَلِ حَتَّى يَظْهَرَ ذٰلِكَ فِي شِعْرِهِ . حَكَى ذٰلِكَ عَنْهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ قَالَ : ٱسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ وَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ عَنِّي فَأَذِنَ لِي فَدَخَلْتُ فَإِذَا هُوَ فِي بَيْتٍ مُصَهْرَجٍ قَدْ غُسِلَ بِٱلْمَاءِ يَتَقَلَّبُ يَمِينًا وَشِمَالًا فَقُلْتُ : لَقَدْ بَلَغَ بِكَ ٱلْحُرُّ مَبْلَغًا شَدِيدًا . قَالَ : لَا وَلٰكِنْ غَيْرُهُ . فَمَكَثَ سَاعَةً ثُمَّ قَامَ كَأَنَّمَا أُطْلِقَ مِنْ عِقَالٍ فَقَالَ : ٱلْآنَ ٱلْآنَ أَرَدْتُ . ثُمَّ ٱسْتَمَدَّ وَكَتَبَ شَيْئًا لَا أَعْرِفُهُ ثُمَّ قَالَ : أَتَدْرِي مَا كُنْتُ فِيهِ مُنْذُ ٱلْآنَ . قُلْتُ : كَلَّا . قَالَ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

« كَٱلدَّهْرِ فِيهِ شَرَاسَةٌ وَلِيَانُ » زَاوَلْتُهُ حَتَّى أَمْكَنَ ٱللّٰهُ مِنْهُ فَعَمِلْتُ :

شَرِسْتَ بَلْ لِنْتَ بَلْ فَأَنْتَ ذَاكَ نَدًى

فَأَنْتَ لَا شَكَّ فِيهِ ٱلسَّهْلُ وَٱلْجَبَلُ

وَلَعَمْرِي لَوْ سَكَتَ هٰذَا ٱلْحَاكِي لَتَمَّ هٰذَا ٱلْبَيْتُ بِمَا كَانَ دَاخِلَ ٱلْبَيْتِ لِأَنَّ ٱلْكُلْفَةَ فِيهِ ظَاهِرَةٌ وَٱلتَّعَمُّلَ بَيِّنٌ . عَلَى أَنَّ مِثْلَ

حِكَايَةِ اَبِي تَمَّامٍ وَاَشَدَّ مِنْهَا وَقَعَتْ لِمَنْ لَا يُتَّهَمُ وَهُوَ جَرِيرٌ. صَنَعَ ٱلْفَرَزْدَقُ شِعْرًا يَقُولُ فِيهِ:

فَقُلْتُ اَنَا ٱلْمَوْتُ ٱلَّذِي هُوَ ذَاهِبٌ
بِنَفْسِكَ فَانْظُرْ كَيْفَ اَنْتَ مُحَاوِلُهْ

وَحَلَفَ بِالطَّلَاقِ اَنَّ جَرِيرًا لَا يَغْلِبُهُ فِيهِ فَكَانَ جَرِيرٌ يَتَمَرَّغُ فِي ٱلرَّمْضَاءِ وَيَقُولُ: اَنَا اَبُو حَرْزَةَ حَتَّى قَالَ مِنْ اَبْيَاتٍ لَهُ مَشْهُورَةٍ:

اَنَا ٱلدَّهْرُ يُفْنِي ٱلْمَوْتَ وَٱلدَّهْرُ خَالِدٌ
فَحَيِّنِي مِثْلُ ٱلدَّهْرِ شَيْئًا يُطَاوِلُهْ

وَكَانَ اَبُو تَمَّامٍ يَنْصِبُ ٱلْقَافِيَةَ لِلْبَيْتِ لِيُعَلِّقَ ٱلْاَعْجَازَ بِالصُّدُورِ وَذٰلِكَ هُوَ ٱلتَّصْدِيرُ فِي ٱلشِّعْرِ وَلَا يَأْتِي بِهِ كَثِيرًا اِلَّا شَاعِرٌ مُتَصَنِّعٌ كَحَبِيبٍ وَنُظَرَائِهِ وَٱلصَّوَابُ اَنْ لَا يَصْنَعَ ٱلشَّاعِرُ بَيْتًا لَا يَعْرِفُ قَافِيَتَهُ غَيْرَ اَنِّي لَا اَجِدُ ذٰلِكَ فِي طَبْعِي وَلَا اَقْدِرُ عَلَيْهِ ٱلْبَتَّةَ بَلْ اَصْنَعُ ٱلْقَسِيمَ ٱلْاَوَّلَ عَلَى مَا اُرِيدُهُ ثُمَّ ٱلْتَمِسُ فِي نَفْسِي مَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ ٱلْقَوَافِي بَعْدَ ذٰلِكَ فَاَبْنِي عَلَيْهِ ٱلْقَسِيمَ ٱلثَّانِيَ اَفْعَلُ ذٰلِكَ فِيهِ كَمَا يَفْعَلُ مَنْ يَبْنِي ٱلْبَيْتَ كُلَّهُ عَلَى ٱلْقَافِيَةِ وَلَمْ اَرَ ذٰلِكَ يَجُلُّ عَلَيَّ وَلَا يُزِيحُنِي عَنْ مُرَادِي وَلَا يُغَيِّرُ عَلَيَّ شَيْئًا مِنْ لَفْظِ ٱلْقَسِيمِ ٱلْاَوَّلِ اِلَّا فِي ٱلنُّدْرَةِ ٱلَّتِي لَا يُعْتَدُّ بِهَا عَلَى وَجْهِ ٱلتَّنْقِيحِ ٱلْمُفْرِطِ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَسْبِقُ اِلَيْهِ بَيْتٌ وَاَثْنَانِ وَخَاطِرُهُ فِي غَيْرِهِمَا يَجِبُ اَنْ يَكُونَ بَعْدَ ذٰلِكَ بِاَبْيَاتٍ وَذٰلِكَ لِقُوَّةِ طَبْعِهِ وَاَنْبِعَاثِ

خَاطِرِهِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْصِبُ قَافِيَةً بِعَيْنِهَا لِلْبَيْتِ بِعَيْنِهِ مِنَ ٱلشِّعْرِ مِثْلَ اَنْ تَكُونَ ثَالِثَةً اَوْ رَابِعَةً اَوْ نَحْوَ ذٰلِكَ لَا يَعْدُو بِهَا ذٰلِكَ ٱلْمَوْضِعَ اِلَّا اَخَلَّ عَلَيْهِ نَظْمُ اَبْيَاتِهِ وَذٰلِكَ عِيٌّ فِي ٱلصَّنْعَةِ شَدِيد وَنَقْصٌ بَيِّنٌ لِاَنَّ ٱلشَّاعِرَ يَصِيرُ مَحْصُورًا عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ بِعَيْنِهِ مُضَيَّقًا عَلَيْهِ وَدَاخِلًا تَحْتَ حُكْمِ ٱلْقَافِيَةِ . وَكَانُوا يَقُولُونَ لِيَكُنِ ٱلشِّعْرُ تَحْتَ حُكْمِكَ وَلَا تَكُنْ تَحْتَ حُكْمِهِ

وَمِنْهُمْ مَنْ اِذَا اَخَذَ فِي صَنْعَةِ ٱلشِّعْرِ جَمَعَ مِنَ ٱلْقَوَافِي مَا يَصْلُحُ لِذٰلِكَ ٱلْوَزْنِ ٱلَّذِي هُوَ فِيهِ . ثُمَّ اَخَذَ مُسْتَعْمَلَهَا وَشَرِيفَهَا وَمَا سَاعَدَ مَعَانِيَهُ وَوَافَقَهَا وَاَطْرَحَ مَا سِوَى ذٰلِكَ اِلَّا اَنَّهُ لَا بُدَّ اَنْ يَجْمَعَهَا لِيُكَرِّرَ فِيهَا نَظَرَهُ وَيُعِيدَ عَلَيْهَا ٱلتَّخَيُّرَ فِي حِينِ ٱلْعَمَلِ . هٰذَا ٱلَّذِي عَلَيْهِ حُذَّاقُ ٱلْقَوْمِ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ اِذَا جَاءَهُ ٱلْبَيْتُ عَفْوًا ٱنْتَبَهَ ثُمَّ رَاجَعَ فِيهِ فَنَّقَحَهُ وَصَفَّاهُ مِنْ كَدَرِهِ وَذٰلِكَ اَسْرَعُ وَاَخَفُّ عَلَيْهِ وَاَصَحُّ لِنَظَرِهِ وَاَخَفُّ لِبَالِهِ . وَاٰخَرُ لَا يُثْبِتُهُ اِلَّا بَعْدَ اِحْكَامِهِ فِي نَفْسِهِ وَتَثْقِيفِهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ وَذٰلِكَ اَشْرَفُ لِلْهِمَّةِ وَاَدَلُّ عَلَى ٱلْقَدْرِ وَاَظْهَرُ لِلْكُلْفَةِ وَاَبْعَدُ مِنَ ٱلسَّرِقَةِ . وَسَاَلْتُ شَيْخًا مِنْ شُيُوخِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فَقُلْتُ : مَا يُعِينُ عَلَى ٱلشِّعْرِ . فَقَالَ : زَهْرَةُ ٱلْبُسْتَانِ وَرَاحَةُ ٱلْحَمَّامِ وَقِيلَ : اِنَّ ٱلطَّعَامَ ٱلطَّيِّبَ وَٱلشَّرَابَ ٱلطَّيِّبَ وَسَمَاعَ ٱلْغِنَاءِ يُرَوِّقُ ٱلطَّبْعَ وَيُصَفِّي ٱلْمِزَاجَ وَيُعِينُ عَلَى ٱلشِّعْرِ . وَلَمَّا اَرَادَتْ قُرَيْشٌ مُعَارَضَةَ ٱلْقُرْاٰنِ عَكَفَ فُصَحَاؤُهُمُ ٱلَّذِينَ تَعَاطَوْا ذٰلِكَ عَلَى لُبَابِ

ٱلْبُرّ وَسُلَافِ ٱلْخَمْرِ وَلُحُومِ ٱلضَّأْنِ وَٱلْخَلْوَةِ إِلَى اَنْ بَلَغُوا مَجْهُودَهُمْ . فَلَمَّا سَمِعُوا قَوْلَ ٱلْقُرْآنِ : وَقِيلَ يَا اَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ اَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَاءُ وَقُضِيَ ٱلْاَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ. يَئِسُوا مِمَّا طَمِعُوا فِيهِ وَعَلِمُوا اَنَّهُ لَيْسَ بِكَلَامِ مَخْلُوقٍ. وَقِيلَ : مِقْوَدُ ٱلشِّعْرِ ٱلْعِتَابُ. وَذُكِرَ عَنْ اَبِي ٱلطَّيِّبِ اَنَّ مُتَشَرِّفًا تَشَرَّفَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَصْنَعُ قَصِيدَتَهُ ٱلَّتِي يَقُولُ فِي اَوَّلِهَا « جَلَلًا كَمَا بِي فَلْيَكُ ٱلتَّبْرِيحُ » وَهُوَ يَتَغَنَّى وَيَصْنَعُ فَاِذَا تَوَقَّفَ بَعْضَ ٱلتَّوَقُّفِ رَجَعَ بِٱلْاِنْشَادِ مِنْ اَوَّلِ ٱلْقَصِيدَةِ إِلَى حَيْثُ ٱنْتَهَى مِنْهَا. وَقَالُوا: ٱلْحِيلَةُ بِكَلَالِ ٱلْقَرِيحَةِ ٱنْتِظَارُ ٱلْحَمَّامِ . وَهٰذَا عِنْدِي اَنْجَعُ ٱلْاَقْوَالِ وَبِهِ اَقُولُ وَاِلَيْهِ اَذْهَبُ . وَقَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ ٱلْمُزَنِيُّ : لَا تَكُدُّوا ٱلْقُلُوبَ وَلَا تُهْمِلُوهَا وَخَيْرُ ٱلْفِكْرِ مَا كَانَ عَنْ عَقِبِ ٱلْحَمَّامِ وَاَشْحَذُوا ٱلْقُلُوبَ بِٱلْمُذَاكَرَةِ وَلَا تَيْاَسُوا مِنْ اِصَابَةِ ٱلْحِكْمَةِ اِذَا اَمْتَحَنْتُمْ بِبَعْضِ ٱلْاِسْتِغْلَاقِ فَاِنَّ مَنْ اَدْمَنَ قَرْعَ ٱلْبَابِ وَصَلَ . وَقَالَ ٱلْخَلِيعُ : مَنْ لَمْ يَاْتِ شِعْرُهُ مَعَ ٱلْوَحْدَةِ فَلَيْسَ بِشَاعِرٍ. وَقَالُوا يُرِيدُ ٱلْخَلْوَةَ وَرُبَّمَا اَرَادَ ٱلْغُرْبَةَ كَمَا قَالَ دِيكُ ٱلْجِنِّ : مَا اَصْفَى شَاعِرٌ مُغْتَرِبٌ قَطُّ

وَمِمَّا لَا يَسَعُ تَرْكُهُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ صَحِيفَةٌ كَتَبَهَا بِشْرُ بْنُ ٱلْمُعْتَمِرِ ذَكَرَ فِيهَا ٱلْبَلَاغَةَ وَدَلَّ عَلَى مَظَانِّ ٱلْكَلَامِ وَٱلْفَصَاحَةِ يَقُولُ فِيهَا : خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةَ فَرَاغِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ وَاِجَابَتِهَا اِيَّاكَ فَاِنَّ قَلِيلَ تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ اَكْرَمُ جَوْهَرًا وَاَشْرَفُ جِنْسًا وَاَحْسَنُ فِي ٱلْاَسْمَاعِ

وَاَخْلَى فِي ٱلصُّدُورِ وَاَسْلَمُ مِنْ فَاحِشِ ٱلْخَطَاءِ وَاَخْلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ وَغِرَّةٍ مِنْ لَفْظٍ شَرِيفٍ وَمَعْنًى بَدِيعٍ

وَاعْلَمْ اَنَّ ذٰلِكَ اَجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمُكَ ٱلْاَطْوَلُ بِٱلْكَدِّ وَٱلْمُجَاهَدَةِ وَبِٱلتَّكَلُّفِ وَٱلْمُعَانَدَةِ وَمَهْمَا اَخْطَاكَ لَمْ يُخْطِئْكَ اَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا قَصْدًا اَوْ حَقِيقَةً عَلَى ٱللِّسَانِ سَهْلًا كَمَاءٍ خَرَجَ مِنْ يَنْبُوعِهِ وَنَجَمَ عَنْ مَعْدِنِهِ وَاِيَّاكَ وَٱلتَّوَعُّرَ فَاِنَّ ٱلتَّوَعُّرَ يُسْلِمُكَ اِلَى ٱلتَّعْقِيدِ وَٱلتَّعْقِيدُ هُوَ ٱلَّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيَكَ وَيَشِينُ ٱلْفَاظَكَ . وَمَنْ اَرَاغَ مَعْنًى كَرِيمًا فَلْيَلْتَمِسْ لَفْظًا كَرِيمًا فَاِنَّ حَقَّ ٱلْمَعْنَى ٱلشَّرِيفِ ٱللَّفْظُ ٱلشَّرِيفُ وَمِنْ حَقِّهِمَا اَنْ يَصُونَهُمَا عَمَّا يُفْسِدُهُمَا وَيُهَجِّنُهُمَا وَعَمَّا يَعُودُ مِنْ اَجْلِهِ اَسْوَاَ حَالًا مِنْكَ قَبْلَ اَنْ يُلْتَمَسَ اِظْهَارُهُمَا وَتَرْهَنُ نَفْسَكَ فِي مُلَابَسَتِهِمَا وَقَضَاءِ حَقِّهِمَا وَكُنْ فِي اِحْدَى ثَلَاثٍ مَنَازِلَ فَاِنَّ اَوَّلَ ٱلثَّلَاثِ اَنْ يَكُونَ لَفْظُكَ رَشِيقًا عَذْبًا اَوْ فَخْمًا سَهْلًا وَيَكُونَ مَعْنَاكَ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا وَقَرِيبًا مَعْرُوفًا . اِمَّا عِنْدَ ٱلْخَاصَّةِ اِنْ كُنْتَ لِلْخَاصَّةِ قَصَدْتَ . اَوْ لِلْعَامَّةِ اِنْ كُنْتَ لِلْعَامَّةِ قَصَدْتَ وَٱلْمَعْنَى لَيْسَ يَشْرُفُ بِاَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي ٱلْخَاصَّةِ فَكَذٰلِكَ لَيْسَ يَتَضَعَّفُ بِاَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي ٱلْعَامَّةِ وَاِنَّمَا مَدَارُ ٱلشَّرَفِ مَعَ ٱلصَّوَابِ وَاِحْرَازِ ٱلْمَنْفَعَةِ وَمَعَ مُوَافَقَةِ ٱلْحَالِ وَمَعَ مَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ مِنَ ٱلْمَقَالِ . وَكَذٰلِكَ ٱللَّفْظُ ٱلْعَامِّيُّ وَٱلْخَاصِّيُّ فَاِنْ اَمْكَنَكَ اَنْ تَبْلُغَ مِنْ بَيَانِ لِسَانِكَ وَبَلَاغَةِ قَلَمِكَ وَلُطْفِ مَدَاخِلِكَ وَاقْتِدَارِكَ فِي نَفْسِكَ عَلَى اَنْ تُفْهِمَ ٱلْعَامَّةَ مَعَانِيَ

ٱلْخَاصَّةِ وَتَكْسُوهَا ٱلْأَلْفَاظَ ٱلْمُتَوَسِّطَةَ ٱلَّتِي لَا تَلْطُفُ عَنِ ٱلدَّهْمَاءِ وَلَا تَخْفَى عَنِ ٱلْأَكْفَاءِ فَأَنْتَ ٱلْبَلِيغُ ٱلتَّامُّ فَإِنْ كَانَتِ ٱلْمَنْزِلَةُ ٱلْأُولَى لَا تُؤَاتِيكَ وَلَا تَعْتَرِيكَ وَلَا تَسْمَحُ لَكَ عِنْدَ أَوَّلِ نَظَرِكَ فِي أَوَّلِ تَكَلُّفِكَ وَتَجِدُ ٱللَّفْظَةَ لَمْ تَقَعْ مَوْقِعَهَا وَلَمْ تَسْمَحْ إِلَى قَرَارِهَا وَإِلَى حَقِّهَا مِنْ أَمَاكِنِهَا ٱلْمَقْسُومَةِ لَهَا وَٱلْقَافِيَةَ لَمْ تَحِلَّ مِنْ مَرْكَزِهَا فِي نِصَابِهَا وَلَمْ تَتَّصِلْ بِشَكْلِهَا وَكَانَتْ قَلِقَةً فِي مَكَانِهَا نَافِرَةً عَنْ مَوْضِعِهَا فَلَا تُكْرِهْهَا عَلَى ٱغْتِصَابِ مَكَانِهَا وَٱلنُّزُولِ فِي غَيْرِ أَوْطَانِهَا فَإِنَّكَ إِذَا لَمْ تَتَعَاطَ قَرْضَ ٱلشِّعْرِ ٱلْمَوْزُونِ وَلَمْ تَتَكَلَّفْ ٱخْتِيَارَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ لَمْ يَعِبْكَ بِتَرْكِ ذٰلِكَ أَحَدٌ . فَإِنْ أَنْتَ تَكَلَّفْتَهُمَا وَلَمْ تَكُنْ حَاذِقًا مَطْبُوعًا وَلَا مُحْكِمًا لِشَأْنِكَ بَصِيرًا بِمَا عَلَيْكَ وَلَكَ عَابَكَ مَنْ أَنْتَ أَقَلُّ مِنْهُ عَيْبًا وَرَأَى مَنْ هُوَ دُونَكَ أَنَّهُ فَوْقَكَ . فَإِنْ أَنْتَ أُبْتُلِيتَ بِأَنْ تَتَكَلَّفَ ٱلْقَوْلَ وَتَتَعَاطَى ٱلصَّنْعَةَ وَلَمْ تَسْمَحْ لَكَ ٱلطِّبَاعُ فَلَا تَعْجَلْ وَلَا تَضْجَرْ وَدَعْهُ بَيَاضَ يَوْمِكَ وَسَوَادَ لَيْلِكَ وَعَاوِدْهُ عِنْدَ نَشَاطِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ فَرُبَّمَا لَا تَعْدَمُ ٱلْإِجَابَةَ وَٱلْمُوَاتَاةَ إِنْ كَانَ هُنَاكَ طَبِيعَةٌ أَوْ جَرَيْتَ فِي ٱلصَّنْعَةِ عَلَى عُرْفٍ فَإِنْ تَمَنَّعَ عَلَيْكَ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْ غَيْرِ حَادِثِ شُغْلٍ وَمِنْ غَيْرِ طُولِ إِهْمَالٍ فَٱلْمَنْزِلَةُ ٱلثَّالِثَةُ أَنْ تَتَحَوَّلَ عَنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ إِلَى أَشْهَى ٱلصِّنَاعَاتِ إِلَيْكَ وَأَخَفِّهَا عَلَيْكَ

إِلَّا أَنَّ ٱلنُّفُوسَ لَا تَجُودُ بِمَكْنُونِهَا مَعَ ٱلرَّغْبَةِ وَلَا تَسْمَحُ بِمَخْزُونِهَا عِنْدَ ٱلرَّهْبَةِ كَمَا تَجُودُ بِهِ مَعَ ٱلشَّهْوَةِ وَٱلْمَحَبَّةِ . وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ

ٱلْأَدَبِ : حَسْبُ ٱلشَّاعِرِ عَوْنًا عَلَى صِنَاعَتِهِ اَنْ يَجْمَعَ خَاطِرَهُ بَعْدَ اَنْ يُخْلِيَ قَلْبَهُ مِنْ فُضُولِ ٱلْاِنْفِعَالِ وَيَدَعَ ٱلْاِمْتِلَاءَ مِنَ ٱلطَّعَامِ وَٱلشَّرَابِ ثُمَّ يَأْخُذَ فِيمَا يُرِيدُ . وَاَفْضَلُ مَا ٱسْتَعَانَ بِهِ ٱلشَّاعِرُ غِنًى اَوْ فَضْلُ طَمَعٍ وَٱلْفَقْرُ آفَةُ ٱلشِّعْرِ وَاِنَّمَا ذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلشَّاعِرَ اِذَا صَنَعَ ٱلْقَصِيدَةَ وَهُوَ فِي غِنًى وَوُسْعَةٍ نَقَّحَهَا وَاَمْعَنَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا عَلَى مَهَلٍ وَاِذَا كَانَ مَعَ ذٰلِكَ طَمَعُ غِنًى قَوِيَ اِنْبِعَاثُهَا مِنْ يَنْبُوعِهَا وَجَاءَتِ ٱلرَّغْبَةُ فِيهَا فِي نِهَايَتِهَا مُحْكَمَةً . وَاِذَا كَانَ فَقِيرًا مُضْطَرًّا رَضِيَ بِعَفْوِ ٱلْكَلَامِ وَاَخَذَ مَا اَمْكَنَهُ مِنْ نَتِيجَةِ خَاطِرٍ وَلَمْ يَتَتَبَّعْ فِي بُلُوغِ مُرَادِهِ وَلَا بَلَغَ مَجْهُودَ نَعْتِهِ لِمَا يَخْفِرُهُ مِنَ ٱلْحَاجَةِ وَٱلضَّرُورَةِ فَجَاءَ دُونَ عَادَتِهِ فِي سَائِرِ اَشْعَارِهِ وَرُبَّمَا قَصَّرَ عَنْ دُونِهِ بِكَثِيرٍ . وَمِنْهُمْ مَنْ تُخْيِي ٱلْحَاجَةُ خَاطِرَهُ وَتَبْعَثُ قَرِيحَتَهُ فَيَجُودُ فَاِذَا اَوْسَعَ اَنِفَ وَصَعُبَ عَلَيْهِ عَمَلُ ٱلْاَبْيَاتِ ٱلْيَسِيرَةِ فَضْلًا عَنِ ٱلْكَثِيرَةِ وَٱلْعَادَةُ فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ فِعْلٌ عَظِيمٌ وَهِيَ طَبِيعَةٌ خَامِسَةٌ كَمَا قِيلَ فِيهَا

البحث السادس عشر

في المقاطع والمطالع

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

اِخْتَلَفَ اَهْلُ ٱلْمَعْرِفَةِ فِي ٱلْمَقَاطِعِ وَٱلْمَطَالِعِ . فَقَالَ بَعْضُهُمْ : هِيَ ٱلْفُصُولُ وَٱلْوُصُولُ بِعَيْنِهَا . فَٱلْمَقَاطِعُ اَوَاخِرُ ٱلْفُصُولِ وَٱلْمَطَالِعُ اَوَائِلُ ٱلْوُصُولِ . وَٱلْفَصْلُ آخِرُ جُزْءٍ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلْاَوَّلِ كَمَا قَدَّمْتُ

وَهُوَ ٱلْعَرُوضُ أَيْضًا . وَٱلْوُصُولُ أَوَّلُ جُزْءٍ يَلِيهِ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي .
وَقَالَ غَيْرُهُمْ : ٱلْقَاطِعُ مُنْقَطَعُ ٱلْأَبْيَاتِ وَهِيَ ٱلْقَوَافِي وَٱلْمَطَالِعُ أَوَائِلُ ٱلْأَبْيَاتِ . وَقَالَ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ فِي بَعْضِ تَآلِيفِهِ وَقَدْ ذَكَرَ ٱلتَّصْرِيعَ وَهُوَ أَنْ يَتَوَخَّى تَصْيِيرَ مَقَاطِعِ ٱلْأَجْزَاءِ فِي ٱلْبَيْتِ عَلَى سَجْعٍ أَوْ شَبِيهٍ بِهِ أَوْ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ فِي ٱلتَّصْرِيفِ . فَأَشَارَ بِهَذِهِ ٱلْعِبَارَةِ إِلَى ٱلْمَقَاطِعِ أَوْ آخِرِ أَجْزَاءِ ٱلْبَيْتِ كَمَا تَرَى . وَقَدْ نَجِدُ مِنَ ٱلشِّعْرِ ٱلْمُرَصَّعِ مَا يَكُونُ سَجْعُهُ غَيْرَ مَقَاطِعِ ٱلْأَجْزَاءِ نَحْوَ قَوْلِ أُمِّ مَعْدَانَ فِي مَرْثِيَةٍ لَهَا :

فِعْلُ ٱلْجَمِيلِ وَتَفْرِيجُ ٱلْجَلِيلِ وَإِ ء م طَاءُ ٱلْجَزِيلِ ٱلَّذِي لَمْ يُعْطِهِ أَحَدُ

فَٱلسَّجْعُ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱللَّامُ ٱلْمَطَّرِدَةُ فِي ثَلَاثَةِ أَمَاكِنَ مِنْهُ وَآخِرُ ٱلْأَجْزَاءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْمَقَاطِعُ عَلَى شَرِيطَةِ ٱلْيَاءِ ٱلَّتِي قَبْلَ ٱللَّامِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُجْعَلَ ٱلسَّجْعُ هُوَ ٱلْيَاءَ ٱلْمُلْتَزَمَةَ فَحِينَئِذٍ عَلَى أَنَّا لَا نَعْلَمُ حَرْفَ ٱلسَّجْعِ يَكُونُ إِلَّا مُتَأَخِّرًا فِي مِثْلِ هٰذَا ٱلْمَكَانِ وَمِثْلُ هٰذَا فِي أَنْوَاعِ ٱلْأَعَارِيضِ كَثِيرٌ

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ ٱلْمَقْطَعَ وَٱلْمَطْلَعَ أَوَّلُ ٱلْقَصِيدَةِ وَآخِرُهَا وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِشَيْءٍ لِأَنَّا نَجِدُ فِي كَلَامِ جَهَابِذَةِ ٱلنُّقَّادِ إِذَا وَصَفُوا قَصِيدَةً قَالُوا : حَسَنَةُ ٱلْمَقَاطِعِ جَيِّدَةُ ٱلْمَطَالِعِ . وَلَا يَقُولُونَ ٱلْمَقْطَعِ وَٱلْمَطْلَعِ . وَفِي هٰذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ لِأَنَّ ٱلْقَصِيدَةَ إِنَّمَا لَهَا أَوَّلٌ وَاحِدٌ وَآخِرٌ وَاحِدٌ وَلَا يَكُونُ لَهَا أَوَائِلُ وَأَوَاخِرُ إِلَّا عَلَى مَا قَدَّمْتُ مِنْ ذِكْرِ ٱبْتِدَاآتِ ٱلْأَبْيَاتِ أَوِ ٱلْأَقْسِمَةِ وَٱنْتِهَائِهَا

وَسَأَلْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ السَّمِينِ عَنْ هٰذَا فَقَالَ: اَلْمَقَاطِعُ أَوَاخِرُ الْأَبْيَاتِ وَالْمَطَالِعُ أَوَائِلُهَا. قَالَ وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ: حَسَنُ الْمَقَاطِعِ جَيِّدُ الْمَطَالِعِ أَنْ يَكُونَ مُنْقَطَعُ الْبَيْتِ وَهُوَ الْقَافِيَةُ مُتَمَكِّنًا غَيْرَ قَلِقٍ وَلَا مُتَعَلِّقٍ بِغَيْرِهِ وَهٰذَا هُوَ حُسْنُهُ. وَالْمَطْلَعُ هُوَ أَوَّلُ الْبَيْتِ وَجُودَتُهُ أَنْ يَكُونَ دَالًّا عَلَى مَا بَعْدَهُ كَالتَّصْدِيرِ وَمَا شَاكَلَهُ. وَرَوَى الْجَاحِظُ أَنَّ حَبِيبَ بْنَ شُبَّةَ كَانَ يَقُولُ: اَلنَّاسُ مُوَكَّلُونَ بِتَفْضِيلِ جُودَةِ الْاِبْتِدَاءِ وَبِمَدِيحِ صَاحِبِهِ وَأَنَا مُوَكَّلٌ بِتَفْضِيلِ جُودَةِ الْمَقْطَعِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ. وَحَظُّ جُودَةِ الْقَافِيَةِ وَإِنْ كَانَتْ كَلِمَةً وَاحِدَةً أَرْفَعُ مِنْ حَظِّ سَائِرِ الْبَيْتِ أَوِ الْقَصِيدَةِ. حَكَاهُ الْجَاحِظُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَقْطَعَ آخِرُ الْبَيْتِ أَوِ الْقَصِيدَةِ وَهُوَ بِالْبَيْتِ أَلْيَقُ لِذِكْرِ حَظِّ الْقَافِيَةِ

وَحُكِيَ أَيْضًا عَنْ صَدِيقٍ لَهُ أَنَّهُ قَالَ لِلْعُتَابِيِّ مَا الْبَلَاغَةُ. فَقَالَ: كُلُّ كَلَامٍ أَفْهَمَكَ صَاحِبُهُ حَاجَتَهُ فِيهِ مِنْ غَيْرِ إِعَادَةٍ وَلَا حُبْسَةٍ وَلَا اسْتِعَانَةٍ فَهُوَ بَلِيغٌ. قَالَ: قُلْتُ قَدْ عَرَفْتُ الْإِعَادَةَ وَالْحُبْسَةَ فَمَا الْاِسْتِعَانَةُ فَقَالَ: أَمَا تَرَاهُ إِذَا تَحَدَّثَ قَالَ عِنْدَ مَقَاطِعِ كَلَامِهِ يَا هٰذَا اسْمَعْ مِنِّي وَاسْتَمِعْ إِلَيَّ وَافْهَمْ وَأَلَسْتَ تَفْهَمُ هٰذَا كُلُّهُ عِيٌّ وَفَسَادٌ

قَالَ صَاحِبُ الْكِتَابِ وَهٰذَا الْقَوْلُ مِنَ الْعُتَابِيِّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَقَاطِعَ أَوَاخِرُ الْفُصُولِ. وَمِثْلُهُ مَا حَكَاهُ الْجَاحِظُ عَنِ الْمَأْمُونِ إِنَّهُ قَالَ لِسَعِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ وَاللهِ إِنَّكَ لَتُصْغِي لِحَدِيثِي وَتَقِفُ عِنْدَ

مَقَاطِعِ كَلَامِي . وَإِذَا جُعِلَ ٱلْمَقْطَعُ وَٱلْمَطْلَعُ مَصْدَرَيْنِ بِمَعْنَى ٱلْقَطْعِ وَٱلطُّلُوعِ كَانَتِ ٱلطَّاءُ وَٱللَّامُ مَفْتُوحَتَيْنِ وَإِذَا أُرِيدَ مَوْضِعُ ٱلْقَطْعِ وَٱلطُّلُوعِ كُسِرَتِ ٱللَّامُ خَاصَّةً وَهُوَ مَسْمُوعٌ عَلَى غَيْرِ ٱلْقِيَاسِ

البحث السابع عشر

في المبتدإ او الخروج والنهاية

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

قِيلَ لِبَعْضِ ٱلْحُذَّاقِ بِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ لَقَدْ طَارَ ٱسْمُكَ وَٱشْتَهَرَ فَقَالَ لِأَنِّي أَقْلَلْتُ ٱلْحَقَّ وَأَصَبْتُ مَقَاصِدَ ٱلْكَلَامِ وَقَرَّطْتُ نُكَتَ ٱلْأَغْرَاضِ بِحُرِّ ٱلْقَوَافِي وَٱلْخَوَاتِمِ وَلُطْفِ ٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَدْحِ وَٱلْهِجَاءِ وَقَدْ صَدَقَ لِأَنَّ حُسْنَ ٱلِٱفْتِتَاحِ دَاعِيَةُ ٱلِٱنْشِرَاحِ وَمَطِيَّةُ ٱلنَّجَاحِ وَلَطَافَةَ ٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَدْحِ سَبَبُ ٱرْتِيَاحِ ٱلْمَمْدُوحِ وَخَاتِمَةَ ٱلْكَلَامِ أَبْقَى فِي ٱلسَّمْعِ وَأَلْصَقُ بِٱلنَّفْسِ لِقُرْبِ ٱلْعَهْدِ بِهَا فَإِنْ حَسُنَتْ حَسُنَ وَإِنْ قَبُحَتْ قَبُحَ وَٱلْأَعْمَالُ بِخَوَاتِمِهَا . وَيَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ يُجَوِّدَ ٱبْتِدَاءَ شِعْرِهِ فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَا يَقْرَعُ ٱلسَّمْعَ بِهِ وَبِهِ يُسْتَدَلُّ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ . وَقَدِ ٱخْتَارَ ٱلنَّاسُ كَثِيرًا مِنَ ٱلِٱبْتِدَاآتِ سَأَذْكُرُ هٰهُنَا مَا أَمْكَنَ مِنْهَا لِيُسْتَدَلَّ بِهِ نَحْوُ قَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ « قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ » وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَفْضَلُ ٱبْتِدَاءٍ قَالَهُ شَاعِرٌ لِأَنَّهُ وَقَفَ وَٱسْتَوْقَفَ وَبَكَى وَٱسْتَبْكَى وَذَكَرَ ٱلْحَبِيبَ وَٱلْمَنْزِلَ فِي مِضْرَاعٍ وَاحِدٍ . وَقَوْلِهِ « أَلَا عِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ ٱلْبَالِي » وَمِثْلُهُ

قَوْلُ ٱلْقَطَامِيِّ « إِنَّا مُحَيُّوكَ فَاسْلَمْ أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ » وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةُ نَاصِبِ وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ ٱلْكَوَاكِبِ

وَقَوْلِهِ :

كَتَمْتُكَ لَيْلًا بِٱلْجُمُومَيْنِ سَاهِرًا وَهَمَّيْنِ هَمًّا مُسْتَكِنًّا وَظَاهِرًا

هٰذَا بَعْضُ مَا ٱخْتِيرَ لِلْقُدَمَاءِ وَمِمَّا ٱخْتِيرَ فِي ٱلرِّثَاءِ قَوْلُ أَوْسِ ٱبْنِ حَجَرٍ :

أَيُّهَا ٱلنَّفْسُ أَجْمِلِي جَزَعًا إِنَّ ٱلَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

وَمِمَّا ٱخْتِيرَ لِلْمُحْدَثِينَ قَوْلُ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ « أَبَى طَلَلٌ بِٱلْجِزْعِ أَنْ يَتَكَلَّمَا » وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَفْضَلُ ٱبْتِدَاءٍ قَالَهُ مُحْدَثٌ . وَقَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

لِمَنْ دِمَنٌ تَزْدَادُ طِيبَ نَسِيمِ
عَلَى طُولِ مَا أَقْوَتْ وَحُسْنَ رُسُومِ

وَقَوْلُهُ :

رَسْمُ ٱلْكَرَى بَيْنَ ٱلْجُفُونِ مُحِيلُ عَفَّى عَلَيْهِ بُكًا عَلَيْكَ طَوِيلُ

وَقَوْلُهُ :

أَعْطَتْكَ رَيْحَانَهَا ٱلْعُقَارُ وَحَانَ مِنْ لَيْلِنَا ٱنْسِفَارُ

وَقَوْلُهُ :

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ ٱللَّوْمَ إِغْرَاءُ وَدَاوِنِي بِٱلَّتِي كَانَتْ هِيَ ٱلدَّاءُ

وَمِمَّا أَشْبَهَ ذٰلِكَ لَوْ تَقَصَّيْتُهُ لَطَالَ وَكَثُرَ . وَلْيَرْغَبْ عَنِ ٱلتَّعْقِيدِ فِي ٱلِٱبْتِدَاءِ فَإِنَّهُ أَوَّلُ ٱلْعِيِّ وَدَلِيلُ ٱلْفَهْمِ . وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ دِعْبِلَ

ٱبْنَ عَلِيٍّ ٱلْخُزَاعِيَّ وَرَدَ حِمْصَ فَقَصَدَ دَارَ عَبْدِ ٱلسَّلَامِ بْنِ رَغْبَانَ دِيكِ ٱلْجِنِّ فَكَتَمَ نَفْسَهُ عَنْهُ خَوْفًا مِنْ قَوَارِصِهِ فَقَالَ : مَا لَهُ يَسْتَتِرُ وَهُوَ أَشْعَرُ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ ٱلْيَسَ ٱلْقَائِلَ :

بِهَا غَيْرُ مَعْدُولٍ فِدًا وَحِمَارُهَا ۝ وَهَلْ بِعَشِيَّاتِ ٱلْغُبُوقِ ٱبْتِكَارُهَا

فَظَهَرَ إِلَيْهِ وَٱعْتَذَرَ إِلَيْهِ وَأَحْسَنَ . ثُمَّ تَنَاشَدَا فَأَنْشَدَ دِيكُ ٱلْجِنِّ ٱبْتِدَاءَ قَصِيدَةٍ :

كَأَنَّهَا مَا كَأَنَّهُ خَلَلُ ٱلْخَتَمِ ۝ وَقْفُ ٱلْهَلُوكِ أَنْ بَغَمَا

فَقَالَ لَهُ دِعْبِلٌ : أَسْكَتَ فَوَاللهِ مَا ظَنَنْتُكَ تُتِمُّ ٱلْبَيْتَ إِلَّا وَقَدْ غُشِيَ عَلَيْكَ أَوْ تَشَكَّيْتَ دِمَاغَكَ وَلَكَأَنَّكَ فِي جَهَنَّمَ تُخَاطِبُ ٱلزَّبَانِيَةَ أَوْ تَخَبَّطَكَ ٱلشَّيْطَانُ مِنَ ٱلْمَسِّ . وَإِنَّمَا أَرَادَ ٱلدِّيكُ أَنْ يَهُولَ عَلَيْهِ وَيَقْرَعَ سَمْعَهُ عَسَى أَنْ يُزْعِجَهُ أَوْ يَرُوعَهُ فَسَمِعَ مِثْلَهُ مَا كَرِهَ . وَلَعَمْرِي مَا ظَلَمَهُ دِعْبِلٌ وَلَقَدْ أَبْعَدَ مَسَافَةَ ٱلْكَلَامِ وَخَالَفَ ٱلْعَادَةَ وَهٰذَا بَيْتٌ قَبِيحٌ مِنْ جِهَاتٍ مِنْهَا إِضْمَارُ مَا لَمْ يُذْكَرْ قَبْلُ وَلَا جَرَتِ ٱلْعَادَةُ بِمِثْلِهِ فَيُعْذَرَ وَلَا كَثُرَ ٱسْتِعْمَالُهُ فَيُشْهَرَ مَعَ إِحَالَةِ ٱلتَّشْبِيهِ عَلَى تَشْبِيهٍ ثَقُلَ تَجَانُسُهُ ٱلَّذِي هُوَ حَشْوٌ فَارِغٌ لَوْ طُرِحَ مِنَ ٱلْبَيْتِ كَانَ أَحْزَمَ وَٱسْتَدْعَى قَافِيَةً لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِفَسَادِ ٱلْمَعْنَى وَٱسْتِحَالَةِ ٱلتَّشْبِيهِ مَا ٱلَّذِي يُرِيدُ بِبُغَامِهِ فِي تَشْبِيهِ ٱلْوَقْفِ وَهُوَ ٱلسِّوَارُ وَلِمَ كَانَ وَقْفُ ٱلْهَلُوكِ خَاصَّةً . وَمِثْلُهُ قَوْلُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱلزَّيَّاتِ يَصِفُ نَاقَتَهُ فِي أَوَّلِ قَصِيدَةٍ مَدَحَ بِهَا ٱلْحَسَنَ بْنَ سَهْلٍ :

كَأَنَّهَا حِينَ تَنَاءَى خَطْوُهَا ۝ أَجْشُ مَوْشِيُّ ٱلشَّوَى يَرْعَى ٱلْقُلَلْ

فَالْبَيْتُ الْاَوَّلُ فِي مُخَالَفَةِ الْعَادَةِ لَازِمٌ وَمَعَ ذٰلِكَ قَوْلُهُ « حِينَ تَنَاءَى خَطُوهَا » فَقَصَرَ بِهَا وَهُوَ يَقْدِرُ اَنْ يَقُولَ « حِينَ تَدَانَى خَطُوهَا » وَخَالَفَ جَمِيعَ الشُّعَرَاءِ بِذٰلِكَ لِاَنَّهُمْ يَصِفُونَ النَّاقَةَ بِالظَّلِيمِ وَالْحِمَارِ وَالثَّوْرِ بَعْدَ الْكَلَالِ غُلُوًّا وَمُبَالَغَةً فِي الْوَصْفِ . هٰذَا هُوَ الْجَيِّدُ فَاِنْ لَمْ يَفْعَلُوا لَمْ يَذْكُرُوا اَنَّهَا بَذَلَتْ جَهْدَهَا وَاسْتَفْرَغَتْ جَمِيعَ مَا عِنْدَهَا بَلْ يَدَّعُونَ التَّاْوِيلَ مُحْتَمِلَ الزِّيَادَةِ . ثُمَّ قَالَ « تَرْعَى الْقُلَلَ » وَالثَّوْرُ لَا يَرْعَى قُلَلَ الْجِبَالِ وَاِنَّمَا ذٰلِكَ الْوَعِلُ لِاَنَّهُ لَا يُسْهِلُ وَالثَّوْرُ فِي السُّهُولِ وَمَوَاضِعِ الرِّمَالِ اِلَّا اَنْ يُرِيدَ بِالنَّبَاتِ اَعَالِيَهُ فَرُبَّمَا اَنْ يَكُونَ الْقُلَلُ نَبْتًا بِعَيْنِهِ اَوْ مَكَانًا فَقَدْ يُمْكِنُ وَمَا سَمِعْتُ بِهِمَا

وَمِنَ الشُّعَرَاءِ مَنْ يَقْطَعُ الْمِصْرَاعَ الثَّانِي مِنَ الْاَوَّلِ اِذَا اَبْتَدَاَ شِعْرًا وَاَكْثَرُ مَا يَقَعُ ذٰلِكَ فِي النَّسِيبِ كَاَنَّهُ يَدُلُّ بِذٰلِكَ عَلَى وَلَهِ وَشِدَّةِ حَالٍ كَقَوْلِ اَبِي الطَّيِّبِ :

جَلَلًا كَمَا بِي فَلْيَكُ التَّبْرِيحُ اِغْذَاءُ ذَا الرَّشَإِ الْاَغَنِّ الشِّيحُ

فَهٰذَا اعْتِذَارُ مَنِ اعْتَذَرَ لَهُ لَوْ وَقَعَ مِثْلُ هٰذَا فِي الرِّثَاءِ وَالتَّفَجُّعِ لَكَانَ مَوْضِعُهُ اَيْضًا وَكَذٰلِكَ عِنْدَ الْعَظَائِمِ مِنَ الْاُمُورِ وَالنَّوَازِلِ الشَّدِيدَةِ . وَلْيَحْتَرِسْ مِمَّا يَنَالُهُ فِيهِ زِيَادَةٌ اَوْ يَقَعُ عَلَيْهِ مَطْعَنٌ فَاِنَّ اَبَا تَمَّامٍ امْتَدَحَ اَبَا دُلَفٍ بِحَضْرَةِ مَنْ كَانَ يَكْرَهُهُ وَافْتَتَحَ قَصِيدَتَهُ الْمَشْهُورَةَ « عَلَى مِثْلِهَا مِنْ اَرْبُعٍ وَمَلَاعِبِ » وَكَانَتْ فِيهِ حُبْسَةٌ شَدِيدَةٌ . فَقَالَ الرَّجُلُ لَعَنَهُ اللّٰهُ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ اَجْمَعُونَ .

فَدَهِشَ أَبُو تَمَّامٍ حَتَّى تَبَيَّنَ ذٰلِكَ عَلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ مَأْخُوذٍ بِمَا قِيلَ وَلَا هُوَ مِمَّا يُدْخِلُ عَلَيْهِ عَيْبًا. وَلَا يَلْزَمُهُ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ إِلَّا أَنَّ ٱلْحَوْطَةَ وَٱلتَّحَفُّظَ مِنَ ٱلْحُجَّةِ ٱلْبَارِدَةِ أَفْضَلُ وَٱلتَّفْرِيطَ أَرْذَلُ وَأَخْبَثُ. وَدَخَلَ جَرِيرٌ عَلَى عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَأَنْشَدَهُ « أَتَصْحُو أَمْ فُؤَادُكَ غَيْرُ صَاحِي » فَقَالَ لَهُ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ : بَلْ فُؤَادُكَ يَا ٱبْنَ ٱلْفَاعِلَةِ كَأَنَّهُ يَسْتَثْقِلُ هٰذِهِ ٱلْمُوَاجَهَةَ وَإِلَّا فَقَدْ عُلِمَ أَنَّ ٱلشَّاعِرَ إِنَّمَا خَاطَبَ نَفْسَهُ وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْجِهَةِ بِعَيْنِهَا عَابُوا عَلَى أَبِي ٱلطَّيِّبِ قَوْلَهُ لِكَافُورٍ أَوَّلَ لِقَائِهِ مُبْتَدِئًا وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا يُخَاطِبُ نَفْسَهُ لَا كَافُورًا:

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى ٱلْمَوْتَ شَافِيَا
وَحَسْبُ ٱلْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا

فَٱلْعَيْبُ مِنْ بَابِ ٱلتَّأَدُّبِ وَحُسْنِ ٱلسِّيَاسَةِ لَازِمٌ لِأَبِي ٱلطَّيِّبِ فِي هٰذَا ٱلِٱبْتِدَاءِ لَاسِيَّمَا وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ أَعْنِي جُودَةَ ٱلِٱبْتِدَاءِ مِنْ أَجَلِّ مَحَاسِنِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ وَأَشْرَفِ مَآثِرِ شِعْرِهِ إِذَا ذُكِرَ ٱلشِّعْرُ. وَدَخَلَ ذُو ٱلرُّمَّةِ عَلَى عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فَٱسْتَنْشَدَهُ شَيْئًا مِنْ شِعْرِهِ فَأَنْشَدَهُ « مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا ٱلْمَاءُ يَنْسَكِبُ » وَكَانَ بِعَيْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ رِيشَةٌ فَهِيَ تَدْمَعُ فَتَوَهَّمَ أَنَّهُ خَاطَبَهُ أَوْ عَرَّضَ بِهِ فَقَالَ: وَمَا سُؤَالُكَ يَا جَاهِلُ عَنْ هٰذَا وَمَقَتَهُ وَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ وَكَذٰلِكَ فَعَلَ ٱبْنُهُ هِشَامٌ بِأَبِي ٱلنَّجْمِ وَقَدْ أَنْشَدَهُ فِي أُرْجُوزَةٍ:

صَفْرَاءُ قَدْ كَادَتْ وَلَمَّا تَفْعَلِ فَكَأَنَّهَا فِي ٱلْأُفْقِ عَيْنُ ٱلْأَحْوَلِ

وَكَانَ هِشَامٌ أَحْوَلَ فَأَمَرَ فَحُجِبَ عَنْهُ مُدَّةً وَقَدْ كَانَ قَبْلَ

ذٰلكَ مِنْ خَاصَّتِهِ يَسْمُرُ عِنْدَهُ وَهُوَ يُمَازِحُهُ وَاِنَّمَا يَأْتِي الشَّاعِرُ بِهٰذِهِ الْاَشْيَاءِ اِمَّا مِنْ غَفْلَةٍ فِي الطَّبْعِ اَوْ مِنِ اسْتِغْرَاقٍ فِي الصَّنْعَةِ وَشُغْلٍ هَاجِسٍ بِالْعَمَلِ يَذْهَبُ مَعَ حُسْنِ الْقَوْلِ حَيْثُ ذَهَبَ. وَالْفَطِنُ الْحَاذِقُ يَخْتَارُ لِلْاَوْقَاتِ مَا يُشَاكِلُهَا وَيَنْظُرُ فِي اَحْوَالِ الْمُخَاطِبِينَ فَيَقْصِدُ مَحَابَّهُمْ وَيَمِيلُ اِلَى شَهَوَاتِهِمْ وَاِنْ خَالَفَتْ شَهَوَاتِهِ وَيَتَفَقَّدُ مَا يَكْرَهُونَ سَمَاعَهُ فَيَجْتَنِبُ ذِكْرَهُ. اَلَا تَرَى اَنَّ بَعْضَ الْمُلُوكِ قَالَ لِاَحَدِ الشُّعَرَاءِ وَقَدْ اَوْرَدَ بَيْتًا ذَكَرَ فِيهِ « لَوْ خُلِّدَ اَحَدٌ لِكَرَمِ لَكُنْتَ مُخَلَّدًا بِكَرَمِكَ » وَقَالَ كَلَامًا نَحْوَ هٰذَا . فَقَالَ الْمَلِكُ : اِنَّ الْمَوْتَ حَقٌّ وَلَنَا مِنْهُ نَصِيبٌ. غَيْرَ اَنَّ الْمُلُوكَ تَكْرَهُ مَا يُنَكِّدُ عَيْشَهَا وَيُنَغِّصُ لَذَّتَهَا فَلَا تَأْتِهَا بِشَيْءٍ مِمَّا تَكْرَهُ ذِكْرَهُ

وَمِنَ الْمَشْهُورِ اَنَّ النُّعْمَانَ بْنَ الْمُنْذِرِ اَتَى شَجَرَةً ظَلِيلَةً مُلْتَفَّةَ الْاَغْصَانِ فِي مَرْجٍ حَسَنٍ كَثِيرِ الشَّقَائِقِ وَكَانَ مُعْجَبًا بِهَا وَاِلَيْهِ اُضِيفَتْ فَقِيلَ شَقَائِقُ النُّعْمَانِ . فَنَزَلَ فَاَمَرَ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَاُحْضِرَا وَجَلَسَ لِلَذَّتِهِ . فَقَالَ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ الْعَبَادِيُّ وَكَانَ كَاتِبَهُ : اَتَعْرِفُ اَبْيَاتَ اللَّعْنِ مَا تَقُولُ هٰذِهِ الشَّجَرَةُ . قَالَ : وَمَا تَقُولُ . قَالَ تَقُولُ :

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ اَنَاخُوا حَوْلَنَا ... يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ بِالْمَاءِ الزُّلَالْ
عَطَفَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمْ فَثَوَوْا ... وَكَذَاكَ الدَّهْرُ حَالٌ بَعْدَ حَالْ
مَنْ رَاَنَا فَلْيُوَطِّنْ نَفْسَهُ ... اِنَّمَا الدُّنْيَا عَلَى فَرْطِ الزَّوَالْ

كَاَنَّهُ قَصَدَ مَوْعِظَتَهُ فَنَغَّصَ عَلَيْهِ مَا كَانَ فِيهِ وَاَمَرَ بِالطَّعَامِ

وَٱلشَّرَابِ فَرُفِعَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَٱرْتَحَلَ مِنْ فَوْرِهِ وَلَمْ يَنْتَفِعْ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ . فَهٰذَا شَأْنُ ٱلْمُلُوكِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْجِهَةِ أَكْثَرَ ٱلنَّاسُ مِنَ ٱلدُّعَاءِ لَهُمْ بِطُولِ ٱلْعُمْرِ حَتَّى بَلَغُوا بِهِمْ مَا لَا يُمْكِنُ فَقَالُوا : عِشْ أَبَدًا وَٱسْلَمْ مَدَى ٱلدَّهْرِ وَأَبْقَ بَقَاءَ ٱلزَّمَانِ . وَٱعْتَرَضَ ٱلنُّقَّادُ فِي ذٰلِكَ وَٱخْتَلَفُوا بِحَسَبِ مَا يَنْتَحِلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي قَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ :

يَا أَمِينَ ٱللّٰهِ عِشْ أَبَدًا ... دُمْ عَلَى ٱلْأَيَّامِ وَٱلزَّمَنِ
أَنْتَ تَبْقَى وَٱلْفَنَاءُ لَنَا ... فَإِذَا أَفْنَيْتَنَا فَكُنِ

وَفِي كَثِيرٍ مِثْلِهِ فَإِذَا خَرَجَ ٱلْكَلَامُ عَنْ حَدِّ ٱلْإِمْكَانِ فَإِنَّمَا يُرَادُ بِهِ بُلُوغُ ٱلْغَايَةِ لَا غَيْرُ ذٰلِكَ . وَمِنْ قَبِيحِ مَا وَقَعَ لِأَبِي نُوَاسٍ ٱلَّذِي أَسَاءَ فِيهِ أَدَبَهُ وَخَالَفَ بِهِ مَذْهَبَهُ أَنَّ بَعْضَ بَنِي بَرْمَكٍ بَنَى دَارًا ٱسْتَفْرَغَ فِيهَا مَجْهُودَهُ وَٱنْتَقَلَ إِلَيْهَا . فَصَنَعَ أَبُو نُوَاسٍ لِذٰلِكَ ٱلْحِينِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ قَصِيدَةً يَمْدَحُهُ بِهَا وَيَقُولُ أَوَّلُهَا :

أَرْبَعِ ٱلْبِلَى إِنَّ ٱلْخُشُوعَ لَبَادِ ... عَلَيْكَ وَإِنِّي لَمْ أَخُنْكَ وَدَادِي

وَخَتَمَهَا أَوْ كَادَ بِقَوْلِهِ :

سَلَامٌ عَلَى ٱلدُّنْيَا إِذَا مَا فُقِدْتُمُ ... بَنِي بَرْمَكٍ مِنْ رَائِحِينَ وَغَادِي

فَتَطَيَّرَ ٱلْبَرْمَكِيُّ وَٱشْمَأَزَّ ثُمَّ قَالَ : نَعَيْتَ إِلَيْنَا أَنْفُسَنَا يَا أَبَا نُوَاسٍ فَمَا كَانَتْ إِلَّا مُدَيْدَةٌ حَتَّى أَوْقَعَ بِهِمِ ٱلرَّشِيدُ وَصَحَّتْ بِهِمِ ٱلطِّيَرَةُ . وَزَعَمَ أَنَّ أَبَا نُوَاسٍ قَصَدَ ٱلتَّشَاؤُمَ لَهُمْ لِشَيْءٍ كَانَ فِي نَفْسِهِ مِنْ جَعْفَرٍ وَلَا أَظُنُّ ذٰلِكَ صَحِيحًا لِأَنَّ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةَ مِنْ جَيِّدِ شِعْرِهِ

ٱلَّذِي لَا اَشُكُّ اَنْ يُحْتَفَلَ لَهُ. اَللّٰهُمَّ اِلَّا اَنْ يَصْنَعَ ذٰلِكَ حِيلَةً لَهُ وَسِتْرًا عَلَى مَنْ قَصَدَ اِلَيْهِ بِذٰلِكَ . وَلِلشُّعَرَاءِ مَذَاهِبُ فِي اِفْتِتَاحِ ٱلْقَصَائِدِ بِٱلنَّسِيبِ اِلَى مَا فِيهِ عَطْفُ ٱلْقُلُوبِ وَٱسْتِدْعَاءُ ٱلْقَبُولِ بِحَسَبِ مَا فِي ٱلطِّبَاعِ مِنْ حُبِّ ٱلْغَزَلِ وَٱلْمَيْلِ اِلَى ٱللَّهْوِ فَاِنَّ ذٰلِكَ ٱسْتِدْرَاجٌ اِلَى مَا بَعْدَهُ. وَمَقَاصِدُ ٱلنَّاسِ تَخْتَلِفُ فَطَرِيقُ اَهْلِ ٱلْبَادِيَةِ ذِكْرَانُ ٱلرَّحِيلِ وَٱلِٱنْتِقَالِ وَتَوَقُّعُ ٱلْبَيْنِ وَٱلِٱشْفَاقُ مِنْهُ وَصِفَةُ ٱلطُّلُولِ وَٱلْحُمُولِ وَٱلْاِبِلِ وَلَمْعِ ٱلْبَرْقِ وَمَرِّ ٱلنَّسِيمِ وَذِكْرُ ٱلْمِيَاهِ ٱلَّتِي يَلْتَقُونَ عَلَيْهَا وَٱلرِّيَاضِ ٱلَّتِي مِنْ خُزَامَى وَاُقْحُوَانٍ وَبَهَارٍ وَعَرَارٍ وَمَا اَشْبَهَ مِنْ زَهْرِ ٱلْبَرِّيَّةِ . وَاَهْلُ ٱلْحَاضِرَةِ يَأْتِي تَغَزُّلُهُمْ فِي ٱلصُّدُودِ وَٱلْهِجْرَانِ وَٱلرُّقَبَاءِ وَمَنَعَةِ ٱلْحَرَسِ وَٱلْاَبْوَابِ وَفِي ذِكْرِ ٱلشَّرَابِ وَٱلنَّدَامَى وَٱلنَّسْرِينِ وَٱلنَّيْلُوفَرِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلنَّوَاوِيرِ ٱلْبَلَدِيَّةِ وَٱلرَّيَاحِينِ ٱلْبُسْتَانِيَّةِ فِي تَشْبِيهِ ٱلتُّفَّاحِ وَٱلتُّحَيَّةِ بِهِ وَدَسِّ ٱلْكُتُبِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ مِمَّا هُمْ مُنْفَرِدُونَ بِهِ

وَٱلْعَادَةُ اَنْ يَذْكُرَ ٱلشَّاعِرُ مَا قَطَعَ مِنَ ٱلْمَفَاوِزِ وَمَا اَنْضَى مِنَ ٱلرِّكَابِ وَمَا تَجَشَّمَ مِنْ هَوْلِ ٱللَّيْلِ وَسَهَرِهِ وَطُولِ ٱلنَّهَارِ وَهَجِيرِهِ وَقِلَّةِ ٱلْمَاءِ وَغُؤُورِهِ. ثُمَّ يَخْرُجُ اِلَى مَدْحِ ٱلْمَقْصُودِ لِيُوجِبَ عَلَيْهِ حَقَّ ٱلْقَصْدِ وَذِمَامَ ٱلْقَاصِدِ وَيَسْتَحِقَّ مِنْهُ ٱلْمُكَافَاةَ. وَكَانُوا قَدِيمًا اَصْحَابَ خِيَامٍ يَنْتَقِلُونَ مِنْ مَوْضِعٍ اِلَى آخَرَ فَلِذٰلِكَ كَانَ اَوَّلُ مَا يَبْتَدِئُونَ اَشْعَارَهُمْ بِذِكْرِ ٱلدِّيَارِ وَتِلْكَ دِيَارُهُمْ وَلَيْسَتْ كَٱبْنِيَةِ ٱلْحَاضِرَةِ فَلَا مَعْنَى لِذِكْرِ ٱلْحَضَرِيِّ ٱلدِّيَارَ اِلَّا مَجَازًا لِاَنَّ ٱلْحَاضِرَةَ لَا تَنْسِفُهَا

ٱلرِّيحُ وَلَا تَخْطُوهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ بَعْدَ زَمَانٍ طَوِيلٍ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَعِيشَهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ هٰذَا ٱلْجِيلِ وَأَحْسَنُ مَا ٱسْتَعْمَلَهُ ٱلْمُوَلَّدُونَ ٱلْمُحْدَثُونَ مَا نَاسَبَ قَوْلَ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ:

سَقَى ٱللهُ قَصْرًا بِٱلرُّصَافَةِ شَاقَنِي ... بِأَعْلَاهُ قَصْرِيُّ ٱلدِّيَارِ رُصَافِي

أَشَارَ بِقُضْبَانٍ مِنَ ٱلدُّرِّ قُمِّعَتْ ... يَوَاقِيتَ حُمْرًا فَٱسْتَبَاحَ عَفَافِي

وَكَانَتْ دَوَابُّهُمُ ٱلْإِبِلَ لِكَثْرَتِهَا وَعَدَمِ غَيْرِهَا وَصَبْرِهَا عَلَى ٱلتَّعَبِ وَقِلَّةِ ٱلْمَاءِ وَٱلْعَلَفِ فَلِهٰذَا أَيْضًا خَصُّوهَا بِٱلذِّكْرِ دُونَ غَيْرِهَا وَلَمْ يَكُنْ أَحَدُهُمْ يَرْضَى بِٱلْكَذِبِ فَيَصِفَ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ كَمَا يَفْعَلُ ٱلْمُحْدَثُونَ أَلَا تَرَى أَمْرَأَ ٱلْقَيْسِ لَمَّا كَانَ مَلِكًا كَيْفَ ذَكَرَ خَيْلَ ٱلْبَرِيدِ وَٱلْفَرَانِقِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَسْتَغْنِ عَنْ ذِكْرِ ٱلْإِبِلِ لِلْعَادَةِ ٱلَّتِي جَرَتْ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ فَقَالَ يَصِفُ رَحِيلَهُ إِلَى قَيْصَرَ:

إِذَا قُلْتُ رَوِّحْنَا أَرَنَّ فَرَانِقٌ

عَلَى هَزِجٍ وَاهِي ٱلْأَبَاجِلِ أَبْتَرَا

عَلَى كُلِّ مَقْصُوصِ ٱلذُّنَابَى مُعَاوِدٍ

بَرِيدَ ٱلسُّرَى بِٱللَّيْلِ مِنْ خَيْرِ بَرْبَرَا

إِذَا رُعْتَهُ مِنْ جَانِبَيْهِ كِلَيْهِمَا

مَشَى ٱلْهَيْدَى فِي دَفِّهِ ثُمَّ فَرْفَرَا

كَانَتِ ٱلْخَيْلُ ٱلْبَرْبَرِيَّةُ تُهَلَّبُ أَذْنَابُهَا كَٱلْبِغَالِ لِتَدْخُلَ مَدَاخِلَهَا فِي خِدْمَةِ ٱلْبَرِيدِ وَلْيُعْلَمَ أَنَّهَا لِلْمَلِكِ. وَقَالَ ٱبْنُ مَيَّادَةَ فِي ٱبْنِ هُبَيْرَةَ لَمَّا كَانَ أَمِيرًا:

جَاءَتْ بِهِ مُعْتَجِرًا بِبُرْدِهِ سَفْوَاءَ تَرْدِي بِنَسِيجِ وَحْدِهِ
تَقْدَحُ قَيْسٌ كُلُّهَا بِزَنْدِهِ

اِلَّا اَنَّ مِنْهُمْ مَنْ خَالَفَ هٰذَا كُلَّهُ فَوَصَفَ اَنَّهُ قَصَدَ اَلْمَمْدُوحَ رَاجِلًا اِمَّا اِخْبَارًا بِالصِّدْقِ وَاِمَّا تَغَاطِيَ صَعْلَكَةٍ . قَالَ اَبُو نُوَاسٍ لِلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى :

اِلَيْكَ اَبَا اَلْعَبَّاسِ مِنْ بَيْنِ مَنْ مَشَى
عَلَيْهَا اَمْتَطَيْنَا اَلْخَضَرَمِيَّ اَلْمُلَسَّنَا
قَلَائِصُ لَمْ تَعْرِفْ خَبِيثًا عَلَى طَلًا
وَلَمْ تَدْرِ مَا قَرْعُ اَلْفَنِيقِ وَلَا اَلْهَنَا

فَذَكَرَ اَنَّ قَلَائِصَهُمُ اَلَّتِي اَمْتَطَوْا اِلَيْهِ مَشْدُودَةٌ بِالتِّعَالِ وَاَخْرَجَهُ كَمَا تَرَى مُخْرَجَ اَللُّغْزِ وَاَتْبَعَهُ اَبُو اَلطَّيِّبِ فَقَالَ :

لَا نَاقَتِي تَحْمِلُ اَلرَّدِيفَ وَلَا بِالسَّوْطِ يَوْمَ اَلرِّهَانِ اَجْهَدُهَا
شِرَاكُهَا كُورُهَا وَمِشْفَرُهَا زِمَامُهَا وَالشُّسُوعُ مِقْوَدُهَا

وَقَالَ كَرَّةً اُخْرَى فِي مِثْلِ ذٰلِكَ يَتَشَكَّى :

وَمَهْمَهٍ جُبْتُهُ عَلَى قَدَمِي تَعْجِزُ عَنْهُ اَلْعَرَامِسُ اَلذُّلُلُ

وَلَوْ شَاءَ قَائِلٌ اَنْ يَقُولَ فَاِنَّ اَبَا نُوَاسٍ لَمْ يُرِدْ مَا ذَهَبَ اِلَيْهِ اَبُو اَلطَّيِّبِ لٰكِنْ اَرَادَ اَنَّهُ مَعَهُ فِي بَلَدٍ وَاحِدٍ قَصَدَهُ فِي حَاجَتِهِ مُحْتَذِيًا نَعْلَيْهِ لَكَانَ اَظْهَرَ وَجْهًا مَا لَمْ يَكُنِ اَلْخَضَرَمِيُّ مِنَ اَلْجُلُودِ مَخْصُوصًا بِهِ اَلْمُسَافِرُ دُونَ اَلْحَاضِرِ . وَظَاهِرُ اَلْكَلَامِ اَنَّ مَقْصَدَ اَلشَّاعِرَيْنِ وَاحِدٌ . وَقَدْ ذَكَرَ اَبُو اَلطَّيِّبِ اَلْخَيْلَ فِي كَثِيرٍ مِنْ شِعْرِهِ

وَكَانَ يُؤْثِرُهَا عَلَى ٱلْإِبِلِ لِمَا يَقُومُ فِي نَفْسِهِ مِنَ ٱلتَّهَيُّبِ بِذِكْرِ ٱلْخَيْلِ وَتَعَاطِي ٱلشَّجَاعَةِ . فَقَالَ يَذْكُرُ قُدُومَهُ إِلَى مِصْرَ عَلَى خَوْفٍ مِنْ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

وَيَوْمٍ كَلَيْلِ ٱلْعَاشِقِينَ كَمَنْتُهُ
أُرَاقِبُ فِيهِ ٱلشَّمْسَ أَيَّانَ تَغْرُبُ
وَعَيْنِي إِلَى أُذْنِي أَعَزُّ كَأَنَّهُ
مِنَ ٱللَّيْلِ بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوْكَبُ

وَلَيْسَ مِنْ عَادَةِ بَلَدِنَا خَاصَّةً شَيْءٌ مِنْ هٰذَا كُلِّهِ إِلَّا مَا يُعَدُّ قِلَّةً فَٱلْوَاجِبُ ٱجْتِنَابُهُ إِلَّا مَا كَانَ مِنْهُ حَقِيقَةً لَاسِيَّمَا إِذَا كَانَ ٱلْمَادِحُ مِنْ سُكَّانِ بَلَدِ ٱلْمَمْدُوحِ يَرَاهُ فِي أَكْثَرِ أَوْقَاتِهِ فَمَا أَقْبَحَ ذِكْرَ ٱلنَّاقَةِ وَٱلْفَلَاةِ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَهْجُمُ عَلَى مَا يُرِيدُهُ مُكَافَحَةً وَذٰلِكَ عِنْدَهُمْ هُوَ ٱلْوَثْبُ وَٱلْبَتْرُ وَٱلْقَطْعُ وَٱلْكَسْعُ وَٱلِٱقْتِضَابُ كُلُّ ذٰلِكَ يُقَالُ وَٱلْقَصِيدَةُ إِذَا كَانَتْ عَلَى تِلْكَ ٱلْحَالِ بَتْرَاءَ كَٱلْخُطْبَةِ ٱلْبَتْرَاءِ وَٱلْقَطْعَاءِ وَهِيَ ٱلَّتِي لَا يُبْتَدَأُ فِيهَا بِحَمْدِ ٱللهِ عَلَى عَادَتِهِمْ فِي ٱلْخُطَبِ كَمَا قَالَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ « إِذَا كَانَ مَدْحٌ فَٱلنَّسِيبُ ٱلْمُقَدَّمُ » فَأَنْكَرُوا ٱلنَّسِيبَ وَزَعَمُوا أَنَّ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَ هٰذَا ٱلْبَابَ وَفَتَنَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى أَبُو نُوَاسٍ بِقَوْلِهِ « لَا تَبْكِ لَيْلَى وَلَا تَطْرَبْ إِلَى هِنْدِ » وَقَوْلِهِ عِنْدَ ٱلْحَانِيِّ فِيمَا رَوَى بَعْضُ أَشْيَاخِهِ أَفْضَلُ ٱبْتِدَاءٍ صَنَعَهُ شَاعِرٌ مِنَ ٱلْقُدَمَاءِ وَٱلْمُحْدَثِينَ :

اَعِرْ شِعْرَكَ ٱلْاَطْلَالَ وَٱلْمَنْزِلَ ٱلْقَفْرَا
فَقَدْ طَالَ مَا اِنْ رَابَهُ نَعْتُكَ ٱلْخَمْرَا
دَعَانِي اِلَى نَعْتِ ٱلطُّلُولِ مُسَلَّطٌ
يَضِيقُ ذِرَاعِي اَنْ اَرُدَّ لَهُ اَمْرَا
فَسَمْعًا اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَطَاعَةً
وَاِنْ كُنْتَ قَدْ جَشَّمْتَنِي مَرْكَبًا وَعْرَا

فَجَاءَ هُوَ بِاَنْ وَصَفَ ٱلْاَطْلَالَ وَٱلْقَفْرَ اِنَّمَا هُوَ مِنْ خَشْيَةِ ٱلْاِمَامِ وَاِلَّا فَهُوَ عِنْدَهُ فَرَاغٌ وَجَهْلٌ. وَاِنَّ فِي ٱللِّسَانِ وَكَثْرَةِ وُلُوعِهِ بِالشَّيْءِ لَشَاهِدًا عَدْلًا لَا تُرَدُّ شَهَادَتُهُ وَقَدْ قَالَ اَبُو تَمَّامٍ « لِسَانُ ٱلْمَرْءِ مَنْ خَدَمَ ٱلْفُؤَادَا » وَمِنْ عُيُوبِ هٰذَا ٱلْبَابِ اَنْ يَكُونَ ٱلنَّسِيبُ كَثِيرًا وَٱلْمَدِيحُ قَلِيلًا كَمَا يَصْنَعُ بَعْضُ اَهْلِ وَقْتِنَا

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ لَا يُجِيدُ اِلَّا ٱلِابْتِدَاءَ وَلَا يَتَكَلَّفُ لَهُ ثُمَّ يُجِيدُ بَاقِيَ ٱلْقَصِيدَةِ وَاَكْثَرُهُمْ فِعْلًا لِذٰلِكَ ٱلْبُحْتُرِيُّ كَانَ يَصْنَعُ ٱلِابْتِدَاءَ سَهْلًا وَيَأْتِي بِهِ عَفْوًا وَكُلَّمَا تَمَادَى قَوِيَ كَلَامُهُ وَلَهُ مِنْ جَيِّدِ ٱلِابْتِدَاآتِ كَثِيرٌ لِكَثْرَةِ شِعْرِهِ وَٱلْغَالِبُ عَلَيْهِ مَا قَدَّمْتُ غَيْرَ اَنَّ ٱلْقَاضِيَ ٱلْجُرْجَانِيَّ فَضَّلَ بِجُودَةِ ٱلِاسْتِهْلَالِ وَهُوَ ٱلِابْتِدَاءُ عَلَى اَبِي تَمَّامٍ وَاَبِي ٱلطَّيِّبِ وَقَدْ فَضَلَهُمَا بِٱلْخُرُوجِ وَٱلْخَاتِمَةِ وَلَسْتُ اَرَى لِذٰلِكَ وَجْهًا اِلَّا كَثْرَةَ شِعْرِهِ كَمَا قَدَّمْتُ فَاِنَّهُ لَوْ حَاسَبَهُمَا ٱبْتِدَاءً جَيِّدًا بِٱبْتِدَاءٍ لِاَرْبَى وَقَصَّرَا عَنْ عَدَدِهِ

وَاَمَّا ٱلْحَاتِمِيُّ فَاِنَّهُ يَغُضُّ مِنْ اَبِي عِبَادَةَ غَضًّا شَدِيدًا وَيَجُورُ

عَلَيْهِ جَوْرًا بَيِّنًا لَا يُقْبَلُ مِنْهُ وَلَا يُسَلَّمُ اِلَيْهِ . وَكَانَ اَبُو تَمَّامٍ فَخْمَ الْاِبْتِدَاءِ لَهُ رَوْعَةٌ وَعَلَيْهِ اُبَّهَةٌ كَقَوْلِهِ :

اَلْحَقُّ اَبْلَجُ وَالسُّيُوفُ عَوَارٍ فَحِذَارِ مِنْ اَسَدِ الْعَرِينِ حِذَارِ

وَقَوْلِهِ اَيْضًا :

اَلسَّيْفُ اَصْدَقُ اِنْبَاءً مِنَ الْكُتُبِ
فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

وَقَوْلِهِ « يَا رَبْعُ لَوْ رَبَعُوا عَلَى اَبْنِ هُمُومِ » وَالْغَالِبُ تَحْتَ اللَّفْظِ وَجَهَارَةُ الْاِبْتِدَاءِ

وَكَانَ اَبُو الْقَاسِمِ الْحَسَنُ بْنُ بِشْرٍ الْآمِدِيُّ يُفَضِّلُ اِبْتِدَاآتِ الْبُحْتُرِيِّ جِدًّا وَهُوَ الَّذِي وَضَعَ كِتَابَ الْمُوَازَنَةِ وَالتَّرْجِيحِ بَيْنَ الطَّائِيَّيْنِ وَنَوَّهَ فِيهِ بِالْبُحْتُرِيِّ اَعْظَمَ تَنْوِيهٍ وَمِنْ جَيِّدِ اِبْتِدَاآتِهِ قَوْلُهُ :

عَارَضْنَا اَصْلًا فَقُلْنَا الرَّبْرَبُ حَتَّى اَضَاءَ الْاُقْحُوَانُ الْاَشْنَبْ

وَقَوْلُهُ « ضَمَانٌ عَلَى عَيْنَيْكَ اَنِّي لَا اَسْلُو » وَقَوْلُهُ « نَرَى عِنْدَهُمْ عِلْمًا بِشَجْوِي وَاَدْمُعِي » فَاَمَّا الْخُرُوجُ فَهُوَ عِنْدَهُمْ شَبِيهٌ بِالْاِسْتِطْرَادِ وَلَيْسَ بِهِ لِاَنَّ الْخُرُوجَ اِنَّمَا هُوَ اَنْ تَخْرُجَ مِنْ نَسِيبٍ اِلَى مَدْحٍ اَوْ غَيْرِهِ بِلُطْفِ تَخَيُّلٍ ثُمَّ تَتَمَادَى فِيمَا خَرَجْتَ اِلَيْهِ كَقَوْلِ اَبِي عِبَادَةَ الْبُحْتُرِيِّ :

سُقِيتِ رُبَاكِ بِكُلِّ غَيْثٍ جَاعِلٍ مِنْ وَبْلِهِ حَقًّا لَهَا مَعْلُومَا
وَلَوَ اَنَّنِي اُعْطِيتُ فِيهِنَّ الْمُنَى لَسَقَيْتُهُنَّ بِكَفِّ اِبْرَاهِيمَا

وَاَكْثَرُ النَّاسِ اسْتِعْمَالًا لِهٰذَا اللَّفْنِ اَبُو الطَّيِّبِ فَاِنَّهُ مَا يَكَادُ يَشِذُّ عَنْهُ حَتَّى رُبَّمَا قَبُحَ سُقُوطُهُ فِيهِ نَحْوَ قَوْلِهِ:

هَا فَانْظُرِي اَوْ فَظُنِّي بِي تَرَيْ حُرَقًا
مَنْ لَمْ يَذُقْ طَرَفًا مِنْهَا فَقَدْ وَاَلَا

عَلَّ الْاَمِيرَ يَرَى ذُلِّي فَيَشْفَعَ لِي
اِلَى الَّتِي تَرَكَتْنِي فِي الْهَوَى مَثَلَا

فَقَدْ تَمَنَّى اَنْ يَكُونَ الْاَمِيرُ لَهُ قَوَّادًا وَلَيْسَ هٰذَا مِنْ قَوْلِ اَبِي نُوَاسٍ:

سَاَشْكُو اِلَى الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ هَوًى نَا لَعَلَّ الْفَضْلَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا

فِي شَيْءٍ. لِاَنَّ اَبَا نُوَاسٍ قَالَ: يَجْمَعُ بَيْنَنَا ثُمَّ اَتْبَعَ ذٰلِكَ ذِكْرَ الْمَاءِ وَالسَّحَابَةِ فَقَالَ:

اَمِيرٌ رَاَيْتُ الْمَالَ فِي نَقَمَاتِهِ ذَلِيلًا مَهِينَ النَّفْسِ بِالضَّيْمِ مُوقِنَا

وَكَاَنَّهُ اَشَارَ اِلَى اَنَّ جَمْعَهُ بَيْنَهُمَا بِالْمَالِ خَاصَّةً يَفْضُلُ عَلَيْهِ وَيُجْزِلُ عَطِيَّتَهُ فَيَتَزَوَّجُهَا اَوْ يَتَسَرَّاهَا. وَاَبُو الطَّيِّبِ قَالَ لِيَشْفَعَ وَالشَّفَاعَةُ رَغْبَةٌ وَسُؤَالٌ. ثُمَّ اَتْبَعَ بَيْتَهُ بِمَا هُوَ مُقَوٍّ لِمَعْنَاهُ فِي الْقِيَادَةِ فَقَالَ:

اَيَقَنْتُ اَنَّ سَعِيدًا طَالِبٌ بِدَمِي لَمَّا بَصُرْتُ بِهِ بِالرُّمْحِ مُعْتَقِلَا

فَدَلَّ عَلَى اَنَّهُ يَشْفَعُ فَاِنْ اُجِيبَ اِلَى مُسَاعَدَةِ اَبِي الطَّيِّبِ فَذَاكَ وَاِلَّا رَجَعَ اِلَى الْقَهْرِ وَالَّذِي يُشَاكِلُ قَوْلَ اَبِي نُوَاسٍ قَوْلُهُ:

اُحِبُّ الَّذِي فِي الْبَدْرِ مِنْهُ مَشَابِهٌ
وَاَشْكُو اِلَى مَنْ لَا يُصَابُ لَهُ شَكْلُ

فَلَفْظَةُ ٱلشَّكْوَى تُحْمَلُ عَنْهُ كَمَا حُمِلَتْ عَنْ اَبِي نُوَاسٍ

وَاَوْلَى ٱلشِّعْرِ بِاَنْ يُسَمَّى تَخَلُّصًا مَا تَخَلَّصَ فِيهِ ٱلشَّاعِرُ عَنْ مَعْنًى اِلَى مَعْنًى ثُمَّ عَادَ اِلَى ٱلْاَوَّلِ وَاَخَذَ فِي غَيْرِهِ ثُمَّ رَجَعَ اِلَى مَا كَانَ فِيهِ كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْيَانِيِّ آخِرَ نَسِيبِ قَصِيدَةٍ اَعْتَذَرَ بِهَا اِلَى ٱلنُّعْمَانِ :

فَكَفْكَفْتُ مِنِّي عَبْرَةً فَرَدَدْتُهَا
عَلَى ٱلنَّحْرِ مِنْهَا مُسْتَهِلٌّ وَدَامِعُ
عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ ٱلْمَشِيبَ عَلَى ٱلصِّبَى
وَقُلْتُ اَلَمَّا اَصْحُ وَٱلشَّيْبُ وَازِعُ

ثُمَّ تَخَلَّصَ اِلَى ٱلْاِعْتِذَارِ فَقَالَ :

وَلٰكِنَّ هَمًّا دُونَ ذٰلِكَ دَاخِلًا مَكَانَ ٱلشَّغَافِ تَبْتَغِيهِ ٱلْاَصَابِعُ
وَعِيدُ اَبِي قَابُوسَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ اَتَانِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَٱلضَّوَاجِعُ

ثُمَّ وَصَفَ حَالَهُ عِنْدَ مَا سَمِعَ مِنْهُ ذٰلِكَ فَقَالَ :

فَبِتُّ كَاَنِّي سَاوَرَتْنِي ضَئِيلَةٌ مِنَ ٱلرُّقْشِ فِي اَنْيَابِهَا ٱلسُّمُّ نَاقِعُ
يُسَهَّدُ مِنْ لَيْلِ ٱلتَّمَامِ سَلِيمُهَا لِحَلْيِ ٱلنِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاقِعُ

فَوَصَفَ ٱلْحَيَّةَ وَٱلسَّلِيمَ ٱلَّذِي شَبَّهَ نَفْسَهُ بِهِ مَا شَاءَ ثُمَّ تَخَلَّصَ مِنَ ٱلَّذِي كَانَ فِيهِ فَقَالَ :

اَتَانِي اَبَيْتَ ٱللَّعْنَ اَنَّكَ لُمْتَنِي وَتِلْكَ ٱلَّتِي تَسْتَكُّ مِنْهَا ٱلْمَسَامِعُ

ثُمَّ اَطَّرَدَ لَهُ ٱلْقَوْلُ مَا شَاءَ مِنْ تَخَلُّصٍ اِلَى تَخَلُّصٍ حَتَّى اَنْقَضَتِ ٱلْقَصِيدَةُ وَهُوَ مَا اَشَرْتُ اِلَيْهِ غَيْرُ خَافٍ اِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى . وَقَدْ

يَقَعُ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ شَيْءٌ يَعْتَرِضُ فِي وَسْطِ ٱلتَّشْبِيبِ مِنْ مَدْحِ مَنْ يُرِيدُ ٱلشَّاعِرُ مَدْحَهُ بِتِلْكَ ٱلْقَصِيدَةِ ثُمَّ يَعُودُ بَعْدَ ذٰلِكَ إِلَى مَا كَانَ فِيهِ مِنَ ٱلنَّسِيبِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى ٱلْمَدْحِ كَمَا فَعَلَ وَمِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ بِمَدْحِهِ ٱلَّذِي تَمَادَى فِيهِ مُنْقَطِعًا وَذٰلِكَ فِي وَسْطِ ٱلنَّسِيبِ مِنْ قَصِيدَةٍ :

لَا وَٱلَّذِي هُوَ عَالِمٌ أَنَّ ٱلنَّوَى
مُرٌّ وَأَنَّ أَبَا ٱلْحُسَيْنِ كَرِيمُ
مَا زُلْتُ عَنْ سَنَنِ ٱلْوَدَادِ وَلَا غَدَتْ
نَفْسِي عَلَى إِلْفٍ سِوَاكَ تَحُومُ

ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذٰلِكَ :

بِمُحَمَّدِ بْنِ ٱلْهَيْثَمِ بْنِ شَبَانَةٍ مَجْدٌ إِلَى جَنْبِ ٱلسِّمَاكِ مُقِيمُ

وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلِٱلْتِمَامَ. وَكَانَتِ ٱلْعَرَبُ لَا تَذْهَبُ هٰذِهِ ٱلْمَذَاهِبَ فِي ٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَدْحِ بَلْ يَقُولُونَ بَعْدَ فَرَاغِهِمْ مِنْ نَعْتِ ٱلْإِبِلِ وَذِكْرِ ٱلْقِفَارِ وَمَا هُمْ بِسَبِيلِهِ دَعْ ذَا وَعَدِّ عَنْ ذَا وَيَأْخُذُونَ فِيمَا يُرِيدُونَ أَوْ يَأْتُونَ بِإِنَّ ٱلْمُشَدَّدَةِ ٱبْتِدَاءً لِلْكَلَامِ ٱلَّذِي يَقْصِدُونَهُ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ خُرُوجُ ٱلشَّاعِرِ إِلَى ٱلْمَدْحِ مُتَّصِلًا بِمَا قَبْلَهُ وَلَا مُنْفَصِلًا بِقَوْلِهِ: دَعْ ذَا وَعَدِّ عَنْ ذَا وَنَحْوِ ذٰلِكَ سُمِّيَ طَفْرًا وَٱنْقِطَاعًا. وَكَانَ ٱلْبُحْتُرِيُّ كَثِيرًا مَا يَأْتِي بِهِ كَقَوْلِهِ:

لَوْلَا ٱلرَّجَاءُ لَمُتُّ مِنْ أَلَمِ ٱلْهَوَى لٰكِنَّ قَلْبِي بِٱلرَّجَاءِ مُوَكَّلُ
إِنَّ ٱلرَّعِيَّةَ لَمْ تَزَلْ فِي سِيرَةٍ مَحْمُودَةٍ مُذْ سَاسَهَا ٱلْمُتَوَكِّلُ

وربّما قالوا بعد صفة الناقة والمفازة الى فلان قصدت وحتى تزلت بفناء فلان وما شاكل ذلك . واما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة وآخر ما يبقى منها في الاسماع وسبيله ان يكون محكما لا يمكن الزيادة عليه ولا يأتي بعده احسن منه . واذا كان اول الشعر مفتاحا له وجب ان يكون آخره قفلا عليه . وقد ارتى ابو الطيب على كل شاعر في جودة هذه الابواب الثلاثة الا انه ربّما عقد اوائل الاشعار ثقة بنفسه واغرابا على الناس كقوله اول قصيدة :

وفاؤكما كالربع اشجاه طاسمه ... بان تسعدا والدمع اشفاه ساجمه

فان هذا يحتاج الاصمعي الى ان يفسر معناه . ويقع له في الخروج ما كان تركه اولى به واشعر له وانما ادخله فيه حب الاغراب في باب التوليد حتى جاء بالغث البارد والتشنيع المتكلف نحو قوله :

احبك او يقولوا جر نمل ... ثبيرا وابن ابرهيم ربيعا

فهذا من البشاعة ومن الشناعة بحيث لا يخفى على احد . وما اظنه سرق هذا المعنى الشريف الا من كذبة كان اوردها ابو العنبس الصيمري على لسان رجل فزعم انه قال : رايت رجلا نام فجره النمل ثلاثة فراسخ . وقد جعل ابو الطيب مكان الرجل جبلا وان علمنا الاغراب في مراده ولفظه . وقال ايضا :

اعز مكان في الدنا سرج سابح ... وخير جليس في الزمان كتاب

وَبَحْرُ أَبُو ٱلْمِسْكِ ٱلْخِضَمُّ ٱلَّذِي لَهُ عَلَى كُلِّ بَحْرٍ زَخْرَةٌ وَعُبَابُ

يُرِيدُ وَخَيْرُ بَحْرٍ أَبُو ٱلْمِسْكِ وَهٰذِهِ غَايَةُ ٱلتَّصَنُّعِ وَٱلتَّكَلُّفِ. وَمِنَ ٱلْعَرَبِ مَنْ يَخْتِمُ ٱلْقَصِيدَةَ فَيَقْطَعُهَا وَٱلنَّفْسُ بِهَا مُتَعَلِّقَةٌ وَفِيهَا رَاغِبَةٌ وَلَهَا مُشْتَهِيَةٌ وَيَبْقَى ٱلْكَلَامُ مَنْثُورًا كَأَنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ جَعْلَهُ خَاتِمَةً كُلُّ ذٰلِكَ رَغْبَةً فِي أَخْذِ ٱلْعَفْوِ أَلَا تَرَى مُعَلِّقَةَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ كَيْفَ خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ يَصِفُ ٱلسَّيْلَ عَنْ شِدَّةِ ٱلْمَطَرِ:

كَأَنَّ ٱلسِّبَاعَ فِيهِ غَرْقَى غُدَيَّةً بِأَرْجَائِهِ ٱلْقُصْوَى عَنَابِيشُ عُنْصُلِ

فَلَمْ يَفْعَلْ لَهَا قَاعِدَةً كَمَا فَعَلَ غَيْرُهُ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْمُعَلَّقَاتِ وَهِيَ أَفْضَلُهُنَّ. وَقَدْ كَرِهَ ٱلْحُذَّاقُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ خَتْمَ ٱلْقَصِيدَةِ بِٱلدُّعَاءِ لِأَنَّهُ مِنْ عَمَلِ ٱلضُّعَفِ إِلَّا لِلْمُلُوكِ فَإِنَّهُمْ يَشْتَهُونَ ذٰلِكَ كَمَا قَدَّمْتُ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ يَذْكُرُ ٱلْخَيْلَ لِسَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ فِي آخِرِ قَصِيدَةٍ لَهُ:

فَلَا هَجَمْتَ بِهَا إِلَّا عَلَى ظَفَرٍ وَلَا وَصَلْتَ بِهَا إِلَّا عَلَى أَمَلِ

فَإِنَّ هٰذَا يُشْبِهُ مَا ذُكِرَ عَنْ بَغِيضٍ كَانَ يُصَابِحُ ٱلْأَمِيرَ فَيَقُولُ «لَا صَبَّحَ ٱللّٰهُ ٱلْأَمِيرَ بِعَافِيَةٍ» وَيَسْكُتُ سَكْتَةً ثُمَّ يَقُولُ «إِلَّا وَمَسَّاهُ بِأَكْثَرَ مِنْهَا» وَيُمَاسِيهِ فَيَقُولُ «لَا مَسَّى ٱللّٰهُ ٱلْأَمِيرَ بِنِعْمَةٍ» ثُمَّ يَقُولُ «إِلَّا وَصَبَّحَهُ بِأَكْثَرَ مِنْهَا» وَنَحْوُ هٰذَا فَلَا يَدْعُو لَهُ حَتَّى يَدْعُوَ عَلَيْهِ وَمِثْلُ هٰذَا قَبِيحٌ لَاسِيَّمَا مِنْ مِثْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ

فهرس

المقالات

وجه

القسم الاول في علم الخطابة ١

الفصل الاول في تعريف الخطابة واقسامها ومنافعها ١

البحث الاوّل في تحديد الخطابة وما تشتمل عليهِ بوجه الاجمال ١

البحث الثاني في تعريف الخطابة وموضوعها ٣

البحث الثالث في المناسبة الموجودة بين الجدل والخطابة ٤

البحث الرابع في ان الخطابة تتحرّى للتصديق اكثر منها للتأثير ٥

البحث الخامس في فوائد علم الخطابة ٧

البحث السادس في ان الخطابة صناعة اصلها في طبع الانسان ١١

الفصل الثاني في بلاغة الخطيب ١٢

البحث الاول في تعريف البلاغة الجديرة بالخطيب ١٢

البحث الثاني في وسائل الاقناع التي يتخذها الخطيب البليغ ٢٥

الفصل الثالث في الاقاويل المقنعة ٢٨

البحث الاول في ان الخطيب لا بد لهُ للاقناع من معرفة القياس وعلم المنطق ٢٨

البحث الثاني في الطريق اي الدليل وتقسيمهِ ٣٠

البحث الثالث في المواضع ٣١

البحث الرابع في التعريف والحدّ والرسم ٣٣

البحث الخامس في الكلي والجزئي ٣٧

البحث السادس في الجنس والنوع ٣٩

البحث السابع في تعريف العلّة والمعلول ٤١

وجه

الفصل الرابع في آداب الخطابة ٤٢

البحث الاول في آداب كلام الخطيب ٤٢

البحث الثاني في خصال الخطيب ٤٦

البحث الثالث في طباع الناس على اختلاف اطوار الحياة ٤٩

البحث الرابع في سياسة الخطيب مع الجمهور ومواخاة طباعهم ٥٢

الفصل الخامس في الاخلاق والاهواء ٥٩

البحث الاول في تعريف الاخلاق ٥٩

البحث الثاني في الاخلاق الحسنة ٦٢

البحث الثالث في الاخلاق الرديئة ٦٩

البحث الرابع في بعض الاخلاق التي تكون في بعض الناس فضيلة وفي بعضهم رذيلة ٧٤

البحث الخامس في الارتياض بمكارم الاخلاق ٧٩

الفصل السادس في تنسيق الخطابة وبيان القضية والقياس ٨٩

وجه

البحث الاول في مبادىء الخطابة والافتتاحات ٨٩

البحث الثاني في القضية والقياس ٩٠

البحث الثالث في القياس واقسامهِ وانواعهِ ٩٢

البحث الرابع في ملحقات القياس ٩٥

البحث الخامس في القياسات المستعملة في الخطابة واخصها القياس الاضماري والتمثيل ٩٧

البحث السادس في مقدمات القياسات الخطبية ١٠٢

الفصل السابع في التفنيد ١٠٨

البحث الاول في المناظرة والجدال ١٠٨

البحث الثاني في آداب المناظرة ١١١

البحث الثالث في الجوابات على الخصم ١١٤

البحث الرابع في المغالطة ١١٥

البحث الخامس في مقاطيع الكلام ١١٩

الفصل الثامن في التعبير ١٢٤

وجه

البحث الاول في خواصّ تعبير الخطيب ١٢٤

البحث الثاني في بلاغة كلام العرب وكلام العجم ١٢٦

الفصل التاسع في اجناس الخطابة الثلاثة ١٣٧

البحث الاول في تقسيم الخطب الى ثلاثة اجناس ١٣٧

البحث الثاني في غايات الاجناس الخطبية الثلاثة وانواع مقدماتها ١٣٩

البحث الثالث في مقدمات الجنس المشوري ١٤٢

البحث الرابع في خمسة امور يدور عليها البحث في النوع المشوري وفي القياسات المختلفة بها ١٤٥

البحث الخامس في السبب الذي من اجلهِ يشير الخطيب وهو سعادة السامع وفي ماهية السعادة وانواع الخيور التي من مجموعها تتولد السعادة ١٥٠

البحث السادس في الفرق بين الخير والسعادة ١٦١

البحث السابع في اقسام الخير

وجه

والسعادة ١٦٢

البحث الثامن في انهُ ينبغي للخطيب المشير ان يعرف الاشياء النافعة وفي مقابلة الخير مع النافع ومقابلة الخيور مع بعضها ١٧٢

البحث التاسع في ايثار الخيور وفي شروط تفضيل بعضها على بعض والاسباب الموجبة لذلك ١٨١

البحث العاشر في ان الخطيب المشوري ينبغي ان يعرف اصناف السياسات وفي بيان اجناس هذه السياسات الاربعة ١٩٤

البحث الحادي عشر في ما ينبغي للخطيب ان يعرفهُ في النوع التثبيتي وفي الفصيلة والنقيصة والمدح والذم وتصرُّف الخطيب فيهما وفي انواع الامور الفاضلة والناقصة ١٩٨

الفصل العاشر في انواع الخطب ومن برع فيها ٢١١

البحث الاول في خطب التهاني ٢١١

البحث الثاني في خطب التقليد ٢١٢

البحث الثالث في الارتجال والبديهة واشارات الخطيب ٢١٤

وجه
البحث الرابع في خطب الوعاظة ٢١٦
البحث الخامس في غاية الوعظ ٢٢١
البحث السادس في فوائد الوعظ وحول كثيرين من الخطباء في هذا الفن ٢٢٣
البحث السابع في الخطب عند العرب ٢٣١
القسم الثاني في علم الشعر ٢٤٠
الفصل الاول في تعريف الشعر وانواعه وفوائده ٢٤٠
البحث الاول في تحديد الشعر ٢٤٠
البحث الثاني في صناعة الشعر وانواع الاشعار ٢٤٣
البحث الثالث في المديح والهجو ٢٤٧
البحث الرابع في العلل المولدة للشعر ٢٤٩
البحث الخامس في وزن الشعر ولحنه ٢٥٣
البحث السادس في صناعة المديح واجزائها ٢٥٨
البحث السابع في اجزاء صناعة المديح من جهة الكمية ٢٦٦
وجه
البحث الثامن في اسطقسات الاقاويل الشعرية ٢٨٤
البحث التاسع في صناعة الاشعار القصصية ٢٩٤
البحث العاشر في كيفية التخلص الى ما يراد محاكاته ٢٩٥
البحث الحادي عشر في انواع المحاكاة غير المقبولة ٢٩٦
الفصل الثاني في معرفة الشعراء ٣٠٠
البحث الاول في القدماء من الشعراء ٣٠٠
البحث الثاني في المقلّين من الشعراء ٣١٢
البحث الثالث في المعلّين من الشعراء ٣١٤
الفصل الثالث في فنون الشعر ٣٢١
البحث الاول في المطبوع والمصنوع ٣٢١
البحث الثاني في اقسام الشعر ٣٢٧
البحث الثالث في صناعة المديح ٣٢٩
البحث الرابع في الافتخار ٣٤٣
البحث الخامس في الرثاء ٣٤٧

	وجه
البحث السادس في الاقتضاء والاستنجاز	٣٥٤
البحث السابع في العتاب	٣٥٦
البحث الثامن في الوعيد والانذار	٣٦٢
البحث التاسع في الهجاء	٣٦٣
البحث العاشر في الاعتذار	٣٦٨
البحث الحادي عشر في سيرورة الشعر والحظوة في المدح	٣٧٢
البحث الثاني عشر في ما اشكل من المدح والهجاء	٣٧٦
البحث الثالث عشر في البديهة والارتجال	٣٨٠
البحث الرابع عشر في اداب الشعر	٣٨٥
البحث الخامس عشر في عمل الشعر وشحذ القريحة	٣٩٠
البحث السادس عشر في المقاطع والمطالع	٤٠١
البحث السابع عشر في المبتدا او الخروج والنهاية	٤٠٤

اصلاح غلط وقع في بعض النسخ

صفحة	سطر	خطاء	صواب
٢	٥	الجدلِ	الجدَلِ
٠	١٤	الحدْلِ	الجدَلِ
٤	١١	كالحالَ	كالحالِ
٠	١٤	كلُّ	كلَّ
٥	١٣	يُثبتُ	يُثبتَ
٢١	٠٤	استَبهَمَ الكَلَامَ	استُبْهِمَ الكلامُ
٣٦	١٩	يُقنعُ	يُقنعَ
٤٣	١١	من كتاب الدنيا	من كتاب ادب الدنيا
٤٤	١١	فانْ	فانَّ
٤٨	٠٤	نُ عَتَبَةَ بنُ	بنِ عَتَبَةَ بنِ
٠٠	٦و٧و٨	وَهُوَ	وَهْوَ
٥٤	١٧	جُلّها ودُقّها	جِلها ودِقها
٥٦	٠٨	الّتي	أمّا الّتي
٥٧	١٧	ألاكتراث	الإكتراث
٥٨	٠٨	يَعْلَمْ	يَعْلَمُ
٥٩	١٤	والتشرر	والتَّشَدُّدِ
٦٢	٠٧	والتَّقْصيرِ	والتَّقصيرُ
٠٠	٠٨	وقصدِ	وقصدُ
٦٣	٠٢	والسخيف	السَّخيف
٧٠	٠٢	والطَّيشِ	والطَّيشُ
٧١	٠٥	يستودعَ	يستودعُ
٨٣	٠٣	الحروب وفي مجالسَةِ	الحروب مجالسةِ
٨٦	٠٧	كثيرةٍ	كثيرةً
٩٠	٠٧	الشعبُ	الشعث
١٠٢	١٢	مقدمتِهِ	مقدَّمَتَيْهِ

صفحة	سطر	خطاء	صواب
١٠٦	٠٩	من فلانِ الملكَ	من فلانٍ الملكَ
١١٩	٠٥	اَلتَّكرارِ	والتكرار
١٢٢	٠٣	الفاظك	الفاظَك
١٢٤	٠٧	اَلسَّكوني	السَّكُوني
١٢٦	٠٣	من رسالة	من رسالة لابي هلال العسكريّ
١٢٨	٠٧	لِحاقِه	لَحاقِه
١٤٤	١٦	وَغَيْرُ ذَلكَ مِمَّا يَسْتَعْمِلَهُ	وغيرَ ..... يستعملُهُ
١٤٦	٠٤	وبالقصانِ	بالقصانِ
١٥٢	١٠	والحَسدانية	والحُسدانية
١٥٧	٠٣	والملاكرة	والملاكزة
٠٠٠	١٩	ويجاورهم	وبجاوزهم
١٦٠	٠٨	طلبُهُ	طلَبُهُ
١٦٦	٢٠	إنّها	أنّها
١٨٠	٠٤	يُسرُ	يُسرُ
١٨١	٠٢	ابثارِ	ايثار
١٨٣	١١	فالدّكرانُ	فالذُكران
١٨٤	١٢	واحدُ	واحَدُ
٢١١	١٤	والتبرّوءِ	والتبرُّوءِ
٢١٢	١١	اَلاحسنُ منها	اَلاَحسن فيها
٠٠٠	٠٠	وتعتبرَ	وتعتبرُ
٠٠٠	١٣	لَقْب	لَقَب
٠٠٠	١٤	المطَّلِعُ	المطْلَعُ
٢١٤	١١	واشتقاقا الارتجال والبديهة	الارتجال والبديهة
٠٠٠	١٧	بتقفيه	بتَقْفِيَةِ
٢١٥	٢٠	ابا دَاوُدَ	اَبَا دُوَّادٍ
٢١٦	٠٠	الخِطابَة	الخَطابَة
٠٠٠	٠٦	يومون	يرمون

صفحة	سطر	خطاء	صواب
٠٠٠	١٨	أَلفَت	أُلِفَتْ
٢١٧	٠٩	لتشميم	لَتَشميم
٢١٨	١٥	تَلكاً	تَلَكُّؤُه
٢٢١	٠٧	ضُرِبَ	ضَرَبَ
٢٢٢	١٥	دَوْدَ	ذَوْدَ
٢٢٤	٠١	والفوذ	والفوز
٢٣١	١٨	ومعانيهِ	بِمَعانيهِ
٢٣٣	٠٤	والذي	الذي
٢٣٦	١٥	ومِنْ	ومِمَّنِ
٠٠٠	١٦	باهلةٍ	باهلةَ
٢٣٨	٠٦	وذكرٍ	وذكر بعضهم
٠٠٠	٠٠	ثَمامَة	ثُمامَة
٢٤٧	٠١	البحث الثاني	البحث الثالث
٢٤٩	١١	البحث الثالث	البحث الرابع
٢٥٣	٠١	البحث الرابع	البحث الخامس
٢٥٨	٠١	البحث الخامس	البحث السادس
٢٦٦	٠١	البحث السادس	البحث السابع
٢٨٣	١٤	طاهرةً	ظاهرةً
٢٨٤	١٤	البحث السابع	البحث الثامن
٢٨٦	١٠	وطاهرٌ	وظاهرٌ
٠٠٠	١٠	المرحمة	المرخمة
٢٩٤	٠١	البحث الثامن	البحث التاسع
٢٩٥	١٣	البحث التاسع	البحث العاشر
٢٩٦	١٣	البحث العاشر	البحث الحادي عشر
٣٠٣	١٨	الضَّليلُ	الضِّلِّيلُ
٤٢٥	١٥	في المديح والهجو	في غاية صناعة الشعر

واما ما وقع فيهِ من سقوط نقطة او حركة ففي ظهور امرهِ غنى عن التنبيه البهِ